نصيحة المشاور
وتعزية المجاور

عبدالله بن محمد بن فرحون اليعمري (٦٩٣-٧٦٩هـ)

تحقيق

مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

دارة الملك عبدالعزيز

صدر هذا الكتاب بمناسبة
اختيار المدينة المنورة عاصمة
للثقافة الإسلامية
١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

مركز بحوث و دراسات المدينة المنورة
Al-Madinah Al-Munawwarah Research & Studies Center

ⓒ مركز بحوث ودراسات المدينة المنوَّرة، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اليعمري، عبدالله بن محمد

نصيحة المشاور وتعزية المجاور / عبدالله بن محمد اليعمري؛

مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة - المدينة المنورة، ١٤٣٤هـ

٥٤٨ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٠ - ٥ - ٩٠٤١٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - المسجد النبوي. ٢- المدينة المنورة - تاريخ. ٣- السيرة النبوية.

أ- مركز بحودث ودراسات المدينة المنورة (محقق). ب- العنوان.

ديوي: ٩٥٣,١٢٢ ١٤٣٤/ ٩٦٣٤

رقم الايداع: ٩٦٣٤/ ١٤٣٤

ردمك: ٠ - ٥ - ٩٠٤١٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وأفضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم على المبعوث رحمةً للعالَمين، سيِّدنا محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فإنّ العناية بتراث المدينة المنوَّرة المخطوط وتحقيقه ونشره أحدُ أهداف مركز بحوث ودراسات المدينة المنوَّرة، وكتاب «نصيحة المُشاور وتعزية المجاور» للمؤرِّخ بدر الدِّين ابن فرحون المتوفَّى سنة ٧٦٩هـ واحدٌ من المصادر المهمَّة في هٰذا التراث.

وقد توجَّهت عناية المركز لتحقيق هٰذا الكتاب ونشره؛ لما يحظى به من أهمية تكمُن في عدَّة أمور عامَّة وخاصَّة، أمَّا العامة:

- فالكتاب من المصادر المُهمَّة لتاريخ المدينة في القرن السادس الهجري.
- انفراده بذكر تراجم لأشخاص لم يذكُرهم غيرُه، عاصرهم والْتَقاهم.
- أسلوبه في سرد الأحداث والتراجم يختلف عن كلِّ من سبقه من مؤرِّخي المدينة.

وأمَّا على وجه الخصوص فقد امتاز الكتاب بعنايته بمرحلة حسَّاسة من تاريخ المدينة شهدت مُتغيِّرات كثيرة، وهٰذه المدَّة لم تحظَ بعناية المؤلِّفينَ، ومازال كثيرٌ من تفصيلاتها مجهولاً.

ويمتاز أيضاً بأنه تعرَّض لجوانب اجتماعية واقتصادية وثقافية وعلمية وعمرانية، فرصد المؤلف بأسلوبه البسيط كلَّ حادثة، ووصفَ التفصيلات الدَّقيقة للمسجد النبويِّ الشريف آنذاك، وللمدينة المنوَّرة بعمرانها، وتنوُّع سُكَّانها، وأنواع المآكل والمشارب والملابس، وعادات النَّاس وأعمالهم في احتفالاتهم ومناسباتهم، وما يجري بينهُم من خُصومات أو مشكلات اجتماعية.

كما تحدَّث عن فئات السُّكان والعلاقات فيما بينها، ثمَّ عرض بعض الاضطرابات والصِّراعات والتجاوزات التي حصلت في زمنه.

وممَّا يمتاز به الكتاب أيضاً: عنايتُه بترجمة مجموعةٍ كبيرة من العلماء في مختلف المجالات، مع ذِكر مؤلفاتهم ومشاركاتهم العلمية، وذكر مجموعة من المجاورين العُبَّاد.

وإجمالاً؛ فالكتاب صورةٌ لحال المجتمع المديني في تلك الفترة، بمختلف طبقاته وأطيافه ومذاهبه، وهو مجالٌ خصب لدراسة أحوال المدينة الاجتماعية والاقتصادية والسياسة في تلك الفترة.

ومن أسباب عناية المركز بتحقيق هٰذا الكتاب ونشره أيضاً: أنّ طبعات الكتاب المتعدِّدة لم تصل إلى المستوى العلمي المطلوب في التحقيق والدِّراسة والفهرسة، فقام المركز بجمع المخطوطات المتوافرة للكتاب، وقابلها مقابلةً علميَّة، ثمَّ اعتنى بتوثيق المادة العلمية ودراستها وفق الأصول المتَّبعة في مناهج التحقيق، وقد قام بهٰذا العمل مشكوراً كلّ من: الدكتور صلاح الدين

شكر، والدكتور مصطفى عمار منلا، والأستاذين مهدي السيد، وياسر فاروق الفقي.

وقامت دارة الملك عبدالعزيز بالمراجعة والفهارس العلمية، وإعداد الكتاب للنشر.

وراجع الكتاب وعلق عليه كلّ من الأستاذين الفاضلين: سعادة الدكتور عبدالعزيز بن عبدالله السلومي، وسعادة الدكتور عاصم بن عبدالله القريوتي، فلهما جزيل الشكر والتقدير، وجزاهما الله خيراً.

ولا يفوت المركز أن يشكر الأستاذين الكريمين: محمد عمر الكاف، وأحمد مسعود بزيو؛ لعنايتهما بالصياغة.

نسأل المولى - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أن يجعله من العلم النافع يوم الدِّين، وهو الموفِّق والهادي إلى سواء السَّبيل.

مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المحتويات

ترجمة المؤلف[1]

اسمه وكنيته ولقبه ونسبته:

هو عبدُالله بنُ محمَّد بنِ أبي القاسم فَرحون بنِ محمَّد بنِ فَرحون، البدرُ، أبو محمَّدٍ ابنُ أبي عبدِالله ابنِ أبي الفضلِ اليَعمرِيُّ، الأُبَّدي، الجَيّانيُّ، المدنيُّ المالكيُّ.

فاليعمري: نسبة إلى يَعْمَر بن مالك بن بُهثة بن حرب بن وهب بن جلي ابن أحمس بن ضبيعة بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان[2].

والأُبَّدي: بضمِّ الهمزة، وتشديد الباء الموحَّدة، وبعدها دال مُهمَلة، نسبة إلى أُبَّدة: مدينة بالأندلس، من كورة جيَّان[3].

وجَيَّان: بفتح الجيم، وتشديد الياء. مدينةٌ من أشهر مُدن الأندلس، تقع شرق قُرطبة على نهر الوادي الكبير[4].

---

(١) انظر: «الديباج المُذهب في معرفة أعيان المَذهب» ص١٤٤، «المغانم المطابة في معالم طابة» للفيروزآبادي ٣/ ١٢٥٠، «ذيل التقييد» ٢/ ٤٥٦، «الدرر الكامنة» لابن حجر ٣/ ٨٤، «السلوك» للمقريزي ٣/ ١/ ١٦٦، «التحفة اللطيفة» للسخاوي ٤/ ١٢٠.

(٢) انظر: «جمهرة أنساب العرب» ص ١٦٣.

(٣) انظر: «اللباب في تهذيب الأنساب» ١/ ٢٣.

(٤) انظر: «معجم البلدان» ٢/ ١٩٥. وتقع اليوم في إسبانيا.

مولده:

وُلِدَ في يوم الثلاثاءِ سادسِ جُمادى الآخرةِ، سنةَ ٦٩٣هـ بالمدينة الشريفة لأبوين صالحين كريمين، وكان أكبر إخوته، ووالده أبو الفضل محمد بن فرحون، من العلماء المشاركين في الفقه والأصول والعربية، طلب العلم بتونس، ثم حج وانقطع للمجاورة بالمدينة الشريفة، وكان هو وولده المؤلِّف سبباً في ظهور مذهب المالكية بالمدينة، وتوفي بها سنة ٧٢١هـ[١].

وأمُّهُ: الشَّريفةُ ابنةُ عبدِالواحدِ الحُسينيِّ من الصالحات العابدات.

نشأته العلمية وشيوخه:

أخذ علم الفقه والعربية عن والده.

وقرأ القرآن وجوَّده على الشيخ أبي عبدالله القَصْرِيِّ[٢].

وأخذ عن أبي الغَمْرِ الطَّنْجِيِّ المغربيِّ[٣]، الفرائِضَ والحِسَابَ، واختصَّ بهِ ولازمهُ بالمدِينَةِ، ثُمَّ بمكَّةَ حتَّى ماتَ.

وسمع الحديثَ بالمدينةِ على والدِهِ، وأبي عبدِالله محمَّدِ بنِ حُرَيْثٍ

---

(١) ستأتي ترجمته مفصلة في آخر الكتاب، ص: ٤١٥.

(٢) أبو عبدالله القصري، محمد بن غصن الأنصاري، عالم زمانه بالقراءات، كان مشهوراً بالصلاح والولاية، توفي سنة ٧٢٣هـ. «التحفة اللطيفة» ٦/ ٤٢٥.

(٣) السائب بن عبدالله بن السائب: القاضي، أبو الغمر الأنصاري الخزرجي الطنجي، توفي في رمضان سنة ٧١٨هـ. «العقد الثمين» ٤/ ٥٠٣، «التحفة اللطيفة» ٣/ ٢٨١.

البَلَنْسِي[١]، وعلى العزِّ يوسفَ الزَّرَنْدِيِّ[٢]، والجمالِ محمَّدِ بنِ أحمدَ المطريِّ[٣]، والشَّرفِ الزُّبَيْرِ الأُسْوَانيِّ[٤]، والسِّراجِ الدَّمنهوريِّ[٥]، وأبي عبدِالله بنِ جابرٍ الوادي آشي[٦]، والقُطبِ ابن مكرَّمٍ المصريِّ[٧]، والزَّينِ الطَّبريِّ[٨].

وبمَكَّةَ من: الرَّضيِّ الطبري[٩]، وغيرِه.

---

(١) محمد بن محمد بن علي بن حُريث، العبدريُّ، البلنسيُّ، السبتيُّ، من علماء الحديث، كان خطيباً بسبتة، ثمَّ حجَّ وجاور بمكة، ومات فيها سنة ٧٢٢ هـ. «الوافي» ١/ ٢٣٢، «الدرر الكامنة»٤/ ١٩٩، «التحفة اللطيفة» ٦/ ١٢٢.

(٢) عزُّ الدِّينِ، أبو المظفَّر يوسفُ بنِ الحسن الأنصاريُّ، الزَّرَنْدِيُّ، توفي سنة ٧١٢هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ٤٥٣.

(٣) محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الأنصاري: الخزرجي العبادي الساعدي المطري - نسبة للمطرية، أحد أحياء القاهرة - لكون مولده بها، ثم المدني، له «التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة». وانظر: «الدرر الكامنة» ٣/ ٣١٥، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٥٣٨.

(٤) الزبير بن علي سيد الكل الأسواني أبو عبدالله المصري، ولد سنة ٦٦٠هـ، وكان خيراً صالحاً متصدراً للإقراء، توفي سنة ٧٤٨هـ. «الدرر الكامنة» ٢/ ١١٣. «التحفة اللطيفة» ٣/ ٨.

(٥) القاضي سراج الدِّينِ الدمنهوري: عمر بن أحمد بن الخضر بن أبي الفتوح الأنصاري المصري الخطيب الفقيه الشافعي، أول خطباء أهل السنة بعد زوال الدولة الفاطمية، توفي سنة ٧٢٦هـ. «الدرر الكامنة» ٣/ ١٤٩ـ١٥٠، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٢٦٧.

(٦) محمد بن علي بن جابر، أبو عبدالله الوادي آشي صاحب «برنامج الوادي آشي»، توفي بتونس سنة ٧٥٠هـ. «معجم الشيوخ» للذهبي ٢/ ١٨٠، «الدرر الكامنة» ٣/ ٤١٣.

(٧) قطبُ الدِّين، محمَّدُ بنُ محمَّدٍ الأنصاريُّ، توفي سنة ٧٥٢هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ٢٣٩.

(٨) زينُ الدِّين أحمدُ بن محمَّدٍ، أبو الطاهر الطبريُّ، ولد سنة ٦٩٣، وتوفي سنة ٧٤٢هـ. «الدرر الكامنة» ١/ ٢٤٣.

(٩) إبراهيمُ بنُ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ، أبو أحمد، أبو إسحاقُ، رضيُّ الدِّينُ الطبريُّ، المكيُّ، توفي سنة ٧٢٢هـ. «العقد الثمين» ٣/ ٢٤٠.

وخرَّج له الشمس ابن سُكَّر المصري[١] نزيلُ مكَّةَ، «مشيخة» كبيرة حَفِيلَة مشتملةً على شيوخِه ومرويَّاتِه.

تلاميذه:

انفردَ - رحمهُ الله تعالى - في آخر عُمرِه بعلوِّ الإسناد، فلم يكنْ بالمدينةِ أعلى إسناداً منه. فمِمَّن أخذ عنهُ: الزَّينُ عبدالرحْمن بنُ صالح المَدَنِيُّ[٢]، والمسنِدُ أبو الفرج عبدالرحْمن بنُ عمرَ بنِ عبدالرَّحْمن المقدسيُّ[٣]، والزَّينُ أبو بكرٍ المَرَاغِيُّ[٤]، وغيرهم.

صفاته وأخلاقه:

كان جُلّ اشتغالِه بالقرآنِ والحديثِ والفقهِ، وملازمةِ الحرم النَّبويِّ، وقد أمَّ في المحراب النَّبويِّ في بعضِ الصَّلوات، ودُعيَ إلى أن يقومَ للإمامة والخَطابة نائباً، فامتنعَ إعظاماً للمقامِ النَّبويِّ.

واظب على الصفِّ الأوَّلِ من الرَّوضةِ النَّبويَّةِ نحوَ ستِّينَ سنة، وما يُفتحُ بابُ الحرم في السَّحرِ إلّا وهو على البابِ، وكانَ كثيرَ التِّلاوةِ ليلاً ونهاراً، خُصوصاً في أواخِرِ عمرِهِ. قال في «الديباج»[٥]: حتَّى إنِّي شاهدتُهُ

(١) محمَّدُ بنُ عليِّ بن محمَّدٍ المصريُّ، توفي سنة ٨٠١هـ. «الضوء اللامع» ٩/ ١٩.

(٢) انظر: «التحفة اللطيفة» ٤/ ٢٥٣.

(٣) المعروف بالقِبابي، الحنبليُّ، ووفاته سنة ٨٣٨ هـ. «الضوء اللامع» ٤/ ١١٣.

(٤) زين الدين أبوبكر بن الحسين المراغي، ولي قضاء المدينة وخطابتها وإمامتها، وله كتاب «تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة» مطبوع، توفي سنة ٨٩٥هـ. «الضوء اللامع» ١١/ ٢٨.

(٥) ص ١٤٤.

في أيامِ الموسمِ والنَّاسُ في أشدِّ ما هم فيهِ منَ الاشتِغالِ مشغُولاً بوردِهِ في التِّلاوة، لا يقطعُهُ عنه شيءٌ.

وكان كثير قيام الليل، يُحيي غالباً الثُّلثَ الأخِير من اللَّيلِ بالصلاةِ والتِّلاوةِ، من حداثَةِ سنِّهِ إلى أن ثَقُل بمرضِ الموتِ.

وحَجَّ نحوَ خمسٍ وخمسين حجةً، ولم يخرُجْ منَ المدينةِ إلى مكَّةَ إلَّا للحجِّ حتَّى مات، وقالَ في آخرِ حجَّاتِهِ: هٰذه حجَّةُ الوداع.

وكان من العلماء الأثرياء في زمانه، من أعظمِ أهلِ المدينةِ يساراً، وأكثرِهِم عَقاراً، ومن أهم أعيانها ووجهائها، نافذ الكلمة، مُقدَّراً محترماً.

ومع ذٰلك فهو من أليَنِ الناس عَريكةً، وأحسَنِهم بشاشَةً وبِشراً، صبوراً على الأذى، يَجزِي بالسَّيئةِ الحسنةَ، ويسعُ النَّاسَ بخُلُقه، مواسياً للفقراء والضعفاء.

أعماله وجهوده:

تولى نيابة الحُكم عنِ التَّقِيِّ عبدالرحمٰن بنِ عبدِالمؤمنِ الهُورِيني(١)، والبدرِ حسنِ بنِ أحمدَ القَيْسِيِّ(٢)، ثُمَّ استقلَّ بقضاءِ المالكيةِ في سنةِ ٧٥٦هـ إلى أن توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) ستأتي ترجمته في الكتاب في فصل القضاة.

(٢) ستأتي ترجمته في الكتاب في فصل القضاة.

وتولى وظيفة تدريس الفقه المالكي في درسِ أبي الحسنِ المَرِيني[١] صاحبِ المغربِ، والتدريسِ في المدرسةِ الشِّهابيةِ[٢] مدَّة تنيف على الخمسين سنة، تخرَّجَ عليه فيها الكثير من التلاميذ، وكانَ صبوراً على الإسماع والاشتغال.

واستطاع بجهوده وحسن سياسته عزْلَ قُضاة المدينة من الطائفة الإمامية عن القضاء بعد أن كانت السُّلطة في القضاء لهم، فانكسرت شوكتُهم، ونودِيَ في شوارعِ المدينةِ بإبطال أحكامِهِمْ، والإعراضِ عن حُكَّامِهِم.

وكانَ ذٰلك من أسبابِ قوَّة أهلِ السُّنَّة في المدينة بعد ضعفٍ شديد، وعُلُوِّ أمرهِم بعد تسلط الإمامية عليهم.

فكان كهفاً لأهلِ السُّنَّةِ، يذبُّ عنهُم، ويناضِلُ الأمراءَ والأشرافَ، وانتهى الأمر بذٰلك إلى أن حاولوا اغتياله سنة ٧٦٣هـ ، فرُصِدَ في السَّحَر وهو متوجِّه إلى صلاة الفجر بالمسجد النبويِّ الشريف، فطعنه أحدُهم طعنةً في ظهره ليقتله، فوقع على الأرض وظنَّ أنه قد مات، ولٰكن الله حماهُ من ذٰلك.

(١) عليُّ بنُ عثمانَ، سلطانُ مرَّاكش وفاس، كانَ فقيهاً عادلاً شجاعاً، نشَرَ العدلَ، وأبطَلَ المكوس، توفي سنة ٧٥٢ هـ. «الدرر الكامنة» ٣/ ٨٥.

(٢) المدرسة الشهابية كانت تدرس فيها المذاهب الأربعة، وقفها لذٰلك المظفر شهاب الدِّينِ غازي أخي نور الدِّينِ الشهيد، وتقع في دار أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مقابل المسجد النبوي من الناحية الجنوبية الشرقية. انظر: «وفاء الوفا» ١/ ٤٥٥.

منزلته العلمية وثناء العلماء عليه:

كانَ من فقهاء المالكية المتضلِّعين في علوم العربية والتفسير، وفقهِ الحديثِ ومعانِيه. قال في «الدِّيباج»[١]: كان من أكابر الأئمة الأعلام، ومصابيح الظلام، عالماً بالفقه والتفسير وفقه الحديث ومعانيه، وسمعتُهُ يقولُ: لزمتُ «تفسيرَ ابنِ عطية» حتى كدتُ أحفظُهُ.

أمَّا في علوم العربيَّةِ فتصانيفُهُ فيها شاهدةٌ له بذٰلك، ولمَّا لقيَهُ أبو حَيَّان الأندلسيُّ[٢] ووقفَ على كلامِهِ في إعرابِ «بانت سعاد»[٣] قالَ: ما ظَنَنْتُ أنه يوجد بالحجاز مثلُهُ، واستعظمَ علمَه وأثنى عليهِ. وكانت مشاركته في أصول الدين مشاركةً حسنةً، وحدَّث ودرَّس وأفاد، وإليه انتهت الرِّياسة بالمدينة النبوية.

وكان لنشاطه في تدريس المذهب المالكي بالمدينة سبب في ظهوره وانتشاره بعد أن ضعف فترة من الزمن، ويقول في ذٰلك: وكان لي في ظهورِ مذهبِ مالكٍ ونشرِهِ بِالمدينةِ عَمَلٌ عَظِيمٌ، أرجُو به مِنَ الله تَعَالى الثوابَ الجسيمَ والنَّعيمَ المقيمَ، فإنَّهُ لم يكُنْ لهُ ظُهورٌ مِن قَبْلِ ذٰلك بسنين[٤].

---

(١) ص: ١٤٤.

(٢) محمَّدُ بنُ يوسفَ بنِ عليٍّ، أثيرُ الدِّين، أبو حيَّانَ، النحويُّ، الأندلسيُّ، عالم بالقراءات، والعربية، والتفسير، له: «البحر المحيط»، توفي سنة ٧٤٥هـ، «الدرر الكامنة» ٤/ ٣٠٢.

(٣) وهي قصيدة أنشدها كعب بن زُهَيْر عند النبي ﷺ، ورد ذٰلك في حديثٍ أخرجه البيهقي في «سننه» ١٠/ ٢٤٣.

(٤) انظر ص: ١٥٠.

أثنى عليه الفيروزآبادي[١] ثناءً عاطراً فقال: أوَّلُ مَن رأيتُهُ ووقَعَ نظرِي عليهِ من أهلِ العلم بالحرم الشَّريفِ، وذٰلك في حَوالي الخمسينَ والسَّبعِمئة، فشاهدتُ منهُ طَوْدَ وَقَارٍ، وعَيْلَمَ[٢] علمٍ لا يهتدِي إلى تيَّار مائه اختفار[٣]، وغزارةَ فضلٍ، للنَّاسِ إلى قَرْيِ[٤] مرايا[٥] مَرْيِه افتقارٌ، ووقارٌ وحشمةٌ ورياسةٌ وأدبٌ دون نصيفِ مُدِّها الأحمالُ والأوقارُ. نابَ في الحكمِ سنينَ عديدةً وعتيدةً[٦]، عوارِفُه[٧] لجميع النَّاسِ عَبيدة[٨]. إليهِ يشارُ في حفظِ الأواصِرِ، وعليهِ بادئ بَدءٍ تُعقد الخناصرُ، ويغضبُ لدينِ الله ونصرِه حيثُ لا مُعِينٌ ولا ناصرٌ، طنَّ بذكرهِ البلادُ من اليمنِ إلى العراقِ، ومِنْ أمِّ خَنُّور[٩] إلى خُنَاصِر[١٠]، وحنَّ إلى لُقي ما شاع عنهُ منْ غزارةِ الفضلِ وطِيبِ العناصر. وأنشدَ لهُ قصيدةً طويلةً، وعقَّبها بأنَّه أعقبَ أولاداً أحيوا ذِكْرَه بالمآثرِ، ورفعُوا لأقداحِهم منابرَ المفاخِرِ، وتولَّى كبيرُهم الحكمَ استقلالاً، وباشرَه مباشرةً قالَ لها لسانُ الزمان: هٰكذا هٰكذا، وإلا فلا لا.

وأثنى عليه المقريزي[١١] فقال: «فَقِيه المالِكِيَّة بِالمدينَة النَّبوِيَّة».

---

(١) «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٥٠.

(٢) العَيْلَمُ: البَحْرُ. «لسان العرب»: علم.

(٣) الاختفار: من الخَفْر، وهو المنع، يقال: خفره: أجاره ومنعه. القاموس(خفر) ص: ٣٨٦.

(٤) القري: مصدر من قرى الماء في الحوض قرياً إذا جمعه. القاموس (قرى) ص: ١٣٢٣.

(٥) المرايا: العروق التي تمتلىء وتدرّ باللبن. «القاموس المحيط»: مرا.

(٦) العتيدة: المهيأة المعدّة. «لسان العرب»: عتد.

(٧) والعوارفُ: جمعُ عارفةٍ، وهي المعروف والإحسان.

(٨) أي: معبّدة مذلّلة.

(٩) اسمٌ للبصرة ومصر. «معجم البلدان» ١/ ٢٥١.

(١٠) موضعٌ بالشَّام. «معجم ما استعجم» ٢/ ٥١١.

(١١) في كتابه «السلوك» وفيات سنة: ٧٦٩هـ.

مؤلفاته:

١- «الدُّر المُخَلَّص من التَّقَصِّي والمُلخِّص»، جمعَ فيه بين أحاديثِ الكتابينِ[(١)].

٢- «كشف المُغَطَّا في شرح مختصر المُوَطَّا»: وهو شرح الكتاب الذي قبله، قال في «الدِّيباج»: وهو شرحٌ عظيمٌ.

٣- «شرح مختصر التفريع»[(٢)] لابن الجَلاَّب[(٣)]، سمَّاهُ «كفاية الطلاب في شرح مختصر الجلاَّب».

٤- «شرح قواعد الإعراب» لابن هشام.

٥- «نهاية الغاية في شرح الآية» أسئلة وأجوبة على آياتٍ من القرآنِ.

٦- «العُدَّة في إعراب العُمْدَة» يعني: «عمدة الحديث»[(٤)]. قال في «الديباج»[(٥)]: جمعَ فيه وجوهَ الإعرابِ واللُّغةِ والاشتقاقات، وسلكَ فيه مَسلكاً غريباً لم يُسبقْ إلى مِثله، وهو من آخرِ ما أَلَّف، وقُرِئَ عليه مراراً.

---

(١) الكتاب الأول هو «التَّقَصِّي لحديث مالك» لابن عبدالبَرِّ، جمع فيه ما في «الموطأ» من الأحاديث المرفوعة موصولةً كانت أو منقطعة، مرتبة على شيوخ مالك. «الرسالة المستطرفة» ص١٥.
والكتاب مطبوع في مكتبة القدسي بالقاهرة، سنة ١٣٥٠ هـ.
وأما الثاني فهو «المُلَخِّص» - بكسر الخاء - لأبي الحسن عليِّ بنِ محمَّدٍ القابسي، المتوفى سنة ٤٠٣هـ، جمع فيه ما اتصل إسناده من حديث مالك بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب «الموطأ» رواية أبي عبدالله عبدالرحمن بن القاسم المصري. انظر «وفيات الأعيان» ٣/ ٣٢٠.
وكتاب الملخص مطبوع بدار الكتب العلمية سنة ٢٠٠٨م.

(٢) كتاب في الفقه المالكي، مطبوع بدار الغرب سنة ١٤٠٨هـ.

(٣) اسمه عبدالرحمن بنُ عبيدِالله، وقيل غير ذلك، توفي سنة ٣٧٨هـ. «ترتيب المدارك» ٢/ ٦٠٥.

(٤) «عمدة الأحكام» للحافظ عبدالغني المقدسي، مطبوع.

(٥) ص١٤٥.

٧- «التيسير في عِلْمَي البناء والتغيير» في النحو والصرف.

٨- «المسالك الجَلِيَّة في الفوائد العربية».

٩- «شفاء الفؤاد في إعرابِ بانت سُعاد».

١٠- «نصيحة المشاور وتعزية المجاور»، وهو آخر كتبه تأليفاً.

قال في «الديباج»: وكتبهُ كلُّها في غايةِ الجَودةِ والإتقانِ.

وفاته:

عندما أحسَّ بالمرضِ أمرَ بحفرِ قَبرِهِ، وتصدَّق بعدة صدقات، منها: فُرْنٌ تُصرفُ غَلَّتُه للفقراء كلَّ يومٍ، وأعتقَ في حياتِه عدَّةَ عبيدٍ وإماءٍ، ووقف أحدَ عبيده على المسجد النبوي لخدمته.

وفي ساعة احتضاره حضر ابنُ أخيه صاحب «الدِّيباج» عنده، وقال: كان مُطمئِنَّ النَّفسِ بلقاءِ الله عَزَّوَجَلَّ، مُستحضراً لما ينبغي استحضارهُ، ولمَّا دخلَ في السِّياقِ ذكَّرْتُه، فقالَ: ما أنا غافلٌ. وشبِيهُ هٰذا الجوابِ ما وَقعَ للتَّاجِ الفاكهاني[1] حين تشهَّدَ صِهرُه الفقيه ميمونُ بحضرتِهِ، فإنَّه فَتحَ عينيهِ وأنشدَ:

وغَدَا يُذكِّرني عُهوداً بالحِمى ... ومتى نسيتُ العهدَ حتَّى أُذكَّـرا؟

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ٧٦٩هـ، ودُفن بالبقيع.

---

(١) عمرُ بنُ عليِّ بنِ سالم اللخميُّ، الإسكندرانيُّ، المالكيُّ، توفي سنة ٧٣١هـ. «ذيل التقييد» ٢/ ٢٤٧.

دراسة الكتاب

أ- عنوان الكتاب:

لم يذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - اسم الكتاب في مقدمة كتابه ولا في آخره، ولكن أشار إليه في آخر الكتاب بقوله:

«قد انتهى ما أَرَدْتُ إيرادَهُ عِظَةً لمن اتَّعظَ ودانَ، وتَسْلِيَةً لمن يُظْلَمُ ويُهانُ، وتَعْزِيَةً لمَنْ لم يُعزِّهِ الحَدَثانِ».

وقد أوردَتْ النسخ الخطية عنوان الكتاب على النحو التالي:

- نسخة دار الكتب المصرية، وهي النسخة الأم: «**نصيحة المشاور وتسلية المجاور**».

- نسخة مكتبة آل هاشم: «**نصيحة المشاور وتعزية المجاور**».

- نسخة مكتبة عارف حكمت: «**نصيحة المشاور وتعزية المجاور**».

- نسخة مكتبة الحرم المكي: «**نصيحة المشاور وتقوية المجاور**».

وقد اخترنا ما ورد في أكثر النسخ عنواناً للكتاب، وممَّا يرجِّح هٰذا الاختيار ما ذكره المؤلف في آخِر الكتاب كما سبق نقلُه قريباً.

والغريب أنّ غالب من ينقل عنه من أصحاب المصنفات لا يذكر اسم

الكتاب، مثل ابن حجر في «الدرر الكامنة»، والسمهودي في «وفاء الوفا»، بل إن بعضهم لا يذكر اسم المؤلف أيضاً، مثل: المجد الفيروزآبادي في «المغانم المطابة» فقد نقل عنه أكثر من ستة مواضع بنصه ولكنه يقول: «وقال آخرون»، أو «قال بعضهم».

٢- توثيق نسبة الكتاب إلى المؤلف:

١- نسبهُ إليه السَّخاوي في «التحفة اللطيفة» (٤/ ١٢١)، وفي «الضوء اللامع» (٣/ ٢٦١)، والحطاب في «مواهب الجليل» (٥/ ١٥٩)، ومحمد كبريت الحسيني في «الجواهر الثمينة» (ص ٦١١)، وعبدالرحمٰن الأنصاري في كتابه «تحفة المحبِّين» (ص ١٤).

٢- نقل عنه الفيروزآبادي في «المغانم المطابة» (٢/ ٦١٦، ٣/ ١١٦٦، ١١٦٩، ١٢٠٦، ١٢٤٤، ١٢٩٣، ١٣١٥) ولم يذكر اسمه ولا مؤلفه، وابن حجر في«الدرر الكامنة» (١/ ٨٢، ٩٠، ٢/ ٢٣٠، ٣١٥، ٣/ ١٦١، ٢٦٦، ٤/ ٢٧١، ٥/ ١٤٩، ٦/ ٥٠)، ونقل عنه السخاوي كثيراً في «التحفة اللطيفة» في أكثر من مئتي موضع، والسمهودي في «وفاء الوفا» (١/ ٢٨٤، ٢/ ٩٤، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ٢٧٨، ٢٨١، ٣٧٤، ٣٩٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٤، ٤٧٥، ٣/ ١٠٧، ١١١، ١٢٤، ٣٤٨، ٤٠١، ٤/ ٣٢٦، ٥/ ١٢٩)، والحطاب في «مواهب الجليل» (٥/ ١٥٩)، ومحمد كبريت الحسيني في «الجواهر الثمينة» (ص ٦١١)، وعبدالرحمٰن الأنصاري في كتابه «تحفة المحبِّين» (ص ٥٥، ٥٧، ١٧٣).

٣- سبب تأليف الكتاب:

ألف ابن فرحون كتابه هٰذا ردًّا على من حرَّم اتِّخاذ العلماء والقُضاة موضعاً في المسجد يختصُّون به، فبدأ كتابه بالإنكار على من منع ذٰلك، واستشهد بالأحاديث النبويَّة وأقوال العلماء في إجازة ذٰلك.

٤- مكانة الكتاب العلمية:

تكمُن أهمية الكتاب عموماً في عدَّة أمور:

الأوَّل: أنه من المصادر المهمَّة لتاريخ المدينة في القرن السابع الهجري.

والثاني: انفراده بذكر تراجم لشخصيات لم يذكرها غيره، عاصرها والتقاها.

والثالث: أسلوبه في سرد الأحداث والتراجم، بطريقة تختلف عن كل من سبقه من مؤرخي المدينة.

وعلى وجه الخصوص والتفصيل؛ فقد امتاز الكتاب بأنه أرَّخ لمرحلة حسَّاسة في تاريخ المدينة، وهي مدَّة نهاية سيطرة الفاطميِّين على الحجاز وضم الحجاز للأيوبيِّين، وانحسار السَّيطرة الإمامية عن المسجد النبوي والقضاء بالمدينة المنوَّرة إلى إلغائه نهائيًّا بقرار رسميّ، وبجهود علماء المجاورين من أهل السُّنة وعلى رأسهم المؤلِّف، كما أرَّخ لانتشار المذاهب الفقهية الشافعية والحنفية والمالكية بعد انحسارها في تلك المدَّة.

ويمتاز أيضاً بأنه تعرَّض لجوانب اجتماعية واقتصادية وثقافية وعلمية،

فكان المؤلف بأسلوبه السهل يرصُد كلَّ حادثة، ويصفُ حتَّى التفصيلات الدَّقيقة للمسجد النبوي الشريف آنذاك، وللمدينة المنوَّرة بعُمرانها، وتنوُّع سُكَّانها، ونوع المآكل والمشارب والملابس، وعادات النَّاس وأعمالهم في احتفالاتهم ومناسباتهم، وما يجري بينهم من خصومات أو مشكلات اجتماعية.

وكانت هناك ثلاثُ فئات رئيسة تتحكّم في المجتمع المديني - كما يصفها المؤلِّف -:

١- أشراف المدينة الأمراء حُكَّام المدينة.

٢- شيوخ الحرم النبوي.

٣- العلماء والقُضاة والمجاوِرون.

وعرض في «تاريخه» هٰذا إلى جملة من الصِّراعات التي كانت تنشأ بين تلك الفئات، وما يحصل للعلاقات بين هٰذه الأطراف الثلاثة من مَدٍّ وجزر، وما يحصل من تجاوزات كان يشتكي منها المؤلف في زمن بعض الحكّام، وتزول عندما يذهب هٰذا الحاكم ويتولى غيرُه، أو تجاوزات تقع من بعض شيوخ الحرم، أو بعض القضاة والعلماء.

وممَّا يمتاز به الكتاب أيضاً عنايتُه بترجمة مجموعة كبيرة من المجاوِرين العُبَّاد، ومجموعة من العلماء في مختلف المجالات، مع ذكر مؤلفاتهم ومشاركاتهم العلمية.

وقد شاب هٰذا الكتابَ - كغيره من مؤلفات التراجم والتاريخ في تلك المدَّة الزمنية - ذِكرُ بعض القصص والخرافات والكرامات المنسوبة لعدد من المترجَم لهم، ممَّا لا يُقِرُّه الشرع الشريف، وقد طغى على المؤلف في بعض الأحيان أسلوبٌ صوفيّ في ذكر المناقب، وغلوٌّ في تراجم الشيوخ والصُّلَحاء، ولذا أشرنا في الحواشي إلى ذٰلك مراراً، وعلّقنا على تلك الأقوال في مواضعها.

وإجمالاً؛ فالكتاب صورةٌ لحال المجتمع المديني في تلك المدَّة بمختلف طبقاته وأطيافه ومذاهبه، وهو مجال خصبٌ لدراسة أحوال المدينة الاجتماعية والاقتصادية والسياسة في تلك المدَّة.

منهج المؤلف في الكتاب ومنهج التحقيق

قسم المؤلف كتابه إلى مقدّمة وفصول:

١- فصل لتراجم من أدركه من شيوخ الخُدَّام.

٢- فصل لتراجم من أدركه من الخدام.

٣- فصل في ذكر المجاورين القدماء والمشايخ الصلحاء.

٤- فصل في ذكر القضاة والأئمة.

٥- فصل في ذكر أمراء المدينة ومدَّة ولايتهم.

٦- فصل في ذكر والد المؤلف وأخويه.

وفي داخل هٰذه الفصول الكثير من الاستطرادات التي يُطيل فيها الكلام، فأطال في ذِكر حوادث كثيرة، منها: حادثة نار المدينة، وحريق المسجد النبويّ الشريف، وذِكر ترجمة نور الدِّين الشهيد، وصلاح الدِّين الأيوبي، وحادثة سقوط بغداد... إلى غير ذٰلك من الحوادث.

وصف النسخ الخطية المعتمدة في التحقيق:

اعتمد نا في تحقيق الكتاب على أربع نسخ خطية، وهي:

١- نسخة دار الكتب المصرية.

٢- نسخة مكتبة آل هاشم.

٣- نسخة مكتبة عارف حكمت.

٤- نسخة مكتبة الحرم المكي الشريف.

* **النسخة الأولى**: وهي نسخة دار الكتب المصرية؛ فهي النسخة الأم المعتمدة في تحقيق الكتاب.

وهي محفوظة في دار الكتب المصرية برقم (٦ تاريخ ش ٤٣٠٤٩).

عدد أوراقها: ١٥٨ ورقة، في كلِّ ورقة ١٩ سطراً.

نوع الخط: نسخ جيّد.

تاريخ النسخ: ١١ ذو القعدة سنة ١٠٩٣هـ.

اسم الناسخ: غير معروف.

على صفحة الغلاف: ختم الكتبخانة الخديوية المصرية، وتملّك ووقف باسم الشيخ محمد محمود بن التلاميذ التركزي الشنقيطي، مؤرَّخ في سنة ١٣٠٣هـ.

في أوَّلها فهرس لموضوعات الكتاب، وهي نسخة جيدة، حسنة الخط، مصحَّحة، ومقابلة.

* **النسخة الثانية**: نسخة مكتبة آل هاشم، ورمزنا لها بالرمز (أ)، وأصلها محفوظ في مكتبة آل هاشم بالمدينة المنورة.

عدد أوراقها: ٩١ ورقة، في كل ورقة ٢٥ سطراً.

نوع الخط: نسخ جيد.

اسم الناسخ: السيد جعفر بن حسين هاشم الحسيني.

تاريخ النسخ: يوم الاثنين ٤ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٨هـ.

على صفحة الغلاف ختم وقف السيد جعفر حسين هاشم الحسيني، وتملك باسم جعفر بن السيد يحيى هاشم الحسيني، ونص وقفية الكتاب على المكتبة وتسجيله في المحكمة الشرعية بتاريخ ٣ رجب ١٣٠٥ هـ، وأختام الورثة.

وهي نسخة جيدة، حسنة الخط، أوَّلها مزخرف مذهب، عليها هوامش بخط الناسخ، وهي نسخة مقابلة وفيها تصحيحات وزيادات في الحواشي.

* **النسخة الثالثة**: نسخة مكتبة عارف حكمت، ورمزنا لها بالرمز (ب).

رقم الحفظ: ٢٥٦/ ٩٠٠ (التاريخ).

عدد الأوراق: ١٣٩ ورقة.

عدد الأسطر: ١٨ سطراً.

نوع الخط: نسخ معتاد جيد.

اسم الناسخ: غير معروف.

تاريخ النسخ: لم يذكر.

في صفحة الغلاف وقفية الشيخ عارف حكمت مؤرَّخة بتاريخ ١٦ رمضان ١٢٦٨ هـ بالمدينة المنوَّرة، مع ختم الوقف.

سقطت من هٰذه النسخة الورقة الأخيرة من الكتاب.

وهي نسخة حسنة الخط، مقابلة ومصحَّحة، عليها زيادات قليلة في الحواشي.

* **النسخة الرابعة**: نسخة مكتبة الحرم المكي الشريف، ورمزنا لها بالرمز (ج).

رقم الحفظ: ٢٨٩٩ دهلوي (تراجم)، وهي محفوظة في فيلم برقم: ٣٢٠٩.

عدد الأوراق: ١٢٠ ورقة.

عدد الأسطر: ٢١ سطراً.

نوع الخط: نسخ غير واضح.

اسم الناسخ: الشيخ عبدالستار بن عبدالوهاب الدهلوي المكي.

تاريخ النسخ: لم يذكر.

في صفحة الغلاف تملُّك للسيد عبدالستار الدهلوي، وعليها وقفية النسخة على الكتبية الفيضية المباركشاهوية البكرية المكية.

وهي نسخة مقابلة ومصحَّحة، على حواشيها زيادات وتصحيحات.

منهج التحقيق:

اعتمدنا في تحقيق الكتاب المنهج الآتي:

١- نسخ نصّ المخطوطة الأم، وضبطه كاملاً بالشكل، ثمَّ المقابلة على النسخ الثلاث الأخرى، والإشارة إلى الفروق المهمَّة في الحواشي.

٢- توثيق النقول الواردة.

٣- عزو الآيات القرآنية.

٤- تخريج الأحاديث والآثار.

٥- ترجمة الأعلام الوارد ذِكرُهم ترجمة مختصرة مع الإشارة إلى أهم مصادر الترجمة.

٦- التعريف بالمواضع والأماكن، خصوصاً معالم المدينة المنورة.

٧- شرح الألفاظ الغريبة.

٨- الفهارس:

أ- فهرس الآيات. ب- فهرس الأحاديث والآثار.

ج- فهرس القوافي. د- فهرس الأماكن.

هـ- فهرس الأعلام. و- فهرس المراجع.

ز- فهرس الموضوعات.

النص المحقق

نصيحة المشاور

وتعزية المجاور

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الَّذي أذلَّ بالعِلْم رِقابَ أهلِ الجَهْل، وكَسَرَ بِصَدْمَتِهِ كُلَّ بَارِدِ الشَّكل، سَخيفِ العَقْل، وَجَعلَ اليَدَ العُليَا لِمَنْ اتَّبَعَ هَدْيَ المُصطفى ﷺ، وشرَّفَ وكرَّمَ.

أحمَدُهُ على مَا خَوَّلَ مِنَ النِّعَمِ، ودفعَ مِنَ النِّقَمِ، وأُصَلِّي عَلَى خَيرِ أنبيائهِ، صَلاةً دَائِمَةً بدَوَامِهِ، كفيلةً بفَضلِهِ وإنعَامِهِ، وبعدُ:

فإنَّ الله تَعَالى رفَعَ أهلَ العلم بمَا عَلَّمَهُم، وشَرَّفَهُم بما وَهَبَهُم مِنْ مَعْرفَةِ كتَابهِ وسُنَّةِ نَبيهِ ﷺ، ثُمَّ عظَّمَ لهمُ الأجْرَ بمَا سلَّطَ عليهم مِنْ جَهلَةِ النَّاسِ، نعوذُ بالله مِنَ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ، تَجِدُهُم [يَحْرِصُونَ][1] على هَضمِ جانبِ العُلَماءِ، ولو تَمكَّنوا لَأَبَادُوهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ بسَعْيِهِم وتَوقُّعِ هَلاكِهِمْ[2]، كُلُّ ذٰلك لأجْلِ قِيامِهِم عليهِمْ بالحَقِّ عِنْدَ خِلافِهِم للشَّرعِ، وما هٰذه إلّا بَلِيَّةٌ، وفِتنةٌ جَاهِلِيَّةٌ، قَدَّرَها الله تَعَالى عَلَى العُلماءِ الَّذينَ هُمْ وَرَثَةُ الأنْبيَاءِ. قالَ عَليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: [٣/ ب]

كُلّ امْرِئٍ قَدْرُهُ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ ... وللرِّجَالِ عَلى الأفعَالِ أسْمَاءُ

---

(١) سقط ما بين المعقوفتين في الأصل، وهو في بقية النسخ.

(٢) في الأصل: «هلكهم»، والمثبت من بقية النسخ.

(٣) انظر: «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي ١/ ٤٢٤.

وضِدُّ كُلِّ امرئٍ مَا كانَ يَجْهَلُهُ والجَاهِلُونَ لأهلِ العلم أعداءُ

في أبياتٍ لَهُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، هٰذا في زمانِه، ولا شَكَّ أَنَّ زمانَهُ خيرٌ من زمانِنَا ومِنْ زمانِ مَنْ قبْلَنا، لَكِنَّ جهلَ أهلِ زَمانِنا مُركَّبٌ مِنْ جهلينِ: يَجْهَلُونَ، وَيَجْهَلُونَ أَنَّهُم يَجْهَلُون، ولبعضهم:

إذا كُنْتَ لا تدْرِي ولم تَكُ بالَّذِي تُسَائِلُ ذا عِلم فَيَا ضَيْعَةَ العُمْرِ
ومِنْ أعظم الأشياءِ أَنَّكَ جَاهِلٌ وأَنَّكَ لا تدري بأنَّكَ لا تَدْري

تراهُمْ لباسَ الفُضَلاءِ يَلبَسُونَ، وبالحَدْسِ والتَّخْمينِ يُفتُونَ، يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ، ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

واعلمْ - أرشَدَنَا الله وإيَّاكَ - أنَّ مَنْ سَعَى على العُلَماءِ بجَهْلٍ وعِنَادٍ لِيُخْمِلَ ذِكْرَهُم، ويُسْقِطَ كَلِمَتَهُمْ وأَمْرَهُمْ ونَهْيَهُمْ، فهو بلا شَكٍّ إلى الكُفْرِ أقرَبُ منهُ إلى الإيمانِ، ويَكْفيهِ ذٰلك عندَ الله هَواناً، وأمَّا مَنْ ظَنَّ في نَفْسِهِ أهْلِيَّةَ الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهيَ عَنِ المنكَرِ ولَمْ يَرَهُ النَّاسُ لذٰلك أهْلاً، فلا يَتْرُكُ قولَهُ أصلاً، حتى يُظْهِرَ حُجَّتَهُ، ويُبْدِيَ صَفْحَتَهُ، فإمَّا أُعْذِرَ فَنَجا، وإمَّا أَسَرَهُ الحقُّ فارتدَى، وما أحقَّهُ بالتَّعْزيرِ والهوانِ الشَّديد.

قالَ مالكٌ رَحِمَهُٱللَّهُ: لا خَيْرَ فيمَنْ يَرَى نَفْسَهُ بحَالَةٍ لا يَرَاهُ النَّاسُ لها أهْلاً[2].

وقالَ: ليْسَ كُلُّ مَنْ أحبَّ أن يَجْلِسَ في المسْجدِ للتَّحْديثِ والفُتْيا جلَسَ،

---

(١) سورة الزمر، الآية (٩).

(٢) انظر: «ترتيب المدارك» ١/ ١٤١، «الديباج المذهب» ص٦٤-٦٥.

[٤/أ] بَلْ حتَّى يُشَاوِرَ أَهْلُ الصَّلاحِ والفَضْلِ وأهلُ الجِهةِ من المسجدِ، فإنْ رَأَوْهُ أهْلاً لذٰلك جلَسَ، وما جَلَسْتُ حتَّى شَهِدَ لِي سَبْعُونَ شَيْخاً مِنْ أَهْلِ العلمِ أَنِّي أهْلٌ لذٰلك[1].

ولمَّا بَلَغني عن بعضِ المتعصِّبَة مِنَ المتَفَقِّهَة، وعن جَمَاعَةٍ مِنْ أهلِ الشَّرِّ مُتَعَدِّدَةٍ، إنكارُهُم وَضْعَ حَجَرٍ أو أحْجَارٍ بالمسجدِ الشَّريفِ وُضِعَتْ عَلَماً على مَوْضِعِ حَاكِمٍ أو مُفْتٍ أو عَالمٍ، ولمْ أرَ معهُ صَوَاباً، ولا كانَ لفُضُولِهِ يَسْتحقُّ جَواباً، أرَدْتُ أنْ أبْدِيَ ما عِنْدي في ذٰلك، وما ذكرهُ الرواةُ عن الإمامِ مَالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ليكونَ عُدَّةً لأهلِ العلمِ إذا عُونِدُوا، وحُجَّةً لهم إذا بُوحِثُوا، وأضيفُ إلى ذٰلك شيئاً مِنْ أَحوالِ مَنْ كنتُ في زَمَانِهِ مِنَ المشايخِ الصُّلَحَاءِ، والأكابِرِ العُلَماءِ، والخُدَّامِ الأرقَّاءِ، وأُسَمِّي مَنْ حَضَرَني اسمُهُ، وشيئاً من كَرَامَاتِهِ ليَحْيَى بها ذِكْرُهُ، ويُنْشَرَ بها عِلْمُهُ، وأُلحقَ بذٰلك أشياءَ حَسَنَةً مِنْ تَاريخِ مَنْ قَبْلَنَا مِنَ الثِّقَاتِ يَرتَاحُ إليها مَنْ سَمِعَ بهَا، ولمْ يَقِفْ على صِحَّةِ نَقْلِهَا، فيجدُهَا هُنَا، وعَسَى أن يقفَ على ذٰلك مُنْصِفٌ، فيتَّصِفَ بأخلاقِهِمُ السَّنِيَّة، ويتأدبَ بآدابِهم العَلِيَّة.

قال عُلماؤُنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: يُسْتَحَبُّ اتِّخاذُ مَوضِعٍ مِنَ المسجدِ للقَاضِي والعَالِم والمفتِي، حَتَّى إليهم يَنْتَهي المُسْتَفْتِي، وبذٰلك قال عُلماءُ [٤/ب] الحنَفِيَّة.

قالَ مؤلِّفُ «الاختيارِ في شرح المختارِ»[2]: «ويَجلسُ للقَضَاءِ جُلُوساً

---

(١) «ترتيب المدارك» ١/ ١٤٢.

(٢) «الاختيار» ١/ ١٩. وهو كتاب «الاختيار لتعليل المختار» لأبي الفضل عبدالله بن محمود بن مودود المَوْصلي الحنفي، توفي سنة ٦٨٣هـ، من متون المذهب الحنفي المقرّرة المشهورة.

ظَاهِراً في المسجدِ؛ لأنَّ رسول الله ﷺ كانَ يَفْصِلُ بينَ الخُصُومِ في المسجدِ[(١)]، وكذَا الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ مِنْ بَعْدِهِ، ودُكَّةُ عَلِيِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مَسْجِدِ الكُوفَةِ إلى الآنَ مَعْرُوفَةٌ، قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّمَا بُنِيَتْ المسَاجدُ لِذِكْرِ الله تَعَالى ولِلحُكْمِ»[(٢)]، ولِئَلَا يَشْتَبِهَ على الغُرَبَاءِ مَكَانُهُ». انتهى كلامُهُ.

ونقلَ القاضي عِيَاضٌ[(٣)] رحمهُ الله تَعَالى عن ابنِ المنذر[(٤)]: أنَّ مالكَ بنَ أنس كانَ لهُ مَوْضِعٌ في المسجدِ.

قال: وهو مكانُ عُمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهُوَ المكانُ الَّذِي [كان][(٥)] يُوضَعُ فيه فِرَاشُ النَّبيِّ ﷺ إذَا اعْتَكَفَ[(٦)]، كذا قالَ الأُويسيُّ[(٧)].

---

(١) يدل عليه ما رواه البخاري في «صحيحه» كتاب الصلاة، باب التقاضي والملازمة في المسجد (٤٤٥) ومسلم، كتاب المساقاة، باب استحباب الوضع من الدَّين (١٥٥٨) من حديث كعب ابن مالك: أنه تقاضى ابن أبي حدرد ديناً كان له عليه في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته، فخرج إليهما حتى كشف سجف حجرته، فنادى: يا كعب، قال: لبيك يا رسول الله، قال: ضَعْ من دينِك هٰذا.

(٢) حديث «إنما بنيت المساجد لذكر الله وللحكم» قال الحافظ ابن حجر في «الدراية في تخريج أحاديث الهداية» ٢/ ١٦٨: لم أجده هٰكذا، وأخرجه مسلم بلفظ: «إِنَّمَا بُنِيَتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ»، كتاب المساجد، باب النهي عن نشد الضالة، (١٢٩٠).

(٣) عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، له مصنفات كثيرة، توفي سنة ٥٤٤هـ. «وفيات الأعيان» ١/ ٣٩٢.

(٤) محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، الفقيه المجتهد، توفي سنة ٣١٩هـ. «تذكرة الحفاظ» ٢/ ١٤٤.

(٥) ما بين المعقوفتين سقط في الأصل، وهو في بقية النسخ.

(٦) «ترتيب المدارك» ١/ ١٢٤.

(٧) الحافظ أبو القاسم عبدالعزيز بن عبدالله بن يحيى، القرشي العامري الأويسي المدني، حدث عن الإمام مالك، وحدث عنه البخاري وغيره، توفي سنة ٢٢٠هـ. «تهذيب التهذيب» ٦/ ٣٤٥-٣٤٦.

ونقلَ أهلُ السِّيَرِ[١] أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا اعْتَكَفَ في رَمَضانَ طُرِحَ لهُ فِراشُهُ وَراءَ أُسْطُوانَةِ التَّوبَةِ[٢]. وروى الطبَرانيُّ[٣] في «مُعْجَمِهِ» عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّ ذلك ممَّا يَلي القِبْلَةَ يَسْتَنِدُ إليها[٤].

وفي كتابِ «إقْليدُ الإقْليدِ المؤدِّي إلى النَّظرِ السَّديدِ» من كلامِ الشَّيخِ الإمامِ الحافظِ أبي بَكرٍ مُحَمَّدِ بنِ أَحْمَدَ بنِ [أبي] جَمْرَةَ[٥]: إنَّ اتخاذَ العُلَماءِ المَصاطِبَ[٦] والمنابرَ جَائِزٌ في المسْجِدِ للتَّعليمِ والتَّذكيرِ، وهُمْ أحقُّ بها.

وممَّا رَوَيْتُهُ بسَنَدي إلى الزُّبَيْرِ [٥/ أ] بنِ بَكَّار[٧] قال: حدَّثني مُحَمَّدُ بنُ إسماعيلَ[٨]

---

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» كتاب الصيام، باب: في المعتكف يلزم مكانا من المسجد برقم (١٧٧٤)، وابن خزيمة في «صحيحه» ٣/ ٣٥٠ من حديث ابن عمر.

(٢) في الأصل: (التبوية)، والمثبت من بقية النسخ، وهو الصواب. وأسطوانة التوبة: وتسمى أيضا بأسطوانة أبي لبابة، وهو رفاعة بن عبدالمنذر أخو بني عمرو بن عوف الأوسي وهو أحد النقباء، وهي الأسطوانة الرابعة من المنبر، والثانية من القبر، والثالثة من القبلة، وسميت بذلك للقصة المعروفة عن أبي لبابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. انظر: «وفاء الوفاء» ٢/ ٤٤٨.

(٣) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم: من كبار المحدثين، نسبة إلى طبرية الشام، توفي سنة ٣٦٠هـ. «وفيات الأعيان» ١/ ٢١٥.

(٤) في «الكبير» ١٢/ ٣٨٥، و«الأوسط» ٨/ ٩٤.

(٥) أبو بكر: محمد بن أحمد بن عبدالملك بن أبي جَمْرَة الأموي بالولاء، فقيه مالكي من أعيان الأندلس توفي بمرسية سنة ٥٩٩هـ. وذكر الذهبي أن اسم الكتاب: «إقليد التقليد المؤدي إلى النظر السديد». سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٩٨).

(٦) جمع مِصْطَبَة: بكسر الميم: كالدكان للجلوس عليه. «القاموس المحيط»: صطب.

(٧) الزبير بن بكار القرشي، من أحفاد الزبير بن العوام، أبو عبدالله: عالم بالأنساب وأخبار العرب، راوية، له تصانيف كثيرة، توفي سنة ٢٥٦هـ. «وفيات الأعيان» ١/ ١٨٩.

(٨) محمد بن إسماعيل الجعفري. انظر: «ميزان الاعتدال» ٣/ ٤٨١.

قالَ: رأيتُ طنفسَةً[١] كانت لعبدالله بنِ حَسنَ بنِ حَسَنٍ[٢] تُطْرَحُ قِبَالَةَ المنبرِ على مَرْمَرٍ كانَ هُناك، قال: فحُبِسَ عبدالله بنُ حسن سنةَ ١٤٠هـ، وبقيتْ الطنفسَةُ بعدهُ أياماً، ثُمَّ رُفِعَتْ، ثُمَّ إنَّ الحسنَ بنَ زيْدِ بنِ الحسنِ[٣] بنِ علي بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أيامَ كانَ والياً على المدينةِ عامَ خمسينَ ومئةٍ عملَ المرمرَ في جَوانِبِ المسجدِ حتَّى ألحقَهُ بالسَّوارِي، فسألهُ أبو مَودُودٍ عبدالعزيزِ بنُ أبي سُليمانَ[٤] أن يدعَ لهُ مُصَلاَّهُ فترَكَهُ.

قلتُ: وهٰذا كلهُ يَدلُّ على أنَّ التابعينَ فمَنْ بَعْدَهُم كانَ لهُمْ مِنَ المسجدِ أماكنُ يَخْتَصُّونَ بهَا، ويُحافِظونَ على بَقَائِهَا بِرَسْمِهَا لِتكونَ باسمِهم لفَضْلِهم ولعلمِهم.

ورُوينا بالسَّندِ الصحيحِ إلى ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا اعتكفَ يُطرَحُ لهُ وِسَادَةٌ، ويُوضَعُ لهُ سَريْرٌ من جَرِيدٍ فيه سَعَفُهُ[٥] يُوضَعُ

---

(١) الطنفسة: مثلثة الطاء والفاء، واحدة الطنافس، وهي: كل ما يجلس عليه من بسط وثياب وحصير. «القاموس المحيط»: طنفس.

(٢) هو عبدالله بن الحسن (المثنى) بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أبو محمد الهاشمي القرشي، الملقب بـ«الكامل»، وبـ«النفس الزكية»، كان ذا علم وعبادة وشرف ومنزلة، خرج على أبي جعفر المنصور وسجنه ومات في السجن سنة ١٤٤هـ. «طبقات خليفة» ١/ ٢٥٨، و«تاريخ بغداد» ٩/ ٤٣١.

(٣) الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي، من سادات بني هاشم وأجوادهم، كان والياً لأبي جعفر المنصور على المدينة، توفي سنة ١٦٨هـ. «تاريخ خليفة» ص٤٣٥، و«تاريخ بغداد» ٧/ ٣١٣، و«تهذيب الكمال» ٦/ ١٥٢.

(٤) أبو مودود: عبدالعزيز بن أبي سليمان الهذلي، مولاهم القاص الواعظ المدني. «التاريخ الكبير» للبخاري ٦/ ١٥، «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم ٥/ ٣٨٤.

(٥) تقدم تخريجه ص٤١. والسَّعَفُ: محركة: جريد النخل، أو ورقه، وأكثر ما يقال: إذا يبست. «القاموس المحيط»: سعف.

يُوضَعُ لهُ فيها بينَ الأُسْطوانَةِ الَّتِي وُجَاهَ القبرِ وبينَ القَناديلِ، وكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَضطجِعُ عليه[1].

قالَ أبو وَجْزَةَ السَّعْديُّ[2] وهو يذكرُ السَّريرَ، ويمتدحُ آلَ الزُّبيرِ لقُربهِمْ منهُ مَحَلًّا:

وإذا غَـدا آلُ الـزُّبَيْرِ غَـدَا النَّـدَى ... وإذا انتـدَوا[3] فـإليهمُ مـا يَنْتَـدِي

[٥/ ب] وإذا هُمُ رَاحُوا فإنَّهُمْ هُمُ ... أهلُ السَّريرِ وأهلُ صَـدْرِ المسجِدِ

قلتُ: وهٰذا يُؤيِّدُ مَا نحنُ بصَددهِ، ويزيدهُ في عَدَدِهِ ومَدَدِهِ.

قالَ القُرطبيُّ[4] في تفسيرِ سُورَةِ المُجَادلة: القاعِدُ في مَوضعٍ مِنَ المسجدِ إذا قامَ لغيرِهِ، وكانَ قيامُهُ في مَوضعٍ مثلَ الأوَّلِ يَسمَعُ فيهِ كلامَ الإمامِ لم يُكرَه[5] لهُ ذٰلك، وإن كان أبعدَ مِنَ الإمامِ كُرِهَ لهُ ذٰلك، لأنَّ فيه تفويتَ حَظِّهِ مِنَ القُربِ، وإذا أمَرَ إنسانٌ إنساناً أن يُبَكِّرَ إلى الجامعِ فيَأخُذَ لهُ مَكاناً يَقْعُدُ فيه لا يُكْرَهُ، فإذا جاءَ الآمِرُ يَقومُ له المأمُورُ مِنَ المكانِ.

ورويَ أنَّ ابنَ سِيْرين[6] كانَ يُرسِلُ غُلامَهُ إلى مَجلسٍ لهُ في يومِ الجمُعَةِ،

---

(١) «تاريخ ابن زبالة» ص١٠٣.

(٢) يزيد بن عبيد السلمي السعدي، أبو وجزة: شاعر محدث مقرئ من التابعين، توفي سنة ١٣٠هـ. «خزانة الأدب» ٢/ ١٥٠.

(٣) انتدوا، أي: كثر عطاؤهم. «القاموس المحيط»: ندى.

(٤) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري المالكي، أبو عبدالله، فقيه مفسر عالم باللغة، صاحب التفسير الشهير «الجامع لأحكام القرآن»، توفي سنة ٦٧١هـ. انظر: «الديباج» ص٣١٧.

(٥) في الأصل و(ب)، و(جـ): «يكن». والتصويب من «تفسير القرطبي» والنسخة (أ).

(٦) محمد بن سيرين البصري، الأنصاري بالولاء، أبو بكر: إمام وقته في علوم الدين بالبصرة، تابعي جليل، توفي سنة ١١٠هـ بالبصرة. انظر: «حلية الأولياء» ٢/ ٢٦٣.

فيَجْلِسُ فيه، فإذا جاءَ قامَ لهُ منهُ.

قالَ: وعَلَى هٰذا مَنْ أَرْسَلَ بِساطاً أو سُجَّادَةً يُبْسَطُ لهُ في مَوضِعٍ من المسجدِ. روى مُسلمٌ عن أبي هُرَيْرَةَ رَضيَ الله عنهُ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ»، وَفِي حَدِيثِ أَبِي عَوَانَةَ: «مَنْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ»(١).

قالَ عُلماؤُنا: هٰذا يَدُلُّ على صِحَّةِ القَوْلِ بوجُوبِ اختصَاصِ الجالسِ بمَوْضِعِهِ إلى أن يَقُومَ مِنْهُ، لأنَّه إذا كانَ أَوْلَى بِهِ بعدَ قِيامِهِ فَقَبْلَهُ أَحْرَى وَأَوْلَى، وقدْ قيلَ: إنَّ ذٰلك أوْلَى، [٦/ أ] وقد قيلَ: إنَّ ذٰلك على النَّدبِ؛ لأنَّه موضِعٌ غيرُ مُتَمَلَّكٍ، لكنَّهُ يَخْتَصُّ بِهِ إلى أن يفرغَ غَرَضُهُ منهُ، فصَارَ كأنَّهُ تَمَلَّكَ مَنْفَعَتَهُ، إذْ قَدْ مُنِعَ غَيْرُهُ من مُزَاحَمَتِهِ(٢).

وقالَ في «الإقليد»: وما في جَوَامِعِ مِصْرَ مِنْ ذٰلك مِمَّا لَمْ يُنْكِرْهُ أهلُ العلمِ دليلٌ على ذٰلك، فأمَّا مَا وُضِعَ مِنْهَا لِطلبِ الأُجْرَةِ كالمعَلِّمينَ، فلا يَكُونُوا أَحَقَّ بها، بَلْ يَنْبَغي إزَالَتُهَا، وكذٰلك إنْ وُضِعَ للعالمِ في المَوْضِعِ حَصيرٌ فهو أحقُّ بذٰلك الموضعِ(٣)، وإنْ تَأخرَ حتى سَبَقَهُ غيرهُ، ويُرَاعَى في ذٰلك حَقُّ مَنْ يَقصِدُ العُلَماءَ فَيَجِدُهُمْ في مَكَانِهِم.

وفي «الموطأ»(٤): أنَّهُ كانت طنفسَةٌ تُوضَعُ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

(١) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب إذا قام من مجلسه ثم عاد إليه فهو أحق به (٢١٧٩).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٧/ ٢٩٨.

(٣) نقله الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ١١/ ٦٤ عن «المفهم» للقرطبي.

(٤) في ا«لموطأ» أنها كانت لعقيل بن أبي طالب: كتاب وقوت الصلاة، باب وقت الجمعة (١٣).

يومَ الجمُعَةِ تحتَ الحائطِ الغَربيِّ، فإذا غَشِيَهَا الظِّلُّ يَخْرُجُ عُمَرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فيَخْطُبُ، وهٰذا يُرَسِّخُ ما تَقَدَّمَ.

قالَ البَاجِيُّ[1] رَحِمَهُٱللَّهُ في كلامِهِ على حديثِ صَفْوَانَ مَعَ السَّارِقِ لِرِدَائِهِ[2]: قالَ ابنُ القاسمِ[3] في «العُتبية»[4]: فَمَنْ سرقَ من بُسُطِ المسْجِدِ الَّتي تُوْضَعُ فيهِ في رمضانَ فإنْ كانَ عندهَا صَاحِبُهَا قُطِعَ[5].

قلتُ: وهٰذا يَدُلُّ على أنَّ السَّلَفَ كانُوا يَضَعُونَ البُسُطَ في المسجدِ في رَمضانَ؛ لِيَحْفَظُوا بها أَمَاكِنَ صَلاتِهِم.

---

(١) سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي، أبو الوليد الباجي: من كبار فقهاء المالكية والمحدِّثين، له كتب كثيرة في الفقه والحديث، توفي سنة ٤٧٤هـ. «الديباج» ص١٢٠.

(٢) أخرجه أبو داود في «سننه» كتاب الحدود، باب من سرق من حرز (٤٣٩٤)، والنسائي في «سننه» كتاب قطع السارق، باب ما يكون حرزاً وما لا يكون ٨/ ٦٩، وابن ماجه في «سننه» كتاب الحدود، باب من سرق من الحرز (٢٥٩٥)، وأحمد في «المسند» ٣/ ٤٠١ عن صفوان بن أمية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه طاف بالبيت وصلَّى، ثم لفَّ رداء له من بُرْدٍ فوضعه تحت رأسِه فنام، فأتاه لصٌّ فاستلَّه من تحت رأسه فأخذه، فأتى به النبيَّ ﷺ فقال: إنّ هٰذا سرق ردائي، فقال له النبي ﷺ: أسرقت رداءَ هٰذا؟ قال: نعم، قال: اذهبا به فاقطعا يده. قال صفوان: ما كنت أريد أن تُقطَعَ يده في ردائي، فقال له: فلو ما قبل هٰذا.

(٣) عبدالرحمٰن بن القاسم المصري، أبو عبدالله، فقيه من تلامذة الإمام مالك، روى عنه «المدونة» وهي من أهم كتب المالكية، توفي سنة ١٩١هـ. «الديباج» ص١٤٦.

(٤) «العُتبية» في الفقه المالكي، وتسمَّى: «المستخرجة»، وهي لمحمد بن أحمد العتبي الأندلسي، المشهور بالعُتْبِي، توفي سنة ٢٥٥هـ. «ترتيب المدارك» ٤/ ٢٥٣، «سير أعلام النبلاء» ١٢/ ٣٣٥.

(٥) «المنتقى شرح الموطأ»، كتاب الحدود، ترك الشفاعة للسارق إذا بلغ السلطان ٧/ ١٧٩، «مواهب الجليل شرح مختصر خليل» ٨/ ٥٢٠.

قالَ القَاضِي أبو بَكرٍ[(١)] في قولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مِنَى مُنَاخُ مَنْ سَبَقَ إليهِ برَحْلِهِ»[(٢)] دَلِيلٌ على مَا يَفْعَلُهُ الصُّوفِيَّةُ[(٣)] اليومَ مِن تقديمِ سَجاجِيدِهِم إلى المسجدِ ليَحفظوا أمَاكِنَهُم للصَّلاةِ [٦/ب]. وعن مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ كانَ يقولُ: إذا ارتسمَ مَوضِعٌ منَ المسجدِ برَجُلٍ فهوَ أحقُّ بهِ، وعلى هٰذا أكثرُ العُلَماءِ[(٤)].

قالَ صاحبُ «الإكليلِ»: ومِمَّا يَدلُّ على ذٰلك العَمُودُ المخَلَّقُ[(٥)] [٣/أ] الآنَ بالمسجدِ النَّبويّ، وعندهُ كانَ قُعُودُ النَّبيِّ ﷺ، ومَنْ كانَ لهُ مَوضِعٌ منَ المسجدِ مَعْلُومٌ يَجُوزُ أنْ يَخْرِقَ الصفوفَ إليهِ إذا تأخَّرَ.

---

(١) محمد بن عبدالله بن محمد المعافري، أبوبكر ابن العربي، المجتهد الحافظ، إمام من أئمة المالكية، له مؤلفات كثيرة، توفي سنة ٥٤٣هـ. انظر: «الديباج» ص٢٨١.

(٢) أخرجه أبو داود في «سننه» كتاب المناسك، باب تحريم حرم مكة، رقم (٢٠١٩)، والترمذي في «سننه» كتاب الحج، باب ما جاء أنَّ مِنى مُنَاخ لمن سبق، رقم (٨٨١)، وابن ماجه في «سننه» كتاب المناسك، باب النزول بمنى، رقم (٣٠٠٦)، وأحمد في «المسند» ٦/ ٢٠٦ من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وكلها لم يرد فيها لفظة: «برحله».
والحديث صحَّحه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي، ولكن في سنده مسيكة والدة يوسف بن ماهك، وهي مجهولة كما في «التقريب» (ص٧٥٣).
وضعَّف الحديث ابن القطان والألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٣) في هٰذا نظر؛ لأنّ النص في الحديث متعلق بمنى، ولو كان هٰذا عامًّا يشمل الصلوات في المسجد لفعله السَّلف.

(٤) «منح الجليل شرح مختصر خليل» ١٣/ ٢٥٤. ونصُّه: قال مالك: مَنْ عُرِفَ بالموضع أحقّ به، وقال الجمهور: هو أحقّ به استحساناً لا وجوباً، ولعل مراده ذٰلك.

(٥) هي أسطوانة عائشة، وتسمَّى أيضاً بأسطوانة المهاجرين. انظر: «المغانم» ١/ ٤٠٠، «وفاء الوفا» ٢/ ٤٤٠.

ونقلَ القاضي عياضٌ في «المدَارِكِ»[١] أنَّ سُحْنُونَ[٢] إمامَ المالكيَّةِ في زَمَانِه لمَّا وَلِيَ القَضاءَ وكثُرَ عليهِ النَّاسُ، أمرَ ببنَاءِ بيتٍ في المسجدِ لنفسهِ يَحْكُمُ فيهِ، فكانَ لا يُحضِرُ عندَه إلّا خَصْمَيْنِ ومَنْ يَشْهَدُ بَيْنَهُمَا.

وقال في «الإكمال»[٣] عندَ قولهِ ﷺ: «إذا قامَ أحَدُكُمْ مِنَ المجلسِ ثُمَّ رَجعَ إليهِ فَهُوَ أحَقُّ بِهِ»[٤]: إذا قامَ لحَاجَةٍ اختُلف في معناه؛ فقالَ مُحَمَّدُ ابنُ مَسْلَمَةَ[٥]: يُحْمَلُ الحديثُ على مَجْلِسِ العَالِمِ إذا قامَ لحَاجَتِهِ، فهو أحقُّ بهِ، واختُلِفَ فيمَنْ رَسَمَ مِنَ العُلَماءِ والقُرَّاءِ مَوْضِعاً مِنَ المسجدِ للتَّدريسِ والفُتْيا، فحُكِيَ عن مَالكٍ رحمةُ الله عَلَيهِ: أنَّهُ أحقُّ بهِ إذا عُرِفَ بهِ[٦].

قلتُ: ومِمَّا يُقَوِّي ذٰلك مَا كانَ في زمانِهِ ﷺ، مِن أمرِ الصُّفَّةِ وأهلِهَا، واختصَاصِهِم بها، وكانت في أواخِرِ المسجدِ[٧].

---

(١) «ترتيب المدارك» ٤/ ٦٠.

(٢) عبدالسلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، الملقب بسحنون: القاضي، الفقيه، انتهت إليه رياسة العلم في المغرب، روى «المدونة» عن ابن القاسم، توفي سنة ٢٤٠هـ. «وفيات الأعيان» ١/ ٢٩١.

(٣) «إكمال المعلم» ٧/ ٧١، ونص قوله: فالذي عليه الجمهور أنّ هٰذا استحسان وليس بحق واجب، ولعله مراد مالك.

(٤) «صحيح مسلم»، كتاب السلام، باب إذا قام من مجلسه ثم عاد فهو أحق به (٥٨١٨).

(٥) محمد بن مسلمة بن محمد بن هشام بن إسماعيل، أبو هشام، أحد فقهاء المدينة من أصحاب مالك، توفي سنة ٢٠٦هـ. «الديباج» ص٢٢٧.

(٦) «منح الجليل شرح مختصر خليل» ١٣/ ٢٥٤.

(٧) روى البيهقي في «سننه» ٢/ ٤٤٥، عن عثمان بن اليمان قال: لما كثر المهاجرون بالمدينة، ولم يكن لهم دار ولا مأوى، أنزلهم رسول الله ﷺ المسجد، وسماهم أصحاب الصفة، فكان يجالسهم، ويأنس بهم. وانظر المزيد في «طبقات ابن سعد» ١/ ٢٥٥.

ومِمَّا يُرَسِّخُ هٰذا وَضعُ أزوَاجِهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُنَّ [٧/ أ] أخْبِيَتَهُنَّ بالمسْجِدِ حينَ أردْنَ الاعتِكَافَ، ولم يُنكِرْ عليهِنَّ ﷺ وضْعَهَا، وإنَّما خَشِيَ عليهِنَّ الغَيْرَةَ الَّتِي بَينَهُنَّ مِنَ الحرصِ على القُربِ مِنْهُ، فلا تَسْلَمُ لَهُنَّ نِيَّةُ الاعتكافِ، فقالَ(١) ﷺ: «آلبِرَّ تَقُولُونَ بِهِنَّ؟»، فمَنَعَهُنَّ جَميعَهُنَّ.

ومِمَّا امتازَ بِهِ العُلَمَاءُ [ما](٢) نَقَلهُ الشَّيخُ أبو الحسنِ اللَّخْميُّ(٣) عن ابنِ حَبيْبٍ(٤) قال: وأرخصَ مَالكٌ - رحمةُ الله عليهِ - للعَالِمِ(٥) إذا كانَ مَجْلِسُهُ في مُؤخَّرِ المسجد أو وَسَطِهِ أن يُصَلِّيَ في مَوضِعِهِ معَ أصحَابِهِ وإن تَقَدَّمَتْهُم الصُّفُوفُ(٦).

قلتُ: وإنَّما قالَ ذٰلك معَ قولِهِ ﷺ: «خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أوَّلُها، وَشَرُّهَا آخِرُهَا»(٧) لأنَّهُ إذا تَقَدَّمَ عن الجماعَةِ وتَرَكَهُم لم يَسْهُلْ عليهِ تَخْليفُهُمْ، وإنْ ذَهَبَ هُوَ وَهُمْ إلى الصَّفِّ المتَقَدِّمِ قبلَ الصَّلاةِ انقطعَ اشتغالُهُمْ،

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الاعتكاف، باب اعتكاف النساء، رقم (١٩٢٨)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الاعتكاف، باب متى من أراد الاعتكاف في معتكفه، رقم (١١٧٣) من حديث عائشة.

(٢) سقط ما بين المعقوفتين في الأصل، وأثبته كما في بقية النسخ.

(٣) علي بن محمد الربعي اللخمي، أبو الحسن، من كبار فقهاء المالكية، له تعليق كبير على «المدونة» توفي سنة ٤٧٨هـ «الديباج» ص٢٠٣.

(٤) عبدالملك بن حبيب بن سليمان، السُّلَمي العباسي الأندلسي المالكي، فقيه الأندلس، توفي سنة ٢٣٨هـ. «الديباج المذهب» ص٢٥٢.

(٥) في (ج) زيادة: أو المدرس.

(٦) «التاج والإكليل لمختصر خليل» ٢/ ١٧٩، و«مواهب الجليل في شرح مختصر خليل» ٥/ ١٠٠.

(٧) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، (٤٤٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وإن اشتَغَلُوا فيه شَوَّشُوا على المصَلِّين، وإن تقدَّمَ بعدَ إقامَةِ الصَّلاةِ كانَ سَعْيُهُم آخرَ المسجدِ إلى أوَّلِهِ عَمَلٌ والإمامُ يُصَلِّي، ورُبَّما فَاتَتْهُم الرَّكعةُ الأولى، فأرخَصَ لهم في ذلك.

ومِمَّا تَتَرَشَّحُ بهِ مَسْأَلَتُنَا ما وَرَدَ في «صَحيحِ البُخاري» في حديثِ الوَليدَةِ التي اتُّهِمَتْ بالوِشَاحِ، قالتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كانَ لها خِبَاءٌ في المسجدِ، أو حِفْشٌ، وهُوَ البيتُ الصَّغِيرُ»[١] [٧/ ب].

وفي «البخاريِّ» أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ضَرَبَ لسعْدٍ خَيْمَةً في المسجدِ حينَ أُصِيبَ يومَ الخندَقِ في أَكْحَلِهِ؛ ليَعُودَهُ مِنْ قُرْبٍ[٢].

وَمِنْ ذلك أيضاً بِنَاءُ المقْصُورَةِ في أيَّامِ عبدالملكِ، والمتَوَلِّي على عِمَارَتِهَا عُمَرُ بنُ عبدالعَزيزِ، فاقْتَطَعَ لها قِطْعَةً مِنْ قِبْلَةِ المسْجِدِ لما أرادَ حِفْظَ وَالي المدينَةِ مِنَ الغيْلَةِ.

وقدْ ذكرَ ابنُ رُشدٍ[٣] في «البَيانِ والتَّحصيلِ»[٤] أَنَّ مروانَ بنَ الحكَمِ فُعِلَ معهُ كما فُعِلَ مع عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأرادَ اليَمانيُّ قتلَهُ في صلاةِ الصُّبحِ، فأمرَ بمقصُورةٍ يُصلي فيها ويتحصَّنُ.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الصلاة في المسجد، باب نوم المرأة في المسجد، رقم (٤٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الصلاة، باب الخيمة في المسجد للمرضى، رقم (٤٥١)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، رقم (١٧٦٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) محمد بن أحمد ابن رُشد، أبو الوليد: قاضي الجماعة بقرطبة، من أعيان المالكية، وهو جدُّ ابن رشد الفيلسوف، صنَّف عدة كتب في الفقه والحديث، توفي سنة ٥٢٠هـ. «الديباج» ص٢٧٨.

(٤) «البيان والتحصيل» ١/ ٢٩١.

فلمّاً دعت الضَّرورةُ إلى قطعِ جانبٍ [من][1] المسجدِ جازَ ذٰلك للحاجَةِ إليهِ، ثُمَّ لم تَزَلْ حتَّى احترقَتْ بحَريقِ المسجدِ في ليلةِ الجمُعَة أَوَّلَ شهرِ رَمضانَ من سنة ٦٥٤هـ، ومنها بقيت آثارهُ إلى الآن.

ومن ذٰلك بناءُ القبَّةِ الَّتِي في صحنِ الحَرَمِ الشريفِ، عمَّرها الإمامُ النَّاصرُ لدينِ الله[2] لحفظِ حَواصِلِ الحرمِ والمصحفِ الكريمِ العثمانيِّ، وعدَّةِ صناديقَ كبارٍ مُتقدمةِ التّاريخِ صُنِعَت بعد الثَّلاثِمِئةِ، وكانت عِمارَتُها سنةَ ستٍّ وسبعينَ وخمسِمئةٍ، وجميعُ ما فيها سالمٌ إلى اليومِ، وقدْ سَلِمَت من الحريقِ ببركةِ المصحفِ الكريمِ[3]، ولكونِهَا متوسطةً في المسجدِ.

ومن ذٰلك الدَّكَّةُ[4] الخشبُ التي يُبَلِّغُ عليها المؤذِّنونَ خلفَ الإمامِ.

وممَّا [٨/أ] يُشيِّدُ بناءَ هٰذه المسألةِ ويُقوِّي أركانَها: إباحةُ العلماءِ المالكيِّينَ التعزيرَ في المسجدِ الشَّريفِ[5]، وإنَّما ذٰلك تيسيرٌ للحُكَّامِ؛ لئَلا يَتكلَّفُوا الخروجَ عندَ إقامةِ الحدودِ، مع العلمِ بما يجبُ للمسجدِ منَ التَّنزيهِ عمَّا هُوَ أقلُّ من هٰذا، مثلُ رفعِ الصَّوتِ بالعِلمِ، بلْ أدنى من ذٰلك،

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط في الأصل و(أ) و(ج)، والمثبت من (ب).

(٢) أحمد أبو العباس المستضيء بأمر الله، وُلد سنة ٥٥٣هـ وتوفي سنة ٦٢٢هـ أطول الخلفاء العباسيين حكماً، وأول من كسا الكعبة ديباجاً أسود. انظر: «الكامل» لابن الأثير ١٢/١٠٨-١٨١، و«سير أعلام النبلاء» ٢٢/١٩٢-٢٤٣.

(٣) لا شك أنّ للقرآن الكريم عظمةً، ولا يبعد أن يحفظ الله مكاناً لعظمة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن ليس هٰذا بمطّرد، والله أعلم.

(٤) الدَّكَّة: بالفتح، والدُّكَّان بالضم: بناء يُسطَّح أعلاه للمقعد. «القاموس المحيط»: «دكك».

(٥) ذكر القاضي عياض أنَّ سحنون كان يضرب بالدرة وما خَفَّ من الأدب في الجامع. «ترتيب المدارك» ٤/ ٦١.

حتَّى قيلَ: لا تُوقَدُ فيهِ النَّارُ، لكنَّهم رَاعُوا المصلحةَ العامَّة، ورأوا أنَّ المسجدَ بُنِيَ للشَّرعِ وأهلِهِ، ولم يُبْنَ لغيرِهِ.

ثُمَّ يرجعُ الكلامُ مَعَ هٰذا الَّذِي تَصدَّى للإنكارِ والإفتاءِ، هَلاَّ أنكرَ عليه غيرَ مجلسِ الحكَّامِ من مجالِسَ لغيرِهِ نُصِبَت، ومُتَّكآتٍ خُصِّصَتْ، وبالقَصَّةِ بُيِّضَتْ، ودِكَاكٍ عندَ الأبوابِ، ومواضعَ من المسجدِ مُحجَّرَةٍ، وخَلَوَاتٍ مُبتدَعَةٍ؟ لو تكَلَّمَ في جميعِها لساعَدهُ الخلقُ، وشَكرهُ الحقُّ، بل تكلَّم بالهوَى، ومَنْ اتَّبعَ هَواهُ فقدْ غَوَى.

ثُمَّ إنَّهُ لم ينكرْ الحجرَ المرآةَ الَّذِي وضعت [عن قريب][1]، وأثبتت في الحائطِ مِن داخلِ المسجدِ وجُصِّصَتْ، وهي من البدَعِ المنكَرَةِ، تَستدعي شُروراً مُتَعدِّدَةً، ومُنكَراتٍ مُتجدِّدَةً، لا يَسعُ ذِكْرُهَا هنا لكثرةِ تعدَادِهَا.

ثُمَّ هٰذا الحَجَرُ الَّذِي وقعَ فيهِ الكلامُ، وَضْعُهُ مُتقدِّمٌ، وُضِعَ في زمنٍ غيرِ هٰذا الزَّمنِ، فإنْ خَفِيَ عليهِ ذٰلك، فليسأَلْ عن ذٰلك مَنْ سَبقهُ مِن أهلِ ذٰلك الزَّمانِ الَّذِي هُوَ خيرُ الزَّمَنيْنِ، وأعدلُ القرنَينِ.

وإنَّما غُيِّرَ اسمُهُ، ورُفِعَ عِلْمُهُ لَمَّا ذهبَ [٨/ ب] أهلُهُ، ومَنْ كان يَجلِسُ عندَهُ، ويستندُ إليهِ، مثلُ القاضي سِرَاجِ الدِّينِ[2]، ومثلُ الشَّيخِ عبدالعزيزِ الجبَرْتي[3] الَّذِي كَانَ للقرآنِ تَلاَّءً، ثُمَّ كانَ يَجلسُ إليهِ إذا دخلَ المسجِدَ

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة من (أ) و(ب) و(ج).

(٢) القاضي سراج الدِّينِ الدمنهوري: هو عمر بن أحمد بن الخضر بن أبي الفتوح الأنصاري المصري الخطيب الفقيه الشافعي، أول خطباء أهل السنة بعد زوال الدولة الفاطمية. توفي سنة ٧٢٦هـ. «الدرر الكامنة» ٣/ ١٤٩-١٥٠، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٢٦٧.

(٣) عبدالعزيز الجبرتي: اشتهر قديماً بالزيلعي، وكان شجاعاً مهاباً، يحفظ القرآن، جهوري الصوت. «التحفة اللطيفة» ٤/ ٣٩٧.

سَحَراً، فيرفعُ صوتَهُ بالقرآنِ بحُسْنِ نِيَّةٍ، وأداءٍ حَسَنٍ عن رَوِّيَةٍ.

وإنَّما العِلَّةُ في هٰذا المُنكرِ غَمُّهُ مِنَ العِلم وأهلِهِ، وما وُهِبُوا من بَذلهِ ونشرِهِ، وأرى أنَّ رَفعَ أهلِ العلمِ عَيبٌ فيه، وعلمٌ على كونهِ ليس من أهلِهِ.

وفي مثلِ هٰذا أنشدَ بعضهم:

إذا محَاسِــــنيَ اللَّاتِي أُدِلّ بهـــا ... صَارَت ذُنوباً فقُلْ لي كيفَ أعتذرُ؟

وما أحقُّ شيءٍ بالإزالةِ مَا أُحدِثَ بالمنارَتينِ الشَّماليتين، قُدِّم بَابُهُما على بَابيهِمَا الأصليَّيْنِ، وجُعِلَ ما بين البَابَينِ في كلِّ منارَةٍ خَلوةٌ اقْتُطِعَ بها جانبٌ من المسجدِ كبيرٌ، لا شكَّ في تَحريمهِ ووجوبِ تغييره.

وقدْ تساهلَ مَنْ كان قَبْلَنَا، فزادُوا على الحُجرَةِ الشَّريفَةِ مقصُورَةً كبيرَةً، عُمِلَتْ وِقايةً مِنَ الشَّمسِ إذا غربَت، فكانت بِدْعَةً وضَلالةً يُصلِّي فيها الإمَامِيَّةُ من الشِّيعَةِ؛ لأنَّها قَطعَتْ الصُّفُوفَ، واتَّسمَتْ بمَنْ ذكرَ مِنَ الصُّفُوف، فَغلَبَتْ المفسدَةُ بها، وَندِمَ على ذٰلك مَنْ وضَعَهَا.

ولقدْ كنتُ أسمعُ الشَّريفَ عَزَّازاً(١) يقفُ على بَابِهَا، ويؤذِّنُ بأعلى صوتِهِ مِنْ غيرِ خَوْفٍ ولا فشلٍ: «حيَّ عَلَى خيرِ العَمَلِ»، وكانت مَواطنَ تدريسِهِم وخَلوةَ عُلمائِهِم، حَتَّى قَيَّضَ الله لها [٩/ أ] مَنْ سَعَى فيها، فأصبحَتْ ليلةً مُخلَّعَةً أبوَابُهَا، مُعْوَجَّةً أخشَابُهَا، مُتَّصِلَةً صُفُوفُهَا، وأُدْخِلَ بَعضُها في الحجرَةِ الشَّريفَةِ، وجُعِلَ فيها البابُ الشَّامي، وكانَ في ذٰلك مَعَ زيادةِ الرِّوَاقَينِ اللَّذَيْنِ زَادَهُمَا المِلكُ النَّاصرُ(٢) جُملةُ مصالحَ ودفعُ مفاسدَ، فلذٰلك سكتَ أهلُ العلمِ،

(١) عزَّاز: أحد الأشراف: ذكره هٰكذا في «التحفة اللطيفة» ٥/ ٦٢، وفي نسخة (أ): «عزار».

(٢) الملك الناصر: محمد بن قلاوون الصالحي، المتوفى سنة ٧٦٢هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ١٤٤، «شذرات الذهب» ٦/ ١٣٤.

ولم يعدُّوا ذٰلك من تَحجيرِ المسجدِ وتَضييقِهِ.

ولقدْ كانَ في وسطِ المسجدِ سِقَايَةٌ يُحمَلُ إليها الماءُ مِنَ العَينِ، بَنَاهَا شيخُ الخُدَّامِ[١] في ذٰلك الوقتِ، وأوقَفَ عليها أوقَافاً من مَالِهِ، وكانت مُتَقدِّمَةً على النَّخلِ، تقديرُهَا خمسةَ عشرَ ذِراعاً في مِثْلِهَا، وجعلَ في وَسَطِها مَصْرَفاً للماءِ مُرَخَّماً، ونصبَ فيها مَواجيرَ للماءِ وأزيَاراً، ودوارقَ وأكواباً، حَجَّرَهَا[٢] بالخشبِ والجَرِيدِ، وجعلَ لها غَلَقاً[٣] من حَديدٍ، واستمرَّتْ السِّنينَ العديدَةَ، فَكَثُرَ الشَّرُّ فيها والتزاحمُ عندَها، وصارَ يَدخُلُها مْنَ يَتوضَّأُ فيها، وربَّما يزيلُ عنهُ الأذى من استقربَ المدى. ثمَّ تعدَّى الحالُ في شرِّها إلى أن تُضوربَ عليها بالسِّلاحِ، وطلبَ الخُدَّامُ شَريفاً أسَاءَ على أهلِ الحرمِ، فَسلَّ سَيْفَهُ على النَّاسِ وغُلِّقَتِ الأبوابُ، واحتَمَى بالسِّكين حتَّى جَاءَ رُسلُ الأميرِ فأخرجوهُ، وذٰلك كُلُّهُ بسببِ السِّقَايَةِ وَمَنْ فيها.

فلمَّا غَلبتْ مَفسدَتُها على مَصلَحَتِهَا، أُزيلَتْ عن اجتماعِ مِنَ القاضي شرفِ الدِّينِ الأُمْيُوطي[٤]، والشيخِ ظهيرِ الدِّينِ[٥]، فانظرْ هٰذا التَّحجيرَ

---

(١) هو ريحان الهندي أحد خدمة المسجد النبوي، توفي سنة ٧٢٠هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٠٧، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥٣٠.

(٢) حجَّرها: ضرب عليها مناراً. «القاموس»: حجر، أي: بنى عليها حدوداً بالخشب والجريد.

(٣) ما يغلق به الباب. «القاموس المحيط»: غلق.

(٤) محمد بن محمد اللخمي الشافعي الأميوطي: كان فقيهاً يضرب بحفظه المثل، له خُطَبٌ مدوَّنة تسمَّى «الجواهر السنية». توفي سنة ٧٤٥هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ١٥٩- ١٦٠، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٣٨٧٦). وستأتي ترجمته في فصل القضاة.

(٥) ظهير الدِّين: مختار بن عبدالله الأشرفي، ستأتي ترجمته ص٨٨.

الكثيرَ في وسطِ المسجدِ كيف اغتُفِرَ للمصلحةِ حتَّى كَثُرَتْ [٩/ ب] المفسدةُ، وتَعَدَّتْ فأُزِيلَتْ.

ومِمَّا أدركتُ مِنَ البِدعِ الَّتِي أراحَ اللهُ منها:

ما كانَ يفعلُهُ الشُّرَفَاءُ من آل سِنَانَ وغيرُهُم، كانوا إذا أظَلَّ الحاجُّ يُسَارعونَ إلى الحجرةِ بصناديقَ وكراسيَّ يَنْصِبُونَهَا حولَ الحجرةِ الكريمةِ يتَّخِذُونهَا مَقاماتٍ، يَجلِسُونَ عليها للتَّزوير:

عندَ الصُّندوقِ الَّذِي يُقابلُ رأسَ النَّبيّ ﷺ.

وعندَ المسمارِ الَّذِي في الرُّخَامِ إلى اليومِ واحدٌ.

وعندَ أبي بكر الصّديقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واحدٌ.

وعندَ بيتِ فاطمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا واحدٌ.

وعندَ المحرابِ الَّذِي في الحجرةِ واحدٌ.

لا يَقْدِرُ أحَدٌ يُشارِكُهُم في مَناصِبِهم، ولا يَنفصلُ عنهم الزائرُ إلا بشيءٍ، وإن كانَ معهُ شمعٌ أو ماءُ وَردٍ، أو هَديةٌ أو نَذْرٌ، فهمُ الآخذونَ لهُ يجعلُونَهُ في صَناديقِهم بِدَعاً مَقرُونَةً بِجاهِ الوُلاةِ من الشُّرَفاء.

لم يزلْ كذلك حَتَّى قَوِيَتْ السُّنَّةُ وأهلُها، واتفقتْ الجماعةُ كُلُّها على قَاضيهَا وشيخِها، فزالَ ذلك ببركةِ نَبِيِّنا ﷺ، وإنَّما ذلك بسببِ اجتماعِ الكلمةِ وحُسْنِ النيَّةِ، وفَّقَنا اللهُ لما يُرضيهِ، ورضَّانا بما يَقضيه.

وزالَ ببركةِ الاجتماعِ أشياءُ كثيرةٌ من هذه الأنواعِ، منها:

أَنِّي أدركتُ قُرَّاءَ الإمَاميَّةِ وأئمَّتَها إذا دخلَ شهرُ رَمضانَ، أخذُوا [١٠/أ] مِنَ القُبَّةِ شَمعاً وشمعَداناتٍ على عددِهِم يَنصبُونَها بعدَ صلاةِ العشاءِ الآخِرَةِ في مَجالِسهِم، ويَدْعُونَ في كُتُبهِم، ويَرْفَعُونَ أصْواتَهُم حولَ الرَّوضَةِ، والنَّاسُ في الصَّلاةِ لا يَعْلَمُونَ صَلاتَهُم من رَفعِ أصْواتِهِم، ولا يَسْمَعُونَ قراءَةَ إمامِهِم لكثرةِ قُرَّاءِهِم، ويَجتمعُ عليهِم منَ النَّاسِ خَلقٌ كثيرٌ، ويَتخلَّلُونَ تلكَ الأدعيةِ بسجَدَاتٍ لهم مُوَقَّتَةٍ، ولم يَزالُوا كذٰلك إلى أن اجتمَعَتْ الكَلِمَةُ، وظهرَ الحقُّ، فمُنِعُوا من ذٰلك إلا في بيُوتِهِم ومجالِسهِم، فانحسَمَتْ المادَّةُ، وزالَتْ تلكَ العَادَةُ.

ولقدْ أدركتُ جَماعَةً من المجَاورينَ والخدَّامِ لا يَقرؤونَ كُتُبَهُم، ولا يَسمعُونَ حَديثَ نَبيِّهِم إلا في خُفْيَةٍ، حتَّى قَدِمَ الصَّاحبُ ابنُ حنَّا[١] رحمَهُ الله تعَالى، وأقامَ بالمدينةِ فكَثَّرَ من قراءةِ المواعيدِ، وقامَ على آلِ سِنَانَ والقَياشِين[٢]، فهابُوا مكانَهُ مِنَ السُّلطانِ، وأذعنُوا واستعمَلوا التَّقِيَّةَ حتَّى رَجعُوا فيما زَعموا كلُّهم سُنَّةً.

وكانَ يأتيهِ مِنَ اليَنبُع قَوافِلُ بالدَّقيقِ والقمحِ والأَرُزِّ وأنواعِ الحُبوبِ، فيعطي منهُ الخدَّامَ والمجاوِرينَ، ويمُدُّ رُؤسَاءَ الإماميين وكبارَ الشُّرَفاء

---

(١) الصاحب ابن حنَّا: أحمد بن محمد بن علي، زين الدِّينِ ابن الصاحب محي الدِّينِ ابن الصاحب بهاء الدِّينِ بن حنَّا، كان فقيها رئيساً وافر الحرمة، أزال كثيرا من البدع في الحرمين، توفي سنة ٧٠٤هـ. «المغانم المطابة» ٢/ ٤٦٣. «الدرر الكامنة» ١/ ٢٨٣، «التحفة اللطيفة«١/ ٤١٢.

(٢) القياشيون: هم من الإمامية الذين جاؤوا من العراق إلى المدينة المنورة، وانتشر بهم مذهب الإمامية، ذكر ذٰلك ابن فرحون في موضع آخر من الكتاب ص٣٣٩. وقاشان: مدينة قرب أصبهان تذكر مع «قُم» وأهلها كلهم شيعة إمامية. انظر: «معجم البلدان» ٤/ ٢٩٦.

المقيمينَ، حتَّى أشهَدوا على أنفسهم أنَّهُم سُنَّةٌ، ولا يحكمُونَ بأحكامِ البِدْعَةِ، لأنه كان الحكَّامُ منهُم [١٠/ب] والفقهاءُ منهم، ولم يَزالُوا كذلك حتَّى سافرَ الصَّاحِبُ عنهُم، فرجَعُوا إلى حَالِهِم، ولكن بعدَ هَضمِ جَانِبِهِم، وكسرِ شَوكتهم، فاستمرتْ المواعيدُ والقراءاتُ، والاستماعُ والسَّماعَاتُ، وذهبَ ببركةِ إقامتِهِ كثيرٌ مِنَ البِدَعِ المؤَسَّسَةِ في المسجدِ الشريفِ منها:

صَلاةُ الرَّغَائِبِ الَّتِي رُوِيَ أنَّها تُصَلَّى ليلةَ أوَّلِ جُمُعَةٍ من شهرِ رجب، أدركتُ القاضيَ سراجَ الدِّينِ الآتي ذكرهُ يُصَلِّيهَا في الجماعَةِ في الرَّوضَةِ المشرَّفَةِ بلا نَكيرٍ، ولا مُعَارضٍ، ومُستَنَدُهُ في ذٰلك مَا رواهُ فيها وأخذَ به كثيرٌ من الصُّوفِيَّةِ، وقدْ نصَّ العُلماءُ على أنَّها من البِدَعِ وإنْ كانت مِن فَضائلِ الأعمالِ المستندة لحديثٍ ضعيفٍ(١)، لكنَّهُ عارَضَ العملَ بِهِ قولُهُ ﷺ: «لا تَخُصُّوا ليلةَ الجمُعَةِ بقيَامٍ ولا يومَهُ بصيَامٍ»(٢).

رحمهُ الله وجزاهُ خيراً.

---

(١) ورد في حديث طويل ولفظه: «رجب شهر الله وشعبان شهري ورمضان شهر أمتي... ولكن لا تغفلوا عن أول ليلة جمعة من رجب فإنها ليلة تسميها الملائكة الرغائب... وما من أحد يصوم يوم الخميس، أول خميس في رجب، ثم يصلي فيما بين العشاء والعتمة ثنتي عشرة ركعة..». أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» ٢/ ١٢٤-١٢٦ من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً. وفي سنده علي بن عبدالله بن جهضم اتهم بالكذب ورجاله مجهولون.
وقد حكم على الحديث بالكذب ابن الجوزي وابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٢٩٣) وابن القيم في «المنار المنيف» (ص ١٦٧)، والذهبي في «ميزان الاعتدال» (٣/ ١٤٢)، وقد أفردها بالتأليف كثير من العلماء، منهم ابن حجر في «تبيين العجب» (ص ٥٢).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الصيام، باب كراهة صيام يوم الجمعة منفرداً (١١٤٤) من حديث أبي هريرة بلفظ: «لا تختصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم».

وفي إقامتِهِ بالمدينةِ توفيتْ زوجَتُهُ في شهرِ رَجب، وهي بنتُ الشيخِ ابنِ أبي جَمْرَةَ[١].

وقيلَ: إنَّها وَرِثَتْ سرَّ الشيخِ[٢] والدِها نفعنا[٣] اللهُ به، وحُمِلَتْ مِنَ المدينةِ إلى عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ، ودُفِنَتْ عندَ شهداءِ أُحُدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وقبرُهَا مَعروفٌ يُزَارُ للبرَكَةِ[٤]، رَحِمَهَا اللهُ.

وأما الصَّاحِبُ زينُ الدِّينِ، فكانت وفاتُهُ [١١/ ب] بِمِصْرَ سنةَ أربعٍ وسبْعِمئة، وكان في الزَّمَنِ الأولِ مُقرئَ الحرمِ ورئيسَه الشريفُ الموصِلِّي مُحَمَّدُ بنُ سَعيد[٥]، فبَلَغَني أنَّ شَرِيفاً سَمِعَ يَوماً أنَّ مُحَمَّدَ بنَ سَعيدٍ يَقرأُ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾[٦] فضرَبَهُ برجلِهِ، وقالَ: قُمْ يا عدُوَّ اللهِ! كمْ تَكذِبُ على اللهِ؟! وخَوَّفَهُ بالقتلِ حتَّى دَخَلَ على بعضِ الشُّرَفَاءِ فأَمَّنَهُ منهُ، وتوفِّيَ مُحَمَّدُ بنُ سعيدٍ بِمِصْرَ سنةَ تسعٍ وتسعينَ وستِّمئة.

---

(١) أبو محمَّدٍ، عبدالله بنُ سعدٍ، ابنُ أبي جمرةَ الأندلسيُّ المالكيُّ، صاحب «مختصر صحيح البخاري» المعروف بـ«مختصر ابن أبي جمرة»، توفي بمصر سنة ٦٩٩هـ. «نيل الابتهاج» ص١٤٠.

(٢) ليس في أصول الشرع وفروعه أسرارٌ، فضلاً عن كونها تورَث.

(٣) في الأصل: «ورثت من الشيخ والدها نفع» والمثبت من (أ) و(ج).

(٤) لم تُشرع زيارة القبور لهذا، إذ قال النبيُّ ﷺ: «زوروا القبور فإنَّها تُذكِّر الموت»، رواه مسلم (٢٣٠٤). وتُشرع للدعاء للأموات، فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنها سألت رسول الله ﷺ: كيف تقول عند زيارة البقيع؟ فقال لها: «قولي السَّلام على أهل الدِّيار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منَّا والمستأخرين، وإنّا إن شاء الله بكم للاحقون».

(٥) الشريف الموصلي: هو محمد بن سعيد. كما ذكر ذلك السخاوي في «التحفة اللطيفة» ٦/ ١٦٩. وفي الأصل: «وريسيه الشرف الموصلي ومحمد بن سعيد»، والمثبت من بقية النسخ.

(٦) الآية (١٠١) من سورة التوبة.

فنحنُ اليومَ في عَافِيَةٍ ونِعَمٍ من الله مُتَتَالِيَةٍ، ببركةِ هٰذا النَّبيِّ الكريمِ ﷺ، لو سَلِمْنَا من البَغْضَاءِ التي يتحمَّلُهَا بعضُنَا في بعضٍ، أزالَهَا الله بالاجتماعِ والموافقةِ على الكلمةِ السَّنِيَّةِ، والشَّريعَةِ العَلِيَّةِ.

وإنَّمَا ذكرتُ هٰذه البِدَعَ وإن لم تكنْ مقصودَنَا استرسَالاً عندَ ذكرِ ما ابتُدِعَ لمصلحةٍ؛ ليُعْلَمَ أنَّ الحقَّ يَدومُ بدوام البَاعثِ عليهِ، ويزولُ بزوالِهِ، ولو طالَ [زَمَانُهُ][١] وكثُرَ أتبَاعُهُ، ويعلمَ أنَّ للاجتماعِ أثراً، وللتفريقِ أَثَراً، ولقدْ كانَ الأَوْلَى بالنَّاسِ اليومَ إنكارُ البدعِ المتَعَلِّقَةِ بالصَّلاةِ الَّتِي هي عِمَادُ الدِّينِ، فمِنْ ذٰلك: ما أُحْدِثَ في الصفوفِ من التَّقطيعِ، وتقديمُ مَنْ هو أهلٌ للتقديمِ، وتأخيرُ مَنْ هُوَ أهلٌ للتَّأخيرِ، وتأديبُ مَنْ صلَّى وحْدَهُ مع القدرةِ على الدخُولِ في الصَّفِّ.

قال ابنُ حَبيبٍ - من عُلمائِنَا -: أدركتُ بالمدينةِ رِجَالاً مُوَكَّلينَ بالصُّفوفِ، [١١/ب] فإذا رَأوا رَجُلاً يُصَلِّي خَلفَ الصَّفِّ وحدَهُ وفي الصَّف لهُ مَدْخَلٌ، تركوهُ حتَّى يفرغَ من صلاتِهِ، ثُمَّ ذهبوا بهِ [إلى][٢] الحبسِ، ومذهبُ أَحْمَدَ بن حَنبل[٣] بُطلانُ الصَّلاةِ.

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل وأثبته من (أ).

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل، وأثبته من (أ) و(ب) و(ج).

قال مالك: لا بأس بالصلاة خلف الصف إذا لم يجد فسحة في الصف وهوَ الشأن عنده، وكره مالك جذب الرجل من الصف ليصلي معه. «المدونة الكبرى» لسحنون ١/ ١٠٢.

(٣) قال ابن قدامة: «من صلَّى وحده رَكْعَة كاملة لم تصح صلاته، وهٰذا قول النخعيَّين والحَكَم، والحسن بن صالح، وإسحق، وابن المنذر، وأجازه الحسن، ومالك، والأوزاعي، والشافعي، وأصحاب الرأي؛ لأنّ أبا بكرة ركع دون الصفّ فلم يأمرهُ النبيُّ ﷺ بالإعادة، ولأنه موقفٌ للمرأة فكان موقفاً للرجُل، كما لو كان مع جماعة». «المغني» لابن قدامة ٢/ ٢١١-٢١٢.

ولقدْ رَأيتُ عن يمينِ الإمامِ وشمَالِهِ أهلَ الصِّناعَاتِ الدَّنِيَّةِ، كالدَّبَّاغِ والحدَّادِ والجزَّارِ، ومَنْ اشتهَر منهُم بقلَّةِ الدِّينِ، وذٰلك يتكرَّرُ منهُم كَثيراً، ويليهِ أيضاً مِنْ جَهَلَةِ الفقرَاءِ من لا يفهَمُ صلاتَهُ، ولا يَعقِلُ ما وجبَ عليهِ منها وفيها، ويُتْرَكُ الفُقَهَاءُ والقُرَّاءُ في أطرافِ الصُّفُوفِ، وخلفَ تلك الجُلوفِ! وقد قال ﷺ: «لِيَلِيَنِي مِنْكُم أولُو الأحلامِ والنُّهَى»[1].

قالَ القاضي أبو بكرٍ ابنُ العَرَبِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ينبغي أن لا يُصلِّيَ خَلفَ الإمامِ إلّا مَنْ يَصلُحُ للاستخلافِ[2]، أو يَرُدُّ عليهِ، أو يُصْلِحُ صَلاتَهُ.

قالَ: ولو سَبَقَهُ مَنْ ليسَ هُوَ كذٰلك أقيمَ، وقُدِّمَ إلى الإمامِ مَنْ هو أحَقُّ، وأغربُ مِنْ هٰذا كُلِّه أنَّهُ يأتي عامِّيٌّ أو جَاهِلٌ إلى مكانِ عالمٍ أو فَقيهٍ لهُ يُصلِّي فيه نحو العشرينَ سنةٍ أو أكثرَ منهَا فيجلسُ فيهِ! فإذَا قيلَ لهُ: هٰذا موضعُ فُلانٍ، يقولُ: ليس في المسجدِ موضعٌ لأحدٍ، وأنا وهُوَ في ذٰلك سَواءٌ، أينَ هٰذا المتعرِّضُ للأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ عن هٰذه المنكراتِ الخفيَّاتِ؟

ومن ذٰلك: [١٢/أ] ما يقعُ عندَ فتحِ أبوابِ الحرمِ الشَّريفِ في السَّحَرِ لصَلاةِ الصُّبحِ مِنَ الزَّحمَةِ والجري العظيمِ، وقلَّةِ الأدبِ في تلكَ الحضرَةِ المشرَّفَةِ، وفي ذٰلك الوقتِ المباركِ، والمضارَبَةُ والمشاتَمَةُ حتَّى إنَّهم ليقتلُ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة باب تسوية الصفوف وإقامتها رقم (٤٣٢) من حديث ابن مسعود.

(٢) في (ب) و(ج) زيادة: لما يُتوقَّعُ مِنْ حَاجَةِ الإمامِ إلى مَنْ يَسْتَخْلِفُهُ.

قال ابن العربي في «أحكام القرآن» ٣/ ١٠٣: «ومجاورة الإمام لا تكون لكل أحد، كما قال النبيُّ ﷺ: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهى»، فمن يلي الإمام ينبغي أن يكون لمن كانت هٰذه صفته، فإن نزلها غيره أُخِّر له وتقدَّم هو إلى هٰذا الموضع؛ لأنه حقه بأمر صاحب الشريعة».

بعضُهم بَعضاً من شِدَّةِ الخنقِ! ولقد أرادَ تكرُوريَّانِ يَقتتلانِ بالسَّكاكينِ في الرَّوضةِ لأجلِ ذٰلك!! وهٰذه المصيبةُ العظيمةُ تندفعُ بأيسرِ شيءٍ، وهي لو كانَ قَوَمَةُ المسجدِ وأصحابُ النَّوبَةِ يَفتحونَ للأوَّلِ فالأولِ من النَّاسِ ما حصلَ هٰذا البَلاءُ العظيمُ، ولكنَّهُم يَترُكُونَ النَّاسَ على الأبوابِ حتَّى تَضيقَ أنفُسُهم، فيَدخُلونَ دفعةً واحدةً يَحْطِم بعضُهُم بعضاً، وإثمُ ذٰلك على مَنْ مَنَعَهُم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[(١)].

ومن ذٰلك: السَّجَاجِيدُ الَّتِي يُؤبِّدُونَهَا في المسجدِ ليلاً ونَهاراً، ولقدْ كنتُ أعرفُ خَدَماً، مُوَكَّلِينَ بالسَّجَاجِيدِ، كَرَيْحَانٍ المَوْصِليّ[(٢)]، إذا وضعَ أحدٌ سُجَّادَتَهُ ومَا كانَ أهلاً لذٰلك أخذُوهَا ورَمَوْهَا، ومتى غلبُوا عليهم وكثروا، جَمعُوا السَّجَاجِيدَ وأخفوهَا حتَّى يحترقَ عليها صَاحِبُهَا، فيردُّونَهَا إليهِ ويُتَوِّبُونَهُ، ولقدْ أُحرِقَتْ مَرَّةً على بابِ النِّسَاءِ، وما زالوا على سَائرِ الأزمانِ يهتَبِلُونَ بذٰلك اهتبَالاً[(٣)] عظيماً، فإنَّا لله وإنَّا إليهِ رَاجِعُونَ!

[١٢/ ب] قالَ الشَّيخُ أبو عبدالله القَصْرِيُّ[(٤)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رأيتُ في النَّومِ كَأَنَّ ناراً استعَرَتْ في الرَّوضَةِ وهي تَعْمَلُ في السَّجَاجِيدِ، وأنا أصيحُ: واللهِ، يارَبِّ! ما سجَّادَتِي من تلكَ السَّجَاجِيدِ، وكانَ يحكي هٰذه الرؤيَا في المِيعَادِ،

---

(١) الآية (١١٤) سورة البقرة.

(٢) ريحان الموصلي: أحد خُدَّام المسجد النبوي الشريف. «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥٢٩.

(٣) اهتبل: احتال، «تاج العروس»: هبل. وفي نسخة (ب): «احتيالاً» بدل «اهتبالاً».

(٤) أبو عبدالله القصري: محمد بن غصن الأنصاري، عالم زمانه بالقراءات كان مشهورا بالصلاح والولاية، توفي ٧٢٣هـ. «التحفة اللطيفة»٦/ ٤٢٥.

وكانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقولُ: إذا جئتُ إلى الرَّوضَةِ ولم أجدْ لي فيها مَدْخلاً فَرِحْتُ وسُرِرْتُ لما أرى من الحِرْصِ على الخيرِ، وكانَ رَحِمَهُ اللهُ يَقْصِدُ طَرَفَ الصَّفِّ من جِهَةِ المنبرِ حتَّى يَرْفَعَ البِساطَ، ويُصَلِّيَ على الرَّملِ.

ومن ذٰلك: عُلُوُّ الرَّملِ في الرَّوضَةِ، ووَضْعُ بعضِهِ على بَعْضٍ، ولقد كُنْتُ دائماً أرى الشُّيوخَ من أهلِ الخيرِ يَنْفُضُونَ الرَّمْلَ من الرَّوضَةِ يَنْسِفُونَهَا نَسْفاً بِالمَسَاحِي حَتَّى يَعْلُوَ ما حول المحرابِ مِنَ الرُّخام مُحَافَظَةً على قُربِ مَقَامِ المأمومِ مِنَ الإِمَامِ في العُلُوِّ، وبالغُوا مَرَّةً في الحَفْرِ، فَوَجَدُوا يَداً مَقْطُوعَةً مُكَفَّنَةً مَدْفُونَةً في الرَّوضَةِ، كأنَّها قُطِعَتْ ظُلْماً، فأرادَ مَنْ هيَ مِنْهُ أَنْ تكونَ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ جهلاً منهُ وقِلَّةَ يَقِينٍ بالله، فإنَّ الله تَعَالى يَعْلَمُ مَنْ ظَلَمَ فَيُكافِيهِ، ومَنْ ظُلِمَ فَيُجَازِيهِ.

ومَرَّةً وَجَدُوا أُصْبُعاً مَدْفُونَةً تحتَ الشُّبَّاكِ! وما زالَ العُلَماءُ والأَئِمَّةُ يتحرَّجُونَ من كونِ الحَضْرَةِ مُنْخَفِضَةً انخِفَاضَها اليومَ، فَمِنْ قَائِلٍ بالكَرَاهَةِ، ومِنْ قَائِلٍ بالمَنْعِ(١) [١٣/ أ].

وقدْ اعْتَبَرْتُها اليومَ بالذِّرَاعِ، فَوَجَدْتُها ذراعاً بالرَّمْلِ والبِسَاطَ الَّذِي علا عليها وعلى تَرخِيمِها، وفي المَذْهَبِ قَولانِ في صِحَّةِ صَلاةِ الإمامِ والمأمُومِ، وعلى هٰذا يَجِبُ القولُ بالمَنْعِ.

---

(١) قال النووي في «المجموع» ٤/ ٢٩٥: «قال أصحابنا: يُكره أن يكون موضع الإمام أو المأموم أعلى من موضع الآخر، فإن احتيج إليه لتعليمهم أفعال الصلاة أو ليبلغ المأموم القوم تكبيرات الإمام ونحو ذٰلك استُحب الارتفاع لتحصيل هٰذا المقصود، هٰذا مذهبنا، وهو رواية عن أبي حنيفة، وعنه رواية أنه يكره الارتفاع مطلقا، وبه قال مالك والأوزاعي، وحكى الشيخ أبو حامد عن الأوزاعي أنه قال: تبطل به الصلاة».

وأمَّا في أيامِ القاضي سِراجِ الدِّينِ فَمَنْ بَعْدَهُ إلى أيامِ شَرَفِ الدِّينِ(١)، فإنَّهم كانُوا يَرفَعُونَ مَقامَ الإمَامِ بِشَيءٍ مِنَ الرَّمْلِ حَتَّى تَزُولَ الكَرَاهَةُ والمَنْعُ. ولما قامَ في ذٰلك شَرَفُ الدِّينِ الأُمْيُوطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأرادَ إزَالَةَ الخَشَبِ وما حولَهُ وطَمْسَ المَقَامِ أو رَفْعَهُ، قامَ في وجْهِهِ الخُدَّامُ، وكَرِهُوا أَنْ يَتَغَيَّرَ مَقَامُ النَّبِيِّ ﷺ، واستَعَانُوا على القَاضِي بالأَشْرَافِ، فكَفَّ وانْتَقَلَ عن المحرابِ، وصارَ يُصَلِّي إلى الأُسْطُوَانَةِ الَّتِي تُقَابِلُ أُسْطُوانَةَ الوُفُودِ، ولَزِمَها إلى أَنْ ماتَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثُمَّ إنَّ الخدَّامَ رَفعَوا الرَّمْلَ الَّذِي كانَ يَرتَفِعُ به المَقَامُ فَنَزَلَ بِزَوالِهِ، ثُمَّ جعَلُوا الرَّمْلَ على التَّرخِيمِ الَّذِي حولَ المِحرَابِ، فارْتَفَعَ مَقَامُ المَأمُومِ وانْخَفَضَ مَقَامُ الإمامِ واتَّضعَ، وصارَ من الفُقَهاءِ مَنْ يَدْفَعُ الكَرَاهَةَ بما يَحْصُلُ مِنَ القُربِ إلى مَقَامِهِ ﷺ ومَوضِعِ قَدَمَيْهِ، ويقولُ: في هٰذا مِنَ الفَضْلِ ما يُوازِي [ما](٢) في ذٰلك مِنَ النَّقْصِ(٣).

وهٰذهِ - واللهُ أَعْلَمُ - نَزْعَةٌ صوفيَّةٌ لا عِلْمِيَّةٌ ولا عَمَلِيَّةٌ، وكَذٰلك رأيتُ

---

(١) هو الزبير بن علي سيد الكلّ الأسواني، أبو عبدالله المصري، ولد سنة ٦٦٠هـ، وكان خيِّراً صالحاً متصدِّراً للإقراء، توفي سنة ٧٤٨هـ. «الدرر الكامنة» ٢/ ١١٣. «التحفة اللطيفة» ٣/ ٨.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط في الأصل، وهو من (أ) و(ب) و(ج).

(٣) سئل الإمام مالك: لو أنَّ إماماً صلَّى بقوم على ظهر المسجد والناس خلفه أسفل من ذٰلك؟ قال: لا يعجبني ذٰلك، وكره أن يصليَّ الإمام على شيءٍ وهو أرفع مما يصلي عليه ومَنْ خَلْفَه مثل المكان الذي يكون في المحراب ونحوه من الأشياء. قيل: وإن فَعَل؟ قال: عليهم الإعادة وإن خرج الوقت؛ لأن هٰؤلاء يعبثون، إلا أن يكون على مكان يسير الارتفاع. وقال مالك: لا بأس في الصلاة فوق ظهر المسجد والإمام في داخله، قال: وكان آخر ما فارقنا مالكاً أنه كره أن يصليَّ الرجل خلف الإمام بصلاة الإمام على ظهر المسجد. قال ابن القاسم: ولا يعجبني هٰذا من قوله، وقوله الأول به آخُذ. انظر: «المدونة الكبرى» لسحنون ١/ ١٢٠. وفي النسخة (ج): «النقصان» بدل «النقص».

كُلَّ مَنْ بَحَثَ في هٰذه [١٣/ ب] المسأَلَة لا يُصَوِّبُ الانخفاضَ إلا لِمَعْنًى ليس مِنَ الشَّريعَةِ، وما أَقْرَبَ قولَهُم إلى قُلُوبِ العَامَّةِ وضَعَفَةِ الفُقَهاءِ، وأسرَعَهُ إليها! إذ يُقَالُ: ما يُدنِينِي مِنْ مَحَلٍّ كانَ الرَّسُولُ ﷺ يُصَلِّي فيه ويَجْلِسُ عليه، ويَمَسُّ جَبْهَتَهُ ويَدَيهِ أَحَقُّ بِأَنْ أُمَرِّغَ وَجْهِي عليهِ، وأَمْلأَ مَحَاجِرِي من تُرابِ قَدَمَيهِ.

وهٰذا حَقٌّ وكُلُّنا نَقُولُ بِهِ ونُحِبُّهُ، لَكِنَّ الخيرَ كُلَّهُ في اتِّباعِ سُنَّتِهِ وما أَمَرَ بِهِ، وما حَضَّ عليهِ، وَهُوَ ﷺ لم يَكُنْ مَوقِفُهُ مِنَ المَأْمُومِ أَخْفَضَ ولا أَعلَى، بل[(١)] كانَ هُوَ وأصحابُهُ في الموقِفِ سواءً[(٢)].

فَمَنْ خَالَفَ سُنَّتَهُ بِالهَوَى فَقَدْ غَوَى، بلِ التَّمادِي على المكروهاتِ والبِدَعِ الموضُوعَاتِ يُعَظِّمُها ويُصَيِّرُها كَبَائِرَ، فَمَنْ قَدَرَ على التَّغْيِيرِ والإِزَالَةِ فَلَمْ يَفْعَلْ يُخَافُ عليهِ أَنَّ عَمَلَهُ لا يُقْبَلُ، وأَنَّ اللهَ تعالَى عَنْ ذٰلك منه يَسْأَلُ، ثُمَّ إِنَّ القِيامَ في ذٰلك صارَ جَانِباً عَنْ هٰذه المعانِي، بل دَخَلَهُ حَظُّ النَّفْسِ والتَّعَصُّبُ في صُورَةِ التَّعَبُّدِ والتَّقَرُّبِ، أعاذَنا اللهُ مِنْ حُظُوظِ أَنْفُسِنا، وهَدَانَا لما فيهِ صَلاحُ دِينِنا، وأَلَّفَ بينَ قُلُوبِنا، بِرَحْمَتِهِ وكَرَمِهِ.

---

(١) في الأصل: «بل لو كان» ولا يستقيم السياق بها.

(٢) ويدل على هٰذا ما ورد في «صحيح البخاري» كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر (٨٧٥) من حديث سهل بن سعد وفيه: أنه ﷺ صلى بأصحابه وهو على المنبر ثم قال: «أيها الناس إنما صنعت هٰذا لتأتموا ولتعلموا صلاتي».
ووجهه أنه لو كان النبي ﷺ في موضع أعلى من المأمومين لما احتاج إلى الصعود على المنبر ليتسنَّى لهم رؤيته.

ثُمَّ مَعَ ما في المَقَامِ الشَّرِيفِ مِنَ الكَرَاهَةِ في الانْخِفَاضِ، أُضِيفَ إليه كِتَابةُ القُرآنِ العَزيزِ في قِبْلَةِ الإِمَامِ والمأمُوم، ولا خِلافَ بينَ [١٤/ أ] النَّاسِ في كراهَةِ هٰذا(١)، حتَّى قِيلَ بِبُطلانِ صلاةِ مَنْ قَرَأَهُ واشْتَغَلَ بهِ، مَعَ التَّزوِيقِ العَظِيمِ والتَّذهِيبِ الأَنِيقِ الَّذِي يَشْغَلُ المُصَلِّي، ولو كانَ بالوِلايةِ مُتَحَلِّي.

ألا ترى كيفَ رَدَّ رسولُ الله ﷺ الخَمِيصةَ لَمَّا [خافَ](٢) أَنْ يَشْغَلَهُ عَلَمُها في الصَّلاةِ وقال: «رُدُّوا هٰذه الخَمِيصَةَ على أبي جَهْمٍ وأْتُونِي بأَنْبِجَانِيَّته، فإنَّ عَلَمَها كادَ يَفْتِنُنِي في صَلاتي»(٣)؟

وهٰذا إنَّما هُوَ تَعلِيمٌ للأُمَّةِ وتحذيرٌ لهم مِنْ أَنْ يَكُونوا مِثْلَ هٰذا في الجُمْلَةِ مِنَ السُّنَّة.

وانظُرْ إلى فعلِ أبي طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا كانَ يُصَلِّي في حائِطِهِ فطَار دُبْسِيٌّ(٤) فَطَفِقَ يَتَرَدَّدُ ويَلْتَمِسُ مَخْرَجاً، فأَعْجَبَهُ ذٰلك فَجَعَلَ يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ

---

(١) قال البهوتي في «كشاف القناع» ١/ ١٣٧: «وتُكره كتابته - أي القرآن - في الستور وفيما هو مظنة بذله».

(٢) سقط ما بين المعقوفتين في الأصل وهو من بقية النسخ.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الصلاة، باب إذا صلَّى في ثوب له أعلام، رقم (٣٦٦)، ومسلم في «صحيحه» كتاب المساجد، باب كراهة الصلاة في ثوب له أعلام، رقم (٥٥٦) من حديث عائشة.
قال ابن الأثير في «النهاية» ١/ ١٧٢: «يقال كِسَاء أنبَجَاني منسوب إلى مَنْبِج المدينة المعروفة، وقيل إنها منسوبة إلى موضع اسمه أنْبجَان وهو أشبه؛ لأن الأوّل فيه تعسُّف، وهو كِساء يُتَّخذ من الصُّوف وله خَمْل ولا عَلَم له، وهي من أدْون الثِّياب الغليظة». وجميع المصادر السابقة ذكرت أنها «أنبجانية» لا «أنجبانية» كما وقع في الأصل.

(٤) دُبْسِي: قال ابن عبدالبر: طائر يشبه اليمامة. وقيل: هو اليمامة نفسها. «شرح الزرقاني على الموطأ» ١/ ٢٩١.

ساعةً، ثُمَّ رَجعَ إلى صَلاتِهِ، فإذا هُوَ لا يدري كَمْ صَلَّى! فقال: لَقَدْ أصابَتْني في مالي هٰذا فِتْنَةٌ، فجاءَ إلى رسولِ الله ﷺ فذكرَ لَهُ الَّذي أصابَهُ في حائِطِهِ مِنَ الفِتْنَةِ، وقالَ: يا رَسُولَ الله، هُوَ صَدَقَةٌ لله فَضَعْهُ حيثُ شِئْتَ(١).

وفي «المُوطَّأِ» أيضاً: أنَّ رَجُلاً مِنَ الأنصارِ كانَ يُصَلِّي في حائِطٍ(٢) لَهُ بِالقُفِّ - وادٍ من أَوْدِيَةِ المدينةِ(٣) - في زمانِ الثَّمَرِ، والنَّخْلُ قدْ ذُلِّلَتْ(٤)، فَهِيَ مُطَوَّقَةٌ بِثَمَرِها، فَنَظَرَ إليها فأعْجَبَهُ ما رأى مِنْ ثَمَرِها، ثُمَّ رَجعَ إلى صَلاتِهِ فإذا هُوَ لا يَدْرِي كَمْ صَلَّى! [١٤/ب] فقالَ: لَقَدْ أَصابَتْني في مالي هٰذا فِتْنَةٌ. فجاءَ عُثمانَ بنَ عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يومَئِذٍ خَليفَةٌ فَذَكَرَ لهُ ذٰلك، وقالَ: هُو صَدَقَةٌ فاجعلْهُ في سبيلِ الخيرِ، فَباعَهُ عُثْمانُ بنُ عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِخَمْسِينَ ألفاً، فَسُمِّيَ ذٰلك المالُ الخَمْسِينيَّ(٥).

وكم مِثْلِ هٰذا أَثْبَتَتْهُ السُّنَّةُ خَوفاً من مِثْلِ هٰذه البِدْعَةِ.

قالَ أبو الحَسَنِ اللَّخْمِيُّ في «التَّبْصِرَةِ»: قالَ مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَرِهَ النَّاسُ ما

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» كتاب الصلاة، باب النظر في الصلاة إلى ما يشغلك عنها، (٦٩). وقال ابن عبدالبر في «التمهيد» ١٧/ ٣٨٩: «هٰذا الحديث لا أعلمه يروى من غير هٰذا الوجه، وهو منقطع». وضعَّفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» ١/ ٧٤.

(٢) الحائط: البستان.

(٣) عَلَمٌ لوادٍ من أودية المدينة عليه مال لأهلها، والقُفُّ في الأصل: ما ارتفع من الأرض وغَلُظ، ولم يبلغ أن يكون جبلاً، والظاهر أنه في عالية المدينة، انظر «المغانم المطابة» ٣/ ١٠٤٨، و«المعالم الأثيرة» ص٢٢٧.

(٤) قد ذُلِّلَتْ: أي مالت الثمرة بعراجينها؛ لأنها بلغت حد النضج. «القاموس المحيط»: ذلل.

(٥) أخرجه الإمام مالك في«الموطأ»،كتاب الصلاة، باب النظر في الصلاة إلى ما يشغلك عنها (٧٠).

فُعِلَ في قِبْلَةِ المسجِدِ بالمدينَةِ مِنَ التَّزْوِيقِ(١)؛ لأَنَّهُ يَشْغَلُ النَّاسَ في صلاتِهِم، وأَرى أَنْ يُزَالَ كُلُّ مَا يَشْغَلُ النَّاسَ عن صلاتِهِم وإنْ عَظُم مَا كَانَ أُنْفِقَ فيهِ.

قلتُ: وإنما زَخْرَفَ المساجدَ مَنْ زَخْرَفَ فيها لمعنىً قَصَدُوهُ، لا لِزَخْرَفَةٍ؛ لأنَّ الوَقْتَ كانَ من الكُفْرِ والجاهِلِيَّةِ قريباً، فما كانَ يقومُ للمَسْجِدِ مِنَ التَّعظِيمِ والتَّفْخِيمِ قبلَ ما صُنِعَ فيهِ ما يقومُ [له](٢) بعد ذٰلك، فأرادوا ذٰلك المعنى.

ومِمَّا يَدُلُّ عليهِ: أنَّ جامِعَ بني أُمَيَّةَ لما بُنِيَ على هيئَتِهِ اليومَ بِالفُسَيفِساءِ وَوَلِيَ عُمَرُ بنُ عبدالعَزِيزِ، كَرِهَ أَنْ يكونَ المسجِدُ على هيْئَةٍ تشْغَلُ المُصَلِّي، فأَمَرَ بِأَنْ تُسْتَرَ القِبْلَةُ والجِدَارُ بالقُبَاطِيِّ(٣)، ثُمَّ قَدِمَ الشَّامَ رُهبانٌ(٤) فَسَأَلُوا عن الكَشْفِ حتَّى يَنْظُرُوا إليهِ، فأرْسَلُوا إلى أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ عبدالعزيزِ [١٥/ أ](٥) يسأَلُونَهُ في ذٰلك، فأَذِنَ لهم، فلَمَّا رَأَوهُ اسْتَعْظَمُوا ذٰلك، ودخل عِنْدَهُم مِنْ مُلْكِ الإسلامِ رَهْبَةٌ وعَظَمَةٌ، فَبَلَغَ ذٰلك عُمَرَ بنَ عبدالعَزِيزِ، فقال: أَرَى ما هُناكَ يَغِيظُهُم ويَكْبِتُهُم، اِرْفَعُوا القُباطِيَّ، فَرَفَعُوها.

وأمَّا ما يَتَأَوَّلَهُ بعضُ النَّاسِ أَنَّ الزَّخْرَفَةَ مَأذُونٌ فيها مِنَ قولِهِ ﷺ:

---

(١) «المدونة الكبرى» لسحنون ١/ ١٠٤، «التاج والإكليل لمختصر خليل» للمواق ١/ ١٦٤.

(٢) زيادة من (أ) وبها يستقيم السياق.

(٣) القِبْط: أهل مصر، وإليهم تنسب الثياب القِبْطية، بالضم على غير قياس. وقد تكسر. جمعها: قُباطي، وقَباطي. «القاموس المحيط»: قبط.

(٤) في الأصل: «راهبات». وفي (ب) و(ج): «راهبان». والمثبت من (أ).

(٥) من هنا سقطت في الأصل الصفحتان ١٥/ أ و١٥/ ب، والمثبت من (أ) ص١٤ السطر ١٥ حتى ص١٥ السطر ١٥، ومن النسخة (ب) ص٢٤ السطر الثالث حتى ص٢٥ السطر ١٣، ومن النسخة (ج) لوحة ٨/ ب السطر ١٤ حتى لوحة ٩/ ب السطر السابع.

«لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى تُزَخْرَفَ المَسَاجِدُ»[١] فَهُوَ غَلَطٌ بَيِّنٌ؛ لأَنَّهُ ﷺ عَدَّ هٰذا مِنَ الأشياءِ التي تَدُلُّ على فَنَاءِ الدِّينِ، وذَهَابِ مَنْ يَأْمُرُ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ، فقالَ: «مِنْ أشراطِ السَّاعَةِ أَنْ تُزَخْرَفَ المَسَاجِدُ كأنَّها البِيَعُ والكَنَائِسُ»[٢]، إنَّا لله وإنَّا إليهِ راجِعُونَ.

ذَهَبَ الرِّجالُ العامِلونَ بِعلْمِهم ... والمُنْكِرون لكلِّ أمرٍ مُنْكَرِ
وبَقِيتُ في خَلَفٍ يُزَيِّن بعضُهم ... بعضاً لِيَدفَعَ مُعْوِرٌ عن مُعْوِرِ[٣]

وما أَشْيَنَ البِدْعَةَ في مثلِ هٰذه الحَضْرَةِ الَّتي عُرِضَ على النَّبيِّ ﷺ تَزْيِينُها ورَفْعُ جُذُوعِها، فقالَ: «بلْ عَرِيشٌ كَعَرِيشِ أخي مُوسَى»[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» كتاب الصلاة، باب في بناء المساجد، رقم (٤٤٩)، وابن ماجه في «سننه» كتاب المساجد والجماعات، باب تشييد المساجد، رقم (٦٠٤)، والنسائي في «سننه» كتاب المساجد، باب المباهاة في المساجد (٢/ ٣٢)، وأحمد في «المسند» (٣/ ١٣٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناسُ في المساجد». والحديث صححه ابن خزيمة وابن حبان والنووي والألباني في «صحيح سنن أبي داود» ٢/ ٣٤٩.

(٢) أخرجه ابن مردويه في «تفسيره» عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، كذا عزاه السيوطي إليه في «الدر المنثور» (٧/ ٤٧٤)، وقد جاء في «سنن ابن ماجه» برقم (٧٤٠) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعاً: «أراكم ستشرفون مساجدكم بعدي كما شرفت اليهود كنائسها، وكما شرفت النصارى بيعها». ولكن في سنده ليث بن أبي سليم، ضعيف، وقد ضعَّفه البوصيري في «زوائده» والألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» ٦/ ٢٥٦. ولكن صحَّ عنه ﷺ مرفوعاً كما في «سنن أبي داود» برقم (٤٤٨) بلفظ: «ما أمرت بتشييد المساجد». قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: لتُزخرفنَّها كما زخرفت اليهود والنصارى.

(٣) رجل مُعوِرٌ: قبيح السريرة، «تاج العروس»: عور.

(٤) أخرجه الدارمي في «سننه» برقم (٣٨) والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٥٤١ عن الحسن البصري مرسلا. وله طرق أخرى مرسلة عن الزهري وراشد بن سعد وسالم بن عطية. والحديث صحَّحه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» ٢/ ١١٥.

=

أَمَّا مَا فُعِلَ [مِنْ][1] ذٰلك لِضَرُورَةٍ أو لِعُذْرٍ مَا، فيكادُ أَنْ يُغْتَفَرَ مِنْهُ شَيْءٌ ما وَجَدَ مُبْتَدِعُهُ لبدعِتِهِ عُذْراً إِنْ خَفَّفَ مِنْ ذٰلك قَدْراً، وإِنَّما المِيزَانُ القَوِيمُ، والقِسْطَاسُ المُسْتَقِيم في اتِّباعِ هٰذا النَّبِيِّ الكَرِيمِ، فالنَّاسُ اليومَ في جَانِبٍ عن سُنَّتِهِ واتِّباعِ مِلَّتِهِ وطَرِيقَتِهِ، وما أَحَقَّ المُجَاوِرِينَ لَهُ بِالأَدَبِ مَعَهُ، والسُّؤالِ عن أحوالِهِ وأقوالِهِ فَيَتَّبِعُونَها، خُصُوصاً قَوَمَةَ مَسْجِدِهِ الشَّرِيفِ وخُدَّامَهُ، ويَعْلَمُونَ أَنَّ خِدْمَتَهُ ﷺ تعظِيمُ العِلْمِ وأهلِهِ، ورَفْعُ مَنْزِلَتِهِم والقِيامُ بِحَقِّهِم، والتَّغَافُلُ عَنْ زَلَلِهِم، والشَّفَقَةُ على ضَعِيفِهِم؛ لأَنَّ مَنْزِلَتَهم مِنَ النَّبِيِّ ﷺ رَفِيعةٌ، ونِسْبَتُهُم إليهِ عَظِيمَةٌ، إِذْ جَعَلَهُم الوَارِثِينَ لهُ، ولا مِيرَاثَ لهم إلا ما حَمَلُوهُ مِنْ سُنَّتِهِ وشَرِيعَتِهِ.

وفي الحديثِ أَنَّ أبا هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَ السُّوقَ فقالَ لأهلِهِ: أراكُمْ هٰهُنَا ومِيرَاثُ رَسُولِ الله ﷺ يُقْسَمُ في المسجِدِ؟ فَذَهَبَ النَّاسُ إلى المسجِدِ وتَرَكُوا السُّوقَ، فَلَمْ يَرَوا شيئاً، فقالُوا: يا أبا هُرَيرَةَ، ما رَأَينا مِيرَاثاً يُقْسَمُ! قالَ: فما رَأَيتُم؟ قالُوا: رأينا قَوْماً يَذْكُرُونَ الله عَزَّ وَجَلَّ، ويقْرَأُونَ القُرْآنَ، ويَنشُرُونَ العِلْمَ، فَقَالَ: ذٰلك ميراثُ النَّبِيِّ ﷺ[2].

فواجبٌ إذنْ تَعْظِيمُهم وتَوقِيرُهُم، وما أَحَقَّ مَنْ إلى الرَّسُولِ ﷺ انْتَمى

= وأخرجه الطبراني في «الكبير» كما في «مجمع الزوائد» ٢/ ١٦ من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ثم قال الهيثمي: فيه عيسى بن سنان ضعفه أحمد وغيره، ووثقه العجلي وابن حبان. وله شاهد من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخرجه الدارقطني في «الأفراد» ٥/ ٣٧، وقال: غريب.

(١) ما بين المعقوفتين سقط في الأصل وفي (أ) و(ب) وهو من (ج).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٢/ ١١٤، والمنذري في «الترغيب والترهيب» ١/ ٨١، وحسَّن إسناده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/ ١٢٣.

بهٰذا المَعْنَى، فإنَّ سِرَّ المَخْدُومِ يَسْرِي إلى خَادِمِهِ فَيَتَأَدَّبُ بآدابِهِ، ويَشكُرُ الله تَعَالى إذ جَعَلَهُ على بابِهِ ومِنْ حُجَّابه، وأَنَّهُ أهلٌ لِنِسْبَةِ الخِدْمَةِ، وكَفَى بها مِنْ نِسْبَةٍ، فيُقَالُ: خَادِمُ(١) [١٦/ أ] النَّبِيِّ ﷺ، ويُمَثِّلُ نفسَهُ الغَوِيَّةَ بينَ يَدَيْهِ ﷺ، فيرضى لها مِنَ الأَدَبِ ما يَعْلَمُ أَنَّه يَرْضَاهُ لو رَآهُ، وأينَ القلبُ الصَّافِي، والعَقْلُ الوَافِي، الَّذِي يَنْظُرُ الأَولِياءَ في هٰذه المعانِي.

تنبيه: حكى لي الشَّيخُ الإمَامُ العَلاَّمَةُ أَقْضَى القُضَاةِ جمالُ الدِّينِ مُحَمَّدُ ابنُ أَحْمَدَ المَطَرِيُّ(٢): أَنَّهُ كانَ بِالمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ رَجُلٌ صَالِحٌ عَظِيمُ القَدْرِ، مِنْ أَرْبَابِ القُلُوبِ يُقَالُ لهُ: الزَّجَّاجُ، وكانَ شَيخاً لجمالِ الدِّينِ وللشَّيخِ مُحَمَّدِ ابنِ إبراهِيمَ المُؤَذِّنِ(٣)، وكانا بعدَ موتِ والِدَيهِما مُؤَذِّنَينِ مُتَواخِيَينِ في رِئَاسَةِ الأذَانِ، يَتَعَاقَبُونَ في الوَقْتِ.

قال لي: فكُنَّا نَجِيءُ إلى بابِ المَسْجِدِ في السَّحَرِ للدُّخُولِ لأجْلِ الأَذَانِ، فَنَجِدُ الشَّيخَ قاعِداً على البابِ في ذِكْرٍ وقِرَاءَةٍ، قالَ: فَأَدُقُّ البابَ، فيقولُ لي صاحِبُ النَّوبَةِ: مَنْ هٰذا؟ فأقولُ لهُ: مُحَمَّدٌ، فَيَفْتَحُ لي، ثُمَّ يَجِيءُ صاحِبي فَيَفْعَلُ مَعَهُ مِثلَ ذٰلك، ثُمَّ كَذٰلك لِثَالِثِنَا، وكانَ اسمُهُ عبدالرحمٰن، مِنْ قَرَابَةِ

---

(١) إلى هنا انتهى السقط في الأصل، وهو اللوحتان ١٥/أ، و١٥/ب، والمثبت من النسخ (أ) و(ب) و(ج).

(٢) محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى بن عشاش بن يوسف بن بدر بن علي الأنصاري: الخزرجي العبادي الساعدي المطري - نسبة للمطرية، أحد أحياء القاهرة - لكون مولده بها، ثم المدني، له «التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة». وانظر: «الدرر الكامنة» ٣/ ٣١٥، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٥٣٨.

(٣) محمد بن إبراهيم بن محمد بن المرتضى: الجمال أبو عبدالله الكناني، المصري ثم المدني، رئيس المؤذنين، مات في صفر سنة ٧٢٩هـ بالمدينة ودفن بالبقيع. «التحفة اللطيفة» ٥/ ٥٢٣.

الشَّيخ مُحَمَّدِ بنِ صَالِحٍ [١] نائِبِ الإِمَامَةِ والخَطَابَةِ:

قالَ: فخَلا الشَّيخُ بي وقالَ: يا مُحَمَّدُ، أَنْتَ تَتَصَوَّرُ ما أنا وأنتَ فيه كُلَّ لَيْلَةٍ؟

فقُلْتُ لهُ: لا عِلْمَ لي.

فقالَ لي: صَدَقْتَ، لو عَلِمْتَ لَظَهَرَ عليكَ أَثَرُهُ.

ثمَّ قالَ لي: أَحْضِرْ عَقْلَكَ وانْظُرْ إليَّ كيفَ أبقى بَعْدَكَ مَحْجُوباً عَنِ الدُّخُولِ وأنتَ مَأذُونٌ [١٦/ ب] لكَ دُونِي، فتدخُلُ وتَجْتَمِعُ بِمَحْبُوبِكَ وتَخْلو به وتَتَلَذَّذُ بِمُنَاجَاتِهِ، وأنا مَطْرُودٌ وراءَ البَابِ مَبْعُودٌ، يا بُنَيَّ هٰذا حالُ الآخِرَةِ لا يُفْعلُ بِكَ مِثْلَ ما هُوَ اليَومَ يُفْعَلُ بي، قالَ: فَوَجَدْتُ بذٰلك مَوْعِظَةً عَظِيمَةً وكُنْتُ عنها غَافِلاً.

فانظُرْ إلى هٰذا الشَّيخِ كيفَ نَبَّهَ على هٰذا الكَيْفِ، وحالُ مَنِ انْتَمَى إلى هٰذا المَحَلِّ يجرِي هٰذا المَجْرَى، أليسَ هُوَ ﷺ يَسْمَعُ مَنْ يُسَلِّمُ عليهِ؟ [٢] فإذا وَقَفَ أَحَدُنا بينَ يَدَيهِ كَوُقُوفِ المَمْلُوكِ بين يَدي المَالِكِ، وقَدْ خَالَفَهُ في أمرِهِ لَهُ ونَهْيِهِ، وارْتَكَبَ مِنَ الأَخْلاقِ السَّيِّئَةِ ما لا يَرْضَى به، أَلَيْسَ جَديراً بِأَنْ يُعْرِضَ عنهُ، ويَغْضَبَ عليهِ، ويقولَ لَهُ بِلِسَانِ الحَالِ: أَنْتَ لا تَصْلُحُ لِقُرْبِي،

---

(١) محَمَّدُ بنُ صالحِ بنِ إسماعيلَ، الشَّمسُ ابنُ التَّقيِّ الكِنانيُّ، المدنيُّ، الشافعيُّ، المقرئُ، المنسوبُ إليه بيتُ ابنِ صالحٍ بالمدينةِ، نائبُ الخطابة والإمامة بالحرم النبوي، كان شيخ القرَّاء بطيبة، مات بها سنة ٧٨٥هـ. «الدرر الكامنة» ٣/ ٤٥٧، «التحفة اللطيفة» ٦/ ١٨١، «شذرات الذهب» ٦/ ٢٨٩.

(٢) أخرج أبو داود في «سننه» كتاب المناسك، باب زيارة القبور، رقم (٢٠٤١)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٥٢٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «ما من أحد يسلِّم عليَّ إلّا ردَّ الله إليَّ روحي حتى أرُدَّ عليه السلام».

ولا أَنْ تَكُونَ فِي زُمْرَتِي، ولا أَرْضَى أَنْ تَكُونَ مَعِي، بِأَيِّ وَجْهٍ تأتِي إِلَيَّ وأَنْتَ المُسِيءُ إلى جِيرَانِي وأَحْبَابِي، ومَنْ هو مُنْتَمٍ إلى سُنَّتِي؟

فَمَا الجَوابُ يا ضَعِيفَ الرَّأيِ، وقَدْ أَخَّرَكَ عَمَلُكَ، وجَنَى عَلَيكَ خُلُقُكَ؟ ولا أقولُ هٰذا لِغَيري حَتَّى أبدأَ بِنَفْسِي، ولهٰذا أَمْثَالٌ في شَرِيعَتِهِ ﷺ يَشْهَدُ لما ذَكَرْتُهُ.

قالَ عُلَماؤُنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إذا أَكْرَى رَجُلٌ دَارَهُ لِرَجُلٍ، فَظَهَر منهُ دعَارَةٌ[١]، أو فِسْقٌ، أو شُرْبُ خَمْرٍ، أو سَرِقَةٌ، أو شِبْهُ ذٰلك مِمَّا يُؤذِي الجِيرانَ، فإنَّ الحَاكِمَ يَكُفُّ أذاهُ عن رَبِّ المنزلِ [١٧/أ] وَعَنِ الجِيرانِ، فإنْ كَفَّ وإلا أُخرِجَ منها ولَزِمَهُ كِرَاؤُها، فإنْ جاءَ مَنْ يَكْتَرِيها، وإلا تُرِكَتْ خاليةً ولزمه كِرَاهَا، وكَذٰلك لو كانت الدَّارُ مِلْكَهُ، وظَهَرَ منه شَيْءٌ مِنْ ذٰلك عاقَبَهُ الحَاكِمُ على ذٰلك، فَإِنْ لم يَنْتَهِ أَخْرَجَهُ الحَاكِمُ منها وباعَها عليهِ لِيَسْتَرِيحَ جِيرَانُهُ مِنْ ضَرَرِهِ[٢].

وفَّقَنا اللهُ للأَدَبِ في هٰذه الحَضْرَةِ الشَّرِيفَةِ، ورَزَقَنا حُسْنَ جِوارِهِ ﷺ وشَرَّفَ وكَرَّمَ، فاحْذَرْ أَنْ يُمْحَى اسْمُكَ مِنْ جِيرانِ المُجَاوِرِينَ، وأَنْ تَحْبَطَ خدمتك لهٰذا النَّبيِّ الكَرِيمِ، وأن تُنْفَى عَنْ هٰذا المَحَلِّ الأَسْنَى إنْ لم يَكُنْ حِسًّا فَبِالمَعْنَى.

فَيَجِبُ على كُلِّ مَنِ انْتَمَى إلى هٰذا الجَنَابِ الكَرِيمِ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِأَخْلاقِهِ ﷺ، ويُعَامِلَ جِيرَانَهُ بِما يُرضِيهِ مِنِ احْتِرَامِ الكبيرِ والصَّغِيرِ، والشَّفَقَةِ عليهم والعَفْوِ عنِ المُسِيءِ.

---

(١) أي: فجور وخيانة.، «القاموس المحيط»: دعر.

(٢) «المدَوَّنة» لسحنون، باب إلزام المتكاري الكراء ٣/ ٤٥٤.

فمِنْ أَخْلاقهِ ﷺ: الحِلْمُ والاحْتِمالُ، والعفوُ مَعَ القُدْرَةِ، والصَّبْرُ على ما يَكْرَهُ. ولما كُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ وشُجَّ وَجْهُهُ يومَ أُحُدٍ، فَقِيلَ لهُ: يا رَسُولَ الله لو دَعَوْتَ عليهِم فقالَ: «إنِّي لم أُبْعَثْ لَعَّاناً، ولكِنْ بُعِثْتُ داعِياً ورَحْمَةً لهم، اللهم اهْدِ قَومِي فَإِنَّهُم لا يَعْلَمُونَ»[(١)].

قالَ القاضي عِياضُ: انظُرْ ما في هٰذا القَولِ مِنْ جِماعِ [١٧/ ب] الفَضْلِ وحُسْنِ الخُلُقِ، وكَرَمِ النَّفسِ وغَايَةِ الصَّبْرِ والحِلْمِ، إذ لم يَقْتَصِرْ ﷺ على السُّكُوتِ عَنْهُم حتَّى عَفَا، ثُمَّ أَشْفَقَ عليهِم ورَحِمَهُم ودَعَا وشَفَعَ لَهُم، فَقَالَ: «اللهُمَّ اهْدِ»، ثُمَّ أظهَرَ سَبَبَ تِلْكَ الشَّفَقَةِ عليهِم والرَّحْمَةِ، بِقَولِهِ: «لِقَومِي»، ثُمَّ اعْتَذَرَ عَنْهُم بِجَهْلِهِم.

ولَمَّا قَالَ لَهُ الرَّجُلُ: اِعْدِلْ، فإنَّ هٰذه قَسْمَةٌ ما أُرِيدَ بها وَجْهُ الله[(٢)]!

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» ٢/ ١٦٤، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٦٢/ ٢٤٧ عن عبدالله بن عبيد بن عمير مرسلاً. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» برقم (١٦٣٦).
وأخرج الشطر الأول منه الإمام مسلم في «صحيحه» كتاب البر والصلة باب النهي عن لعن الدواب رقم (٢٥٩٩) من حديث أبي هريرة بلفظ: «إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة».
وأما الشطر الثاني فقد أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الأنبياء، باب: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ﴾ رقم (٣٢٩٠)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الجهاد، باب غزوة أحُد، رقم (١٧٩٢) من حديثِ ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ: «كأني أنظر إلى النبي يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، فهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».
(٢) مركّب من حديثين: فقول الرجل للنبي ﷺ: «اعدل» جاء في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند البخاري في «صحيحه» كتاب المناقب باب علامات النبوة رقم (٣٤١٤)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤).
وأما قوله: «فإنّ هٰذه قسمة ما أريد بها وجهُ الله» فقد أخرجها البخاري في «صحيحه» كتاب الأنبياء باب حديث الخضر رقم (٣٢٢٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لم يَزِدْ في جَوَابِهِ أَنْ بَيَّنَ لَهُ ما جَهِلَهُ، ووَعَظَ نفسه وذَكَّرَها بما قال لَهُ.

ومِنْ عَظِيمِ عَفْوِهِ وصَفْحِهِ: عَفْوُهُ عن اليَهُودِيِّ الَّذِي سَحَرَهُ(١)، وعفْوُهُ عن اليَهُودِيَّةِ(٢) الَّتِي سَمَّتْهُ في الشَّاةِ، وكَفُّهُ عنِ المُنَافِقِينَ مَعَ عِلْمِهِ بِنِفَاقِهِم وسُوءِ نِيَّاتِهِم(٣)، وعَفْوُهُ عَنِ الأَعْرَابِيِّ(٤) الَّذِي جَبَذَ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً حتَّى أَثَّرَتْ حَاشِيَةُ البُرْدِ في صَفْحَةِ عَاتِقِهِ الشَّرِيفِ.

ولمَّا أَظْهَرَهُ اللهُ على قُرَيشٍ لم يَشُكُّوا في اسْتِئْصَالِ شَأْفَتِهم، وإِبَادَةِ خَضْرَائِهِم، فَعَفَا عَنْهُم وقالَ: «ما تَقُولُونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُم؟»، فقالُوا: خيراً، أَخٌ كَرِيمٌ وابنُ أخٍ كَرِيمٍ، فقالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أقولُ كما قَالَ أَخِي

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الطب، باب السحر، رقم (٥٤٣٠)، ومسلم في «صحيحه» كتاب السلام، باب السحر، برقم (٢١٨٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الهبة، باب قبول الهدية من المشركين، رقم (٢٤٧٤)، ومسلم في «صحيحه» كتاب السلام، باب السم، رقم (٢١٩٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) يدل عليه حديث جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وفيه: كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال ﷺ: «دعوها فإنها مُنتنة»، فسمع بذلك عبدُالله بن أُبيّ فقال: فعلوها! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل! فبلغ النبيَّ ﷺ، فقام عُمر فقال: يا رسول الله، دعني أضربُ عنق هٰذا المنافق! فقال: دعه، لا يتحدَّث الناس أنّ محمداً يقتُل أصحابه. أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب التفسير، باب قوله ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ رقم (٤٦٢٢)، ومسلم في «صحيحه» كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، رقم (٢٥٨٤).

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب اللباس، باب البرود والحبرة، رقم (١٠٥٧)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الزكاة، باب إعطاء من يسأل بفحش رقم (١٠٥٧) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

يُوسُفُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾[(١)] الآيَةَ، اذْهَبُوا فأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[(٢)].

ورُوِي أَنَّ أعرابياً جاءَ يطلُبُ منهُ شيئاً [١٨/أ] فأَعْطَاهُ، ثُمَّ قالَ لهُ: «أَحسَنْتُ إليكَ؟» قالَ الأعرابيُّ: لا ولا أَجْمَلْتَ! فَغَضِبَ المُسْلِمُونَ وقامُوا، فأشارَ إليهم أَنْ كُفُّوا، ثُمَّ قامَ ودخلَ مَنْزِلَهُ وأرسَلَ إليهِ وزادَهُ شيئاً، ثُمَّ قالَ: «أَحْسَنْتُ إليكَ؟» قالَ: نَعَمْ، فَجَزَاكَ اللهُ من أهلٍ وعَشِيرَةٍ خيراً، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّكَ قُلْتَ ما قُلْتَ وفي نَفْسِ أَصْحَابي مِنْكَ شَيءٌ، فإنْ أَحبَبْتَ فَقُلْ بينَ أيديهِم ما قُلْتَ بينَ يَدَيَّ حتَّى يَذْهَبَ ما في صُدُورِهم عليكَ». قالَ: نَعَمْ. فلمَّا كانَ الغَدُ أو العَشِيُّ جاءَ، فقالَ ﷺ: «إنَّ هٰذا الأعرابيَّ قالَ ما قالَ، فَزِدْنَاهُ فَزَعَمَ أنَّهُ رَضِيَ، أَكَذٰلك؟» قالَ: نَعَمْ، فَجَزَاكَ اللهُ من أهلٍ وعَشِيرَةٍ خَيراً، فقالَ ﷺ: «مَثَلِي ومَثَلُ هٰذا مَثَلُ رَجُلٍ لهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عليهِ، فاتَّبَعَها

---

(١) سورة يوسف الآية (٩٢).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في «سيرته» ٤/ ٣١ قال: فحدَّثني بعض أهل العلم أنّ رسول الله ﷺ.
ورواه الطبري في «تاريخه» ٢/ ١٦١ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق عن عمر بن موسى الوجيه عن قتادة مرسلاً. وفي سنده ابن حميد، متَّهم بالكذب، وعمر بن موسى وضّاع. قاله الذهبي في «ميزان الاعتدال» ٣/ ٢٢٤، ونقله عنه ابن كثير في «البداية والنهاية» ٤/ ٣٠١ ساكتاً عليه.
قال الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» ٣/ ٣٠٨: وهٰذا سند ضعيف مرسل.
وأخرجه البيهقي في «سننه» ٩/ ١١٨ وفي «دلائل النبوة» ٥/ ٥٧ من طريق القاسم بن سلام بن مسكين عن أبيه عن ثابت البناني عن عبدالله بن رباح عن أبي هريرة. قال العراقي في تخريج «الإحياء» (٣/ ١٧٩): «فيه ضعف». ولكن ضعفه يسير وينجبر؛ فالقاسم بن سلام ضعّفه الأزدي والساجي، ولكن قال أبو حاتم: صدوق، وقال ابن حبان: مستقيم الحديث، ولهٰذا قال ابن حجر في «التقريب» (ص٤٥٠): «صدوق». وله شاهدٌ مرسل عن عبدالله بن عبدالرحمٰن ابن أبي حسين عند ابن زنجويه في «الأموال» رقم (٤٥٦).

النَّاسُ فَلَمْ يَزِيدُوها إلّا نُفُوراً، فَناداهُم صَاحِبُها: خَلُّوا بيني وبينَ نَاقَتِي، فَإِنِّي أَرْفَقُ بها مِنْكُم وأَعْلَمُ، فتوجَّهَ لها بينَ يَدَيْهَا، فأَخَذَ لها مِنْ قُمامِ الأرضِ، فَرَدَّها حتَّى جَاءَتْ واسْتَنَاخَتْ، وَشَدَّ عليها رَحْلَها واستَوَى عليها، وإنِّي لو تركتكُمْ حيثُ قالَ الرَّجُلُ ما قالَ فَقَتَلْتُمُوه دَخَلَ النَّارَ»[(١)].

ولمّا كَذَّبَهُ قومُهُ ناداهُ مَلَكُ الجبالِ وسَلَّمَ عليهِ، وقالَ: مُرْنِي [١٨/ ب] بِمَا شِئْتَ، إنْ شِئْتَ أَطْبَقْتُ عليهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فقالَ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أن يُخْرِجَ الله مِنْ أصلابِهِم مَنْ يَعبد الله وحدَهُ ولا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»[(٢)].

وقالَ لهُ جبرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنَّ الله تَعالى أمَرَ السَّماءَ والأرضَ والجبالَ أَنْ تُطِيعَكَ، فقالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أُؤَخِّرُ عن أُمَّتِي، لَعَلَّ الله أَنْ يَتُوبَ عليهِم»[(٣)].

ورِفْقُهُ ﷺ بالأعرابيِّ الَّذِي بالَ في المسجِدِ، وقالَ لأَصْحَابِهِ: «لا تُزْرِمُوهُ»[(٤)].

---

(١) أخرجه البزار كما في «كشف الأستار» ٣/ ١٥٩، وأبو الشيخ في «الأمثال» ص١٦٥ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩/ ١٦: «وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان وهو متروك». والحديث ضعفه العراقي في «تخريج الإحياء» ١/ ٦٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٠٥٩)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الجهاد، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) «الشفاء» للقاضي عياض ١/ ١٢٥.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم (٥٦٧٩)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره (٢٨٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ومعنى «لا تُزْرِمُوه»: لا تقطعوا بوله. «القاموس المحيط»: زرم.

وأمَّا حُسْنُ عِشْرَتِهِ وأَدَبِهِ، فَقَدْ انْتَشَرتْ بِهِ الأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ.

وقالَ عليٌّ - رضي الله عنهُ وكرَّمَ وَجْهَهُ - في وَصْفِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: كانَ أوسعَ النَّاسِ صَدْراً، وأَصْدَقَهُم لَهْجَةً، وأَلْيَنَهُم عَرِيكَةً، وأَكْرَمَهُم عِشْرَةً[1].

ومِنْ ذٰلك قِصَّتُهُ مَعَ قَيس بنِ سَعْدٍ: لمَّا زارَ سعداً وأرادَ الانصرافَ، قَرَّبَ سعدٌ حماراً ووطّأ عليهِ بِقَطِيفَةٍ[2]، فَرَكِبَ رَسُولُ الله ﷺ. ثُمَّ قالَ سَعْدٌ: يا قيسُ، اصْحَبْ رسولَ الله ﷺ. قالَ قيسٌ: فقالَ لي رَسُولُ الله ﷺ: «ارْكَبْ» فأَبَيْتُ، فقالَ لي: «إمَّا أَنْ تَرْكَبَ وإمَّا أَنْ تَنْصَرِفَ، فانْصَرَفْتُ»[3].

وفي روايةٍ [١٩/أ] أخرى: «ارْكَبْ أَمَامِي، فصَاحِبُ الدَّابَّةِ أَوْلَى بِمُقَدَّمِها»[4].

وكانَ رسولُ الله ﷺ يُؤَلِّفُهُم، ولا يُنَفِّرُهُم، ويُكْرِمُ كريمَ قَومٍ ويُوَلِّيهِ عَلَيهِم[5].

---

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ رقم (٣٦٣٨) وقال: ليس إسناده بمتصل.

(٢) القطيفة: دثار مُخمل. «القاموس المحيط»: قطف.

(٣) أخرجه أبو داود في «سننه» كتاب الأدب، باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان، برقم (٥١٨٥)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٣٢٥)، وأحمد في «المسند» ٣/ ٤٢١. قال ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٣٧: «وقد روي هٰذا من وجه آخر، فهو حديث جيِّد قوي».

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» ٣/ ٤٢٢، والطبراني في «الكبير» ١٨/ ٣٥٠، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/ ٢٣: ورجال أحمد ثقات.

(٥) «الشفاء» ١/ ١٢٠. وأخرج نحوه الترمذي في «الشمائل».

وقالتْ عائِشَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: «مَا كَانَ أَحَدٌ أحْسَنَ خُلُقاً مِنْ رسولِ الله ﷺ، ما دَعَاهُ أَحَدٌ مِنْ أصحابِهِ وأهلِ بَيْتِهِ إلا قَالَ: لبَّيكَ»[(١)].

وكان يُمازِحُ أصحَابَهُ ويُخالِطُهُم ويُحادِثُهُم، ويُدَاعِبُ صِبْيانَهُم، ويُجالِسُهُم في حِجْرِهِ، ويُجِيبُ دَعْوَةَ العَبْدِ[(٢)] والحُرِّ والأَمَةِ والمِسْكِين، ويعودُ المَرضَى في أقصَى المدينةِ[(٣)].

ولقَدْ قالَ يوماً: «أين فلانٌ؟» فقيلَ: مَرِيضٌ. فقالَ: «نَذْهَبُ إليهِ لِنَعُودَه». فقيلَ لهُ: بَعِيدٌ مَنْزِلُهُ، فقالَ ﷺ: «منهُ كانَ يأتينا».

وكانَ ﷺ يقبَلُ عُذْرَ المُعْتَذِرِ، فقالَ أَنَسٌ: ما الْتَقَمَ أَحَدٌ أُذُنَ رَسُولِ الله ﷺ فيُنَحِّيَ رأسَهُ، حتَّى يكونَ الرَّجُلُ الَّذِي يُنَحِّي رأسَهُ، وما أخذَ أحدٌ بيدِهِ فيُرسِلَ يَدَهُ، حتَّى يُرْسِلَهَا الآخَرُ[(٤)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» (ص٥٧)، والبغوي في «الأنوار في شمائل النبي المختار» ص٩٩، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢٩٣) من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا. وفي إسناده حسين بن علوان، كذبه أحمد ويحيى، وقال الدارقطني: متروك، والحديث ضعَّفه العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» ٢/ ٣٨١.

(٢) أخرجه الترمذي في «سننه» كتاب الجنائز، باب، رقم (١٠١٧) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، وفي سنده مسلم بن كيسان، قال ابن حجر في «التقريب» (ص٥٣٠): ضعيف.
ولكن له شواهد كثيرة عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة، رَضِيَٱللَّهُعَنهُم. انظرها في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني ٥/ ١٢٤ رقم (٢١٢٥).

(٣) «الشفاء» ١/ ١٢١. ونحوه في «الشمائل» للترمذي.

(٤) أخرجه أبو داود في «سننه» كتاب الأدب، باب في حسن العشرة برقم (٤٧٩٤)، وأبو يعلى الموصلي في «مسنده» ٦/ ١٨٧، وحسنه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» ٥/ ٤٨٤ رقم (٢٤٨٥).

ولم يَزَلْ على خُلُقٍ عَظِيم، ولم يُرَ مُقَدِّماً رُكْبَتَيْهِ بينَ يَدَي جَلِيسٍ لَهُ[(١)]، وكانَ يَبْدَأُ مَنْ لَقِيَهُ بِالسَّلامِ، ويبدَأُ أَصْحَابَهُ بِالْمُصَافَحَةِ[(٢)]، لم يُرَ قَطُّ مَادًّا رِجْلَيهِ بينَ [١٩/ ب] أصحابِهِ حَتَّى يُضَيِّقَ بهما على أَحَدٍ، حَتَّى إِنَّهُ يوماً أرادَ أَنْ يَمُدَّ رِجْلَهُ لِتَعَبٍ لَحِقَهُ، فَتَلَطَّفَ إلى جُلَسَائِهِ فَمَدَّ رِجْلَهُ الكَرِيمَةَ وقالَ لهُم: «ما تُشْبِهُ هٰذه»؟ فدارَتْ أَذْهَانُهُم إلى وُجُوهِ الْمُشَابَهَةِ، فلَمَّا أَعْيَوا وقدْ اسْتَرَاحَ، مَدَّ الأُخْرَى وقالَ لهم: «هٰذه»[(٣)]. يعني ﷺ: أَنَّهُ لا يُشْبِهُها إلّا الأُخْرى، فَحَصَلَ مَقْصُودُهُ مع بقاءِ حُسْنِ الأَدَبِ مَعَهُم ﷺ.

وكانَ ﷺ يُكْرِمُ مَنْ يَدْخُلُ عليهِ، وربَّما بَسَطَ له ثَوبَهُ، ويُؤْثِرُهُ بالوِسَادَةِ، ويَعْزِمُ عليهِ في الجُلُوسِ عليها إِنْ أبى[(٤)]، ويُكَنِّي أصحابَهُ ويَدْعُوهُم بِأَحَبِّ

---

(١) هو جزء من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه الترمذي في «سننه» كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب برقم (٢٤٩٠)، وابن ماجه في «سننه» كتاب الأدب، باب إكرام الرجل جليسه برقم (٣٧١٦)، وفي سنده علي زيد بن الحواري العمي، وهو ضعيف، وضعفه العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» ٢/ ٣٦٢، والألباني في «صحيح ابن ماجه» ٢/ ٣٠٤.

(٢) أخرجه الترمذي في «الشمائل» ص ٣٨، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٢/ ١٥٤ من حديث هند ابن أبي هالة. وضعفه الألباني في «مختصر الشمائل» ص ١٨.

(٣) أخرج أبو نعيم في «الحلية» ٩/ ٢٥٠ عن جابر بن عبدالله قال: ما رأيت رسول الله ﷺ مادًّا رجليه بين أصحابه. ثم قال: غريب من حديث ابن جريج لم نكتبه إلا من حديث محمد بن أسلم. وفي سنده عبدالحكم بن ميسرة ضعفه الدارقطني وقال: لا يتابع عليه. وقال الذهبي في «المغني في الضعفاء» ١/ ٣٦٧: هٰذا منكر. وانظر «لسان الميزان» ٣/ ٣٩٤.
وله شاهد من حديث أنس بن مالك، أخرجه الدارقطني في غرائب مالك -كما قال العراقي في «تخريج الإحياء» ٢/ ٣٦٢- بلفظ: ما رؤي قط مادا رجليه بين أصحابه حتى يضيق بها على إلا أن يكون المكان واسعاً لا ضيق فيه. ثم قال الدارقطني: باطل.

(٤) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» ٢/ ١٩٧: حديث «نزعه وسادته ووضعها تحت الذي يجلس إليه» أحمد من حديث ابن عمرو: «أنه دخل عليه فألقى إليه وسادة من أدم حشوُها ليف...» الحديث، وإسناده صحيح. =

أَسْمَائِهِم تَكْرِمَةً لهم. ولا يَقْطَعُ على أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يَتَجَوَّزَ، فَيَقْطَعَهُ بِنَهْيٍ أو قِيَامٍ، ويُرْوى: «بانْتِهَاءٍ»(١).

ويُرْوى: أَنَّهُ كانَ لا يَجْلِسُ إليه أَحَدٌ وهو يُصَلِّي إلّا خَفَّفَ صَلاتَهُ، وسأَلَهُ عن حَاجَتِهِ، فإذا فَرَغَ عادَ إلى صَلاتِه(٢).

وكانَ أكثَرَ النَّاسِ تَبَسُّماً، وأطيَبَهُم نَفْساً، مَا لم يُنَزَّلْ عليهِ قُرآنٌ، أو يَعِظْ أو يَخطُبْ(٣).

= وروى الطبراني في «الكبير» ٦/ ٢٢٧ والحاكم في «المستدرك» ٣/ ٦٩٢ من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال سلمان: دخلت على رسول الله ﷺ وهو متكئ على وسادة فألقاها إليّ. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/ ٣١٨: وفيه عمران بن خالد الخزاعي وهو ضعيف. والحديث ضعفه الذهبي في «الميزان» ٣/ ٢٣٦، والعراقي في «تخريج الإحياء» ٢/ ١٩٧، والألباني في «الضعيفة» ١١/ ٧٠٤ رقم (٥٤٢٣).

(١) روى الطبراني في «المعجم الكبير» ١١/ ٤٤١ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «جاءت بنت خالد ابن سنان إلى النبي ﷺ فبسط لها ثوبه وقال: بنت نبيٍّ ضيَّعه قومه». وفي سنده قيس بن الربيع وهو ضعيف. انظر «ميزان الاعتدال» ٨/ ٢٢٢، و«الإصابة» ٢/ ٣٧٣. وروى البيهقي في «دلائل النبوة» ١/ ٢٩١ وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٣/ ٣٤٢ من حديث الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الطويل في صفة النبي ﷺ، وفيه: «ولا يقطع على أحدٍ حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام».

(٢) ذكره القاضي عياض في «الشفا» ص١٢٢، وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» ١/ ٦٢٩: «لم أجد له أصلا». وانظر «كشف الخفا» ٢/ ١٣١، و«الفوائد المجموعة» ص٢٨.

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» ٨/ ٢٠٨ عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الهيثمي في «المجمع» ٨/ ٣٠٢: «رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف».

وروى البزار في «مسنده» كما في «كشف الأستار» برقم (٢٤٧٧) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه الوحي أو وعظ قلت: نذيرُ قوم أتاهم العذاب، فإذا ذهب عنه ذٰلك رأيتَ أطلق الناس وجهاً وأكثرَهُم ضحكاً وأحسنهم بشراً. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/ ٣٠٣: وإسناده حسن. =

وكانَ ﷺ يَفلِي ثوبَه، ويَحْلِبُ شاتَهُ، ويَرْقَعُ ثَوبَهُ، ويَخْصِفُ نعلَهُ، ويخدِمُ نَفْسَهُ، ويَقُمُّ البيتَ، ويَعْقِلُ البَعِيرَ، ويَعْلِفُ النَّاضِحَ، ويأكُلُ مَعَ الخَادِمِ ويَعْجِنُ [٢٠/ أ] مَعَها، ويَحْمِلُ بِضَاعَتَهُ مِنَ السُّوقِ[(١)].

وقالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خَدَمْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فما قالَ لي أُفٍّ قَطُّ، ولا قالَ لي في شيءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ صَنَعْتَهُ؟ ولا لِشَيءٍ تركتُهُ: لِمَ تركتَه؟[(٢)].

= وروى الترمذي في «سننه» برقم (٣٦٤١) وأحمد في «المسند» ٤/ ١٩٠ من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما رأيت أحداً أكثر تبسُّماً من رسول الله».

(١) روى أحمد في «المسند» ٦/ ٢٦٠ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان يخيطُ ثوبه ويخصفُ نعلَه وكان يعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم». وروى البخاري في «الأدب المفرد» برقم ٥٤١، وابن حبان في «صحيحه» ١٢/ ٤٨٨ بسند صحيح عنها قالت: «ما كان إلا بشراً من البشر، يَفلي ثوبَه ويحلِبُ شاته ويخدم نفسه». وروى ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٥٤/ ١٩٨ من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في وصف أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي ﷺ، وفيه: «كان حبيبي محمد ﷺ يعقل البعير ويعلف الناضح». قال ابن عرّاق في «تنزيه الشريعة» ١/ ٣٣٦: وفيه عبدالوارث بن الحسين بن عمر القرشي، قال الذهبي: خبر موضوع، والمتهم به عبدالوارث.
وقال الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» ٧/ ٤٠: وروى أبو الحسن ابن الضحاك عن أبي سلمة بن عبدالرحمٰن عن أبي سعيد الخدري قال: «كان رسول الله ﷺ يعالج في بيته، كان يعلف الناضح، ويعتقل البعير، ويقم البيت، ويحلب الشاة، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويأكل معه خادمه، ويطحن عنه إذا دعاه، ويشتري التمر من السوق، فلا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده، أو يجعله في طرف ثوبه، فيبلغ به إلى أهله». ثم قال الصالحي: وفي سنده ميسرة بن عبد ربه. قلت: كذبه البخاري وأبو حاتم وأبو زرعة وأبو داود وتركه النسائي وابن حبان.
وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» ٢/ ٩٦٤: لم أقف له على إسناد.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، رقم (٥٦٩١)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً رقم (٢٣٠٩).

وكان رسولُ الله ﷺ قدْ وَسِعَ النَّاسَ بَسْطُهُ وخُلُقُه، فصارَ لهم أَباً، وصارُوا عندَهُ في الحَقِّ سواءً(١).

وكانَ دائمَ البِشرِ، سَهْلَ الخُلُق، لَيِّنَ الجَانِبِ، ليسَ بِفَظٍّ، ولا غَلِيظٍ، ولا سَخَّابٍ في الأسواقِ، ولا فَحَّاشٍ، ولا عيَّابٍ، ولا مزَّاحٍ، ولا يجزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، ولكنْ يَعفُو ويَصْفَحُ ﷺ(٢).

ولو تُتُبِّعَ هٰذا لَمَلأَ الصُّحفَ فُصُولُهُ وأبوابُهُ، وأَعْجَزَ الكُتَّابَ تدوينُهُ وكِتَابُهُ، فَحَقٌّ عَلَى جميعِ أُمَّتِهِ العَامِيِّ والشَّرِيفِ، والقَوِيِّ والضَّعِيفِ - خُصوصاً

---

(١) هو جزء من حديث رواه الترمذي في «الشمائل» ١/ ٣٤، والطبراني في «الكبير» ٢٢/ ١٥٥، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» ٥/ ٢٧٥١، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٢/ ١٥٤ من حديث الحسن بن علي عن هند بن أبي هالة وعن أبيه علي بن أبي طالب في وصفهما للنبي ﷺ. وانظر «البداية والنهاية» لابن كثير ٦/ ٣٣، و«مختصر الشمائل» للألباني ص ١٨.

(٢) روى البخاري في «صحيحه» كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ رقم (٤٥٥٨)، وأحمد في «المسند» ٢/ ١٧٤ واللفظ له، عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاصي فقلت: أخبِرني عن صفةِ رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل والله، إنّه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: (يا أيها النبيُّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وحرزاً للأمِّيّن، وأنت عبدي ورسولي، سمَّيتك المتوكلَ، لستَ بِفَظٍّ ولا غليظٍ ولا سخّاب بالأسواق، ولا يدفع السيئةَ بالسيئةِ ولكن يعفو ويغفر). وروى الترمذي في «الشمائل» ١/ ٣٤، والطبراني في «الكبير» ٢٢/ ١٥٥، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٢٤، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٢/ ١٥٤ من حديث الحسن بن علي عن هند بن أبي هالة، وعن أبيه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصفهما للنبيِّ ﷺ وفيه: «كان دائم البِشرِ سهلَ الخُلُقِ، ليِّنَ الجانبِ ليس بِفَظٍّ، ولا غليظٍ، ولا صخَّابٍ، ولا فحَّاشٍ، ولا عيَّابٍ، ولا مدّاحٍ».

وجاء في «صحيح مسلم» كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام رقم (١٢١٣) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وفيه: «وكان رسول الله رجلاً سهلاً».

مَنْ جاوَرَهُ وخَدَمَ ضَرِيحَهُ - أَنْ يقتَبِسَ مِنْ أخلاقِهِ، ويتأدَّبَ بآدابِهِ، ويُرَوِّضَ نفَسَهُ على اتِّبَاعِ سُنَّتِهِ العَلِيَّةِ، ولو أَنْ يَكُفَّ يَدَهُ إذا غُلِبَ على لِسَانِه، ويُعَظِّمَ مَنْ تَفَقَّهَ في دينِهِ، واتَّبَعَ سُنَّةَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وسَنَنِ آلِهِ وصَحَابَتِهِ، وإذَا رَأَى مِنْ حَمَلَةِ القُرآنِ والعِلْمِ أحداً سُرَّ بِهِ وبِرُؤيَتِهِ، وسأَلَ مِنْ دَعْوَتِهِ، ولا يُسِيءُ الظَنَّ بأحدٍ بأدنَى هَفْوَةٍ أو زَلَّةٍ؛ [٢٠/ب] فإنَّ الإنسانَ ليسَ بِمَعْصُومٍ، ولو حازَ كُلَّ العُلُومِ.

فصل

ولقدْ أدركتُ مِنَ الخُدَّام الصَّالحينَ، ومن المُجاوِرينَ العَالِمينَ العامِلِينَ، أقواماً على الخيرِ مُتَعَاوِنينَ، وعلى البرِّ مُتظَاهِرِينَ، ولِسُنَّتِهِ ﷺ عاملينَ، رَحِمَهُمُ اللهُ أجمعينَ.

فأوَّلُ مَنْ أدركْتُهُ مِن مشايخِ الخُدَّام [بِالحَرَم](١) الشَّرِيفِ مِمَّنْ عَقَلْتُهُ: **العَزِيزيُّ عزيزُ الدَّولَةِ**(٢)، وفي أَيَّامِهِ غُرِسَ كثيرٌ مِنَ النَّخلِ الَّذِي بِالمَسْجِدِ اليومَ، وكانَ منهُ شيءٌ قبلَ العَزِيزيِّ، وماتَ أكثرُهُ.

وإنْ قُلْتَ: كيفَ فعلَ ذلكَ وهُوَ مِنَ البِدَعِ المنهيِّ عنها، وكيف تُرِكَ ورأيهُ في ذَلِكَ؟

(١) سقطت في الأصل، وهي في (أ) و(ب).

(٢) ريحان العزيزي: ولي المشيخة في أواخر المئة السادسة، توفي بالمدينة سنة ٧٠٠هـ. انظر: «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٤٤ـ١٢٤٥، «التحفة اللطيفة»، ترجمة (٥٠٨١).

قلتُ: المسألَةُ مُختَلَفٌ فيها[١]، فمنهُم مَنْ كَرِهَ، ومنهُمْ مَنْ مَنعَ، ولا يكونُ الإنكارُ سَمْحاً إلّا في مسائِلِ الإجماعِ فيها.

وأما حكمُ ثَمَرِهِ؟ فقدْ سُئِلَ مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شَجَرَةٍ تَنبُتُ في صَحْنِ المَسْجِدِ، أو المَقْبَرَةِ أو مَحَجَّةِ الطَّرِيقِ؟ قال: أُكُلُهَا [حَلالٌ][٢] لِجميعِ المُسْلِمِينَ.

وكانَ كثيرَ الخيرِ والبرِّ، أوقفَ مِنَ النَّخيلِ، وحرَّرَ مِنَ الأرِقَّاءِ جَمْعاً غفيراً.

وكانَ العَزيزيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُوالي الأشرافَ، ويُحسِنُ إليهم إحساناً كثيراً، حتَّى اتُّهِمَ بِمَذْهَبِهِم، لِكَثْرَةِ اخْتِلَاطِهِ بِهِم، وقَضَاءِ حَوائِجِهم.

كنتُ إذا مَرَرْتُ [٢١/أ] عليهِ مَعَ جَمَاعتِهِ ذاهباً إلى سَيِّدي الشَّيخ أبي مُحَمَّدٍ البسْكريِّ[٣] وهُم جُلُوسٌ بينَ بابِ النِّساءِ وبابِ جِبْرِيلَ صَفًّا واحداً، أقولُ بأعلى صوتي: السَّلامُ عليكُمْ، فيردُّونَ كُلُّهم حتَّى تُسْمَعَ

---

(١) قال الحنفيّة: إن كان لنفع النّاس بظلّه، ولا يضيق على النّاس، ولا يفرّق الصّفوف لا بأس به، وإن كان يضيق ويفرق يكره. وقال النّوويّ: يكره غرس الشّجر في المسجد، فإن غرس قطعه الإمام.
وفصّل الزّركشيّ فقال: يكره غرس الشّجر والنّخل في المساجد؛ لما فيه من التّضييق على المصلّين، والصّحيح تحريمه، لما فيه من تحجير موضع الصّلاة، والضّيق وجلب النّجاسات من ذرق الطّيور.
أمّا الحنابلة فقد نصّوا على عدم جواز الغرس في المسجد، وقال أحمد: لو قلعها الإمام لجاز؛ لأنّ المسجد لم يبن لهذا، ولأنّ الشّجرة تؤذي المسجد، وتمنع المصلّين من الصّلاة في موضعها، ويسقط ورقها في المسجد وثمرها، وتسقط عليها العصافير والطّيور فتبول في المسجد، وربّما اجتمع الصّبيان في المسجد لأجلها ورموها بالحجارة ليسقط ثمرها. انظر: «الموسوعة الفقهية» غرس، و: مسجد.

(٢) سقطت في الأصل، وهي في (أ) و (ب)، و«المغانم المطابة» ٣/ ١٢٤٥.

(٣) عبدالله بن عِمْرَان بن مُوسَى، البِسْكري، المغربي، رجلٌ صالحٌ متواضعٌ، له نظمٌ وكلامٌ حَسَنٌ، مات بالمدينة سنة ٧١٣هـ ودُفن بالبقيع. «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٨٠. ونسبته إلى بسكرة، بلدةٌ بالمغرب. «معجم البلدان» ١/ ٤٢٢، وهي الآن في الجزائر جنوب شرق العاصمة بنحو ٤٠٠ كيل.

لهم لُجَّةٌ[(١)] عَظِيمَةٌ، ثُمَّ يُنادُونني ويقولونَ: خُذْ جَزاءَ تَحِيَّتِكَ، فيعطِيني كُلٌّ منهم على قَدْرِه، وأوَّلُ مَنْ يَبدَأُني الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأحياناً يَذْهَبُ بي إلى بيتِهِ، ويُخْرِجُ الكِيسَ من خَرَزَةٍ حَجَرٍ[(٢)] أعرِفُ اليومَ مكانَها مِنَ البَيتِ، فيُعطِيني ويَبَرُّني ويَفْرَحُ بي، جزاهُ الله خيراً، وأعظمَ لَهُ أجراً. تُوُفِّي عزيزُ الدَّولَةِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة سَبْعِمِئَةٍ.

ثُمَّ خَلَفَهُ في المَشْيَخَةِ: شِبْلُ الدَّولةِ، **كَافُورٌ المُظَفَّرِيُّ**، المعروفُ بالحَرِيرِيِّ[(٣)]، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كانَ مِنْ أحسَنِ النَّاسِ شَكَالَةً، وأتمِّهم كمالاً.

وكانَ مَهيباً قد ملأَ قُلُوبَ الشُّرَفَاءِ رُعْباً، كانَ إذا انْكَسَرَ قِنْديلٌ، أو وَقَعَ تَجْصِيصٌ يَصِيحُ حينَ وَقْعَتِهِ صَيْحَةً يُغْلَبُ بها، يَرجُفُ أهلُ المَسْجِدِ من قُوَّتِها، وعِظَمِ مَبلَغِها.

وكانَ يَقُولُ: إنَّهُ تَوْأَمٌ ماتَ أخوهُ بعد أنْ وَلَدَتْهما أمُّهما، وكانَ لهُ على الأميرَينِ [سَلَّارَ وبَيْبَرسَ الجاشِنْكيرِ][(٤)] دَلِّيَّةٌ[(٥)] بِتَربِيَتِهِ، حَتَّى إنَّهما لمّا حجّا

---

(١) أصواتاً وجلبة. «تاج العروس» لجج.

(٢) لعلها: حرزة حجر. قال في «تاج العروس»: حَرَزَه حَرْزاً: ضمَّه وَجَمَعه: حرز.

(٣) «الدرر الكامنة» ٣/ ٢٦١، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٥٧.

(٤) تحرَّفت هٰذه العبارة في الأصل إلى: «سلال وبكير ابن سكندر بكير». والتصويب من «التحفة اللطيفة» و«المغانم». وسلاَّر المنصوريُّ: نائب السلطنة، كان من مماليك الصالح ابن قلاون، وناب في الملك عن الناصر عشر سنوات، وشهد معركة شقحب ضد التَّتار، وأبلى فيها بلاء حسنا، توفي سنة ٧١٠ هـ. «الدرر الكامنة» ٢/ ١٧٩، و«شذرات الذهب» ٦/ ١٩.
وبيبرس الجاشنكير: بيبرسُ العثمانيُّ، الجاشنكيرُ، الملكُ المظفَّرُ، خلع الملك الناصر، وقام مقامه، كان موصوفاً بالعقل، له محاسن جمَّة، توفي سنة ٧٠٩ هـ. «الدرر الكامنة» ١/ ٥٠٢.
ومعنى الجاشنكير: الذي يتصدَّى لذوق الطعام والشراب قبل السلطان أو الأمير خوفاً من أن يُدَسَّ عليه فيه سمٌّ، أو نحوه. «صبح الأعشى» ٤/ ٢١، و٥/ ٤٦٠.

(٥) الدّالة: ما تَدِلُّ به على حميمك. «القاموس المحيط»: دلل.

والَوهُ بأحسَنِ المُوَالاةِ، فكلَّمَهُما في بِنَاءِ المَنَارَةِ الَّتي بِبَابِ السَّلامِ اليومَ، فأَنعَما.

ثُمَّ [٢١/ ب] إنَّهُ [خَشِيَ][١] أنَّهُما يَشْتَغِلانِ بِمُلكِهما عن ذلك، أو يَسْتَقِلَّانِ النَّفَقَةَ على عمارَتِها، فقالَ: أنا لا أطلبُ منكما مالاً، عندي من قَنَادِيلِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ مَا يَقُومُ بها وزِيادَةً، فأنْعَمَا لهُ بإِرْسَالِ الصُّنَّاعِ، وشَرَعَ هُو في تَحصِيلِ الحَجَرِ والمونَة بينَ مَا يأتي الحَاجُّ.

فحَمَلَ مِنَ الحَجَرِ ما يَحْتَاجُ إليهِ من أَنْوَاعِهِ كُلِّها، فكانت كالجِبَالِ فيما بينَ بَابَي الرَّحْمَةِ والسَّلام، وأَمَرَ بالحَفْرِ لها في مكانِها اليومَ، فلمْ يَنْزِلُوا إلا قَليلاً إذْ وَجَدُوا بابَ مَرْوانَ بنِ الحَكَمِ أَسْفَلَ مِنْ أَرْضِ المَسْجِدِ بِقَدْرِ قَامَةٍ، ثُمَّ وَجَدُوا بَرْنِيَّةً[٢] فَخَّارٍ مُزَجَّجَةً مَلأَى بِدَرَاهِمَ مُظَفَّرِيَّةٍ قَدِ اسْتَحَالَتْ صِفَتُها مِنْ طُولِ مُكْثِها، ثُمَّ وَجَدُوا تَحْصِيبَ المسجدِ في أيامِ مَرْوَانَ[٣] بِالرَّمْلِ الأَسْوَدِ يُشْبِهُ أن يَكونَ من جَبَلِ سَلْعٍ.

وذَلِكَ التَّحْصِيبُ عَامٌّ في سائِرِ مَسْجِدِهِمُ القَدِيم؛ لأَنَّهُم لَمَّا أَسَّسُوا الرُّواقَينِ اللَّذَينِ زَادَهُما المَلِكُ النَّاصِرُ[٤] شَمَالِيَّ الرَّوْضَةِ المُقَدَّسَةِ في سَنَةِ تِسْعٍ وعِشْرِينَ وسَبْعِمِئَة وَجَدُوا ذَلِكَ التَّحْصِيبَ، فَوَقَفْتُ عليهِ فَوَجَدْتُهُ ما يُشْبِهُ

---

(١) سقطت في الأصل، وأثبتها كما في (أ) و(ج).

(٢) إناء واسع الفم من خزف أو زجاج ثخين. «المعجم الوسيط»: برن.

(٣) هو مروان بن الحكم، والمشهور في التاريخ أنّ الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الذي أمر بتحصيب المسجد من بطحاء وادي العقيق. انظر: «وفاء الوفا» ٢/ ٦٥٦.

(٤) الملك الناصر: محمد بن قلاوون الصالحي النَّجمي الألفي سلطان الديار المصرية وابن سلطانها توفي سنة ٧٤١هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ١٤٤، «النجوم الزاهرة» ٨/ ٤١.

ما وَجدُوا في أَساسِ المِئْذَنَةِ، وسُمْكُهُ نَحوُ ذِراعَينِ بِالعَمَلِ أو أكثرُ، ثُمَّ إنَّهم نَزَلُوا في الأَساسِ حَتَّى بَلَغُوا الماءَ.

وكانَ بعضُ المؤرِّخينَ يَذْكُرُ أنَّ هناكَ مِئْذَنَةً مُشْرِفَةً على دارِ مَرْوانَ، فَهَدَمَها [٢٢/ أ] غَيْرَةً على أهلِهِ مِنْ مُؤَذِّنِها، فلَمَّا يَجِدُوا لِذَلِكَ صِحَّةً ولا أَثَراً البَتَّةَ.

وكانَ الحريريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مُباشِراً ذَلِكَ كُلَّهُ، مُجْتَهِداً بِنَفْسِهِ ومالِهِ وخُدَّامِهِ، ثُمَّ إنَّهُ أمَرَ مَنْ كانَ بالمدينةِ يَتَعانَى البِنايَةَ، كَالشَّيخِ إبراهيمَ البَنَّا[١]، والشَّيخِ عليٍّ الفَرَّاشِ[٢]، وغيرِهما مِمَّنْ ليسَ لَهُ في البِنايَةِ كَبيرُ قَدَمٍ أَنْ يَحْفُرُوا الأَساسَ، فَحَفَرُوهُ إلى أَنْ ظَهَرَ الماءُ، وأَخْرَجُوا مِنْهُ شيئاً شَرِبَ مِنْهُ الشَّيخُ، وشَرِبَ النَّاسُ مِنْهُ، يَرونَ ذَلِكَ بَرَكَةً ومَسَرَّةً وتَفاؤُلاً بِتَمامِ العَمَلِ، ثُمَّ دَكُّوا الأَساسَ، فلَمَّا جاءَ المَوسِمُ وحَضَرَتِ الصُّنَّاعُ والمُعَلِّمُونَ، كانَ فِيهِم المُقَدَّمُ عليهِم في البِنايَةِ والهَنْدَسَةِ والدِّرايَةِ، فقالَ للشَّيخ: لِمَ اسْتَعْجَلْتَ عَلَينا؟ لا نَبْنِي على هٰذا حتَّى تَنْقُضَهُ جميعَهُ، فإنَّا لا نَأْمَنُ عاقِبَتَهُ، وأَلَحَّ في نَقْضِهِ، فأَلَحَّ الشيخُ في تَرْكِهِ على حالِهِ، فَرَجَعَ إلى مِصْرَ مِنْ حينِهِ، وقالَ: أنا أَخْشَى من الدَّرَكِ[٣]، وما يَلْحَقُنِي في صَنْعَتِي من العَيْبِ.

فقالَ الشَّيْخُ لِمَنْ كانَ مَعَهُ مِنَ المُعَلِّمِينَ: اعْمَلُوا عَمَلَكُم واللهُ تَعالَى

(١) إبراهيم البنا المدني أحد البنائين بالمدينة، كان ممن حفر أساس منارة باب السلام، وقام في ذلك باجتهاد شبل الدولة كافور سنة ٧٠٦هـ، مات سنة ٧٤٠هـ «التحفة اللطيفة» ٥/ ٢٠٨.

(٢) علي الحجار الفراش بالمدينة، أحد المقدمين في البناء، كان رفيقا لإبراهيم البنا في بناء منارة باب السلام سنة ٧٠٦هـ. «التحفة اللطيفة» ٥/ ١٨٤.

(٣) الدَّرَكُ: التَّبِعَةُ. «القاموس»: درك.

يُتَمِّمُهُ بِبَرَكَةِ هٰذا النَّبِيِّ الكَرِيمِ[١]. فَعَمِلُوها على ما هِيَ اليَومَ علَيهِ، وعَمَّ نَفْعُها وعَظُمَ أَجْرُها، وصارَتْ في صَحِيفَةِ مَنْ سَعَى فيها.

والعملُ اليومَ عليها؛ لأنَّها مُتَوسِّطَةُ المَدِينَةِ، حتَّى إنَّ رَئِيسَ المُؤَذِّنِينَ مُحَمَّدَ بنَ إبراهيمَ قالَ لي رَحِمَهُ اللَّهُ: لو تُرِكَتْ لي هٰذه [٢٢/ ب] المِئْذَنَةُ لَكَفيتُ المدينةَ.

وَهُوَ الحقُّ؛ فإنَّ المَدِينَةَ من جِهَةِ الشَّمالِ قَلِيلَةُ العَرْضِ، وإنَّما امتِدَادُها وقُوَّةُ عِمارَتِها وكَثْرَةُ أَبْيَاتِها مِنْ جِهَةِ الغَرْبِ.

وكانت عِمَارَتُها في سَنَةِ سِتٍّ وسَبْعِمِئَة، وإنَّما ذَكَرْتُ حِكَايَةَ المِئْذَنَةِ لأنَّ ذِكْرَها مِمَّا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ مِنَ المُحْدَثَاتِ في المَسْجِدِ للمَصْلَحَةِ العَامَّةِ لِلمُسْلِمِينَ.

ومِمَّا للشَّيخِ الحَرِيرِيِّ مِنَ الآثَارِ الحَسَنَةِ: تَبْطِيلُ الطَّوافِ بالشُّعَلِ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ، وتبدِيلُها بِالفَوانِيسِ الَّتِي يَطُوفُونَ بها اليومَ كُلَّ لَيْلَةٍ بعدَ صَلاةِ العِشَاءِ الأخِيرَةِ، وذَلِكَ أنَّهم كانُوا قبلَ الحَرِيرِيِّ وصَدْراً من وِلايَتِهِ يأخُذُ عَبِيدُ الخُدَّامِ وبعضُ الفَرَّاشِينَ شُعَلاً مِنْ سَعَفٍ فَيَطُوفُون بها - عِوَضَ الفَوَانِيسِ - يَجْرُونَ بها كَأَشَدِّ ما يَكُونُ في الجَرْيِ، فإذا وَصَلُوا بابَ النِّسَاءِ خَرَجُوا بها، وخَبَطُوا بِمَا بَقِيَ مَعَهُم فيها، فكانت تُسَوِّدُ المَسْجِدَ وتُسَوِّدُ بابَهُ أيضاً، وفيها مِنَ البَشَاعَةِ ما لا يَخْفَى، فأَمَرَ بِالفَوَانِيسِ عِوَضاً، وتَرَتَّبَتْ في صَحِيفَتِهِ رَحِمَهُ الله تَعَالى.

---

(١) هٰذا من البدع المحدثة، إذ إتمام الأمور ونجاحها يكون بتوفيق الله وحده، ويُشرع التوسُّل إليه لتمامها بدعائه عَزَّوَجَلَّ بأسمائه وصفاته، أو بحُبِّ نبيِّه ﷺ، أو بالأعمال الصالحة التي قصد بها وجهه.

وكانَ يُوالِي المُجَاوِرِينَ ويُحْسِنُ إليهم ويَقْضِي حَوَائِجَهُم، وسيأتِي فِعْلُهُ مَعَ المُجَاوِرِينَ حِينَ أمرَ الأميرُ مَنْصُورٌ(١) بإِخْرَاجِهِم وارْتِحَالِهِم بأولادِهِم وعِيَالِهِم.

ومناقِبُهُ كَثِيرَةٌ، وحَسَنَاتُهُ عَدِيدَةٌ. تُوُفِّـيَ سَنَةَ أحدَ عَشَرَ وسَبْعِمِئَةٍ.

[٢٣/أ] ثُمَّ خَلَفَهُ في المَشْيَخَةِ **سعدُ الدِّينِ الزَّاهِرِيُّ**(٢)، ولم يَمْكُثْ إلّا قَلِيلاً نَحْوَ سِنِينَ، وكانَ قَدْ عَمِيَ وكُفَّ بَصَرُهُ، فَلَمْ يَقُمْ بِوَظِيفَةِ المَشْيَخَةِ على ما يَنْبَغِي، فلمّا حَجَّ المَلِكُ النَّاصِرُ الحَجَّةَ الثَّانِيَةَ - وَهِيَ سَنَةَ تِسْعَ عَشْرَةَ وسَبْعِمِئَةٍ - وقَدِمَ المَدِينَةَ زَائِراً ودَخَلَ الحَرَمَ، فَوَجَدَهُ أَعْمَى، فَعَظُمَ ذَلِكَ على السُّلْطَانِ فَعَزَلَهُ.

ثُمَّ وَلَّى في الحينِ **ظَهِيرَ الدِّينِ مُخْتاراً الأَشْرَفِيَّ**(٣) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكانَ له هَيْبَةٌ وصَوْلَةٌ مع ذِمامةٍ(٤) بالنِّسْبَةِ إلى مَنْ قَبْلَهُ، فقامَ بِالمَشْيَخَةِ أَحْسَنَ قِيَامٍ، وأَدْخَلَ الرُّعْبَ في قُلُوبِ الشُّرَفَاءِ والأُمَرَاءِ، واسْتَخْلَصَ من أَيْدِيهِم أَوْقَافاً

---

(١) الأمير منصور بن جمَّاز بن شيحة، أمير المدينة، قتل سنة ٧٢٥هـ. «الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ٣٦٢-٣٦٣)، «النجوم الزاهرة» (٩/ ٢٦٤). وسيأتي الحديث عنه في فصل تراجم أمراء المدينة ص٣٩٧.

(٢) سعد الدِّين الزاهري الضَّرير: شيخ الخدَّام بالحرم الشريف، ويلقب سعد الدِّين. «التحفة اللطيفة» ترجمة (٥١١٠).

(٣) ظهير الدِّين مختار الأشرفي، تعصَّب لأهل السنة، وقمع الرَّافضة، وكثُر في أيامه المجاورون، وعمرت الأوقاف إلى أن مات سنة ٧٢٣هـ. «الدرر الكامنة» (٤/ ٣٤٥)، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤١١٦).

(٤) الذمامة: الحياء والإشفاق من الذم. «النهاية في غريب الأثر» ٢/ ٤٢١، وفي نسخة (أ): زمانه.

وأَمْلاكاً كانُوا هُمْ وآباؤُهُم فيها، كالمارِسْتَانِ اليَومَ، والفُرنِ الَّذي أمَامَهُ، والحَوشِ الَّذي بإزَائِهِ، ودارِ المَدْرَسَةِ الشِّهَابِيَّةِ، ونَخِيلٍ وغيرِ ذَلِكَ، ولأَجْلِ هَيْبَتِهِ عَزَّ المُجَاوِرُونَ والخُدَّامُ، وقَوِيَتْ حُرْمَتُهُم، ولم يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى حَجَّ النَّائِبُ أَرْغُونُ[1]، وشَكَوا عليه ما يَلْقَونَ مِنَ الشَّيخِ، فكأَنَّهُ تَكَلَّمَ عليهِ بِحَضْرَتِهِم كَلاماً غَضَّ من صَوْلَتِهِ، ورَدَّهُ عَنْ شِدَّتِهِ ولم يَمْكُثْ بعدَ ذَلِكَ إلا قَلِيلاً حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ إلى رَحْمَتِهِ.

وكانَ مِنَ المُجَاوِرِينَ مَنْ يَرْكَنُ إلى الأُمَرَاءِ ويَجْتَمِعُ بِهِم في مَنَازِلِهِم، ويُطْلِعُهُم على أَحْوَالِ الخُدَّامِ والمُجاوِرِينَ، [٢٣/ ب] فَأَقْسَمَ فِيهِم أَنَّ مَنْ طَلَعَ القَلْعَةَ مِنْهُم لم يَكُنْ له وَظِيفَةٌ البَتَّةَ، فانْكَفَّ النَّاسُ، وأخرَجَ جَمَاعَةً مِنَ الأسباعِ[2] واسْتَبْدَلَ بِهِم، وأخرَجَ جماعَةً من الفَرَّاشِينَ وقَطَعَ مَعْلُومَهُم، حتى غَابُوا في الهِنْدِ سِنِينَ عديدةً، مِثْلَ يَاقُوتٍ الصَّالحِيِّ[3]، وبُرْدَةَ الحَرِيرِيِّ[4] وسَعيدٍ التَّاجِيِّ[5]، وغيرِهِم، من أهلِ الأخيارِ.

وكانَ يجلِسُ قَرِيباً مِنَ الأسْبَاعِ، فأيُّ مَنْ غابَ عن وَظِيفَتِهِ أَخَذَ قِسْطَ

---

(١) أرغون الدوادار: اشتراه المنصور، فرباه مع ولده الناصر محمد ولم يزل معه في خدمته، وهو معه، وكان يلازمه إلى أن ولاه نيابة السلطنة بالديار المصرية سنة ٧١٢هـ، توفي بحلب سنة ٧٣١هـ. «الدرر الكامنة» ١/ ٣٥١-٣٥٢.

(٢) المقصود هنا الموكلون بقراءة الأسباع. قال الفيروزآبادي: سبَّع القرآن: وَظَّفَ على قراءته في كلِّ سبع ليال.« القاموس المحيط»: سبع.

(٣) «التحفة اللطيفة»، رقم (٤٥٣٧).

(٤) هو بردة الحاج: عتيق كافور الحريري، أحد الفراشين، كان رجلاً صالحاً مباركاً مشتغلاً بنفسه، انقرضت ذرِّيته، عمَّر في خدمة الحرم، ومات ودُفن بالبقيع.« التحفة اللطيفة» ٢/ ١١٩.

(٥) سعيد التاجي: هو أحد فراشي الحرم، لم يعقب ذرية. «التحفة اللطيفة» ٣/ ١٧٦.

ذَلِكَ اليومِ في حِينِهِ، وبِذَلِكَ انْضَبَطَتِ الوَظَائِفُ، وصارَ ليسَ لهُ مُخَالِفٌ، وعَمَرَتِ الأوقَافُ في أيَّامِهِ، وكانَ لَهُ نَصِيبٌ وَافِرٌ، ولما تُوُفِّي والِدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أيَّامِهِ حَفِظَ علينا وظائِفَهُ، ورَفَقَ بإِخْوَتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثُمَّ تُوُفِّيَ سنةَ ثلاثٍ وعِشْرينَ وسَبْعِمِئَةٍ.

ثُمَّ خَلَفَهُ في المَشْيَخَةِ **نَاصِرُ الدِّينِ نَصْرُ عطاءُ الله**(١)، وكانَ قَبْلَ ذَلِكَ من إخوانِ المُجَاوِرينَ وأَحِبَّائِهِم، مُؤَاخِياً لجمالِ الدِّينِ المَطَرِيِّ لا يخرُجُ عن رأيِهِ ولا مَشُورَتِهِ، وإنْ كانَ الشُّيوخُ كُلُّهم بِهٰذه المَنْزِلَةِ مَعَهُ، فكانَ هٰذا لَهُ أعْظَمَ وبِهِ أبَرَّ، وكانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صُورَةً وأكمَلِهِم مَعْنًى، وكان يَحْفَظُ القُرآنَ، كثيرَ الصِّيامِ، مَهِيباً في جَمَاعَتِهِ من غيرِ ضَربٍ ولا تَهْدِيدٍ، ولا وَعْدٍ ولا وَعِيدٍ، وجَدَ الأَحْوَالَ بعدَ الظَّهِيرِ(٢) [٢٤/أ] مُتَمَهِّدَةً فزادَها تَمْهِيداً، ومَعَ ذَلِكَ فإذا قامَ في أَمْرٍ تَمَّمَهُ لا يَرْجِعُ عن رأيِهِ فيهِ لأَحَدٍ، ولو قامَ في ذَلِكَ وقَعَدَ، وكانَتْ مُدَّةُ وِلايَتِهِ أربعَ سِنينَ، تُوُفِّي سنةَ سَبْعٍ وعِشْرينَ وسَبْعِمِئَة.

ثُمَّ خَلَفَهُ في المَشْيَخَةِ **عِزُّ الدِّين دِينَارٌ**(٣)، فكانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذا حِشْمَةٍ ودِينٍ، وعِزَّةٍ وحُسْنِ يَقِينٍ، صَحِبَ المَشَايِخَ الكِبَارَ مِنَ المُجَاوِرِينَ، فتَأَدَّبَ بِآدَابِهِم واكتَسَبَ مِنْ أَخْلاقِهِم، فَلَزِمَ قِرَاءَةَ القُرْآنِ، وجاهَدَ نَفْسَهُ بِالصِّيامِ والقِيَامِ

(١) ناصر الدِّين نصر عطاء الله ولي مشيخة الخدَّام بالحرم النبوي الشريف بعد وفاة ظهير الدِّين مختار الأشرفي، توفي سنة ٧٢٧هـ «الدرر الكامنة» (٤/ ٣٩٣)، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٦٥.

(٢) المقصود: ظهير الدِّين مختار الأشرفي المتولي المشيخة عوضاً عن سعد الدِّين الزاهري، وقد تقدم ذكره ص٨٨.

(٣) دينار الشهابي المرشدي عز الدِّين: خادم الحرم الشريف النبوي، استقرَّ فيه بعد نصر عطاء الله فاستمر مدَّة طويلة ثُمَّ عزل بشرف الدِّين مختص الخزنداري، ثُمَّ أعيد، ثُمَّ كبر جدًّا وانقطع. توفي سنة ٧٦١هـ «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٠١، «الدرر الكامنة» ٢/ ١٠٣، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٧٢.

والصَّدَقَةِ والإحْسَانِ، وأَوْقَفَ أَمْلاكاً ما بَينَ نَخِيلٍ ودُورٍ، وأَعْتَقَ خُدَّاماً وعَبيداً ما يَزِيدُ عَدَدُهُم على الثَّلاثِينَ، وعَلَّقَ مِنْ خُدَّامِهِ في الحَرَمِ سَبْعَةً، وكَفَلَ أَيْتاماً وحُرَماً ونَعَّمَهُم بالمَأْكَلِ والمَلْبَسِ والمَسْكَنِ حَتَّى كانُوا يُعَدُّونَ من عِيَالِهِ، وله مَنَاقِبُ جَلِيلَةٌ، ومَحَاسِنُ عَدِيدَةٌ، منها: أَنَّهُ لما سافَرَ إلى الدِّيارِ المِصْرِيَّةِ اسْتَخْلَفَ على بَيتِهِ وأَمْوالِهِ بعضَ أَصْدِقَائِهِ مِنَ المُجَاوِرِينَ، وكانَ في البيتِ إماءٌ وعَبِيدٌ وخُدَّامٌ فاستأمَنَهُم الوَكِيلُ، وظَنَّ أَنَّهم لا يَتَّفِقُونَ على الخِيانَةِ، فَخَرَّبُوا البيتَ، وضَيَّعُوا أكثرَ ما فيهِ، فلَمَّا قَدِمَ الشيخُ عِزُّ الدِّينِ من مِصْرَ فَقَدَ ما خَلَّفَهُ في بيتِهِ، فسأَلَهُ عنه، فقالَ: لا عِلْمَ لي بِشَيءٍ، غيرَ أَنِّي كنتُ [٢٤/ب] أُخْرِجُ لهم نَفَقَتَهُم، وأَصْرِفُ عليهم ما يَحْتَاجُونَ إليه، ولا أَعْلَمُ من حالِهِم شيئًا، ولم أَظُنَّ فِيهِم أَنَّهم يَتَواطَؤُونَ على الخِيَانَةِ، فَحَاسَبَهُ على ما خَلَّفَهُ في بَيْتِهِ، فَوَجَدَهُ قد نَقَصَ مِقْدَارَ أَرْبَعَةٍ وعِشْرِينَ أَلفَ دِرْهَمٍ، فقالَ لهُ: هٰذه لازِمَةٌ لكَ بِحُكْمِ الشَّرْعِ؛ لأَنَّكَ فَرَّطْتَ فيها وَكَّلْتُكَ فيهِ.

فقالَ: نَعَمْ، أَلْتَزِمُ بها وأَقُومُ بِأَدَائِها، فَتُقَوِّمُ من أَمْلاكِي ونَخْلِي ما شِئْتَ.

فَخَلَا الشَّيخُ بِأَصْحَابِهِ وشَاوَرَهُم في ذلكَ، فقالُوا له: المفرِّطُ أولى بالخَسَارَةِ.

فقالَ لهم الشَّيْخُ: لم يُصِبْ رأيُكُم، رَجُلٌ صَحِبْتُهُ في اللهِ، وأَقْرَأَنِي القُرآنَ، أُغَرِّمُهُ شيئاً أَفْسَدَهُ عَبِيدِي، ولم يَتَدَنَّسْ منه بِشَيءٍ! مَعَاذَ اللهِ مِنْ ذَلِكَ! وأَبرَأَ ذِمَّتَهُ، ولم يَزَلْ صديقاً له إلى أن فَرَّقَ الموتُ بَيْنَهُما، رَحِمَهُما اللهُ تَعالى.

لهُ بِالحَرَمِ الشَّرِيفِ آثارٌ حَسَنَةٌ، وكان فيه مِنَ الشِّدَّةِ في الدِّينِ على الأَشْرَافِ ما كان في ظَهِيرِ الدِّينِ وزِيَادَةٌ، معَ الانْقِيادِ إلى الشَّرعِ والمُوافَقَةِ على

الخيرِ، وكانَ حِينَ وِلايَتِهِ في القَاهِرَةِ سَعَى في المَشْيَخَةِ صَفِيُّ الدِّينِ جوهَرٌ[(١)] خَادِمُ اللَّالا[(٢)] فَأُعْطِيَهَا، وكانَ بَيْنَهُ وبينَ جمالِ الدِّينِ المطريِّ شيءٌ أَلْقَاهُ بينَهُما بعضُ النَّاسِ، فلمَّا شاعَ في المدينَةِ خَبَرُ وِلايَتِهِ تَسَلَّطَ أهلُ الشَّرِّ [٢٥/ أ] على جمالِ الدِّينِ، وشَغَبُوا عليهِ بِكَثْرَةِ القَالِ والقِيلِ وتَوَعَّدُوهُ، وكانُوا عُصْبَةَ شَرٍّ عَفَا اللهُ عَنَّا وعَنْهُم، فَلَحِقَهُ من كلامِهِم هَمٌّ وغَمٌّ.

وقال لي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رأيتُ ليلَةً في مَنامِي، وقَدْ هَمَّنِي ما أَسْمَعُ منهم مِنَ الأَذَى، كأنَّ «بابَ جِبْرِيلَ» حُوِّلَ إلى «بابِ الرَّحْمَةِ»، وأنا أَقُولُ: كيفَ يُزَالُ بابٌ ثابتٌ إلى بابٍ غَيرِهِ، ويبقى هٰذا البَابُ ما له بَابٌ؟

فلم يَكُنْ إلّا قليلاً، إذْ جاءَ الخَبَرُ بِأَنَّهُم رَجَعُوا عن خادِمِ اللَّالا، ووَلَّوا عِزَّ الدِّينِ، وكانَ عِزُّ الدِّينِ في بابِ الرَّحمَةِ كما هُوَ اليومَ، وبيتُ جوهَرٍ اللَّالا كما هو اليَومَ مجاوراً لِرِبَاطِ صَفِيِّ الدِّينِ السَّلَّامِيِّ[(٣)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فَتَفَسَّرَ المَنَامُ، فزالَ عن جمالِ الدِّينِ ما كان يَجِدُ، ورَجَعَ كُلٌّ من أهلِ الشَّرِّ إلى وَرَائِهِ.

وكانَ بينَ عِزِّ الدِّينِ دينارٍ وبين جمالِ الدِّينِ من الاتِّحادِ والمَحَبَّةِ، وسَمَاعِ الكَلِمَةِ مِثْلُ ما كانَ بَيْنَهُ وبينَ ناصرِ الدِّينِ نصرِ عطاءِ اللهِ وأكثرُ.

---

(١) صفيُّ الدِّين الطَّواشيُّ، خادمُ الطواشيِّ شجاعِ الدِّينِ اللالا المَاضِي. ذكر ابنُ صالحٍ: أنهُ قَرَأَ عليهِ شيئاً مِنَ القرآنِ، وأنَّهُ الَّذي اشترى الدَّارَ الَّتِي عندَ رباطِ الكرسانيِّ، وسَكَنَ فيها مُدَّةً. «التحفة اللطيفة»، ترجمة (٥١٢٩).

(٢) اللالا: الذي يربي أولاد الملوك. «وفيات الأعيان» ١/ ٣٦٥.

(٣) صفي الدِّينِ السلّامي: أبو بكر بن أحمد، والسلّاميُّ: نسبة إلى السلّامية: قرية كبيرة بشرق دجلة على مرحلة من الموصل، توفي سنة ٧٢٦هـ، سيأتي ذكره ص١٨٣، وانظر: «المغانم المطابة» ٣/ ١١٦٩، و«الدرر الكامنة» ١/ ٤٣٩، و«التحفة اللطيفة»، ترجمة (٤٧٨٤).

وكانَ الشَّيخُ عِزُّ الدِّينِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأولادِ المُجَاوِرينَ كالأَبِ الشَّفِيقِ، إذا رأى أحَدَهُم سأَلَهُ عن حَالِهِ وحالِ أهلِ بَيْتِهِ وأولادِهِ، يقولُ: كيفَ أولادُنَا؟ كيفَ إخوانُنا؟

يَقْضِي الحَوَائِجَ بِطِيبِ نَفْسٍ،لا يَتَنكَّرُ ولا يَحْرَدُ، فإذا انْزَعَجَ أو غَضِبَ، رَجَعَ عن قَرِيبٍ لم يُؤْيِسْ مِنْ خيرِهِ، ولو آيَسَ بِقَولِهِ وصَرَّحَ بِعُذْرِهِ، [٢٥/ ب] وطالَتْ مُدَّتُهُ أكثَرَ مِنْ غيرِهِ، وسأذكُرُ وفاتَهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وِلايَةِ الشَّيخِ افتخارِ الدِّينِ ياقوتٍ[١]، ثُمَّ سُعِيَ عليهِ فَعُزِلَ.

ووَلِيَ شَرَفُ الدِّينِ مُخْتَصُّ الدَّيرِيُّ[٢]، فجاءَ النَّاسَ بِأَخْلاقٍ تُركِيَّةٍ لم تَتَهَذَّبْ بِرِيَاضَةٍ، ولا بِحَجٍّ وزِيَارَةٍ، وقامَ بِهَيْبَةٍ وعِزَّةٍ.

ولقد جلَسَ يوماً في المجلِسِ الَّذِي كانَ غيرُهُ يجلِسُ فيهِ، فجاءَ شِهابُ الدِّينِ القاري[٣] لِيَجْلِسَ في صَفِّهِ لا في جَنْبِهِ، فَأَقَامَهُ بِنَهْرَةٍ، وعَزَّ عليه أَنْ يَسْتَوِيَ مَعَهُ في صَفِّهِ، وكذَلِكَ فَعَلَ بِغَيرِهِ حَتَّى كانَ لا يُجْلِسُ إليهِ إلا مَنْ يُدِلُّ عليه، لكنَّهُ كانَ له رَغْبَةٌ عَظِيمَةٌ في العِمارَةِ، فانْعَمَرَتِ الأَوْقَافُ في أَيَّامِهِ، ولو اسْتَمَرَّ فيها لَكَثُرَ خيرُها.

كانَ يخرُجُ كُلَّ يومٍ غالباً فَيُبَاشِرُ الغَرْسَ والعِمارَةَ، ويخرُجُ مَعَهُ بِعَيْشٍ رَغِيدٍ، وخيرٍ كَثِيرٍ.

---

(١) ياقوت بن عبدالله الخزنداري، افتخار الدِّينِ، خادم الحرم الشريف النبوي، توفي سنة ٧٨١هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ٤٠٨، «المغانم» ٣/ ١٣١٥، «التحفة اللطيفة»، ترجمة (٤٥٣٧).

(٢) شرف الدِّينِ مختص الديري الخزنداري، خادم الحرم الشريف. «الدرر الكامنة» (٤/ ٣٤٤). «التحفة اللطيفة»، ترجمة (٤١٢٩).

(٣) مرشد القاري، شهاب الدين، أحد خدمة الحرم الشريف، تصحَّفت نسبته في الأصل إلى «العاوي»، والمثبت من «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٧٦، وانظر: «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤١٤٣).

وكانَ جَماعَةُ الخُدَّامِ في أيَّامِهِ وقَبْلَها، يُباشِرُونَ الأَوْقَافَ بِأَنْفُسِهِم، ويحضُرُونَ الجِدَادَ[1] بأَعْوانِهِم وخُدَّامِهِم وعَبِيدِهِم، ولا يَتَناوَلُونَ على ذَلِكَ أُجْرَةً البَتَّةَ، ويَخْرُجُونَ مَعَهُم بالأَطْعِمَةِ الكَثِيرَةِ الفَاخِرَةِ المَلِيحَةِ، ولهذا كانَتِ الأَوقَافُ مُبارَكَةً وغَلَّاتُها مُتَزايِدَةً، والبَرَكَةُ عليها لائِحَةً، حَتَّى خَلَفَهُم مَنْ لا يَتَحَرَّكُ في وَقْفٍ إلا بأُجْرَةٍ، ولَيْتَهُ يَعْمَلُ فيها بِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ حَتَّى يُثَابَ عليها في الآخِرَةِ! وكانَتْ أَيْضاً تُعْمَرُ بِبَرَكَةِ نِيَّتِهِ، [٢٦/أ] ولو أُخِذَ بأُجْرَتِهِ، لكنَّ اليَومَ أَكْثَرُ الأوقَافِ دَامِرَةٌ؛ لأنَّ غَلَّتَها لا تُرَدُّ في عِمَارَتِها كما أوجَبَهُ الشَّرْعُ لها، فلذَلِكَ خَرِبَتْ وقَلَّ خَيْرُها.

ولقد شاهَدْتُ - منذُ زَمَان كانَ النَّاسُ فيه نَاساً - يُعْطَى الزَّائِرُ فوقَ الصَّاعِ مِنَ التَّمْرِ البَرْنِيِّ، حَتَّى إنَّ العُصْبَةَ[2] إذا أَخَذُوا التَّمْرَ يُكَوِّمُونَهُ على أَنْطَاعِهِم[3] كُوماً، يتعسَّلُ بعضُهُ فوقَ بعضٍ، ومع ذَلِكَ يبقَى التَّمْرُ السَّنَتَيْنِ والثَّلاثَ حتَّى يَسْوَدَّ، ولا يجِدُونَ مَنْ يأْخُذُهُ.

ولقد كُنْتُ في حالِ صِغَرِي، إذا رآني خَزَنَةُ التَّمْرِ يَنْظُرُونَ مَنْ يحمِلُ لي مِنْهُ، فَيَذْهَبُ به إلى بَيتِنا، حتَّى أنكرَ ذَلِكَ والدِي ووالِدَتِي، فَهَدَّدَنِي والِدِي، وقالَ: لَئِنْ رَجَعْتَ تأْتِي إلينا مِنْ تَمْرِ الفُقَرَاءِ بِشَيْءٍ فَعَلْنَا بِكَ وفَعَلْنا!

وكانَ لا بُدَّ لي مِنَ المُرُورِ عليهِم؛ لأنَّ التَّمْرَ كانَ يُخْزَنُ في دارِ الخُدَّام المُجاوِرَةِ للتُّرْبَةِ التي عَمَرَتْها زَوْجَةُ ابنِ عَلَمٍ في المدرسةِ الشِّهابِيَّةِ، ولما لم يَكُنْ بُدٌّ

---

(١) الجِدَاد: بكسر الجيم وفتحها: أوان قطع ثمر النخل. «القاموس المحيط»: جدد.

(٢) العُصبة من الرجال: بالضم: ما بين العشَرة إلى الأربعين. «القاموس المحيط»: عصب.

(٣) النَّطعُ: بالكسر وبالفتح وبالتحريك: بساط من الأديم. «القاموس المحيط»: نطع.

أَنَّهم يُعْطُوني، تَرَصَّدَ لي حَمَّالٌ يُقَالُ له «ناشي» يأخُذُ ما يُعْطُونِني، فأقولُ له مِنْ خَوفِ أهلي: خُذْهُ لا تأتِيهِم بِهِ، فيأخُذُهُ، فَعَلَ مَعِي ذَلِكَ مراراً، كُلُّ ذَلِكَ منهم محَبَّةً في أولادِ المُجَاوِرِينَ، ورِفْقاً بأهالِيهِم.

وكانَ النَّخْلُ من الغَابَةِ[(١)] والعُمَرِيَّةِ إذا اسْتَجَدَّ لا يَخْلُصُ منه في شَهْرٍ ليلاً ونهاراً، ولقد [٢٦/ ب] رأيتُ الحَمَّالِينَ يَضَعُونَ أحمالَهُم مِنَ بابِ رِباطِ الفَاضِلِ[(٢)] إلى بابِ التُّرْبَةِ التي نَزَلَهَا الشَّيخُ افْتِخَارُ الدِّينِ، ومِنْ رِباطِ دُكَّالَةَ[(٣)] أيضاً إليه إذا جَاؤُوا مَعَ المَغْرِبِ، لا يَفْرُغُونَ عن حملِهِ وتَفْرِيغِ غَرَائِرِه إلا قَرِيبَ الصُّبحِ، هٰذا كُلُّهُ من التَّمْرِ البَرْنِيِّ، وأما ألوانُ النَّخْلِ فلم تَكُنْ في حسابٍ، فأينَ تِلْكَ البَرَكَاتُ؟! ذَهَبَتْ - واللهِ - مَعَ نِيَّاتِ القَومِ، واللهُ المُسْتَعَانُ.

ثُمَّ سُعِيَ على الشَّيخِ فَعُزِلَ، وَوَلِيَ شرفُ الدِّينِ الخَزَنْدَارِيُّ[(٤)]، وكانَ وُصولُهُ بِالمَشْيَخَةِ في آخرِ سَنَةِ اثنتينِ وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ، كان فَحْلاً حَذِقاً

---

(١) الغابة: واد شمال المدينة كثير الشجر، يُعرف الآن بالخُليل بالتصغير. «الدر الثمين» ص٣٥.

(٢) وهو رباط للسكنى، أنشأه عبدالرحيم بن علي بن السعيد اللخمي، المعروف بالقاضي الفاضل: وزير، من أئمة الكتاب، كان من وزراء السلطان صلاح الدِّين، ومن مقرَّبيه، له آثار حسنة، منها دار الحديث الفاضلية بمصر، وله رسائل كثيرة وديوان شعر، توفي سنة ٥٩٦هـ. «وفيات الأعيان» ٣/ ١٥٨، «الوافي بالوفيات» ١٨/ ٣٥٥، «التحفة اللطيفة» ٤/ ٣٤١.

(٣) رباط دكالة: جاء في الهامش ما نصه: «وهو المشهور برباط المغاربة، وبعضهم يسمونه برباط سيدنا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أشهر الأسماء له اليوم، وسمِّي بذلك لأنَّه حلَّ محلَّ الدَّار الصُّغرى لعثمان بن عفان، وكان يقع أمام باب جبريل في الجهة الشرقية من الحرم النبوي». انظر: «وفاء الوفا» ٣/ ١٠.

(٤) «المغانم المطابة» ٣/ ١٢١٦، «التحفة اللطيفة»، ترجمة (٥١١٢) نقلاً عن المؤلف.

صَلْباً، عارِفاً بأمورِ الدُّنيا وتَصارِيفِها، طَالَتْ مُدَّتُهُ فَوَلِيَ الوِلاياتِ في القَاهِرَةِ على أخبازِ الخُدَّامِ نَقَادَةَ وغيرِها، فثَوَّرَ الفَلَّاحِينَ بِدَهَائِهِ، وأَتْعَبَهُم بِأَمْرِهِ ونَهْيِهِ وتعنُّتاتِهِ، وكان ذا حِقْدٍ شَدِيدٍ، إذا اسْتُرْضِيَ لا يَرضَى، مَعَ طَلاقَةِ الوَجْهِ ولِينِ الكَلِمَةِ.

ومِمَّنْ كانَ مِنْ أَحْبَابِهِ وأخلَّائِهِ الشَّيخُ: عبدالرَّحمنِ بنُ ياقوتٍ المُؤَذِّنُ الكَبِيرُ[1] القَدْرِ في القِرَاءَةِ، مَعَ حُسْنِ الصَّوتِ وسَلامَةِ الصَّدْرِ، وحُسْنِ الخُلُقِ والكَرَمِ العَظِيمِ في الحَضَرِ والسَّفَرِ، سافرَ مَعَهُ إلى القَاهِرَةِ وباتَ مَعَهُ ذاتَ لَيْلَةٍ في دارٍ واحِدَةٍ، فكأنَّ الشَّيخَ عبدالرَّحمنِ قامَ مِنْ نومِهِ بِدَهْشَةٍ اخْتَلَّ [٢٧/ أ] فيها عقلُهُ، فأخَذَ السَّيْفَ وضَرَبَ بهِ شَرَفَ الدِّينِ ضربةً أَخْطَأَتْهُ، فَمُسِكَ وقُيِّدَ، حتَّى زالَ عَنْهُ ذَلِكَ، فغَضِبَ عليه وسَعَى بِهِ عندَ الوُلاةِ والحُكَّامِ حتَّى سُجِنَ، ثُمَّ جُعِلَ في رِجْلَيهِ قَيْدٌ، وأُدْخِلَ في الَّذِينَ يَخْدِمُون في أعمالِ السُّلطانِ من أهلِ الجَرَائِمِ الكِبَارِ، وهو مِسْكِينٌ ضَعِيفُ البِنْيَةِ، كَثِيرُ الصَّومِ والعِبَادَةِ وتِلاوَةِ القُرآنِ، فاسْتَمَرَّ على ذَلِكَ مُدَّةً والنَّاسُ يَدْخُلُونَ على شَرَفِ الدِّينِ لِيَغْفِرَ له فَلَمْ يَفْعَلْ، حتَّى سَخَّرَ اللهُ له مَنْ أَطلَقَهُ من ذَلِكَ وأرسلَهُ إلى الحِجَازِ.

فلمَّا وصلَ الخَزَنْدَارُ إلى المدينةِ أَتْعَبَهُ في وظائِفِهِ، وفي نفسِهِ وعيالِهِ، وسَعَى عليهِ عندَ الأُمَرَاءِ لِيُخْرِجُوهُ مِنَ المدينَةِ، فلم يُطِيعُوهُ في ذَلِكَ، ومَنَعُوهُ

(١) هو عبدالرحمن بن ياقوت المدني المؤذِّن الفقيه، كان كبير القدر في القراءة مع حُسن الصوت وسلامة الصَّدر وحُسن الخلق والكرم الزائد في الحضر والسفر، وامتُحن على يد شيخ الخدام شرف الدِّين الخزنداري. «التحفة اللطيفة» ٤/ ٣٢٣.

مِنَ الدُّخُولِ إلى القاهِرَةِ والسَّفَرِ إليها، والإقَامَةِ بها، بِسَبَبِ ما يَكْتُبُ فيه لأصحابِهِ، ولم يَزَلْ مَعَهُ كذَلِكَ إلى أَنْ طالتِ المُدَّةُ ونُسِيَتِ القَضِيَّةُ، وعاشَ بعدَهُ الشَّيخُ عبدالرَّحمنِ إلى الآنَ، نَفَعَنَا الله بِهِ.

وكانَتْ مُدَّةُ وِلايةِ شَرَفِ الدِّينِ الخَزَنْدَارِيِّ سَنَتَينِ، ثُمَّ سَعَى عليه شرفُ الدِّينِ[1] فتولَّى المَشْيَخَةَ، فلم يَكْمُلْ لهُ سَنَةٌ حتَّى جاءَ الخبرُ بِعَزْلِهِ، وتَولِيَةِ عِزِّ الدِّينِ[2] واسْتِنَابَةِ شَمْسِ الدِّينِ الجَمَدَارِيِّ[3] عنهُ، ثُمَّ جاء عِزُّ الدِّينِ مَعَ الحَاجِّ، وسافرَ الدِّيرِيُّ إلى مِصْرَ [٢٧/ ب] وأقامَ بها إلى أنْ تُوُفِّي.

وأقام شرفُ الدِّينِ الخَزَنْدَارِيُّ في المدينَةِ مَعَ الشَّيخِ عِزِّ الدِّينِ مُعَظَّماً مُحْتَرَماً مَسْمُوعَ الكَلِمَةِ، وكانَ له مِنَ الخُدَّامِ جَمَاعَةٌ، وحَفَدَةٌ لا يَخْرُجُونَ عن رأيِهِ، ولم يَكُنْ ما بَيْنَهُ وبينَ عِزِّ الدِّينِ حَسَناً، وكانَ عِزُّ الدِّينِ يعامِلُهُ بالحِلْمِ والصَّبرِ والمُدَارَاةِ، وكانَ شَرَفُ الدِّينِ قد سَافَرَ إلى مِصْرَ في وِلايَةِ عِزِّ الدِّينِ الأخيرَةِ، وسعَى في المَشْيَخَةِ فَلَمْ تَحْصُلْ له، ووَلِيَ النِّيَابَةَ بِمَرْسُومٍ سُلْطَانِيٍّ، وكان نائباً لِعِزِّ الدِّينِ، ثُمَّ للشَّيخِ افْتِخَارِ الدِّينِ، تُوُفِّيَ فُجَاءَةً وأصْبَحَ في فراشِهِ مَيِّتاً، وذَلِكَ ليلةَ الأَحَدِ التَّاسِعِ مِنْ شَهرِ رَبيعٍ الآخِرِ أَحَدِ شُهُورِ سَنَةِ تِسْعٍ وخَمْسِينَ وسَبْعِمِئَةٍ، واسْتَمَرَّ عِزُّ الدِّينِ في الوِلايَةِ على الطَّرِيقَةِ الأُولى مِنْ فِعْلِ الخَيْرَاتِ وعِتْقِ المَمَالِيكِ، وَوَقْفِ النَّخِيلِ على الفُقَرَاءِ، رَحِمَهُ اللَّهُ ونَفَعَ بِهِ، فلمَّا ضَعُفَ في بَدَنِهِ وقُوَّتِهِ لِكِبَرِ سِنِّهِ لَزِمَ العُزْلَةَ والإقْبالَ على الخير.

---

(١) شرف الدِّينِ الديري.

(٢) هو عز الدِّينِ دينار.

(٣) شمس الدِّينِ صواب الجمداريُّ: كان من أجاويد الخدَّام الأخيار، توفي عام ٧٥٨هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٢٠، «التحفة اللطيفة» ٣/ ٣٣٧.

ثُمَّ سُعِيَ عليهِ لأَجْلِ ذَلِكَ، فَوَلِيَ الشَّيخُ افتخارُ الدِّينِ ياقُوتُ بن عبدالله الخَزَنْدَارِيُّ، وذَلِكَ في سنةِ ثمانٍ وخمسِينَ وسبعِمِئَةٍ، وَهُوَ مِنَ المشايخِ الرُّؤَسَاءِ، لم يَقُم أَحَدٌ بِحُرْمَةِ المَنْصِبِ مِثْلُهُ، مِنْ أَكْمَلِ النَّاسِ عَقْلاً، وأعظمِهِم حُرْمَةً، مَعَ التَّدَيُّنِ [٢٨/أ] وعِبَادَةٍ وورَعٍ، ذَكَرَ أَنَّهُ خَدَمَ المُلُوكَ بالدِّيارِ المِصْرِيَّةِ مُدَّةَ خَمْسٍ وعِشْرِينَ سَنَةً، لا يَتَنَاوَلُ جَامِكِيَّةً إلا مِنَ الجِزْيَةِ المَأْخُوذَةِ من أهلِ الكِتَابِ تَوَرُّعاً مِنْ أَمْوالِ السُّلطَانِ، وكانَ يَشْهَدُ عندَ القُضَاةِ فَيَقْبَلُونَ شَهَادَتَهُ، وله اجْتِهَادٌ عَظِيمٌ، ومُثَابَرَةٌ على سَماعِ الحَدِيثِ، وكُتُبِ العِلْمِ والرَّقَائِقِ، مع مُلازَمَتِهِ للصَّلاةِ في الصَّفِّ الأَوَّلِ، والنَّاسُ لا يُنْكِرُونَ عليهِ إلا قُوَّةَ نَفْسِهِ، وذَهَابِهِ في رأيِهِ قُدُماً لا يَرْجِعُ لِأَحَدٍ فيهِ، وفيهِ من شَرَفِ النَّفْسِ ما إنَّهُ لا يَتَنَاوَلُ ما شُرِطَ له في الأَوقَافِ على النَّظَرِ، بِخِلافِ غَيرِهِ مِنَ الشُّيوخِ، وفيهِ مِنَ الهَيبَةِ على أصحابِهِ ما انْصَلَحَ بِهِ كثيرٌ مِنْ شأنِهِم، وتَأَدَّبَ [بِهِ][1] كَثِيرٌ مِنْ شَبَابِهِم وصِبْيانِهِم، وصارَ لهم هَيْبَةٌ في النَّاسِ وخَفَارَةٌ[2]، وحَفِظَ الحَرَمَ حِفْظاً حَسَناً، وصادَفَ وَقْتاً سَيِّئاً جَرَى فيه على الشَّدِّ، وزادَ على الحَدِّ، حتَّى ضَاقَتْ عليهِ الأَنْفُسُ من غيرِ جَماعَتِهِ، وسَعَوا في حَلِّ وِلايَتِهِ، وإنَّما أُتِيَ عليه لِوُثُوقِهِ بِرَأْيِهِ، وعَدَمِ قَبُولِهِ نُصْحَ أصحابِهِ، وكأنَّهُ لم يَسْمَعْ قولَ القائِلِ:

وَلَنْ يَهْلَكَ الإِنْسانُ إلّا إذا أَتَى ... مِنَ الأَمْرِ ما لم يَرْضَهُ نُصَحاؤُهُ

واللهُ تَعَالى يَقْضِي لنا ولَهُ بِالخَيرِ، وكانَ يَتَأَدَّبُ مَعَ الشَّيخِ [٢٨/ ب]

---

(١) سقطت في الأصل، وهي في بقية النسخ.

(٢) الخَفَرُ: محركة: المنعة والإجارة. «القاموس المحيط»: خفر.

عِزِّ الدِّينِ لَمَّا كانَ عِزُّ الدِّين مَعْزُولاً، ويأتِيهِ إلى مَجْلِسِه، ويعرِفُهُ الشهرَ يتقرَّبُ إليه[١]، حَتَّى أحبَّهُ عِزُّ الدِّينِ، وكان يقولُ: هٰذا خادِمٌ مُحْتَشِمٌ رَئِيسٌ. ولقد صَدَقَ فيما قالَ، وتُوُفِّيَ عِزُّ الدِّينِ في أيَّامِهِ، وذٰلِكَ سنةَ ٧٦١هـ.

فصل

ثُمَّ إنِّي أدركتُ مِنَ الصُّلَحاءِ الخُدَّامِ المُتَخَلِّلِينَ أيامَ هٰؤلاءِ الشُّيوخِ أقواماً لهم جلالةٌ، وعليهِم مِنَ اللهِ مَهَابَةٌ، منهُم:

طَوَاشِيُّ شِبْلُ الدَّولَةِ كافورُ بنُ عبدِالله الخُضَرِيُّ[٢]، وكانَ فيهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنَ الدِّينِ والخيرِ والبرِّ ما لا عليهِ مَزِيدٌ.

أخبَرَني مَنْ أَثِقُ بِهِ أَنَّهُ كانَ يَضَعُ مَعْلُومَهُ في غُلْفِ أبالِيجِ[٣] السُّكَّرِ، ويَضَعُها في بيتِهِ من غيرِ غَلَقٍ؛ زُهْداً في الدُّنيا، وقِلَّةَ حِرْصٍ عليها، وفي كُلِّ يومٍ يَمْلأُ منها كِيسَهُ، ويجعَلُها في جَيْبِهِ، يُعِدُّ ذَلِكَ لِمَنْ يَقِفُ عليهِ مِنَ السُّؤَّالِ أو مِنَ الحُرَمِ والأيتامِ، وكذَلِكَ رأيتُهُ لا تَزَالُ يَدُهُ تُنْفِقُ سِرًّا وعلانِيَةً.

كانَ شَيْخاً في الرِّوايَةِ؛ سَمِعَ على جَماعَةٍ لهم ذِكْرٌ في طَبَقاتِ المُحدِّثِينَ.

ربَّى أيتاماً كَثِيرِينَ، وأعتَقَ جَماعَةً مُبارَكِينَ، كانَ منهم خِيارُ الفَرَّاشِينَ

---

(١) هٰكذا في جميع النسخ. ولعلها بمعنى: يلازمه الشهرَ.

(٢) الطواشي شبل الدولة: كافور بن عبدالله الطواشي، توفي قبل السبعمئة. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٧٣، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٥٥.

(٣) الأباليج جمع أُبلوج، وهو السُّكَّر، والغُلْف جمع غِلاف. «القاموس المحيط»: بلج، غلف.

الشَّيخُ عبدالله[١] الخُضَرِيُّ، وُلِدَ لِعبدالله أولادٌ قُرَّاء ومُتَصَوِّفَةٌ، وهُمُ اليومَ عَقِبٌ [٢٩/ أ] رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

وكانَ الخُضَرِيُّ والعادِلِيُّ[٢] مُتَجاوِرَينِ في المَسْكَنِ، مُتَعاوِنَينِ على البِرِّ والخَيرِ، تَغَمَّدَهُمُ الله بِرَحْمَتِهِ أَجْمَعِين.

ومنهم: **شِهابُ الدِّينِ رشيدُ بنُ عبدالله السَّعيدِيُّ**[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كانَ مُتَفَقِّهاً مُتَدَيِّناً مُتَعَبِّداً، يَصْحَبُ العُلَماءَ ويَشْتَغِلُ عليهِم، ويَشْتَري كُتُبَ العِلْمِ ويُوقِفُها عَلَيهِم، لهُ خزانَةٌ جَيِّدَةٌ كانَ فيها كُتُبٌ غَريبَةٌ أَعرِفُها في دارِ الزَّيَّاتِ، وله رِباطٌ ودُورٌ أوقَفَها بعدَ أَنْ تَعِبَ في عِمارَتِها وإِنْشائِها، وله مِنِ اسْمِهِ نَصِيبٌ وافِرٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومنهُم: **شَمْسُ الدِّينِ صوابٌ الحَمَوِيُّ النَّاصِرِيُّ**[٤]، كانَ مِنْ شُيُوخِهِم ورُؤَسَائِهِم، قليلَ الكَلَامِ، لا تَراهُ إلا مُشْتَغِلاً بِنَفْسِهِ، إذا جَلَسَ إلى الشَّيخِ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ ونَهَى عن مُنْكَرٍ، وكانَ صَاحِبَ رأيٍ صَائِبٍ، ولهُ حَسَنَاتٌ خَفِيَّاتٌ.

ثُمَّ ظَهَرَ بعدَهُ على طَرِيقَتِهِ أو أَزْيَدَ خادِمُهُ **أمينُ الدِّينِ مُفِيدٌ**[٥]، حَفِظَ

---

(١) عبدالله الخضري: عتيق كافور الخضري، وكان أحد الفراشين بالمسجد النبوي ومن خيارهم. «التحفة اللطيفة» ٤/ ١٨١.

(٢) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٥٠٨٠)، ونقل عن ابن صالح: أنه كان يسكن قرب رباط الأصفهاني.

(٣) «المغانم» ٣/ ١٢٠٦،«التحفة اللطيفة» ٢/ ٥١٦.

(٤) شمس الدِّينِ صواب بن عبدالله الحموي. «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٠٨، «التحفة اللطيفة» (٣/ ٣٣٩).

(٥) «المغانم» ٣/ ١٢٢١، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٢٦٣) نقلا عن المؤلف.

القرآنَ ورُبْعَ «التَّنْبِيهِ»(١)، وصَحِبَ أهلَ الخَيرِ، واشْتَهَرَ بِالدِّينِ والأَمَانَةِ، فاعتَمَدَ عليهِ، وسَلَّمَ إليهِ ما يُعَدُّ مِنَ الحَاصِلِ للصَّرفِ على الفُقَرَاءِ والأوقَافِ وغيرِها، وهُوَ الأَمِينُ على مَا في القُبَّةِ الَّتِي وَسَطَ الحَرَمِ، وبِيَدِهِ مَفَاتِيحُ حاصِلِها، وَهُوَ أهلٌ لِذَلِكَ، فَنِعْمَ الحَسَنَةُ خَلَّفَها [شمسُ الدِّينِ](٢) بعدَهُ. تُوُفِّي سَنَةَ تِسْعَ عَشْرَةَ وسَبْعِمِئَةٍ، [٢٩/ ب] وتُوُفِّي أَمِينُ الدِّينِ مُفِيدٌ في سنة أربع وسبعين وسبعِمِئَةٍ.

ومنهُم: **سعدُ الدِّينِ نجيبُ الفَاخِرِيُّ**(٣)، لهُ اعْتِقَادٌ في الصَّالِحِينَ(٤)، وحُسْنُ ظَنٍّ فيهِم، معَ سَلامَةِ بَاطِنٍ، فَيُخْدَعُ لِمَنْ تَزَيَّا بِزِيِّ الفُقَرَاءِ، وكانَ سَلِيمَ القَلْبِ، حَسَنَ الخُلُقِ، كثيرَ الخَيرِ والصِّلَةِ، عليهِ خَفَارَةٌ وحِشْمَةٌ.

واتَّفَقَ أَنْ جَاءَ إلى المَدِينَةِ في أَيَّامِهِ رَجُلٌ مِنَ اليَمَنِ ادَّعَى أَنَّهُ شَرِيفٌ، كانَ له شَكَالَةٌ حَسَنَةٌ، مَعَ طُولِ قامَةٍ وسُكُونٍ وحِشْمَةٍ، وكان مَعَهُ جَمَاعَةٌ في طُولِهِ يَتَّبِعُونَهُ ويُعَظِّمُونَهُ، فأظهَرَ أَنَّهُ «صَاحِبُ الزَّمانِ»(٥)، وسَكَنَ مَعَ أصحابِهِ في دارِ النَّفِيسِ، شَامِيَّ المسجِدِ الشَّرِيفِ، فانْعَطَفَ عليهِم النَّاسُ وهادَوْهُم، وتَمَكَّنُوا مِنْ خَاطِرِ الفَاخِرِ تَمَكُّناً جَيِّداً، ووَعَدَهُ أَنَّهُ يكونُ عِنْدَهُ

---

(١) «التنبيه في فروع الشافعية»، لأبي إسحاق الشيرازي، المتوفى سنة ٤٧٦هـ، مطبوع.

(٢) سقطت في الأصل، وأثبتها كما في بقية النسخ.

(٣) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٣٨١) نقلا عن المؤلف.

(٤) الواجب التعلّق بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحده لا بالمخلوقين، وأمَّا الاعتقاد في الصالحين بكونهم يجلبون نفعاً أو يدفعون ضرًّا فهٰذا من الشِّرك.

(٥) مصطلح يريد به أهله: أنّ هٰذا الشخص هو أصلح فرد في زمانه، ويسمَّى عندهم بالقُطب الغوث وصاحب الزمان. انظر: «التوقيف على مهمات التعاريف» ص٨٣، وهو ادّعاء عارٍ عن الصِّحة وضربٌ من الظنّ والوهم.

مِنَ المُقَرَّبِينَ إذا خَرَجَ، فأقَامَ على ذَلِكَ مُدَّةً تُهْدَى إليهِ البَذْلاتُ الرَّفِيعَةُ، والمَوَائِدُ الفَاخِرَةُ تَجرِي عليهِ مِنْ عِنْدِهِ، ومِنْ عِنْدِ إخْوانِهِ جماعةٍ مِنَ الشُّرَفَاءِ، وكانَ في حِفْظِ نَفْسِهِ ومُرَاعَاةِ رِيَاسَتِهِ عَجَباً، فلمَّا طَالَ مُقَامُهُ وأَبْطَأَت عِدَاتُهُ تَكَعْكَعَ[(١)] عنهُ النَّاسُ قَلِيلاً، فلمَّا أَحَسَّ بذَلِكَ سافرَ إلى العِرَاقِ، فلَمْ يَطلُع بعدَ ذَلِكَ خَبَرُهُ.

ثُمَّ ظَهَرَ بعدَ ذَلِكَ رَجُلٌ من أهلِ تُونُسَ، وكانَ والدِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَعْرِفُهُ في تُونُسَ هُوَ وأبوهُ، يُقالُ: له ابنُ حماسٍ، [٣٠/ أ] ظَهَرَ بهذه الطَّرِيقَةِ، واتَّسَمَ بِأَنَّهُ مِنْ أربابِ الحَقِيقَةِ[(٢)]، وانْعَطَفَ عليهِ هٰذا الطَّوَاشِيُّ[(٣)] وغيرُهُ، فأَسْكَنُوهُ وقَرَّبُوهُ، وأَتْحَفُوهُ بِأَنْواعِ المَلَابِس وفاخِرِ الأَطْعِمَة، وكانَ قد تَبَدَّنَ وسَمِنَ مِنْ كَثْرَةِ ما يأكُلُ، وكانَ يقولُ: الآنَ قامَ من عِنْدِي الخَضِرُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[(٤)] وقالَ لي كَذَا وكَذَا!! إلى أن قالَ: لي مُلْكُ كذا وكذا، ثُمَّ تَرَقَّى حتَّى قال: كَلَّمَنِي القَلَمُ، ورأيتُ المَلَكُوتَ، وأنواعاً من هٰذه التُّرَّهَاتِ والخُزَعْبَلاتِ!

وقامَ عليهِ جَمَاعَةٌ من أهلِ الخيرِ، وبلَّغُوا الحاكِمَ مَقَالَتَهُ ونَصْبَ خَيَالاتِهِ، فدُعي في مجلِسٍ كَبيرٍ وحَضَرَهُ شَيخُ الخُدَّامِ، وجماعةٌ من لَفِيفِ العَوَامِّ،

(١) تكعكع وتكأكأ: هاب ورجع. «لسان العرب» كأكأ.

(٢) هٰذا مصطلح غير صحيح، فليس في دين الإسلام ظاهرٌ وباطن، ولا أرباب حقيقة وسواهم أرباب شريعة، بل كلّ ما أمرنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ به وأمر به رسوله ﷺ من شريعته واجب الامتثال له، ولا يحلّ تركه والإعراض عنه.

(٣) لقبٌ كان يُطلَق قديماً على الخُدَّام في الحرم المَخْصِيِّين، وبعد ذلك سُمّوا بالأغوات، وهم أيضاً: المماليك الخصيان المعيَّنون لخدمة بيوت السُّلطان وحريمه. «معجم الألفاظ التاريخية» ص١٠٩.

(٤) أحسن المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جعله هٰذه الدعاوى من التُّرَّهات والخزعبلات، والراجح أنّ الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نبيٌّ وقد مات. انظر: «الزهر النضر في أخبار الخضر» للحافظ ابن حجر، ص٨٧.

فَسُئِلُوا عَمَّا نَقَلُوا عنهُ، فكلٌّ يَقُولُ مقالَةً غيرَ مَقَالَةِ الآخَرِ، لم يَجْتَمِعْ على الشَّهَادَةِ اثنانِ فَخُلِّيَ سبيلُهُ، ثُمَّ سافرَ إلى القاهِرَةِ، واشْتَهَرَ بها ذِكْرُهُ وكَثُرَ أَتْبَاعُهُ، ثُمَّ انْتَقَلَ إلى العِراقِ، فَقِيلَ: إنَّهُ قُتِلَ بها.

قالَ والِدِي: إنَّ هٰذا الرَّجُلَ كانَ له مَالٌ كَثيرٌ وَرِثَهُ مِنْ والِدِه، فأخْرَجَهُ على الفُقَرَاءِ وتَصَدَّقَ بِهِ كُلِّه، وخَرَجَ فَقِيراً، لٰكنَّهُ لم يَقِفْ عندَ حَدِّه، بل طَمِعَ في الوِلايَة، وَهِيَ لا تحصُلُ إلا بِالمَوهِبَةِ الإلهيَّةِ، والعِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ.

وإنَّما ذكرتُ حَالَ هٰذينِ الرَّجُلَينِ تَنْبيهاً على حُسْنِ اعْتِقَادِ الخُدَّام في المُجَاوِرِينَ، وجَميلِ ظَنِّهِم فيهِم، رَحِمَهُمُ الله تَعَالى.

ومِنْهُم: **عِزُّ الدِّينِ** [٣٠/ ب] **مُخْتَارٌ الحَلَبِيُّ**(١). كانَ مِنْ كِبَارِ الخُدَّام ومِمَّنْ اتَّصَفَ بِأَحْوالِ الصَّالِحِينَ ومَحَبَّةِ العُلَماءِ. أَثْنَى عليهِ الشَّيخُ عبدالوَاحِدِ الجُزُولِيُّ(٢) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذَكَرَ لَهُ مَنَاقِبَ كَثِيرَةً، وكانَ مَسْكَنُنَا مَعَ والِدِنا في دارِهِ الَّتِي أَوقَفَها على جمال الدِّينِ المَطَرِيِّ مُجَاوِرَةً لِرِباطِ الشِّيرازِيِّ، وَهِيَ إلى اليومَ وَقْفٌ على أولادِهِ رَحِمَهُمُ الله تَعَالى.

ومنهُم: **شَفِيعٌ الكَرْمُونِيُّ**(٣). كانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أَحْسَنِ الخُدَّام شَكَالَةً وطُولاً، وأَعْدَلِهِم بِنْيَةً، وكانَ مِنْ أَقْدَرِهِم على مُخَالَطَةِ النَّاسِ، وكانَ له صَولَةٌ عَظِيمَةٌ في المَسْجِدِ على مَنْ رأى مِنْهُ أَدْنَى مُخَالَفَةٍ، خُصُوصاً مَنْ رأى مِنْهُ

---

(١) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤١٢١) نقلا عن المؤلف.

(٢) عبدالواحد الجزولي: كان من العلماء بالحديث والقراءات، من الزُّهّاد المنقطعين، مُكبًّا على نسخ العلم، ووَقَفَ كثيراً مما كتبَهُ وفرَّقَهُ قبل موته بيسير. «التحفة اللطيفة» ٤/ ٤٧٧.

(٣) شفيع الكرموني: ذكره السخاوي في «التحفة اللطيفة» ٣/ ٢٨٩.

مُخَالَطَةً لأهلِ الشَّرِّ، وكانَ قَدْ بَنَى هُوَ والشَّيخُ نَاصِرُ الدِّينِ نَصرُ عطاءِ الله دارَينِ عَظِيمَتَينِ غَرِمَا عليهما مالاً عظيماً، وتَعِبَا فِيهما تَعَباً كثيراً، فَلَمْ يَسْكُنا فِيهما، ولم يَتَمَتَّعا بِهِما حَتَّى تُوُفِّيا، عَوَّضَهُما الله خَيراً ورَحِمَهُما.

ولِشَفِيعِ اليومَ خَادِمٌ صالِحٌ عاقِلٌ، لم أرَ أَحْسَنَ مِنْ سُكُونِهِ، وقِلَّةِ فُضُولِهِ وعُزْلَتِهِ عَنِ النَّاسِ، جَزَاهُ الله عَنْ نَفْسِهِ خَيراً، فَقَدْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ ولِسَانِهِ.

ومنهُم: شَمْسُ الدِّينِ صَوابٌ المُغِيثِيُّ[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ما كانَ أَدْيَنَهُ وأورَعَهُ! كانَ أوَّلَ مَنْ يأخُذُ مِنْ مَحَطِّ خِدْمَةِ المَسْجِدِ الشَّرِيفِ وتَعْلِيقِ [٣١/ أ] قَنَادِيلِهِ، وأوَّلَ مَنْ يسبِقُ إلى المَسْجِدِ مِنَ المُصَلِّينَ، لَزِمَ أُسْطَوانَةَ المُهَاجِرينَ حَتَّى عُرِفَ بها، وَهِيَ الأُسْطُوانَةُ الثَّالِثَةُ من أُسْطُوانِ التَّوبَةِ عندَ المُحَقِّقِينَ[(٢)].

وكانَ إذا جاءَتْ نَوبَتُهُ في الخِدْمَة يَصْنَعُ الأَطْعِمَةَ الكَثِيرَةَ، والأَلْوانَ الفَاخِرَةَ، ويدعُو لِطَعَامِهِ مَنْ عَرَفَ ومَنْ لم يَعْرِفْ، وكذَلِكَ كانَ يَفْعَلُ جَمِيعُهُم سِوى أنَّهم يَتَفَاضَلُونَ في السَّخَاءِ والكَرَمِ، وطِيبِ النَّفْسِ يُريدُونَ بِذَلِكَ وجهَ الله تَعَالى.

---

(١) شمس الدِّينِ صواب بن عبدالله المغيثي: من خدام الحرم الشريف، توفي سنة ٧٤٣هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢١٩، «المنهل الصافي» ٢/ ٢٤٧، «التحفة اللطيفة» ٣/ ٣٤٠.

(٢) وهي المعروفة بـ«أسطوانة عائشة»، و«الأسطوانة المخلقة». قال في «المغانم» ١/ ٤٠٠: وهي في الصَّفِّ الأوّل خَلفَ الإمَام إذا صَلَّى في محرَاب النَّبِيِّ ﷺ، وهيَ التي صَلَّى إليها رَسُولُ الله ﷺ المكتوبةَ بعدَ تحويلِ القِبلةِ بضعَ عشرةَ يَوماً ثمَّ تَقَدَّمَ إلى مُصلاهُ اليوم، وهي الثالثةُ من المنبر، والثالثةُ من القبلة، والثالثةُ من القبرِ الشريف، وسُمِّيت بـ«أسطوانة عائشة» للحديث الذي روته فيها: «إنِّي لأعلمُ ساريةً من سواري المسجد لو يعلم الناسُ ما في الصلاة فيها لاضطربوا عليها بالسهمان». وقد ضعَّفَ هذا الأثر الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ١/ ٥٥٧. وانظر: «وفاء الوفا» ٢/ ٤٤٠.

وكانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أهلِ الدَّولَةِ عُقْدَةً لا تَنْحَلُّ، وشَفْرةً لا تُنْكَلُ[١]، نَفَعَنَا الله بِهِ بعدَ وَفاةِ والدِنا في سُبْعِ سَيِّدِهِ، وذَلِكَ أنَّ بَعْضَ أهلِ الشَّرِّ بَذَلَ للأميرِ مَنْصُورٍ في وظائِفِ والدِي مَبْلَغاً جَيِّداً، حَتَّى تكُونَ كُلُّها له ويُخْرِجَنا منها، فأرسَلَ الأميرُ إلى شيخِ الخُدَّامِ ظَهيرِ الدِّينِ يُعَرِّفُهُ بأَنَّهُ قد حَصَلَ له في هٰذه الوظائِفِ كذا وكذا، فإنْ دَفَعَ أولادُ المُتَوَفَّى هٰذا المَبْلَغَ، وإلا أَخَذْتُها مِنْهُم لِلَّذي بذَلَ إليَّ ذَلِكَ، فعَرَضَ علَينَا الشَّيخُ ذَلِكَ، وقالَ: هل في حالِكُم شَيءٌ ولو ألفَ دِرْهَمٍ؟

فقُلْتُ لهُ: واللهِ لم يُخَلِّفْ لنا والِدُنا دِيناراً ولا دِرْهماً واحِداً، غيرَ نَفَقَةٍ مِنَ الحَبِّ، أوصَى بِثُلُثِها، ودارٍ نَسْكُنُها، وكتُبٍ نَقْرَأُ فيها، فإنْ كَتَبَ اللهُ قِسْمَتَهُ، [٣١/ ب] وإلا فَهِيَ رَزِيَّةٌ وبَلِيَّةٌ، نرجُو مِنَ اللهِ العَظِيمِ كَشْفَها والعِوَضَ عنها.

فقامَ حِينَئِذٍ شَمْسُ الدِّينِ المُغِيثِيُّ وصاحَ على الشَّيخِ، وقالَ له: في مِثْلِ هٰذا تَتَهاوَنُ، واللهِ لا يَصِلُ هٰذا اللَّعِينُ إلى وَظِيفَتِنا، ولا يَقْرَأُ فيها أَبَداً إلا أَنْ يَفْعَلَ لي كَذَا وكَذَا!

فبَلَغَ ذَلِكَ الأميرَ، فَلَمْ يَسْمَعْ مِنَ الَّذِي سَعَى عليها بعدَ ذَلِكَ في حَقِّنَا كَلِمَةً، ورَدَّ اللهُ كيدَ ذَلِكَ الرَّجُلِ في نَحْرِهِ بِبَرَكَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وبِبَرَكَةِ والِدِنا[٢].

ثُمَّ دارَتِ الدَّائِرَةُ على ذَلِكَ الرَّجُلِ، فأُخرِجَ مِنْ جَمِيعِ وَظَائِفِهِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالحَرَمِ الشَّرِيفِ، واللهُ تَعَالى مَعَ الضَّعِيفِ.

---

(١) لا تُنْكَل: أي لا تدفع عما وقعت عليه، «القاموس المحيط»: نَكَلَ.

(٢) لا يجوز الجزم بأنّ هٰذا الأمر حدث ببركة فلان أو فلانة؛ حذراً من القول على الله بغير علم.

تُوُفِّيَ شَمْسُ الدِّينِ في سَنَةِ أربَعٍ وثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ فيما يَغْلِبُ على الظَّنِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ودُفِنَ أمامَ قُبَّةِ(١) سَيِّدي إبراهيمَ ابنِ رَسُولِ الله ﷺ.

ومنهُم: عِزُّ الدِّينِ دينارٌ البَدْرِيُّ(٢) رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنْ خَادِمٍ، إذا قيلَ للنَّبِيِّ ﷺ خادِمٌ، كان مَسْكَنُهُ دارَ الشُّرَّابِيِّ بِزُقَاقِ الخُدَّامِ، قد جَعَلَها الله مَوْئِلاً للإخْوانِ، ومَرفَقاً لكلِّ مُرْتَادٍ، يُعِدُّ فيها للمَرضى أَنْواعاً مِنَ الأَمْواهِ(٣) والأَشْرِبَةِ، والأَغْذِيَةِ، لا يَمْرَضُ فَقِيرٌ أو مُجاوِرٌ أو خَادِمٌ إلا جاءَهُ في الحِينِ، وحَمَلَ إليهِ مِنْ كُلِّ [٣٢/ أ] ما يَحْتَاجُ إليهِ، وكانَ عَطَاؤُهُ عطاءَ السَّلاطينِ، وإنْ أعطَى ماءَ لسانِ [الثَّورِ](٤) أو ماءَ خِلَافٍ(٥) وما أَشْبَهَ ذَلِكَ ملأَ الإِنَاءَ، وكذا يَفْعَلُ في الشَّرَابِ والسُّكَّرِ وغيرِ ذَلِكَ، ومتَى وُصِفَ لمِريضٍ فَقِيرٍ دَوَاءٌ سَعَى في تحصيلِهِ حتَّى يأتيَهُ بِهِ.

ثُمَّ إنَّهُ لا يَزَالُ يَطْبُخُ في بيتِهِ الأشياءَ اللَّطِيفَةَ المُنَاسِبَةَ، ويحمِلُها بِنَفْسِهِ على يَدِهِ، لا يَسْتَعِينُ بِعَبْدِهِ ولا بِغُلامِهِ، ولا أَقُولُ: إنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ مع أَصْحَابِهِ ومَنْ يَعْرِفُهُ من عَنايَاه(٦) وأحبابِهِ، بل يجرِي خَيرُهُ على جميعِ النَّاسِ، ويأتِيهِم في الرُّبُطِ والمَدَارِسِ، ويَتَرَقَّقُ لَهُم ويُشْفِقُ عَلَيهِم، ويُشَهِّيهِم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هٰذا حالُهُ فيما مَلَكَتْ يَمِينُهُ.

---

(١) ليس لذلك أصلٌ في الشرع، وهٰذه القبة أيضاً غير موجودة اليوم، ولله الحمد والمنة.

(٢) «المغانم» ٣/ ١٢٠٤، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٧٦ نقلاً عن المؤلف.

(٣) الأمواه: جمع ماء «القاموس المحيط»: موه.

(٤) زيادة من (ج)، ولسان الثور: عُشْبَةٌ لها وَرَقٌ مُتَفَرِّشٌ خشن كخُشُونَةِ لِسانِ الثَّور، وتُعرف حالياً بالكحلاء، تُفرز سائلاً شديد الحلاوة كالعسل. انظر: «معجم النبات» ٢ / ٤٠٢.

(٥) الخِلَاف: شجر الصَّفْصاف، ويسمى: الغَرَب، يستخدم للتداوي. انظر: «معجم النبات» ٢/ ٢٥٩.

(٦) عناياه: أي من يعتني ويهتم بهم. انظر: «القاموس المحيط»: عني.

وأماَّ غيرُ ذَلِكَ من مساعَدَةِ الضَّعِيفِ والقِيامِ مَعَ المُنْكَسِرِ بِدَيْنٍ أو فَقْرٍ، فالعَجَبُ العُجَابُ، ويُخْرِجُ مِنْ مالِهِ ويَتَضَمَّنُ في ذِمَّتِهِ، ويدخُلُ على الغَرِيمِ في بَيتِهِ، ولقد ضَمِنَ مَرَّةً نَحْوَ خمسينَ ألفَ دِرْهَمٍ طُولِبَ بها، وضُيِّقَ عليه فيها، فَفُرِّجَ عنه بِبَرَكَةِ نِيَّتِهِ، ولو تَتَبَّعْتُ آثارَهُ الحَسَنَةَ، ومناقِبَهُ الجَمِيلَةَ، لكانَ سِيرَةً مُدَوَّنَةً.

وأما سعْيُهُ في التِئَامِ الكَلِمَةِ، وإصلاحِهِ بينَ النَّاسِ، وجمعِ الشَّمْلِ بينَ الإِخْوَانِ، والتَّأْلِيفِ بينَ الأقرانِ، فَمِنْ عَجَائِبِ الزَّمانِ، رَحِمَهُ الله تعالى رحمةً تُنْزِلُهُ الجِنانَ، وتُبْعِدُهُ عن النِّيرَانِ.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ [٣٢/ ب] في سَنَةِ أربعٍ وثلاثينَ وسَبْعِمِئَةٍ.

ومنهم: **شمسُ الدِّينِ الدَّورَخَانِيُّ**[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كانَ فيهِ مِنْ مكارِمِ الأَخْلاقِ، ومحبَّةِ الإِخْوَانِ، والشَّفَقَةِ على طَلَبَةِ العِلْمِ، وسَذاجَتِهِ وقِلَّةِ حَذَاقَتِهِ في الدُّنيا ما لا مَزِيدَ عليهِ، يُعْطِي العَطَايا الجَزِيلَةَ، بيتُهُ بيتُ المُلُوكِ، ونوبتُه: اِقرأ من كتابِ الله ما بعدَ: ﴿**يَأْتُوكَ**﴾[(٢)].

كانَ سيِّدُهُ يُحِبُّهُ وَيُتْحِفُهُ في كُلِّ سَنَةٍ بما يَحْتَاجُ إليهِ من السُّكَّرِ والشَّرَابِ وأَنْوَاعِ الحُبُوبِ، وحَبَّبَ اللهُ إليهِ الإنفاقَ، فاتَّسَعَ النَّاسُ في خيرِهِ حَتَّى ماتَ مَسْتُوراً - رَحِمَهُ الله تعالى - في سَنَةِ ثلاثٍ وأربَعِينَ وسبعِمِئَةٍ.

---

(١) شمس الدِّينِ الدَّورخاني: كان أحد الخُدَّام المذكورين بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، مُحِبّاً للصالحين، مكباً على خدمة العلماء العاملين، كثير الإحسان إلى المعارف والأجانب. «المغانم» ٣/ ١٢٠٦، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥١٧.

(٢) كانت هناك وظيفة في قراءة القرآن، يتناولها عددٌ من الخُدَّام وغيرهم، وكان المُترجَم منهم، والمراد من «يأتوك» قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ سورة الحج: آية ٢٧.

ومنهم: شمسُ الدِّينِ صَوابُ الجَمْدَارِيُّ(١)، رَحِمَهُ الله تَعالى، كانَ مِنْ أَجَاوِيدِهم وذوي الرَّأي مِنْهُم، مِمَّنْ يُعَظِّمُ الشَّرعَ وأهلَهُ، عليهِ سَكِينَةٌ ووَقارٌ وحُسْنُ أَخْلاقٍ، وبَشَاشَةٌ عندَ التَّلاقِ، كانَتْ لهُ رِياسَةٌ وحِشْمَةٌ، وإِطْعَامُ للكِسرَةِ، وكانَ نائباً للشَّيخِ عِزِّ الدِّينِ، وله عُتَقاءُ حَسَنَةٌ، وبَنَى داراً وأَوْقفَها، واشْتَرَى في آخرِ عُمْرِهِ نَخْلاً جَيِّداً وأَوْقفَهُ، ولَهُ غَيرُه مِنَ الأوقافِ.

كانَ ذا حَيَاءٍ لا تَكادُ تَراهُ يَمْزَحُ ولا يَضْحَكُ، ولا يَجْلِسُ إلّا في وقتِ ضَرُورَةٍ وفي أيّامِ نَوبَتِهِ، وله خَادِمٌ رَئِيسٌ قَلِيلُ الخُلْطَةِ بِالنَّاسِ. [٣٣/ أ]

تُوُفِّيَ الجَمْدَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في سَنَةِ ثَمانٍ وخَمْسِينَ وسَبْعِمِئَةٍ.

ومِنْهُم: جمالُ الدِّينِ مُحْسِنٌ الإِخْمِيمِيُّ(٢).

ومنهُم: ظَهِيرُ الدِّينِ مُخْتارٌ الزُمُرُّدِيُّ(٣)، كانا على نَسَقٍ وَاحِدٍ من حُسْنِ الهَيْئَةِ والمَهَابَةِ والرُّجْلَةِ(٤) والحَذَاقَةِ، مَعَ المُحَافَظَةِ على المُرُوءَةِ، والسَّلامَةِ مِنَ النَّاسِ في مُخالَطَتِهِم.

تُوُفِّيَ الزُّمُرُّدِيُّ بِمَكَّةَ في سَنَةِ خَمْسِينَ وسَبْعِمِئَةٍ.

وأما جمالُ الدِّينِ الإِخْمِيمِيُّ - رَحِمَهُ الله تَعَالى - فإنَّهُ رَأَسَ الخُدَّامَ حَتَّى عُيِّنَ لِمَشْيَخَةِ الحَرَمِ، لَكِنْ أَدْرَكَتْهُ المَنِيَّةُ، وكانَ رَحِمَهُ الله تَعالى رَأْسَ الخُدَّامِ في

---

(١) «المغانم» ٣/ ١٢٢٠، «التحفة اللطيفة» ٣/ ٣٣٧.

(٢) جمال الدِّين: محسن الأخميمي الناصري، أحد الخدام للمسجد النبوي، بل رأَس حتى عُيِّن للمشيخة، لكن أدركته المنية، مات سنة ٧٥٥هـ. «المغانم» ٣/ ١٢٧٦، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٥٠٩.

(٣) انظر: «المغانم» ٣/ ١٢٧٦ «العقد الثمين» ٧/ ١٦٠، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤١٢٠).

(٤) يقال: رجل بَيِّنُ الرُّجلَةِ، إذا كان بَيِّنَ الجَلَدِ. «جمهرة اللغة» ١/ ٢٢٩.

وَقْتِهِ، وأكثرَهُم مَحَاشِماً، وأَبْعَدَهُم مِنَ الشَّرِّ وأهلِهِ، لَيِّنَ الجَانِبِ كَثِيرَ الأَدَبِ، حَسَنَ الخُلُقِ، رَحْمَةُ الله عليهِ.

وبنَى داراً حَسَنَةً وأوقفَها، فلَمَّا كَمُلَتْ ماتَ قبلَ أَنْ يَسْكُنَها عَوَّضَهُ الله خيراً، وكانَ لي مِنْ وُدِّهِ ولُموالاتِهِ نَصِيبٌ وَافِرٌ، وكانَ له نَخْلٌ أَوْقَفَهُ، وغُلامٌ أَعْتَقَهُ وجَعَلَهُ مَعَ الفَرَّاشِينَ، هُوَ مِنْ خِيارِهِم، جَزاهُ الله خَيراً ورَحِمَهُ رَحْمَةً واسِعَةً، تُوُفِّي سنَةَ خَمْسٍ وخَمْسِينَ وسبعِمِئَةٍ.

ومنهُم: **شِهابُ الدِّينِ مُرْشِدٌ القاري**[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان قَرِيباً مِنَ النَّاسِ، سَرِيعَ الميلِ إلى مَنْ يُؤانِسُهُ ويُجالِسُهُ، [٣٣/ ب] وكانَ يَتَعانَى الأَشْياءَ الحَسَنَةَ اللَّطِيفَةَ مِنَ الأَشْرِبَةِ والأَمْواهِ والمَعَاجِينِ والفَاكِهَةِ، ولا يَزالُ بَيْتُهُ مَعْمُوراً بالضِّيفَانِ، مَبْذُولاً للإخْوانِ، يَعْمَلُ الأَشْياءَ الفَاخِرَةَ مِنَ الحَلْوى العَزِيزَةِ الوُجُودِ في الحِجَازِ، ويُهدِيها لأَصْحَابِهِ، ويُتْحِفُ بها مَنْ يَرْغَبُ في بَرَكَتِهِ ودُعَائِهِ مِنْ صَالِحِي المُجَاوِرِينَ.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَلَّ أَنْ تُطْلَبَ منه حاجَةٌ فيَقُولُ: لا أَجِدُها، بل يَحْرِصُ على تَحْصِيلِها، ويَطْلُبُها مِنْ مَظَانِّها حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَةَ صَاحِبِها، سَجِيَّةً صَالِحَةً، وتِجَارَةً رَابِحَةً.

ومنهُم: **الطَّواشِيُّ نَصْرٌ**، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كانَ مِنْ عِبادِ الله الصَّالِحِينَ، كانَ مِنَ الخُدَّامِ القُدَماءِ الصُّلَحَاءِ، المُتَمَرِّنِينَ على العِبَادَةِ، المُتَّصِفِينَ بِصِفَاتِ أهلِ السَّعَادَةِ، كانَ يُجَاوِرُ سَنَةً بِالمَدِينَةِ وسَنَةً بِمَكَّةَ، وكانَ يَخْتَارُ سُكْنَى رِبَاطِ

---

(١) في الأصل: الفادي، والتصويب من «المغانم» ٣/ ١٢٧٦، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤١٤٣)، نقلا عن المؤلف.

دُكَّالَةَ، لم يَزَلْ فيه لِيقْرُبَ مِنْ صُحبَةِ المَشَايِخِ الصُّلاَّحِ السَّاكِنِينَ بِهِ، وكانَ يصُومُ الثَّلاثَةَ الأَشْهُرَ مُتَوالِيَةً، وكانَ لا يَصْحَبُ إلا المُجَاوِرِينَ الَّذِينَ لهُم في العِبَادَةِ قَدَمٌ، وهُمْ في النَّاسِ نَارٌ على عَلَمٍ، له اليَومَ خَادِمٌ صَالِحٌ من أهلِ القُرآنِ، عاشَ بينَ الإخوانِ بِعَقْلِهِ، وساسَ وَقْتَهُ بِفِعْلِهِ [٣٤/ أ]، [وكانتْ][1] وفاةُ سَيِّدِهِ - فيما يَغْلِبُ على الظَّنِّ - في سَنَةِ سِتٍّ وثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ.

ومنهم: **مُخْتَارٌ[2] المعروفُ بالمُوَلَّه**، كَانَ مِنْ إخْوانِ نَصْرٍ في خُلُقِهِ، صَحِبَ المشايِخَ الكِبَارَ، مِثْلَ الشَّيخِ أبي مُحَمَّدٍ البَسْكَرِيِّ وغيرِه، فَتَأَدَّبَ بِآدَابِهِم، واكْتَسَبَ مِنْ أَخْلاقِهِم، وكانَ له كَرَمٌ واعْتِقَادٌ حَسَنٌ، وكانَ مِنَ الخُدَّام الذينَ لهم أَخْبازٌ، وكانَ الشَّيخُ عُمَرُ الخَرَّازُ[3] مِنْ إخْوانِهِ، وكانَ عُمَرُ يأخُذُ الدَّينَ الكثيرَ لأجلِ عِيالِهِ، فيأتي المَوسِمُ وعليهِ فوقَ الثَّلاثة آلافِ دِرْهَمٍ، فيقضِيها الطَّوَاشِيُّ مُخْتَارٌ[4]، ورُبَّما يقولُ لَهُ: خُذْ مِنْ خُبْزِي من غَيرِ مِيزَانٍ، فَيَحْفِنُ له حَفَنَاتٍ، يقْضِي دَيْنَهُ، ويُعِينُهُ على وقْتِهِ.

وبَلَغَنِي أَنَّه يَجْمَعُ الفُقَرَاءَ ويُعْطِيهم ثوبَهُ يَفْلُونَهُ[5]، يُريدُ بذَلِكَ المُؤَانَسَةَ، ثُمَّ يُعطِيهِمُ التَّمْرَ والخُبْزَ يَرونَ أَنَّهُ أُجرَةٌ، وما هُوَ إلّا لِيُحَصِّلَ الثَّوابَ والأَجْرَ بلا مِنَّةٍ عليهِم، رحمةُ الله عليهِ. تُوُفِّي سنةَ إحدى وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ.

---

(١) سقط ما بين المعقوفتين من الأصل، وأثبته كما في بقية النسخ.

(٢) انظر «المغانم المطابة» ٣/ ١٣٩٢، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤١٢٥) نقلاً عن المؤلف.

(٣) عمر بن عياذ الأنصاري الأندلسي، هاجر إلى الحجاز مع أسرته لما ضعف أهل ناحيته وغلب عليهم الإفرنج، مات سنة ٧٤١هـ. «الدرر الكامنة» ٣/ ١٨٢، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٣٣٣ وفيها: «عمر بن عياض الجزار».

(٤) لعله ظهير الدين مختار الزمردي المتقدم ص١٠٨.

(٥) يَفْلُونَهُ: يبحثون عن القمل. «القاموس المحيط»: فلي.

ومنهم: **عِزُّ الدِّينِ ريحانُ الطَّبَّاخِيُّ**(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان حَنَفِيًّا مُتَفَقِّهاً مُلائِماً للعُلَماء، مُحبًّا في الفُضَلاءِ، مُسَاعِداً عِنْدَ الشُّيوخ على تسديدِ الأُمُورِ المُعْضِلاتِ، وتَرقِيعِ الخُصُومَاتِ، كثيرَ الحَجِّ إلى بيتِ الله الحَرَام.

[٣٤/ ب] تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنة سِتٍّ وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ.

ومنهُم: **ريحانُ الهِنْدِيُّ**، مِنَ الخُدَّامِ الَّذِينَ طالَتْ إِقَامَتُهم في الخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ، لهُ مآثِرُ حَسَنَةٌ، ووَقَفَ رِباطَيْنِ حَسَنَيْنِ، عَمَّ النَّفعُ بِهما، ونَخِيلاً جَيِّدَةً، وسِقَايَةً للماءِ، ودَارَيْنِ، وكانَ كَثِيرَ المَعْرُوفِ، مُحِبًّا للخَيرِ وأهلِهِ، مُؤْثِراً الباقِي على الفَانِي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومنهُم: **أَمِينُ الله خالِصٌ البَهائِيُّ**(٢)، كانَ فيه من السُّكون والخيرِ المَكْنُونِ مالا مَزِيدَ عليهِ، وكانَ يَتعانى الفِلاحَةَ، فَيُخَالِطَ النَّاسَ فَيَسْلَمُ مِنْهُم ويَسْلَمونَ منه، مُتَواضِعاً مُتَأَدِّباً، يرحَمُ المِسْكِينَ، ويُعِينُ مَنْ بِهِ يَسْتَعِينُ.

طالَتْ أَيامُهُ وكَثُرَ مَالُهُ، حتَّى أَوْقَفَ الأوقافَ، وله رِباطٌ بِبَابِ البَقِيعِ، ولهُ عُتَقَاءُ مِنْ عَبيدٍ وإماءٍ، وغَرَسَ في الحَرَمِ خَادِمَهُ سُرُوراً لِقَرَاءَةِ القُرآنِ، وألزَمَهُ حُضُورَ الأَسْبَاعِ، فجادَتْ قِرَاءَتُهُ وحَسُنَ صَوتُهُ، فَظَهَرَ بينَ أَقْرَانِهِ بِرُجْلَةٍ وشَجَاعَةٍ.

ومنهُم: **عَنْبَرٌ المَوصِلِيُّ**(٣)، وَهُوَ مِنْ قُدَمَائِهِم، وكانَ خادِماً للشَّيخ مُحَمَّدٍ الأَعْمَى(٤) خِدْمَةَ مَحَبَّةٍ ومُوَالاةٍ، فَاكْتَسَبَ مِنْ أخلاقِهِ الحَسَنَةِ ورِيَاضَتِهِ

---

(١) «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٠٧، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥٢٨.

(٢) «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤١٩.

(٣) «التحفة اللطيفة» ٥/ ٣٦٤.

(٤) محمد بن عمر الأعمى: كان قارئاً مؤذنا، مات في المغرب بعد غيبة طويلة، وخَلَّفَ ولداً صالحاً نجيباً حسن الصوت. «التحفة اللطيفة» ٦/ ٤٠٧.

مُدَّةَ حياتِهِ ما حَصَّلَ بهِ خيرَ الدُّنيا والآخِرَةِ، بَنَى داراً قُبَالَةَ دارِ العَشَرَةِ وأوقفَها.

[٣٥/أ] ومنهُم: **مِفْتَاحُ الهِنْدِيُّ**(١)، كانَ مِنَ الكِبَارِ، عاشَ مِئَةَ سَنَةٍ على عِبَادَةٍ ومُجَاهَدَةٍ، مِنْ أَرْبابِ الكَرَامَاتِ، ووَقَفَ نَخْلاً جَيِّداً بالحِشَّانِ(٢)، ونَخْلاً آخرَ بِبِيرِ عِزِّ العَرَب.

كان يَعْمَلُ كُلَّ سَنَةٍ في شهرِ رَبيعِ الأَوَّلِ مَوْلِداً للنَّبِيِّ ﷺ(٣)، يُنْفِقُ فيهِ نَفَقَةً جَلِيلَةً، وكانَ يَقُولُ: إنَّهُ يَعْرِفُ يومَ وَفَاتِهِ، وأَنَّهُ يَمُوتُ في شهرِ رَجَبٍ، أَظُنُّهُ السَّادِسَ أو الرَّابعَ منه، فكانَ كَذَلِكَ، وكانَ غَالِباً يعمَلُ مَولِدَهُ في بيتِي، ويحضُرُ كأنَّه واحِدٌ مِنَ الجَمَاعَةِ.

وحضَرَ يوماً مَعَ الجماعة، فلمَّا خَرَجُوا قَدَّمْتُ لَهُ طَعَاماً فيه لَحْمٌ، فَوَقَفَتْ في حَلْقِهِ لَحْمَةٌ، تشَهَّقَ منها شَهْقَةً ما شَكَكْتُ أَنَّهُ ماتَ، ثُمَّ إِنَّهُ أفاقَ بعدَ ذَلِكَ، وقالَ لي عِنْدَ إفاقَتِهِ: خِفْتَ عليَّ أَنْ أَمُوتَ؟ لا أموتُ اليومَ، بلْ بَقِيَ لي كَذَا وكَذَا ثُمَّ أَمُوتُ، فكانَ كما قالَ(٤)، رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونَفَعَ بِهِ.

ومِنْهُم: **الطَّواشِيُّ صَنْدَلٌ**(٥)، كانَ من أكابرِ القُدَمَاءِ الرُّؤَسَاءِ المُتعفِّفِينَ

---

(١) «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٩٣، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٢٦١).

(٢) حِشان، بالكسر: جمع حَشٍّ وهو البستان، وهو أطم من آطام المدينة كان لليهود على يمين الطريق من شهداء أحد. «المغانم المطابة» ٢/ ٧٥٩.

(٣) هٰذه الموالد لا أصل لها في الشرع، ولم يفعلها الخلفاء الرَّاشدون ولا بقية الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ولو كان فيها الخيرُ لسبقونا إليها؛ لحرصهم وما عُرف عنهم من الاقتداء والاتِّباع والمحبَّة الحقيقية للنبيِّ ﷺ.

(٤) لا يعلم الغيب إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهٰذه الأمور لا قدرة للبشر على علمها.

(٥) «التحفة اللطيفة» ٣/ ٣٣٤.

الدَّيِّنِينَ، كثيرَ الصَّدَقَةِ بِالبِرِّ والخيرِ، وأوقفَ وأعتقَ وأَثَّرَ آثاراً حَسَنَةَ، وكانَ مِن أَحْسَنِ النَّاسِ خَلْقاً وخُلُقاً، مُحِبًّا في المُجاوِرِينَ شَفُوقاً على أولادِهِم، قد سَلِمَ النَّاسُ مِن يَدِهِ ولِسَانِهِ.

ومنْهُم: **نَجيبٌ النِّظَامِيُّ**(١)، تُوُفِّي وَهُوَ ساجِدٌ في صلاةِ التَّراويحِ، [٣٥/ ب] رحمةُ الله عليهِ، عندَ بابِ الرَّحْمَةِ.

واعلمْ أَنَّهُ كانَ قبلَ هٰؤلاء ومَعَهُم وبعدَهُم جماعَةٌ كَثِيرُونَ، ينوفون على المِئَةِ لو عَدَدْتُهُم، كُلُّهُم مُتَّصِفُونَ بالخيرِ الكثيرِ، والدِّينِ المَتِينِ، والأوقافِ مِنَ الدُّورِ والنَّخِيلِ، وعِتْقِ الأَرِقَّاءِ مِنَ الخُدَّام - الَّذِينَ كثيرٌ مِنْهُم اليومَ في الحَرَمِ الشَّرِيفِ - والعبيدِ والإماءِ، معَ الاجتهادِ في قِرَاءَةِ القُرآنِ، والإكثارِ من سَمَاعِ الحديثِ، ولو تَتَبَّعْتُهُم وذكرتُ صِفَاتِهِم وما عَلِمْتُ مِن أحوالِهِم، لَطَالَ الكلامُ واتَّسَعَ المقالُ.

منهُم: كافورٌ المُحْسِنيُّ(٢) نائِبُ المَشْيَخَةِ، والتاجِيُّ(٣)، والنَّاصِحِيُّ(٤)، وصوابٌ الأَبْكَرُ(٥)، ومُخْتَارٌ البَغْدَادِيُّ الحِلِّي(٦)، وكافورٌ التَّكْرِيتيُّ(٧)،

---

(١) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٣٨٤) نقلاً عن المؤلف.

(٢) «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٦١.

(٣) «التحفة اللطيفة» ٣/ ١٧٦.

(٤) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٥٠٩٠) نقلاً عن المؤلف.

(٥) في نسخة (ج): «الأزبكي»، وفي «التحفة اللطيفة» ٣/ ٣٣٧: «الأبكي».

(٦) مختار البغداديُّ الحلي: كان خصيصاً لخدمة الشيخ عفيف الدِّينِ المطري، توفي سنة ٧٤٢هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٣٣، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤١٢٢) نقلاً عن المؤلف.

(٧) «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٦٠.

وعَنْبَرٌ المُخْلِصِيُّ[(١)]، وعَنْبَرٌ الفَارُوقِيُّ[(٢)]، وشبلُ[(٣)] الدَّولَةِ كافورٌ الجَلْدَكِيُّ، ونَصْرٌ الصَّالحيُّ[(٤)]، ودينارٌ القُرطُبِيُّ[(٥)]، والجواجانيُّ[(٦)]، وصَنْدَلٌ البغداديُّ[(٧)]، والفَخْرِيُّ[(٨)]، ومختارٌ خادِمُ اللالا[(٩)]، وغيرُهُم طبقاتٌ عديدةٌ يطولُ ذِكْرُهُم، تَغَمَّدَهُمُ الله بِرَحْمَتِهِ، آمينَ.

ثُمَّ إنَّ في الحَرَمِ الشَّريفِ اليومَ جَماعَةً كثيرةً مِن نَمَطِ هٰؤلاءِ المُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُم، مُتَّصِفُونَ بِما اتَّصَفَ بهِ إخوانُهُم مِنَ الدِّيانَةِ، وصُحْبَةِ الصَّالحينَ، مَعَ الحَسَناتِ الكثيرةِ الظَّاهِرَةِ والخَفِيَّةِ، والأوقافِ العَظِيمَةِ مِنَ النَّخيلِ والدُّورِ والعُتَقاءِ مَعَ قراءَةِ القُرآنِ، [٣٦/أ] والمُواظَبَةِ لاستماعِ الحَديثِ، والمُثَابَرَةِ على الصَّلاةِ في الصَّفِّ الأوَّلِ دائماً.

وفيهم جَماعَةٌ مُتَبَتِّلُونَ للعِبادَةِ على طريقَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ نَفَعَ الله بِهِم، ولم أترُكْ ذِكْرَهُم إلا أنَّ الغَرَضَ في هٰذا تَنْبِيهُ الشَّاهِدِ بِأَحْوالِ الغائِبِ، وتَحريضُ الخَلَفِ على اتِّباعِ السَّلَفِ.

وقد ذَكَرتُ منهم جَماعَةً مع ذكرِ مُعْتَقِيهِم، وسيأتي ذِكْرُ بعضِهِم في أثناءِ

---

(١) «التحفة اللطيفة» ٥/ ٣٦٤.

(٢) في «التحفة اللطيفة» ٥/ ٣٦٤: «الفارقي».

(٣) «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٥٧.

(٤) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٣٩١) نقلاً عن المؤلف.

(٥) في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٧٩: «القرظي».

(٦) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٥٠٧٧) نقلاً عن المؤلف، وهو فيه: «الحواجباني».

(٧) «التحفة اللطيفة» ٣/ ٣٣٣.

(٨) «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٤٩.

(٩) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤١٢٧) نقلاً عن المؤلف.

الكِتَابِ إنْ شاءَ الله تَعَالى، ولم أَقْصِدْ التَّرتِيبَ فيما وَضَعْتُ، وإنَّما وَجْهَ الله العظيمِ أردتُ فيما سأذكرُهُ وفيما قد ذَكَرْتُ، وجَمْعَ الكَلِمَةِ قَصَدْتُ، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾[1][2].

فصل

في ذكرِ جَمَاعَةٍ مِنَ المُجَاوِرِينَ القُدَمَاءِ، والمَشَايخ الصُّلَحاء، والتَّعريفِ بِكَشْفِ أحوالِهِم ومناقِبِهم، وأَصِفُ لِفُرُوعِهم طِيبَ أُصُولِهِم؛ لِيَتَخَلَّقُوا بِأَخْلاقِهِم، ويَتَأَدَّبُوا بآدابِهِم، ويكتَسِبُوا من مَحَاسِنِهم في الأفعالِ والأقوالِ، وفي مثلِ [ذَلِكَ][3] يُقالُ:

أَرَى كُلَّ عـودٍ نَابِتـاً في أَرُومَـةٍ[4] ... أبى صَـالحُ العيـدَانِ أَنْ يَتَغَـيَّرا[5]

بَنُو الصَّالِحِينَ الصَّالِحُونَ ومَنْ يَكُنْ ... لآباءِ صِدْقٍ فَهْوَ بِالخَـيرِ أَجْدَرَا[6]

فَمِنْ أَوَّلِهِم وأَوْلاهُم بِالذِّكْرِ: ذُو الوِلايَةِ العَلِيَّةِ، والمَقَامَاتِ السَّنِيَّةِ، الشَّيخُ الصَّالِحُ الوَلِيُّ الرَّبَّانِيُّ، **أبو مُحَمَّدٍ** [٣٦/ ب] **عبدالله البَسْكريُّ**.

كانَ في بِلادِهِ مِنْ أكابِرِها في النَّسَبِ، ومِن أعيانِها في المالِ والحَسَبِ، خَرَجَ عن ذَلِكَ كُلِّهِ، وانقطعَ إلى الله تَعَالى ورَسُولِهِ، وخَرَجَ مُجَرَّداً فَقِيراً،

---

(١) الآية زيادة من بقية النسخ.

(٢) هود: ٨٨.

(٣) ما بين المعقوفتين من بقية النسخ.

(٤) الأرومة: الأصل. «لسان العرب»: أرم.

(٥) يروى الشطر الثاني: أبى منبت العيدان أن يتغيرا. انظر: «فصل المقال» للبكري ص٢٢٠.

(٦) يروى الشطر الثاني: لآباء صدقٍ يلقَهم حيثُ سيّرا. انظر: «فصل المقال» للبكري ص٢٢٠.

صَحِبَ مشايخَ وقتِهِ شرقَ البلادِ وغربَها، منهُم: الشَّيخُ أبو مُحَمَّدٍ المَرْجَانيُّ[١]، وغيرُهُ.

ثُمَّ أَوَى إلى المدينةِ في وقتٍ شديدٍ، على قَدَمِ التَّجريدِ، فأقامَ أولاً بِالمَدْرَسَةِ الشِّهابيَّةِ مُدَّةً، ثُمَّ انتقَلَ إلى رِباطِ دُكَّالَةَ ومَعَهُ جماعةٌ من أهلِ المُجاهَدَةِ والصَّبرِ، فمكثَ بِهِ سِنينَ لا يَعْلَمُ حالَهُ أَحَدٌ، ولم يَتَعَرَّضْ لِزَوجَةٍ ولا وَلَدٍ.

كانَ وأصحابُهُ يَطْوُونَ الأيَّامَ على غيرِ شيءٍ مِنَ الطَّعَامِ.

أخبرَني بعضُ خُدَّامِ الشَّيخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَنَّهُ كانَ لهُ أصحابٌ مَغَارِبةٌ - مثلُ يُوسُفَ الخوليِّ، وحَسَنٍ الخوليِّ، ومحمَّدٍ المَكْنَاسِيِّ - إذا جاؤُوا مِن عَمَلِهِم مِنَ الحَدَائِقِ وحَمَلُوا مَعَهُم شيئاً مِن خُمَامِ[٢] البُقولِ الَّذي لا يصلُحُ [إلّا][٣] للدَّوابِّ كالسِّلْقِ، وبقايَا اللِّفْتِ، ومِن هٰذا الجِنْسِ، فيأتُونَهُم بِهِ فيأخُذُهُ خَادِمُهُم ويسلُقُه، ويَضَعُهُ في قَصْعَةٍ إلى أن يأتُوا من صلاةِ العِشَاءِ، فَيُقَدِّمُهُ لهم وهُمْ صَائِمُونَ، فيأخُذُ كُلٌّ مِنْهُم كِفَايَتَهُ، وما فَضَلَ عنهُم أَخَذَهُ الخَادِمُ ورَمَاهُ في خارِجِ بابِ البَلَدِ تأكُلُهُ البَهَائِمُ.

واسْتَمَرُّوا على ذَلِكَ [٣٧/ أ] سنينَ لا يَعْمَلونَ غيرَ ذَلِكَ إلّا في النَّادِرِ،

---

(١) عبدالله بن محمد المرجانيُّ، التونسيُّ، أحد مشايخ الإسلام، كان واعظاً مشهوراً، بارعاً في مذهب مالك، له شهرةٌ في الآفاق، توفي سنة ٦٩٩ هـ. «الوافي» ١٧/ ٥٩٥، «والتحفة اللطيفة» ترجمة رقم: (٥٠١٩).

(٢) خُمَام: بالتخفيف، والخَمْخَمَة والتَّخَمْخُمُ: ضربٌ من الأكل قبيح. «المحكم»: خمم. وفي نسخة (ب): «رمام»، وفي نسخة (ج): «دمام».

(٣) ما بين المعقوفتين من (أ) و(ب) و(ج).

حَتَّى فَطِنَ بِهِم بعضُ النَّاسِ، وكانَ يأتيهم بِشَيءٍ مِنَ الأَعْشَارِ كَعُشْرِ الشَّعِيرِ والتَّمْرِ، منهُم تُرْكِيُّ الأميرِ جَمَّازٍ(١) يُقالُ لهُ سنجَرُ، وأبو شُمَيلَةَ الدَّارَنْجِيُّ.

فَتَرَفَّعَ حالُهم وكَثُرَ أتباعُهم، ومالَ النَّاسُ إليهم لما رَأَوا من خَيرِهِم واعْتِزَالِهم، ثُمَّ قَصَدَهُمُ الخُدَّامُ وصَحِبُوهُم، واشْتَهَر في البلادِ ذِكْرُهُم، وذِكْرُ الشَّيخِ أبي مُحَمَّدٍ، فكانَ يُقْصَدُ مِنَ البِلادِ البَعِيدَةِ كاليَمَنِ وغيرِها، وكانَ الشَّيخُ مَبْسُوطَ اليَدِ لا يَدَّخِرُ شيئاً، ولا يَرُدُّ فَقِيراً، ولا يَبِيتُ على مَعْلُوم.

كانَ إذا جاءَ قادِمٌ مِنْ مَكَّةَ أضافَهُ ووانَسَهُ، ثُمَّ يقولُ لهُ: ارْفَعْ طَرَفَ الحَصِيرِ، فيَرْفَعُهُ، فما وَجَدَهُ تَحْتَهُ فَهُوَ لَهُ، سواءً كانَ دِرْهماً أو مِئَةً، وإذا أَطْعَمَ الفُقَرَاءَ لم يَدَعْ في بَيْتِهِ قَمْحاً ولا سَمْناً ولا عَسَلاً، بل يُعْمَلُ لهُ الجميعُ، حَتَّى إنَّهُ يوماً عَمِلَ للفُقَرَاءِ طَعَاماً ولم يَجِدْ لهُ إِدَاماً غيرَ بَرْنِيَّةِ(٢) شَرَابٍ أُهْدِيَتْ [له](٣) لمَرَضٍ كانَ بِهِ، فأَمَرَ بِصَبِّها وإِيدَامِ الجماعَةِ بها، وظهر في النَّاسِ بِالكَرَامَاتِ والإِخْبَارِ بِالمُغَيَّبَاتِ(٤)، حتَّى انْعَطَفَ عليهِ النَّاسُ لِعِلْمِهِ وعَمَلِهِ، وكَرَمِهِ وحُسْنِ خُلُقِهِ، وكانَ مَعَ ذَلِكَ مَهِيباً في جَمَاعَتِهِ، بل في الحَرَمِ الشَّرِيفِ.

---

(١) جمَّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود الحسيني: أمير المدينة الشريفة، كان بطلاً باسلاً، وليها قديماً بعد قتل أبيه، وكانت مدة ولايته مع ما تخللتها بضعا وخمسين سنة. توفي سنة ٧٠٤هـ «المغانم المطابة» ٣/ ١١٨٣، «الدرر الكامنة» ١/ ٥٣٨، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢١٢ وسيأتي الحديث عنه في فصل تراجم أمراء المدينة.

(٢) البرنية: إناء واسع الفم من خزف أو زجاج ثخين (ج) براني. «المعجم الوسيط»: برن.

(٣) ما بين المعقوفتين من (أ) و(ب) و(ج).

(٤) لا يعلم الغيب إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قالَ مَنْ أَثِقُ بِهِ: إِنَّهُ [٣٧/ ب] كانَ إذا دَخلَ المَسْجِدَ خَضعَ لهُ كُلُّ مَنْ فيهِ، مِنْ كَبيرٍ وصَغيرٍ، ومتى رأى مُنْكراً غَيَّرهُ بِلِسَانِهِ أو بِيَدِهِ.

وكانَ أَعْظَمَ أصحابِهِ الشَّيخُ عبدالواحِدِ الجزُوليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مِنَ العُلَماءِ الزُّهَّادِ، ومُنْقَطِعاً كانْقِطَاعِ الشَّيخِ أبي مُحَمَّدٍ، ومُجَاوِراً له في رِبَاطِهِ، مُكِبًّا على نَسْخِ العِلْمِ، عالِماً بالحَدِيثِ والقِرَاءاتِ، له كُتُبٌ كثيرةٌ بِخَطِّهِ أَوْقَفَها كُلَّها، وفرَّقَها قبلَ موتِهِ بِقَليلٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كانَ إذا رَأى مُنْكراً غَيَّرَهُ بِلِسَانِهِ أو بِيَدِهِ، واتَّفَقَ أَنَّ بعضَ المَشَايِخِ الكِبَارِ مُرَتَّبٌ في قراءَةِ خَتْمَةٍ قبلَ صلاةِ الجُمُعَةِ يجلِسُ لِقِرَاءَتِها على كُرسِيٍّ، ويَرْفَعُ صوتَهُ بِالقِرَاءَةِ، فقالَ له الشَّيخُ عبدالواحِدِ: لا تجلِسْ في هٰذا الوَقْتِ، ولا تَرفَعْ صوتَكَ بِالقِرَاءَةِ فيَتَأذَّى النَّاسُ بِرَفْعِ صَوتِكَ.

فقالَ: هٰذه وَظِيفَةٌ مَشْرُوطَةٌ بِهٰذه الصِّفَةِ، فلا بُدَّ مِنْ أن أَفعلَ الشَّرْطَ، وإلّا آكُلُ حَرَاماً، فقالَ لهُ: قد نَهَيْتُكَ، فإنْ لم تَفْعَلْ وجَلَسْتَ بعدَ هٰذا أَخَذْتُ بِلِحْيَتِكَ هٰذه وأَنْزَلْتُكَ مِنْ على كُرْسِيِّكَ! فَإِنْ شِئْتَ فَافْعَلْ، وإِنْ شِئْتَ فَدَعْ. فتَرَكَ ذٰلِكَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فلمَّا ذَهَبَ أُولٰئكَ الشُّيوخُ الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ عَادَتْ القِرَاءَةُ كما كانَتْ، وَهِيَ الخَتْمَةُ الَّتِي تُقْرَأُ اليومَ في الرَّوضَةِ [٣٨/ أ] قبلَ الصَّلاةِ.

وكانَ مِمَّا يُعَدُّ من كراماتِ الشَّيخِ أبي مُحَمَّدٍ البَسْكريِّ أَنَّهُ لا يأتِيهِ مظلومٌ يَشْتَكِي عليهِ ظَالِمَهُ إلّا شَفَعَ له، فَإِنْ شَفَعَ فيهِ، وإلّا عُجِّلَتْ عُقُوبَةُ الظَّالِمِ في وَقْتِهِ.

أخبرَني مَنْ أثِقُ بِهِ أَنَّ الشَّيخَ أبا العَلاء[(١)] إدريسَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تكلَّمَ بِكَلام وَصَلَ إلى الأميرِ جمَّازٍ، فَغَضِبَ عليهِ، وأمرَ بإخْرَاجِهِ مِنَ المدينَةِ، وذَلِكَ أنّ شيخَ الخُدَّام في وَقْتِهِ كانَ يُحْسِنُ إليهم وإلى سائرِ المُجَاوِرِينَ، ويُفرِّقُ عليهم مِنَ التَّمْرِ كُلَّ سَنَةٍ قَدْرَ كِفَاياتِهم وعِيَالِهِم، وكانَ شيخُ الخُدَّام يومَئِذٍ يَجْرِي في الأوقافِ مَجْرَى أهلِ المدينَةِ في مُغَارَسَاتِهم ومُعَامَلاتِهم على جَرْيِ العَادَةِ في المدينَةِ، وأحكامِ قُضَاتِهِم، ولهم عَادَةٌ في المُغَارَسَةِ غيرُ جَائِزَةٍ بِإِجْمَاعِ مِنَ الأُمَّةِ، والأملاكُ لا تُعْمَرُ إلّا بِها، ولا يَرْغَبُ في خِدْمَتِها إلّا [مَنْ][(٢)] يأخُذُها بِذَلِكَ.

فبَلَغَ ذَلِكَ الشَّيخَ أبا العَلاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكانَ مِنَ الوَرِعِينَ الزَّاهِدِينَ، فلمَّا جاءَ وَقْتُ تَفْرِقَةِ التَّمْرِ على المُجَاوِرِينَ أُرْسِلَ إليهِ بِنَصِيبِهِ على العَادَةِ فَتورَّعَ وردَّهُ، فجاءَهُ [شَيْخُ الخُدَّامِ][(٣)] وقالَ: لأيِّ شيءٍ تَرُدُّ التَّمْرَ وأَنْتَ لم تَزَلْ تأخُذُهُ، وإذا كُنْتَ غَنِيًّا عَنْهُ صَرَفْتَهُ على مُسْتَحِقِّيهِ ولا تَرُدُّهُ في وَجْهِي؟

فقالَ له: أَنْتَ خَالَفْتَ في الأوقَافِ المُعَامَلَةَ الشَّرعِيَّةَ، وعَمِلْتَ فيها [٣٨/ ب] ما لا يَجُوزُ، وأدخَلْتَ علينا الشُّبْهَةَ فيما نَتَنَاوَلُهُ مِنْها، وهٰذا لا يَجُوزُ لَكَ، ولا يَحِلُّ لَنا أَنْ نَأْخُذَهُ مِنْكَ.

فاشْتَدَّ على الشَّيخِ كلامُهُ وأَنْ يَسْمَعَ منه مِثْلَ هٰذا الكَلامِ، وكانُوا

---

(١) في «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٧٦: أبو العلاء إدريس: أحد الورعين الزّاهدين، ذكره ابن صالح، فقال: كان أعمى، متعبِّداً ملازماً للصفِّ الأوَّل في جميع الصلوات.

(٢) ما بين المعقوفتين من (أ) و(ب).

(٣) ما بين المعقوفتين سقط في الأصل وهو من (ج)، وفي (أ) زيادة: الشيخ، وفي (ب) فجاء الشيخ، أي شيخ الخدام.

يَغارُونَ على عِرضِهم ودينِهم من مِثْلِ هٰذا ودُونَ هٰذا، فكأنَّه شَكَى حالَهُ مَعَهُ إلى الأميرِ جمَّازٍ، وقد تقدَّمَ أنَّهُ كان بَيْنَهُ وبينَ الشُّرَفاءِ خُلَّةٌ[1] وصُحْبَةٌ أكِيْدَةٌ، فاغْتَاظَ الأَمِيرُ، وأمرَ بِإِخْرَاجِ الشَّيخِ أبي العَلاء مِنَ المَدِينَةِ.

فَبَلَغَ ذَلِكَ الشَّيخَ أبا مُحَمَّدٍ البَسْكريَّ والجَمَاعَةَ، فَعَزَّ ذَلِكَ عليهِم، وأَرْسَلَ الشَّيخُ أبو مُحَمَّدٍ إلى الشَّيخِ[2] بِأَنْ يَتْرُكَ له صَاحِبَهُ ولا يُشَدِّدَ عليهِ، ويَرُدَّ الأميرَ عنهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ.

فَقِيلَ لي: إنَّ الشَّيخَ أبا مُحَمَّدٍ بَعَثَ إليهِ جَمَاعَةً من أصحَابِهِ بعدَ العِشَاءِ الآخِرَةِ، فَدَخَلُوا عليهِ في بَيتِهِ فَوَجَدُوهُ قد اضْطَجَعَ على سَرِيرِهِ، فَوقَفُوا بينَ يَدَيْهِ كَاشِفِينَ رُؤُوسَهُم في الاسْتِغْفَارِ، فَغَفَلَ عنهُم فنَامَ وغَلَبَ عليهِ النَّومُ، فما قامَ حَتَّى ذهبَ جَانِبٌ مِنَ اللَّيلِ، فَوَجَدَهُم قِيَاماً على حالِهِم فَعَزَّ عليهِ، وقالَ: اذْهَبُوا حتَّى يَأْتِيَنِي هُوَ بِنَفْسِهِ، أو شَيْئاً نحوَ ذَلِكَ، فَرَجَعُوا ولم تَنْقَضِ لهم حَاجَةٌ، وأخبرُوا الشَّيخَ أبا مُحَمَّدٍ بما تَمَّ لهم مَعَهُ، فَغاظَهُ ذَلِكَ، وخَرَجَ لِصَلاةِ الصُّبحِ، [٣٩/ أ] فاجْتَمَعَ بِالقُويضِيِّ ابنِ أبي النَّصْرِ[3]، وكانَ مُفْتِيَ الإمَامِيَّةِ وشَيْخَهُم، وكان يَعْتَقِدُ الشَّيخَ أبا مُحَمَّدٍ، فَحَكَى لَهُ الشَّيخُ الحِكَايَةَ، فجاءَ إلى شيخِ الخُدَّامِ فَكَلَّمَهُ فأَنْعَمَ له وقَبِلَ شَفَاعَتَهُ.

ثُمَّ جاءَ إلى الشَّيخِ أبي مُحَمَّدٍ فقالَ لَهُ: قد أَنْعَمَ ورَضِيَ، وجَعَلَ له بذَلِكَ عليهِ يَداً، فلمَّا خَرَجَ جَمَعَ الشَّيخُ أبو مُحَمَّدٍ أصحابَهُ وحكى لهم ما جَرَى مِنَ

---

(١) الخُلَّة: الصداقة.

(٢) يقصد شيخ الخدَّام.

(٣) القويضي: تصغير قاض. «التحفة اللطيفة» ترجمة (٥٠٦٧) نقلاً عن المؤلف، وهو فيه: ابن أبي النضر.

الشَّيخ وكونَهُ لم يَقْبَل الفُقَرَاءَ، ولم يَعِزَّ عليه وُقُوفُهم بينَ يدَيْهِ كاشِفِينَ رُؤُوسَهُم، وقَبِلَ شَفَاعَةَ ابنِ أبي النَّصْرِ، فَجَمَعُوا خَواطِرَهُم عليهِ فَمَرِضَ من حِيْنِهِ، واشْتَكَى حَتَّى طَلَبَ مِنْهُم التَّحْلِيلَ والرِّضا، فَنَفَذَ سَهْمُهُم وانْقَضَى فيهِ الأَمْرُ فَقَضَى.

أخبرَنِي قاضِي القُضَاةِ جمالُ الدِّينِ المطريُّ- وكانَ مُلازِماً خِدْمَتَهُم لأنَّ مَسْكَنَهُ في الحُجْرَةِ الَّتِي عندَ بابِ رِبَاطِهِم- أنَّ الشَّيخَ أبا مُحَمَّدٍ لما دَخَلَ مَكَّةَ المُشَرَّفَةَ وقَصَدَ زِيارَةَ الشَّيخِ نَجْمِ الدِّينِ الأَصْبَهَانِيِّ(١)، فلمَّا جَلَسَ إليهِ أرادَ أَنْ يَسْأَلَ الشَّيخَ نَجْمَ الدِّينِ عنِ اسْمِهِ، فَبَدَرَهُ الشَّيخُ نَجْمُ الدِّينِ وقالَ: اسْمِي مَكْتُوبٌ بينَ عَيْنَيكَ(٢)، فَفَهِمَ الشَّيخُ مَقَالَهُ، وأَنَّهُ كاشَفَهُ(٣)، وأَنَّ اسْمَهُ كاسْمِهِ عبدالله، رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

ولمَّا عَزَمْتُ على التَّوَجُّهِ إلى مَكَّةَ المُشَرَّفَةِ في طَرِيقِ [٣٩/ ب] المَشْيانِ

---

(١) عبدالله بن محمد بن محمد الأصبهاني، نجم الدِّينِ الشافعي، تعانى التصوُّف، وتفقه وأتقن الأصول، وكان صالحاً عابداً، شيخاً مهيباً، توفي سنة ٧٢١هـ بمكة. «العقد الثمين» ٥/ ٢٧١، «الدرر الكامنة» ٢/ ٣٠٢، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٥١٤٨).

(٢) في (ج) زيادة بعد «عينيك»: «ولم أفهم كلام الشيخ، فإنّ هٰذا يقال في مقام المدح، والمذكور ليس في مقام المدح، فأين هٰذا من الغيرة على الدِّين؟ بل هو نبذٌ للدين حيث تشوش من الحق، اللهمَّ إلّا أن يؤول كلام الشيخ بمعنى أنّ الغيرة كان في الجملة في السَّابقين، فمنهم من يغار لدينه، ومنهم من يغار لعرضه، فارتفعت من الفريقين في الأزمان المتأخِّرة أنه يقول: لم يبق ذو دين ولا ذو عرض، والله تعالى أعلم».

(٣) أهل السُّنة يثبتون كرامات الأولياء وما يقع لهم من مكاشفات، وأولياء الله هم الذين يسيرون وَفق كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسُنّة رسوله ﷺ، وأمّا ما يقع لأهل الملل الأخرى والفسّاق فليس من الكرامات، بل هٰذا من الاستدراج، وقد غلا بذلك قومٌ فذكروا مكاشفات وكرامات اللهُ أعلم بصحّتها من بطلانها.

في حالِ الشُّبُوبيَّةِ - أظنُّهُ عامَ عشرٍ وسبعمِئَةٍ - جاءَ والدِي إلى الشَّيخِ أبي مُحَمَّدٍ فأخبَرَهُ بعَزِيمَتِي.

فقالَ له: ابْعَثْهُ إليَّ، فَجِئْتُهُ.

فقالَ: بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ مَكَّةَ المُشَرَّفَةَ.

فَقُلْتُ: نَعَمْ يا سَيِّدِي؛ لأَجْلِ العُمْرَةِ في رَمَضانَ.

فقالَ لي: مَنْ رَفِيقُكَ؟

فَذَكَرْتُ له جَماعَةً مِنَ الفَرَّاشِينَ وغيرَهُم.

فقال لي: ليسَ في هٰؤلاء مَنْ هُوَ مِنْ جِنْسِكَ ولا مَنْ يَلِيقُ بِكَ، ولٰكِنِ اصْبِرْ قَلِيلاً حَتَّى نَنْظُرَ لَكَ.

فَقُلْتُ: ضَاقَ الوَقْتُ وقَدْ دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ ومَضَى أكثَرُهُ.

فقالَ لي: اسْمَعْ ما أَقُولُ لَكَ.

فَذَهَبْتُ عَنْهُ ووَثِقْتُ بِوَعْدِهِ، فما كَانَ إلا قَلِيلاً إذْ وَرَدَ المَدِينَةَ زائراً الشَّيخُ مُحَمَّدُ بنُ عِمْرَانَ الخُضَرِيُّ[(١)] وجماعَةٌ مِنَ الصَّالحينَ، فَدَعانِي الشَّيخُ وقالَ لي: سافِرْ مَعَ هٰذا.

فَسَافَرتُ معَهُم، فرأَيْتُ مِنَ الشَّيخِ مُحَمَّدِ بنِ عِمْرَانَ[(٢)] وأصحابِهِ مِنَ الخِدْمَةِ والشَّفَقَةِ والمُؤَانَسَةِ ما لو كانَ والدِي مَعِي لم يَرْفأ[(٣)] بي كَذَلِكَ، ولم أَحْمِلْ مَعَهُم غيرَ عَصَايَ الَّتي كانَتْ بِيَدِي، رَحِمَهُمُ اللهُ أَجْمَعِينَ.

---

(١) «التحفة اللطيفة» ٢/ ٦٨.

(٢) في (أ) عمر.

(٣) يرفأ: من الاتفاق وحسن الاجتماع؛ ومنه أخذ رَف الثوب»؛ لأنه يُرفأ فَيُضم بعضه إلى بعض ويُلاءم بينه. «غريب الحديث» لأبي عُبيد ١/ ٧٦.

فَدَخَلْتُ مَكَّةَ لَيلَةَ الثَّامِنِ والعَشْرِينَ مِن رَمضَانَ، وخَرَجْتُ يومَ العِيدِ مُتوجِّهاً إلى المَدِينَةِ مَعَ الشَّيخِ الصَّالِحِ مَحْمُودٍ اللارِيِّ، ذي الأخلاقِ الحَمِيدَةِ، والمُعَاشَرَةِ الجَمِيلَةِ، والدِّيانَةِ التَّامَّةِ، والمُبَادَرَةِ إلى [٤٠/ أ] انْتِظَارِ الصَّلَواتِ مِنْ أَوَّلِ الأَوقَاتِ، فَصَحِبْتُهُ في الطَّرِيقِ فكانَ نِعْمَ الصَّاحِبُ، وكانَ ذَلِكَ بِإِشَارَةِ الشَّيخِ أبي عبدالله النَّحْوِيِّ[١]، وإشارَةِ أبي عبدالله الشَّرِيفِ[٢] الفَاسِيِّ رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

فَوَصَلْتُ المَدِينَةَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ، وذَلِكَ كُلُّهُ بِبَرَكَةِ رأيِ الشُّيُوخِ[٣] وخاطِرِ والدِي رَحِمَهُٱللَّهُ[٤].

وكانَ الشَّيخُ أبو مُحَمَّدٍ البَسْكرِيُّ قد ابْتُلِيَ في آخِرِ عُمْرِهِ بالبَوَاسِيرِ، نَسْأَلُ الله العافِيَةَ لنَا ولَكُم، فانْقَطَعَ في بَيْتِهِ ولَزِمَ حُجْرَتَهُ، وقَاسَى منها مُقَاسَاةً عَظِيمَةً حتَّى كانَ يَقُولُ: لو جازَ لي أَنْ أَسْأَلَ الله تَعالى الموتَ لَسَأَلْتُهُ، مِنْ شِدَّةِ ما قَاسَى، رَحِمَهُٱللَّهُ. ولَهُ [مِنَ][٥] المَنَاقِبِ والأَحْوالِ العَلِيَّةِ ما لا أُحْصِيهِ عَدًّا، ولا يَنْتَهِي حَدًّا، نَفَعَ اللهُ بِهِ. وَهُوَ صَاحِبُ القَصِيدَةِ العَظِيمَةِ المَشْهُورَةِ المُبَارَكَةِ الَّتِي أَوَّلُها:

دارُ الحبيبِ أَحَـقُّ أَنْ تَهْوَاهَـا ... وتَحِنَّ مِنْ طَرَبٍ إلى ذِكرَاهـا

---

(١) أبو عبدالله النحوي: قال عنه المؤلف في ص٣٣٥: «من كبار الأئمة. يقال: إنه كان يتقن اثني عشر علماً، وكان يحضر دروس القاضي السراج». «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٩٤٣).

(٢) محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد الحسني الفاسي، أبو عبدالله، نزيل مكة، توفي سنة ٧١٩هـ. «العقد الثمين» ٢/ ٢٩٨.

(٣) في (ب): «الشيخ».

(٤) الجزم بأنّ ما يحصل للمرء من نعمةٍ ويُسر من بركة فُلان من القول على الله بلا علم.

(٥) ما بين المعقوفتين من (ب)، والسياق لا يستقيم دونها.

ورأى بَعْضُ الصَّالحِينَ النَّبيَّ ﷺ - وأَشُكُّ هل كانَ هُوَ الشَّيخَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أو غيرَهُ؟ - وأَنْشَدَ هٰذه القَصِيدَةَ، فَلمَّا بَلَغَ آخِرَها، وَهُوَ قَوْلُهُ:

والحمـدُ لله الكَـريمِ وهٰـذه نَجَزَتْ، وظَنِّي أنَّهُ يَرْضَاهَا[1]

فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: رَضِيناهَا ورَضِينا[2].

وأمَّا مَنْ بعدَهُ في هٰذا المَقَامِ الرَّفِيعِ، [٤٠/ب] والمَرْتَعِ المَرِيعِ، فَصَاحِبُهُ **الشَّيخُ عبدالواحِدِ الجزُولِيُّ**، كانَ فيه مِنَ الشِّدَّةِ في الدِّينِ، وقُوَّةِ اليَقِينِ، مَعَ العِلْمِ والعَمَلِ ما لا عليه مَزِيدٌ، وقد تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مَعَ ذِكْرِ الشَّيخ أبي مُحَمَّدٍ البَسْكريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3].

تُوُفِّي قَبْلَ والدِي بِسِنِينَ أَظُنُّهَا أربعاً أو خَمْساً.

وأمَّا ذِكْرُ جماعَتِهِم فتَقَدَّمَ ذِكْرُ بَعْضِهِم.

ومِمَّنْ كانَ يَخْدِمُهُم مِنَ الأعيانِ الشَّيخُ سَعِيدٌ[4]، والشَّيخُ ريحانُ النُّوبِيُّ[5]، والشَّيخُ مُوَفَّقٌ الحَبَشِيُّ[6]، وكَثِيرُونَ على أخلاقِ شُيُوخِهِم وطَرِيقَتِهِم.

وخَلَفَ الشَّيخَ أبا مُحَمَّدٍ في مكانِهِ ومَنْزِلِهِ جماعَةٌ صُلَحَاءُ، منهُمْ: الشَّيخُ

---

(١) «التحفة اللطيفة» ٤/ ٧٣، «وفاء الوفا» ٤/ ١٤١٩-١٤٢١.

(٢) في (أ) و(ب) و(ج): «رضيناها رضيناها».

(٣) راجع ص.

(٤) «التحفة اللطيفة» ٣/ ١٧٧.

(٥) «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥٣٠.

(٦) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٣٥١) نقلاً عن المؤلف.

عِزُّ الدِّينِ الواسِطِيُّ[(١)]، كانَ مِنْ أهلِ العِلْمِ والعَمَلِ، وأَرْبَابِ القُلُوبِ، دَخَلَ المَدِينَةَ للزِّيارَةِ، فَوَقَفَ على بابِ السَّلامِ وسَلَّمَ مِنْ مَكَانِهِ ورَجَعَ إلى مَنْزِلِه، فَقِيلَ لَهُ في ذَلِكَ، [فقالَ][(٢)]: إنِّي لم أَجِدْني أَهْلاً لِلدُّخُولِ إليه، ولا لِلوُقُوفِ بينَ يَدَيْهِ، مَنْ أنا حِينَئِذٍ حَتَّى أَصْلُحَ لِذَلِكَ.

ثُمَّ أقامَ بالمَدِينَةِ، فكانَ لا يَزَالُ لِسَانُهُ رَطْباً بِذِكْرِ الله وبتِلاوَةِ القُرْآنِ، وكانَ يَقْرَأُ قِرَاءَةً لم يَسْمَعِ السَّامِعُونَ مِثْلَها، وكانَ مَسْكَنُهُ في الرِّبَاطِ المَذْكُورِ في بيتِ الشَّيخِ أبي مُحَمَّدٍ [على][(٣)] تَقَشُّفٍ وفَقْرٍ.

كنتُ يوماً عندَ الشَّيخِ أبي الحَسَنِ الخَرَّازِ [٤١/ أ]، فقالَ لي ولجماعَةٍ مَعِي: رأيتُ البارِحَةَ هٰذا الفَقِيرَ الَّذي أقامَ عِنْدَنا على المِنْبَرِ يَخْطُبُ، فلا بُدَّ له مِنْ ذَلِكَ، وكذَلِكَ رأيتُهُ بعدَ وفاةِ الشَّيخِ أبي الحَسَنِ على المِنْبَرِ خَطِيباً لما سافَرَ القاضي سِراجُ الدِّينِ استَنَابَهُ في الإِمَامَةِ والخَطَابَةِ، فقَامَ بها أَحْسَنَ قِيامٍ.

وكانَ عليه رُوحٌ، ولِلنَّاسِ فيه اعْتِقَادٌ عَظِيمٌ، وهٰذا مَعَ ما يُوجَدُ فيه مِن سَلامَةِ البَاطِنِ والسَّذاجَةِ والتَّغَفُّلِ، حتَّى يَظُنُّ الَّذي يراهُ أنَّ بِهِ هَبَلاً، وهُو في عِلْمِهِ واجتِهادِهِ مُتْقِنُ العَمَلِ، لا يَعْتَرِيهِ خَلَلٌ، إذا أَخَذْتَ مَعَهُ في شيءٍ من أحوالِ الدُّنيا كانَ جوابُهُ بِأحوالِ الأُخْرَى، فَيَنْقَطِعُ مَعَهُ الكَلامُ، وكانَ إذا جاءَ أَحَدٌ وشَكَى إليهِ مِنْ ضُرٍّ أو مَرَضٍ قالَ لَهُ: قُلْ: يا أَوَّلَ

---

(١) تصحَّف في الأصل من «الواسطي» إلى «الباسطي»، وهو الشيخ عز الدِّين الواسطي: عبدالكريم ابن عبدالمعز، من الصَّالحين الزهاد، جاور بالمدينة وانقطع مدَّة طويلة للعبادة، وأمَّ بالمسجد النبوي، توفي ٧٣٥هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٤٥-١٢٤٧، «التحفة اللطيفة» ٤/ ٤١٤.

(٢) ما بين المعقوفتين من (أ) و(ب) و(ج).

(٣) ما بين المعقوفتين من (أ) و(ب) و(ج).

الأَوَّلِينَ، ويا آخِرَ الآخِرينَ، ويا ذا القُوَّةِ المَتِينِ، ويا رَاحِمَ المَسَاكِينِ، ويا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، سَخِّرْ لي كَذَا، واصْرِفْ عَنِّي كذا.

فإنْ جاءَ يشكُو مِنْ فَاقَةٍ وقِلَّةٍ قال له: قُلْ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[(١)].

ومِمَّا جَرَى مِنْ أحوالِهِ أَنَّ المَدِينَةَ حُوصِرَتْ أَيَّاماً، واشْتَدَّ حَالُ النَّاسِ مِن التَّضْييقِ عليهِم والخَوفِ مِنْ عَدُوِّهِم، ومَعَ ذَلِكَ لا يدرِي ما النَّاسُ فيهِ حتَّى دُخِلَت المدينَةُ سَحَراً، [٤١/ب] فهَرَبَ النَّاسُ فاختَفَوا في بُيُوتِهِم، فَلَقِيَهُ شَيْخٌ مِنَ الهَارِبِينَ مِن أربابِ الدَّولَةِ، والشَّيخُ قد تَوَضَّأَ وخَرَجَ إلى المَسْجِدِ، فقالَ له: يا سَيِّدي أينَ تُرِيدُ؟

قال: المَسْجِدَ.

قالَ: المدينةُ دُخِلَتْ وأبوابُ المسجِدِ غُلِّقَتْ، لا يَدْخُلُه أَحَدٌ.

قالَ له: أيش تَقُولُ؟ فأعادَ عليهِ.

قالَ: ومَنْ هٰؤلاء المَسَاكِينُ الَّذِينَ أخافُوا المدينَةَ وأهلَها، ويريدُونَ أَنْ يَمْنُعونَا مِنْ صلاةِ الصُّبحِ في جَمَاعَةٍ؟

ثُمَّ مَضَى إلى المسجِدِ فَعُلِمَ بِمَكَانِهِ فَفُتِحَ لَهُ، ودَخَلَ وصَلَّى، ما كأنَّ شَيئاً جَرَى، فكانَ ذَلِكَ الشَّخْصُ يحكِي هٰذه الحِكَايَةَ، ويَعْجَبُ النَّاسُ بها.

ولقد أَخْبَرَنِي بعدَ وفاةِ والِدِي وكانَ يَقْرَأُ على والِدِي العَرَبِيَّةَ، ويقطَعُ الكِتَابَ من أَوَّلِهِ إلى آخِرِه، ثُمَّ يُعِيدُهُ مَرَّةً أُخْرى لِطَلَبِ المُؤَانَسَةِ مَعَنَا،

---

(١) الآية (٢) سورة فاطر.

والمَحبَّةِ في والِدِي، فَبَشَّرَنِي بِأنَّنِي أكونُ في مَقَامِهِ، وأَتَوَلَّى ثَلاثَ وِلايَاتٍ في ذَلِكَ العامِ، فكانَ كَذَلِكَ، جاءَنِي مَوسِمٌ بالتَّدْرِيسِ في المَدْرَسَةِ الشِّهَابِيَّةِ، وجاءَني تَدْرِيسُ درسِ القاضي فَخْرِ الدِّينِ ناظِرِ الجَيشِ(١)، وجاءَنِي تَدْرِيسٌ مِنَ المَغْرِبِ، أقَامَنِي فيهِ شُعيبُ بنُ أبي مَدْيَنَ، وذَلِكَ كُلُّهُ في عام ثلاثٍ وعشرينَ وسَبْعِمِئَةٍ، فأعانَ اللهُ تعَالى ورَزَقَنِي على الاشتِغَالِ إقبالاً كثيراً، وحُسِدْتُ حَسَداً عَظِيماً، [٤٢/أ] وَقُصِدْتُ بالأَذَى، فَزَادَنِي طَوْلاً كثيراً، يَظُنُّونَ أنَّهُم [يَسْعونَ](٢) في إخْمالِي وحَطِّ مَنْزِلَتِي، ومَا سَعَوا إلا في ظُهُورِي ونَشْرِ فضيلتي. ولله دَرُّ القَائِلِ:

مَنْ خَصَّ بالشُّكْرِ الصَّدِيقَ فَإنَّنِي ... أحبُو بِخَالِصِ وُدِّيَ الأعداءَ
ورَوَوْا عَلَيَّ مَعَايِبِي فَحَذِرْتُها ... ونَفَيْتُ عن أخْلاقِيَ الأَقْذَاءَ
ولَرُبَّما انْتَفَعَ الفَتَى بِعَدُوِّهِ ... فالسُّمُّ أحياناً يَكُونُ شِفَاءَ

ومع ذَلِكَ فَقَابَلْتُهُم بِالحِلْمِ عَلَيهِم، والإحسانِ إلَيهِم، وصَبَرْتُ إلى أَنْ فَرَّجَ اللهُ تعَالى، والنَّصرُ معَ الصَّبْرِ، ولله الحَمْدُ على كُلِّ حالٍ، ولله دَرُّ القَائِلِ:

ما دُمْتَ حَيًّا فَدَارِ النَّاسَ كُلَّهُمُ ... فَإنَّما أَنْتَ في دارِ المُدَارَاةِ
مَنْ يدرِ دَارَى ومَنْ لا يدرِ سَوفَ يُرَى ... عَمَّا قريبٍ قريناً للنَّدَامَاتِ

ومما جَرَى لي مَعَ هٰذا الشَّيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ في سَنَةِ خَمسٍ وثلاثينَ وسَبْعِمِئَةٍ، أنَّهُ تَحامَلَ عليَّ بعضُ القُضاةِ، ولَفِيفٌ مِنْ أُولَئِكَ الحَسَدَةِ، فَرَمَونِي عند

---

(١) محمد بن فضل القبطي فخر الدين ناظر الجيش، له صدقات عديدة، وبنى عدداً من المساجد والمدارس، تولى نظر الجيش أيام الناصر ابن قلاوون، توفي سنة ٧٣٢هـ. «الدرر الكامنة» ٥/ ٣٩٧.

(٢) ما بين المعقوفتين من (أ) و(ب).

الأميرِ طُفَيل[1] بِرَمْيَةٍ بَلِيَّةٍ، وذَكَرُوا له أَنَّ شَخْصاً ماتَ وتَرَكَ عندِي مَالاً كَثِيراً، ولم يَكُنْ من ذَلِكَ شيءٌ، إلا أَنَّ ذَلِكَ الشَّخْصَ أَوْدَعَنِي مَبْلَغاً قَلِيلاً، وصَّى بِهِ في شِرَاءِ نُخَيلاتٍ تَكُونُ وَقْفاً على رِباطِ السَّبِيلِ.

فَقُلْتُ للأَمِيرِ وأعوانِهِ: ليسَ عِنْدِي [٤٢/ ب] غيرُ هٰذا، وقَدْ وَصَّاني فيهِ بِكَذَا، ومَعِي على ذَلِكَ شُهودٌ جِيادٌ أحدُهُم الشَّيخُ عِزُّ الدِّينِ دِينَارٌ شَيخُ الحَرَم، والآخَرُ الشَّيخُ عِزُّ الدِّينِ الوَاسِطِيُّ.

وكانَ الأميرُ طُفَيلٌ غائباً في الفَلاةِ، واشْتَغَلَ بي ذَلِكَ القاضِي وتِلْكَ الجَمَاعَةُ، وكانَتْ قَضِيَّةً عَويصَةً، صَادَفْتُ أوقاتاً شَنْعَةً، وعِداءً بَشْعَةً، لها قِصَّةٌ طويلَةٌ جرى لي في أثنائِها أَلْطَافٌ عَدِيدَةٌ.

وذَلِكَ أَنَّ وزيرَ الأَميرِ قامَ عَلَيَّ في ذَلِكَ بِحِسِّ القاضِي، وبَنَى على كلامِهِم، فلمَّا خِفْتُ كَثْرَةَ الأعدَاءِ واشْتِغَالَهُم بي وتَطَلُّبَهُم عَثَرَاتِي، شَكَوتُ ذَلِكَ إلى شَيخِ الخُدَّام عِزِّ الدِّينِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فَسَأَلْتُهُ الجُلُوسَ في المسجِدِ والمَبيتَ فيهِ حَتَّى يَحْضُرَ الأميرُ مِنَ البادِيَةِ، وكانَ على مَسِيرَةِ أَيَّامٍ من المَدِينَةِ.

فَجَلَسْتُ في المَسْجِدِ مَعَ أَخِي مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَيلاً ونَهاراً، وخرَجَ أخي عَلِيٌّ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ خُفْيَةً، ورَكِبَ رَاحِلَةً وتوجَّهَ إلى الأميرِ في هٰذا الأَمْرِ، وكانَ لهُ عليهِ دِلِّيَّةٌ وصُحْبَةٌ أَكِيدَةٌ ومحاسَنَةٌ ومُلاءَمَةٌ.

---

(١) طفيل بن منصور بن جماز الحسيني، أمير المدينة في أيام الناصر محمد بن قلاوون، مات سنة ٧٢٨هـ. «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٢٣، «التحفة اللطيفة» ٣/ ٣٦٥. وسيأتي الحديث عنه في فصل تراجم أمراء المدينة.

(٢) علي بن محمد بن أبي القاسم فرحون بن محمد بن فرحون: الإمام المحدث، النور أبو الحسن المدني المالكي، له تآليف مفيدة، مات سنة ٧٤٦هـ «التحفة اللطيفة» ٥/ ١٦٥. ترجم له المؤلف آخر الكتاب.

فأَقَمْتُ في المسجِدِ عَشَرَةَ أَيَّامِ بِلَيَالِيها، بينَ قِيَامٍ وصِيامٍ واعْتِكَافٍ حَصَلَ لي بذَلِكَ خيرٌ كثيرٌ، فكُنْتُ في ليلَةٍ أُصَلِّي عندَ أُسْطُوانَةِ التَّوبَةِ - وَهِيَ الَّتِي في آخِرِ صَفِّ الرَّوضَةِ المُلاصِقَةِ للشُّبَّاكِ اليومَ، على ما ذَكَرَهُ عبدالله ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1]، وتَبِعَهُ مَالِكُ [٤٣/ أ] بنُ أَنَسٍ رحمةُ الله عليهِ، وما قيلَ فيها غيرُ ذَلِكَ فغَلَطٌ[2]، أوجبَهُ أشياء يَطولُ ذِكرُها - فَلَحِقَتْنِي سِنَةٌ وأنا ساجِدٌ عندَها، فرأَيْتُ شَخْصاً قد خَرَجَ رَبْعَ القَامَةِ، حَسَنَ الوَجْهِ والهَيئَةِ، مَلِيحَ الثِّيابِ، فَمَرَّ عَلَيَّ، وقالَ: قُمْ قُضِيَتِ الحَاجَةُ.

فاسْتَيقَظْتُ فلَمْ أَرَ أَحداً، فلَمْ يَكُنْ إلّا قَلِيلاً إذ جاءَ أخِي بِمَرسُوم الأمير أنْ لا يَتَعَرَّضَ لي أَحَدٌ حَتَّى يَقْدَمَ إلى المدينَةِ.

فلمَّا قَدِمَ بعدَ مُدَّةٍ اجْتَمَعْتُ بِهِ، فقالَ: لَئِنْ لم تأتِني على ما قُلْتَ بِشُهُودٍ، وإلّا الَّذِي يقالُ عَنْكَ صَحِيحٌ.

وكانَ مَعِيَ الشَّيخُ عِزُّ الدِّينِ دينارٌ شَيخُ الخُدَّامِ رَحِمَهُ اللَّهُ، والشَّيخُ عِزُّ الدِّينِ الواسِطِيُّ كما تَقَدَّمَ، فقُلْتُ له: مَعِيَ عِزُّ الدِّينِ دِينَارٌ.

فقالَ: لا أَقْبَلُهُ، ذَلِكَ صاحِبُكَ، وَهُوَ عَدُوُّنا.

فَجِئْتُ إلى الشَّيخِ عِزِّ الدِّينِ وذَكَرْتُ له الحِكَايَةَ، وعَهْدِي منهُ أَنَّهُ لا يَفْهَمُ عن النَّاسِ ما بَينَهُم من أُمُور الدُّنيا، ولا يَذْكُرُ الشَّهَادَةَ، فقالَ لي: إذا خَرَجَ الأميرُ إلى المَسْجِدِ لِصَلاةِ الجُمُعَةِ اجْتَمَعْتُ بِهِ.

---

(١) تقدم تخريجه ص٤١.

(٢) المؤلف يعدّ أسطوانة التوبة تلك الملاصقة للشباك، ولكنها على ما حقّقه السمهودي هي التي تليها من جهة الغرب، وهي الرابعة من المنبر، والثالثة من القبلة. انظر: «وفاء الوفاء» ٢/ ٤٤٦.

وكانَ لا يَجْتَمِعُ بِأَحَدٍ من أَرْبَابِ الدُّنيا، ولا يَعْرِفُ الأميرَ ولا الوَزِيرَ، لكنَّهُ عندَهُم مَعْلُومُ السِّيرَةِ، مَشْهُورُ الطَّرِيقَةِ، فلَمَّا حَضَرَ الأميرُ في المَسْجِدِ وجَلَسَ مَجْلِسَهُ المَعْرُوفَ جِئْتُ إليهِ، وقُلْتُ له على خَوفٍ: ما تَقُولُ في الشَّيخِ عِزِّ الدِّينِ الواسِطِيِّ؟

فقالَ: أَقْبَلُهُ [٤٣/ ب] ومَنْ هُنا مِثْلُهُ؟

فنادَيْتُ الشَّيخَ عِزَّ الدِّينِ، وفي ظَنِّي أنَّه لا يَعْلَمُ ما قُلْتُ له، بل لا يَذْكُرُ مَجْلِسِي مَعَهُ، فلمَّا جاءَهُ عَظَّمَهُ الأميرُ طُفَيلٌ وقامَ له، فبَدَأَهُ الشَّيخُ بِغَيظٍ ورَفْعِ صَوتٍ وانْزِعَاجٍ، وقالَ: يا طُفَيلُ، اتَّقِ اللهَ. كَرَّرَها ثلاثاً.

وَهُوَ يقولُ: اللهُ يَجْعَلُنا يا عزَّ الدِّينِ مِنَ المُتَّقِينَ.

ثُمَّ قالَ له: أما تَتَبَّعُ جَدَّكَ وأفعالَهُ؟ كانَ جَدُّك عليُّ بنُ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهُ مُتَّصِفاً بِكَذَا وكذا، وذَكَرَ له مِنَ الوَعْظِ ما أَبْهَتَهُ حَتَّى وَدَّ أنَّهُ لم يأتِهِ.

ثُمَّ قالَ له: ليسَ [لَكَ][1] عندَ هٰذا الفقيهِ شَيءٌ ولا دَعْوى، وذَلِكَ الرَّجُلُ المَيِّتُ كانَ فَقِيراً مِنَ الفُقَرَاءِ، والَّذِي يقولُ لكَ الفَقِيهُ هُوَ الصَّحِيحُ والسَّلامُ.

فَقَبِلَ كلامَهُ وحَمَلَهُ على الشَّهَادَةِ، ورأى النَّاسُ أنَّ هٰذا كانَ من الشَّيخِ بِغَيرِ قُوَّتِهِ، ولا جارِي عَادَتِهِ، بل أَجْرَاهُ اللهُ على لِسَانِهِ لِمَا أرادَ اللهُ لي مِن إحسانِهِ وفَضْلِهِ، والَّذِي لَقِيتُ مِنَ الأعداءِ والحَسَدَةِ البُغَضَاءِ الَّذِينَ أبادَهُمُ اللهُ، ولم يَبْلُغُوا مِمَّا [٤٤/ أ] أَمَّلُوا مِنَ الشَّرِّ شيء لا يحصى، وفي كَيْفِيَّةِ نصرِ اللهِ عليهِم

---

(١) ما بين المعقوفتين من (أ) و(ب) و(ج).

في قِصَصٍ طَويلةٍ لا تُسْتَقْصَى، ولا يَسَعُ تَدْوِينَها كتابٌ، وإلى الله عَزَّوَجَلَّ مَعَهُم المآبُ.

وما أحسَنَ قولَ القاضي صَدْرِ الدِّينِ ابنِ القَمَّاحِ[1] رَحِمَهُ الله تَعَالى:

اصبِرْ على حُلْوِ القَضَاءِ ومُرِّهِ ... واعلَمْ بأنَّ اللهَ بالِغُ أمرِهِ
فالصَّدْرُ مَنْ لَقِيَ الأمورَ بِصَدْرِهِ ... وبِصَبْرِهِ وبِحَمْدِهِ وبِشُكْرِهِ
والحرُّ سَيْفٌ والذُّنوبُ لِصَفْوِهِ ... صدأٌ وصَيْقَلُهُ نَوائِبُ دَهْرِهِ
فإذا أُصِبْتَ بما أُصِبْتَ فلا تَقُلْ ... أُذِّيتُ مِن زَيدِ الزَّمانِ وعَمْرِهِ
واثبُتْ فكَمْ هَمٍّ أهمَّكَ عُسْرُهُ ... ليلاً فَبَشَّرَكَ الصَّباحُ بيُسْرِهِ
ولَكَمْ على يَأسٍ أتى فَرَجُ الفتَى ... مِن سِرِّ غَيْبٍ لا يَمُرُّ بِفِكْرِهِ
ولَرُبَّ لَيْلٍ في الخُطوبِ كَدُمَّلٍ[2] ... صابَرتُهُ حتَّى ظَفِرْتُ بِفَجْرِهِ

[٤٤/ب] ومع ذَلِكَ فالخيرُ كُلُّهُ في الحِلْمِ والصَّبرِ، ودفعِ السَّيِّئَةِ بالحَسَنَةِ، وفي تقوى الله جِماعُ خيرِ الدُّنيا والآخِرَةِ.

تُوُفِّيَ الشَّيخُ عِزُّ الدِّينِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إحدى وأربعينَ وسَبْعِمِئَةٍ.

ثُمَّ سَكَنَ الحُجْرَةَ مَسْكَنَ الشَّيخِ عِزِّ الدِّينِ أبو العَبَّاسِ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ ابنِ مُحَمَّدِ بنِ أبي بَكْرٍ بن مرزوقٍ التِّلْمسانِيُّ[3] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكانَ من أحبابي

---

(١) أحمد بن إبراهيم، ابن القماح الشافعي الفقيه الأديب الشاعر، امتحن مرة بمحنة ذكر أنه نظم فيها هٰذه الأبيات في ليلة لم ينفلق فجرها إلا وقد فرج عنه، توفي سنة ٦٩٥هـ. «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/ ٦ وهو فيها «علم الدين».

(٢) في الأصل: «كوحل»، وهو تحريف، والمثبت من «طبقات الشافعية» ٨/ ٦.

(٣) أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق التلمساني المالكي، ممن انقطع بالحرمين مدة للعبادة، ومات بمكة سنة ٧٤٠ هـ. «العقد الثمين» ٣/ ١٧٣-١٧٤، «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٢١.

الكِبَارِ، وأصحابي الأخيارِ، بل لم أَصْحَبْ مِثْلَهُ في النَّاسِ، ولم أرَ مِثْلَهُ على قِيَاسٍ.

أقامَ بِمَكَّةَ قبلَ أَنْ يأتِيَ المَدِينَةَ، فَلَزِمَ الطَّوافَ حَتَّى زَمِنَ وأُقْعِدَ، فلمَّا قَدِمَ المدينَةَ لَزِمَنِي ولَزِمْتُهُ، فَمُنَّ عليهِ بِالعَافِيَةِ، وأَوَّلُ ما نَزَلَ نَزَلَ في بَيتِي، وكانَ مَعَهُ وَلَدُهُ الفَقِيهُ العَلَّامَةُ الخَطِيبُ المشهورُ اليومَ في بلادِ الغَرْبِ بالعُلُومِ والفَوَائِدِ، والتَّصَانيفِ والرِّئَاسَةِ(١)، وأَحَبَّهُ المُلُوكُ وأَحَبَّهُ الرَّعِيَّةُ، لما اشْتَمَلَ عليهِ مِنَ المحَاسِنِ والعُلُومِ، ثُمَّ تَسَلَّطَ عليهِ أعداءُ حُسَّادٌ، فامْتُحِنَ بهم، ثُمَّ نَجَّاهُ اللهُ من كَيْدِهِم، وحَصَلَ له أُسْوَةٌ بأهلِ الخَيرِ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

وكان قُدُومُهُم هٰذا إلى المدينَةِ في عامِ ثمانيةٍ وعشرينَ وسَبْعِ مِئَةٍ.

وكانَ الولدُ أبو عبدالله المَذْكُورُ حينئذٍ لم يَبْلُغِ الحُلُمَ، فاشتغَلَ [٤٥/أ] بالعِلْمِ ثُمَّ رجعَا إلى بَلَدِهِما تِلِمْسَانَ، فأقَامَا سِنِينَ ثُمَّ رَجَعَا إلى المَدِينَةِ، فأقامَ الشَّيخُ ورجَعَ وَلَدُهُ، واسْتَقَرَّ الشَّيخُ في الحُجْرَةِ المَذْكُورَةِ.

ثُمَّ انْتَقَلَ إلى بَيتِي، ثُمَّ اشترى نِصْفَ دُوَيْرَةٍ وسَكَنَها حتَّى سَافَرَ إلى مَكَّةَ، وماتَ بها في سَنَةِ أربعينَ أو إحْدَى وأربَعِينَ وسَبْعِ مِئَةٍ.

كانَ له مِنَ الكَرَامَاتِ والأَحْوالِ الجَلِيلَةِ العَزِيزَةِ اليومَ ما لا تُحْصَرُ ولا تُعَدُّ، منها: أنَّه سُلِّطَ عليه شَخْصٌ من بلادِهِ يُقَالُ له: عُثْمانُ بنُ

(١) هو محمد بن بن أحمد، من أعيان تلمسان، وله حظوة عند ملوك المغرب، وصنَّف عدَّة تصانيف، منها شرح «لعمدة الأحكام» وشرح «للشفاء»، توفي سنة ٧٨١هـ. «نفح الطيب» ٣/ ٢٠٣.

المَعذُورِ(١)، كثيرُ الشَّرِّ يَطْلُبُ منهُ كُلَّ حينٍ النَّفَقَةَ، ويَشْغَبُ عليهِ وقْتَهُ بِكَثْرَةِ التَّرَدُّدِ إليه.

فَمَلَّهُ الشَّيخُ أبو العَبَّاسِ وأرادَ قَطْعَهُ عَنْهُ، فَعَمِلَ على بابِهِ غَلَقاً له مِفْتَاحَانِ، وأرادَ إغلاقَهُ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّهُ ليسَ في البيتِ أَحَدٌ، فَيَخْلُو بِنَفْسِهِ في بَيْتِهِ حَتَّى يَخْرُجَ إلى المَسْجِدِ لِصَلاتِهِ، ثُمَّ يَرْجِعَ إلى بَيْتِهِ.

فَتَسَلَّطَ عليهِ هٰذا الرَّجُلُ حَتَّى وقفَ لَهُ بِاللَّيلِ عندَ خُرُوجِهِ في السَّحَرِ إلى المَسْجِدِ، وقالَ له: أَنْتَ فُلانٌ؟ وحقِّ كذا وكذا إنْ لم تُعْطِنِي ما أَطْلُبُه مِنْكَ لأَقْتُلَنَّكَ، ولأَفْعَلَنَّ بِكَ كَيْتَ وكَيْتَ!

ثُمَّ ذَهَبَ إلى الشُّرَفَاءِ فَسَعَى بِهِ، وقالَ لهم: عندَ فُلانٍ مِنَ الذَّهَبِ عَشَرَةُ آلافٍ وبالَغَ في الأَذِيَّةِ، والشَّيخُ يُحِيلُهُ على الله تَعَالى، ويَصْبِرُ على أَذَاهُ، حتَّى مَرِضَ الشَّيخُ في بَيتِهِ، [٤٥/ب] وكانَ مُجَاوِراً لي، فَكَأَنَّهُ غَفلَ عَنِ البابِ فَدَخَلَ عليهِ وهو مَرِيضٌ فَرَوَّعَه، ولو لم أُعَاجِلْهُ بالدُّخُولِ عليهِ لما كنتُ أدري ما يُفْعَلُ بِهِ.

ثُمَّ ذَهَبَ إلى الأَمِيرِ وقالَ: إِنْ ماتَ ابنُ مَرْزُوقٍ اسْتَغْنَيتَ الدَّهْرَ، وكلُّ مالِهِ عندَ ابنِ فَرحُونٍ.

فبلَغَهُ ذَلِكَ وأخبَرْتُهُ بما صَدَرَ منه، فقالَ لي: وَصَلَ إلى هٰذا الحَدِّ؟ أنا إِنْ شاءَ الله أُرِيكَ فيه.

فَوَالله لم تَمُرَّ عليهِ أيامٌ قليلةٌ أَقَلُّ مِنْ جُمُعَةٍ، حَتَّى حُمِلَ إلى المَقْبَرَةِ بعدَ عَذَابٍ شَدِيدٍ نَالَهُ في مَرَضِهِ، وذَلِكَ سنةَ تِسْعٍ وثلاثينَ وسَبْعِمِئَةٍ.

(١) «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٢.

وكانَ الشَّيخُ لا يأكُلُ الرُّطَبَ، ولا الفَاكِهَةَ، ولا البِطِّيخَ، ولا العِنَبَ، ولا اللَّحْمَ والسَّمْنَ[(١)]، حَتَّى نَحُلَ ورَقَّ، وعَزَمْتُ عليهِ بظَاهِرِ الشَّرعِ[(٢)].

وكانَ صَائِمَ الدَّهْرِ قائِمَ اللَّيلِ، ولا يَفْتُرُ من ذِكْرِ الله تَعَالى، يَتَفَقَّدُ الفُقَرَاءَ في بُيُوتِهِم، ويُعَالِجُ الطُّرَحَاءَ[(٣)] في مَكَانِهِم، ويَطُوفُ على المَرْضَى بِالمَدِينَةِ فيَتَفَقَّدُهُم أَيْنَما كَانُوا بالطَّعَامِ والدَّواءِ، ويُشَهِّيهِم فَيَعْمَلُ لهم ما يَشْتَهُونَ، ويَطْلُبُ مِنَّا المُسَاعَدَةَ على ذَلِكَ.

وكانَ لا يَزَالُ مُتَبَسِّماً يَسْأَلُ عَنِ الصَّغِيرِ والكَبِيرِ، ويأتي إلى بُيُوتِ أصحابِهِ ويَدْعُو لِصِغَارِهِم، وكانَ لي مِنْهُ نَصِيبٌ أيُّ نَصِيبٍ، إنْ قُلْتُ: لم أَنَلِ الخيرَ إلا مَعَهُ، ولم أرَ السَّعْدَ إلا في أيَّامِهِ، كُنْتُ صَادِقاً. [٤٦/أ]

وكانَ يَتَفَقَّدُ نَفْسَهُ إذا وَقَعَ في شَيءٍ مِنَ الهَمِّ، حَتَّى إِنَّهُ جاءَ يوماً مِنَ المَسْجِدِ وبيَدِهِ قُطَيْعَةٌ من حَدِيدٍ، تَسْوى فَلْساً، أو لا تَسْوى، فَنَادَى ولَدِي أَحْمَدَ رَحِمَهُما الله تعالى، فأَعْطَاهُ إيَّاهَا لِيَلْعَبَ بها، ثُمَّ خَرَجَ عَنَّا، فَلَمَّا دَخَلَ المَسْجِدَ رَجَعَ بِسُرعَةٍ، فقالَ: اِيتُونِي بِتَلْكَ الحَدِيدَةِ، فَأَتَيناهُ بها.

ثُمَّ بعدَ ذَلِكَ جاءَنَا على عَادَتِهِ فَسَأَلْتُهُ عن حِكَايَتِها؟ فقالَ: لَمَّا رَجَعْتُ إلى المَسْجِدِ فَقَدْتُ سِكِّينَةً كانَتْ مَعِي في المِحْفَظَةِ، قالَ: فَتَفَقَّدْتُ نَفْسِي

---

(١) هٰذا الامتناع إن كان تديُّناً فلا أصل له في الشرع، فالنبيُّ ﷺ قد أكل الرُّطب والفاكهة واللحم وغيرها، وأما إن كان الامتناع عن بعض المأكولات لأمر خاصّ بالمرء؛ لكونه لا يشتهيه أو لحمية، أو لكونه يضرُّه فلا ضير فيه.

(٢) ليس للشرع ظاهرٌ وباطن، وإنما يُعبد الله عَزَّوَجَلَّ بما يدل عليه القرآن والسُّنة الصحيحة.

(٣) الطرحاء: هم الفقراء والمساكين الذين لا يجدون عائلاً. أُوقفت لهم الأوقاف (أوقاف الطرحاء) لتغسيلهم وتكفينهم ودفنهم. «السلوك لمعرفة دول الملوك» ١/ ٢١١.

وتَفكَّرْتُ فِيما عَمِلْتُ حَتَّى عُوقِبْتُ في السِّكِّينِ، فَلَم أَجِدْ إلا تِلْكَ الحَدِيدَةَ، فَرَدَدْتُها مَوضِعَها فَوَجَدْتُ السِّكِّينَ، وكانَ في هٰذا المقامِ وأَعْلى مِنْ هٰذا المَقامِ.

واتَّفقَ أَنْ مَرِضَ في بَيْتِي مَرْضَةً شَدِيدَةً، أَيِسَ من نَفْسِهِ فيها، فَدَخَلْتُ عليهِ يوماً ووَلَدِي أَحْمَدُ عِنْدَهُ، وكان صَغِيراً وأَسْمَعُهُ يقولُ: يا وَلَدِي يا أَحْمَدُ، أقومُ [من][1] هٰذا المَرَضِ وأَتَعافى[2]، ثُمَّ سَمِعْتُهُ يقولُ: فيها البَرَكَةُ يا وَلَدِي.

فَقُلْتُ له: ما يَقُولُ لَكَ؟ وما مَعْنَى كلامِكَ؟

فقالَ: قُلْتُ لهُ: كَذَا وكَذَا.

فقالَ - إشارةً بِيَدِهِ -: أَرْبع، فتَأَوَّلْتُها أَرْبعَ سِنِينَ، فأنا أَعِيشُ أربعَ سِنِينَ، فكانَ كَذَلِكَ. ماتَ في الأربعَةِ بِمَكَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكانَ واقِفاً ليلةً يُصَلِّي فوقَ السطحِ، وكانَ بإزَائِهِ نِسَاءٌ في عُرسٍ، فَضَربُوا الدُّفُوفَ [٤٦/ب] والمَعَازِفَ والرَّبَابَ وأنواعَ الطَّرَبِ بِحِذَائِهِ، حَتَّى إِنَّهُ لم يَدْرِ ما يُصَلِّي، فرأيتُهُ قد نَزَلَ إلى أَسْفَلِ البَيتِ، فَلَم تَكُنْ إلا قليلاً حَتَّى طَلَعَ إلى مَكَانِهِ، وسَكَنَ ذَلِكَ اللَّعِبُ واللهوُ.

فَسَأَلْتُ عن سَبَبِ سُكُوتِهِم؟ فقالُوا: بينَما نَحْنُ في ذَلِكَ الحَالِ، إذ وَقَعَتْ عَرُوسُنا مِنَ الدَّرَجَةِ فَانْعَطَبَتْ في رِجْلِها!

---

(١) في الأصل بياض بمقدار كلمة، وما بين المعقوفتين من (أ) و(ب) و(ج).

(٢) ينبغي في مثل هٰذا أن يُعلَّق الأمل والرجاء بالله عَزَّوَجَلَّ ومشيئته.

فَعَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ بِبَرَكَةِ خَاطِرِهِ، إِذْ كانُوا على أنواعٍ مِنَ المَعَاصِي والملاهي، نَفَعَنَا اللهُ بِهِ، وجَمَعَنا وإِيَّاهُ في مُسْتَقَرِّ رَحْمَتِهِ، فَقَدِ انْتَفَعْنَا بِصَلاحِهِ وبِخَاطِرِهِ وبِخِدْمَتِهِ، وبِوَلَدِهِ أبي عبدالله مُحَمَّدٍ مِنْ بَعْدِهِ، حَفِظَهُ اللهُ تَعَالى، ورَدَّهُ إلى ما كانَ عليهِ والِدُهُ مِنَ الانْقِطَاعِ عَنِ النَّاسِ، والعُزْلَةِ عَنِ الخَلْقِ، فهو وإِنْ كانَ على خيرٍ، فحالُ الشَّيخِ أَكْمَلُ وأَقْرَبُ إلى السَّلامَةِ في الدُّنيا والآخِرَةِ، وقد تَقَدَّمَ ذِكْرُ وفاتِهِ، جَمَعَنا اللهُ وإِيَّاهُ في مُسْتَقَرِّ رَحْمَتِهِ.

ثُمَّ أدركتُ مِنَ الشُّيوخِ الكبارِ **عليًّا الواسطيَّ**(١)، كانَ مِنَ الأولياءِ، مُلازِمَ الصَّومِ، قدْ حَمَى عينيهِ النَّومَ(٢)، كانَ يُقِيمُ بالمَدِينَةِ أو بِمَكَّةَ، حتَّى إذا اشتاقَ إلى وَطَنِهِ أَخَذَ رِكْوَتَهُ(٣) وخَرَجَ حتَّى يأتِيَ أرضَ العِراقِ، لا يَعْتَرِضُهُ أَحَدٌ مِنَ الأعرابِ، ومَنْ وَجَدَهُ أَكْرَمَهُ [٤٧/ أ]، وبَلَّغَهُ إلى حيثُ يأمَنُ عليهِ، قدْ عَرفَتْهُ العرب(٤) واعْتَقَدَتْهُ آلُ مُهَنَّا(٥) اعتِقَاداً عَظِيماً، حَتَّى كانُوا يصدُرُونَ عنْ رَأيِهِ، ويَتَبَرَّكُونَ بِعَصَاهُ وثَوبِهِ(٦).

---

(١) «المغانم» ٣/ ١٢٤٧، «الدُّرر الكامنة» ٣/ ٣٧، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٢١١. واسم والده: الحسن.

(٢) ليس من هدي النبي ﷺ ترك النوم جملةً، بل ورد النهي عنه.

(٣) الرَّكْوة: إناءٌ صغير من جِلْدٍ يُشْرَب فيه الماءُ. «لسان العرب»: ركا.

(٤) في الأصل: «العراب»، والمثبت من بقية النسخ.

(٥) آل مهنا أمراء المدينة، أبناء مهنا بن داود، ينتهي نسبهم إلى الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦) لا يجوز التبرُّك بأحد غير النبيِّ ﷺ؛ لا بوضوئه، ولا بشعره، ولا بعرقه، ولا بشيء من جسده؛ بل هٰذا كله خاصّ بالنبيِّ ﷺ؛ لما جعل الله في جسده وما مسَّه من الخير والبركة، ولهٰذا لم يتبرَّك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأحد منهم، لا في حياته ولا بعد وفاته ﷺ، لا مع الخلفاء الراشدين ولا مع غيرهم، فدل ذلك على أنهم قد عرفوا أنّ ذلك خاص بالنبي ﷺ دون غيره. انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» ٢/ ٢٤٤.

وكانَ إذا جاءَ المدينةَ سَكَنَ إحدَى المَدْرَسَتَينِ الشِّهَابِيَّةِ أو الأَزْكَجِيَّةِ[١]، ويخدِمُهُ جَمَالُ الدِّينِ المطريُّ، ويقومُ بِهِ، ويَقْتَصِرُ الشَّيْخُ عليهِ، لا يكادُ أَحَدٌ يَدْنُو مِنْهُ لِهَيْبَتِه في النُّفُوس.

وحَكَى لي جمالُ الدِّينِ المَطَرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ الشَّيخَ بَعَثَ إلى المَلِكِ النَّاصِرِ يَقُولُ له: أَنَا أَضْمَنُ لكَ على الله قَضاءَ ثلاثِ حَوائِجَ إن قَضَيتَ لي حاجةً واحدةً[٢] وهي: إِزَالَةُ هٰذا الشُّبَّاكِ الَّذي عَلَى الحُجْرَةِ الشَّرِيفَةِ، فَبَلَغَهُ ذلكَ فَتَوَقَّفَ ولم يَفْعَلْ، وليتَهُ فعَلَ؛ فإنَّ في الشُّبَّاكِ الَّذِي يدورُ على الحُجْرَةِ قَطْعَ جانِبٍ مِنَ المسجِدِ، وتَحْجِيرَ[٣] كثيرٍ مِنَ الرَّوضَةِ المُشَرَّفَةِ، وفي كُلِّ زَمَانٍ يُجَدَّدُ ويُعَمَّرُ بما يَتَقَوَّى بِهِ ويَتَأَبَّدُ[٤]، وأُدخِلَ فيهِ قِطْعَةٌ كبيرةٌ لَمَّا أُزِيلَتْ المَقْصُورَةُ، وقد تَقَدَّمَ ذلكَ.

وللشَّيخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنواعٌ مِنَ الكرامَاتِ، لَحِقَ بها أهلَ الوِلاياتِ، تُوفِّيَ رحمهُ الله تَعَالى في حُدودِ الثَّلاثِينَ وسَبْعِمِئَةٍ.

ومثلُهُ مِن سُكَّانِ المدرسةِ الشِّهابِيَّةِ: **الشيخُ أبو الرَّبيعِ سُليمانُ**

---

(١) المدرسة الأزكوجية – ويقال: اليازكوجية– الحنفية، كانت في شرقي المسجد النبوي في دار ريطة، بنيت في القرن السابع الهجري، أنشأها سيف الدين يازكوج الأسدي، أحد أمراء الشام في عهد صلاح الدين الأيوبي. انظر «وفيات الأعيان» ٧/ ١٧٠، و«وفاء الوفا» ٢/ ٦٩٢.

(٢) هٰذا مما لا يجوز الجزم والقطع به، إذ كيف يضمن ذلك على الله عَزَّوَجَلَّ؟! وقد جاء في الحديث عن جُندب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنّ رسول الله ﷺ حدَّث أنّ رجلاً قال: والله لا يغفرُ الله لفلان! وأنّ الله تعالى قال: «من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان، فإنِّي قد غفرتُ لفلان وأحبطت عملك». رواه مسلم (٢٦٢١).

(٣) التحجير: المنع، وحجَّر عليه: ضيَّق. «القاموس»: حجر.

(٤) التَّأْبِيد: التَّخْلِيد. «القاموس»: أبد.

الغُمارِيُّ[١] رَحِمَهُ اللَّهُ، كانَ من شأنِهِ التَّجَرُّدُ والتَّقَلُّلُ من الدُّنيا [٤٧/ ب] والتَّعَبُّدُ، كانَ يأخُذُ مِنَ الموسِمِ قوتَهُ كَفَافاً، ويَتَصَدَّقُ بِها زادَ، وكانَ الشَّيخُ عُمَرُ الخَرَّازُ يشتري لهُ إدَامَهُ ويُحَاوِلُ هُو ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، ولم يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى كُفَّ بَصَرُهُ، فَعُرِضَ عليهِ القِيامُ بما يَحتاجُ إليهِ مِنَ الإدامِ فَلَم يَفْعَلْ.

وكان يَضَعُ القُدَيرةَ[٢] على كانونٍ[٣] فحمٍ، وَيَضَعُ فيها ما تَيَسَّرَ، فإذا طابَتْ أكَلَ ما وَجَدَهُ فيها على أيِّ وجهٍ كانَ، وينزِلُ إلى البِئْرِ فَيَمْلأُ الإبريقَ بِنَفْسِهِ، فيقولُ لهُ القَيِّمُ أو غيرُهُ مِمَّنْ يَعْتَقِدُهُ: يا سيِّدي أنا أَكْفِيكَ ذَلِكَ، فيَأْبَى، ولم يَزَلْ عَلَى هٰذه الحَالَةِ حَتَّى تُوُفِّيَ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

أخبرني جَمَالُ الدِّينِ المَطَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ السَّنَةَ الَّتِي جَاءَ فيها التَّتَرُ إلى أطرافِ الشَّامِ[٤]، وتحرَّكَ عليهِم فيها المَلِكُ النَّاصِرُ، أيقنَ النَّاسُ أَنَّهُ لا يكونُ في تِلْكَ السَّنَةِ حَاجٌّ، وأنَّ المسلمين اشتغلوا بأنفسِهِم، فَهَمَّ الأشرافُ بِالمُجَاوِرِينَ [والخُدَّام][٥]، وقالُوا: نَغْتَالُهُم ونَقْتُلُهم ونُطَيِّبُ المَدِينَةَ منهُم، وجالَ الكلامُ بينَ النَّاسِ حَتَّى أَرْجَفُوا[٦] بِالمُجَاوِرِينَ والخُدَّامِ.

قالَ لي جمالُ الدِّينِ: فَجِئْتُ إلى الشَّيخِ أبي الرَّبيعِ في الحَرَمِ، فقلتُ: يا سيِّدي، ما تَرَى مَا النَّاسُ فيهِ مِنَ الوَعيدِ والتَّهديدِ؟

---

(١) «التحفة اللطيفة» ٣/ ٢٢٤.

(٢) القديرة: تصغير قِدْر، وهو من أواني الطبخ. «لسان العرب»: قدر.

(٣) الكانونُ والكانونةُ: المَوْقِدُ. «لسان العرب»: كنن.

(٤) انظر تفصيلات هٰذا الخبر ووصول السلطان الناصر إلى الشام وحجّه في هٰذه السنة ٧١٢هـ. «البداية والنهاية» ١٤/ ٧٥-٧٨.

(٥) سقط مابين المعقوفتين من الأصل، والمثبت في (ب).

(٦) أَرْجَفَ القومُ: إذا خاضُوا في الأخبار السيِّئة وذِكر الفتَن. «القاموس المحيط»: رجف.

فقالَ لي: ما يَقُولُونَ؟

قلتُ: كذا وكذا.

فقالَ: بل يَكْذِبُونَ، بل هٰذه السَّنَةُ آمَنُ السِّنينِ، [٤٨/ أ] والسُّلطانُ طَيِّبٌ، وسَيَجِيءُ في هٰذه السَّنَةِ، وكانتْ سنةَ اثنَتَي عشرَةَ وسَبْعِمِئَةٍ.

قال: فلَم نَلْبَثْ إلّا قليلاً إذ جاءَ الخَبَرُ بِحَجِّ السُّلطَانِ مِنَ الشَّام[١]، وجاءتِ الإقاماتُ، وتهدَّمَتِ الإرْجَافَاتُ، وقَوِيَ حَالُ السُّنَّةِ، والحمدُ لله بعدَ تِلْكَ المَخافَةِ، فللَّه الحَمْدُ.

وأخبرني الشَّيخُ أبو عبدالله مُحَمَّدُ بنُ سالمٍ المَكِّيُّ[٢]: أنَّهُ كانَ ساكِناً في المدرَسَةِ الشهابية في بَيتٍ بِإزَاءِ بيتِ الشَّيخِ أبي الرَّبيع، قالَ الفَقِيهُ مُحَمَّدٌ: كنتُ أَدْرُسُ «التنبيه» وأرفَعُ صوتِي، وكُنْتُ جهوريَّ[٣] الصَّوتِ لا أُحْسِنُ أَقْرَأُ إلّا كَذَلِكَ، ولا أحفَظُ إلا بِرَفْعِ صَوتِي، قال: فَتَشَوَّشَ الشيخُ مِنْ رَفْعِ صَوتِي، فَقَالَ لي: يا محمد، اِخْفِضْ مِن صَوتِكَ.

قالَ: فَقُلْتُ: يا سيِّدي، ما أَقدِرُ أنْ أَقْرَأَ إلّا هَكَذَا، فقالَ لي: فَاخْفِضْ قَلِيلاً، فَلَمْ أفعَلْ، فأصابَنِي عارِضٌ من نَزْلَةٍ مَنعَتْنِي أنْ أَتَكلَّمَ، فَمَرَّ عليَّ فقالَ لي: يا مُحَمَّدُ، ما تَرْفَعُ صَوتَكَ؟ فقلتُ بالإشارَةِ: يا سيِّدي، أَنَا تَائِبٌ إلى الله تعالى، ففرَّجَ الله عَنِّي في الحينِ.

وكانَ الشَّيخُ أَبُو الرَّبِيعِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَقِيهَ المَدِينَةِ ومُفْتِيَها على مَذْهَبِ مَالِكٍ،

---

(١) «البداية والنهاية» ١٤/ ٧٥-٧٨.

(٢) ستأتي ترجمته ص٢٠٣.

(٣) تحرَّفت في جميع النسخ إلى: «جوهري».

وكانَ إذا سُئِلَ عن المسألَةِ يقولُ للسَّائِلِ: هل سَأَلْتَ الشَّيخَ أبا عبدالله ابنَ فَرْحونٍ؟ يَعني والدِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن قالَ: لا، يقولُ: اذْهَبْ واسأَلْهُ وأخبِرني بما يقولُ لكَ، وإن قالَ: سألتُهُ، يقولُ لَهُ: ماذا قالَ لَكَ؟ فإذا أخبَرَهُ نظَرَ؛ فإنْ كانَ مِمَّا اتَّفقَ عليهِ أَمَرَ السَّائِلَ بِهِ، وإنَ كان فيه مُخالِفاً ما [قال]، قال لَهُ: اذْهَبْ حَتَّى أجتَمِعَ بِهِ، فيجتمعانِ ويُحَرِّرَانِ [٤٨/ب] المسألَةَ، ثُمَّ يأمُرانِ جميعاً السَّائِلَ بما يَتَّفِقَانِ عليهِ، ولم يَزَالا كَذَلِكَ حَتَّى تُوُفِّيَ الشَّيخُ قَبْلَ والدِي بِمُدَّةٍ طَويلَةٍ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وجاءَتْ إلى السِّراجِ وظيفةُ التَّدريسِ في دَرْسِ سَلَّارَ، فَنكَبَ[١] عن والِدِي، وطَلَعَ إلى الشَّيخِ أبي الرَّبيعِ في بيتِهِ في المَدْرَسَةِ وقالَ له: خُذْ هٰذه الوَظِيفَةَ فدَرِّسْ فيها.

فقالَ له: يا سِراجَ الدِّينِ، وأَيْنَ أنتَ عَنِ الشَّيخِ أبي عبدالله بنِ فَرحونٍ، والله إنَّهُ أَعْلَمُ وأَحَقُّ بها مِنِّي! وامتَنَعَ منها، حَتَّى رَجَعَ السِّراجُ يطلُبُ لها والِدِي، وكانَ ذلِكَ مِنَ السِّرَاجِ لِشَيءٍ خَشِيَ مِنْ وقُوعِهِ، فوَقَعَ ما تَوَقَّعَ، واللهُ غَالِبٌ على أمرِهِ.

أخبرَنِي الشَّيخُ عُمَرُ الخَرَّازُ أَنَّهُ حَضَرَ موتَهُ[٢]، فكانَ يَقرَأُ القُرآنَ، فلمَّا فاضَتْ رُوحُهُ كانَ يَقْرَأُ آيةً في سُورَةِ يُوسُفَ انْتَهَتْ قِراءَتُهُ إليها، وهي قولُهُ تَعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٣]، فانْظُر إلى هٰذا الرَّجُلِ ومَقَامِهِ

(١) نكَبَ عنه: عَدَلَ. «القاموس المحيط»: نكب.

(٢) ذكر المؤلف أنه توفي قبل والده بزمن طويل، وكانت وفاة والده سنة٧٢١هـ، فتكون وفاة المترجم في أوائل السبعمئة.

(٣) سورة يوسف، آية: ١٠١.

وما كانَ من عُلُوِّ شأْنِهِ، كانَ لي منهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ نَصِيبٌ وافِرٌ، ودُعاءٌ كَثِيرٌ، أرجُو مِنَ اللهِ العظيمِ أَنْ يُحَقِّقَ لي قَبُولَهُ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ.

ثُمَّ مِمَّنْ صَحِبْناهُ ومَنَّ اللهُ علينا بِحُبِّهِ وصَدَاقَتِهِ والأَخْذِ عَنْهُ: الشَّيخُ الإِمَامُ العَلَّامَةُ **أبو عبدالله مُحَمَّدُ**[1] **بنُ مُحَمَّدِ بنِ عَلِيِّ بنِ حُرَيثٍ**، القُرَشِيُّ البَلَنْسِيُّ[2]، ثُمَّ السَّبْتِيُّ[3] العَبْدَرِيُّ[4].

أقامَ بِالمَدْرَسَةِ الشِّهابِيَّةِ في المَبْرَكِ[5] هُوَ والشَّيخُ أَبُو عبدالله القَصْرِيُّ، كانا رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ مُتَواخِيَينِ من عندِ شيخِهما الإمامِ العَلَّامَةِ أبي الحُسينِ عُبيدِالله ابنِ أبي الرَّبيعِ[6]، وعنهُ أَخَذَ الفِقْهَ والحديثَ [٤٩/أ]، وكتبَ الشَّيخُ أبو عبدالله القَصْرِيُّ في ترجَمَةِ ابنِ أبي الرَّبيعِ أَنَّهُ: أَعْلَمُ مَنْ رأيناهُ، وأَفْضَلُ مَنْ لَقِيناهُ.

وكانَ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على طريقةِ الأولِيَاءِ العُلَماءِ العَامِلِينَ، وكانَ إمامَ جَامِعِ سَبْتَةَ، وكانَ مَعَهُ مالٌ حلالٌ وَرِثَهُ، وكانَ يسأَلُ اللهَ تَعَالى أَنْ تَكُونَ

---

(١) محمد بن محمد بن علي بن حُريث، العبدريُّ، السبتيُّ، من علماء الحديث، كان خطيباً بسبتة، ثمَّ حجَّ وجاور بمكة، ومات فيها سنة ٧٢٢ هـ. «الدرر الكامنة»٤/ ١٩٩، «التحفة اللطيفة» ٦/ ١٢٢.

(٢) البَلَنْسيّ: نسبة إلى مدينة بشرق الأندلس يقال لها: بلنسية. «معجم البلدان» ١/ ٤٩٠، «الأنساب» ١/ ٣٩٤.

(٣) السبتي: نسبة إلى سبتة، مدينة على مضيق جبل طارق مقابلة لمدينة طنجة، وهي اليوم في المملكة المغربية. انظر: «معجم البلدان» ٣/ ١٨٢، و«الأنساب» ٣/ ٢١١.

(٤) العَبْدَرِيُّ: نسبة إلى بني عبدالدار. «الأنساب» ٤/ ١٣١.

(٥) مبرك الناقة: موضع خلف المسجد النبوي من جهة الشرق، وهو المكانُ الذي بركت فيه راحلة النبيِّ ﷺ به لما قدم المدينة مهاجراً، وفيه دار أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ثم المدرسة الشهابية. انظر: «المغانم المطابة» ٣/ ١٠٧٠، و«عمدة الأخبار» ص٤٠٨.

(٦) «التحفة اللطيفة» ٤/ ٤٩٤.

وَفَاتُهُ عندَ آخِرِ دِرْهَمٍ مِنْهُ، وكذَلِكَ كانَ؛ لم يَتَنَاولْ مِنْ حينَ دَخَلَ الحِجازَ إلى أَنْ تُوُفِّيَ طَعَاماً ولا شَرَاباً ولا مَلْبَساً إلّا مِن مَالِهِ وما قَدِمَ بِهِ مَعَهُ، كانَ يَلْبَسُ حَسَناً، ويأكُلُ طَيِّباً.

وكان الشيخُ أبو عبدالله القَصْرِيُّ يَلْبَسُ خَشِناً، ويأكُلُ قُوتاً، إدامُهُ بَاذِنجَانَةٌ واحِدَةٌ، أو قليلٌ مِنْ حمَّص، وكان لا يأكُلُ من لحمِ الحِجَازِ ولا من سَمْنِهِ، وكانَ يُهدَى إليهِ من الشَّامِ شيءٌ من قديدِ[1] اللَّحْم فيقبَلُهُ ويَتَبَرَّضُهُ[2].

واتَّفَقَ أَنْ طَبَخَ الشَّيخُ أبو عبدالله ابنُ حُرَيثٍ طَبيخاً طَيِّباً، وسأَلَ الشَّيخَ أبا عبدالله القَصْرِيَّ أنْ يأكُلَ مِنْهُ مَعَهُ، فأبى، فقالَ له الشيخُ أبو عبدالله ابنُ حُرَيثٍ: كُلْ مِنْهُ، فإنَّهُ أَحَلُّ مِن طَعَامِكَ ليسَ فيهِ شُبْهَةٌ.

فقالَ لهُ الشَّيخُ عن حَرَجٍ: كيفَ يكونُ هُوَ أَحَلَّ مِنْ طَعَامِي، وما مَعَكَ هُوَ من أُجْرَتِكَ على الإمامَةِ بِسَبْتَةَ؟!

فقال: واللهِ ما تَنَاوَلْتُ من معلومِ الإِمَامَةِ دِرْهماً ولا دِيناراً، وإنَّما جَمَعْتُهُ حَتَّى تَصَوَّرَ مِنْهُ جُمْلَةٌ اشتَرَيْتُ بها رَيْعاً وأوقفتُهُ على الجَامِعِ، فَإِنْ شِئْتَ فَكُلْ، وإلّا فلا تَأْكُلْ.

ووَلِيَ خَطَابَةَ سَبْتَةَ ثَلاثِينَ سَنَةً، وتَفَقَّهَ عليهِ أهلُها.

وكانَ يَروِي «المُوطَّأ» عن ابنِ أبي الرَّبيعِ عَن ابنِ بَقِيٍّ[3]، سمعتُهُ عليهِ

(١) القديد: اللحم المَمْلُوحُ المُجَفَّف في الشمس. «لسان العرب»: قدد.

(٢) تَبَرَّضَ ما عنده: أخذ منه شيئاً بعد شيءٍ. «لسان العرب»: برض.

(٣) أحمد بن أبي الوليد الحافظ بقي بن مخلد الأموي، مولاهم، البقوي القرطبي المالكي، الإمام العلامة المحدِّث المسند، توفي سنة ٦٢٥هـ. «سير أعلام النبلاء» ٢٢/ ٢٧٤.

بالحَضْرَةِ [٤٩/ب] المشرَّفَةِ من الرَّوضَةِ، وكانَ إقامتُهُ في الحجازِ تسعَ سِنينَ، تُوُفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِمَكَّةَ في سنَةِ اثنتينِ وعشرينَ وسبعِمِئَةٍ(١).

وأمَّا صاحبُهُ شيخُنا الإمامُ العَلَّامَةُ الأستاذُ المُقْرِئُ الوَلِيُّ المُحقِّقُ السَّرِيُّ **أبو عبدالله مُحَمَّدُ بنُ غُصنٍ القَصْرِيُّ الأنصارِيُّ**، جاورَ بالمدينَةِ ثلاثَ مَرَّاتٍ، الأولى عامَ تسعةٍ وسبعِمِئَةٍ، والثَّانِيَةُ عامَ ثَمانِيَةَ عَشَرَ وسبعِمِئَةٍ، والثَّالِثَةُ عامَ عِشرينَ(٢)، وكانَ عالِمَ زَمَانِهِ بِالقَرَاءَاتِ، مَشْهُوراً بالكَرَامَاتِ، قرأتُ عليهِ، وأخذْتُ عنهُ، وجَوَّدتُ القرآنَ عليهِ، فرأيتُ من سَنِيِّ أحوالِهِ ما لم أَرَهُ [في](٣) أَحَدٍ مِن أقرانِهِ.

ذكرَ عنهُ لي مَن أَثِقُ بهِ أَنَّهُ في تونُسَ ظهرَ حالُهُ ظُهُوراً عظيماً، واتَّبَعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ، واعْتَقَدَهُ الخاصَّةُ والعَامَّةُ، حتَّى خافَ منه صاحِبُ تُونُسَ وخَشِيَ على مُلْكِهِ مِنْهُ، فأمَرَهُ بالرِّحْلَةِ عنهُ، وذلك أَنَّهُ لو أمرَ النَّاسَ بِخَلْعِهِ لَفَعَلُوا.

قيلَ لي: إنَّهُ في يومٍ واحدٍ فَكَّ كَثيراً من الأَسْرَى مِن أَيْدِي الفِرَنْجِ بِأَمْوالٍ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى. وكانَ إذَا تكلَّمَ في مِيعادِهِ في تُونسَ على مَا في الكَرَمِ والجُودِ والإحسانِ إلى الخَلْقِ وتَرْكِ الحُقُوقِ والتَّعَامِي عنِ الخُصُومِ لا يقومُ إلّا وقدْ أَلْقَى النَّاسُ مِنْ وَثَائِقِ الدُّيُونِ وشِبْهِها ما يُشْبِهُ رَبْضَةَ(٤) الثَّورِ الكبيرِ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) في (أ) و(ج) زيادة: «عن إحدى وثمانين سنة».

(٢) في (ج) زيادة: «وسبع مئة».

(٣) ما بين المعقوفتين من (أ) و(ب)، والسياق يقتضيها.

(٤) الرِّبضة من البقر: جماعته حيث تربض. والرَّبضة: المبرك. «القاموس»: ربض. يريد: كثرة الأشياء الملقاة وسعة مكانها.

فلمَّا قَدِمَ المدينَةَ المُشَرَّفَةَ أرادَ خَفَاءَ حالِهِ، وكانَ قصدُهُ التَّأَدُّبَ معَ المَقَامِ الشَّريفِ، فَلَزِمَ الصَّلاةَ والإِقْرَاءَ حَتَّى اشْتَهَرَ حالُهُ وكَرَامَاتُهُ، فاجْتَمَعَ عليهِ أهلُ الخيرِ [٥٠/أ] ومشايخُ الحَرَمِ، وسأَلُوهُ أن يجعَلَ لهم يَوماً يَعِظُهُم فيهِ، فأنْعَمَ لهم بِيَومٍ في الجُمُعَةِ بعدَ تَوَقُّفٍ كَثيرٍ ومُعَالجةٍ كبيرةٍ، ورُبَّما رأى في النَّومِ أَنَّهُ أُذِنَ لهُ في ذَلِكَ، فوَعَدَ النَّاسَ بِالجُلُوسِ لهم بعدَ صلاةِ الصُّبحِ مِنْ يَومِ الجُمُعَةِ، فكانَ النَّاسُ إذا صَلَّوا ذَهَبُوا إلى مَجلِسِهِ في آخِرِ الحَرَمِ حَتَّى إِنَّهُ لَيُسْمَعُ للمَسْجِدِ مِن سَعْيِهِم ارتجاجٌ عظيمٌ، ولم يبقَ أحدٌ في المدينَةِ إلّا حَضَرَ مَجْلِسَهُ؛ من مُجَاوِرِينَ، وخُدَّامٍ، ورِجَالٍ ونِسَاءٍ وصِبيانٍ.

وكانَ قدْ جعَلَنِي قَارِئَ مَجْلِسِهِ، فَأَمَرَنِي أَوَّلَ يَومٍ بِأَنْ أقرأَ قولَهَ تَعَالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾[1] الآيَةَ، ومِنَ الحديثِ حَدِيثَ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ: «إنَّ الحلالَ بَيِّنٌ والحرامَ بَيِّنٌ»[2]، فكانَ يَتَكَلَّمُ جالِساً، فإذا غَلَبَ عليهِ الحالُ قامَ على قَدَمَيهِ وصاحَ بِأَعْلَى صوتِهِ، فكأَنَّما يَقُدُّ[3] بِوَعْظِهِ القُلُوبَ قَدًّا، ويَفْتَحُ عنها باباً مُوصَداً، وانْتَفَعَ النَّاسُ بِكَلامِهِ.

وَمِن جُمْلَةِ كَرامَاتِهِ: أنَّ الأميرَ الكَبيرَ كُبَيْشَ[4] بنَ مَنْصُورٍ كانَ مُتَولِّياً في

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٣.

(٢) لم نجده بعد البحث من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، رقم: (٥٢)، ومسلم في «صحيحه» كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال رقم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقد روي من حديث عمّار بن ياسر، وابن عمر، وجابر، وابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

(٣) القدُّ: القطعُ المستأصل، أو المستطيل، أو الشَّقُّ طولاً. «القاموس»: قدد.

(٤) كبيش بن منصور، أمير المدينة. «الدرر الكامنة» ٣/ ٢٦٢، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٦١. وسيأتي الحديث عنه في فصل تراجم أمراء المدينة ص٤٠٣.

المدينةَ نِيابَةً عن أبيهِ، فَبَلَغَهُ أنَّ عَمَّهُ مُقْبِلَ بنَ جَمَّازٍ[١] أقبلَ مِنَ الشَّامِ يُريدُ المدينةَ، فأمَرَ كبيشٌ بالاحْتِفَاظِ منهُ، ونادَى في النَّاسِ أَنْ لا ينامَ أَحَدٌ في بيتِهِ، ولْيَذْهبُوا كُلُّهُم إلى القَلْعَةِ يَبِيتُونَ فيها وحولَها، وأنَّ مَنْ تَخَلَّفَ عن ذلك حَلَّ مالُهُ ودَمُهُ، فَلَحِقَ النَّاسَ مِنْ ذَلِكَ كَرْبٌ عَظِيمٌ، ولم يَسَعْهُم غيرُ الطَّاعَةِ، فكانَ النَّاسُ كُلُّهُم مُجاوِرُهُم وخَادِمُهم وضَعِيفُهم وقَوِيُّهُم وعَالِمُهُم وجَاهِلُهم يَسْتَوونَ في هٰذا الأمرِ، ولم يَبْقَ من الجَمَاعَةِ غيرُ وَالِدي والشَّيخ أبي مُحَمَّدٍ [٥٠/ب] البَسْكريِّ والشَّيخِ أبي عبدالله القَصْرِيِّ ومَنْ حَبَسَهُ عُذْرٌ، وأقامَ النَّاسُ على ذَلِكَ أياماً كثيرةً حتَّى اطمَأَنُّوا، وباتَ النَّاسُ في منازِلِهم وذَهَبَ عنهُمُ الفَزَعُ في زَعْمِهِم.

فلمَّا كانَ في بعضِ الأيَّامِ قامَ الشَّيخُ أبو عبدالله في النَّاسِ في الرَّوضَةِ، وصاحَ قائلاً: اللهمَّ مَنْ أرادَ المدينةَ بِسُوءٍ مساءً فَخُذْهُ صَباحاً، ومَنْ أرادَها صَباحاً فَخُذْهُ مَساءً. ودَعَا واجْتَهَدَ واحمَرَّ وجهُهُ، وقامَ على قَدَمَيْهِ حَتَّى قالَ مَنْ لا يَعرِفُ حَالَهُ: هٰذا منه هَوَسٌ[٢]! فإنَّ النَّاسَ قد أَمِنُوا وطابَتْ قُلُوبُهم، وهٰذا الرَّجُلُ يُذَكِّرُ بالشَّرِّ، ويدعُو على مَنْ أُمِنَ شَرُّهُ.

فلم يَكُنْ بعدَ ذلكَ إلَّا ليلةٌ أو لَيلتانِ إذ أصبحَ الأميرُ مُقْبِلٌ في المدينةِ قدْ دَخلَها هُوَ وجَماعَتُهُ بِاللَّيلِ مِنْ خَلفِ قَلْعَتِها، وذَلِكَ أَنَّهُم نَصَبُوا سُلَّماً اسْتَعْمَلُوهُ في الشَّامِ قِطَعاً مُوَصَّلاً، هو اليومَ في الحَرَمِ الشَّريفِ.

---

(١) مُقبل بن جمَّاز بن شيحة الحسيني، أشركه الظاهر بيبرس مع أخيه منصورٍ أميرِ المدينة في إقطاع المدينة النبوية، وكان طالبَ مُلكٍ، له مقاتلة واختلاف على الإمارة، قُتل في أثنائها سنة ٧٠٩هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ٢٥٦، «صبح الأعشى» ٤/ ٣٠٠، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٢٦٥). وسيأتي الحديث عنه في فصل تراجم أمراء المدينة.

(٢) الهَوَسُ بالتَحْريك: طَرَفٌ من الجُنُون. «القاموس»: هوس.

وكانَ دُخُولهُم ليلةَ السَّبتِ ثَامِن عشرينَ من شَعْبانَ سَنَةَ تسع وسبعِمِئَةٍ، فلمَّا أصبحَ مُقْبِلٌ وجَمَاعَتُهُ في الحِصْنِ أرادَ أميرُ المدينَةِ الهُرُوبَ، ثُمَّ ثَبَّتَهُ الله، فَقَاتَلَهُم كُبيشٌ مَعَ أهلِ المَدِينَةِ فَانْتَصَرُوا، وقُتِلَ الأميرُ مُقْبِلٌ وجَوْشَنٌ وقَاسِمٌ ابنَا قَاسِم بنِ جمَّازٍ، وأُثْخِنَ باقيهم بِالجِرَاحِ، فعَلِمُوا أنَّ الشَّيخَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَدَّثَ بِذَلك وكُشِفَ له عنه[(١)]، وحذَّرَ النَّاسَ ولكِنْ ما فَهِمُوا.

ومِنْ جُمْلَةِ ما رأيتُ مِنَ الشَّيخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَنَّهُ لمَّا قَدِمَ المدينةَ بعدَ مُجَاوَرَتِهِ بِمَكَّةَ في آخرِ عامِ اثنينِ وعشرينَ وسبعِمِئَةٍ ووجدَ والدِي قَد تُوُفِّيَ إلى رحمةِ الله قالَ لي: ما مَنَعَكَ [٥١/ أ] أنْ تَقُومَ بِوَظَائِفِ والدِكَ؟

فقلتُ لَهُ: يا سيِّدي، لم يَبْقَ لي رُكْنٌ، ولا مَعِي من يُسَاعِدُني غيرُ الله تَعَالى.

فقالَ لي: اُثْبُتْ على وَظَائِفِ والدِكَ، فَأَنْتَ إنْ شَاءَ الله تُعانُ عَلَيها.

فقلتُ: الاشْتِغَالُ والإشْغَالُ يَطَّلَّبُ مادَّةً وصَفَاءَ فِكْرٍ، وقد انكسَرَ خَاطِرِي.

فقالَ: ألم تَكُنْ تَشْغَلُ النَّاسَ بِالعَرَبِيَّةِ في أيامِ وَالِدِكَ؟

فقلتُ: بَلَى. فقالَ: فَدُمْ على ذَلِكَ، ومَنْ جاءَكَ يَقْرَأُ شيئاً في الفِقْهِ فَأَقْرِئْهُ ولو أَنْ تُصَحِّحَ له كِتَابَهُ.

فَقَبِلْتُ كَلامَهُ، وحَمَلْتُ نَفْسي على الاشْتِغَالِ وصَبَرْتُ ولازَمْتُ، وكانَتْ حَلَقَتِي فوقَ حَلقَةِ والِدِي في حَيَاتِهِ ولله الحَمْدُ، واشْتَغَلْتُ اشْتِغَالاً جَيِّداً، حَصَّلتُ في سَنَتِي ما لم يُحَصِّلْهُ غَيرِي في مُدَّةِ عُمْرِهِ.

---

(١) تقدَّم الكلام على الكشف.

ثمَّ سافرَ الشَّيخُ إلى القُدسِ الشَّريفِ، فَوافَاهُ بها الشَّيخُ أبو يَعقُوبَ رَسُولُ السُّلطانِ أبي الحَسَنِ المَرينيِّ[1]، وقد أُرْسِلَ لإِقَامَةِ درسٍ بالمدينةِ ووَظِيفةٍ أُخْرى، فاستشارُوه فيما جاؤُوا بِهِ وَمَنْ يَتَقَدَّمُ فيه، فأشارَ عليهم بألَّا يُقَدَّمَ عليَّ أَحَدٌ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وحَصَلَ لِيَ الخيرُ بِبَرَكَةِ الشَّيخِ وإِشَارَتِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثمَّ سافرَ أخي عليٌّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مِصْرَ، فَلَقِيَ بها الشَّيخَ أبا عبدالله الوَادِي[2] والشيخَ أبا عبدالله بنَ الحَدَّادِ[3]، فسألَهُما المُسَاعَدَةَ في السَّعْيِ لي في وَظِيفَةِ التَّدريسِ بالمدرسةِ الشِّهابِيَّةِ وغيرِها، فطَالَبَهُم قاضي القُضَاةِ تَقِيُّ الدِّينِ الإِخْنائِيُّ[4] المالكيُّ بإثباتِ الأهلِيَّةِ، فكُتِبَ بِذَلِكَ مَحضَرٌ وشُهِدَ بما فيهِ.

فلمَّا وَقَفَ عليهِ ابنُ الأثيرِ[5] كَاتِبُ السِّرِّ قالَ بعدَ أنْ تَشَهَّدا [٥١/ب] بِذَلِكَ: فأنا أفعلُ لَكُما ما تُحِبَّانِ، وجاءَنِي في الموسِمِ مَرْسُومُ السُّلطانِ الملكِ الناصرِ مُحَمَّدِ بنِ قلاوونَ - رحمةُ الله عليهِ - بالمدرَسَةِ المذكورَةِ.

---

(١) عليُّ بن عثمان بن يعقوب، أبو الحسن المريني، ملك مراكش وفاس، تسلطن بعد وفاة أبيه سنة ٧٣١ هـ،وكان عادلاً شجاعاً، كثير الجيوش، ذا همَّةٍ عالية في الجهاد ونشر العدل، توفي سنة ٧٥٢ هـ. «الدرر الكامنة» ٣/ ٨٥.

(٢) محمد بن علي بن جابر، أبو عبدالله الوادي آشي، صاحب «برنامج الوادي آشي»، توفي بتونس سنة ٧٥٠هـ. «الدرر الكامنة» ٣/ ٤١٣، «التحفة اللطيفة» ٦/ ٣٦٣.

(٣) محمد بن عبدالرحمن أبو عبدالله الفاسي، المعروف بابن الحداد، تفقَّه بتونس، ولد سنة ٦٧٢هـ مات سنة ٧٢٢هـ. «الدرر الكامنة» ٣/ ٤٩٦، «العقد الثمين» ٢/ ٢٩٧.

(٤) محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران السعدي المصري، أبو عبدالله، تقي الدين الإخنائي، نسبة لإخنا بلدة بقرب الإسكندرية، قاضي قضاة المالكية بمصر، له تآليف، توفي سنة ٧٥٠هـ. «الديباج المذهب» ص٣٢١، «الدرر الكامنة» ٤/ ٤٠٧.

(٥) علاء الدين علي بن أحمد، الحلبي الأصل المصري ت ٧٣٠هـ.«الدرر الكامنة» ٣/ ١٤.

وكان الشيخُ أبو عبدالله الوادِي آشِيُّ مِنْ شُيُوخِنَا المُبَارَكِينَ الَّذِينَ صَحِبُوا والِدِي وَرَعَوهُ في ذُرِّيَّتِهِ.

وكانَ رَحِمَهُ اللَّهُ شَيخاً في الحديثِ، قدْ أفنَى عُمْرَهُ في السَّماعِ ثُمَّ الإِسْماعِ، وكانَ يحرِصُ على إِسْماعِ الصِّغَارِ، ويأخُذُ خُطُوطَ الشُّيوخِ لهم من غيرِ أَنْ يَعلَمُوا، رجاءَ نَشْرِ العِلْمِ وأَنْ يُذكَرَ فَيُدْعَى لَهُ.

وكانَ مِنْ أحسَنِ النَّاسِ في عِلْمِهِ وأُنْسِهِ وفَوَائِدِهِ وفَرَائِضِهِ، وصَلَّى بالنَّاسِ صَلاةَ التَّراوِيحِ في مسجِدِ رسولِ الله ﷺ، فلم أَسْمَعْ أحسنَ مِنْ قِرَاءَتِهِ وجَوْدَةِ حِفْظِهِ وتَرتِيبِ مَوَاقِفِهِ، وكانَ مِنَ القُرَّاءِ المُجَوِّدِينَ.

تُوُفِّي بِمَدِينَةِ تُونُسَ بعدَ الحَجِّ والزِّيارَةِ في حُدُودِ[1] خمسينَ وسبعِمِئَةٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

قلتُ: وقد ذَكَرتُ الشَّيخَ أبا عبدالله الوادي آشيَّ استطراداً في ذِكْرِ النِّعَمِ الَّتِي مَنَّ الله تعالَى بها، وكانَ بابَ الخيرِ والسَّعادَةِ فيها شَيخُنا أبو عبدالله القَصْرِيُّ رحمةُ الله عليهِ.

وكانَ لهُ [كتبٌ][2] [في][3] موضوعاتٍ مُفِيدَةٍ، منها: «اختصارُ الكافي» في القراءاتِ، لم يُسْبَقْ إلى مثلِهِ، صغيرُ الحَجْمِ غزيرُ العِلْمِ، انتفَعَ بِهِ الطَّلَبَةُ وحَفِظُوهُ، ولَهُ «مقدِّمَةٌ في النَّحْو»، وأُخرى في الحديثِ، وأخرى في نُصْحِ الشَّبابِ.

---

(١) في (ب): «سنة» بدل «حدود».

(٢) ما بين القوسين سقط في الأصل، وأثبتناه من (أ) و(ج)، وفي (ب): «مصنفات».

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

وكانَ أَخصَّ أولادِ المُجاوِرينَ لَهُ: الشيخُ الفقيهُ العالمُ العاملُ المُتْقِنُ المُقْرِئُ نائِبُ الخَطَابَةِ والإِمَامَةِ بالحَرَمِ الشَّريفِ النَّبويِّ شمسُ الدِّينِ [٥٢/أ] ابنُ الشيخِ صالِحِ بنِ إسماعيلَ الكنانيُّ الشافعيُّ المَدَنيُّ، جَوَّدَ على الشيخِ القِراءَاتِ السَّبْعَ وأَتْقَنَها، وَوَرِثَ مِنَ الشَّيخِ[١] ما كانَ يعلَمُهُ منها، وانتفعَ بِهِ أهلُ المدينَةِ، وغيرُهُم مِنَ الوَارِدِينَ، وحَصَّلُوا وانْتَفَعُوا.

وكان شمسُ الدِّينِ مُلازِماً للشَّيخِ أبي عبدالله حَتَّى كَأَنَّهُ وَلَدُهُ، وكانَ الشَّيخُ أبو عبدالله يَتَمَثَّلُ في شَمْسِ الدِّينِ وأخيهِ بقولِه[٢] تعالى: ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا ﴿٨٢﴾﴾[٣].

وكانَ والِدهُما الشَّيخُ صَالِحٌ[٤] صَالِحاً على اسْمِهِ، وكانَ صَانِعاً مُبَيِّضاً مُتْقِناً ناصِحا، يَشْتَغِلُ بالتَّبْييضِ في الحَرَمِ الشَّريفِ، وذَكَرَ وَلَدُهُ شَمْسُ الدِّينِ أَنَّهُ حَجَّ ثماني عَشْرَةَ حَجَّةً - أعنِي وَالِدَهُ - وأَنَّهُ أعتَقَ نحوَ ثلاثِينَ مَمْلُوكاً تَقَبَّلَ الله مِنْهُ.

وسأَلَ اللهَ يوماً أَنْ يَرْزُقَهُ وَلَداً صَالِحاً قَارِئاً لِكِتَابِ الله، ثُمَّ تَزَوَّجَ فَرُزِقَ هٰذينِ الوَلَدَينِ، وأُعْطِيَ فَوقَ ما سَأَلَهُ في وَلَدِهِ شَمْسِ الدِّينِ، وكانَ وَلَدُهُ عَلِيٌّ[٥] رَجُلاً صالحاً، يخدِمُ مشهَدَ[٦] سَيِّدِنا حمزةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) في الأصل: «الشيوخ»، والمثبت من (أ) و(ج).

(٢) في الأصل و(أ): «على قوله»، والمثبت من(ب).

(٣) الكهف: آية ٨٢.

(٤) صالح بن إسماعيل بن إبراهيم بن أحمد بن حسن بن علي بن صالح الكناني الشافعي، توفي سنة ٧٠٧هـ. انظر: «التحفة اللطيفة» ٣/ ٣٠٢.

(٥) «التحفة اللطيفة» ٥/ ١١٦.

(٦) في (ب): «مسجد».

وكانَ وفاةُ الشَّيخِ أبي عبدالله القَصْرِيِّ في القُدسِ الشَّريفِ في سَنَةِ ثلاثٍ وعشرينَ وسبعِمِئَةٍ في عيدِ الأضحَى، رحمةُ الله عليه.

وتُوُفِّيَ الشَّيخُ صَالِحٌ عامَ سبعٍ وسبعِمِئَةٍ، وقد قارَبَ عُمْرُهُ السَّبعِينَ[1].

وكانَ مِن أربابِ القُلُوبِ وأصحابِ العَوارِفِ والمَعارِفِ والعُكُوفِ على العِبَادَةِ والخيرِ الشيخُ العالمُ الوَرِعُ الزَّاهِدُ **أبو القاسِمِ مُحَمَّدُ بنُ محمَّدِ ابنِ سَهْلِ بنِ مالكِ بنِ سهلٍ**[2] المُقْرِئُ، النَّحويُّ، المُتْقِنُ، المُحدِّثُ، [٥٢/ ب] الإمامُ، الفَلَكيُّ، الأندلسيُّ، الغرناطيُّ.

صَحِبْتُهُ فلَمْ أَرَ أَحَداً وصلَ إلى مَقَامِهِ في التَّوَجُّهِ والمُحَافَظَةِ على أورادِهِ مِنْ صِيامِهِ وقِيَامِهِ.

كانَ من بيتِ الوَزَارَةِ بالأَنْدَلُسِ، فلمَّا تُوُفِّيَ والِدُهُ تَخَلَّى عن القُرْبِ مِنَ أهلِ الإمارَةِ، واشتَغَلَ بنَفْسِهِ، ووَرِثَ مالاً كثيراً فكانَ يَقْتَاتُ بِهِ ويُنْفِقُ مِنْهُ، ولا يأكُلُ من غيرِهِ ولو عُرِضَ عليهِ.

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ رُحْلَةً في الفِقْهِ، وله يَدٌ طُولَى في علمِ الهَيْئَةِ[3]، لم يَصِلْ أَحَدٌ إلى ما وَصَلَ إليهِ فيها إلّا القليلَ، وكانَ يُقْسِمُ لي باللهِ تَعَالى أَنَّهُ مَا ازدادَ بِعِلْمِها في اللهِ إلّا يَقِيناً.

له مقاماتٌ لا يَصِلُ إليها أَحَدٌ مِنَ المُجاهداتِ إلّا مَنْ سَبَقَتْ له العِنَايَةُ الأَزَلِيَّةُ والمواهِبُ العَلِيَّةُ.

---

(١) في (ب): «في عشر السبعين» بدل «وقد قارب عمره السبعين».

(٢) «المغانم» ٣/ ١٢٨٨، «الدرر الكامنة» ٤/ ١٧٨، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٣٨٩٢).

(٣) علم الهيئة: هو علم الفلك، وهو علم يبحث عن أحوال الأجرام السماوية وعلاقة بعضها ببعض وما لها من تأثير في الأرض. «المعجم الوسيط»: هاء.

نَزَلَ مَعِي في مِنى، وكانَ لا يترُكُ قِيامَ اللَّيلِ لا في سَفَرٍ ولا حَضَرٍ، فقامَ تلكَ الليلةَ في مِنى على عادَتِهِ، فلَمَّا أصبحَ طَلَبْتُ منه «مناسِكَ الحَجِّ» لابن مَسدِيٍّ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان لا يترُكُها إذا حَجَّ، وكانت نُسْخَةً عظيمةً بِخَطِّ أخي عَلِيٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مجلَّداً كبيراً، وفي هٰذا الكتابِ التَّعَرُّضُ لذكرِ المذاهِبِ كُلِّها، وأردْتُ أنْ أكْشِفَ على مسأَلَةٍ.

فقال لي: واللهِ قد سُرِقَتِ البَارِحَةَ هِيَ والبُرْنُسُ والسَّيفُ.

قلتُ له: وكيفَ ذلكَ؟

قال: جاءَ السَّارق مِن وراءِ المحارةِ وأنا في الصَّلاةِ أنظرُ إليهِ، فهَمَّتْ نَفْسي بأخذِهِ أو الصِّياحِ عليهِ، فآثرتُ صَلاتي، وقلتُ: دَعْهُ، ما أنا فيهِ خيرٌ مِمَّا يَفُوتُني!

انظُرْ هٰذا المقامَ العَظِيمَ.

أخبرَني - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - أَنَّهُ اغتسلَ في مَنْزِلَةٍ مِنْ مَنَازِلِ الحاجِّ بِاللَّيلِ، فَحَلَّ حِزَامَهُ، وكانَ [٥٣/ أ] فيهِ مَالٌ عَظِيمٌ جُلُّ ما يَمْلِكُهُ.

قال: فاشْتَغَلْتُ ونَسِيتُ حَتَّى رَحَلْتُ، ثُمَّ تَذَكَّرتُ بعدَ مرحَلَةٍ، فَحَصَلَ لَهُ مِنَ الأَسَفِ والحُزنِ على ذَلِكَ المالِ الحَلالِ أَمْرٌ عَظيمٌ، فما كانَ إلا قليلٌ إذ جَاءَنِي مَنْ يَسْتَفْتِينِي في لُقَطَةٍ، فقلتُ لَهُ: في أيِّ شيءٍ هِيَ؟

قال: في حِزَام.

---

(١) محمد بن يوسف بن مَسْدي المهلبي الأزدي الأندلسي الحافظ، جمال الدين أبو المكارم الغرناطي المالكي المحدِّث المجاور بمكة المكرمة، توفي قتيلاً بمكة سنة ٦٦٣هـ. «تذكرة الحفاظ» ١٤٤٨/٤، «توضيح المشتبه» ١٤٦/٨.

فقلتُ له: هاتِها فَهِيَ لي بِأَمَارَةِ كذا وكذا، رحمةُ الله عليهِ.

تُوُفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِمِصْرَ سنةَ ثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ، ومولِدُهُ سنةَ اثنتينِ وسِتِّينَ وستِّمِئَةٍ، ورَثَاهُ الشَّيخُ أثيرُ الدِّينِ[(١)] أبو حَيَّانَ وغيرُهُ.

وكانَ مِثلَ هٰؤلاء في العَبَادَةِ والزُّهدِ والقناعَةِ ومحبَّةِ الإقامَةِ بالمدينَةِ لِيَمُوتَ بِها: **الشَّيخُ أبو عبدالله بنُ سليمان**[(٢)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كانَ مُكِبًّا على فِعْلِ الخيرِ مُلازِماً للصَّلاةِ والصَّومِ، وكانَ أبوهُ في تُونُسَ وَزيرَ سُلْطَانها، بل هُو في الحقيقَةِ مَلِكُها، فخرجَ ولَدُهُ هٰذا عن حالِ أبيهِ، وصَحِبَ الشَّيخَ أبا مُـحَمَّدٍ المَرْجَانيَّ، فَتَخَلَّقَ بأخلاقِهِ، وتَأَدَّبَ بِآدَابِهِ حَتَّى ظَهَرَتْ أنوارُ العلم والعَمَلِ عليهِ، وانْتَهَتْ الكَرَامَاتُ إليهِ.

كانَ مِن أحبابي الَّذِينَ انْتَفَعْتُ بِهم وبِدُعَائِهِم، وكانَتْ لَهُ في تُونُسَ زَاوِيَةٌ، ولَهُ أولادٌ وذُرِّيَّةٌ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجَمَعَنا وإيَّاهُ في مُسْتَقَرِّ رحمَتِهِ.

وممَّنْ كانَ مِنْ هٰؤلاء الجماعَة في المدرسَةِ الشِّهابِيَّةِ: **الشَّيخُ يعقوبُ الشَّريفُ**[(٣)]، كانَ له فِقْهٌ وعِلْمٌ واشْتِغَالٌ، وعليهِ هَيْبَةٌ وجَلالَةٌ، وإذا رأيتَهُ ملأَ عَيْنَيكَ بِشْراً مِنْ نظافَتِهِ وجَمالِتِهِ وعِزَّتِهِ، أقامَ سِنِينَ كَثِيرَةً.

---

(١) هو: محمد بن يوسف بن علي، الغرناطي الأندلسي الجياني، أثير الدين، أبو حيان، من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث،وتوفى سنة ٧٤٥هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ٣٠٢.

(٢) محمد بن سليمان، أبو عبدالله التونسي. انظر: «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٩٣١) نقلاً عن المؤلف.

(٣) هو: يعقوب الشريف المغربي. «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٧٠٠) نقلا عن المؤلف.

وكانَ لهُ غَيْرَةٌ عظيمَةٌ على أهلِ السُّنَّةِ، لا يزالُ يُنْكِرُ المُنْكَرَ، ويَتَعَرَّضُ لأهلِ [٥٣/ ب] البِدَعِ فيأخُذُ منهُم بِلِسَانِهِ، فيُسَفِّهُهُم ويحُطُّ مِنْهُم، وكانَ الوقتُ لَيِّناً على حالِ أهلِ السُّنَّةِ لا يُتَمَكَّنُ فيه مِنَ القِيامِ بالحَقِّ كما هُوَ اليَومَ.

وكانَ في أيَّامِهِ شخصٌ من كبارِ الإماميَّةِ اسمُهُ يعقوبُ بنُ الصَّفِيِّ[١] يَقِفُ في وَسَطِ الرَّوضَةِ ويقولُ بأعلى صوتِهِ:

إِنْ كانَ رَفْضاً حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فَلْيَشْهَدِ الثَّقلانِ أَنِّي رافِضِيّ[٢]

فيُفْزِعُ ذٰلك أهلَ السُّنَّةِ، وكانَ لهُ في مثلِ هٰذا التَّعَصُّبِ أمثالٌ، وله أعْوانٌ.

فأنكرَ[٣] الشريفُ يعقوبُ عليهِ، وباحَثَهُ وخَطَّأَهُ في مَسَائِلَ بَحَثَ [فيها][٤]، فَرَفَعَ الأَمْرَ إلى الأميرِ مَنْصُورٍ، فرُفِعَ الشَّرِيفُ ورُمِيَ في الجُبِّ، ولم يُخرِجُوهُ منهُ حَتَّى غرَّمُوه ألفَ دِرهمٍ، وكانَ لا مالَ له، فَضَيَّقُوا عليهِ ونكَّلُوا بِهِ، وتَشَفَّوا مِن أهلِ السُّنَّةِ، فجُمعتْ له غَرَامَتُهُ ودُفِعَتْ إليهم.

فلمَّا جاءَ الموسِمُ ارتحلَ إلى العراقِ وأقامَ فيه مُدَّةً، وصَحِبَ الفقيهَ العَلَّامَةَ المُصَنِّفَ شِهابَ الدِّين عبدَالرحمنِ بنَ عَسْكَرٍ[٥] المالكيَّ وغيرَهُ، فأحسَنُوا إليهِ إحساناً كثيراً.

---

(١) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٦٨٤) نقلاً عن المؤلف.

(٢) في الأصل: «رَفْضِي»، وهو خطأ، والبيت للإمام الشافعي. «الانتقاء» ١/ ٩١.

(٣) في (الأصل) و(ج): «فانكسر»، والمثبت من (أ) و(ب).

(٤) ما بين القوسين سقط في الأصل.

(٥) عبدالرحمٰن بن محمد بن عبدالرحمٰن البغدادي، المالكي، المعروف بابن عسكر، أبو محمد، شهاب الدين. فقيه، محدِّث، مشارك في علوم جمَّة، توفي ببغداد في سنة ٧٣٢ هـ. «الدرر الكامنة» ٢/ ٣٤٤.

ثمَّ جاءَ المدينَةَ فأقَامَ بها وقد جمَعَ شيئاً من الدُّنيا، فسَلَّطَ اللهُ عليه رَجُلاً من أهلِ الشَّرِّ اشْتَغَلَ به فآذَاهُ، وبالغَ في أَذِيَّتِهِ حتَّى وَصَل إلى أن قالَ له: ما أنتَ شَرِيفٌ! فَلَحِقَتْهُ حَمِيَّةٌ[(١)] أَزْعَجَتْهُ، فسافرَ يُرِيدُ بَلَدَهُ لإثباتِ نَسَبِهِ، فَلَقِيَهُ جَماعةٌ كثيرةٌ من كبارِ أهلِ تُونُسَ وعلمائِها ورُؤَسَائِها، فقالُوا لَهُ: أينَ تَذهَبُ؟

فقالَ: جَرَى لي كذا وكذا، وأنا أُرِيدُ بَلَدِي لإِثباتِ نَسَبِي وآتي بِهِ مَعِي، وإلّا فلا أرجِعُ إلى المَدِينَةِ وأنا بهٰذه الحالَةِ.

فقالُوا كُلُّهُم: نحنُ [٥٤/ أ] نَشْهَدُ بِأَنَّكَ شَرِيفُ النَّسَبِ، وأنَّ جماعتَكَ وأهلَكَ كُلُّهُم كَذٰلك، لم يزلْ هٰذا مَعْلُوماً وبَيننَا مشهُوراً.

فقال: إذا جِئْتُمُ المدينةَ اجتَمِعُوا بِشَيخِ الخُدَّام وشُيُوخ الحَرَمِ وفُقَهَائِهِ واذكرُوا لهم. فَذَهَبَ، وقَدِمُوا المدينة وحَضَرُوا بِالمَسْجِدِ الشَّرِيفِ، وأَدَّوا ما عِنْدَهُم مِنَ الشَّهادَةِ بينَ الخُدَّامِ والمُجَاوِرِينَ.

ثمَّ إنَّهُ ذَهَبَ إلى أقصَى المغربِ فاجْتَمَعَ بِأَبي سعيدٍ عُثمانَ بنِ يَعْقُوبَ ابنِ عبدالحَقِّ، فأكرَمَهُ وخَوَّلَهُ[(٢)] مالاً كثيراً، فانتقلَ إلى الأندَلُسِ رَغْبَةً في الشَّهادَةِ، فلَمَّا استقرَّ بها وكَثُرَ خَيرُهُ وخَيْلُهُ وعَبِيدُهُ وجواريه أتَاهُ أَجَلُهُ، فَتُوفِّيَ - رَحِمَهُ الله تَعَالى - عن وَصِيَّةٍ أخرجَ منها خَمسَمِئَةِ دِينارٍ لِوَقْفٍ يُشتَرَى بالمدينةِ، يُصرَفُ رَيْعُهُ على مَنْ بالمدينةِ في المدرسةِ الشِّهابِيَّةِ مِنَ المالِكِيَّةِ والشافعيَّةِ.

---

(١) وحَمِيَ من الشيءِ، حَمِيَّةً: أَنِفَ. «القاموس المحيط»: حمي.

(٢) خوَّلَه: أعْطاهُ مُتَفَضِّلاً. «القاموس المحيط»: خول.

وإنَّما خَصَّ به الشِّهابِيَّةَ لأنَّها كانت مُسْتَقَرَّهُ، ولم يَكُنْ في وقتِهِ غيرُ هاتَينِ الطَّائِفَتَينِ، حتَّى جاءَ شمسُ الدِّينِ ابنُ العَجَمِيِّ(١) فَوَلَّفَ جماعةً مِنَ الطَّلَبَةِ الشَّافِعِيَّةِ، وأَمَرَهُم بالاشْتِغَالِ بِمَذْهَبِ أبي حنيفةَ، فأجابُوهُ إلى ذٰلك، وتَفَقَّهَ مِنْهُم جماعةٌ وصارُوا أَئِمَّةَ وَقْتِهِم، وانْتَفَعَ النَّاسُ بِعُلُومِهِم، وظهرَ مَذهَبُ أبي حنيفَةَ في المَدِينَةِ بِبَرَكَةِ هٰذا الرَّجُلِ وحُسْنِ نِيَّتِهِ، وكانَ ذٰلك في حُدُودِ ثلاثٍ وعشرينَ وسَبْعِمِئَةٍ.

فلمَّا وَصَلَتِ الوَصِيَّةُ على يَدِ ولدِ ابنِ سهلٍ وزيرِ الأندُلُسِ جرى فيه أحوالٌ وقصَّةٌ طويلَةٌ، وخرَجَ إلى آلِ منصورٍ(٢) مِنَ المدينةِ بِسَبَبِها؛ لأنَّ الأميرَ طُفيلاً أرادَ أنْ يأخُذَهُ كُلَّهُ، فكتبَ فيهِ القاضي شَرَفُ الدِّينِ الأُمْيُوطِيُّ إلى السُّلطانِ فَعَزَلَهُ في قِصَّةٍ تَشْتَمِلُ على غرائبَ [٥٤/ ب] لا يَسَعُ ذِكْرَها هٰذا المكانُ، ووَقَفَ على الفُقَهاءِ مِن ذٰلك المالِ الحديقَةَ المُسَمَّاةَ بغَشَاوَةَ(٣)، ووَقَفْتُ على الوَصِيَّةِ وقَرَأْتُها، وكانَ القَاضِي تقيُّ الدِّينِ الهُورِينِيُّ(٤) يَصْرِفُها على شرطِ الواقِفِ ولا يَتَخَصَّصُ مِنْهَا بِشَيءٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومنهم: **الشيخُ مُحيي الدِّينِ الحوْرَانِيُّ**(٥)، أقامَ بِمَكَّةَ مُدَّةً طويلةً، تَفَقَّهَ

(١) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٥١١٦) نقلاً عن المؤلِّف.

(٢) في الأصل سقطت «آل»، وأثبتناها من باقي النسخ.

(٣) غشاوة: بستان من بساتين قُربان جنوب المدينة. «المدينة بين الماضي والحاضر» ص٢٥٤.

(٤) هو: عبدالرحمٰن بن عبدالمؤمن، توفي سنة ٧٦٠هـ. «الدرر الكامنة» ٢/ ٣٣٤. وستأتي ترجمته.

(٥) يحيى بن زكريا، محيي الدين الحوراني، توفي سنة ٧٢٢هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٨٩ - وفيه: «الخُوَارِزْميّ» بدل «الحوراني» -، و«العقد الثمين» ٧/ ٤٣٥.

وحوران: إقليم من الشام يشمل معظم المناطق بين عمّان ودمشق. «معجم المعالم» ص٤٤.

بها، وأدرَكَ الحافِظَ مُحِبَّ الدِّينِ الطَّبَرِيَّ[١] الكبيرَ فتَفَقَّهَ عليهِ، ثُمَّ أقامَ بالمدينَةِ نحواً من عِشرينَ سَنَةً على اشتغالٍ بالعِلْمِ وتجرُّدٍ مِنَ الدُّنيا، وكانَتْ له خِزَانَةٌ عَظِيمةٌ مُشْتَمِلَةٌ على كُتُبٍ حَفِيلَةٍ، مثلِ «الرَّافعيِّ»[٢]، و«ابنِ الرِّفْعَةِ»[٣]، و«الرَّوضَةِ»[٤]، وغيرِ ذٰلك مِنَ الكُتُبِ المُنْتَقاةِ أَوْقَفَها كُلَّها، وجَعلَ مَقَرَّها بالمَدْرَسَةِ[٥] في خِزَانَتِها، وكانَتْ أمامَ بيتِهِ الَّذي هُوَ في الزَّاوِيَةِ المُلاصِقَةِ لإيوانِ الشَّافِعِيَّةِ، وكانَ يَظُنُّ أنَّ المدرسَةَ تكونُ أبداً عَلَى حالِها في أيَّامِهِ، فَشَرَطَ ألَّا تُغيَّرَ الخِزَانَةُ مِنْ مَوضِعِها، ولو رأى حالَها اليومَ ما قَيَّدَها بهٰذا الشَّرطِ.

ولمَّا خِيفَ عليها أَمَرَ القاضي بِحَمْلِها ووَضْعِها في خِزَانَةِ الكُتُبِ اليومَ، وهُو البيتُ الَّذي عَلَى بابِ المدرسةِ، أصلحَ اللهُ أمرَها، ورَدَّ إليها حالَها.

وكانَ الشيخُ مُحيِي الدِّينِ نائباً في الحكمِ عن القاضي سِراجِ الدِّينِ لَمَّا سافَرَ إلى مِصْرَ، فحكَمَ وعَدَلَ، ودرَّسَ فما قصَّرَ.

---

(١) أحمد بن عبدالله، شيخ الحرم، وحافظ الحجاز، من مؤلفاته: «الرياض النضرة في فضائل العشرة»، توفي سنة ٦٩٤هـ. «تذكرة الحفاظ» ٤/ ١٤٧٤، «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/ ١٨.

(٢) يُقصد به «فتح العزيز في شرح الوجيز» في الفقه الشافعي للإمام عبدالكريم الرافعي القزويني المتوفى سنة ٦٣٤هـ. وهو مطبوع.

(٣) المقصود «المطلب العالي شرح وسيط الغزالي» في ٢٠ مجلداً، وهو مخطوط. وابن الرفعة هو: أحمد بن محمد، ابن الرفعة الأنصاري، نجم الدِّين، أبو العباس المصري، الشافعي، تولى حسبة مصر القديمة، وتوفي سنة ٧١٠هـ. «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ١/ ١٢١.

(٤) «روضة الطالبين» في الفقه للإمام أبي زكريا يحيى النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ. مطبوع.

(٥) يعني: المدرسة الشهابية، تقدَّم التعريف بها ص ٢٠.

وكانَ والدِي رَحِمَهُ اللَّهُ [يحضُرُ](١) درسَ السِّراجِ، فلَمَّا سافرَ السِّراجُ قالَ مُحيي الدِّينِ الحورَانيُّ: لا يَحِلُّ لي ولا لَكَ أَنْ تحضُرَ مَعِي، وأنتَ قادِرٌ على القِيامِ بِشَرطِ الواقِفِ في تدرِيسِ جَماعَتِكَ والانفرادِ بِهِم في إيوانِهِم، فَتوَقَّفَ والدِي خوفَ فِتْنَةِ السِّرَاجِ، ولِمَا يعلَمُ من خُلُقِهِ وكراهِيَّتِهِ لهٰذا الأمرِ، فَعَزَمَ [٥٥/ أ] مُحيي الدِّينِ عَلَى والدِي وشَدَّدَ عليه.

فجَلَسَ والدِي في إيوانِنا(٢) اليومَ - وهو الإيوانُ الذي فيهِ الشُّبَّاكُ - ودرَّسَ والتَفَّتْ عليهِ الطائِفَةُ المالكيَّةُ وبعضُ الشَّافِعِيَّةِ، وكانَ طَلَبَةُ المالِكِيَّةِ أكثرَ من طَلَبَةِ الشَّافِعِيَّةِ، فلمَّا جاءَ السِّراجُ من البِلادِ عَزَّ عليهِ ما وَقَعَ وأنَّبَ الحورانِيَّ، وهَجَرَهُ وسَفَّهَ رأيَهُ، وقالَ له: فَتَحْتَ عليَّ باباً كنتُ قد سَدَدْتُهُ وحَسَمْتُ مَادَّتَهُ، واللهِ لا تَرَكْتُهُ حَتَّى أُغلِبَ عليهِم!

[ثُمَّ](٣) إِنَّهُ اجْتَمَعَ بِوالِدِي، وألانَ لهُ الكلامَ، وأَضْمَرَ له الخِدَاعَ، وقالَ له: مَنْ بَقِيَ عِنْدِي إذا انْعَزَلْتَ عَنِّي؟ ومَنْ يَفْهَمُ عَنِّي؟ ما كانَ [هٰذا](٤) فِيكَ ظَنِّي، الصحبةُ كانَتْ للهِ فلا تَقْطَعْها بِكلامِ أولادِكَ ولا بكلامِ غيرِهِم مِن حُسَّادِكَ.

فلمَّا كَثَّرَ عليه من هٰذا لانَ لهُ، وعزمَ على الحُضُورِ عندَهُ وتَركِ الدَّرسِ والتَّدرِيسِ، وكانَ مَعَ والدِي كما قال بعضُهُم:

---

(١) ما بين المعقوفتين من باقي النسخ.

(٢) الإوانُ والإيوانُ: الصُّفَّةُ العظيمة. «لسان العرب»: أون.

(٣) ما بين المعقوفتين من (أ) و(ب)، والسياق يقتضيها.

(٤) ما بين المعقوفتين من (أ) و(ب)، والسياق يقتضيها.

مَـنْ لي بِمَـنْ يَثـقُ الفُـؤادُ بِـوُدِّهِ(١) ... وإذا ترحَّـلَ لم يَـزِغْ عَـنْ عَهْـدِهِ
يـا بـؤسَ نفـسِي مـن أخٍ لي بـاذلٍ ... حُـسْنَ الوَفَـاءِ بِقُربِـهِ لا بُعْـدِهِ
يُولـي الـصَّفَاءَ بنُطْقِـهِ لا خُلْقِـهِ ... ويَدُسُّ صَاباً من حَلاوَةِ شَهدِهِ(٢)
لاهُـمَّ إنِّـي لا أُطيـقُ مِراسَـهُ ... بـل أستَعِيذُ مـن الحَسُودِ وكَيْدِهِ

وكانَ الشيخُ أبو عبدالله القَصْرِيُّ يومَئذٍ في المدينةِ، وكان يحضُرُ في الدَّرسِ على يمينِ والدِي، والشيخُ أبو عبدالله ابنُ حُرَيثٍ على يَسَارِه، فأغاظَهُما ذٰلك، وكَثَّرتُ أنَا عليهِما الشَّكوى.

فاجتمعَ الشَّيخُ أبو عبدالله القَصْرِيُّ بِوَالِدِي، وقال: لا سبيلَ إلى أنْ تَرْجِعَ إليهِ ولا يُخَلِّصُكَ [٥٥/ب] هٰذا مِنَ الله! وشَدَّدَ عليهِ وأقسَمَ عليهِ حتَّى رَجَعَ عن ذٰلك الرَّأي، فأصبَحَ في مجلِسِهِ معَ جماعَتِهِ، والسِّراجُ مُنْفَرِدٌ مَعَ أصحابِهِ.

فعاوَدَ الاجْتِمَاعَ بِهِ وكثَّرَ عليهِ، وقال لَهُ: ألم أَقُلْ لَكَ لا تَسْمَعْ مِنْ هٰؤلاء الذين يُريدونَ فُرقَتنا وذهابَ أُبَّهَتِنا، ما هٰذا مَلِيحٌ، والرَّأيُ أن لا تفعلَ وترجِعَ إلى مكانِكَ مَعِي، فأنا أعلَمُ أنَّكَ لا تُحِبُّ الفِتْنَةَ ولا الظُّهُورَ، وفي هٰذا الَّذي أنتَ فيهِ تجري أُمورٌ. ولم يزلْ بِهِ حتَّى رَجَعَ إليهِ، فرجعتُ إلى الشَّيخِ أبي عبدالله وعَرَّفْتُهُ بما يَفْعَلُ السِّراجُ مَعَهُ، فعاوَدَهُ الشَّيخُ وأقسَمَ عليهِ وشَدَّدَ عليهِ العَزِيمَةَ.

فقالَ له والدِي: أخشَى أَنْ يتعدَّى الحالُ إلى فُرْقَةٍ وعَصَبِيَّةٍ، فيَذْهَبَ

---

(١) في جميع النسخ: «من لي بمن يبق الفؤاد مودة». والمثبت من «تفسير القشيري» ١/ ٢٣٤.
(٢) الصاب: عصارة شجر مُرٍّ. «تاج العروس»: صبا.

نُورُ العِلْمِ وتفسُدَ النيَّةُ، وهٰذا اليومَ حاكِمٌ، وأنا مِنْ طَبْعِي وعادَتِي أنِّي لا أُناصِي[١] أَحَداً ولو كانَ لي وَلَداً.

فقالَ له: التَّركُ أسهَلُ عليكَ وعلينا، [و][٢] أسلَمُ لنا إذا عَجِزْنا.

فعادَ والدِي إلى عادَتِهِ من تدريسِ جماعَتِهِ وتَركَهُ، ولم يُعَاوِدْهُ، ولم يَجْتَمِعْ بِهِ، فساءَه ذٰلك واغْتَاظَ، وأمرَ القَيِّمَ أن يُخْرِجَ مَنْ بِالمَدْرَسَةِ مِن المالِكِيَّةِ، ولا يَفْرُشَ لهم، ولا يَتْرُكَهُم يَسْكُنونَ فيها حَتَّى يرجِعُوا عن رأيِهِم، ويحضُرُوا على عادَتِهِم مَعَهُ، فَتَرَكَ والدِي حِينَئِذٍ المدرَسَةَ والتَّدرِيسَ بها، واشْتَغَلَ بِنَفْسِهِ وبِحَالِهِ.

فقال لهُ الشَّيخُ أبو عبدالله: مَا هٰذا رأيٌ، اجْلِسْ للجَمَاعَةِ بِالمَسْجِدِ، وادْعُ للواقِفِ الَّذِي أَنْشَأَ المَدْرَسةَ، ولا تَقْطَعِ الجماعَةَ وإِفَادَتَهُم حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ بِما فيهِ الخيرُ [٥٦/ أ] لهم، فأطاعَهُ والدِي.

وأخرجَ النَّقِيبُ المالكيةَ مِنَ المدرسةِ، فكانَ منهُم مَنْ انتقَلَ إلى الرُّبُطِ، ومنهم مَنْ سَكَنَ بالكِرَا[٣]، ومنهم مَنْ طَلَبَ السَّفَرَ، ثُمَّ جَلَسَ والدي في المسجِدِ فاجتمَعَ عليهِ في المسجِدِ خَلْقٌ كثيرٌ.

وكان السِّرَاجُ يَمُرُّ على والدِي ويرى حَلَقَتَهُ وكَثْرَةَ جماعَتِهِ فَيَسُوؤُه ذٰلك، وخَشِيَ على نفسِهِ أنْ يُسمَعَ عنه أَنَّهُ أخرجَ الفُقَهاءَ مِنَ المدرسةِ لأجلِ الهَوَى، وتَعِبَ قلبُهُ لذٰلك.

---

(١) أي: لا أستقصي عليه. «لسان العرب»: نصص.

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) الكِراء: الأجرة. «القاموس»: كرا.

فجَمَعَ أصحابَهُ وقالَ لهم: يا أصحابَنا، هٰؤلاء الجماعةُ قُدناهُم إلينا بالسَّلاسِلِ فلم يَنْقَادُوا، وما يعودُ انفِرادُهُم في المسجِدِ علينا بِخَيرٍ، والرَّأيُ أن يَرجِعُوا إلى المدرسةِ، ونحنُ إلينا المرجِعُ في المعلومِ، فَنُعْطِيهِم ما نَشَاءُ، ونحكُمُ عليهِم ونضيِّقُ عليهِم، فلعَلَّهُم يرجِعُون إلينا.

وأرسلَ إلى والدي وقالَ لهُ: ارجِعُوا إلى مكانِكُم، وقومُوا بما يَجِبُ عليكُم، فَلِيَ النَّظَرُ والتَّفَقُّدُ على الطَّلَبَةِ.

فلم يَرْعَ كلامَهُ والدِي، ورَجَعَ ودرَّسَ على عادَتِهِ.

فلمَّا جاء وقتُ تَفرِقَةِ التَّمرِ الموقُوفِ على طَلَبَةِ العِلْمِ بالمَدْرَسَةِ مِنَ الوَقْفِ المُسَمَّى بالمُلَيكِيِّ والبُصَّةِ[1] أرسلَ إلى والدِي بِثَمانينَ صاعاً، وقالَ لهُ: فَرِّقْ على جماعَتِكَ، وأخذَ هو وجماعَتُهُ نحوَ المِئَتَي صاعٍ.

فشاوَرَ والدي فيهَا أصحابَهُ والشيخَ أبا عبدالله، فقالُوا: رُدَّها لا تأخُذْها، ولا تأخُذْ إلّا النِّصْفَ أو يَحْضُرَ كُتَّابُ الوَقْفِ، فَرَدُّوها.

فقالَ [٥٦/ ب] السِّرَاجُ: لا نَزِيدُكُم عليها، ولستُم مِثْلَنَا ولا اشتِغَالُكُم كاشْتِغَالِنَا، والحكمُ في ذٰلك لي، فإن كُنْتُم مُحَصِّلِينَ وفيكُم مُشْتَغِلُون فالمَوعِدُ بيني وبينكُم يومَ الخَميسِ عندَ القُبَّةِ حَتَّى أَخْتَبِرَ الجماعَةَ، وأعرِفَ أهلَ العِلْمِ من أهلِ الجهلِ.

---

(١) المليكي: بستان قبليَّ المسجد النبوي، وسمَّاه العيَّاشي: المالكي. «المدينة بين الماضي والحاضر» ص٣٩٠. والبصة: بئر أثرية قديمة في الجهة الجنوبية للمسجد النبويِّ الشريف، وهي قريبة من البقيع، واليوم أقيم على أرضها مبنى تجاري سكنيّ يُعرف بوقف البصة والنشير (مجمع الجزيرة). «المعالم الأثيرة» ص٤١، ٤٩.

فوافَقَهُ والِدي، وحضَرَ مَعَهُ عندَ القُبَّةِ وأَحْضَرَ الجماعَةَ، فأخذَ السَّرَاجُ يُوَبِّخُهُم ويُؤَنِّبُهُم ويقولُ لِكُلِّ واحدٍ: ما كِتَابُكَ؟ وما قرأتَ مِنْهُ؟ وما مَعكَ مِنَ الحاصِلِ؟ وما تَقُولُ في مسألَةِ كذا؟ ويتَعَنَّتُهُم[١].

وكانَ منهُم جماعةٌ مشتغلون، أحدُهُم الشّيخُ مُوسَى الجُزُوليُّ[٢]، فقالَ لهُ: هاتِ كتابَكَ فاعرِضْهُ عليَّ. فقالَ له: لستَ بِشَيخِي حتَّى أَعْرِضَهُ عليك، اسأَلْ عنِّي وعن عِلْمِي إذ جَهِلْتَنِي.

فقالَ لآخَرَ: ما كتابُكَ؟

فقال له: كتابي «الرِّسالَةُ»[٣]. فقالَ له: كتابُ الكُسَالى!

ثُمَّ قالَ لآخرَ: مَا كتابُكَ؟

فقالَ: «الجَلَّابُ»[٤]. فقالَ: هاتِ اعرِضْ وإلّا فأَعْرِضْ.

وقال لآخَرَ: ما كتابُكَ؟

فقالَ لهُ: «الطُّلَيطِلِيُّ»[٥]. فقالَ لهُ: أَنْحَسْتَ!

وكان الشيخُ أبو عبدالله القَصْريُّ في القِبْلَةِ يُقرِئُ القراءاتِ، فبَلَغَهُ خبرُهُ

---

(١) عَنَّتَه تَعْنيتاً: شَدَّدَ عليه وأَلْزَمَه ما يَصْعُبُ عليه أداؤه أو طالباً زَلَّتَه. «القاموس المحيط»: عنت.

(٢) أحد فضلاء المالكية. «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٣٤٧) نقلاً عن المؤلف.

(٣) «الرسالة» في الفقه المالكي، لابن أبي زيد القيرواني المتوفى سنة ٣٩٠هـ. طبعت عدَّة طبعات. «ترتيب المدارك» ٤/ ١٠، «شجرة النور الزكية» ١/ ٩٦.

(٤) «التفريع» في الفقه المالكي لابن الجلاّب، وهو: أبو القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن البصري، المتوفى سنة ٣٧٨هـ. «شجرة النور الزكية» ١/ ٢١٤.

(٥) «مختصر الطُّلَيْطِلي» في الفقه المالكي لأبي الحسن علي بن عيسى الطليطلي، مطبوع. والطليطلي: نسبة إلى طُليطلة بلدة بالأندلس، خرج منها جماعة من أهل العلم. «الأنساب» ٤/ ٧١.

وما عَمِلَ مَعَ الطَّلَبَة وتَهَكُّمُهُ بِهِم، فقامَ مِنْ مجلِسِهِ وقدْ امْتَلأَ غَيْظاً قدْ صارَ وجهُهُ مِثْلَ قِطْعَةِ السِّحرِ[(١)] مِنْ شِدَّةِ ما وَجَدَهُ، فَجَلَسَ قريباً منه، وقال: بَلَغَني أنَّكَ قُلْتَ في كتابِ «الرِّسالَةِ» كذا، وفيها مِنَ المسائِلِ كذا وكذا، وفيها من حديثِ الرسولِ ﷺ كذا، ومُصَنِّفُها الشّيخُ أبو محمَّدِ ابنُ أبي زيدٍ[(٢)] [٥٧/أ] كانَ من العُلَماءِ الأتقياءِ العامِلِينَ، ثُمَّ تَقُولُ في كتابِ «الطُّلَيطِلِيِّ» كذا، وكان مِنْ صفاتِ مُؤَلِّفِهِ كذا وكذا، ثمَّ تَتَسَلَّطُ عَلى طَلَبَةِ العِلْمِ وتُوَبِّخُهُم وتُهِينُهُم وتفعَلُ معهم وتَفْعَلُ! وكم لَكَ عندي من قَضِيَّةٍ وزَلَّةٍ، فعلتَ كذا في وقتِ كذا، وأمرتَ بِكَذا في وقتِ كذا.

فقالَ القَاضِي: اترُكْ هٰذا يا أبا عبدالله، واشتَغِلْ بِنَفْسِك.

ثُمَّ دَفَعَ الرَّمْلَ بِيَدِهِ في وجهِ الشيخِ غيرَ أَنَّهُ لم يَصِلْ إليهِ.

فقَعَدَ الشيخُ عَلَى رُكبَتَيهِ، وكسَاهُ بالرَّمْلِ حتَّى دَخَلَ في فَمِهِ، فجعلَ يقولُ له: لا تفعَلْ يا أبا عبدالله، لا تَفْعَلْ، لا تَفْعَلْ!

وقامَ إليهِ الظَّهيرُ شيخُ الخُدَّامِ[(٣)] وجماعتُهُم فقَبَّلُوا رأسَهُ وسألُوه الكَفَّ عنهُ والرُّجوعَ إلى مجلِسِهِ، فرَجَعَ إلى مكانِهِ، وانكَسرتْ شوكَةُ السِّرَاجِ بعدَ ذٰلك، وتَرَكَ الشَّرَّ، وزادَ الجماعةَ مِنَ التَّمرِ.

فلم يلبَثْ إلّا قليلاً إذ جاءَ الخبرُ أنَّ القاضِيَ فخرَ الدِّينِ ناظِرَ

---

(١) السِّحر: الرِّئة. أي: صار أحمر كالرئة. انظر: «القاموس المحيط»: سحر.

(٢) أبو محمَّد، عبدالله بن أبي زيد، القيرواني المالكي، الإمام العلامة القدوة الفقيه، عالم أهل المغرب، ويقال له: مالك الصغير، ورحل إليه من الأقطار ونجب أصحابه، وكثر الآخذون عنه، توفي سنة ٣٨٦هـ. «سير أعلام النبلاء» ١٧/ ١٠، «الديباج المذهب» ١/ ٤٢٧-٤٣٠.

(٣) المقصود: شيخ الخدام ظهير الدِّينِ مختار الأشرفي المتقدِّم ذكره ص٨٨.

الحرمينِ[١] يُريدُ الحجَّ، فخافَ السِّراجُ عَلَى نفسِهِ، وخَشِي أن يَشْكُوَ عليهِ الشَّيخُ.

فلمَّا قَدِمَ الفخرُ المدينةَ رأيتُ الفخرَ يدورُ المسجِدَ يطلبُ الشيخَ أبا عبدالله القَصْرِيَّ، والسِّراجُ خلفَهُ يطلبُ الاجتماعَ بالفخرِ وهُوَ لا يَلْتَفِتُ إليهِ، فلم يذكُرْ الشَّيخُ لهُ شيئاً مِمَّا وَقَعَ بينَهُ وبينَهُ ولا بينَنَا وبينَهُ حتَّى سافرَ.

ومِنْ يَومِئذٍ استَمَرَّ حالُ المالِكيَّةِ، وظهرَ أمرُهُم وقَوِيَ مَذْهَبُهُم، وكَثُرتْ جماعَتُهم وأولادُهُم، فقَرَأُوا الكُتُبَ المُطَوَّلَةَ، وفَقُهُوا بِبَرَكَةِ والدِي والشيخِ أبي عبدالله القَصْرِيِّ رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

ثُمَّ تُوُفِّيَ والدي عامَ اثنين [٥٧/ ب] وعشرينَ وسَبْعِمِئَةٍ، فتَعَطَّلَتْ المدارِسُ واستبشَرَ المراوِشُ[٢]، وزَعَمُوا ألّا تقومَ بعدَ والدي للمالِكيَّةِ رايَةٌ، ولو عَلِمُوا ما في الغيبِ ما عَمِلُوا، فلم تَكُنْ إلّا سَنَةٌ واحِدَةٌ حتَّى جاءَنِي البَشِيرُ بالتَّوقِيعِ والمَراسِيم، فأرادَ السِّراجُ ومَنْ مَعَهُ من الأعوانِ الكلامَ في ذٰلك، فخافَ على مَنْصِبِهِ ورجعَ على عَقِبِهِ، واستَقْلَلتُ بِبَرَكَةِ هٰذا النَّبيِّ الكريمِ ﷺ.

وكانَ لي في ظهورِ مذهبِ مالكٍ ونشرِهِ بِالمدينةِ عَمَلٌ عَظِيمٌ، أرجُو به مِنَ الله تَعَالى الثوابَ الجسيمَ، والنَّعيمَ المُقيمَ، فإنَّهُ لم يكُنْ لهُ ظُهورٌ مِن قَبْلِ ذٰلكَ بسنين، فالحمدُ لله عَلَى مَا أعطى ومَنَعَ، وضَيَّقَ ووَسَّعَ.

---

(١) لعله: القاضي فخر الدين ناظر الجيش المتقدِّم ذِكرُه ص١٢٧.

(٢) أي: الأشرار. «لسان العرب»: مرش.

ولو أذكرُ لكَ مَا قاسيتُ في ذٰلكَ وبعدَهُ مِن أهلِ الشَّرِّ والحَسَدِ والبَغْيِ لوقفتَ على صبرٍ عظيمٍ، وعَلَى خَطْبٍ جَسيمٍ، وعذابٍ أليمٍ، من سوادٍ خَلَفٍ لئيمٍ، أعوذُ باللهِ مِنْ أمثالِهم ومِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ.

أَخَذُوني تارةً بالخدَعِ والمَلَقِ[١]، وتارةً يُجاهِرونَ فأعوذُ بربِّ الفَلَقِ، ومَا أحسنَ مَا قيلَ في مثلِهم:

إنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَكْشِرُ لي ... حينَ يَلْقاني وإِنْ غبْتُ شَتَم
ويُحَيِّيني إِذَا لاقَيْتُهُ ... فإذا يخلُو لَهُ لحمِي كَدَمْ[٢]

ولكنْ تَخَلَّلَ ذٰلك مِنَ اللُّطفِ ما يَجلُّ عن الوَصْفِ، والنَّصرُ مَعَ الصَّبرِ، ومَا أشبَهَ حالي معهُم بِقَولِ القائلِ:

ألا إنَّ إخْواني الَّذِينَ عهدتُهُمْ ... أفاعي رمالٍ لا تُقَصِّرُ عَن لَسْعِي
[٥٨/أ] ظننتُ بِهِمْ خيراً فلمَّا بَلَوتُهُمْ ... حللتُ بِوادٍ مِنهُمُ غيرِ ذي زَرْعِ

نسألُ اللهَ الكريمَ أن يَقِيَنا شرورَ أنْفُسِنا وكيدَ الحُسَّادِ، ويرزُقَنا الاستعدادَ لِيَومِ الميعادِ بِفَضْلِهِ وإِحسانِهِ.

وكانتْ وفاةُ الشَّيخِ مُحيِي الدِّينِ الحورانيِّ بعدَ وفاةِ والدِي بِثَلاثَةِ أيَّامٍ، وكانَ قد ابتُلِي بالبَوَاسِيرِ والعِياذُ باللهِ، فَصَبرَ حَتَّى جاءَهُ اليَقِينُ، ودُفِنَ بِالبَقِيعِ إلى جَنْبِ والدِي رَحِمَهُما اللهُ تعالى.

ومِنَ العُلَماءِ الَّذين كانُوا في المدرَسَةِ الشِّهابيَّةِ: الشَّيخُ نُورُ الدِّينِ حَسَنُ

---

(١) المَلَق: الوُدُّ واللُّطفُ، وأنْ تُعْطِيَ باللسانِ ما ليسَ في القَلْبِ. «القاموس المحيط»: ملق.

(٢) كدم: عضَّ. «لسان العرب»: كدم.

الأُسوانِيُّ[١] أخو الشيخ شَرَفِ الدِّينِ الزُّبيرِ الأُسوانِيِّ، رَحِمَهُما الله تعالى، كانَ من العُلَماءِ المُتَقَشِّفِينَ المُتَخَيِّلِينَ[٢].

كانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا خرجَ من بيتِهِ يَقِفُ ساعَةً يُعوِّذُ بابَهُ ويحوِّطُ[٣] عليه، يظُنُّ أنَّه يُخلَفُ على بيتِهِ، فإذا رَجَعَ إلى بيتِهِ تخيَّلَ أنَّهُ كُلَّهُ تَحوَّلَ وتَغيَّرَ، فَيدعو على مَنْ فَعَلَ ذلك، ومَا ثَمَّ غيرُ الخَيَالِ!

وكان على بابِ بيتِهِ وَرَقَةٌ طَويلَةٌ عريضَةٌ فيها مِنَ التَّعاويذِ والأقسامِ وعزائِم الجانِّ أنواعٌ[٤]، وهٰذا كُلُّه مع الصَّلاحِ الكَثير، والانقطاعِ العظيمِ.

وكان يَتَّهِمُ الشَّيخَ مُحيِيَ الدِّينِ الحورانِيَّ بأَنَّهُ سَحَرَهُ في كتُبِهِ وفي قِدْرَتِهِ!

قال لي يوماً: بينما قِدْرَتي على النَّارِ إذ صارَ أسفَلُها مثلَ الغِربال، ينزِلُ منهُ المَرَقُ نُزُولَ المَطَرِ، فَعَلِمْتُ أنَّها مَسْحُورَةٌ، فقرَأْتُ عَلَيها كَذا وكَذا، فزَالَ ذٰلك عَنهَا.

وكانَ إذا أعارَهُ أحدٌ كتاباً ثُمَّ جاءَهُ يطلُبُه منهُ يدخُلُ بيتَهُ فيدُوِّرُ عليه ثُمَّ يخرُجُ ويقولُ [٥٨/ب] لهُ: كتابُكَ أُخِذَ مِن بَيتِي السَّاعَةَ، ولٰكنَّهُم سَيَرُدُّونَهُ إليَّ عن قريبٍ؛ لأنَّ هٰذِه عادَتَهم مَعِي فيه.

فيذهَبُ صاحِبُ الكتابِ وهُوَ مُشَوَّشُ الخاطِرِ، ثُمَّ يرجِعُ إليه فيجدُ كتابَهُ فيقولُ: هٰذا كتابُكَ رَدُّوهُ إليَّ.

---

(١) الحسن بن علي بن سيد الكل، العز الأسواني. انظر «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٠٩.

(٢) التَّخييلُ: تَصوِيرُ خَيالِ الشيءِ في النَّفْس، والظَّنُّ. «لسان العرب»: خيل.

(٣) أي يُعوِّذه، ويقرأ عليه، ويحفظه ويصونه. «لسان العرب»: حوط.

(٤) لا يُشرع تعليق مثل هٰذه التعاويذ، والمشروع ذكر الله عَزَّوَجَلَّ كما ورد باللسان في كلِّ الأحيان.

وكانَ متعبِّداً مُتَحَرِّزاً[١]، كثيرَ الصَّدَقَةِ، جرى لهُ مَعَ السِّرَاجِ حكايةٌ اختصارُها أنَّهُ قالَ للسِّراجِ: عَمِلْتُ قَصِيدةً ذكرتُ فيها من صفاتِ النبيِّ ﷺ ما لم يذكُرْهُ غيري.

فقالَ لهُ: هاتِ منها. فذكرَ أبياتاً، منها:

*** فبِوَطْئِهِ صارَ التُّرابُ طَهُورا ***

فقال السِّراجُ عندَ ذلك: كَذَبَ مَنْ قالَ هذا!

فأخَذَ عليه وهجرَهُ، وبعثَ إلى القاهِرَةِ يَسْتَفْتِي فيما يَجِبُ في ذلك عليه، ومَكَثَ أياماً كثيرةً لا يُصَلِّي خلفَهُ، ويترُكُهُ حَتَّى يقيمَ الصَّلاةَ ويدخُلَ السِّراجُ في المحرابِ في العشاءِ الآخِرَةِ، فيتقَدَّمُ إلى الشَّمْعَةِ فيَقِدُ منها شَمْعَتَه والإمامُ يُصَلِّي ورُبَّما رَكَعَ وهو قائمٌ يُحسِنُ الطوافَةَ ويفتِلُ[٢] رأسَها حَتَّى أنكرَ النَّاسُ فِعْلَهُ، والسِّراجُ يَتَغَافَلُ عنهُ ويكرَهُ شَرَّهُ؛ لأَنَّهُ كانَ لَهُ بالقاهِرَةِ أهلٌ وقرابةٌ أجلُّهُم الشَّيخُ حُسينٌ الأُسْوانيُّ[٣] أخوهُ علّامَةُ القاهِرَةِ في وقتِهِ، وولدُهُ أيضاً مِنَ المُتَفَنِّنِينَ المُتْقِنِينَ.

ولم يرجِعْ الشَّيخُ حَسَنٌ عن فعلِهِ حَتَّى قامَ عليهِ النَّكِيرُ، واجتَمَعَ عليهِ النَّاسُ الصَّغيرُ والكبيرُ.

---

(١) أي: متأَهِّبًا، شديد الحذر. «لسان العرب» حذر.

(٢) الفَتيلُ: حَبْلٌ دقيقٌ من ليفٍ، وفَتَلَهُ يَفْتِلُهُ: لَواهُ. «القاموس المحيط»: فتل.

(٣) الحسين بن علي بن سيد الكل الأسواني، نجم الدين، الفقيه الشافعي، توفي بالقاهرة. انظر: «الدرر الكامنة» ٢/ ١٧٦.

وأخبرني أَنَّهُ لمَّا [٥٩/أ] انتقلَ مِنَ المدرسةِ ومُنِعَ مِنَ الجامِكِيَّةِ[(١)] - وكانتِ الجامِكِيَّةُ يومَئِذٍ لها صُورَةٌ - لَقِيَهُ رَجلٌ فأعطاهُ صُرَّةً[(٢)]، فيها القَدْرُ الذي كانَ يُدْفَعُ إليهِ في المدرسةِ، ولم يعرِفْهُ ولا درى مَنْ هُوَ.

وكانَ أخوهُ **شَرَفُ الدِّينِ الزُّبيرِيُّ** مثلَهُ في الصَّلاحِ والدِّينِ وسلامَةِ الباطِنِ، وكانَ إماماً في علمِ القراءاتِ، وانتَفَعَ النَّاسُ بهِ، وكان يُسْمَعُ عليهِ الحديثُ، سمِعْنا عليه «الشِّفاءَ»[(٣)] للقاضِي عياضٍ، و«دلائِلَ النُّبُوَّةِ»[(٤)] للبيهقيِّ معَ سِراجِ الدِّينِ الدَّمَنْهُورِيِّ رَحِمَهُمُٱللَّهُ، وغيرَ ذٰلك.

وكان فَقِيهاً شافِعِيًّا، من أعظَمِ النَّاسِ دِيانةً وعِفَّةً معَ كَثْرَةِ عِيالٍ، وكان يُصَلِّي في الرَّوضَةِ إلى جَنْبِ المِنبَرِ، ويَعِزُّ عليهِ إذا رأى أحَداً في موضعِهِ، لِكَثْرَةِ مُلازَمَتِهِ، وكان مُتَصَدِّياً للإِقْرَاءِ، وظَهَرَ في آخِرِ عُمْرِهِ رحمةُ الله عليهِ.

وحكى لي مَنْ أَثِقُ بِهِ أَنَّهُ جاءَ كِتابٌ من مَكَّةَ إلى شمسِ الدِّينِ صَوابٍ المُغِيثِيّ بأنْ يُعْطِيَ لشَرَفِ الدِّينِ الزُّبيرِ مِئَةَ دِرهم، ولم يَعْلَمْ بما في الكتابِ أحدٌ، فحَصَلَ عندَ الطَّواشِيِّ من المِئَةِ خَمْسُونَ دِرهماً، فأرسلَها معَ جمالِ الدِّينِ المَطَرِيِّ إليهِ، وكانَ المَطَرِيُّ يفرَحُ بِخِدْمَةِ الصَّالِحِينَ وإدخالِ المَسَرَّةِ عليهم، فجاءَهُ بالخَمسِينَ.

فقال له الزُّبيرُ: بَقِيَ لي عندَكَ خمسونَ دِرهماً.

---

(١) الجامكية: الراتب. «معجم الألفاظ التاريخية» ص٥١.

(٢) الصُّرَّةُ: ما توضع فيه الدَّراهم والدنانير من قماش وغيره. انظر «تاج العروس»: صرر.

(٣) «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض إمام أهل الحديث بالمغرب، ت ٥٤٤هـ.

(٤) «دلائِلَ النُّبُوَّةِ» للبيهقيِّ المتوفى سنة ٤٥٨هـ. مطبوع.

فقال له: مِنْ أينَ؟ ما أُعطيتُ إلّا هٰذه.

فقالَ لهُ: رُدَّها! مَا هي إلّا مِئَةٌ.

فاشتَدَّ ذٰلك على جمالِ الدِّينِ وحَنِقَ عليه، وجاءَ إلى المُغيثِيِّ وحكى لهُ مَا جَرَى لهُ، وقالَ لهُ: ما أتيتَنِي بخيرٍ، اتَّهَمَنِي وردَّها عليَّ!

فقال له الطَّواشِيُّ: صَدَقَ [٥٩/ ب] الشَّيخُ، كانتَ مِئَةَ دِرهمٍ، تيَسَّرَ نصفُها، فأردتُ أن يُعَجَّلَ لهُ لِيَنْتَفِعَ بِهِ حتَّى يحصلَ الباقِي.

فرجعَ جمالُ الدِّينِ إلى الشَّيخِ وأخبرَهُ، وقال: ألم أَقُلْ لَكَ؟

فقالَ لهُ: فَمِنْ أينَ عرفتَ أنَّها مِئَةٌ؟

فقال: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ في النوم، فشكوتُ إليه حالي[1] وفاقَتِي، فأعطاني مِئَةً، فلمَّا أعطيتَنِي خمسينَ عَلِمْتُ أنَّ الرُّؤيا حَقٌّ، فطلبْتُ الباقِي، فلا تَلُمْنِي.

وذكرَ لي أَنَّهُ كانَ يوماً على فَاقَةٍ، فرأى النَّبيَّ ﷺ أعطاهُ سِتَّةَ عشَرَ دِرهماً، وقالَ لهُ: خُذْ هٰذه فأَنْفِقْها، والأمرُ أقرَبُ مِن ذٰلك.

قالَ: فانْتَظَرتُ شيئاً فَلَمْ يأتِنِي شيءٌ، فلَمَّا صَلَّيتُ صلاةَ الظُّهرِ صَلَّى إلى جَنْبِيَ الشَّيخُ أبو بكرٍ الشِّيرازِيُّ[2]، فجعلَ تحتَ سجَّادَتِي شيئاً ثُمَّ مَضَى، وكانَ التَّعامُلُ يَومَئِذٍ بينَ النَّاسِ بالعَلَوِيَّة، وهي قُطَيعَاتُ فِضَّةٍ مَسْكُوكَةٍ بِاسْمِ صاحِبِ المَدِينَةِ، كُلُّ واحِدٍ صرفُهُ سُدسُ دِرهم، ولم يَكُنْ يومَئذٍ فُلُوسٌ.

(١) هٰذه رؤيا منامية، أمَّا في اليقظة فلا تحلّ الشكوى إلى رسول الله ﷺ أو غيره من الأنبياء أو الأولياء من الأموات، إذ الواجب الاستعانة والاستغاثة واللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

(٢) «المغانم» ٣/ ١١٦٧، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٨٢٤) نقلاً عن المؤلف.

قالَ: فكشفتُ السّجَّادةَ فوجدْتُ عَلَوِيَّةً صرفُها ذٰلك العَدَدُ، أعني: السِّتَّةَ عَشَرَ الَّتِي أعطانِيها رسولُ الله ﷺ، فَحَمِدْتُ الله وقلتُ: الأمرُ أَيْسَرُ مِن ذٰلك، فما فَرَغتُ حتَّى فتحَ الله تعالى بِغَيرِها.

وكان بيتُهُم بيتَ صَلاحٍ وخَيرٍ وعِلْمٍ، رَحِمَهُمُ الله أجمعينَ.

وكان لَهُ وَلَدَان، أحدُهما: الفَقِيهُ العالِمُ المُتَفَنِّنُ بدرُ الدِّينِ عبدالله(١)، وشمسُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ(٢).

فأمَّا مُحَمَّدٌ فأقامَ بِمِصْرَ.

وأمَّا عبدالله فأقامَ عندَ [٦٠/أ] والدِه، وساعَدَهُ على وقتِهِ، وكانَ مشتَغِلاً بالعِلْمِ مُشارِكاً في فُنُونٍ، ولما تُوُفِّيَ والِدُهُ في سنةِ سبعٍ أو ثمانٍ وأربعينَ ضَمَّ شَمْلَ عِيالِ والِدِه، وأضافَهُم إلى عيالِهِ، وارتكَبَ بِسَبَبِ كَثْرتِهِم وقِلَّةِ شَفقَتِهِم عليهِ ديوناً عظيمةً.

وفي السَّنةِ الَّتِي تُوفِّيَ فيها وهي سَنَةُ اثنتينِ وسِتِّينَ وسبعِمِئةٍ عَزَمَ على السَّفَرِ إلى مِصْرَ لأجلِ ثِقَلِ دينِهِ، فَمَرِضَ قبلَ السَّفَرِ بيومٍ، فَبَطَلَ واتَّكَلَ في قضاءِ دينِهِ على الله، فَمَرِضَ أياماً يَسيرةً، ثُمَّ تُوُفِّيَ رحمهُ الله تعالى، فَحُسِبَ مَا عليهِ مِنَ الدَّينِ فكانَ ثمانيةَ آلافِ دِرهمٍ وكَسْرٍ، فأشْفَقَ النَّاسُ عليهِ؛ لِتَعَلُّقِ ذِمَّتِهِ بهٰذا المبلَغِ وكونِهِ لم يُخَلِّفْ ما يُقضَى منهُ دينُهُ ولا رُبْعَ دَينه.

(١) عبدالله بن الزبير بن علي بن سيد الكل الأسواني. انظر: «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٦٠، «التحفة اللطيفة» ٣/ ٤٩٤.

(٢) محمد بن الزبير بن علي بن سيد الكل الأسواني. انظر: «التحفة اللطيفة» ٦/ ١٥٢.

وكانَ في المدينةِ رَجُلٌ يُقالُ له: الشَّيخُ أبو بكرِ بنُ قِرنيعٍ[(١)] مِنْ تُجَّارِ اليَمَنِ من ذَوِي المعرُوفِ، فقالَ: أنا أَتَكَفَّلُ بِقَضَاءِ دَينِهِ، ولم تكنْ بينَهُ وبينَهُ خُلْطَةٌ تُوجِبُ شيئاً من ذٰلك، فَصالح عنه جميعَ الغُرَماءِ وأرضَاهُم.

وأخبرَنا شمسُ الدِّينِ العَلامَةُ الخُوارَزْمِيُّ[(٢)] - وكان عندَنا مُجَاوِراً - أَنَّهُ رأى النَّبيَّ ﷺ في النَّومِ وقدْ جَمَعَ غُرَماءَ عبدالله وهُوَ يَتَعَطَّفُهُم، ويأمُرُهم بالإسقاطِ عنهُ والصَّبرِ عليهِ، وابنُ الزُّبير حاضِرٌ بينَ يديهِ، والجماعَةُ يُجيبونَ النَّبيَّ ﷺ إلى ما سألَهم، وهو مَسْرُورٌ بذٰلك مِنْهم، فَصَحَّتِ الرُّؤيا وظهرَتْ عِنَايَتُهُ [٦٠/ ب] ﷺ بعبدالله بنِ الزُّبيرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكان برِباطِ الأصبَهانيِّ[(٣)] جماعةٌ، أوَّلُهم وأولاهُم بالذِّكرِ الحَبرُ الكبيرُ، والسيِّدُ الشَّهيرُ، ذُو العُلومِ المتعددةِ والمقاماتِ الرَّبَّانيةِ، والكراماتِ الإلهيةِ عِزُّ الدِّينِ **يُوسُفُ بنُ الحَسَنِ الزَّرَنْدِيُّ**[(٤)] المُحَدِّثُ.

سَكَنَ رِباطَ الأصبهانيِّ فَعَمَرَهُ، وردَّهُ إلى أهلِهِ على شرطِ واقِفِه، بعد أن

---

(١) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٨٠٧) نقلاً عن المؤلف.

(٢) محمد بن محمد بن علي علاء الصالحي، شمس الدين الخوارزمي. «التحفة اللطيفة» ترجمة (٣٩١٤) نقلاً عن المؤلف.

(٣) رباط الأصبهاني (الأصفهاني) نسبةً إلى الوزير نور الدين زنكي، أبو جعفر محمد بن أبي منصور، الملقب جمال الدِّين، المعروف بالجواد الأصفهاني، له أعمال كثيرة في مكة والمدينة. «تحقيق النصرة» ص٧٦، «وفاء الوفا» ٣/ ٩.

(٤) يوسف بن الحسن بن محمد بن محمود بن الحسن الأنصاري، عز الدين أبو المظفر الزرندي، ولد سنة ٦٦٤هـ، وكان عدلاً فاضلاً وعابداً، مات سنة ٧١٢هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ٤٥٢. «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٧١٠).

كانَ منزِلاً للنِّساءِ والفِتيانِ، وكانَ شَيخَ الرُّبُطِ كُلِّها يَتَفَقَّدُها ويَعْمُرُها، سَكَنَ في حُجْرَةِ الرِّباطِ، فما كانَ يُعرَفُ الرِّباطُ إلّا بِهِ.

أخبرَتْني جَدَّتي أنها كانتْ ساكنةً فيه معَ بَنَاتِها وجماعَةِ أهلِها، وكانَ الرِّباطُ قدْ اسودَّ وتغيَّرَ بالدُّخانِ والوَقيدِ[1] فيه، حتَّى قامَ بِهِ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فَعَمَرَهُ وأخرجَ منه النِّساءَ وغيرَهم، وفيهِ وُلِدَ أولادُهُ، فلم يزلْ فيهِ حتَّى كَثُرَ عِيالُهُ وانتشر أتباعُهُ فانتَقَلَ عنهُ.

وكانَ الشَّيخُ عِزُّ الدِّينِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدْ لَزِمَ قراءَةَ «البُخَاريِّ» في الرَّوضَةِ المُشَرَّفَةِ، فيختِمُهُ في كُلِّ جُمُعَةٍ، وأُخْبِرتُ[2] أنَّهُ خَتَمَهُ في ثلاثَةِ أيَّامٍ؛ لأنَّهُ صارَ على قلبِهِ وطَرَفِ لِسَانِهِ، يؤدِّيهِ بِفَصَاحَةٍ ومَعْرِفةٍ لا يَمَلُّ سامِعُهُ قِرَاءَتَهُ، ومَنْ غَابَ أعادَ لهُ مَا فاتَ.

وكانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَسَنَ الأخلاقِ، جميلَ المُعَاشَرَةِ، غيرَ مُهْتَمٍّ بِأُمُورِ الدُّنيا، مُقْبِلاً على شأنِهِ وعِبَادَتِهِ، ومَنَاقِبُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرةٌ [٦١/أ] لا يَسَعُ ذكرُها هٰذهِ العُجَالَةَ.

تُوُفِّيَ بِطَرِيقِ العِراقِ ذاهباً في سنةِ اثْنَتَي عشرةَ وسبعِمِئَةٍ، وأحيى ذِكْرَهُ أولادُهُ النُّجَبَاءُ الفُقَهَاءُ الأَئِمَّةُ الأعلامُ: شمسُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ[3]،

---

(١) أي: الوقود، وإشعال النار. «المعجم الوسيط»: وقد.

(٢) في (أ): «وأخبرني».

(٣) محمد بن يوسف بن الحسن الزرندي الحنفي، رأس بعد أبيه بالمدينة، تولى قضاء شيراز إلى أن توفي بها سنة ٧٥٣هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ٢٩٥، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٠٤٥) نقلاً عن المؤلف.

وشِهَابُ الدِّينُ أحمدُ[(١)]، ونورُ الدِّينِ عليٌّ[(٢)].

وأكبرُهُم أخُونا في الله: شمسُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كنتُ مَعَهُ كالأخَوينِ المُتَراضِعَينِ.

رَأَسَ في المدينةِ، وصَنَّفَ الكُتُبَ العَديدةَ[(٣)]، ودرَّسَ في الحديثِ والفقهِ، ثُمَّ ارتحلَ إلى شيرازَ[(٤)] بنِيَّةِ العَودِ إلى المدينةِ، فَوَلِيَ بها القضاءَ، وكانَ فيها عَلَماً يُشارُ إليه.

تُوُفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنةَ سبعٍ أو ثمانٍ وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ، وخلَّفَ ذُرِّيةً صالحةً وأولاداً نجباءَ مُشتَغِلِينَ بالعِلم؛ أكبرُهم: سِراجُ الدِّينِ عبداللَّطيفِ[(٥)]، اشتَغَلَ وحَصَّلَ في شَبيبَتِهِ، ورَأَسَ بينَ أقرانِهِ، [كان][(٦)] ذا عِفَّةٍ ودِيانَةٍ وصِيانَةٍ، ورُزِقَ أولاداً مُبَارَكِينَ مُشْتَغِلِينَ بالعِلم.

---

(١) أحمد بن يوسف بن الحسن، الشهاب، أبو العباس ابن العز الأنصاري الزرندي المدني، الصوفي، توفي سنة ٧٤٩هـ. «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٦٠.

(٢) علي بن يوسف بن الحسين، القاضي نور الدين أبو الحسن بن العز أبي المظفر الأنصاري الزرندي الحنفي، ولد بالمدينة سنة ٧٠٣هـ، وكان سيفاً لأهل السنة، قامعاً البدعة، وهو أول قُضاة الحنفية بالمدينة، توفي سنة ٧٧٢هـ. «التحفة اللطيفة» ٥/ ١٩٤.

(٣) منها ما ذكره السَّخاوي في «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٠٤٥): «درر السمطين في مناقب السبطين»، «بغية المرتاح» جمع فيها أربعينَ حديثاً بأسانيدها وشرحها. وذكرها صاحب «كشف الظنون» ١/ ٧٤٧، و٢٥٠.

(٤) شِيرَازُ: كانت عاصمة بلاد فارس، تقع في الجنوب الشرقي من إيران. «معجم المعالم» ٢/ ١٠٠.

(٥) عبداللطيف بن محمد بن يوسف السراج، أبو أحمد ابن الإمام الشمس أبي عبدالله ابن العز، الأنصاري، الزرندي، ولد بالمدينة ومات سنة ٧١٧هـ. «الدرر الكامنة» ٢/ ٤١١، «التحفة اللطيفة» ٤/ ٤٣٣.

(٦) سقطت من الأصل.

وأمَّا أخوه مجدُ الدِّينِ[(١)] فكانَ مُشْتَغِلاً بالعِلْم، ثُمَّ سافرَ إلى الهِندِ فرَأس فيها رِئاسةً عظيمةً، وأقبلَ عليهِ سُلطَانُ الهندِ، وأنعَمَ عليهِ، واعتَمَدَ عليهِ في مُهِمَّاتِهِ، وهو الآنَ عندَهُ في محَلٍّ رَفيعٍ وجاهٍ وَسيعٍ، وفَّقَهُ اللهُ لما يُرضِيهِ.

وأمَّا شهابُ الدِّينِ أحمدُ، وَلَدُ الشَّيخِ عِزِّ الدِّينِ فكانَ ذا عَقْلٍ ورِئَاسَةٍ ودِينٍ عظيمٍ، معَ سِياسَةِ الإخوانِ والأحبابِ، ورُزِقَ وَلَدينِ نَجِيبَينِ.

أحدُهما: عبدُالله[(٢)]، والآخرُ: محُمَّدٌ[(٣)].

فأمَّا عبدالله فحَوَى كُلَّ العُلُوم المُتَدَاوَلَةِ بينَ النَّاسِ، وحَفِظَ اثْنَي عَشَر كِتاباً في فُنونٍ [٦١/ ب] مُتعَدِّدَةٍ، سافرَ بهِ والِدُهُ إلى دِمَشْقَ، فرَأَسَ وبَرَعَ واشْتَهَرَ، ووَلِيَ الوَظَائِفَ الجَلِيلَةَ.

ثُمَّ ماتا في الطَّاعُونِ رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، وذٰلك في سنَةِ تسعٍ وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ.

وأمَّا محمَّدٌ فتَصَوَّفَ وسَلَكَ طَرِيقَ القَومِ، مَعَ الاشْتِغَالِ بالعِلْمِ ولا سِيَّما علمَ الفرائِضِ، وسافرَ [إلى][(٤)] العراقِ ومِصْرَ والشَّام، وهو على طَرِيقَةٍ حَسَنةٍ وهِمَّةٍ عَلِيَّةٍ، نَفعَ اللهُ به.

وبَقِي من أولادِ الشَّيخِ عِزِّ الدِّينِ ثالثُهُم القاضي نورُ الدِّينِ عليٌّ، صانَهُ الله؛ حازَ مِنَ العُلُوم ما لم يَحُزْهُ أَخواهُ، فانْفَرَدَ اليومَ بِعلِم اللُّغَةِ وعلمِ الحديثِ

---

(١) مجد الدين ابن محمد بن يوسف الزرندي. «التحفة اللطيفة» ترجمة (٣٨٩٢) نقلاً عن المؤلف.

(٢) عبدالله بن أحمد بن يوسف بن الحسن، الجلال، أبو اليمن الزرندي الشافعي. «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٤٧، «التحفة اللطيفة» ٣/ ٤٣٧.

(٣) محمد بن أحمد بن يوسف بن الحسن، الشمس أبو الخير الزرندي. «الدرر الكامنة» ٣/ ٣٧٢، «التحفة اللطيفة» ٦/ ٤٩.

(٤) ما بين المعقوفتين زيادة يقتضيها السياق.

والرِّجالِ، ووَلِيَ الحُكْمَ والحِسْبَةَ بِتَوقِيعٍ شريفٍ من غيرِ سَعْيٍ ولا طَلَبٍ، بل ساقَها اللهُ إليهِ لما عَلِمَ مِنْ حاجَةِ الخَلْقِ إليهِ، فقامَ بها أحسَنَ قِيامٍ، ونرجُو لهُ مِنَ اللهِ الزِّيادَةَ والتَّمامَ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ لأهْلِ السُّنَّةِ، دَامِغٌ للبِدْعَةِ والمَضَلَّةِ، وقُرِئَ مَرسُومَاهُ بالوَظِيفَتَيْنِ في يومٍ واحدٍ على دَكَّةِ المُؤَذِّنِينَ بعدَ صَلاةِ الجُمُعَةِ، وذٰلك أوَّلَ سنةِ سبعٍ وسِتِّينَ وسبعِمِئَةٍ، ولهُ التَّصانيفُ الحَسَنَةُ[١] والدُّروسُ المُفِيدَةُ، مَتَّعَ اللهُ المُسلِمِينَ بِبَقَائِهِ.

ثُمَّ سَكَنَ الحُجْرَةَ المُتَقَدِّمَ ذِكْرُها بَعْدَ الشَّيخِ عِزِّ الدِّينِ: الشَّيخُ العالِمُ الوَرِعُ **شهابُ الدِّينِ القِرْمِيُّ**[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يا لَهُ مِنْ رَجُلٍ ما كانَ أكثرَ خيرَهُ، وما أحسنَ عِبادَتَهُ وعِفَّتَهُ وصِيانَتَهُ، وأغزرَ عِلْمَهُ وحِلْمَهُ!

لم أَرَ أحداً من أضرابِهِ أكثرَ منهُ اتِّباعاً للسُّنَّةِ ولا مُحافَظَةً عليها، ولا أكرَمَ منهُ ولا أطيبَ [٦٢/أ] مِنْ نَفْسِهِ، حَسَنَ المُحَاضَرَةِ والمُدَاعَبَةِ والنَّوادِرِ، كانَ في القِرْمِ وخُوارَزْمَ[٣] واعظاً مُجِيداً مُرَبِّياً، وكانَ بارِعاً في عُلُومِهِ معَ جودَةٍ وسُكُونٍ وحِشْمَةٍ.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طريقِ مَكَّةَ عند قُدَيْدٍ[٤]، قافلاً من الحَجِّ إلى المدينَةِ المُشَرَّفَةِ في سنة أربعٍ وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ.

---

(١) له مقامة بديعة سمَّاها: «المرور بين العلمين في مفاخرة الحرمين» طُبعت بتحقيق د. محمد العيد الخطراوي.

(٢) «المغانم المطابة» ٣/ ١١٦٨، «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٧٣.

(٣) خوارزم: خوارزم منطقة في آسيا الوسطى، اشتهر منها مجموعة من العلماء، وهي بين جمهوريتي أوزبكستان وتركمانستان. «الموسوعة العربية العالمية»: خوارزم.

(٤) قُدَيْد: بلدة تبعُد عن مكة المكرمة ١٣٠ كيلاً، في الطريق إلى المدينة المنوَّرة. «معجم معالم الحجاز» ٦/ ٩٦.

وكانَ من شُيُوخ الوقتِ والأَئِمَّةِ الكِبَارِ في العِلْمِ والعَمَلِ ومعرِفَةِ الحديثِ والرِّجالِ الشَّيخُ **أبو عبدالله مُحَمَّدُ بنُ أحمدَ الأمينُ الآقْشَهْرِيُّ، الأخلاطِيُّ**[١].

ارتحلَ إلى المغرِبِ في حالِ شُبُوبِيَّتِهِ، وأدرَكَ رِجالاً من أعيانِ المَغَارِبَةِ والأندَلُسِيِّينَ وعُلَمائِهِم، فأخَذَ عنهُم واشْتَغَلَ عليهِم، وطالَتْ إقامَتُهُ فيهِم حتَّى كانَ الذي يَجْتَمِعُ به لا يَشُكُّ أَنَّهُ مَغْرِبيُّ الأَصْلِ.

كانَ قد يَسَّرَ الله عليهِ تدوينَ الحديثِ والعلم، فلا تسألُهُ عن شيءٍ من علمِ الحديثِ ورِجَالِهِ إلّا وجدْتَ عندَهُ منه طَرَفاً جَيِّداً وحِفْظاً حَسَناً.

صنَّفَ تَصَانِيفَ كَثيرةً، واختَصَرَ مُطَوَّلاتٍ عديدَةً، وتردَّدَ إلى مكَّةَ والمدينةِ، ثُمَّ أقامَ بِالمدينَةِ المُشَرَّفَةِ في آخِرِ مُدَّتِهِ، وتَزَوَّجَ بها زَوْجَةً يَمَنِيَّةً، فولدَتْ له بِنتَينِ سَمَّاهُما: طابَةُ وطَيْبَةُ، وسُرَّ بِهِما في آخِرِ عُمْرِهِ، ثُمَّ إنَّهُما تُوُفِّيَتا في حياتِهِ، فحَزِنَ لِفَقْدِهما حَتَّى كادَ يفنى لِفَنائِهِما.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنة سَبْعٍ وثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ.

وكانَ لنا شيخٌ عَظِيمُ القدرِ، كاشِفُ الأسرارِ الحقيقيَّةِ[٢] يُقالُ لهُ: الشَّيخُ سَعَادَةُ[٣]، كانت إقامَتُهُ بِمَكَّةَ والمدينَةِ يتَرَدَّدُ بينَهما.

---

(١) محمَّد بن أحمد بن أمين الأقشهري، القونوي، نزيل المدينة، نسبة إلى آقشهر بقونية، ارتحل إلى مصر والمغرب، وتوفي بالمدينة سنة ٧٣٩هـ. «الدرر الكامنة» ٣/ ٣٠٩، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٥٢٨.

(٢) هٰذا من الغُلوّ في الشيوخ والصّالحين، إضافةً إلى أنه ليس في دين الإسلام وشريعته أسرارٌ وبواطنُ حتى تُكشَف حقيقتُها.

(٣) هو: الشيخ سعادة المغربي. ترجمته في «العقد الثمين» ٤/ ٥٣٠، و«التحفة اللطيفة» ٣/ ٩٥.

وكانَ قدْ اشْتهرَ في زِمانِهِ بينَ [٦٢/ ب] إخوانِهِ أَنَّهُ من أربابِ الخُطْوَةِ[١]، ومِمَّنْ تُطْوَى لهُ الأرضُ، كان يَتَأهَّبُ لِصَلاةِ الجُمُعَةِ بِمَكَّةَ، فيُرَى في المدينةِ يُصَلِّيها ثُمَّ يَرجِعُ، فَرُبَّما أدرَكَ الصَّلاةَ، ورُبَّما يُوافِقُ دخولُهُ المسجِدَ الحرامَ خُرُوجَ النَّاسِ مِنَ الصَّلاةِ، فيُقَالُ لهُ: يا سيِّدي فاتَتْكَ الجُمُعَةُ؟

فيقولُ: نُصَلِّيها إنْ شاءَ الله، يُرِيدُ الجُمُعَةَ المُسْتَقْبَلَةَ.

وخرجَ معه خادِمُهُ مَرَّةً، فقالَ لهُ لمَّا أنْ قَرُبا من المدينةِ: يا سيِّدي، قدْ يسألُنِي بعضُ الفُقَراءِ عن مُدَّةِ سَفَرِنا، فما يكونُ جوابي؟

فقالَ لهُ الشيخُ: اكتُم ما رأيتَ، ولا تَقُلْ إلّا حَقًّا.

فلمَّا دخلُوا المدينةَ المُشرَّفَةَ سَلَّمَ عليهِمُ الفُقَرَاءُ، وقالوا للخادمِ: متى خَرَجْتُم من مَكَّةَ؟

قالَ: يومَ الجُمُعَةِ. وتخلَّصَ منهُم بذٰلك، فكَتَمَ الحالَ، وصدَقَ في المَقَالِ.

وقالَ: لهُ حِكاياتٌ غريبَةٌ في خُرُوجِهِ من بَلَدِهِ من المَغْرِبِ ووصولِهِ إلى الحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ من هٰذا النَّوعِ، شاهَدَهُ مَنْ لا يُتَّهَمُ.

وحَكى عنهُ ذٰلك مَنْ لهُ في المُجاهَدَةِ أوفَى قَدَمٍ، وحالُهُ وحِكَايَاتُه بِمَكَّةَ [عندَ أهلِها] مَشْهُورَةٌ[٢].

---

(١) هٰذا مصطلح يدَّعي أهله فيه أنهم يَقطعُون المسافات الهائلة في وقت يسير، ولا يُعتدُّ به شرعاً، بل فيه فتحٌ لأبواب الشرّ والمنكرات وذرائعُ لتضييع الصلوات المفروضات.

(٢) هٰذه أخبار لا يُلتفَت إليها، وفي الاعتداد بها فتحٌ لادِّعاءات وذرائع لتضييع الصلوات.

كانَ إذا قَدِمَ المدينةَ احتفلَ الجماعةُ بِهِ، وتبرَّكُوا بِدُعائِهِ وبِكَلامِهِ(١)، وأكثرُ إقامَتِهِ بِمَكَّةَ في رِباطِ المُوفَّقِ.

[تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ] بِمَكَّةَ سنةَ ثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ.

وكانَ مِنَ الأولياءِ الكِبَارِ القُدَماءِ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ مِنَ الغَيبِ(٢): الشَّيخُ **مُحَمَّدٌ الهُورِيُّ**(٣)، أكثرُ إقامَتِهِ بِمَكَّةَ، ثُمَّ انتقلَ إلى المدينةِ فأقامَ بها، فصادفَ غلاءً عظيماً، وعُدِمَ التَّمرُ حَتَّى وصلَ صاعُهُ الخَمْسِينَ ولا يُوجَدُ، ذٰلك في سنةِ خمسٍ وتسعينَ وسِتِّمِئَةٍ.

[٦٣/ أ] وكانَ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسكُنُ في الحصنِ العتيقِ في بيتٍ فيه شُبَّاكٌ إلى الحَرَمِ، وكان يَتَصَدَّقُ بِالتَّمرِ البَرْنِيِّ(٤) على النَّاس، لا يَعْلَمُ أَحَدٌ من أينَ يأتيهِ ولا لهُ مَنْ يشتريهِ، بل لو أراد ذٰلك لما وَجَدَ، لِقِلَّتِهِ وعَدَمِهِ.

وكانَ يقولُ لِكُلِّ مَنْ وقفَ عليه من الكبارِ والصِّغارِ: كم في بيتِكَ من العِيالِ؟

فيذكرُ له عَدَدَهُم قلُّوا أو كَثُرُوا، فلا يزيدُهم على تمرةٍ تمرةٍ حتَّى يكادَ يَعُمُّ أهلَ البَلَدِ كُلَّهم فقيرَهم وغنيَّهم، كبيرَهم وصغيرَهم، ثُمَّ يُصْبِحُ على ذٰلك كُلَّ يومٍ من أوَّلِ النَّهارِ إلى آخرِهِ.

---

(١) تقدَّم الكلام على التبرُّك. راجع ص١٣٦.

(٢) هٰذا من المصطلحات التي فيها غلوّ في الشيوخ، ولا يُنفق الإنسان إلّا ممَّا يملكُه.

(٣) في «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٠٥٩): «الهوي»، «العقد الثمين» ٢/ ٤١٣ نقلاً عن المؤلف.

(٤) التمر البرني من أنواع تمور المدينة النبوية، وله فضائل، قال فيه النبيُّ ﷺ: «خير تمراتكم البرني يذهب بالدَّاء، ولا داء فيه» أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٧/ ٢٤٧، والحاكم في «المستدرك» ٤/ ٢٢٧ من حديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وانظر «السِّلسلة الصحيحة» للألباني ٤/ ٣٤٣.

جِئتُهُ مرَّةً فأعطاني عَشرَ تمراتٍ، فلمَّا خرجتُ من عندِهِ استَقْلَلْتُها فأعطيتُها فقيراً سَقَّاءً، وكنتُ يومئذٍ صغيرَ السِّنِّ جِدًّا، ثُمَّ نَدِمْتُ على إعطائي لهُ، فأنَا إلى اليومِ أذكرُها؛ لِمَا وجدتُ حِينَئِذٍ مِن فَقْدِها.

وكانتْ تِلكَ السَّنَةُ شَدِيدةً، وأظنُّها السَّنَةَ التي حَجَّ فيها الأميرُ سَلَّارُ، فإنَّ التَّمرَ بلغَ في الحاجِّ خمسينَ، ولم يُوجدْ من كَثْرةِ الحواجِّ والأمراءِ، وكانت التُّرْكُ والأمراءُ ليسُوا مثلَ اليومِ في الهَدِيَّةِ، بل يحمِلُونَ التَّمرَ بالمِئِينَ.

وأذكُرُ في تلكَ السَّنَةِ أنَّ أعيانَ المُجَاوِرينَ كانوا يَطْلُبونَ الحُثالَةَ[(١)] من شِدَّةِ الشَّهوَةِ في التَّمرِ، وما كانَ أحلاها إذا وُجِدَتْ.

واتَّفَقَ أَنْ جاءَ والدي من عندِ الشَّيخِ يعقوبِ الشَّريفِ - المتقدِّمِ ذكرُهُ[(٢)] - في مِحفَظَتِهِ بِمُدِّ تمرٍ فَسُرِرتُ به وإِخوَتي، حتَّى لو كانت [٦٣/ ب] دراهِمَ ما فَرِحْنا بها كذٰلك، هٰذا كانَ الحالُ في تلكَ السَّنَةِ.

وأمَّا حالُ النَّاسِ في غيرِها فكانوا في حالٍ دونَ هٰذا، السَّعِيدُ هو الَّذِي يَتَغذَّى بَلِيلَةً، والبَلِيلَةُ: حُثالةٌ وحَشَفٌ[(٣)] مدقوقاً يُجعلانِ في قَدَحٍ، ويُجعلُ عليهِ الماءُ ساعةً، فإذا ابتلَّ قُدِّمَ إلى العيال أكلُوهُ كأَنَّهُ عندَهُم حَلْوى، ويكونُ ذٰلك غدَاؤُهُم حتَّى يأتِي العَشَاءُ بما تَيَسَّرَ من جَشِيشةٍ[(٤)] أو حَرِيرةٍ[(٥)].

---

(١) الحُثَالة والحُثال: القُشَارة من التمر والشعير والأَرُزِّ وما أَشبهها. «لسان العرب»: حثل.

(٢) راجع ص١٥٢.

(٣) الحَشَفُ: أَرداُ التمر ما لم يُنوِ، فإذا يَبِس صَلُب وفسد، لا طعْم له ولا لِحاء ولا حلاوة. «لسان العرب»: حشف.

(٤) الجَشِيشُ: الحبّ حين يُدق قبل أن يُطْبخ، فإذا طُبِخ فهو جَشِيشة. «لسان العرب»: جشش.

(٥) الحَرِيرَةُ: الحَسَا من الدَّسَمِ والدقيق. «لسان العرب»: حرر.

والنَّاسُ اليومَ مُلُوكٌ أو كالملوكِ، ولا يشكرونَ الله تَعَالى، بل غلبَ عليهم بَطَرُ النِّعمَةِ حتَّى اشتغَلَ بعضُهم بِبَعْضٍ، وأهلَكَ بعضُهم بَعْضاً من شِدَّةِ الحَسَدِ والبَغْضاءِ.

ذهبَ الوفاءُ ذهابَ أمسِ الذاهبِ ... فالنَّاسُ بينَ مُخَاتِلٍ ومُحَارِبِ
يُفْشُونَ بينَهُمُ المَوَدَّةَ والصَّفا ... وقلوبُهم محشُوَّةٌ بِعَقَارِبِ

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٠﴾[1].

وأخبرني جماعةٌ عن هٰذا الشّيخِ الهَرَوِيِّ أَنَّهُ لمَّا أقامَ بِمَكَّةَ المُشَرَّفَةَ أنفقَ على أهلِها وضُعَفَائِها أموالاً مُسْتكثَرةً، فرُفِعَ خبرُهُ إلى الشَّريفِ - أَظُنُّهُ حُميضَةَ[2] - فجالَ ذٰلك في صدرِه، ثُمَّ دَخَلَ على الشَّيخ في بيتِهِ على غَفْلَةٍ، فرَحَّبَ الشَّيخُ بِهِ وأجلَسَهُ في وَسَطِ بيتِهِ، وقَدَّمَ إليه كُسَيرَاتٍ وشَيئاً من المُخَلَّلاتِ.

فقالَ: ما أُرِيدُ إلّا أن تُرِيَنِي ما في بيتِكَ أو تُعْطِيَنِي [٦٤/ أ] ما يكفِينِي وحاشِيَتي.

فقالَ لهُ الشّيخُ: البيتُ بينَ يديكَ، واللهِ مَا أَدَّخِرُ عنكَ شيئاً!

فقامَ الشَّريفُ وأعوانُهُ إلى البيتِ فَفَتَّشُوه وحَفَرُوهُ، فلم يَجِدُوا في بيتِهِ

---

(١) الحشر: ١٠.

(٢) هو: الشريف حُميضة بن أبي نُمي محمد بن أبي سعد حسن بن علي الحسني المكي، عز الدين، ولي إمرة مكة إحدى عشرة سنةً ونصف سنةٍ، قُتل سنة ٧٢٠هـ. «العقد الثمين» ٤/ ٢٣٢، «سمط النجوم» ٤/ ٢٢٧.

شيئاً غيرَ أواني المخلَّلِ وشيئاً لا يُعْبَأُ بِهِ، فَتَرَكُوهُ وانْصَرَفُوا، ولم يزلْ مُسْتَمِرًّا على ذٰلك الإنفاقِ إلى أنْ تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قالَ لي الشّيخُ جمالُ الدِّينِ المَطَرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كانَ شُيوخُ مَكَّةَ يُنْكِرُونَ عليهِ شيئاً من أحوالِهِ، وذٰلك أَنَّهُ كانَ كثيرَ الطَّوافِ ليلاً ونهاراً، فيطوفُ مَعَهُ باللَّيلِ نِساءٌ مُخَدَّرَاتٌ(١) وغيرُ مُخَدَّرَاتٍ، فيأخذُ في مُؤَانَسَتِهِنَّ والكلام مَعَهُنَّ، ويقولُ: أنتِ فلانةٌ، كيفَ أنتِ؟ وكيفَ حالُكِ؟ يَعْرِفُهُنَّ واحِدَةً واحِدَةً، ورُبَّما تكونُ المرأةُ لا يَعْرِفُ أحدٌ اسمَها فَيُسَمِّيها، فينكرُ عليهِ الشُّيوخُ فلا يلْتَفِتُ إلى كلامِهِم، ويَرَى أَنَّ ذٰلك طريقَتَهُ وطريقَةَ شُيُوخِهِ للتَّسَتُّرِ بهٰذه الأحوالِ(٢).

وكانَ من أهلِ الرِّيْفِ. تُوُفِّيَ بِمَكَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونَفَعَنا بعبادِهِ الصَّالحينَ.

ثُمَّ كانَ مِنَ المشايخِ الكِبارِ أولي التَّحقِيقِ، والسَّادَةِ مِنَ أهلِ الطَّرِيقِ: **أبو بكرٍ الشِّيرازِيُّ**، كانَ مِن أصحابِ السَّيِّدِ الكبيرِ شيخِ زمانِهِ سيِّدي أبي العَبَّاسِ المُرسِيِّ(٣) تلميذِ الشَّيخِ أبي الحَسَنِ الشَّاذِلِيِّ(٤).

---

(١) أي: أُلزمن الستر والخِدْر، مقصورات على بيوتهنّ وأزواجهنّ. «لسان العرب» مادة: خدر.

(٢) ليس هٰذا من دأب سيِّد المرسَلين ﷺ ولا صحابته رضوان الله عليهم، ولا العلماء المشهود لهم، ومخالطة النساء غير المحارم من اتباع خطوات الشيطان.

(٣) أحمد بن عمر بن محمد، الشيخ الإمام العالم الزاهد الكبير، العارف بالله، شهاب الدين أبو العباس الأنصاري المرسي السكندري، له كرامات مشهورة، وُلد سنة ٦١٦هـ توفي بالإسكندرية في سنة ٦٨٦هـ. «الوافي بالوفيات» ٧/ ١٧٣، «النجوم الزاهرة» ٧/ ٣٧١.

(٤) علي بن عبدالله بن عبدالجبار، الشريف تقي الدِّين، أبو الحسن، المغربي الشاذلي، شيخ الطائفة الشاذلية، توفي وهو في طريقه للحجِّ بصحراء عيذاب، وبها دُفن سنة ٦٥٦هـ. «طبقات الأولياء» لابن الملقن ص٤٥٨، «شذرات الذهب» ٧/ ٤٨١.

كَانَ الشَّيخُ أبو بكرٍ بالمدينَةِ كالشَّيخِ نجمِ الدِّينِ الأصبَهانيِّ بِمَكَّةَ، كنت إذا رأيتهُ رأيت رجلاً مِن أهلِ الجَنَّةِ، شُهْرَةُ مناقِبِهِ الجَمَّةِ تُغْني عن تَعدادِها، سَكَنَ رِباطَ الشِّيرازِيِّ [٦٤/ ب] حتَّى تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كانَ عَلَى قَدَمٍ أيّ قَدَم من الصِّيامِ والقِيامِ، وإطعامِ الطَّعامِ، وكَثْرَةِ الإحسانِ للإخوانِ، وتَفَقُّدِ المُجَاوِرينَ والمَساكينِ، جاورنَاهُ فوقَ عشرينَ سنةً فما رأيتُ مثلَهُ، لا يعلَمُ مَا النَّاسُ فيهِ، ولا يسألُ عمَّا لا يعنيهِ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونَفعَنا به.

كان بيتُهُ قلَّ أن يخلُوَ عن الطَّعامِ الفاخِرِ لكُلِّ وارِدٍ وصادرٍ.

قدْ اشتهَرَ بِوَرَعِهِ وصلاحِهِ وخيرِهِ في أقطارِ الأرضِ، حتَّى إنَّهُ لَيُقَالُ: مَنْ في المدينةِ يُزارُ بعدَ النَّبيِّ ﷺ وأصحابِهِ؟ فيُقَالُ: الشيخُ أبو بكرٍ الشِّيرازِيُّ، وكفى بِهِ، وقد تقدَّمَ شيءٌ مِن ذِكرِه قبلَ هٰذا[١].

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ إحدى وثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ.

وكانَ مِن أصحابِهِ وأَلْزَامِهِ الشَّيخُ **أحمدُ التستري**[٢]، لَزِمَهُ وقامَ بِخِدْمَتِهِ، ووَلَدُهُ شمسُ الدِّينِ من بعدِهِ، فاكتَسَبا من آدابِهِ وتخلَّقَا بأخلاقِهِ.

كانَ الشَّيخُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنَ الرِّجالِ المُلازِمينَ للسَّكِينَةِ والوَقَارِ، المُحَبِّينَ في الفُقَراءِ والمساكينِ وأهلِ الصَّلاحِ والدِّينِ، مُلازِمَ الصَّفِّ الأوَّلِ،

---

(١) راجع ص١٦٨.

(٢) في الأصل: «القشيري»، وفي (ب): «التشتري»، وفي (أ): «الششتري»، والمثبت من (ج).

وهو: أحمد بن عثمان بن عبدالغني التستري، نسبة إلى تستر، مدينة بإيران، ويقول لها العامة ششتر. ترجمته في «التحفة اللطيفة» ١/ ١٦٣.

ويدخُلُ المَسْجِدَ في الوَقْتِ الأَوَّلِ، وكانَ مع أهلِهِ في بيتِهِ على خُلُقِ أهلِ الخيرِ، لا يَبِيتُ على معلومٍ، ولا كانَ في غيرِ حقِّ اللهِ يَقُومُ.

ثُمَّ لَحِقَهُ في خُلُقِهِ وخُلُقِ الشَّيخِ أبي بكرٍ ولدُهُ شمسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بنُ أحمدَ التستريُّ(١) على خيرٍ وعِفَّةٍ وصَلاحٍ باشْتِغَالٍ بالعِلْمِ وسماعِ الحدِيثِ.

سافرَ وارتحلَ، ولهُ حَسَنَةٌ عَظِيمَةٌ، رِباطٌ بِالقُربِ مِنَ المسجِدِ الشَّريفِ هو عَيشُ [٦٥/ أ] الصَّالحينَ، نفعَ اللهُ بهِ، ولَهُ في المدينَةِ آثارٌ حَسَنَةٌ، ومَعَالِمُ مُسْتَحْسَنَةٌ.

تُوُفِّيَ الشَّيخُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ سبعٍ وثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ.

وكانَ من أهلِ الرِّباطِ المذكورِ: السَّيِّدُ أحمدُ الخُرَاسَانيُّ(٢)، كانَ آيةً من آياتِ اللهِ في بابِ العُزْلَةِ والصَّبرِ على القِلَّةِ، لهُ كُلَّ يومٍ خَتْمَةٌ في الرَّوضَةِ المُشَرَّفَةِ، كانَ لا يعرِفُ مِنَ النَّاسِ إلّا نَفْسَهُ.

وجلسَ إليهِ أَرْغُونُ(٣) نائِبُ السُّلطانِ المَلِكِ النَّاصِرِ، فسألَهُ عن حالِهِ فلَمْ يَشْفِهِ في الجوابِ، وسألَهُ عن قِرَاءَتِهِ فقالَ: كُلَّ يومٍ خَتْمَةٌ.

فقالَ لهُ: وكيفَ لا، وأنتَ ليسَ لكَ شاغِلٌ من أهلٍ وعِيالٍ؟

طالَتْ مُدَّةُ حياتِهِ وهُوَ [عَلَى](٤) حالِهِ لم يتبدَّلْ ولم يتغَيَّرْ.

---

(١) في الأصل و(ب): «التشتري»، ولكن قال في حاشية (ب): «يبدو أنه التستري»، والمثبت من (أ) و(ج). ترجمته في «الدرر الكامنة» ٣/ ٣٣٨، و«التحفة اللطيفة» ٥/ ٥٥٤.

(٢) هو: أحمد الشريف الخراساني العجمي المقرئ. «التحفة اللطيفة» ١/ ١٦٣.

(٣) أرغون بن عبدالله الداودار السلحدار الناصري، نائب السلطنة بالديار المصرية، كان فصيحاً حليماً، توفي سنة ٧٣١هـ. «الدرر الكامنة» ١/ ٣٥١.

(٤) زيادة من باقي النسخ.

وسكنَ معهم الرِّباطَ جماعةٌ كثيرةٌ من أهلِ الخيرِ، منهم: الشيخُ مُحَمَّدٌ الكازرونيُّ(١)، وعُمرُ الكازرونيُّ(٢)، والفيرُوزآبادِيُّ(٣)، وجماعةٌ غيرُهم.

وكانَ مِنَ السَّادةِ الكبارِ والأئمَّةِ الأخيارِ في الجِدِّ والاجتهادِ الشيخُ **صفيُّ الدِّينِ أبو بكرِ بنُ أَحْمَدَ السَّلاَّميُّ**(٤) رَحِمَهُ اللَّهُ.

لو رَأيتَهُ رأيتَ رَجُلاً أيَّ رَجُلٍ، كانَ ذَا دُنيا عَظيمةٍ، فَتَخَلَّى عنهَا وتَرَكَهَا وَرَغِبَ في الآخرَةِ وأقبلَ عليها، وانقطعَ في المدينَةِ على عبادةٍ عَظيمةٍ لا يَفْتُرُ ليلاً ولا نهاراً، كانَ يَقِفُ في أواخرِ المسجدِ إلى أُسْطُوانٍ مِنَ الصُّبحِ إلى الظُّهرِ، ومِنَ الظُّهرِ إلى العَصْرِ، لا يَقْطَعُ ذٰلك إلّا بصلواتِ الفرائضِ في الرَّوضةِ الشَّريفةِ، وذٰلك مَعَ شَيْخُوخَتِهِ وكِبَرِ سِنِّه، فإذا جَنَّ عليهِ اللَّيْلُ حَنَّ إليه كما تَحِنُّ الوالدةُ إلى وَلَدِهَا.

وكانَ لهُ إيثَارٌ عظيمٌ بالدُّنيَا، وكانَ [٦٥/ ب] قرابَتُهُ من السَّلاميِّينَ يَبْعَثُونَ إليهِ بالأموالِ الكثيرةِ ليُفرِّقَهَا على مَصَارِفِهَا، ويزيدُ عَليها من مَالِهِ، لم يَكُنْ للدُّنيا في عينِهِ بهجَةٌ، ولهُ في الإيثارِ بها غَرَائِبُ، كانَ يحكِيها عنهُ عِزُّ الدِّينِ دينارٌ شيخُ الخُدَّامِ، فإنَّهُ كانَ يَصْحَبُهُ ويَعْتَقِدُهُ، ومثلُه يُعْتَقَدُ(٥).

---

(١) محمد بن روزبة بن محمود بن إبراهيم بن أحمد الشمس، أبو الأيادي الكازروني، المدني، الشافعي، كان شيخاً صالحاً، مات في شوال سنة ٧٥١هـ ودُفن بالبقيع. «التحفة اللطيفة» ٦/ ١٥٠.
والكازروني: نسبة إلى كازرون: مدينة بفارس بين البحر وشيراز. «معجم البلدان» ٤/ ٤٢٩.

(٢) عمر الكازروني. «التحفة اللطيفة» ٥/ ٣٥٦ نقلاً عن المؤلف.

(٣) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٥٠٨٥) نقلاً عن المؤلف.

(٤) انظر: «المغانم» ٣/ ١١٦٩، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٧٤٨) نقلاً عن المؤلف.

(٥) الواجب أن يعلِّق المسلم أمله ورجاءه بالله عَزَّوَجَلَّ وحده.

أعتقَ خُدَّاماً ومماليكَ، وبَنَى له رباطَينِ: أحدُهما مُجاوِرٌ للمِيضَأَةِ موقوفٌ على الرِّجالِ والنِّساءِ، والآخَرُ مَوقُوفٌ على الرِّجالِ.

واشترى الدَّارَ الَّتِي كانَ يَسْكُنُها، وهي في ظَهرِ رِباطِهِ الموقوفِ على الرِّجالِ، وكان الرِّباطُ حَوشاً لهٰذه الدَّارِ فأفردَهُ للرِّجالِ، وسَدَّ البابَ الذي بينَهُما، وهو بَيِّنٌ إلى الآنَ، وأوقفَ الدارَ المذكورةَ على الفقراءِ المُجَرَّدِينَ إن لم يكنْ سَلامِيُّونَ، فإنْ كانَ منهم في المدينةِ سَكَنَها، وهو أولى من غيرِه، فإن سافرَ أو ماتَ رجعتْ إلى الفُقَرَاءِ المُجَرَّدِينَ، حُكْمُها حُكْمُ الرِّباطِ ومجاوِرٌ لها.

ووقفتُ على ورقَةِ الوَقْفِيَّةِ، ورأيتُ فيها مِنَ الشُّروطِ ما ذَكَرْتُ، وإنَّما ذَكَرْتُ ذٰلك وإن لم يَكُنْ مِمَّا نحنُ فيه، لأنَّ بعضَ النَّاسِ وضعَ يَدَهُ على هٰذه الدَّارِ وسكنَ فيها نحوَ عشرينَ سَنَةً مُنْفَرِداً بِشُبْهَةِ أَنَّهُ عَتِيقٌ لِعُتَقَاءِ الواقِفِ! فظهرَ كِتابُ الواقِفِ في هٰذه السَّنَةِ - وهي سنة سبعٍ وستِّينَ وسبعِمِئَةٍ - فانتُزِعَتِ الدَّارُ مِنْ يَدِهِ وأُعيدَتْ إلى شرطِ الواقِفِ.

تُوُفِّي صَفِيُّ الدِّينِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمدينةِ النَّبوِيَّةِ، ودُفِنَ بِالبَقِيعِ إلى جَنْبِ قُبَّةِ[1] سيِّدِنا إبراهيمَ ابنِ رَسُولِ الله ﷺ في حدودِ سنةِ خمسَ عشرةَ [٦٦/ أ] وسبعِمِئَةٍ.

وكانَ من أخَصِّ النَّاسِ بالشَّيخِ صَفِيِّ الدِّينِ السَّلامِيِّ هٰذا: الشيخُ **مُحَمَّدٌ الكَازَرُونيُّ**، انتفعَ بِصُحْبَتِهِ، وانتفَعَ الشَّيخُ بِهِ وبِمُساعَدَتِهِ في إنشاءِ الرُّبُطِ[2] وعِمَارَتِها.

(١) تقدَّم أنه لا أصل شرعيَّ لمثل هٰذه القُبة ولا وُجود لها اليوم ولله الحمد.

(٢) في الأصل: «الرباط»، والمثبت من (أ) و(ب) وهو أصحّ.

وكانَ الشَّيخُ مُحَمَّدٌ يحكي عن الشيخِ غَرَائِبَ مِنَ المقاماتِ الجليلةِ والخِصَالِ الحميدَةِ، واقتبَسَ الشَّيخُ مُحَمَّدٌ مِن بَرَكَتِهِ ومِنْ دُعَائِهِ حتَّى وَجَدَ أَثَرَ ذٰلك في أولادِهِ، فَرُزِقَ ذُرِّيَّةً صَالِحِينَ منهُم:

الوَلَدُ الصَّالِحُ **صَفِيُّ الدِّينِ أَحْمَدُ**(١)، قدْ نالَ الدَّرجَةَ العُلْيا في الصَّلاحِ والدِّينِ والعِلْمِ المَتِينِ، وكانَ لي كالوَلَدِ البَارِّ تَغَمَّدَهُ اللهُ بِرَحمَتِهِ، فما كانَ أحسنَ خِصالَهُ الحميدَةَ، وأخلاقَهُ السَّعيدةَ، وآراءَهُ الرَّشِيدَةَ، جَمَعَنَا اللهُ وإِيَّاهُ في فسيحِ الجِنانِ، وجِوارِ الرَّحمٰنِ بِبَرَكَةِ هٰذا النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وسيأتي شيءٌ من محاسِنِهِ ومحاسِنِ أخيه عِزِّ الدِّينِ(٢) - حماهُ اللهُ تَعَالى - بعدَ هٰذا.

صحبتُ الشيخَ مُحَمَّداً سَفَراً وحَضَراً، ماشِياً وراكِباً، فما رأيتُ في الأصحابِ مثلَهُ في سَعَةِ خُلُقِهِ وطُولِ صبرِهِ، وحُسنِ عِشْرَتِهِ وطِيبِ نفسِهِ في إنفاقِهِ وحُسنِ ظَنِّهِ في رِفاقِهِ، ولو كانُوا قُطَّاعَ طريقِهِ.

رأيتُه يُسَلِّم المالَ الكثيرَ للجَمَّالِينَ من أهلِ الصَّفراءِ(٣) ويأمنُهم عليه، ويَغِيبُ عنه وهو تحتَ أيدِيهم فلا يَتَّهِمُهم.

ومَعَ ذٰلك نَجِدُهُ محفُوظاً في نفسِهِ ومالِهِ، وكانَ لا يَرُدُّ مَنْ أرادَ منهُ قَرضاً

---

(١) أحمد بن محمد بن روزبة بن محمود بن إبراهيم بن أحمد، الصفي أبو العباس الكازروني الأصل، المدني الشافعي، له مصنَّفات، وُلد سنة ٧٣٣هـ، توفي سنة ٧٦٤هـ. «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٠٠.

(٢) عبدالسَّلام بن محمد بن روزبة بن محمود بن إبراهيم بن أحمد، العز أبو محمد الكازروني المدني الشافعي، مات بمكة سنة ٧٧٩هـ. «العقد الثمين» ٥/ ٤٢٨، «التحفة اللطيفة» ٤/ ٣٥٠.

(٣) الصَّفراء، تأنيث الأصفر: وادٍ قُرب المدينة، كثير النَّخل والزَّرع والخير، يُجلب منه التَّمر إلى المدينة وإلى ينبع؛ لِحُسْن تمره، وهي في طريق الحاجِّ، وسلكهُ رسول الله ﷺ غير مرَّة، وبينهُ وبين بدر ٤٠ كيلاً تقريباً. انظر: «المغانم المطابة» ٢/ ٨٨٩.

أو مُعَاملةً، يعامِلُ النَّاسَ على حَسب أخلاقِهِم، لم أَرَهُ ضَيَّقَ على غريمٍ[(١)] [٦٦/ ب] ولا حَبَسَهُ، ولهُ مِنَ الأموالِ العظيمةِ على صَعَالِيكِ[(٢)] المدينةِ، فإذا طَلَبُوا منهُ زيادةً زادَهُم وصبَرَ عليهِم.

قلتُ لهُ في ذٰلك، فقالَ: مَنْ كانَ لي عندَهُ شيءٌ بفَائِدَةٍ حَرِصْتُ على رأسِ المالِ، وما بَقِي إن جاءَ في الدُّنيا وإلّا فَهُوَ لي في الآخرةِ.

ولذٰلك حَفِظَهُ اللهُ في ذُرِّيَّتِهِ، فجاءَ منهُم الفُضَلاءُ العُلَماءُ، منهم: الفقيهُ عِزُّ الدِّين عبدُالسَّلام، تَفَقَّهَ ودَرَّسَ في الحَرَمِ الشَّريفِ في موضِعِ صَفِيِّ الدِّينِ أخيهِ، وانْتَفَعَ بِهِ أهلُ زمانِهِ.

تُوُفِّيَ والِدُهُم رَحِمَهُ ٱللَّهُ سَنَةَ ٧٥١ هـ.

من السَّادَةِ المحفوظينَ، والأخيارِ المَعْدُودِينَ، الأَخوانِ الصَّالِحَانِ المُتَحَابَّانِ في الله: الشيخُ **أبو الحَسَنِ الخَرَّازُ**[(٣)]، والشيخُ **أبو عبدالله مُحَمَّدٌ الخَرَّازُ**[(٤)].

أقاما في بيتٍ واحدٍ فوقَ الثَّلاثِينَ سَنَةً، مجتَمِعَينِ على صِناعةٍ واحدةٍ، يَخرِزُونَ في بَيتِهم هُمْ وأتباعُهُم لأنفُسِهِم النَّعْلَ وغيرَها، ويَرْفَعُونَ ما فَضَلَ عن قُوتِهم فيَتَصَدَّقُونَ منه ويُؤثِرُونَ، وما بَقِيَ رَفَعُوه إلى أيام الحَاجِّ، ويُؤَلِّفُونَ مَنْ أَتَاهُم وقَصَدَهُم مِنَ الأخيارِ، حَتَّى يَوَدَّ مَنْ أتاهم أَنَّهُ لا يُفَارِقُهُم.

---

(١) الغُرْمُ: الدَّيْنُ، ورَجُلٌ غارمٌ: عليه دَيْنٌ، والغَرِيم: الذي له الدَّيْن والذي عليه الدَّين جميعاً، والجمع غُرَماء. «لسان العرب»: غرم.

(٢) الصُّعْلُوك: الفقير الذي لا مال له. «لسان العرب» صعلك.

(٣) الشيخ علي الخراز. «التحفة اللطيفة» ٥/ ٢٠٩.

(٤) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٠٦٣) نقلاً عن المؤلف.

كانَ الشَّيخُ أبو الحَسَنِ لهُ سابِقَةٌ في مُجَاهَدَةِ الإفرِنْج بالأندُلُسِ، فكانَ لا يَزَالُ يَعُدُّ الوَقائِعَ والحُرُوبَ ومَا جَرَى لهم مِنَ النَّصرِ على أعدائِهم، ويذكُرُ مَنْ كانت لهُ شَجَاعةٌ وفُرُوسِيَّةٌ وفَتْكٌ في النَّصارى.

وكانَ حَسَنَ التَّصْويرِ في كَلامِهِ يَسْتَلِذُّ السَّامِعُ بِحَدِيثِهِ، فلذٰلك كانَ بَيْتُهُم لا يَزَالُ بِالأَخْيارِ مَعْمُوراً، وأكثَرُهم الخُدَّامُ [٦٧/ أ] الأخيارُ، وكانَ لهم أورادٌ وأذكارٌ مُقَدَّرَةٌ في أوقاتٍ معلومَةٍ[١].

لا يزالُ والدِي ونُظَراؤُهُ يَأتُونَهُم بعدَ العِشَاءِ الآخِرَةِ للذِّكْرِ وقِرَاءَةِ السَّبْعَةِ[٢]، حتَّى يَمْضِيَ جُزْءٌ مِنَ اللَّيلِ، واتَّحَدَ بِسَبَبِهِم حالُ المُجَاوِرِينَ والخُدَّامِ، وحَصَلَ بَينَهُم إخاءٌ، وارْتَفَقَ بَعْضُهُم بِبَعْضٍ في الدِّينِ والدُّنيا، رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وقَدْ تَقَدَّمَ ذٰلك.

وكانَ من حالِهم وخِصَالِهِمُ الحَميدَةِ أَنَّهُم يَتفَقَّدُونَ المَسَاجِدَ المَشْهُورَةَ فيعْمُرُونَها، ويُسَاعِدُهم عليها الخُدَّامُ بِأَنْفُسِهِم وخَدَمِهِم وأَطْعِمَاتِهِم ويَجْعَلُونَها نُزْهَاتٍ، وَهِيَ في الحقيقَةِ عِبَادَاتٌ.

كانُوا إذا نَزَلَ الغَيثُ وأصابَ أُحُداً يخرُجُونَ إلى سيِّدِنا حمزَةَ عَمِّ

---

(١) الأصل في الأذكار والأوراد الاقتداء بالنبيِّ ﷺ، فما وقَّتهُ رسولُ الله ﷺ يُلتزَم، وما عدا ذٰلك فلا يُقيَّد، إذ يبقى الذِّكر والوِرْد على إطلاقه دونَ التزام بعددٍ أو وقت أو صفة، وهٰذه الأورادُ من البدع المُحْدَثة، وقد قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هٰذا ما ليس منهُ فهو ردٌّ».

(٢) في (أ) و (ب) و(ج): «المسبعات». وهي مجموعة من سُوَر القرآن والأذكار تُكرَّر سبعاً، ذَكَرها أبو طالب المكي في «قوت القلوب» ١/ ١٧، ويزعُم الصوفية أنّ الخَضِر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علّمها أحدَ الصَّالحين! ويدَّعون لها فضائل لا تصحّ.

رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَبِيتُونَ عندَهُ في القُبَّةِ في صَلاةٍ وعِبادةٍ وذِكرٍ(١)، يجتَمِعُ مَعَهُم جُلُّ الخُدَّامِ والمجاوِرينَ، ورُؤَسَاءُ المُؤَذِّنينَ، وفُضَلاءُ المُدَرِّسينَ، وعَامَّةُ النَّاسِ أجمعينَ، مِن فَقِيرٍ ومُجاوِرٍ ومَدِينيٍّ يكونُ لهم خادِماً، حتَّى إِنَّهُ لم يَبْقَ في المدينةِ مِن أهلِها إلّا القليلَ، فيخرجُ كُلُّ جماعةٍ بما يقدِرُونَ عليهِ مِنَ الطَّعامِ الفاخِرِ وغيرِ الفَاخِرِ، ويأتي الخُدَّامُ بِأنواعٍ مِنَ الحَلْوى والأطعِمَةِ المُلَوَّنَةِ، فتكونُ ليلَتُهم في الذِّكْرِ والعِبَادَةِ تَعْدِلُ ألفَ ليلَةٍ(٢)؛ لما اشْتَمَلَتْ عليه من خيراتِ الدُّنيا والآخِرَةِ.

وكانَ جماعَةُ الفُقَرَاءِ وشُيُوخُهم: الشَّيخُ عليٌّ(٣) وأخوه الشيخُ محمَّدٌ الخرَّازانِ يحمِلُون مَعَهم القِرَبَ، يَظُنُّ النَّاسُ أنها ماءٌ، وهي مَلأَى من طبيخِ الرُّزِّ والبَسِلَّاءِ، [٦٧/ب]، يُعِدُّونَهُ للفقراءِ الَّذين يَتْبَعُونهم ويخرُجُونَ مَعَهُم، ثُمَّ يَلْحَقُهُم مدَدُهم مِمَّنْ تأخَّرَ عنهم في صبيحةِ ليلَتِهم.

فإذا أصبَحُوا وصَلَّوُا الصُّبحَ سَرَحُوا إلى الجبلِ فَطلَعُوا فيه جماعاتٍ جماعاتٍ، ولهم في الجَبَلِ مَقَامَاتٌ يجلسونَ فيها، فمنها موضعٌ للطعام، ومنها موضعٌ في وَسَطِ الجَبَلِ مُتَّسِعٌ تُمَدُّ فيه الحلْوى والأطعِمَةُ المُحَلَّاةُ، ومنها

---

(١) يُحرم البناء على القُبور، وهٰكذا تجصيصها ووضع الزينات عليها أو السُّتور كلّه لا يجوز، وكذٰلك تشييد القباب أو المساجد عليها أو تعليق السُّرُج ووضع الشموع، وكذا الجلوس عندها للذِّكر والتهليل وأكل الطعام، والتمسُّح بالقبر، أو الدعاء عنده، أو الصلاة عنده، وكلّها بدعٌ منكرة لا تجوز؛ لقوله ﷺ: «ألا وإنّ من كان قبلكم كانوا يتَّخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنِّي أنهاكم عن ذٰلك» رواه مسلم (٥٣٢).

(٢) هٰذا لا أصل له ولا دليل عليه، بل العمل به من الغلوّ في أهل القُبور.

(٣) هو أبو الحسن الخراز المتقدِّم ذكره ص١٨٦.

مَوضِعٌ بعدَهُ يَمُدُّونَ فيه أنواعاً مِنَ المُحَمَّضَاتِ والحِرِّيفاتِ(١)، حتَّى إذا انْتَهوا إلى رأسِ الجَبَلِ صَلَّوا في تلكِ المَسَاجِدِ واجْتَمَعُوا لِقِرَاءَةِ القرآنِ والدُّعاءِ والذِّكرِ(٢).

وكانَ لِمُحَمَّدِ بنِ إبراهيمَ(٣) في تلكِ المواضِعِ عَمَلٌ عَظِيمٌ وتذكيرٌ كثيرٌ، فتراهُم يبكُونَ ويَتَواجَدُونَ(٤)، وتَظْهَرُ عليهم آثارُ الرَّحْمَةِ وذكرِ الله لهُم فِيمَنْ عندَهُ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

ثُمَّ بعدَ ذٰلك يَنزِلُونَ إلى عند المِهْراس(٥) فَيُفْرِغُونَ ما بَقِيَ معهم ويَمُدُّونَهُ للفُقَراءِ الذين يَتَّبِعُونهم، حَتَّى إنَّ الطَّعامَ لَيَبْقَى ليسَ لهُ آكِلٌ.

ويرجِعُونَ إلى المدينَةِ على خير رجعةٍ، بِقُلوبٍ صافيةٍ، وأُخُوَّةٍ مُتَزايِدَةٍ، وشَوقٍ إلى مثلِ ذٰلك الاجتماع.

وكانَ مَعَهُم من الكِبارِ مثلُ الشيخ عبدالواحِدِ الجُزُوليِّ المتقدِّمِ ذِكْرُهُ، والشيخِ مُحَمَّدٍ اليمنيِّ(٦)، ووالِدي، ومثلُهُم كثيرٌ كالصُّحَيْناتيين بأجمعِهم.

---

(١) كُلُّ طَعَامٍ يُحْرِقُ فَمَ آكِلِه بحَرَارَةِ مَذَاقِهِ: حِرِّيفٌ. «تاج العروس»: حرف.

(٢) لا أصل لكلِّ هٰذه الأفعال، ولا يُعبد الله عَزَّوَجَلَّ إلّا بما شرع.

(٣) محمد بن إبراهيم بن محمد، رئيس المؤذِّنين، تقدَّم ذكره ص٦٩.

(٤) التواجُد من المُحدَثات، لم يكن يفعلُه النبيُّ ﷺ، ولا الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع ما كانوا عليه من صلاح وتقوى.

(٥) المِهرَاسُ: شِبهُ حَوضٍ كبيرٍ في وسط الوادي، على يسار الصَّاعد إلى أُحُد، وهو نُقرةٌ في الجبل بعد نزول المطر يصير غديراً صافياً يسبح فيه. «المغانم المطابة» ٣/ ١١٠٨. ولأُحُد مهراسان: شرقي وغربي، وكلاهما كان متنزّهاً لأهل المدينة خُصوصاً في فصل الشتاء حيث يجتمع الماء ويصفو. انظر: «آثار المدينة المنوَّرة» ص١٧٩.

(٦) محمد بن عبدالله بن زكريا اليمني، نزيل الحرمين، من الزهاد، مات بالمدينة ٨١٠هـ. «التحفة اللطيفة» ٦/ ٢٠٩.

وكانَ أكثرُ الناسِ صُحبةً لهُم: الشيخُ أحمدُ القُرشِيُّ[١] والدُ محمَّدٍ الصُّحَيناتيِّ[٢]، وكان يُعَدُّ مِنَ الصَّالحينَ الكِبَارِ المُتَقَشِّفِينَ، المُوَسْوِسِينَ عندَ الطَّهارَةِ وعندَ الغُسْلِ والصَّلاةِ، كان يدخُلُ [٦٨/أ] العينَ قبلَ قيامِ المُؤَذِّنِ للتَّذْكِيرِ فلا يزالُ فيها حتَّى يَمَلَّ منهُ النَّاسُ مِن كَثْرَةِ الوَسْواسِ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

وكانَ عَلَى قَدَمٍ عظيمٍ رُبَّما لم يَكُنْ فيهِم مثلُهُ، ملازِمَ الجماعةِ ومجالسِ العِلْمِ والخيرِ، ويهادي الجماعةَ ويتتلمَذُ لهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكانَ للشيخِ أبي الحسنِ الخَرَّازِ أحبابٌ أفرادٌ مِنَ النَّاسِ الأكياسِ[٣].

مِنهُم: الشيخ **عمرُ بنُ عياذٍ الخَرَّازُ الأنصاريُّ**، والشيخُ **عبدالله الخرّازُ**[٤]، والشيخُ **عمرُ المدّاسُ**[٥]، وجماعةٌ كثيرونَ.

فأمَّا الشَّيخُ عُمَرُ فبلدُهُ الأندَلُسُ من أعمالِ الجزيرَةِ الخضرَاءِ[٦]، أعادَها اللهُ عَلَى المسلمينَ، ولهُ مَعَ الإفرَنْج وقائعُ ومواطِنُ عَجِيبَةٌ.

وكانَ والدُهُ عيّاذٌ شيخَ بلدِه، فلمَّا ضَعُفَ أهلُ تلكَ النَّاحِيَةِ وغلبَ عليها الفِرَنْجُ - خَذَلَهُم اللهُ - خَرَجُوا من تلكَ البِلادِ، وتوجَّهَ الشَّيخُ عُمَرُ وأخوهُ إلى الحجازِ، فماتَ أخوهُ في نواحي الشَّام، ووصلَ الشَّيخُ عُمَرُ إلى المدينَةِ، وأقامَ بها، وصَحِبَ الشيخَ أبا مُحَمَّدٍ البَسْكريَّ وجماعتَهُ.

---

(١) «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٧٢.

(٢) «التحفة اللطيفة» ٦/ ٥٣.

(٣) جمع كَيِّس: وهو العاقل، والكَيْسُ: خِلافُ الحُمْق. «القاموس»: كيس.

(٤) عبدالله الخرَّاز: من أحباب أبي الحسن الخراز. «التحفة اللطيفة» ٤/ ١٧٨.

(٥) ذكره السَّخاوي في ترجمة أبي عبدالله محمد الخراز. «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٨٦١).

(٦) الجزيرَةُ الخضْرَاءُ: مدينة مشهورة بالأندلس. «معجم البلدان» ٢/ ١٥٨.

وكانَ خَصِيصاً بالشيخِ أبي الحَسَنِ الخَرَّازِ وجماعَتِهِ.

وكانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على قَدَمٍ عَظِيمٍ في الصَّلاحِ والخيرِ ومحبَّةِ الصَّالحينَ وقَضَاءِ حوائِجِهم، وعدمِ الاكتراثِ بالدُّنيا في المأكلِ والملبسِ، وكانَ لهُ عليَّ تربيَةٌ وشَفَقَةٌ، وكان يحمِلُني في صِغَري، ويُفْكِهُ[١] أصحابَهُ بي.

ولمَّا حَجَّ والدي بِوالدتي وكنتُ مَعَهُما صَغِيراً لم أُفْطَمْ من الرَّضَاعِ كانَ هٰذا الشيخُ عُمَرُ يقومُ عن والدتي [٦٨/ ب] بِتَربِيَتي، حتَّى إنَّهُ كانَ يَتَنَجَّسُ مِراراً فلا يَتَقَذَّرُ ولا يَتَسَخَّطُ، فله عليَّ حَقٌّ يستوجِبُ به الدُّعاءَ مِنِّي.

وكانَ لهُ مِنَ الخُدَّامِ أعوانٌ صالحونَ قدْ تقدَّمَ ذكرُهُم في ذكرِ مُختارٍ المُوَلَّهِ، ولمَّا بنى دارَهُ ساعَدَهُ فيها إخوانٌ مُحِبُّونَ، وأصدِقاءُ مُلاطِفُونَ، فَخَفَّتْ عليهِ مُؤْنَتُها، رحمهمُ الله أجمعينَ.

له عَقِبٌ أولادٌ صُلَحَاءُ، وذُرِّيَّةٌ فُقَهَاءُ، انتفعَ بهم أهلُ زَمَانِهِم، أكبرُهُم اليومَ الشيخُ عبدالله[٢]، مُحِبٌّ في خِدْمَةِ الفُقَراءِ، مُسَارِعٌ إلى قَضَاءِ حَوَائِجِ الإخوانِ، محبَّبٌ إلى النَّاسِ.

ثُمَّ الفقيهُ الفاضِلُ العالِمُ النَّبيهُ تاجُ الدِّينِ عبدالواحِدِ[٣]، اشتغَلَ اشتِغَالاً كثيراً، وتفنَّنَ في عُلُومٍ عديدةٍ، وأفادَ ودَرَّسَ وجَلَسَ في مجلِسِ شيخِهِ الشيخِ عبدالسَّلامِ[٤] بعدَ وفاتِهِ، فانتفعَ بِهِ الطَّلَبَةُ.

---

(١) فكَّهَهُم بمُلَحِ الكلام: أَطْرَفَهُم، والمُفاكهَةُ: المُمازحَةُ. «لسان العرب»: فكه.

(٢) «التحفة اللطيفة» ٤/ ٦٤.

(٣) عبدالواحد بن عمر بن عياذ: القاضي تاج الدِّين الأنصاري الأندلسي الأصل، المدني، عالم بالعربية، له مصنَّفات، مات سنة ٧٨٩هـ. «التحفة اللطيفة» ٤/ ٤٧٤.

(٤) عبدالسلام بن سعيد بن محمد بن عبدالغالب، القيرواني، المغربي المالكي، الفقيه، مات سنة ٧٥٦هـ. «التحفة اللطيفة» ٤/ ٣٤٥.

تُوُفِّيَ الشيخُ عُمَرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ إحدى وأربعينَ وسبعِمئةٍ.

وكانَ مِنَ الشُّيوخِ المُعَمَّرينَ في المدرَسَةِ الشِّيرَازِيَّةِ[1]: الشَّيخُ إبراهِيمُ العُريانُ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان كاسْمِهِ عُرياناً أبداً صَيفاً وشِتَاءً[3]، على قَدَمِ التَّجَرُّدِ، في وَسَطِهِ بَلاسٌ[4]، وعلى رأسِهِ قُبْعُ صُوفٍ.

وكانَ أصلُهُ مِنَ الرُّومِ، فأقامَ في المدينَةِ فوقَ خمسينَ سنةً، على طريقةٍ حَسَنةٍ مستَقِرًّا في المدرسةِ المذكورَةِ، عاشَ على ذٰلك حتَّى بَلَغَ حَدًّا اشتَهَرَ فيه بينَ النَّاسِ وأهلِ البِلادِ، فصارَ مَقْصُوداً مَشْهُوراً.

لهُ في المدينَةِ آثارٌ حَسَنةٌ، أكثرُهَا في المدرَسَةِ[5]، ولولاه لَسَقَطَتْ طبقاتُها، أقامَ فيها تلكَ الأساطينَ حتَّى حَمَلَتِ السَّقْفَ [٦٩/ أ] والرَّواشينَ[6]،

---

(١) المدرسة الشيرازية: أنشئت في المدينة، ويبدو أنّ مؤسِّسها من أهل شيراز، ولم تُحدِّد المصادر وقت إنشائها، والظاهر أنها أسِّست أوائل القرن الثامن الهجري، وكان قيِّمها والمشرف عليها هو الشيخ إبراهيم العريان أقام بها مدَّة خمسين سنةً، وأسهم في ترميمها وعمارتها، واشترى نخلاً أوقفه عليها، وبعد وفاته خلفه في إدارتها الشيخ سليمان الونشريسي. «التحفة اللطيفة» ١/ ١٥٤.

(٢) إبراهيم الرومي الأصل: نزيل المدينة، ويعرف بالعريان؛ لكونه صيفاً وشتاءً عُرياناً، مات بالمدينة سنة ٧٣٠هـ. «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٧٩.

(٣) ليس هٰذا من الدِّين ولا من الولاية في شيء، ويَعجَبُ المرءُ كيف يكونُ هٰذا من كرامات مَن هٰذه حالَهُ! وقد أمر اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالسِّتر فقال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٣١].

(٤) البَلاسُ: كلمة فارسية معرَّبة، معناها: الثوب الغليظ من الشَّعَر. «لسان العرب»: بلس.

(٥) أي: المدرسة الشيرازية.

(٦) جمع رَوْشن، وهو: الكُوَّة والشُّرفة. «القاموس المحيط»: رشن.

وكانتْ المدرَسَةُ مختومَةً [في أيّامه](١)، لا يدخُلُها ولا يسكُنُها إلّا الأخيارُ مِنَ النَّاسِ، اشترى نَخْلاً وأوقفَهُ، واجتهدَ في عَمارَتِهِ بِنَفْسِهِ ومالِهِ.

صَحِبْتُهُ من المدينَةِ إلى مَكَّةَ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكانَ لا يُعَاشَرُ إلّا بالمُلاطَفَةِ؛ لِقُوَّةِ أخلاقِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

تُوُفِّي بالمدينَةِ سنة ثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ.

ثُمَّ خَلَفَ الشيخَ إبراهيمَ في المدرسَةِ الشَّيخُ **سليمانُ الوَنْشَرِيسيُّ**(٢) من أصحابِنا الكبارِ، لهُ مُجَاهَدَةٌ وتوجُّهٌ عظيمٌ، ومكاشَفَةٌ في كُلِّ حينٍ(٣)، ومتى شَكَى عليه من شِدَّةٍ أو خَوفٍ أشغلَ خاطِرَهُ بِتَفْرِيجها، وأطلَعَهُ الله في المنام على عاقِبَتِها، فلا يمضي يومٌ حتى يُخْبِرَ بما يكونُ من أمرِها، وذٰلك شيءٌ كَانَ دائماً منهُ للإخوانِ والمُعْتَقِدِينَ(٤).

كانَ مُكِبًّا على الصِّيام والقِيام، ولسانُهُ لا يَزَالُ رَطْباً بِذِكْرِ الله تَعَالى وتِلاوَةِ القرآنِ، إذا قَرَأ القُرآنَ لا يَقْرَأُ كَقِرَاءَةِ النَّاسِ اليومَ، بل يرفَعُ صوتَهُ ويُرَتِّلُهُ ترتيلاً عجيباً معَ تَدَبُّرٍ وتَأَمُّلٍ حتَّى يَغِيبَ عن حَوَاسِّهِ، وكانَتْ قِرَاءَتُهُ في المُصْحَفِ نَظَراً لِيَقْوَى بذٰلك على التَّدَبُّر، ولأنَّها أفضَلُ مِنَ القِرَاءَةِ غَيباً.

ولهُ شيءٌ مِنَ التَّصْنيفِ ذَكَرَ فيهِ أحوالَ القَومِ وطَرِيقَتَهُم، وفَصَّلَهُ بِمَوَاعِظَ وتَقْرِيباتٍ ينتَفِعُ بها مَنْ وَقَفَ عليها.

---

(١) زيادة من (أ) و (ب).

(٢) سليمان: أبو الربيع الونشريسي. انظر: «التحفة اللطيفة» ٣/ ٢٢٧. وونشريس: جبل مشهور في غرب الجزائر يَسكُنه قبائل من البربر. انظر: «معجم البلدان» ٥/ ٣٥٥.

(٣) تقدَّم الكلام على المكاشفات. راجع ص١٢١.

(٤) الواجب التعلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده.

ذكر لي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ لما قَدِمَ المدينَةَ سَكَنَ في رِباطِ السَّبيل(١)، وهو على قِلَّةٍ وفاقَةٍ، وكانَ يطوي الأيامَ لا يَجِدُ شيئاً ولا يُفطَنُ له؛ لِتَعَفُّفِهِ [٦٩/ ب] وتَكَفُّفِهِ، حتَّى سَقَطَتْ قُوَّتُهُ وخَشِي على نفسِهِ.

قالَ: وكانَ جِواري رجلٌ صالِحٌ يذهَبُ كلَّ يَومٍ إلى البَرِّ، فيأتي بِحُزْمَةِ حَطَبٍ يبيعُها ويتَقَوَّتُ بها وهُوَ شَيخٌ كبير، وكنتُ أشفِقُ عليهِ لما أرى من ضَعْفِهِ، وكنتُ أقرأُ عَلَى الشَّيخِ عبدالحميدِ(٢) القرآنَ تجويداً مع جماعةٍ مِنَ النَّاسِ لا يعلَمُ أحَدٌ بحالي ولا مَا أقاسِي مِنَ الجوعِ والقِلَّةِ.

قالَ: فجلَسْتُ يوماً في القبلَةِ في المسجِدِ، فجاءَنِي إنسانٌ من ورائِي ورَمَى في حجرِي رغيفاً في الغَلَسِ(٣)، وذهبَ ولم أعلَمْهُ ولا عَرَفْتُ مكانَهُ.

قالَ: فأخذتُ الرَّغيفَ فأكلْتُهُ، فوَقَع في فَمِي شيءٌ أخرجْتُهُ، فوجدْتُهُ ديناراً مغرِبيًّا، فأخذتُهُ وذهبْتُ بهِ في الوقتِ إلى السُّوقِ، وأخذْتُ به طعاماً، وتقوَّتُّ بهِ أياماً، ثُمَّ عُدْتُ إلى مَا كنتُ فيهِ من الفاقَةِ، فعادَ إليَّ ذٰلك الرَّجُلُ ورمى في حِجْري رَغِيفاً وذهبَ في الغَلَسِ، فلم أَعْرِفْهُ، فوجدْتُهُ مثلَ الرَّغِيفِ الأوَّلِ، فاشتريتُ طعاماً، وبَقِيتُ مُتَعَجِّباً من ذٰلك الرَّجُلِ، فعندَ فَرَاغِ ما عندي جاءَ الثَّالِثَةَ فرمى آخرَ على غَفْلَةٍ منِّي، فتعجَّبْتُ مِن هٰذا

(١) رباط السَّبيل: بناهُ محمَّد بن عبدالله بن القاسم، الكمال أبو الفضل الشهرزوري الشافعي القاضي المتوفى سنة ٥٧٢هـ، وبنى أيضاً رباط النساء. ذكره السخاوي في «التحفة اللطيفة» ٦/ ٢٢٨ دون ترجمة، وهو من فقهاء الشافعية المشهورين كما في «طبقات الشافعية الكبرى» ٦/ ١١٧.

(٢) هو: عبدالحميد بن علي الموغاني، ستأتي ترجمته ص٢٢٩.

(٣) الغَلَسُ: ظُلمة آخِر الليل إذا اختلطت بِضَوءِ الصَّباح. «لسان العرب»: غلس.

الرَّجُلِ الَّذِي يعرِفُ الوَقْتَ الَّذِي أَصِلُ فيهِ إلى الضَّرُورَةِ، ولو أَنَّهُ كانَ مَعِي في البَيتِ مَا كانَ يَصِلُ إلى حَقِيقَةِ مَا وَصَلَ إليهِ هٰذا الرَّجُلُ! مَا هٰذا إلا مَلَكٌ أو وَلِيٌّ مِنَ الأولياءِ.

وقلتُ: واللهِ لأرقُبَنَّهُ حتَّى أعلمَ مَكَانَهُ!

قالَ: فلمَّا فرغَ مَا بِيَدِي ارتَقَبْتُ الوَقْتَ الَّذِي يجيءُ فيهِ [٧٠/ أ]، فإذا هُوَ قَدْ جاءَ عَلَى العادَةِ فحقَّقْتُ النَّظَرَ حتَّى عَرَفْتُهُ، فإذا هو جَاري الحطَّاب!

فقلتُ: هٰذا هُوَ الحَقُّ؛ لأَنَّهَ يعلَمُ مِن حالي مَا لا يعلَمُهُ غيرُهُ، ولأنَّ البابَ بالبابِ.

قالَ: فمالَتْ نفسِي إليهِ، والقَلْبُ يَمِيلُ إلى مَنْ أحسنَ إليه، فوانَسْتُهُ فانْعَطَفَ عليَّ وإن كانَ كَرِهَ ظُهُورَ إحسانِهِ إليَّ، ثُمَّ إنِّي تَخَيَّلْتُ منهُ أَنَّهُ يُنْفِقُ مِنَ الغَيبِ، أو مَعَهُ عِلْمٌ من الصَّنْعَةِ؛ لأنَّ مَنْ ظَفِرَ بِإحْدى الخَصْلتَينِ زَهِدَ في الدُّنيا وطَلَبَها بِتَعَبِ النَّفْسِ لِيَكُونَ ذٰلك مِنَ الشُّكْرِ لله تَعَالى على أَنْ مَلَّكَهُ ما لم يَمْلِكْهُ غيرُهُ.

قالَ: فأَنِسْتُ بِهِ حَتَّى سألْتُهُ عن سَبَبِ تَكَلُّفِهِ نَقْلَ الحَطَبِ مَعَ السَّعَةِ، وقلتُ لهُ: هٰذا غيرُ نَظَرٍ مِنْكَ لَكَ.

فقالَ: أردْتُ أشياءَ يا مسكينُ! منها: التَّسَتُّرُ عن الخَلْقِ، ومنها: تذلِيلُ النَّفْسِ وتهذيبُها، فإنَّ النَّفْسَ إذا مَلَكَتْ طاشَتْ وطَغَتْ.

ولم أَزَلْ به حتَّى أَخْبَرَني أَنَّهُ عِلْمٌ وَرِثَهُ وانْفَرَدَ به، فسألْتُهُ أنْ يُعَلِّمَنِيهِ لِأَذْكُرَهُ بِهِ وأستعينَ بِهِ على حالي.

فقالَ لي: إنْ صَحِبْتَني إلى بِلادِي عَلَّمْتُكَ، وإلّا هُنَا فلا، فأقام إلى الموسِم حَتَّى سافرَ ولم يَقْطَع الله بي.

قلتُ: ومَا ماتَ الشَّيخُ حتى تَزَوَّجَ زوجةً صالحةً، كان يقولُ: إنَّهُ في بَرَكَتِها، واتَّسَعَ حالُهُ واشْتَهرَ ذِكْرُهُ، وكانَ يأمُرُ بالمَعْرُوفِ ويَنْهى عَنِ المُنْكَرِ، وزوجتُهُ ميمونةٌ على قدمٍ في العبادَةِ والخيرِ.

تُوُفِّي الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَقِيبَ الحَجِّ، وكانَ قدْ حَجَّ ماشِياً في طريقِ [٧٠/ب] المشيان، فلمَّا كَمَّلَ حَجَّهُ اجتمعَ بي في مِنًى، وقالَ لي: قد عَجِزْتُ عن الرُّجوعِ ماشياً فاكتَرَيْتُ لهُ، وكانَ في صُحْبَتِنا إلى المدينَةِ، فلم يُقِمْ بعدَ الموسِمِ إلا قليلاً، ثُمَّ انتقلَ إلى رحمةِ الله أوَّلَ سَنَةِ سِتٍّ وخمسينَ وسبعِمِئَةٍ.

وكانَ لي مِنَ الإخوانِ في الله العُلَماءِ الرَّبانيينَ أصحابِ الأحوالِ والمكاشَفَاتِ(١) الشيخُ الصَّالحُ العالِمُ العامِلُ **شِهابُ الدِّينِ أَحْمَدُ بنُ عبدالعَزِيزِ ابنِ القَاسِمِ بنِ عبدالرَّحمنِ النُّويرِيُّ العَقِيلِيُّ**(٢). نسبةً إلى عقيلِ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

كانَ لهُ تَردادٌ كثيرٌ إلى الحجازِ يتكرَّرُ كُلَّ سَنَةٍ مَعَ الرَّجَبِيَّةِ(٣) إلى مَكَّةَ المُشَرَّفَةِ في البَحْرِ تارةً وفي البَرِّ أخرى، فلما أَقَمْتُ بِمَكَّةَ عامَ ثمانِيَةَ عشرَ(٤)

---

(١) سبق قريباً التعليق على هٰذا المصطلح.

(٢) انظر: «التحفة اللطيفة» ١/ ٣٣١.

(٣) الرَّجَبية: احتفالات وطقوس لا أصل لها كانت تُقام كلّ سنة في شهر رجب بمكة المكرمة والمدينة المنوَّرة، وهي من البدع التي زالت ولله الحمد.

(٤) في (ب): «ثمانية وعشرون». والتصويب من باقي النسخ و«التحفة اللطيفة».

وسبعِمِئَةٍ صادَفْتُ مجيئَهُ إلى مَكَّةَ وأنا بها، فصحِبْتُهُ فوَجَدْتُهُ من رجالِ الآخِرَةِ ومن بيتِ العِلْمِ والعَمَلِ والمُكَاشَفَةِ[١].

فقالَ لي: أريدُ المَدِينَةَ في هٰذه السَّنَةِ، وقدْ عَزَمْتُ على طَريقِ المَشيانِ، فاعْمَل على الصُّحْبَةِ.

فقلتُ لهُ: يا سيِّدي، أنا لي عن أهلي مُدَّةٌ طويلَةٌ أَكْسَبَتْني قُوَّةَ شوقٍ ووَجْدٍ، وإن سافرتُ مَعَكَ في طريقِ المَشيانِ تَعِبْتُ معكَ؛ لأني أَجِدُّ في المَشْيِ وأنتَ لا تَقْدِر على ذٰلك، فعذَرَني وتأَخَّرَ.

فلمَّا جاءَ الموسِمُ جاءني ودخلَ منزِلي، فاستبشَرْتُ ببَرَكَةِ دخولِه[٢]، وحصَلَ به أُنْسٌ كثِير، ووَعَدَني بخيرٍ كثيرٍ، ثُمَّ تكَرَّرَ إلى مَكَّةَ بعد ذٰلك سنينَ إلى عامِ ثلاثةٍ وعشرينَ وسبعِمِئَةٍ.

ثُمَّ بَلَغَني أَنَّهُ لَمَّا جاءَ [٧١/ أ] مَعَ الرَّجَبِيَّة[٣] تَزَوَّجَ بِنْتَ القاضي نجمِ الدِّينِ الطبريِّ[٤] قاضي مَكَّةَ المُشَرَّفَةِ وإمامِ أَئِمَّتِها وكبيرِها أبي اليُمْنِ مُحَمَّدِ ابنِ مُحَمَّدٍ الطبريِّ الشافعيِّ.

وكان غَرَضُهُم من تزويجِهِ أَنْ تَحِلَّ للشَّيخِ خليلٍ المالكيِّ[٥] إمامِ

---

(١) تقدَّم الكلام على المكاشفة. راجع ص١٢١.

(٢) الواجب تعلق المسلم بربه عَزَّوَجَلَّ.

(٣) راجع التعليق على الرجبية في الصفحة السابقة.

(٤) محمَّد بن محمد الطبري الشافعي، القاضي نجم الدين، أبو اليمن الطبري، قاضي مكة، وإمام أئمتها وكبيرها، توفي سنة ٧٦٠هـ. «العقد الثمين» ٢/ ٢٧١.

(٥) خليل بن عبدالرحمٰن بن محمد، أبو الفضل القسطلاني المكِّي، إمام المالكية، مات في شوال سنة ٧٦٠هـ. «العقد الثمين» ٤/ ٣٢٤، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٣٧.

مقامِ[(١)] المالكيِّ؛ لأنَّهُ كانَ حَنَثَ[(٢)] فيها، ولم يطَّلِعْ على ذٰلك، ولا ذَكَرُوا ذٰلك لهُ؛ لِمَا كانُوا عليهِ مِنَ الوَرَعِ والخيرِ والدِّينِ، فلمَّا حَصَلَ مَعَهُم قامُوا بِحَقِّهِ وخَدَمُوه، وسَعَوا في رِضَاهُ من غيرِ أن يُشْعِرُوهُ أنَّ لهم غَرَضاً غير بَرَكَتِهِ وخِدْمَتِهِ.

فلمَّا [رأى][(٣)] ذٰلك مِنْهُم اغتبَطَ بهم، وأَنِسَ بِبِنْتِهِم، ووَجَدَ منهُمُ الشَّفَقَةَ العَظِيمَةَ، فأقامَ بِمَكَّةَ، وتركَ الرُّجُوعَ إلى بَلَدِهِ، فرُزِقَ منها أَئِمَّةَ مَكَّةَ اليومَ وقُضَاتَها وخُطَبَاءَها وعُلَماءَهَا:

الفقيهُ الإمامُ العالمُ العَامِلُ القَاضِي كمالُ الدينِ أبو الفضلِ الشافعيُّ[(٤)]، والقاضي نورُ الدِّينِ المالكيُّ[(٥)]؛ فتقدَّما على أقرانِهما ورَأَسا.

فولِي القاضِي كمالُ الدين قضاءَ مَكَّةَ وخَطَابَةَ الحَرَمِ ونَظَرَهُ، وولي القاضي نُورُ الدِّينِ مَقَامَ الفَقِيهِ خليلٍ بعدَ ابنِ أخيهِ عُمَرَ[(٦)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إمامَةِ المَقَامِ وفي إمامَةِ الحَجِّ.

---

(١) في الأصل: «فقال» بدل «مقام»، والمثبت من باقي النسخ.

(٢) الحِنثُ: الخُلْفُ في اليمين، حَنَثَ في يمينه حِنْثاً وحَنَثاً لم يَبَرّ فيها. «لسان العرب»: حنث. والمقصود به هُنا أنه علق طلاقها على يمين فحنث فيها فطلقت منه طلاقاً بائناً، فيحتاج في رجوعها إليه إلى محلِّل.

(٣) ما بين المعقوفتين من باقي النسخ.

(٤) محمد بن أحمد بن عبدالعزيز النويري الشافعي، قاضي مكة وخطيبها، توفي سنة ٧٨٦هـ. «العقد الثمين» ١/ ٣٠٠.

(٥) علي بن أحمد بن عبدالعزيز النويري المالكي، إمام المالكية بالحرم الشريف، توفي سنة ٧٩٨هـ. «العقد الثمين» ٦/ ١٣٢.

(٦) عمر بن عبدالله بن عبدالرحمٰن القسطلاني. توفي سنة ٧٦٥هـ «العقد الثمين» ٦/ ٣١٠.

وكان مِن حالِ والدهما أَنَّهُ صَحِبَ زوجَتَهُ إلى أن تُوُفِّيَ والدُها القاضي نجمُ الدِّينِ في سنة ثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ عن اثنتينِ وسبعينَ سنةً رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو مَعَهُم على ما يَجِبُ من العِزَّةِ والإكرامِ وتركِ المُسَاءَلَةِ عمَّا يَجِبُ عليه من النَّفَقَةِ والإدام والكِسْوَةِ وما جرتْ بِهِ العادَةُ من الأزواج.

فبعدَ موتِ والدِها لم يَرَ منهم ذٰلك الوجهَ الَّذي كانَ يعهَدُهُ، فجاءَ [٧١/ ب] مع زوجَتِه إلى المدينَةِ زائراً، وأرادَ أن يُقِيمَ بها ليُذَلِّلها ويهذِّبَها بالغُرْبَةِ والبُعدِ عن أهلِها.

فقالَ لهُ أهلُها: لا يمكِنُ ذٰلك، وشَدَّدُوا في رُجُوعِها مَعَهُم.

فقالَ عَلَى طريقِ التَّغليظِ عليهِم والتَّشْدِيدِ وإِقَامَةِ العُذْرِ: أنا قدْ حَلَفْتُ بالطَّلاقِ الثَّلاثِ أَلّا يكونَ لها مَعَكُم سَفَرٌ في هٰذا الوقتِ!

ولم تكنْ لهُ نِيَّةٌ، وإنَّما أرادَ التهويلَ عليهِم، فَعَزَمُوا عليهِ والتزمُوا لهُ الرُّجوعَ إلى مَا كانَ عليهِ، فسافرَ مَعَهُم وقَرَّرُوا عليهِ يمينَهُ، وأخذُوهُ بِظَاهِرِ لفظِهِ، فطلَّقُوهَا منهُ، فاشتَدَّ عليهِ الأمرُ، وعَظُمَ عليهِ ما وَقَعَ منهُ وفيهِ، ولم يَجِدْ من يُسَاعِدُهُ على مَا نواه إذْ أَسَرَتْهُ البَيِّنَةُ.

فلمَّا رأى أنَّها بَلِيَّةٌ لا يُمكِنُ زوالُها رَجَعَ إلى المدينةِ المشرَّفَةِ وأقامَ بها، وكانَ يُصَلِّي إلى جنبي الصَّلَواتِ، فأرى منهُ مِنَ التَّوَجُّعِ والالتِهَابِ والشَّوقِ ما لم أَرَهُ من أَحَدٍ، فكنتُ أعذِرُهُ في البَاطِنِ، وأُهَوِّنُ عليهِ الأمرَ في الظَّاهِرِ، فيقولُ: وَيْلٌ للشَّجِيِّ مِنَ الخَلِيِّ(١)!

---

(١) هٰذا من أمثال العرب؛ ومعناه: أيّ شيء الذي يلقاه الشجي من الخلي من ترك الاهتمام بشأنه؛ لخلوه مما هو مبتلى به، وأنه لا يُساعده على همومه، ومع ذٰلك يعذله. انظر: «مجمع الأمثال» ٢/ ٣٦٧.

ثُمَّ إنَّهُ لم يَجِدْ مَا يَغِيظُهم به إلّا أخْذَ أولادِهِ منهم، فأخذَهُم منهم بالشَّرعِ، فأقاما معهُ وهما صَغِيرانِ فتَعِبَ وتَعِبَا، فَيَسَّرَ اللهُ تَعَالى مَنْ أَخَذَهُم منهُ خُلْسَةً[1]، وحمَلَهُم إلى مَكَّةَ عندَ أُمِّهِم وخالِهِم القاضي شهابِ الدِّينِ، فَرَبَّوهُما أحسَنَ تَربيَةٍ، فجاءَ منهما ما تقدَّمَ ذِكْرُهُ.

ولمَّا عَلِمَ الفَقِيهُ خَليلٌ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ في فِراقِها لهُ شُبْهَةً تورَّعَ عن زواجِها وتَرَكَها، فلم يَزَلْ كذٰلك حَتَّى تُوُفِّي شهابُ الدِّين النُّويرِيُّ بالمدينةِ، فحينَئِذٍ [٧٢/ أ] تَزَوَّجَها وماتَتْ عندَهُ، رَحِمَ اللهُ الجَمِيعَ.

وكانَ الشيخُ شِهابُ الدِّينِ مِن بيتِ الكرامَاتِ والمُكَاشَفَاتِ[2]، لهم حِكَاياتٌ ومقاماتٌ مَشِيدَاتٌ.

جلستُ إليه يوماً بعد أن صَلَّيتُ ركعتينِ، وكانَ قَدْ أظلَّنا مجيءُ الحَاجِّ، فكانتْ صلاتي كُلُّها وَسْوَسَةً بما يجيءُ بِهِ الحَاجُّ، ومَا يكونُ من وَظَائِفِي، ومَا يجيءُ منها، وغيرِ ذٰلك.

فقالَ لي عَقيبَ فَرَاغي: يا فقيهُ! مَا أقلَّ أدبَ العَبْدِ مَعَ الله تَعَالى، خَلَقَهُ وأوجَدَهُ وتكفَّلَ بِرِزْقِهِ، وجَعَلَ الرِّزْقَ يجري مَعَ الحاجَةِ لا يتعدَّاها، ولم يُرِدْ منهُ إلّا الإخلاصَ والتَّوَكُّلَ والعِبَادَةَ، وقدْ جَرَّبَ العَبْدُ وعْدَه تَعَالى فَوَجَدَهُ صحيحاً لا يختلُّ مَعَهُ، ورِزْقُهُ يأتيهِ كُلَّ حينٍ وكُلَّ يومٍ وكُلَّ ساعةٍ حَسبَمَا يُقَدِّرُهُ اللهُ تَعَالى، ثُمَّ إنَّهُ سبحانَهُ أمرَهُ بِصَلاةٍ وزَكاةٍ وصِيامٍ، ووقَّتَ

---

(١) الخَلْسُ: الأخذ في نُهْزَةٍ، والخُلْسَة بالضم: النُّهْزةُ، والفُرْصة، يُقَال: هٰذه خُلْسَةٌ فانْتَهِزْهَا. «لسان العرب»: خلس.

(٢) تقدَّم الكلام على المكاشفات.

لهُ من ذٰلك وقتاً وأمرَهُ لا يتعدَّاهُ بِتَقْدِيم ولا تأخيرٍ، ففعَلَ العبدُ ذٰلك، وقدَّرَ له رِزْقاً ووقَّتَهُ عنده بِوَقْتٍ معلومٍ، ثُمَّ إنَّ العبدَ يُسيءُ إلى ربِّهِ بأن يتَّهِمَهُ فيما وَعَدَهُ بِهِ! فيقولُ: يا ترى يَجِيئُني شيءٌ في هٰذه السَّنَةِ أم لا؟ وإن جاءَ فهل يَجِيئُني كاملاً أو يَنْقَطِعُ بعضُهُ؟ ومن هٰذه الأشياءِ الَّتِي إلى الشِّرْكِ أقرَبُ، أليسَ هٰذا من قِلَّةِ الأَدَبِ؟

فعلمتُ أنَّهُ إنَّما أرادَني بهٰذا الكلامِ، فاستغفرتُ الله العظيمَ، ورَجَعْتُ فَنِلْتُ بذٰلك خيراً كثيراً، ولهُ كراماتٌ لا يَسَعُ ذكرُها هُنا.

ولمَّا كانَ في سنة سبعٍ وثلاثين وسبعِمئة قدِمَتْ قافلةُ مَكَّةَ [٧٢/ ب] ومعهم القاضي شهابُ الدِّينِ ومُطَلَّقَتُهُ وولَدَاهُ، فطَلَعَ بها شِهابُ الدِّينِ إلى الأميرِ وُدَيِّ بنِ جَمَّازٍ(١) صاحبِ المَدِينَةِ، وكَلَّمَهُ في شأنِ زوجَتِهِ وأولادِهِ، وأخَذَ خَطَّهُ بأن يُعْقَدَ لهم مَجْلِسٌ شَرْعِيٌّ، وكانَ ذٰلك في أوَّلِ نهارِ الأربعاءِ خامِسَ شَهرِ المُحَرَّمِ مِنَ السَّنَةِ المَذْكُورَةِ، فَمَرِضَ في آخرِ ذٰلك النَّهَارِ، ولم يَزَلْ مَرِيضاً إلى أن تُوُفِّيَ بعدَ العَصْرِ يومَ الأحَدِ سادسَ عَشَرَ المُحرَّمِ، ودُفِنَ بعدَ المَغْرِبِ بِالبَقِيعِ قريباً من مالكِ بنِ أنسٍ ممَّا يَلِي الطَّرِيقَ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولمَّا ذُكِرَ الفقيهُ خليلٌ استطراداً فلا بُدَّ من ذكرِهِ ارتِياداً(٢).

فقدْ كانَ مِنْ أئِمَّةِ الدِّينِ والمُتَسَمِّينَ باليَقِينِ، كانتْ مَكَّةُ المشرَّفَةُ بَلَدَهُ ودارَ إِقامَتِهِ، ولكنْ قَلَّ أنْ تَجِيءَ قافلةٌ من مَكَّةَ للزِّيارَةِ وما هُوَ مَعَها شَوقاً

---

(١) الشريف ودي بن جماز بن شيحة الحسيني، أمير المدينة النبوية، يُلقب بدر الدين، توفي في الحبس سنة ٧٢٩هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ٤٠٦، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٥٠٤). وستأتي ترجمته في فصل أمراء المدينة.

(٢) في (ب) و(ج): «استبداداً».

لهٰذا النَّبِيِّ الكريم ﷺ، وكانَ قد أقامَ وجاورَ، وقرأَ على والدي العربيَّةَ، وكانَ ملازِماً لِدَرسِهِ وانتفعَ وحصَّلَ.

وكانَ يُقولُ لي: مَا عندَ الشَّيخ من كُتُبِ العربيَّةِ؟

فأقولُ لهُ: ما عَلِمْتُ عندَهُ شيئاً سوى شيءٍ من «شرحِ الجُمَل»[1] لابنِ عُصفُورٍ[2].

فيقولُ لي: مَا هٰذا مِنْ جَوَانِح ابنِ عُصْفُور! هٰذا الذِّكْرُ العَظِيمُ والإلْقَاءُ والتَّفَهُّم لا يكونُ إلّا عن إلهام أو كَثْرَةِ اشتغالٍ، وكَثْرَةِ كُتُبٍ يَلْتَقِطُ مَحَاسِنَها ويُرَتِّبُ قوانِينها.

فأقولُ لهُ: ما عندَهُ غيرُ مَا ذَكَرْتُ لكَ.

كانَ حالُ الفقيهِ خليلٍ معلوماً مشهوراً من البِرِّ والصَّدَقَةِ ومُواسَاةِ [٧٣/ أ] الفُقَرَاءِ، وتَحَمَّل الدَّيْن العَظِيم لأجلِهِم، يَنْتَهي دَينُهُ في بعضِ السِّنينَ إلى قريبٍ من مِئَةِ ألفِ درهمٍ نقرةً[3]، ثُمَّ يقضِي اللهُ تَعَالى على أَبَرِّ ما يكونُ.

كانَ لهُ مِنَ الدِّين فوقَ ما يَصِفُهُ الواصِفُونَ، ومِنَ العِلْم مثلُ ذٰلك، ومن الوَرَعِ والتَّمَسُّكِ بالسُّنَّةِ فوقَ ذٰلك، قُلْ عن البحرِ فالبَحْرُ يَقِفُ دُونَهُ.

---

(١) «شرح الجمل الكبير» في النَّحو، «الجُمل» للزجاجي، وشرحه ابن عصفور الأندلسي شرحين، والشرح الكبير منهما مطبوع في مجلدين.

(٢) علي بن مؤمن بن محمد، الحضرمي الإشبيلي، أبو الحسن المعروف بابن عصفور: حامل لواء العربية بالأندلس في عصره، مات بتونس سنة ٦٦٣هـ. «الوافي بالوفيات» ٢٢/ ١٦٥.

(٣) الدرهم النقرة: هو الدرهم الفضي الخالص، الذي كان يُستعمَل أيام الأيوبيِّين. انظر: «النقود العربية» للكرملي، ص٦٠.

كانَ لي منهُ النَّصيبُ الوَافِرُ في دُعائِهِ ومكاتَبَتِهِ ونَشْرِ ذِكْرِي عندَ أهلِ الخيرِ، جزاهُ الله خيراً، وكانَ عندَهُ مِنَ الوَسْوَسَةِ في طَهارَتِهِ ما اشْتَهَرَ مَثَلاً في الأقطارِ(١).

تُوُفِّي الفقيهُ خَلِيلٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ سِتِّينَ وسبعِمِئَةٍ.

وفيها تُوُفي القاضي شِهابُ الدِّينِ قاضي مَكَّةَ، وكانا سِراجَيْ مَكَّةَ؛ هٰذا في فَنِّهِ وهٰذا في فَنِّهِ، وقلَّ أن يَخْلُفَهُما مثلاهما فيما بَقِيَ من الدَّهْرِ رحمهما الله تَعَالى.

ومِنْ إخْوانِنَا المَكِّيِّينَ المُكْثِرِينَ مِنَ الإقامةِ في المدينةِ المُحِبِّينَ في هٰذا المقامِ الشَّريفِ: أخونا في الله **مُحَمَّدُ بنُ سالمٍ الفقيهُ الشافعيُّ**(٢).

كانَ أخا صِدْقٍ ذا وَرَعٍ ودينٍ وعلمٍ واجتهادٍ في الصَّلاةِ والصِّيامِ والقِيامِ، وكَسِبَ من الدُّنيا كثيراً لما كان يعاني مِنَ التَّسَبُّبِ والحَرَكَةِ والسَّفَرِ، فلمَّا انْقَطَعَ من ذٰلك قلَّتْ عليهِ الدُّنيا، فَصَبَرَ وصابَرَ على العِبَادَةِ والتَّخَلِّي عن أصحابِهِ، ومَنْ كانَ يَعْرِفُهُ أيامَ يُسْرِهِ وشَبَابِهِ.

له أحوالُ المشايخ الكِبَارِ، مَعَ طهارَةِ اللِّسانِ في عِرْضِ كُلِّ إنسانٍ، ولو أوذي حَمَلَ وصَبَرَ، رأيتُهُ كثيراً ما يَجعلُ في فِيهِ حَصَاةً تمنَعُهُ من الكلامِ خوفاً [٧٣/ ب] من لسانِه، وصوناً لِفُضُولِ كلامِهِ.

---

(١) الواجبُ دفعُ هٰذه الوسوسة وعدم الاسترسال معها، ومجاهدة النفس في ذٰلك حتى تذهب، وليس في بقائها مَنقبةٌ حتى يُضرب بها المثَل، بل كثيراً ما تكون لنقص في العقل.

(٢) محمد بن سالم بن إبراهيم بن علي بن الحضرمي الأصل، اليماني ثم المكي الشافعي، الجمال أبو عبدالله، مات بمكة سنة ٧٦٤هـ. «العقد الثمين» ٢/ ١٩، «التحفة اللطيفة» ٦/ ١٥٨.

صحبتُهُ فوقَ ثلاثينَ سَنَةً فلم أَرَ كأُنْسِهِ وكَرَمِهِ ومحبَّتِهِ، تراه يترُكُ في أَيَّامِ الموسِم حوائِجَهُ وحوائِجَ أهلِهِ ويتطَلَّبُ أصحابَهُ فيُنزِلُهم في منزِلِهِ ويُضَيِّفُهُم، ويبذُلُ لهم الخِدْمَةَ والطَّعَامَ والماءَ البارِدَ الحُلْوَ، ويُخلي لهم دارَهُ التي هو فيها.

هٰذا دأبُهُ مع كُلِّ معارِفِه، حتى إِنَّهُ لَيَذْهَبُ إليهم وهم في منازِلِهم فيُرَحِّلُهم إلى بيتِهِ ويعزِمُ عليهم في ذٰلك، وكان بَشُوشاً ضَحُوكاً مَزَّاحاً في حَقٍّ، ومتى جرى منه جَفْوَةٌ أو غِيبةٌ ذَهَبَ إلى ذٰلك الشَّخصِ وتحلَّلَ منه وسألَهُ المغفِرَةَ لَهُ.

وخَلَّفَ أولاداً كانَ أنجبَهُم أوسطُهُم **عبدُالرَّحمن**[١]، كانَ فيه من الحياءِ والأدَبِ وقضاءِ الحوائجِ ما كان في والدِهِ وزيادَةٍ، تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنةَ ستٍّ وستينَ وسبعِمِئَةٍ، وأما والدُهُ فتُوُفِّيَ سنةَ أربعٍ وسِتِّينَ[٢] فيما يَغْلِبُ على ظَنِّي رحمهما اللهُ تعالى.

وكانَ مِمَّنْ رَفَعَ مَكَانَتَهُ وشَهَر بينَ النَّاسِ مَنْزِلَتَهُ محلَّ الوالِدِ الشَّيخُ الفقيهُ الجليلُ العلّامَةُ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ أبو الخيرِ[٣] **ابنُ** سَيِّدِنا وشَيخِنا أبي عبدالله الفَاسِيِّ الحَسَنِيِّ نزيلِ مَكَّةَ المُشَرَّفَةِ.

نشأَ في عبادَةِ الله، وتَبَتَّلَ[٤] للاشْتِغَالِ بِالمَذْهَبِ المالِكِيِّ حَتَّى رآهُ

(١) «التحفة اللطيفة» ٤/ ٣٠٠.

(٢) في (ج) زيادة: «وسبعمئة».

(٣) محمد بن محمد بن عبدالرحمٰن، الشريف الحسني، القاضي المكِّي، أبو الخير. «الدرر الكامنة» ٤/ ٢٢٥، «العقد الثمين» ٢/ ١١٢.

(٤) تَبَتَّلَ إلى الله تعالى: انقطع وأخلص. «لسان العرب»: بتل. والمقصود هنا: أنه انقطع لدراسة المذهب.

النَّاسُ أهلاً للتَّدْرِيسِ والإِلْقَاءِ والإفَادَةِ، فَدَرَّسَ واشْتَغَلَ وصَحِبَ رِجَالاً مِنْ مشايخِ الوَقْتِ.

وارْتَحَلَ إلى الإِسْكَنْدَرِيَّةِ وأَدْرَكَ بها مِنْ أهلِ العِلْمِ والصَّلاحِ والأَئِمَّةِ جماعةً كثيرينَ، [٧٤/أ] فَصَحِبَهُم وأَخَذَ عَنْهُم، وكَسَبَ مِنْ أخلاقِهِم ومحاسِنِ صِفَاتِهِم ما أظهَرَ عليهِ نُوراً وبَهاءً ورِئَاسَةً لم تَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْ نُظَرَائِهِ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

تُوُفِّي عام سبعةٍ وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ بِالمدينَةِ المُشَرَّفَةِ، ودُفِنَ حِيَالَ قبرِ سَيِّدِنا إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وكانَ مِنْ أصحابِنا الكِبَارِ الذين لهم وَرَعٌ ودِينٌ وصَلابَةٌ ويَقِينٌ: الشَّيخُ العارِفُ المُتَعَبِّدُ الوَرِعُ الزَّاهِدُ أبو عبدالله **مُحَمَّدُ بنُ عَرَفَةَ التُّونِسِيُّ**(١)، كانَ من أصحابِ الوالدِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لم أرَ أحَداً مثلَهُ في اجتهادِهِ وتحرِّيهِ في العِبادَةِ ومُواظَبَتِهِ على الحَجِّ والزِّيارَةِ، كانَ من أعيانِ أهلِ تُونُسَ، لم يزلْ يَتَكَرَّرُ إلى المدينَةِ من بَلَدِهِ؛ لِتكُونَ وَفَاتُهُ بِأَحَدِ الحَرَمَينِ، فكانَ كذلك.

تُوُفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمدِينَةِ في حُدُودِ سنةِ ثَمانٍ وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ.

ولهُ وَلَدٌ عَلَّامَةٌ وَرِعٌ زاهِدٌ(٢)، وعليهِ اليومَ في تُونُسَ مَدَارُ الفُتْيا والاشْتِغَالُ في علومِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ.

---

(١) محمد بن عَرَفَة المالكي الوَرْغَمي التونسي، جاور بالمدينة وكان من العلماء الصالحين. «شرح حدود ابن عرفة» ص٦١.

(٢) مُحَمَّد بن محمد بن عَرَفَة المالكي الوَرْغَمي التونسي، عالم المغرب، مات سنة ٨٠٣هـ. «غاية النهاية» ٢/ ٢٤٣، «الضوء اللامع» ٩/ ٢٤٠.

وكانَ مِن كبارِ الأولياءِ المُتَحَلِّينَ بالعِلْمِ والعَمَلِ والزُّهدِ والوَرَعِ قاضي طَنْجَةَ الشَّيخُ **أَبو الغمْرِ الطَّنْجِيُّ**(١).

انفَرَدَ في مُدَّةِ إقامَتِهِ بالمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ عن أقرانِهِ في العِلْمِ والعَمَلِ والانْقِطَاعِ والتَّوَجُّهِ العَظِيمِ والصَّومِ والمُجاهَدَةِ حتَّى لم يبقَ منهُ إلّا الخَيَالُ(٢)، فإنَّ مَسْكنَهُ بِرِبَاطِ دُكَّالَةَ بالحُجْرَةِ الَّتِي هي مَسْكَنُ الأولِياءِ والأخيارِ، فكان يُقْرِئُ العِلْمَ فيها.

قرأتُ عليه الفرائِضَ والحِسَابَ، وكانَ يُؤثِرُني ويدعُو لي، ومالَتْ نفسُهُ إلى الزَّواجِ وأحبَّ أن يكونَ [٧٤/ ب] على السُّنَّةِ، فخطَبَ لهُ أصحابُهُ امرأةً حَسَنَةً وَسِيمَةً، فلمَّا دَخَلَ عليها قبلَ اجْتِمَاعِهِ بها نَظَرَ إليها فوجدَها مُوشَمَةَ(٣) الشَّفَة، فأقامَ ليلتَهُ، ثمَّ خرجَ ولم يَمَسَّها ودفعَ لها صَدَاقَها كامِلاً وطلَّقَها، ثمَّ لم يَتَزَوَّجْ حَتَّى تُوُفِّي.

أقامَ بالمدينةِ مُدَّةً طويلةً، ثُمَّ انتقلَ إلى مَكَّةَ فأقامَ بها مثلَها على عِبَادَةٍ وكَثْرَةِ طوافٍ حَتَّى إنَّهُ كادَ لا يُوجَدُ إلّا فيه.

---

(١) السائب بن عبدالله بن السائب: القاضي، أبو الغمر الأنصاري الخزرجي الطنجي، توفي في رمضان سنة ٧١٨هـ. «العقد الثمين» ٤/ ٥٠٣، «التحفة اللطيفة» ٣/ ٢٨١.

(٢) العبادة بهٰذه الطريقة من الغُلوّ في الدِّين، وهو منهيٌّ عنه، ولم يكن هٰذا شأنَ النبيِّ ﷺ في عبادته، فقد قال ﷺ: «أمَا والله إنِّي لأخشاكُم لله وأتقاكُم له، لكنِّي أصوم وأُفطِر، وأصلي وأرقُد، وأتزوَّجُ النِّساء، فمن رغب عن سُنَّتي فليس منِّي» أخرجه البخاري.

(٣) الوَشْمُ: هو أن تَغْرِز المرأة ظهرَ كفِّها ومِعْصَمَها بإبْرةٍ أو بمِسلَّة حتى تُؤثِّر فيه ثمَّ تحشوه بالكُحل أو النِّيل، فيَزْرَقُّ أثره أو يَخْضَرُّ، ويكون أيضاً على الجلد والشِّفاه. «لسان العرب»: وشم. وعن نافع عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ رسول الله ﷺ قال: «لعن الله الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة» متفق عليه.

قالَ لي الشَّيخُ العالِمُ العامِلُ الحافِظُ المُحدِّثُ أبو عبدالله الوادي آشي: إنَّهُ سَأَلَهُ، فقالَ: سَيِّدي، هل وَقَفْتَ في مُدَّةِ إقامَتِكَ بِمَكَّةَ على مُغرِبَةٍ[1] أو كرامةٍ أعدُّها عنكَ وأرويها لمنْ بَعْدَكَ؟

فقال لي: وما تحتَ ذٰلك من طَائِلٍ[2]؟

فألححتُ عليهِ، فقالَ لي: كنتُ ليلةً أطوفُ بالبيتِ وحدي فيما ظَهَرَ لي، فرأيتُ عن يميني وعن شمالي رِجالاً يطوفُونَ مَعِي رُؤُوسُهم مُشْرِفَةٌ على البَيتِ.

واجتمعتُ به عامَ ثمانِيَةَ عَشَرَ وسبعِمِئَةٍ بِمَكَّةَ، فوجدتُهُ قدْ ضَعُفَ واشتَدَّ عليهِ السُّعالُ، وانتَفَعْتُ بِمُجالَسَتِهِ وأفادَني بِوَعْظِهِ وبِحِكْمَتِهِ وبعِلْمٍ اسْتَبَدَّ بِهِ.

ثُمَّ قالَ لي: ما أَظُنُّهُ إلّا حَضَرَ أَجَلِي، وأُحِبُّ أنْ تَكُونَ وفاتي بِالمَدِينَةِ في جوارِ سيِّدي رَسُولِ الله ﷺ.

فقلتُ لهُ: اعمَلْ على ذٰلك.

فأوصاني أنْ أشتَرِيَ لهُ مِنَ الدَّقيقِ وغيرِهِ ما يكفِيهِ لِسَنَتِهِ، وكانَ ذٰلك في شهرِ رمضانَ، وكانَ يَبيتُ في بيتٍ عندَ بيتِ الفَقِيهِ خَليلٍ المالكيِّ، فطافَ يوماً ثُمَّ خرجَ مِنَ المَطَافِ ودَخَلَ دِهْلِيزَ[3] الفقيهِ خليلٍ عند بابِ إبراهيمَ،

---

(١) الخبرُ المُغْرِبُ: الذي جاءَ غريباً حادثاً طريفاً. «لسان العرب»: غرب.

(٢) أَصل الطائل: النفع والفائدة، ويقال: هٰذا أمر لا طائلَ فيه، إذا لم يكن فيه غَنَاءٌ ومَزِيّة. «لسان العرب» طول.

(٣) الدِّهْلِيز: ما بين الباب والدار، فارسي معرب. «لسان العرب»: دهلز.

ثُمَّ دعا بِفِراشٍ واستقبلَ القبلَةَ ثُمَّ قضَى أَجَلاً [٧٥/ أ]، ومضى عَجِلاً، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكانَ ذٰلك في السَّنَةِ المذكُورَةِ، فلم أَرَ جَنازَةً كَثُرَ تابِعُها رِجَالٌ ونِسَاءٌ وكبارٌ وصِغَارٌ مِثْلَ جَنازَتِهِ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

رأيتُ النَّعْشَ محمُولاً على رُوؤسِ الأَصَابع، ورأيتُ الكَفَنَ قدْ اسْوَدَّ من أيدي النَّاسِ يَلْمَسُونَهُ للبَرَكَةِ[(١)]، وصَلَّى عليهِ القاضي نجمُ الدِّينِ[(٢)]، رحمهما الله تَعَالى.

ورأيتُ اليومَ على طريقَتِهِ وأزيدَ في الوَرَعِ والزُّهدِ صاحِبَنا الشَّيخ **مُوسى بنَ عليٍّ المُرَّاكِشِيَّ**[(٣)]، نفعَ الله بهِ وبِدُعائِهِ.

وإنَّما نَبَّهْتُ عليهِ لما خَالَطَنِي من مَحَبَّتِهِ واعتقادِهِ، ولما احتوى عليه من العلمِ والعَمَلِ والوَرَعِ الكثيرِ الذي هو من صِفَاتِ الأولياءِ الكبارِ والمُحَقِّقينَ من الأبدالِ[(٤)]، أعانَهُ الله عَلَى مَا هُوَ مُلْتَزِمُه مِنَ الخيرِ الكثيرِ والدِّينِ المَتينِ،

---

(١) تقدَّم الكلام على التبرك. راجع ص١٣٦.

(٢) القاضي نجم الدين الطبري، تقدمت ترجمته ص١٩٧.

(٣) موسى بن علي بن عبدالصمد المراكشي، نزيل مكة، كان خيِّراً صالحاً مشاركاً في الفقه، أفتى بالحرمين، توفي سنة ٧٨٩هـ. «العقد الثمين» ٧/ ٢٩٩، «إنباء الغمر» ٢/ ٧٧، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٣٣٠).

(٤) الأبدال: جمع بَدَل، وهو لفظ جاء في أحاديث ولكنها لا تصحّ. انظر «المنار المنيف» ص٣٠٧، حيث قال: «أحاديث الأبدال والأقطاب والأغواث والنقباء والنجباء والأوتاد كلها باطلة على رسول الله ﷺ». وقد استعملهُ بعضُ أهل العلم، وقيَّده آخرون بأهل الحديث وأهل السُّنة إذا ذهب منهم طائفة أبدل الله عَزَّوَجَلَّ بهم طائفة أخرى.

حَتَّى إِنَّهُ لا يَتَنَاوَلُ من الحَلالِ إِلّا القُوتَ الشَّظَفَ[١] اليَسيرَ، لا يأكُلُ في أرضِ الحِجَازِ لحماً ولا تمراً ولا سَمْناً[٢]، وإنمَّا يُعْمَلُ لهُ شيءٌ يسيرٌ مِنَ الخُبْزِ بلا أُدْمٍ في أكثَرِ الأوقاتِ، وإن كانَ إدامٌ في بَعْضِ الأوقاتِ فَلِفْتٌ مَسْلُوقٌ، ورُبَّما اكتَفَى المُدَّةَ الطَّويلَةَ بالحَرِيرَةِ من دقيقِ الشَّعيرِ ليسَ لها إِدَامٌ، مَعَ الصِّيامِ الدَّائِمِ[٣] والقِيامِ المُسْتَمِرِّ في صِحَّتِهِ ومَرَضِهِ، إلّا أن يَمْرَضَ مَرَضاً طَويلاً فحينئذٍ يُفْطِرُ.

وأمَّا في العِلْمِ بِمَذْهَبِ مالكٍ وغيرِه والأُصُولِ والفَرَائِضِ وغيرِ ذٰلك مِنَ العُلُومِ فهو رُحْلَةٌ؛ صَحِبْتُهُ حَضَراً وسَفَراً فرأيتُهُ رَجُلاً عَلِمَ ما يَطلُبُ فهانَ عليهِ ما يَجِدُ، وذٰلك مع نَضَارَةِ الشَّبَابِ، وأَنْوارٍ من مَوَاهِبِ المَلِكِ الوَهَّابِ، نفعَ اللهُ بِهِ، وأكثرُ إِقَامَتِهِ بالمَدِينَةِ، وهو الآنَ بِمَكَّةَ شرَّفَها اللهُ تَعَالى.

[٧٥/ ب] وكانَ من شُيُوخِنا وأصحابِ والِدِنا: الشَّيخُ **أبو عبدالله القَبْتَورِيُّ**[٤]، مِنَ العُلَماءِ المُتْقِنِينَ من أهلِ الأندَلُس، له علوُّ سَنَدٍ في «المُوَطَّأ» و«الشِّفَاء»، وانْقَطَعَ في المدينَة مع أصحابٍ لهُ، كانَ مُلازِماً للمَسْجِد لا يُرى إلّا وحدَهُ ذاكِراً أو مُصَلِّياً.

---

(١) الشَّظَفُ: يُبْس العيش وشِدَّتُه. «لسان العرب»: شظف.

(٢) الامتناع عن اللحوم والتمر وغير ذٰلك من المباحات تديُّناً ليس له أصل شرعيّ، بخلاف الامتناع لعدم الرَّغبة والشهية، أو لضرر صحيّ، هٰذا لا حرج فيه.

(٣) هٰذا خلاف سُنة النبيِّ ﷺ؛ فقد نهى ﷺ عن صوم الدَّهر، كما في «صحيح مسلم» (١٩٧٣).

(٤) هو: خلف بن عبدالعزيز بن خلف الغافقي القبتوري، نسبة إلى قَبْتَور: جزيرة بالمغرب. «المغانم المطابة» ٣/ ١١٨٢، «الدرر الكامنة» ٢/ ٨٥، «التحفة اللطيفة» ترجمة (١٠٧٥).

كانَ الشيخُ أبو عبدالله مُحَمَّدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ مُحَمَّدٍ الغَرناطِيُّ[١] يحكِي عنهُ مُغربَاتٍ في أفعالِهِ وأقوالِهِ، اشتَرى هُوَ وأخو الشَّيخ أبي العَلاء وآخرُ مَعَهما قطعةَ أرضٍ في طَرَفِ البَقيعِ جعَلُوها تُربَةً لهم فَدُفِنُوا فيها.

وهي في طَرَفِ البَقِيع على طريقِ المارِّ إلى مسجِدِ الإِجَابَةِ[٢] بينَ نَخْلٍ يحُفُّها من جوانِبِها قد دُثِرَ رَسْمُها، ومَا أَخْوَفَنِي أن تُمْلَكَ وتُغْرَسَ؛ لأَنَّ العارِفَ بها اليومَ قليلٌ، ولو كانتْ على السَّبيل، ولكن بِبَرَكَةِ نِيَّاتِهِم يُحفَظُونَ إن شاءَ الله تَعَالى مِمَّنْ يَنْشُرُ قُبُورَهُم أو يُشَوِّشُ عليهم، فإنَّهم كانُوا من عبادِ الله الصَّالِحينَ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

وكانَ من قُدَمَاءِ الشُّيوخِ المُبَارَكِينَ المَشْهُورِينَ: الشَّيخُ **مُحَمَّدٌ البَلاسِيُّ**[٣].

كانَ شيخاً صالحاً، وكانَ يجلِسُ في وَسَطِ الحَرَم معَ جماعةٍ من الفُقَراءِ

---

(١) محمد بن محمد بن محمد الغرناطي، الشَّيخُ، الفقيهُ، العالِمُ، النَّاسك، أبو عبدالله، الفَرَضِيُّ، المُقرئ، أتقن القراءاتِ السَّبع وجوَّد، وأحكم الفرائض والحساب، وأتقن صناعة الدهان، مؤذِّن الحرم الشريف، اشتهر بالعفة والمعرفة. مات سنة ٧٥٤هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٨٣، «الدرر الكامنة» ٤/ ٢٣٦، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٣٩٥٤).

(٢) هو مسجد بني معاوية بن مالك بن عوف من الأوس، يقع في الجهة الشرقية من الحرم النبويّ الشريف، على يسار البقيع، بجوار مستشفى الأنصار. وسُمِّي بمسجد الإجابة لما رُوي فيه من حديث عَامر بن سَعْدٍ عَنْ أبيه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: إنَّ رسول الله ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يومٍ من العالية حَتَّى إِذَا مَرَّ بمَسْجد بني مُعَاويةَ دخل فركع فيه ركعتين، وصلّينا معه ودعا ربَّه طويلاً، ثم انصرف إلينا فقال: «سألتُ ربِّي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدةً؛ سألتُ ربِّي ألّا يُهلك أمتي بالسَّنَة فأعطانيها، وسألتُه ألّا يُهلِك أمَّتي بالغرق بأعطانيها، وسألتُه ألّا يجعل بأسهم بينهم فمنعَنيها» أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هٰذه الأمة بعضهم ببعض، (٢٨٩٠). وانظر: «المغانم المطابة» ٢/ ٥٢٥.

(٣) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٠٧٢) نقلاً عن المؤلف.

المَجْلُوبِينَ، وكانَ مِمَّنْ قطعَ البلادَ شرقاً وغرباً، لا تَفنى حِكايَاتُهُ وغرائِبُهُ.

وممّا أخبرَ بِهِ من الغَرائِبِ أَنَّهُ دخلَ قريةً في اليَمَن مع جَماعَةٍ من الفُقَرَاءِ، فَوَقَفُوا على امرأةٍ تَبيعُ اللَّبَنَ، فكأنَّ واحِداً من الفُقَرَاءِ نَظَرَ اللَّبَنَ فوجَدَهُ مَشُوباً بالماءِ فَصَبَّهُ على رأسِها.

قالَ الشيخُ مُحَمَّدٌ: فَلُمْنَاهُ على ذٰلك.

ثُمَّ رَجَعْنا إلى مَنْزِلِنا وقدْ أَغْظْنَاها، فلم نَدْرِ [٧٦/ أ] بصاحِبنا إلّا وقدْ رَجَعَ في صُورَةِ حِمارٍ، ولهُ ذَنَبٌ كَذَنَبِ الحِمَارِ! فَعَلِمْنَا أَنَّها سَحَرَتْهُ، فَجِئْنا إليها واسترضَيناها فلم تَرْضَ، فَدَخَلْنا على كِبَارِ مَشَايخ بَلَدِها فغَلَبُوا عليها ففكَّتْ سِحْرَهَا عن صُورَتِهِ، وبَقِي معَهُ ذنَبُ الحِمارِ أَبَتْ أَنْ تُزِيلَهُ!

فسافَرْنا من تلكَ القَريَةِ وصاحِبُنَا على حالِهِ، ولم يَزَلْ كَذٰلك حتَّى قَدِمْنَا المدينةَ ونحنُ في شِدَّةٍ عَظِيمَةٍ من ذٰلك الأمرِ، وقد قَلَّتِ الحِيلَةُ فيه، فسأَلَ صاحبي قَوَمَةَ المسجِدِ الشَّريفِ أَنْ يَبيتَ في المسجِدِ فأَذِنُوا له، فبَاتَ بينَ تَضَرُّعٍ وبُكَاءٍ ودُعاءٍ وتَوَسُّلٍ بِالنَّبِيِّ ﷺ(١) حتَّى غَلَبَ عليهِ النَّومُ، فباتَ حولَ الضَّريحِ المُكَرَّمِ فأصبحَ وقدْ أزالَ اللهُ عنهُ بِبَرَكَةِ النَّبيِّ ﷺ(٢).

---

(١) قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميةَ رحمه الله تعالى: التَّوسُّلُ بالنبيِّ ﷺ يُراد به ثلاثةُ معانٍ:
أحدُها: التَّوسُّلُ بطاعته، فهٰذا فرضٌ لا يتمُّ الإيمان إلّا به.
والثَّاني: التوسُّل بدُعائه وشفاعته، وهٰذا كان في حياته، ويكون يوم القيامة يتوسَّلون بشفاعته.
والثالث: التَّوسُّل به، بمعنى الإقسام على الله بذاته، والسُّؤالُ بذاته، فهٰذا هو الذي لم تكُن الصَّحابةُ يفعلونه في الاستسقاءِ ونحوه، لا في حياته ولا بعد مماته، لا عند قبره ولا غير قبره. «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» ص٥٠.

(٢) تقدَّم التنبيه إلى أنّ الجزم بأنّ هٰذا الأمر حصل ببركة فلان أو فلان من التقوُّل على الله بلا علم.

ولله درُّ القائلِ[(١)]:

فَلُـــذ بِبَــرٍّ رحــيم بالبريَّـــة إنْ عاقَتْكَ شــدَّةُ دَهْـرٍ عَـقَّ واعتـصِمِ
وافٍ كريم رحـيم قـدْ وَفَـا ووَقَـى وعــمَّ نفعـاً فكـم ضُرٍّ شَـفَا وكـمِ
وكَمْ حَبَـا وعـلى المستـضعفين حنـا وكم صَفَا وضَفَا[(٢)] جُوداً لِجَبرِهمِ
حانٍ على كُلِّ جانٍ وافٍ إنْ قَـصَدُوا واقٍ شَفَى من شَفَا جَهْلٍ ومن عَـدَمِ
كهـفِ الأرامـلِ والأيتـامِ كـافِلِهُم وافــي النَّـدا لِمُوافي ذٰلـك الحَرَمِ

وهٰذه الأبياتُ من قصيدَةٍ طَويلَةٍ غَرَّاءَ[(٣)] اشتملَتْ على فُنُونِ البَدِيعِ أوَّلهُا:

بطيبــةَ انــزِلْ ويَمِّــمْ سَـيِّدَ الأُمَـمِ وانْشُرْ لـهُ المَدْحَ نَثْـراً طَيِّـبَ الكَلِـمِ[(٤)]

وهي من نظمِ صاحبِنا وأخينا في الله الشَّيخِ الإمامِ العَلَّامَةِ وحيدِ دهرِهِ، وفَرِيدِ عصرِهِ، لسانِ الأدَبِ، حُجَّةِ العَرَبِ، مَجْمَعِ أشْتَاتِ الفَضَائِلِ [٧٦/ ب] شمسِ الدِّينِ أبي عبدالله مُحَمَّدِ بنِ أحمدَ بنِ عَلِيِّ بنِ جابرِ الهُوَّارِيِّ[(٥)] نَسَباً، الأنْدَلُسِيِّ مولِداً ومنشأً.

---

(١) هٰذه الأبيات فيها من الغلوّ والشِّرك بالله، إذ لا يحلّ الالتجاءُ إلى أحدٍ غير الله.

(٢) أي: فاض بالخير، يقال: ضفا الحوض، إذا فاض من امتلائه. «تاج العروس»: ضفا.

(٣) وهي تسمى «الحُلَّة السِّيَرا في مدح خير الورى» وعدد أبياتها ١٧٧ بيتاً، وقد شرحها الرعيني وسمَّى شرحه «طراز الحلة وشفاء الغلة». وهو مطبوع.

(٤) هٰكذا في الأصل، وفي «الديوان»: «وانثر».

(٥) محمد بن أحمد بن علي بن جابر، الشمس أبو عبدالله، الهواري، الأندلسي المالكي، شاعر متمكِّن ضريرٌ، ارتحل إلى المشرق، توفي سنة ٧٨٠هـ بالمرية. «الدرر الكامنة» ٣/ ٣٣٩، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٥٦٠.

قرأها عَلَينا بِحَضْرَتِهِ في الرَّوضَةِ النَّبَوِيَّةِ في سَنَةِ سِتٍّ وستِّينَ وسبعِمِئَةٍ رفيقُهُ وأخُوهُ في الله تَعالَى الشَّيخُ الإمامُ العالِمُ العامِلُ، رُحْلَةُ زَمانِهِ، ونادِرَةُ إخوانِهِ أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ يوسُفَ بنِ مالِكٍ الغَرْنَاطِيُّ[1].

وكانا قَدْ سألاني أَنْ يَسْمَعَا عَليَّ «صحيحَ البخاريِّ» فأجبتُهُما إلى ذٰلك؛ اغتِنَاماً لمُجَالَسَتِهِما واقْتِبَاساً من فَوَائِدِهما، فكانَ الشَّيخُ أبو جَعْفَرٍ هو القارئَ، فإذا فَرَغَ من قِرَاءَةِ الحديثِ أنشَدَ شيئاً من ديوانِ الشَّيخِ أبي عبدالله رَفِيقِهِ، و«دِيوانُهُ» دِيوانٌ عَظِيمٌ في مجلَّدَينِ، وقدْ يَسَّرَ اللهُ عليهِ النَّظْمَ مَعَ البَلاغَةِ والفَصَاحَةِ ودِقَّةِ المَعْنَى.

ذكرَ أنَّهُ قالَ: أقدِرُ أَنْ أَنْظِمَ في اليوم الواحِد بلا كُلْفَةٍ ثلاثَمِئَةِ بيتٍ، وكانَ يَنْظِمُ الأبياتَ العَدِيدَةَ تُقْتَرَحُ عليهِ وَهُوَ على السِّمَاطِ[2]، فَيُمْلِي على الكاتِبِ بلا تَكَلُّفٍ، وغالِبُ تَصَانِيفِهِ نَظْماً، ولأبي جَعْفَرٍ نَظْمٌ حَسَنٌ بَدِيعٌ، نَفَعَ اللهُ بهما.

وكانا قَدْ سَبَقَتْ [لهما بالمدينَةِ مُجاوَرَةٌ في سنة سِتٍّ وخمسينَ وسبعِمِئَةٍ، فانتفَعَ الطَّلَبَةُ][3] بِهِما في هاتَينِ المُجَاوَرَتَينِ، وقُرِئَ عليهِما كُتُبٌ عَدِيدَةٌ في العَرَبِيَّةِ والأصلَينِ واللُّغَةِ والعَرُوضِ والبَدِيعِ وغيرِ ذٰلك، وسُمِعَ عليهما الحَدِيثُ.

---

(١) أحمد بن يوسف بن مالك، الشهاب أبو جعفر الرعيني، الغرناطي الأكبري، مات في سنة ٧٧٩هـ. «الدرر الكامنة» ١/ ٣٤٠، «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٦١.

(٢) السِّماطُ: ما يُمَدُّ عليه الطعام، والعامَّة تَضُمُّه. «تاج العروس»: سمط.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط في الأصل، وهو من باقي النسخ.

وفي المُجاورَة الأولى شرحَ الشيخُ أبو عبدالله «ألفيَّةَ ابنِ مالكٍ» شرحَهُ المفيدَ الَّذِي عَمَّ النَّفْعُ بِهِ واشْتَهَرَ اشْتِهَاراً عَظِيماً، ولهُ وللشيخِ أبي جعفرٍ تَصَانِيفُ كَثِيرَةٌ وأوضاعٌ مُفِيدَةٌ، لو رُمْنَا ذِكرَها ووَصْفَ محاسِنِها لخَرَجْنَا عن المَقْصُودِ.

وقُرِئ عليَّ بِحَضْرَتِهما [٧٧/أ] تأليفِي المسمَّى بـ«العُدَّةِ في إعرابِ العُمْدَةِ» قراءَةَ بَحْثٍ وتَفَهُّم، وحَصَلَ بذلك خيرٌ كثيرٌ، فإنِّي وضعتُهُ على مثالٍ لم أُسْبَقْ إليهِ، وحَبَّرْتُهُ على منوالٍ لم يُنسَجْ عليهِ، فصوَّبا - والحمدُ لله - عَلَى مَا وضَعْتُ، وشَكَرَا لي ما صنعتُ، جزاهما الله خيراً.

وكانَ القارئَ للكتابِ المذكورِ الأخُ الصَّديقُ، والوَلَدُ الشَّفِيقُ، الفقيهُ العالمُ العامِلُ المُفَنِّنُ، تاجُ الدِّينِ عبدُالواحِدِ بنُ عمرَ بن عيَّاذٍ الأنصاريُّ المتقدِّمُ ذِكرُ والدِهِ.

وأُخُوَّةُ هٰذينِ الشَّيخينِ العالِمَيْنِ العامِلَين واتِّحادُهُما واتِّفاقُهُما في الأخلاقِ والأقوالِ والأفعالِ لم أَرَ مِثْلَها، بلْ ولمْ أَسْمَعْ بذلك، لا يَمْلِكُ أحدُهما دونَ الآخرِ شيئاً، ولا يتَخَصَّصُ عن صاحبِهِ بِشَيءٍ من أُمُورِ الدُّنيا قَلَّ أو جَلَّ، ولا يَلْبَسُ أحدُهُما غيرَ مَلْبَسِ الآخَرِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما مثل ما لصاحبِهِ.

إنْ فَصَّلا ثياباً فَمِنْ نوعٍ واحدٍ ولونٍ واحدٍ، وكذٰلك في العَمَائِمِ والفُوَطِ والدُّلُوقِ وثيابِ الجَمَالَةِ وثِيابِ المِهْنَةِ، وكذٰلك لِباس الشِّتاءِ ولباس الصَّيفِ، وكذٰلك الفُرُش والأوطِئَة والأنطاع[1] والوسائِد والنِّعَال

(١) النَّطْعُ: بساط من الجلد. «القاموس المحيط»: نطع.

وغير ذٰلك، وإذا لَبِسَا لوناً لَبِسَاه جميعاً، بَياضاً كانَ أو غيرَهُ، لا يُمْكِنُ أن يُغَيِّرَ أحدُهما لِبَاسَهُ دُونَ الآخرِ.

يأكُلانِ جميعاً، ويَرْقُدَانِ جميعاً في بيتٍ واحدٍ، وأعرَضَ كلاهُما عنِ الزَّواجِ والتَّسَرِّي رَغْبَةً في دوام الصُّحبَةِ وخوفاً من الأسبابِ المُوجِبَةِ للفُرْقَةِ.

وكانَ مَعَهُما مملُوكٌ لهما يَخْدِمُهُما، وكانَ الشَّيخُ أبو عبدالله ضَريراً بِسَبَبِ جُدَرِيٍّ عَرَضَ لهُ [٧٧/ ب] في صِغَرِهِ بعدَ أن دَخَلَ المَكْتَبَ في أواخِرِ السَّنَةِ الخامِسَةِ من عُمُرِهِ، فكانَ يَعْتَمِدُ على الشَّيخ أبي جعفرٍ في خُرُوجِهما إلى المسجِدِ ورُجوعِهما، وفي بلادِهما كانا كذٰلك لا يَفْتَرِقان أصلاً، ولا يَعْتَمِدُ عَلَى الغُلام إلّا في النَّادِرِ إذَا حصَلَ للشَّيخِ أبي جعفرَ عُذْرٌ عظيمٌ.

وإذا دخلَ الإنسانُ بيتَهُما لم يفرِّقْ بينَ مَجلِسَيْهما إلّا بالكُتُبِ لِقُربِها مِنَ الشَّيخِ أبي جعفرٍ؛ لِتَسَاوي الفَرشَينِ وجميعِ مَا يتعلَّقُ بهما مِنَ الأغطِيَةِ والأوطِئَةِ.

ومن أعجَبِ الأشياءِ أنَّهما يَمْرَضَانِ جميعاً ويَصِحَّانِ جميعاً! وهٰذا شاهدتُهُ منهما في المجاوَرَةِ الثَّانِيَةِ؛ مَرِضَ الشَّيخُ أبو جعفرٍ في يوم، ومَرِضَ الشَّيخُ أبو عبدالله في اليومِ الثَّاني، وتمادى بهما المَرَضُ مُدَّةً طويلَةً، وكانَ مَرَضُهُما واحِداً.

ووُلِدَا في سنةٍ واحِدَةٍ؛ أبو عبدالله في المَرِيَّة(١)، وأبو جعفرٍ بِغرناطَةَ(٢)،

(١) المَرية: مدينة على ساحل من سواحل بحر الأندلس في شرقيها. «معجم البلدان» ٥/ ١١٩.
(٢) غرناطة: مدينة مشهورة بالأندلس. «معجم البلدان» ٤/ ١٩٥.

وذٰلك سنةَ ثمانٍ وسبعِمِئَةٍ، ثُمَّ اجْتَمَعا في شُبُوبِيَّتِهما في مجالسِ العِلْمِ، فأَلِفَ أحدُهُما الآخرَ، ثُمَّ اجْتَمَعا فلمْ يفترِقا، لا فرَّقَ اللهُ بينَهُما بِسُوءٍ.

ثُمَّ ارتحلا من بلادِ الأندَلُس ودخلا غالِبَ بلادِ المغرِبِ ورَوَيا الحَديثَ، [وأخذَا العلمَ عن الشُّيوخِ، ولهما تأليفٌ في ذِكرِ مَن اجتمَعَا به منَ الأكابِرِ في رحلَتِهما][١].

ثُمَّ قَدِما إلى المشرِقِ بِعِلْم كثيرٍ، وكانَا في سنةِ إحدى وأربعينَ مُقِيمَيْنِ بِدِمَشْقَ، واجتمعَ بهما أخي عليٌّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تلكَ السَّنَةِ، وكانُوا جميعاً في دارِ الحديثِ، ثُمَّ ارتحلا إلى بلادِ حَلَبَ فأوطَنَاها إلى الآنَ.

ورَتَّبَ لهما السُّلطانُ في البِيرَةِ[٢] من أعمالِ حَلَبٍ ما يَكفِيهما، واشتهرَ فضلُهُما وذِكرُهُما، وخَدَمَهُما رُؤَسَاءُ البِلادِ وسَرَاةُ[٣] النَّاسِ [٧٨/ أ]، ومَدَحَهُما الأدباءُ وكُتَّابُ الإنشاءِ وتخرَّجَ بهما الطَّلَبَةُ.

وهما اليومَ في تلكِ البلادِ ملاذٌ للغُرَباءِ وملجأٌ للمظلومِينَ، وشفاعتُهما مقبولةٌ وكَلِمَتُهُما عاليةٌ، أبقاهُما اللهُ تعالى بَقَاءً جميلاً.

واعلم أنَّهُ كانَ للشَّيخ مُحَمَّدٍ البَلاسِيِّ عبدٌ اسمُهُ سَعِيدٌ[٤] أعتقَهُ وجعَلَهُ من جُمْلَةِ الفَرَّاشِينَ بالحَرَم، وأعقَبَ سَعِيدٌ ولداً مُباركاً نَجيباً فَرَّاشاً في الحَرَمِ اشتَهَر بِاسْمِ الشَّيخ مُحَمَّدٍ البَلاسِيِّ[٥] سنةَ ٧٣٨هـ.

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط في الأصل، وهو في باقي النسخ.

(٢) البيرَةُ: بلدةٌ قُرب حلب. «معجم البلدان» ١/ ٦٢٤.

(٣) السَّرْوُ: المُروءَةُ والشَّرَفُ، والسَّرَاةُ اسم للجمع. «لسان العرب»: سرا.

(٤) «التحفة اللطيفة» ٣/ ١٧٧.

(٥) محمد بن سعيد البلاسي، سُمِّي باسم مولى أبيه. «التحفة اللطيفة» ٦/ ١٦٩.

وكانَ بِرِباطِ مَرَاغَةَ الموقوفِ على الفقراءِ الصُّوفِيَّةِ المُجَرَّدِينَ(١) جَمَاعَةٌ صالحونَ أكثرُهُم مَغَارِبَةٌ مِمَّنْ جاهَدَ واجْتَهَدَ، جَمَعُوا بينَ العِلْمِ والعَمَلِ.

منهُمْ: الشَّيخُ الصَّالحُ **أبو عبدالله مُحَمَّدٌ العُصَيَّاتِيُّ**(٢).

كانتْ إحدى رِجْلَيهِ قصيرَةً مخلُوعَةً مُذَبْذَبَةً لا يَتَحَمَّلُ على الأخرى إلّا بِعَصَاتَينِ، وكانتْ لهُ أحوالٌ عجيبةٌ ومكاشَفَاتٌ صحيحةٌ، أَلِفَهُ الخُدَّامُ واعتَقَدُوهُ(٣)، وقامُوا بِحَقِّهِ لمَّا عَلِمُوا مكانَتَهُ، وكَانَ أعظَمَهُم لهُ مُوالاةً وخِدْمَةً الطَّواشِيُّ شمسُ الدِّينِ شَفِيعٌ رَحِمَهُما الله تَعَالى.

قالَ لي يوماً: رأيتُ الشَّيخَ عِزَّ الدِّينِ الزَّرَنْديَّ المتقدِّمَ ذكرُهُ في النَّومِ، وكانَ قَدْ تُوُفِّيَ في طريقِ العِرَاقِ بعدَ الإقامَةِ الطَّويلَةِ في الحَرَمَينِ، فقالَ لي: سَلِّم عَلَى أولادِي وقُل لهُم: قدْ حُمِلْتُ إليكُم ودُفِنْتُ بالبَقِيعِ عندَ قُبَّةِ سَيِّدي العَبَّاسِ، فإذا أرادُوا زِيارَتي فَلْيَقِفُوا هنالكَ ويُسَلِّمُوا عليَّ ويدعُو لي.

قلتُ: مَا ذكرَهُ الشَّيخُ صَالحٌ من رؤياهُ حَقٌّ، [٧٨/ ب]، فقدْ شاهَدْتُ شخصاً كانَ مُسْرِفاً على نفسِهِ شديداً في تشيُّعِهِ، وكانَ يوماً يهدِمُ حائطاً، فذُكِرَ عنهُ أَنَّهُ صدرَ منهُ كلامٌ في حَقِّ الصَّحابَةِ، فَسَقَطَ عليهِ الحَائِطُ فَهَلَكَ، فَدُفِنَ بالبَقِيعِ.

---

(١) التجرُّد: مصطلح يريد به أهلُه الانقطاع عن مزاولة الأسباب الدُّنيوية من كسب الرِّزق وطلب العلم الشرعي، وهو أمرٌ مذموم، والواجب التجرُّد من الشِّرك بالله والشهوات والحرص على الفضائل، فهذا هو المحمود والمرغوب، مع الأخذ بالأسباب الدنيوية المشروعة، والقيام بحقوق الخلق والخالق.

(٢) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٠٦٥) نقلاً عن المؤلف.

(٣) الواجب الاعتقاد بالله عَزَّوَجَلَّ وحده.

فلمَّا كانَ اليومُ الثاني من موتِهِ أصبحَ قبرُهُ خالياً منهُ ليسَ في اللَّحْدِ أَحَدٌ ولا حولَ القَبرِ نَبْشٌ ولا أَثرٌ! وقدْ زالَ التُّرابُ الذي دُفِنَ به القبرُ حتَّى انْكَشَفَ اللَّبِنُ وليسَ للتُّرَابِ أَثرٌ، ولا عنهُ خَبَرٌ، وقد خلا مِن عندِ رأسِهِ ثلاثُ لَبِنَاتٍ لا غيرُ.

ووقفتُ عَلَى القبرِ معَ القاضي جمالِ الدِّينِ المَطَرِيِّ لمَّا شاعَ في المدينةِ خبرُهُ، وقيلَ: أصبحَ قبرُ ابنِ هيلانَ خالياً منهُ ليسَ فيهِ.

فأمَرَ القاضي جمالُ الدِّينِ المَطَرِيُّ أبا قميصٍ حَفَّارَ القُبُورِ بأنْ ينزِلَ ويَجُسَّ اللَّحْدَ فهابَ، والنَّاسُ حولَ القبرِ يأتُونَ مِنَ المدينَةِ أَرْسَالاً أَرْسَالاً[١]، ثُمَّ دخلَ أبو قَمِيصٍ بعدَ العزيمَةِ عليه، فَنَظَرَ وفَتَّشَ فلم يَجِدْ شيئاً، فأدخَلَ عَمُوداً كانَ بِيَدِهِ وجَسَّ به القبرَ ذاهِباً وآيِباً فلم يَجِدُوا شيئاً البَتَّةَ! ونَزَلَ غيرُهُ وفعَلَ كَفِعْلِهِ فلم يَجِدْ الآخَرُ شَيئاً، وكانَ ذٰلك آيةً من آياتِ الله تَعَالى، فلمَّا كَثُرَ خُرُوجُ النَّاسِ واشتَهَرَ أمرُهُ أَمَرَ يُوسُفُ الرُّوميُّ[٢] الوزيرُ يومَئِذٍ بِدَفْنِهِ، فدُفِنَ القَبرُ، نسأَلُ الله تَعَالى حُسْنَ الخَاتِمَةِ.

وقالَ لي الشَّيخُ مُحَمَّدُ بنُ إبراهيمَ المُؤَذِّنُ عن رَجُلٍ صالحٍ كانَ يَدْفِنُ موتى المدينَةِ وقدْ طالَ في تلكَ الحِرْفَةِ عُمْرُهُ.

قالَ: قُلْتُ لهُ: هل رأيتَ يا سَيِّدي مِن أُعْجُوبَةٍ [٧٩/ أ] في هٰذا البَقِيعِ؟

---

(١) أي: أفواجاً وفِرَقاً متقطعة بعضهم يتلو بعضاً، واحدهم رَسَلٌ بفتح الراء والسين. «لسان العرب»: رسل.

(٢) نجم الدين يوسف الرومي، وزير الأمير طفيل بن منصور، كان متصفاً بالعقل والسياسة والرئاسة، مات سنة ٧٣٥هـ. «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٧٣٢) نقلا عن المؤلف.

فقالَ: لم أَرَ إلّا الخيرَ، إلّا أَنّني حَمَلْتُ مَيّتاً في أيّامِ الحَاجِّ، ولم أَجِدْ مَنْ يُسَاعِدُني عليهِ غيرَ رَجُلٍ واحدٍ، فَحَمَلْتُهُ مَعَهُ ووضَعْنَاهُ في اللَّحْدِ، ثُمَّ ذَهَبَ صاحِبِي وتَرَكَنِي، فذهبتُ أَحْمِلُ اللَّبِنَ لأجْلِ لحدِهِ، فلمَّا جِئْتُ بِهِ لم أَجِدْ المَيِّتَ في لحدِهِ! فَذَهَبْتُ وتَرَكْتُ القبرَ على حالِهِ[(١)].

وكانَ في الرِّباطِ المَذْكُورِ مِنَ الرِّجالِ المُنْقَطِعِينَ عن هٰذه الدَّارِ الشَّيخُ **قاسِمُ التَّكْرُورِيُّ**[(٢)].

كانَ مُلازِماً للسِّياحَةِ في الجِبالِ والبَرِّيَّة[(٣)] لا يأتي إلّا مِن جُمُعَةٍ إلى جُمُعَةٍ، يقتاتُ بالبُقُولِ، ويَتَتَبَّعُ مُجْتَمَعاتِ الماءِ الَّتي يَربَى فيها الحوتُ كنَفْجَلَ والسُّدِّ[(٤)] وغيرِهما، فيَصِيدُ منهُ شيئاً يقتاتُ منهُ وشيئاً يُهدِيهِ لأصحَابِهِ وأحبابِهِ.

بَلَغَ مِنْ قُوَّةِ عَزِيمَتِهِ في دينِهِ أَنْ جعَلَ في عُنُقِهِ غِلًّا ثَقِيلاً يتذكَّرُ بهِ حَالَ الآخِرَةِ! فَنُهِي عن ذٰلك فأبى، حَتَّى قيلَ لهُ: خَالَفْتَ السُّنَّةَ وارتكبتَ البِدْعَةَ[(٥)]! فتركَ ذٰلك بعدَ شِدَّةٍ.

---

(١) الله أعلمُ بصحة هٰذه الحكاية.

(٢) «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٦٧، «الدرر الكامنة» ٣/ ٢٤١، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٢٥.
والتَّكرُوري: نسبة إلى إقليم التكرُور، وهو إقليم واسع وسط إفريقيا. «فتح الشكور» ص٢٦.

(٣) قال ابن الجوزي: السِّياحة في الأرض لا لمقصود ولا إلى مكان معروف منهيّ عنها، فقد روينا أنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا رهبانية في الإسلام، ولا تبتُّل، ولا سياحة في الإسلام». وقال الإمام أحمد: ما السياحة من الإسلام في شيء، ولا هي من فعل النبيِّين ولا الصالحين، ولأنّ السفر يُشتِّت القلب فلا ينبغي للمُريد أن يُسافر إلّا في طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدي به. انظر «الآداب الشرعية»٢/ ٣٨.

(٤) السُّد: مجتمع لمياه الأمطار جنوب المدينة، جبل شوران مُطِلّ عليه، ومن السُّدِّ قناة إلى قباء. «المغانم المطابة» ٢/ ٨٣٦.

(٥) وقولهم هٰذا هو الصحيح الموافق للسُّنة، وليس فعلُه من العزيمة في الدِّين.

وكانَ يسرُدُ الصَّومَ أبداً حتَّى العِيدَينِ، فقيلَ لهُ في ذٰلك فقالَ: إنْ أكلْتُ شيئاً مَرِضْتُ!

فقيلَ لهُ: كُلْ ولو مِثْلَ حَبَّةٍ مِنَ الطَّعَام، وإلّا فتَأْثَمُ بالإجماع.

فكأنَّهُ فَعَلَ، واللهُ تَعَالى أعلَمُ.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خُلَيص(١) مُتَوَجِّهاً إلى مَكَّةَ سنة سبعٍ وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ(٢).

وأيضاً كانَ في الرِّبَاطِ المذكُورِ الشَّيخُ **عُثْمانُ المَجَكْسِيُّ**(٣)، والشَّيخُ **مُوسى الغَزَّاوِيُّ**(٤)، مِنَ الشُّيوخِ الصَّالِحِينَ، كثيرةٌ مناقِبُهُم، عَدِيدَةٌ محاسِنُهُم.

كانَ الشَّيخُ عثمانُ قدْ اشْتَغَل [٧٩/ ب] بِطَرَفٍ مِنَ العِلْم والحديثِ، ولازَم مَجَالِسَ الشُّيُوخ العالِمِينَ العامِلِينَ، فانْتَفَعَ بِهِم وتَجَرَّدَ عن الدُّنيا، وكانَ على طَرِيقَةِ السَّلَفِ الصَّالِح، وكانَ ذا عِبَادَةٍ وجِدٍّ واجتهادٍ لم يبقَ منهُ إلّا العَظْمُ والجِلْدُ(٥)، يحسَبُهُ الَّذِي يراهُ أنَّهُ لكما قامَ مِنَ المَرَضِ من صُفْرَةِ لونِهِ وشِدَّةِ ضَعْفِهِ، وكانَ لا يزالُ مَكْشُوفَ الرَّأسِ ذا شَعْرَةٍ مسدُولَةٍ إلى شَحْمَةِ أُذُنَيه، لا يَحْلِقُ رأسَهُ إلّا في الحَجِّ؛ اتِّبَاعاً للسَّلَفِ.

---

(١) خليص: مدينة بين مكة والمدينة على بُعد ١٠٠ كيل من مكة.

(٢) في النسخة (أ): «تسع». وفي «الدرر الكامنة» ٣/ ٢٤١: مات في ذي الحجة سنة ٧٤٧هـ. وفي «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٦٨: سنة ٧٧٧هـ.

(٣) عثمان المجكسي الأندلسي الغماري، ذكره ابن صالح فقال: عثمان المراغي: غزا في الجهاد بالمغرب، ورأى بالمغرب علماء وصلحاء، ثم سكن بالحرمين على قدم من العبادة والتلاوة. مات بالمدينة سنة ٧٥٤هـ. «الدرر الكامنة» ٢/ ٤٥٣، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٦.

(٤) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٣٥٠) نقلاً عن المؤلف.

(٥) هٰذا من التنطع في الدِّين وإهلاك النَّفس، وقد حذّر الشرع منه.

وكانتْ لهُ أحوالٌ ومكاشَفَاتٌ صَحِيحَةٌ ظَاهِرَةٌ.

وكانَ ابنُ أخي محمَّدُ بنُ مُحمَّدٍ[1] قدْ صَحِبَهُ ولازَمَهُ، فكانَ يحكِي عنهُ أحوالاً جليلةً، وأصلُهُ مِنَ الأندَلُس جاءَ منها ماشِياً إلى مَكَّةَ المُشَرَّفَةِ، فأقامَ بها سِنِينَ، وكانَ يسكنُ في رِبَاطِ رَبيعٍ.

وذُكِرَ أَنَّهُ كانَ ينزِفُ الماءَ من بئرِ الرِّبَاطِ، فَثَقُلَتْ بِهِ الدَّلْوُ فوَقَعَ في البِئْرِ وَهِيَ من أطوَلِ آبارِ مَكَّةَ - وطُولُ آبارِها لا يخفَى على مَنْ حَجَّ البيتَ الحَرَامَ - فنَزَلُوا إليهِ فوَجَدُوه سالِماً صَحِيحاً، ثُمَّ ارتحلَ إلى المدينَةِ وسكنَ الرِّبَاطَ المذكورَ.

وكانَ بينَهُ وبينَ الشَّيخِ موسى شَنآنٌ[2] وفِتَنٌ، سببُها أنَّ الشَّيخَ عثمانَ اشتغَلَ بالعِلْمِ وصَحِبَ شُيُوخَ المغرِبِ أهلَ التَّربِيَةِ والدِّرَايَة، فكانَ يُنْكِرُ على الشَّيخِ مُوسى بعضَ أحوالِهِ الَّتِي تخرُجُ عن مِيزَانِ الشَّرْعِ، فَيَقَعُ بَيْنَهُما عن ذٰلك التَّهَاجُرُ والشَّرُّ.

حكى لي الشَّيخُ عُثْمانُ: أنَّ الأَسَدَ عَرَضَ لهُ في طريقِهِ ليلةً، وكانَ وحدَهُ، قالَ: فجلَسْتُ بين يديهِ [٨٠/ أ] فَصَارَ ساعةً يَصِيحُ ويضرِبُ بِذَنَبِه، وساعةً يعلُو عليَّ بِيَدَيه، ثُمَّ يرجِعُ عَنِّي ويَكُفُّ يديهِ كَأَنَّ مَنْ غَلَّها، ولم يَزَلْ هٰذا دأبَهُ مَعِي إلى أن تبَلَّجَ[3] الصُّبحُ، فانصَرَفَ عَنِّي وتَرَكَنِي.

---

(١) محمد بن محمد بن محمد بنِ أبي القاسم فرحون بن محمَّدِ بن فرحونٍ. انظر: «التحفة اللطيفة» ترجمة (٣٩٤١) نقلاً عن المؤلف.

(٢) شَنآن وشَنْآن - بالتحريك والتسكين -: البُغْض. «لسان العرب»: شنأ.

(٣) بَلَج الصبحُ: أضاء وأشرق. «القاموس المحيط»: «بلج».

وكانتْ لهُ كراماتٌ وعجائِبُ ومُغرِبَاتٌ يكادُ يحكِي بعضَها إذا طابَتْ نفسُهُ وانشرَحَ لجَلِيسِهِ قلبُهُ، وقدْ جرى لي مَعَهُ مَا أكَّدَ عندي وِلايَتَهُ.

وذٰلك أنَّ المدينَةَ نُهِبَ غالِبُ بُيُوتِها عندَ خُرُوجِ آلِ منْصُورٍ(١) منها، وكانَ الأميرُ يومَئِذٍ طُفيلَ بنَ منصورٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكانَ ذٰلك في شهرِ ذِي الحِجَّةِ في سنةِ خمسينَ وسبعِمِئَةٍ، وكنتُ قدْ تأخَّرْتُ عَنِ الحَجِّ في تلكَ السَّنَةِ، ولم يَكُنْ التَّأَخُّرُ عن الحَجِّ من عادَتِي، بل لي الآنَ - والحمدُ لله - نحوٌ من خمسينَ حَجَّةً(٢)، ولكن كانتْ الخِيرَةُ فيما قَدَّرَ الله تَعالى، وأسفرتِ العاقِبَةُ عن لُطْفٍ عَظِيمٍ شَمِلَنِي وشَمِلَ أقارِبي وجِيرَاني، بل وأهلَ زُقَاقِي.

وكانَ مِمَّا جرى أن نُهِبَ جميعُ مَا للحَاجِّ من وَدَائِعَ في المَدِينَةِ، وحصَلَ لأهلِهَا مِنَ العَرَب إزْعَاجٌ وإرْعَابٌ عَظِيمٌ، وتَبِعَتْهُمُ الصَّعَالِيكُ من أهلِ المَدِينَةِ والخيابرَةُ وغيرُهُم، فلم يترُكُوا أثاثاً ولا مَتَاعاً، وكانَ أمراً عَظِيماً لم يجرِ مثلُهُ في زَمَنٍ مِنَ الأزْمَانِ الَّتِي أَدْرَكْنَاهَا وسَمِعْنَا بها، ومعَ ذٰلك فلم يَصِلْ أحدٌ إلينا ولا إلى جِيرانِنَا ولا لأقارِبِنا على بُعْدِ مَنَازِلِهم عَنَّا، وذٰلك ببركةِ النَّبِيِّ ﷺ(٣) وبَرَكَةِ حُضُوري(٤)؛ لأنِّي اجتمعتُ بالأمير طُفَيلٍ وكَلَّمْتُهُ في ذٰلك.

فقالَ: قدْ أجرنا حارتَكَ [٨٠/ ب] وجميعَ أقارِبِكَ، فَطِبْ نَفْساً، فما لأَحَدٍ إلى ذٰلك وصولٌ، جزاهُ الله خيراً.

---

(١) آل منصور: الشريف منصور بن جماز، كان له من الولد طفيل، وجماز، وعطيفة، ونعير، وريان، وكوير، وكبيش، فآل منصور مِن وَلَد طفيل بن منصور.

(٢) في (أ) بزيادة: «خمس و» قبل خمسين.

(٣) تقدَّم الكلام على ذٰلك، وأنّ الجزم به من القول على الله بغير علم.

(٤) لا ينبغي مثل هٰذا الكلام؛ فإنّ فيه تزكية للنفس، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

وكنتُ أخرجُ إلى المسجِدِ في ذٰلك [اليوم][١] للصَّلَواتِ، فأَجِدُ المسجدَ مغلُوقاً، فأدورُ إلى بابِ النِّسَاءِ، فأسْتَفْتِحُ فَيُفْتَحُ لي فأجِدُ المسجِدَ خالياً لا أرى فيهِ إلّا خادِماً مُجرَّداً أو فقيراً تُرابِيًّا[٢]، وأمرُّ في طريقي فأُبْصِرُهُم يَنْهَبُونَ النَّاسَ ويَكْسِرُونَ الأبوابَ فيحمِلُونَ مِنَ البيوتِ الأحمالَ فلا أقدِرُ على كلامٍ! وجُلُّ مَا أَخَذُوا أمتِعَةَ الحَاجِّ وبيوتَ الخُدَّام، وكانتْ قَضِيَّةً قبيحةً وفَعْلَةً شَنيعةً لم يظهَرْ لها بَرَكَةٌ على مَنْ تَعَاطى منها شيئاً عَرَباً أو حَضَراً، ولم تبقَ في أيديهِم شَهْراً حَتَّى مُحِقَتْ، ولم يَسْلَمْ مِنَ الدُّخولِ فيها أَحَدٌ من الأمراءِ الَّذِينَ كانُوا في المدينَةِ إلّا الأميرَ الكبيرَ العادِلَ الوَرِعَ الزَّاهِدَ زينَ الدِّينِ عَطِيَّةَ بنَ مَنْصُورٍ[٣] أميرُنا اليومَ، مَتَّعَ اللهُ المسلمينَ بِبَقَاءِ دولَتِهِ، وأصلَحَ لَهُ الرَّعِيَّةَ، وأصلحَ لهم منهُ الطَّوِيَّةَ[٤].

وخرجتُ مَرَّةً مِنَ البَيتِ للصَّلاةِ، فإذا أنا بِأميرٍ كبيرٍ قدْ دَخَلَ حارَتَنا ومَعَهُ مَا يَنِيفُ على عِشرينَ رَجُلاً مِنَ الأعوانِ، ومَعَهُ نجَّارٌ بِيَدِهِ قَدُومٌ، فما شَكَكْتُ أَنَّهُ ظَنَّ أني في الصَّلاةِ، فأرادَ أن يخلُفَني على بيتي أو بيتِ مَنْ يَعِزُّ عَلَيَّ، وكانَ قبلَ ذٰلك في نفسِهِ شيءٌ مِنِّي، فَوَقَفْتُ في وجهِهِ وقلتُ: خيرٌ، مَا هٰذه المُهِمَّةُ؟ وإلى أينَ هٰذه العَزْمَةُ؟

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط في الأصل، وهو من (أ) و(ب).

(٢) فقير ترابي: من قولهم: تَرِب الرجل، أي: افتقر، كأنَّه لصق بالتراب. «مختار الصحاح»: ترب.

(٣) عطية بن منصور بن جماز بن شيحة: الأمير، الكبير العادل، الورع الزاهد، زين الدين، أمير المدينة، عُزل بابن أخيه هبة بن جماز بن منصور في سنة ٧٧٣هـ، ثمَّ أعيد سنة ٧٨٢هـ، ودام حتى مات بالمدينة سنة ٧٨٣هـ. «التحفة اللطيفة» ٥/ ٧٦.

(٤) الطويَّة: النية. «تاج العروس»: طوى.

فقالَ: لي غَرَضٌ. فقلتُ لهُ: اجلِسْ هاهُنا لأتحدَّثَ مَعَكَ - والشرُّ يبدُرُ لي من وجهِهِ - فَجَلَسَ، فقلتُ: ما تُرِيدُ؟

فقالَ: عزمِي الزَّوَاجُ [٨١/ أ]، ومَا وَجَدْتُ مَفْرَشَةً أدفعُها في الجِهَازِ، ونحنُ عازمون على الخروجِ مِنَ المَدِينَة.

فقلتُ لهُ: عندِي مَا تريدُ، وهٰذه ساعَةٌ مُبارَكَةٌ إذ بدا لكَ عندي حاجَةٌ، ولم يكنْ ذٰلك من خُلُقِي ولٰكنْ شرحَ الله صدرِي لذٰلك.

فدخلْتُ البيتَ وأخرجتُ لهُ فِرَاشَ بَيتِي وكانَتْ مفرَشَةً حَسَنَةً جِدًّا، فأخَذَها، وقالَ: إنْ قُلْتُ لكَ: الَّتي أطلبُ أحسَنُ من هٰذه فما صَدَقْتُ!

ثُمَّ انصرَفْتُ إلى المسجِدِ فرأيتُ الشَّيخَ عثمانَ جالِساً في الرَّوضَةِ ليسَ في الحَرَمِ غيرُهُ، فلمَّا أقبلْتُ عليهِ بَدَرَني بالكلامِ، وقالَ لي: اللهُ ألهمَكَ، الله ألهمَكَ، قالَ الله تَعالى لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «يا موسى، خَفْ مَنْ لا يخافُنِي»(١).

فعَلِمْتُ أنَّهُ كاشَفَنِي(٢)، وصَوَّبَ رأيِي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

تُوُفِّي سنةَ أربعٍ وخمسينَ وسبعِمِئَة.

وأمَّا الشَّيخُ مُوسى فكانَتْ لهُ إقَامَةٌ طَوِيلَةٌ بِغَزَّةَ - قريَةٍ مِنَ قُرى الشَّامِ - فَنُسِبَ إليها، وإنَّما هُوَ مَغْرِبيٌّ، وكانَ لهُ بِغَزَّةَ سُمْعَةٌ وصَولَةٌ وفَتْكٌ بالخاطِرِ.

---

(١) لم نعثُر عليه.

(٢) اعتقاد أنّ بعض المشايخ يعلمون أحوال مُريديهم كلّها صغيرَها وكبيرها جليَّها وخفيَّها من الغلوّ المذموم.

قالَ لي: كنتُ إذا نَهيتُ ظالماً عن ظُلْمِهِ فلم يَمْتَثِلْ أمرِي قَتَلْتُهُ بِخاطِرِي[١]! واشْتَهرَ ذٰلك عَنْهُ.

وقالَ لي: فلمَّا قَدِمتُ المدينَةَ المُشَرَّفَةَ أَرَدْتُ تلكَ السِّيرَةَ فَمُنِعْتُ منها.

وكنتُ رأيتُ في المَنامِ قبلَ دُخُولي المدينَةَ أَنَّ رَجُلاً غَلَبَ عليَّ، وأَخَذَ مِنِّي سِكِّينِي فَدَفَنَها في كَومَةِ تُرابٍ في ناحِيَةِ مسجِدِ مُصَلَّى العيدِ، فَعَلِمْتُ أَنَّني قدْ سُلِبْتُ حالي في التَّصَرُّفِ في أهلِ المدينَةِ، وذٰلك لِبَرَكَةِ النَّبيِّ ﷺ، إذْ لا يَقْدِرُ [٨١/ ب] أَحَدٌ بِحَضْرَتِهِ يتصرَّفُ بغير أمرِهِ[٢].

وقالَ لي: عَزَمْتُ عليكَ مِراراً إذْ أَغْظْتَنِي في قَضِيَّةٍ كذا وكذا.

وعَدَّدَ عليَّ قضايا أنكرتُها.

قالَ: فَمُنِعْتُ منكَ حتَّى رأيتُكَ في النَّوم مُتَعَلِّقاً بأعلى شُبَّاكِ الحُجْرَةِ، وأنا واقِفٌ تَحتَكَ ومَعِي سِكِّينٌ أشيرُ بها إليكَ وأنتَ تَهْزَأُ بي، فَعَلِمْتُ أَنِّي لم أُسَلَّطْ عليكَ، فكَفَفْتُ وتَرَكْتُ الخاطِرَ عَنِّي.

وكانَ يَصْحَبُ النَّاسَ بِالمَرائِي الَّتِي لهُ، ويَرَى أَنَّها كالوَحْيِ لا تَكادُ تُخْطِئُ، فتراه يهجُرُكَ، ثُمَّ يَصِلُكَ مِنْ غيرِ مُوجِبٍ لذٰلك بَينكُما!

أخبرني أخي عَليٌّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ قالَ لهُ يوماً: أنتَ تَدَّعِي أَنَّكَ تَكْشِفُ

---

(١) هٰذا من شطحات القوم، ولو قُدِّر وُقوعه في بعض الحالات فهو من التعدِّي على الناس، وتجاوُز الحدود، والمؤمن إنما عليه البلاغ، وأمَّا القتل فإنما يكون للسُّلطان فيمن استحقَّ القتل، لا بمجرَّد الظلم.

(٢) هٰذا اعتقاد باطل وخطير، إذ النافع والضارُّ هو الله وحده، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وليس للنبيِّ ﷺ بعد موته تصرُّفٌ في خلق الله بجلب نفع أو دفع ضرّ.

البَوَاطِنَ؟[١] فزوجتي هٰذا شَهرُها فأخبِرْني بِحَمْلِها؟

فقالَ لهُ: كأنَّكَ تَمْتَحِنُني، ومَا أَنْتَ بِمُصَدِّقٍ بِحالي! سآتِيكَ إن شاءَ الله بالخبَرِ.

قالَ: فغابَ عَنِّي أياماً ثُمَّ جاءَنِي إلى البيتِ، فقالَ لي: زَوجَتُكَ تَلِدُ وَلَداً يُشْبِهُ هٰذه، وأشارَ إلى إحدى بِنْتَيَّ، فكانَ كذٰلك[٢].

فناديتُهُ عندَ الوِلادَةِ وجئتُهُ بالمولودِ فَحَنَّكَهُ ودعا لهُ وسَمَّاهُ حَسَناً، وحَسُنَ ظَنِّي فيه، وتأدَّبْتُ مَعَهُ بعدَ ذٰلك.

وتُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سَنَةِ خمسٍ وخمسينَ وسبعِمِئَةٍ.

وكانَ برباطِ الفَاضِلِ: الشَّيخُ الصَّالِحُ الوليُّ الرَّبَّانيُّ **عبدالرَّحمنِ الجَبَرتيُّ**[٣].

كانَ مِن أربابِ القلوبِ والكرامَاتِ، وكانَ طُولَ إقامَتِهِ بالمدينَةِ إذا صلَّى الصُّبحَ خرجَ إلى البرِّيَّة، فما يأتي مِنْهَا إلى قربِ غُرُوبِ الشَّمسِ ولا يعلَمُ أَحَدٌ مكانَهُ، ينتَقِلُ كُلَّ يومٍ في موضِعٍ، وقَلَّ أن يُرى في المدينَةِ [٨٢/ أ] نَهاراً هُرُوباً مِنَ الاختلاطِ بالنَّاسِ، ويخبِرُ أحياناً بالمُغَيَّباتِ[٤].

وكانَ يقولُ لِبَعْضِ مَنْ يأنَسُ بِهِ ويُحِبُّهُ: يا فلانُ ألا تُعْطِينِي كَذَا؟ فيفرَحُ الرَّجُلُ بقولِهِ، فإذا أعطاهُ شيئاً امتنَعَ وقالَ: إلى وقتٍ آخرَ إن شاءَ الله.

---

(١) تقدَّم الكلام على الكشف، ولا يعلم الغيب إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(٢) هٰذا من علم الغيب، وكذا ادِّعاؤه أنه يكشف البواطن ويعلمها، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤].

(٣) «التحفة اللطيفة» ٤/ ٣٣٢.

(٤) تقدَّم التعليق على الإخبار بالمغيَّبات، وأنه لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

ويؤانِسُ أصحابَهُ بأنواعٍ مثلِ ذٰلك، وكانَ يقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّهُ مِن ذُرِّيَّةِ النَّجاشِيِّ صاحبِ المواصَلَةِ مَعَ النَّبيِّ ﷺ، وأنَّهُ مِن بيتِ المُلْكِ ببلادِهِ، فخرَجَ عن ذٰلك وصَحِبَ الصَّالحينَ.

وكانتْ لهُ مَعَ الشَّيخِ العالِمِ العامِلِ قُطْبِ زمانِهِ أبي مُحَمَّدٍ عبدالله ابنِ أسعَدَ اليافِعِيِّ[1] - نفعَ الله بِهِ - سياحاتٌ في ظاهِرِ المدينَةِ.

وكانَ الشيخُ عبدالرَّحمنِ يحكي لِبَعْضِ أصحابِهِ أَنَّهُ اتَّفَقَ لَهُ مَعَ الشَّيخِ عبدالله كراماتٌ في أَيَّامِ السِّياحَةِ، وكانَ الشَّيخُ عبدالله قبلَ تَوَطُّنِهِ مَكَّةَ وزَوَاجِهِ بها أقامَ بالمدينَةِ على قَدَمِ التَّجَرُّدِ والوِحْدَةِ والسِّياحَاتِ، ثُمَّ تَزَوَّجَ بالمدينةِ في سنةِ تِسْعٍ وثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ الحُرَّةَ الصَّالحةَ العابِدَةَ سُتَيت أُمَّ محمَّدِ بنِ عليٍّ اليمانيِّ[2]، ثُمَّ فارَقَها وارتحَلَ إلى مَكَّةَ ولم يزلْ يَتَرَدَّدُ إلى المدينةِ ويُجاوِرُ بها.

ومناقِبُ الشَّيخِ عبدالله وكراماتُهُ وأحوالُهُ وعلومُهُ ومصنَّفَاتُهُ ومجاهداتُهُ لا يحصرُهُا حَدٌّ، ولا تنتهي بالعَدِّ، كما قيل:

يفنَى الكـلامُ ولا يُحيطُ بِوَصْفِهِ　　　حَسْبُ المُبالِغِ أن يَكُونَ مُقَصِّرَا

---

(١) عبدالله بن أسعد اليافعي، ثمَّ المكي، عفيف الدِّين، من العلماء العاملين والزُّهاد، مشارك في عدَّة علوم، وله مؤلفات ونظم، ويعدّ من أشهر صالحي مكة في عصره، مات بمكة سنة ٧٦٨هـ. «طبقات الأولياء» لابن الملقن ص٩٠، «التحفة» ٣/ ٤٤١.

واليافعي: نسبة إلى يافع، موضع باليمن جنوب شرق صنعاء، وتُنسب إليه قبيلة يافع، وهم بطن من حِميَر. «معجم البلدان» ٥/ ٤٢٦، «اللباب» ٣/ ٤٠٥.

(٢) «التحفة» ترجمة (٥٣٢١) نقلا عن المؤلف.

نفعَ اللهُ به، وكثيرٌ مِنَ الصَّالحينَ يُشِيرُ إلى أنَّهُ قطبُ مَكَّةَ[(١)]، وهو خَلِيقٌ بذٰلك.

واتَّفَق في سنةِ سِتٍّ وستينَ وسبعِمِئَةٍ أَنْ جاءَ [٨٢/ ب] مَعَ القافِلَةِ من مَكَّةَ المُشَرَّفَةِ لِزيارَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فجاءَ بِزَوجَتِهِ بنتِ القاضِي نجمِ الدِّينِ[(٢)]، وأمِّ أولادِهِ بنتِ شهابِ الدِّينِ الإمام[(٣)].

فَتُوُفِّيَتْ زوجتُهُ بنتُ القاضِي نجم الدِّينِ في أواخِرِ شَعبانَ، ثُمَّ تُوُفِّيَتْ بنتُ الإمامِ أَوَّلَ ليلةٍ من شهرِ رمضانَ، ودُفِنَتا في قِبْلَةِ قُبَّةِ سَيِّدِنا إبراهيمَ ابنِ رسولِ الله ﷺ.

فلمَّا كانَ بعدَ العيدِ خَطَبَ إليَّ بِنْتِي «مُلُوكَ» الَّتِي كانتْ زوجةَ الشَّيخ عيسى الهُسْكُورِيِّ[(٤)]، فَزَوَّجْتُها منهُ رجاءَ بَرَكَتِهِ، نفعَ اللهُ بِهِ.

وكانَ هٰذا الشَّيخُ **عيسى الهُسْكُورِيُّ** مِنَ الأولياءِ الكِبارِ، لهُ مَناقِبُ جَلِيلَةٌ، وأحوالٌ جَمِيلَةٌ، وطَرِيقَةٌ عَلِيَّةٌ، وكانَ أَحَدَ شُيُوخِ الهَساكِرَةِ، هُوَ وأَبُوهُ وعَمُّهُ وبنو عَمِّهِ لهم الدُّنيا العَرِيضَةُ والأتباعُ الَّذِينَ لا يُحْصَونَ كَثْرَةً، والخيولُ المُسَوَّمَةُ، والكَلِمَةُ العالِيَةُ، فَخَرجَ عن ذٰلك كُلِّهِ في نَضارَةِ شَبابِهِ

---

(١) سبق التعليق على هٰذا المصطلح، وأنه ضربٌ من الظنون. راجع ص١٠١.

(٢) زينب ابنةُ القَاضِي النَّجمِ محمدِ بنِ الجمالِ محمدِ بنِ المحبِّ أحمدَ بنِ عبدالله الطبريِّ، قاضي مكة ومفتيها، المتوفى بمكة سنة ٧٣٠هـ. «العقد الثمين» ٢/ ٢٧١، «التحفة» ترجمة (٥٣٠٣) نقلاً عن المؤلف.

(٣) وهي ابنةُ الإمام شهاب الدِّينِ الطبريِّ المكي، أحمد بن إبراهيم بن محمَّدٍ، المتوفى بمكة سنة ٧٥٠هـ. «العقد الثمين» ٣/ ٩. وانظر: «التحفة» ترجمة (٥٥٤٥) نقلاً عن المؤلف.

(٤) «التحفة» ٥/ ٣٩٤.

وعُلُوِّ قدرِهِ بينَ أقرانِهِ وعشيرَتِهِ، وتَجَرَّدَ وصَحِبَ الشُّيوخَ على طَرِيقَةٍ عَظِيمَةٍ، ولَزِمَ الشَّيخَ عُمَرَ المَغْرِبِيَّ صاحِبَ الشَّيخِ عبدالمؤمنِ شيخِ المغربِ في وقْتِهِ.

وقَدِمَ الشَّيخُ عيسى معَ الشَّيخ عُمَرَ إلى مِصْرَ، وكانَ من أكبَرِ أصحابِهِ، وكانَ هُوَ إمامَ الفُقَرَاءِ في الصَّلَواتِ، وأقامَ مَعَ الفُقَراءِ [٨٣/أ] في زاوِيَةِ الشَّيخِ عُمَرَ الَّتي بِمِصْرَ في الحَجَّارِينَ، وصَحِبَهُ إلى القُدْسِ، فماتَ الشَّيخُ عُمَرُ بالقُدْسِ بعدَ أَنْ عَمر فيهِ زاويةً للفقراءِ، ثُمَّ ارتحلَ الشَّيخُ عيسى إلى المدينةِ، وتَرَدَّدَ بينَ الحرمينِ الشَّرِيفينِ زَمَناً طَويلاً، ثُمَّ أَوْطَنَ المدينَةَ الشَّرِيفَةَ، وتَزَوَّجَ بالبِنْتِ المَذْكُورَةِ، وصَحِبَها صُحْبَةً جَميلَةً وتَأَدَّبَتْ بِآدَابِهِ، واكْتَسَبَتْ من أخلاقِهِ.

ثُمَّ سافرَ الشَّيخُ إلى مِصْرَ بعدَ أن أولَدَها ثلاثَ بناتٍ، فَقُتِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ بعدَ خُرُوجِهِ مِنَ القُدسِ وهو مُتَوَجِّهٌ إلى دِمَشْقَ، قَتَلَهُ قُطَّاعُ الطَّرِيقِ، فماتَ شَهِيداً رحمةُ الله عليهِ، وذٰلك في سنةِ ثلاثٍ وستِّينَ وسبعِمِئَةٍ.

وكانَ مِنَ الشُّيوخِ المُفِيدِينَ المُقَرَّبِينَ إلى الله ورَسُولِهِ، المُنْقَطِعِينَ بِالمُجَاوَرَةِ بِالحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ: الشَّيخُ الصَّالِحُ الوَرِعُ المُرَبِّي **عبدالحميدِ ابنُ عَليٍّ المُوغانيُّ**(١)، كانَ مِن أهلِ الخيرِ والصَّلاحِ وإيصالِ النَّفْعِ للنَّاسِ في الرُّتْبَةِ العُلْيا.

قدْ تخلَّى عن الدُّنيا وأقبلَ عَلَى الآخرةِ، ولَزِمَ تَلْقِينَ القُرآنِ طُولَ نَهارِهِ

(١) «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٤٠، «التحفة» ٤/ ١٩٨. ونسبته إلى مُوْغَان أو موقان: بلدٌ بأذربيجان. «المغانم المطابة» الموضع السابق، «معجم البلدان» ٥/ ٢٢٥.

في المسجِدِ لا تَرَاهُ إلّا في حَلَقَةٍ بينَ كبارٍ وصغارٍ، وكُهُولٍ وشُيُوخٍ، وانْتَفَعَ عليهِ من أولادِ المدينةِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، لكن مَعَ تجويدٍ وتحريرٍ، وتربيةٍ لهم وضَبْطٍ، وشَدٍّ حَتَّى إِنَّهُ لَيَضْرِبُ ذا الشَّيْبَةِ بِيَدِهِ ويأخُذُ بِلِحْيَتِهِ وأُذُنِهِ!

[٨٣/ ب] أقامَ بِمَكَّةَ هُوَ وأخُوه في الله الشَّيخُ الصَّالِحُ المُهَذّبُ الشَّيخُ يحيى التُّونِسِيُّ[(١)]، وكانا قَدْ اصْطَحَبا قَدِيماً وتواخَيا في الله تَعَالى وصَحِبا الشُّيوخَ وجَوَّلا البلادَ على قَدَمِ التَّجْرِيدِ وزِيارَةِ الصَّالِحينَ ولقاءِ المَشَايِخِ.

واتَّفَقَ لهما في أيَّامِ سِيَاحَتِهِما ومُدَّةِ تَنَقُّلِهِما في البِلادِ عَجَائِبُ وغَرَائِبُ، ولَقِيا مِنَ الشُّيوخِ السَّادَةِ الأعلامِ جماعَةً كثيرةً، منهُم: الشَّيخُ أبو العَبَّاسِ المُرْسِيُّ، فَمَنْ بعدَهُ مِنَ المشايخِ الشَّاذِلِيَّةِ وغيرِهم.

وفي أيَّامِ إِقَامَتِهِما بِمِصْرَ وَرَدَ عليهِما مِنَ العَجَمِ الشَّيخُ العَلاَّمَةُ نَادِرَةُ زمانِهِ الشَّيخُ نجمُ الدِّينِ الأصبَهَانيُّ شيخُ مَكَّةَ المُشَرَّفَةِ في وقتِهِ، فَصَحِبَاهُ وخَدَمَاهُ واجْتَمَعَا بِهِ أيضاً عندَ الشَّيخِ أبي العَبَّاسِ المُرْسِيِّ بِثَغْرِ الإسكَنْدَرِيَّةِ، وصَحِبَاهُ مَعَهُما إلى مَكَّةَ المُشَرَّفَةِ، وكانَ مسيرُهُم عَلَى طريقِ الصَّعِيدِ.

وحكى لنا صاحِبُنا الشَّيخُ يحيى بنُ مُوسى القُسَنْطِينيُّ[(٢)]، عن الشيخِ يحيى التُّونِسِيِّ قالَ:

---

(١) يحيي التونسي: من صلحاء مكة وزهادها، توفي بالمدينة سنة ٧٤٩هـ. «العقد الثمين» ٧/ ٤٥٩، «المغانم» ٣/ ١٣١٦، «التحفة» ترجمة (٤٦٢٢) نقلاً عن المؤلف.

(٢) يحيى بنُ موسى بنِ إبراهيم بن عبدِالله، مُحيي الدين أبو زكريّا ابن الشرف أبي عمران ابن أَبي إِسحاق، الصنهاجيُّ القُسنطينيُّ الأصلُ، المدنيُّ المالكيُّ. ممَّن أخذ عن المؤلف وحدَّث بالمدينة، توفي بعد ٨٠٨هـ. انظر «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٦١٨).

والقُسَنطِيني: نسبة إلى قسنطينة: مدينة في شرق الجزائر حاليًا.

لمَّا خَرَجْنا مَعَ الشَّيخ نجم الدِّينِ صُحْبَةَ القافِلَةِ في طريقِ عَيذَابَ[١] نفدَ زادُنا، وقَسَّى اللهُ تعالى قُلُوبَ أهلِ القافِلَةِ علينا، فَكُنَّا نحنُ والشَّيخُ ليسَ لنا قوتٌ إلّا من نباتِ الأرضِ.

قالَ: فلمَّا أَشْرَفْنا على القُرب من قبرِ الشَّيخ أبي الحَسَنِ الشَّاذِلِيّ [٨٤/ أ] رحمةُ الله عليهِ، قالَ لنا الشيخُ نجمُ الدِّين: إذا كانَ غداً إنْ شاءَ اللهُ تَعَالى ستردونَ قبرَ الشيخ أبي الحَسَنِ، وضِيافَتُكُم عندَهُ زبيبٌ ولوزٌ[٢].

قالَ الشيخُ: فكانَ كذٰلك.

قالَ: ثُمَّ سافَرْنا، فلمَّا وَصَلْنَا إلى بلدِ عَيذَابَ تلقَّانا النَّاسُ وأضافُونا ضِيافَاتٍ كثيرَةٍ، فكانَ الشَّيخُ يبعَثُ الطَّعَامَ إلى أهلِ القافِلَةِ الَّتِي صَحِبْنَاهَا، فَنَدِمُوا عَلَى تفريطِهِم في خِدْمَةِ الشَّيخ.

ثُمَّ قالَ لنا الشَّيخُ: يا يحيى وعبدالحميد، لن تَجُوعا بعدَ هذهِ الجَوعَةِ الَّتِي حَصَلَتْ لكما إلى أَنْ تَلْقَيَا اللهَ تَعَالى[٢]، فكانَ كذٰلك.

وحكى الشَّيخُ يحيى المتقدِّمُ ذكرُهُ عن الشيخ يحيى التُّونِسِيِّ قالَ: حكى لنا الشيخُ نجمُ الدِّينِ أَنَّهُ كَانَ في ابتداءِ أمرِهِ مُشْتَغِلاً بالعِلْمِ، وكَانَ لهُ بساتينُ وأملاكٌ ودائرةٌ كبيرةٌ، فانتَقَلَ عن أهلِهِ وترَكَ جميعَ أملاكِهِ، وصَحِبَ بعضَ الشُّيوخِ المُشَارِ إليهِم في زمانِهِ بِبِلادِ العَجَم، فأقامَ عندهُ مُدَّةً.

ثُمَ قالَ لهُ: يا سيِّدي، أُرِيدُ أَنْ تَدُلَّنِي عَلَى طريقِ السُّلوكِ.

---

(١) عَيذَابُ: بلدة على البحر الأحمر هي مرسى المراكب التي تقدم من عدَن إلى الصعيد. «معجم البلدان» ٤/ ١٧١.

(٢) تقدَّم التعليق على الإخبار بالمغيَّبات، وأنّ الله تعالى اختص بعلمها دون سائر الخلق.

فقالَ لهُ: نعم، امضِ إلى منزِلِكَ، واكشِفْ لي عن مسألَةِ كَذَا وكَذَا، وأخبرني بِمَا قيلَ فيها.

فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ وأخبرَهُ بما سألَ عنهُ.

فقالَ لَهُ: يا وَلَدِي، أقبِلْ عَلَى الاشتغالِ بالعِلْمِ.

فأقبلَ عليهِ، وهُوَ في أثناءِ ذٰلك يسألُهُ أَنْ يُسَلِّكَهُ [٨٤/ ب] في عِلْمِ الطَّريقَةِ(١).

فلمَّا أَلَحَّ عليهِ في بعضِ الأيام قالَ لهُ: امضِ فانظُرْ مَا قالَ العُلَماءُ في مسأَلَةِ كَذا وكَذا.

فذهبَ ففَتَحَ الكتابَ الَّذِي فيهِ المسأَلَةُ فوجَدَ جميعَ أوراقِهِ بياضاً ليسَ فيها كَتْبٌ! ثُمَّ فَتَحَ آخرَ فوجَدَهُ كذٰلك، حَتَّى نظرَ في كُتُبِهِ كُلِّها فوجَدَها صَحَائِفَ بِيضاً، فَرَجَعَ إلى الشَّيخِ وهُوَ مُهتَالٌ لِمَا أُرِيَ!

فأخبرَهُ خَبَرَهُ، فقالَ: الآنَ صفا قلبُكَ، وصَحَّ تَوَجُّهُكَ وصَدَقْتَ في طَلَبِكَ، ادخُلِ الخَلْوَةَ.

فدَخَلَ الخَلْوَةَ فأقامَ فيها أربعينَ يوماً، ثُمَّ خَرَجَ وهُوَ جَوهَرَةٌ مضيئَةٌ(٢).

---

(١) كلّ علم أو طريقة لا تستند إلى الكتاب والسُّنة وما كان عليه سلف الأمة فلا يُفرَح بها، فكيف إذا كانت هذه الطرُق تهجُر العلم الذي به يصل المسلم إلى معرفة دينه وما يجب عليه وما يحرم؟!

(٢) هٰذه الحكاية ظاهرة الدلالة على بُطلان هٰذا الطريق ومخالفته الكتابَ والسُّنة في الصَّدِّ عن العلم، ولزوم خلوات مبتَدَعة، ويدَّعون مع ذٰلك أنها تُنير وجوه سالكيها!

فسألَ الشَّيخَ أن يُلْبِسَهُ الخِرْقَةَ[١] لِيَنْتَمِيَ إليهِ، فقالَ لهُ الشَّيخُ: لستَ لي تلميذاً، شيخُكَ أمامَكَ.

قالَ لهُ: يا سيِّدي، فأينَ أطلبُهُ؟

قالَ: هُوَ في ناحيةِ المَغْرِبِ.

فقالَ لهُ: يا سيِّدي، لستُ أعرِفُهُ.

فقالَ: هُوَ يعرِفُكَ، فاعزِم على السَّفَرِ.

قالَ الشَّيخُ نجمُ الدِّينِ: فودَّعتُ الشَّيخَ، وقصدتُ البلادَ أطوفُها، وكُلُّ شيخ أسمَعُ بهِ أقصِدُهُ وأزورُهُ، وكُلُّ زاويةٍ أسمَعُ بها أقصِدُها، فلم أظفَرْ بِقَصْدِي.

فبينا أنا متوجِّهٌ إلى مِصْرَ في موضع يُقالُ لهُ «الرَّمْلُ»، وقدْ أَضرَّ بي العَطَشُ وآيَسْتُ مِنْ نفسِي، فَمِلْتُ مِنَ الطَّريقِ إلى شجرَةٍ، وحَفَرْتُ لنفسي حُفْرَةً لأَرْقُدَ فيها.

---

(١) لبس الخرقة وإلباسها لا دليل عليه، ولم تصحَّ نسبتها إلى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أو أنه ألبسها أحداً. قال الحافظ السخاوي في حديث لبس الخرقة الصوفية وكون الحسن البصري لبسها من علي: «قال ابن دحية وابن الصلاح: إنه باطل، وكذا قال شيخنا - أي الحافظ ابن حجر - إنه ليس في شيء من طرقها ما يثبت، ولم يرد في خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أنَّ النبيَّ ﷺ ألبس الخرقة على الصورة المتعارفة بين الصوفية لأحد من أصحابه، ولا أمر أحداً من أصحابه بفعل ذلك، وكل ما يُروى في ذلك صريحاً فباطل.

قال: ثمَّ إنّ من الكذب المفترى قولُ من قالَ: إنّ عليًّا ألبس الخرقة الحسن البصري؛ فإنّ أئمة الحديث لم يثبتوا للحسن من علي سماعاً فضلاً عن أن يُلبسه الخرقة!». انظر: «المقاصد الحسنة» ١/١٧٦.

فإذا أنا [٨٥/ أ] بشيخٍ قدْ ظهرَ لي من عُرْضِ البَرِّيَّةِ، وبِيَدِهِ رَكْوَةٌ فيها ماءٌ فَوَقَفَ عليَّ وقالَ: يا عبدالله، أنتَ عَطْشَانُ؟

فقلتُ: نعم يا سَيِّدي.

فقالَ: اشربْ. فَشَرِبْتُ حتَّى رَوِيتُ وحَمِدْتُ الله تَعَالى.

فقالَ لي: الحقْ بي إلى مِصْرَ، وغابَ عنِّي.

فسرتُ إلى مِصْرَ، فلمَّا دخلتُ القاهرةَ قَصَدَني أهلُ خانَقاهِ سعيدِ السُّعَدَاءِ[(١)] فسألُوني النُّزُولَ عِنْدَهم فوافَقْتُهُم على ذلك، ثُمَّ إنِّي لم أُقِمْ عِنْدَهُم إلّا قليلاً حتَّى قِيلَ: وردَ شَيخٌ مِنَ الإسكِنْدَرِيَّةِ يُقالُ لهُ: الشَّيخُ أبو العَبَّاسِ المُرْسِيُّ تِلْمِيذُ الشَّيخِ أبي الحَسَنِ الشَّاذِلِيِّ، وهو شَيْخُ الشَّيخ تاجِ الدِّينِ عبدالكريمِ بنِ عطاءٍ[(٢)].

وخرجَ أهلُ الخانقاهِ لِتَلَقِّيهِ، فلم يَتَّفِقْ لي الخُرُوجُ مَعَهُم، فلمَّا وَصَلَ الخانَقَاهَ قصدتُهُ لأُسَلِّمَ عليهِ، فلمَّا وَقَعَ بَصَرِي عليهِ تحقَّقْتُ أنَّهُ الشَّيخُ الَّذِي سَقَاني في البَرِّيَّةِ، فاسْتَحْيَيتُ من عَدَمِ خُرُوجِي مَعَ الجَمَاعَةِ لِلِقَائِهِ.

---

(١) الخانَقاه: لفظة فارسية معرَّبة، جمعُها خوانق، وهي اسمٌ لمكان الذِّكر والعبادة، يَسْكُنُها أَهْلُ الصَّلاةِ والخَيْر والصُّوفِيَّةُ. قال المقريزي: وقد حَدَثَتْ في الإسلام في حُدودِ الأَرْبَعِمئة، وجُعِلَتْ لِمُتَخَلِّي الصوفيَّة فِيها لعِبادَةِ الله تَعالى. «تاج العروس»: خنق، و«معجم الألفاظ التاريخية» ص٩٦. وخانَقاه سَعِيد السُّعَدَاءَ بمصر: أَحدُ الخَوانِقِ المَشْهُورة، وقد نُسِب إلى سُكناها بعض المُحدِّثينَ.

(٢) أحمد بن محمد بن عبدالكريم بن عطاء الله، تاج الدين، أبو الفضل الإسكندراني الشاذلي، من كبار الصوفية الشاذلية، وله مصنفات، ومات سنة ٧٠٩هـ. «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٧٣، «شذرات الذهب» ٨/ ٣٦.

فلمَّا سَلَّمْتُ عليهِ أَنْصَفَنِي في السَّلامِ، ثُمَّ خلا بي وقالَ لي: أنتَ قادِمٌ ولكَ علينا حَقٌّ، وإنَّما جئتُ لزيارتكَ، فإذا سافرتُ فالحَقْ بي إلى الإسكندريَّةِ.

قالَ: فأقامَ الشَّيخُ أبو العَبَّاسِ في الخانقاهِ ثلاثةَ أيَّام ثُمَّ سافرَ[1]، فأقَمْتُ بعدَهُ يوماً أو يومينِ، ثُمَّ لَحِقْتُ به، [٨٥/ ب] فألْبَسَنِي الخِرْقَةَ وتَتَلْمَذْتُ لهُ، ثُمَّ اسْتَأْذَنْتُهُ في الإقامَةِ عندَهُ فقالَ لي: دارُ إقامَتِكَ مَكَّةُ المُشَرَّفَةُ.

قالَ الشَّيخُ يحيى التونسيُّ: وذٰلك كُلُّهُ وَقَعَ بِحُضُورِنا، فإنَّا كُنَّا مَعَ مَنْ تَلَقَّى الشيخَ نَجْمَ الدِّين، ثُمَّ تَلَقَّيتُ الشَّيخَ أبا العبَّاسِ، ثُمَّ اجْتَمَعْنا مع الشيخِ نَجمِ الدِّينِ عندَ أبي العبَّاسِ بالإسكندريَّةِ، وصَحِبْنَاهُ مِن هناكَ إلى مَكَّةَ المُشَرَّفَةِ فأقامَ بها، وأقمتُ أنا وعبدالحميدِ عندَهُ مُدَّةً طويلةً، وتزوَّجْتُ الزَّوجَةَ الَّتِي حَنِثْتُ فيها بِمَكَّةَ، وهي أُمُّ أولادِ عبدالحميدِ.

قالَ: ثُمَّ ارتحلنا إلى المدينةِ فأقَمْنَا بها.

قلتُ: وكانتْ وفاةُ الشَّيخِ نجمِ الدِّينِ بِمَكَّةَ سنةَ إحدى وعشرينَ وسبعِمِئَةٍ.

ولمَّا حَنَثَ الشَّيخُ يحيى في زوجَتِهِ التي زُوِّجَها بِمَكَّةَ قَدِمَ وأرادَ مَنْ يُحَلِّلُها[2] لهُ فلم يجدْ مَنْ يفعلُ ذٰلك مِمَّنْ يَثِقُ بِهِ إلّا صاحِبَهُ الشَّيخَ

---

(١) في الأصل: سافرت، والمثبت من باقي النسخ .

(٢) نكاح المحلّل باطل باتّفاق الفقهاء إذا اشترط التحليل في صلب العقد، قال النَّبيُّ ﷺ: «لَعَنَ اللهُ المُحَلِّلَ وَالمُحَلَّلَ لَهُ». أمّا إذا تواطأ العاقدان قبل العقد على أنه إذا حلّلها للزّوج الأوّل طلّقها ثمَّ عَقد بذٰلك القصد من غير ذِكر الشرط في صُلب العقد فذهب جمهور الفقهاء إلى جوازه. انظر: «الموسوعة الفقهية الكويتية» مادة: نكاح منهي عنه.

عبدالحميدِ، فسَعَى في زواجِهِ بها، فلمَّا حَصَلَتْ عندَ عبدالحميدِ تَشَوَّفَ الشَّيخُ يحيى إلى أَنَّهُ يُطَلِّقُها لِتَحِلَّ لهُ، فلمْ يَفْعَلْ واغْتَبطَ بها.

وقالَ لهُ: لا أكونُ مُحَلِّلاً لكَ! ولم آخُذْهَا بهذِه النِّيَّةِ، بل لِصُحْبَةِ الأَبَدِ، فاقطَعْ رجاكَ منها، ولا تَكُنْ مِمَّنْ يُفْسِدُ مَا هُوَ لله بما هُوَ للدُّنيا.

فكَفَّ عنها الشَّيخُ يحيى، وأقامَتْ معَ الشَّيخِ عبدالحميدِ، فولدَتْ لهُ إبراهيمَ(١)، وإسماعيلَ(٢)، وبنتاً، فقَرأ أولادُهُ القرآنَ في حياتِهِ، ورَأَسَ إبراهيمُ واشتغلَ بالعِلْمِ وخالطَ [٨٦/أ] الرُّؤَسَاءَ ووَلِيَ نَظَرَ الأوقافِ، وأصابَ إسماعيلَ فالجٌ أضَرَّ بهِ في قُوَّتِهِ وكلامِهِ، فلا يكادُ يُفْهَمُ إلّا بِكُلْفَةٍ.

وسافرَ الشَّيخُ عبدالحميدِ بأولادِهِ يريدُ التَّعريفَ بهم والإعانَةَ عليهم، وكانَ يقولُ قبلَ سَفَرِهِ: ما أَظُنُّ أجلي إلّا قدْ قَرُبَ، فإنِّي مُسَافِرٌ من غيرِ ضَرُورَةٍ، وما أَظُنُّ ذلك إلّا للنُّقْلَةِ إلى التُّرْبَة، فكانَ كذلك.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقَطْيَةَ(٣) في طريقِ مِصْرَ، وذلك في سنةِ سبعٍ وعشرينَ وسَبْعِمِئَة.

وعاشَ بعدَهُ الشَّيخُ يحيى التُّونِسِيُّ مُدَّةً طويلةً، وكَانَ حَسَنَ المُحَاضَرَةِ، يقطَعُ مَجْلِسَهُ بإنشادِ الشِّعْرِ الرَّقيقِ، والحِكَاياتِ الغَرِيبَةِ، والأمثالِ المُسْتَطْرَفَةِ، غيرَ أَنَّهُ لم تَكُنْ له عَرَبِيَّةٌ، بل كانَ فَصِيحاً بالسَّجِيَّةِ والسَّلِيقَةِ.

---

(١) «التحفة اللطيفة» ١/ ٢١٦.

(٢) «التحفة» ١/ ٣٧.

(٣) قَطْيَةُ: قرية في سيناء على الحدود مع الشام. انظر: «معجم البلدان» ٤/ ٣٧٨.

وقدْ سألَ معاوِيَةُ فقالَ: كيفَ ابنُ زيادٍ ؟ قالوا: ظَرِيفٌ على أَنَّهُ يَلْحَنُ، فقالَ: أَوَليسَ ذٰلك أظرَفَ له[1]؟

قالُوا: وإنَّما اسْتَظْرَفَهُ لأنَّ السَّليقةَ وتجنُّبَ الإعرابِ مِمَّا يُسْتَمْلَحُ في البِذْلَةِ من الكَلامِ، ومن ذٰلك قولُ الشاعِرِ:

مَنْطِـقٌ صـائِبٌ ويَلْحَـنُ أحْيَـا نًا وأحـلى الحديثِ ما كان لَحْنا

والسَّليقةُ يُرادُ بها طَبْعُ الإنسانِ، يُقالُ: فلانٌ يَتكَلَّمُ بالسَّلِيقَةِ، أي: بِطَبْعِهِ لا عن تَعَلُّم.

وكانَ من أكثَرِ النَّاسِ فقيرَ الذَّاتِ يُنْفِقُ ما بيَدِهِ، فإذا فَنِيَ اقْتَرَضَ الأَلْفَ والأَلْفَينِ، ثُمَّ [٨٦/ ب] يقضِي قضاءً جميلاً.

وكانَ لَهُ مُعْتَقِدُونَ[2]، ورُزِقَ حُظْوةً[3] عندَ القُضَاةِ وأكابِرِ النَّاسِ؛ لِظُرْفِهِ وحُسْنِ أخلاقِهِ ومحاضَرَتِهِ، تَوَلَّى نائباً في الإمامَةِ والخَطَابَةِ عن القاضي شَرَفِ الدِّينِ ابنِ الأميُوطِيِّ، وكانَتْ خُطْبَتُهُ كلاماً مُلَفَّقاً غيرَ مُرَتَّبٍ ولا مُفَقَّرٍ، فيُحمَلُ في ذٰلك على السَّذَاجَةِ وقِلَّةِ الاحتفالِ بالتَّصَنُّعِ في الأمورِ، وعاشَ حَتَّى صارَ لا يَقدِرُ على حَبْسِ الإِرَاقَةِ ولو كانَ في المسجِدِ.

وقالَ لهُ بعضُ الخُدَّام: أَتْعَبْتَنا بِغَسْلِ مَوضِعِكَ من المسجِدِ.

فقالَ لهُ: وعلى أيِّ شيءٍ تأخُذُونَ الجامِكِيَّةَ إلّا على مثل هٰذا؟!

---

(١) «خزانة الأدب» للبغدادي ٦/ ١٨٧.

(٢) الواجب التعلّق بالله عَزَّوَجَلَّ وحده.

(٣) الحُظْوَة: المَكانة والمَنزِلة. «لسان العرب»: حظا.

وقالَ لبعضِ الشيعةِ - وقدْ رآهُ يَتوَضَّأُ ويَمْسَحُ على رِجْلَيهِ -: لِم لا تَغْسِلُها؟

فقالَ: لأنَّهما طاهِرَتَانِ.

فقالَ لهُ: فإذَنْ ما غَسَلْتَ وجْهَكَ إلّا لِكَونِهِ نَجِساً!

وامتُحِنَ بالخُدَّام فآذَوهُ وضَرَبُوه ضَرباً شديداً، أو اتَّهَمُوه بأنَّهُ تكلَّمَ فيهم عندَ الأميرِ منصورٍ، ثُمَّ إنَّهُ صَبَرَ ولم يُظْهِرْ مِنَ الجَزَعِ ما يُوجِبُ التَّعَصُّبَ لهُ، بلْ صَبَرَ واحتملَ حَتَّى بلَغَهُ الأَجَلُ.

كانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كُلَّما سَمِعَ بِحِكايةٍ مِنَ الصَّالحِينَ أو غيرِهم ممَّا دُوِّنَ في الكُتُبِ يقولُ: هٰذهِ بِعَينِها أو قريباً منها اتَّفَقَ لي، وإن سَمِعَ بِمُغْرِبَةٍ قالَ: أنا رأيتُ هٰذهِ؛ لِكَثْرَةِ تَغَرُّبِهِ [٨٧/ أ] في البلادِ وسِيَاحَتِهِ، ومَنْ اجْتَمَعَ بِهِم مِن سائرِ الطَّوائِفِ.

وكانَ الشَّيخُ يحيى القُسَنْطِينيُّ أخصَّ النَّاسِ به وأكثرَهُم لهُ مُلازَمَةً على طريقِ الخِدْمَةِ أولاً، ثُمَّ عَلَى طريقِ الصُّحْبَةِ آخِراً.

وتخلَّقَ الشيخُ يحيى القُسَنْطِينيُّ بأخلاقِهِ واكتَسَبَ من آدابِهِ، وكانَ مُلازِماً له في شُبُوبِيَّته حَضَراً وسَفَراً، فتَعَرَّفَ بأصحابِ الشَّيخِ ومَعَارِفِه، وصَارُوا لهُ إخواناً من بعدِهِ.

وكانتْ وفاةُ الشَّيخِ يحيى التُّونسيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنةَ ثلاثٍ وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ، ومولدُهُ سنةَ إحدى وأربعين وستِّمِئَةٍ[١].

---

(١) في (ج): «وسبعمئة»، وهو خطأ، والصواب المثبت من باقي النسخ.

وأمَّا **الشيخُ يحيى القُسْنَطِينيُّ** فإنَّهُ اليومَ من رجالِ زمانِهِ ورُؤَساءِ إخْوانِهِ، قرأَ القرآنَ في شُبُوبيَّتِهِ فَحَفِظَهُ وجَوَّدَهُ، ثُمَّ حَفِظَ «الرِّسالَةَ» في مذهَبِ مالكٍ، واشتغلَ بالعلمِ وسَمِعَ الحديثَ، وأَقْرَأَ القُرآنَ وانتَفعَ عَلَيهِ جماعةٌ، ورُزِقَ حُسْنَ السَّمْتِ ووُفُورَةَ العَقْلِ وصِدْقَ اللهجَةِ، والصَّدْعَ بالحَقِّ، معَ الدِّينِ المتينِ، وحُسْنِ اليقينِ.

ورُزِقَ أولاداً نُجباءَ؛ تُوُفِّيَ أكبرُهم الفقيهُ شهابُ الدِّينِ أحمدُ[١] في سنةِ تسعٍ وخمسينَ وسبعِمِئَةٍ، وكانَ قدْ اشتغلَ اشتِغَالاً كثيراً، ولهُ محفوظاتٌ عديدةٌ، [٨٧/ ب] وحصَّلَ عِلْماً، وكانَ فيهِ أهليَّةُ التَّرَقِّي إلى الفُتيا، وخَلَّفَ وَلَدَيْنِ حَفِظَا القُرآنَ وكَفَلَهُما جَدُّهُما، وفَقَّهُما الله تَعَالى.

وكانَ مِنَ الشُّيوخِ المُتَصَدِّرينَ للإقراءِ والإفادَةِ الشَّيخُ **مُحَمَّدٌ الحزَّازُ**[٢]، كانَ مِنَ المجاوِرينَ القُدَمَاءِ الأخيارِ، المُتَبَتِّلِينَ لإقراءِ القرآنِ، المُفِيدِينَ بِحُسنِ الصَّبرِ وطُولِ البالِ على الطَّلَبَةِ من غيرِ مَعلُوم لهُ عَلَى ذٰلك، بل لله تَعالى.

انتفعَ بِهِ جماهيرُ أولادِ المُجاورِينَ وجواهرُهم، مثلُ الشيخِ مُحَمَّدٍ الحَلَبِيِّ[٣]، وشَمسِ الدِّينِ التُّسْتَرِيِّ، ونظرائِهم، ومِمَّنْ انتفعَ عليهِ الشَّيخُ يحيى القُسَنطِينيُّ.

وأخبرني أنَّهُ أقرأَ القرآنَ في بلادِهِ بغدادَ فوقَ خمسِمِئَةِ نَفْسٍ، كلُّهُم حَفظَ

---

(١) أحمد بن يحيى الشهاب القسنطيني، الفقيه المالكي، أكبر أولاد أبيه. «التحفة» ١/ ٤٥٧.

(٢) في الأصل: الخراز، وضبطه السَّخاوي «الحزّاز» بمهملة ومعجمتين. انظر: «التحفة» ترجمة (٤٠٧٦) نقلاً عن المؤلف.

(٣) ذكرهُ السَّخاوي نقلاً عن المؤلف. «التحفة» ترجمة (٤٠٧٨).

القرآنَ عليهِ وجَوَّدَهُ بين يديهِ، وكان صَنْعَتَهُ حَزُّ[(١)] الخَشَبِ بالمِخْراطِ الشَّريفِ، يعملُ السُّبَحَ ويبيعُها ويَتَقَوَّتُ بِثَمَنِها، أقامَ على ذٰلك مُدَّةً.

وتزوَّجَ بنتَ عليٍّ الفَرَّاشِ فرأتْ معهُ سَعَادَةً؛ لِحُسنِ خُلُقِهِ وطِيبِ عِشْرَتِهِ، ثُمَّ تُوُفِّي عن بِنْتٍ صالِحَةٍ [لَحِقَتْها][(٢)] بَرَكَةُ أبيها.

تُوفِّي طريقَ الشَّام مُتَوجِّهاً إلى المدينةِ في الموضِعِ المعروفِ بالأُخَيْضِرِ[(٣)]، وماتَ وهو ساجِدٌ في الصَّلاةِ وذٰلك في سنةِ ثمانٍ وثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ.

وكانَ مِنَ الشُّيوخِ المُتَصَدِّرينَ للإقراءِ الشَّيخُ الصَّالِحُ المُقرِئُ [٨٨/ أ] المُجَوِّدُ: **برهانُ الدِّينِ إبراهيمُ بنُ مَسْعُودِ بنِ سعيدٍ القاهِريُّ** المعروفُ **بابنِ الجَابيِّ المَسْرُورِيِّ الإِربِلي** الأصل[(٤)].

كانَ مِنَ الشُّيوخِ القُدَماءِ المُقْرِئِينَ السَّبْعَ، أقامَ بالمدينَةِ بعدَ إقامَةٍ طويلَةٍ بِمَكَّةَ، وانْتَفَعَ النَّاسُ بهِ وجَوَّدُوا عليهِ، وكانَ شيخاً مَهيباً، حَسَنَ السَّمْتِ، مَلِيحَ الشَّيبَةِ، مُتَقَدِّماً على أبناءِ جِنْسِهِ.

استنَابَهُ القاضِي شرفُ الدِّينِ[(٥)] في الإِمَامَةِ ومُدَّةَ غَيْبَتِهِ في القاهِرَةِ سنةَ اثنتينِ وأربعينَ، وكانَ قَدْ استنابَهُ جمالُ الدِّينِ المطريُّ في الخَطَابَةِ والإِمَامَةِ

---

(١) في (أ): «خرط».

(٢) ما بين المعقوفتين سقط في الأصل، وهو من باقي النسخ.

(٣) الأخيضر أو الأخضر: موضعٌ بين العُلا وتبوك في الطريق إلى المدينة، يبعُد عن تبوك ٧٠ كيلاً، نزله رسولُ الله ﷺ عند مسيره إلى تبوك. انظر: «الأماكن» للحازمي ١/ ٥٨.

(٤) مقرئ الحرمين، ويُعرف بابن الجابي، وبالمسروري؛ لكونه وُلد بخان مسرور بالقاهرة، توفي بالمدينة سنة ٧٤٥هـ. «التحفة» ١/ ٢٦٢، «الدرر الكامنة» ١/ ٧٣.

(٥) هو شرف الدين الأميوطي، المتقدم ذكره ص٨٢.

أيضاً في سنةِ ثمانٍ وثلاثينَ، وكانَ القَاضِي شَرَفُ الدِّينِ غائِباً في القاهِرَةِ، وكانَ مُجِيداً في أدائِهما والقيامِ بِهِما، وكانَ قدْ كُفَّ بصرُهُ في آخرِ عُمْرِهِ فَصَبَرَ واحتَسَبَ.

تُوُفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ خمسٍ وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ، وكان مولِدُهُ بالقاهِرَةِ في سنةِ اثنتينِ وستِّينَ وستِّمِئَةٍ.

وكانَ مثلَهُ في التَّصَدُّرِ والإفَادَةِ والجَودَةِ والتَّحْصِيلِ الشَّيخُ **مُحَمَّدٌ العُقَيبِيُّ المقرئُ**[1]، كانَ إماماً في القراءاتِ ومواδِّها، مُلازِماً للمُشْتَغِلينَ، انتَفَعَ النَّاسُ عَلَيهِ بِدِمَشْقَ ورأسَ فيها وانْفَرَدَ، ثُمَّ بِمَكَّةَ، ثُمَّ بالمدينَةِ، وكانَ مِنَ الأولياءِ وأهلِ الفِرَاسَةِ، وكانَ فيه حِدَّةٌ عَظِيمَةٌ على الطَّلَبَةِ وهَيْبَةٌ عليهِم.

تُوُفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ أربعٍ وسِتِّينَ وسبعِمِئَةٍ.

وكانَ فِي الحرمِ الشَّريفِ جماعَةٌ مِنَ المؤذِّنِينَ [٨٨/ ب] الأخيارِ، منهُم الشَّيخُ الإمامُ العَلَّامَةُ أقضى القُضَاةِ جمالُ الدِّينِ **مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدَ المَطَرِيُّ الأنصارِيُّ الخَزْرَجِيُّ العَبَّادِيُّ**، كانَ إماماً مِنْ أَئِمَّةِ الحديثِ والتَّارِيخِ والفِقْهِ، والمشارَكَةِ في العلومِ.

وَلِيَ نِيابَةَ الحُكْمِ والخَطَابَةِ والإِمَامَةِ عن القاضي شَرَفِ الدِّينِ الأُمْيُوطِيِّ، وكانَ مُتَخَلِّقاً بأخلاقِ كُلِّ مَنْ ذَكَرْتُهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، ليسَ منهُم شيخٌ ولا كبيرُ قَدْرٍ إلّا وَهُوَ مَعَهُ في حوائِجِهِ ويُسَاعِدُهُ في قليلِهِ وكثيرِهِ،

---

(١) محمد بن عبدالله بن عبدالله: ناصر الدين الدمشقي، القلعي، المقرئ، الصالح، أقرأ بدمشق، ويعرف بالعُقيبي، نسبة للعُقيبة: موضع بدمشق، مات سنة ٧٦٤هـ. «العقد الثمين» ٢/ ٦٣، «التحفة» ٦/ ٢١١.

لم نَجِدْ بعدَ والدِنا مثلَهُ في الإحسانِ إلينا والشَّفَقَةِ علينا، وفي تَرْبِيَتِنا وتعليمِنا والسَّعيِ في صلاحِنا، إنْ قلتُ: قامَ في مقام والدِنا، فما تعَدَّيتُ.

كانَ لِكُلِّ قادِمٍ إلى المدينةِ كالأهلِ لهم في إسكانِهِم وكِسْوَتِهِم والتَّعريفِ بِهِم وتَرْبِيَتِهِم عندَ الشَّيخ والخُدَّام، وكانَ حَسَنَ المحاضَرَةِ، إذا جَلَسْتَ إليهِ لم تُحِبَّ أَنْ تُفارِقَهُ، لم يأتِ بعدَهُ مثلُهُ، ولا عَلِمْتُ فيمَنْ كانَ في عصرِنا مَنْ لهُ فضلُهُ؛ كانَ جامِعاً للمحاسِنِ والفَضَائِلِ، صَدْراً من صُدُورِ الأفاضِلِ، وقدْ تَخَلَّلَ ذكرُهُ مَعَ مَنْ ذكرْنَا مِنَ الشُّيوخِ العامِلِينَ والأولياءِ الصَّالِحِينَ.

لم يُسْمَعْ أَحسَنُ من صوتِهِ في المِئذَنَةِ، كانَ يفضُلُ على صاحِبِهِ محمَّدِ ابنِ إبراهيمَ، إلّا أَنَّهُ كانَ لا يبذُلُ عِلْمَهُ كما كانَ مُحَمَّدُ بنُ إبراهيمَ، وكانَ في عِزَّةِ نفسِهِ والمحافَظَةِ على مُرُوءَتِهِ في أعلى المَقَامَاتِ وأسنَى التَّنَزُّهَاتِ.

وقدْ عرضتْ لي حكايةٌ عنهُ فيها تَسْلِيَةٌ لمَنْ ذاتُهُ عَلِيَّةٌ، وتَعْزِيَةٌ لمَنْ نَفْسُهُ خَسِيسَةٌ رَدِيَّةٌ؛ وذٰلك أَنَّهُ كانَ في بدايَةِ شأنِهِ وعُنْفُوانِ شَبَابِهِ مُحَبَّباً إلى أترابِهِ وإخوانِهِ، لا يَخرُجُونَ إلى زيارةٍ أو يَجْتَمِعُون في مُتَنَزَّهٍ إلّا أَخَذُوهُ مَعَهُم، وكانَ قدْ شارَكَهُ في المِئذَنَةِ والرِّئاسَةِ بها الشَّيخُ عِزُّ الدِّينِ المُؤَذِّنُ[1]؛ لأنَّ المدينَةَ لمَّا لم يَكُنْ فيها مَنْ [٨٩/أ] يُوثَقُ بهِ في معرِفَةِ الأوقاتِ وتحرِيرِها بَعَثُوا لها مِن مِصْرَ ثلاثَةَ رُؤَسَاءَ:

أحدُهُم: والدُ الشَّيخِ جمالُ الدِّينِ أَحْمَدُ بنُ خَلَفٍ[2]، والثاني: الشَّيخُ

---

(١) محمَّد بنُ نصرِ الله بنِ يوسُفَ بنِ أبي محمَّدٍ، العِزُّ الأبرارِيّ. انظر: «الدرر الكامنة» ٤/ ٢٥٧، «التحفة» ترجمة (٤٠٠٩) نقلاً عن المؤلف.

(٢) أحمدُ بنُ خلَفِ بنِ عيسى بنِ عشاش بنِ يوسفَ بنِ بدرِ بنِ عليٍّ، الأنصاريُّ الخزرَجيُّ، العَباديُّ، السَّاعديُّ، المطريُّ. «التحفة» ١/ ٣١٨.

إبراهيمُ والدُ الشَّيخ مُحَمَّدِ بنِ إبراهِيمَ، والثَّالِثُ: عِزُّ الدِّينِ المُؤَذِّنُ المُتَقَدِّمُ ذِكْرُهُ.

فَتُوُفِّي والدُ جمالِ الدِّينِ ووالدُ مُحَمَّدِ بنِ إبراهيمَ رحمهُما الله تَعالَى، وكانا النِّهايَةَ في معرِفَةِ الوقتِ وحُسْنِ الصَّوتِ، وبَقِي عِزُّ الدِّينِ وطَالَتْ مُدَّتُهُ حَتَّى أَسَنَّ وعَجِزَ، وكانَ حَسَنَ الهيئَةِ ذا لحيةٍ طويلةٍ ورِئاسَةٍ مَلِيحَةٍ.

واتَّفَقَ أن خَرَجَ جمالُ الدِّينِ المَطَرِيُّ يوماً مَعَ أصحابِهِ فباتُوا في مسجِدِ قُبَاءَ، وقالَ لِعِزِّ الدِّينِ: قُمْ عَنِّي في نوبَتِي. فأخلَفَهُ عِزُّ الدِّينِ فلم يَقُمْ، وبَقِيَتْ المِئذَنَةُ شاغِرَةً مِنَ الرَّيِّس، فلمَّا جاءَ جمالُ الدِّين تَكَلَّمَ عليهِ الشَّيخُ عزيزُ الدَّولَةِ[1] وأغلَظَ عليهِ.

فقالَ لهُ: ما غبتُ حتَّى استَنَبْتُ، ولٰكن غَرَّنِي عِزُّ الدِّين المُؤَذِّنُ!

فلَمْ يَقبَلْ عُذْرَهُ وكثَّرَ عليهِ الكلامَ.

فقالَ لهُ جمالُ الدِّين المطريُّ: لكَ عندي غيرُ هٰذهِ المِئذَنَة، الطَّلاقُ الثَّلاثُ يَلْزَمُنِي إنْ أَذَّنْتُ في هٰذِهِ المِئذَنَة حتَّى يموتَ عِزُّ الدِّينِ المُؤَذِّنُ ويَمُوتَ الشَّيخُ عزيزُ الدَّولَة!

فتركَهُ الشَّيخُ وتَرَكَ الكلامَ مَعَهُ، وصارَ إذا كانَ الوقتُ يُؤَذِّنُ عَلَى بابِ جبريلَ في الأوقاتِ كُلِّها، وأصحابُهُ يَقْتَسِمُونَ عليهِ الجامِكِيَّةَ، وكانتْ الجامِكِيَّةُ يومئذٍ قليلةً.

فلمَّا طالَ عُمْرُ عِزِّ الدِّينِ قالَ لهُ النَّاسُ: اعمَلْ مَا عَمِلَهُ غيرُكَ، نَزِّلْ زوجتَكَ بِطَلْقَةٍ مُخَالَعَةٍ، ثُمَّ ارْجِعْ إلى مِئذَنَتِكَ، ثُمَّ راجِعْ زَوْجَتَكَ.

---

(١) هو ريحان العزيزي، عزيز الدولة، المتقدِّم ذكره ص٨٢.

فقالَ: لا أفْعَلُ هٰذا، ولا يُسْمَعُ عنِّي ذٰلك ولو كانَ لي في المِئذَنَةِ مَا عسى أن يكونَ!

ثُمَّ إنَّهُ ماتَ عزيزُ الدَّولَةِ، فقيل لهُ: إنَّما كانَ غَضَبُكَ من كلامِ الشَّيخِ وقدْ ماتَ، فافْعَلْ مَا يفعَلُهُ النَّاسُ، فامْتَنَعَ وصَبَرَ.

فلمَّا بُنِيَتِ المِئذَنَةُ الجديدةُ، [٨٩/ ب] قيلَ لهُ: هٰذه المِئذَنَةُ لم تَكُنْ حينَ يمينِكَ موجودةً فاسْتَقِلَّ بها، فلم يفعلْ.

واستمَرَّ كذٰلك حتَّى أرادَ اللهُ تَعالى، فجاءَ عِزُّ الدِّينِ المُؤذِّنُ ليلةً وقدْ مضى مِنَ الليلِ نِصْفُهُ، فدَقَّ بابَ الحَرَم ودخلَ وقدْ لَحِقَهُ اختلالٌ، فطَلَعَ المِئذَنَةَ الجَدِيدَةَ وتكلَّمَ على عادَتِهِ، فأنكرَ النَّاسُ قيامَهُ، ثُمَّ سَكَتَ ولم ينزِلْ، فطَلَعُوا إليهِ فوجدُوه ميِّتاً رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذٰلك في سنة عَشْرٍ وسبعِمِئَةٍ، وفيها تُوُفِّيَ عزيزُ الدَّولةِ أيضاً، فانْحَلَّتِ اليمينُ، وطَلَعَ المِئذَنَةَ في أيامِ الحَرِيرِيِّ، وكانَ من أكبرِ أحبابِهِ، فانظُر إلى هٰذِهِ النَّفْسِ الأبيَّةِ والهِمَّةِ العَلِيَّةِ.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ إحدى وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ، وكانَ مولِدُهُ في سنةِ إحدى وسبعينَ وستِّمِئَةٍ، تَغمَّدَهُ اللهُ برَحمَتِهِ.

ثُمَّ خَلَفَهُ في أَخْلاقِهِ وسِيادَتِهِ وَرِئاسَتِهِ وَلَدُهُ الشَّيْخُ الإمَامُ العَلّامةُ **عَفِيفُ الدِّينِ عبدُالله**(١)، وَزَادَ عَلَيهِ بالمَشْيَخَةِ في الحَدِيثِ وَلِقَاءِ الشُّيوخِ، فَإِنَّهُ رَحَلَ إلى العِرَاقِ وسَمِعَ بها الحَدِيثَ، ثُمَّ رَحَلَ إلى مِصْرَ ودمشقَ

---

(١) عبدالله بن محمد بن أحمد بن خلف، العفيف المطري، المحدِّث، أذّن بالمسجد النبوي أكثر من ٥٠ سنة، له ذيل على «طبقات الشافعية» لابن كثير، تُوُفِّيَ بالمدينة سنة ٧٩٥هـ. «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٨٤، «التحفة» ٤/ ٨٩.

وحَلَبٍ وكثيرٍ من الأقاليمِ، ولَقِيَ مِن شيوخ هٰذا الفَنِّ مَا لا يُحصى كَثْرةً، واشتَهر ذِكْرُهُ شرقاً وغرباً بِسَببِ هٰذا العِلْمِ وبما[١] كَانَ فيهِ مِن مَكارِمِ الأخلاقِ والإحسانِ إلى الغُرباءِ الوارِدِينَ عَلَيه.

[وكَانَ مُنْجَمِعاً مُنْقَبِضاً عَن النَّاسِ، مَا عدا الغرباءِ الواردينَ عَلَيهِ][٢] فَإِنَّهُ كَانَ لَهُم كَالأبِ الشفيقِ.

وانتهتْ إليهِ مَشيخةُ الصُّوفيَّةِ بِمَكَّةَ والمدينة، فَإِنَّهُ كَانَ في زِيِّهِم ولِبَاسِهِم وأخلاقِهم في أعلى المَراتبِ.

وكَانَ إِمَاماً في عِلْمَي الرِّجَالِ والحديثِ، مَعَ خَرَدَةٍ[٣] وسَكِينَةٍ وحِشْمَةٍ، مَعَ مَا رُزِقَ مِنَ الشَّكَالةِ[٤] الحَسَنَةِ والخِصَالِ المُسْتَحْسَنَةِ. ولم يَتَزَوَّجْ قَطُّ، بَلْ كَانَ عِنْدَهُ جَوارٍ يَقومونَ بخدمَتِهِ وخِدْمَةِ أصحابِهِ.

ولَمَّا تُوُفِّيَ والدُهُ [٩٠/ أ] جمالُ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَامَ بِخِدْمَةِ أخيهِ تقيِّ الدِّينِ أبي الحَرَمِ عبدالرَّحمنِ[٥]، وكَفَلَ أيضاً ابنَ أختِهِ عبدالعزيزِ [بنَ][٦] يحيى بنِ العفيفِ[٧]، فربَّاهُمَا جميعاً، واشتغلا بالعلمِ عَلَى الشيوخِ.

---

(١) في الأصل و(ج): «ربما»، والمثبت من (أ) و(ب).

(٢) ما بين قوسين سقط من الأصل، وهو من (أ) و(ب).

(٣) أي: صاحب صمتٍ وحياء. «لسان العرب»: خرد.

(٤) أي: حسن الشكل والصورة والطريقة. «لسان العرب»: شكل.

(٥) عبدالرحمٰن بن محمد بن أحمد بن خلف، العلامة التقيّ أبو الحرم ابن الحافظ الجمال المطري الشافعي، القاضي الفقيه، توفي سنة ٧٧٢هـ بحلب. «الدرر الكامنة» ٢/ ٣٤٠، «التحفة» ٤/ ٢٩٧.

(٦) سقطت في الأصل.

(٧) عبدالعزيز بن يحيى بن العفيف عبدالسلام بن محمد بن مزروع المغربي المدني، سبط الجمال محمد بن أحمد بن خلف المطري. «التحفة» ٤/ ٣٩٦ نقلاً عن المؤلف.

وَكَانَ كُلُّ شيخ ذِي عِلْم يَرِدُ إلى المدينةِ يُحسِنُ إليه ويُلزِمُهُم العكوفَ عَلَيِه، وَكَانَ عبدالعزيز حنبليَّ المذهبِ فبَرَعَ في عِدَّةِ علومٍ وأَتْقَنَها، وَكَانَ يحفظُ أصولاً مُتَعَدِّدَةً في فنونٍ كثيرةٍ، وفَاقَ عَلَى أقرانِهِ وأبناءِ جنسِهِ، ثُمَّ اشتَغَلَ بِمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَأَقْبَلَ عَلَى حِفْظِ «المنهاجِ»[1] للنَّوَوِيِّ مِن غَيْرِ إعراضٍ عن مذهبِهِ، بَلْ لِيَجْمَعَ بَيْنَ المَذْهَبَيْنِ.

ثُمَّ ارتَحَلَ إلى دمشقَ رغبةً في لِقَاءِ الشُّيوخِ والأخذِ عنهم، فَتُوُفِّيَ بِهَا، وذٰلك في سنةِ اثنتينِ وخمسينَ وسبعِمِئَةٍ، وَكَانَ مَولِدُهُ في رجبٍ مِن سنةِ اثنتينِ وثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ.

وأَمَّا أخوهُ فَإِنَّهُ لَمْ يُفَارِقْهُ إلى أَن مَاتَ، وحَصَّلَ علماً، وأفادَ وَدَرَّسَ، وَتَعَلَّقَ بِأَهْدَابِ طَرِيقَةِ والدِهِ ورِئاسَتِهِ.

ورُزِقَ أولاداً نُجباءَ؛ أَكْبَرُهُم الوَلَدُ النَّجِيبُ أبو حَامِدٍ[2]، رَبّاهُ عَمُّهُ، وَانْفَرَدَ بتربيتِهِ وتعليمِهِ، فلو عاشَ له لحصَّلَ ببركَتِهِ خَيْراً كَثِيراً، وَكَان مَوْلِدُ أبِي الحَرَم بِمَكَّةَ المُشَرَّفَةِ سَادِس عَشْري ذِي القِعْدةِ سَنةَ تِسْعٍ وعشرينَ وسبعِمِئَةٍ.

وكانَتْ مِحْنَةُ الشَّيْخ عَفِيفِ الدِّينِ الَّتي أُصِيبَ بها في دُنْياهُ مِنْ جِهَةِ الأميرِ ثَابِتِ بنِ جَمَّازٍ[3] في سَنةِ اثنتين وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ.

---

(١) «منهاج الطالبين وعمدة المفتين» للنووي، أهمّ متون الشافعية في الفقه.

(٢) محمد بن عبدالرحمن بن محمد، أبو حامد، المطري، المؤذن بالمسجد النبوي، حدَّث ودرَّس وأفتى، تفقّه عليه ولده المحبّ محمد، تُوُفِّي بمكة سنة ٨١١هـ. «العقد الثمين» ٢/ ١٠٥، «التحفة» ٦/ ٢٦٦.

(٣) ثابت بن جمّاز بن شيحة الحسيني، أمير المدينة المنوَّرة باستنابة أخيه وُدي بن جماز سنة ٧٤٢هـ، مات مقتولاً في شهر رمضان سنة ٧٤٣هـ. «التحفة» ٢/ ١٥٩.

وذلك أنَّ الطَّوَاشِيَّ مختاراً البغداديَّ كَانَ وَصِيًّا عَلَى أولادِ العفيفِ ابنِ مَرْزُوع[(١)]، وكَانَ صَدِيقاً للشَّيخ عَفِيفِ الدِّينِ مُلازِماً لهُ مُعْتَقِداً فيهِ، فَلمَّا تُوُفِّي الطواشيُّ كَانَ [٩٠/ ب] الوالي في المَدِينةِ يومَئِذٍ ثابتَ بنَ جَمّازٍ نيابةً عَنْ أَخِيهِ وُدَيٍّ، فَطَلَبَ العفيفَ واتّهَمَهُ أنَّ للطواشيِّ عِندهُ مَالاً، فحَلَفَ له أنَّهُ ليسَ لهُ عندهُ شيءٌ فلمْ يُصَدِّقْهُ، وأَنْزَلَهُ الجُبَّ مَعَ شمسِ الدِّينِ ابنِ عبدالعزيزِ[(٢)]؛ لكُونِهِ كان مِنْ أَخِصَّاءِ[(٣)] العفيفِ وأحبابِهِ، وطلبَ حاشيةَ العفيفِ، فمسكَ رَيحَانَ[(٤)] عَتِيقَ جَمَالِ الدِّين المَطَرِي، فَذَكَرُوا أَنَّهُم قَرَّرُوهُ فَلَمْ يُقِرَّ، فَضَرَبَهُ الأميرُ ثابتٌ بيدِهِ ضَرباً وَجيعاً بالدَّبُوسِ، فأظهرَ لهم شيئاً ممَّا هُوَ للعفيفِ كَانَ أخفاهُ، وحُلِيًّا كان لبعضِ أقاربِهِ.

ثُمَّ إنّهُم نزلوا إلى بيتِ العفيفِ فَأَخَذُوا جميعَ ما فيه مِنْ الكُتُبِ والمَتَاعِ والأثاثِ حَتَّى الحُصُرِ الَّتِي عَلَى الأرضِ!

فأمَّا ابنُ عبدالعزيزِ فأُخْرِجَ مِن ليلتِهِ، وأمَّا الشَّيخُ عفيفُ الدِّينِ فبقيَ [فيه][(٥)] نحوَ يومينِ وليلتَينِ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَى أَنْ يَدفعَ لَهُم سبعةَ أحمالِ رُزٍّ، فَحُسِبَ ثمنُها ألفُ درهمٍ وخمسُمِئَةٍ وخمسةٌ وسبعونَ دِرْهماً، وضَمِنَهُ ابنُ عبدالعزيز وعبدالله بنُ مُحَمَّدِ بنِ إبراهيمَ المؤذِّنُ، فَدَفَعَ لهم ذٰلك بَعدَ

---

(١) عبدالسلام بن محمد بن مزروع، العفيف، نزيل المدينة ومحدِّثها. تُوُفِّي سنة ٦٩٩هـ. «التحفة» ٤/ ٣٥٨.

(٢) قال السَّخاوي: هو أحدُ خواصِّ العفيفِ عبدالله بنِ الجمالِ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ خلفِ المطَرِيِّ. «التحفة» ترجمة (٥١١٥) نقلاً عن المؤلف.

(٣) أخصَّاء: أي الملازمين والأصحاب المقربين. انظر: «صبح الأعشى» ١/ ١٣٥.

(٤) «التحفة» ٢/ ٥٢٩.

(٥) ما بين المعقوفتين من باقي النسخ.

أنْ اقْتَرَضَهُ، ولَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ قَبِلَ مِن أحدٍ مِن أَصْحَابِهِ شيئاً، لا فيما غَرِمَ ولا فيما جَدَّدَ في بيتِهِ مِن أثاثٍ وغَيْرِهِ، وصَبرَ واحْتَسَبَ.

وكان عندَهُ ودَائِعُ للنَّاسِ غَرِمَهَا لأَصْحَابِهَا، وأَخْلَفَ اللهُ عليه وجمَّلَ حالَهُ وأَعْقَبَتْ هٰذِهِ القضيَّةُ صاحبَها خيراً.

وكَانَ الأميرُ المذكورُ قدْ أمرَ بِتَخريجِ جميع المُجاوِرِينَ غَنِيِّهم وفقِيرِهِم في يوم وفاةِ الخادِمِ المذكورِ، وأَنْظَرَهُمْ ثلاثةَ أيام لِيَتَجَهَّزُوا فيها وَصَمَّمَ عَلَى ذٰلك، ثُمَّ تَرَكَهُمْ في يومِ خروج العفيفِ بعدَ شَفَاعَاتٍ، ثُمَّ شَوَّشَ عليهم وطلبَ عَشَرَةَ آلافِ دِرهمٍ مِنْ أَحَدَ عَشَرَ نَفراً، [٩١/ أ] وأَلْزَمَهُمْ بالخروجِ مِنَ المدينةِ إِنْ لَمْ يَدْفعُوها، فخرجَ الجماعةُ إلى قُباء، وجَرَى في ذٰلك كلامٌ كثيرٌ.

ثُمَّ طَلَعَ القاضي شرفُ الدِّينِ إلى الأمير، وتَكَلَّمَ مَعَهُ كلاماً غليظاً، وقَالَ: أنا أَوَّلُ مَنْ يُسَافِرُ مَعَهُمْ، فَرَجَعَ الأميرُ عَنْ رأيِهِ، وبَعَثَ إليهم فَدَخَلُوا المدينةَ آمنينَ.

وأَخْبَرَني مُحَمَّدُ بنُ يعقوبَ[١] وزيرُ الأميرِ المذكورِ أَنَّ الحاصِلَ الذي جَمَعَهُ مِنْ بَيْتِ العفيفِ مَعَ حَاصلٍ آخرَ كَانَ لهُ وحاصلٍ آخرَ كَانَ لزوجةِ ولدِهِ سعدٍ، خرجَ بِهِ الأميرُ المذكورُ في الليلِ مِنْ بابِ السِّرِّ الَّذي للقلعةِ ودَفَنَهُ خَارِجَ المدينةِ تَحْتَ حوشِ وُدَيٍّ، وكَانَ مَعَهُ عَبْدٌ وَاحدٌ لَمْ يطَّلِعْ عَلَى ذٰلك أَحَدٌ غَيرُهُ، ثُمَّ افتقَدَهُ بَعدَ أيامٍ فلمْ يَجِدْهُ، فَقَرَّرَ العبدَ فلمْ يُقِرَّ بشيءٍ، فَقَتَلَهُ معاقَباً مَخنوقاً!

---

(١) «التحفة» ترجمة (٤٠٤٢) نقلاً عن المؤلف.

وجملةُ مَا ضاعَ لهُ تسعةُ آلافِ درهمٍ ومِئَةُ دِرْهمٍ، وذٰلك بعدَ قَضِيَّةِ العفيفِ بخمسينَ يوماً.

ثُمَّ خَرَجَ الأميرُ مِنَ المدينةِ إلى العَرَبِ، فلمْ يَحُلْ عَليهِ الحَولُ حتَّى قُتِلَ في شَهْرِ رمضانَ سنةَ ثلاثٍ وأربعينَ [وسبعِمِئَةٍ][1]، وذَكَرَ مَن حَضَرَ الوَقْعَةَ أَنَّ أَصْحَابَهُ انْهَزَمُوا وَتَرَكُوهُ في المعركةِ غيرَ مَدْفُونٍ.

وَذَكَرَ لي السَّيِّدُ سلطانُ بنُ نجادٍ[2]، أنَّ امرأةً كَانَ ثابتٌ قَتَلَ وَلَدَهَا، فَنَذَرَتْ أنَّها متى ظَفرتْ بِجيفَتِهِ لتأخُذنَّ عَظْماً مِن عِظَامِهِ فتجعلهُ خِلالاً لمَنْسَجِهَا تَضْرِبُ به عنْدَ النَّسج مَفتول الصوفِ! فَلَمَّا تُوُفِّيَ لمْ تَزلْ تطلُبُ جِيفَتَهُ حَتَّى وَقَعَتْ بها، فأَخَذتْ مِن عِظَامِهِ عَظْماً، فَأَوْفَتْ بِنَذْرِهَا، وجعلَتْهُ بيدها لتَتَشَفَّى به، حَتَّى دُخِلَ عليها وسُئِلتْ تَركَهُ فتركَتْهُ بَعْدَ حينٍ.

ثُمَّ إنَّ الشَّيخَ عفيفَ الدِّين اشْتَرَى كُتُبَهُ مِنَ الوزيرِ المذكورِ، وعَوَّضَهُ اللهُ خَيراً مِمّا ذهبَ لهُ، ومَاتَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ [٩١/ ب] عَن غَيرِ عَقِبٍ في سنةِ خمسٍ وستينَ وسبعِمِئَةٍ، وكان مولدُهُ في سنةِ ثمانٍ وتسعينَ وستِّمِئَةٍ.

وكَانَ مِنْهُم الفقيهُ **مُحَمَّدُ بنُ إبراهيمَ المؤذِّنُ**، وقدْ تَقَدَّمَ ذِكرُهُ في مواضعَ متعددةٍ.

كانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن أَدْيَنِ النَّاسِ وأَلينِهِم عَريكَةً، وأحسنِهم مُخالطةً؛ لو دعاهُ

---

(١) ما بين المعقوفتين من (ج).

(٢) ذكره السخاوي في «التحفة» ٣/ ١٨٣ وسمَّاه: سلطان بن محارد، وقال: ذكره ابنُ صالح فيمن رآه من الوحاحدة الشرفاء، وهم منسوبون إلى عبدالواحد بن مالك بن حسين بن المهنا الأكبر ابن داود.

أصغرُ النَّاسِ إلى بيتِهِ أو نخلِهِ ذَهَبَ معهُ، وكَانَ إِذَا جَلَسَ مَجلِساً عَمَرَهُ بالذِّكْرِ والمَدْح، وكَانَ إِذَا طلعَ المِئذَنَةَ وتكلَّمَ فيها يُوجدُ عَلَى كلامِهِ رُوحٌ، رحمهُ الله تعَالى.

لا يزالُ مُبْتَسِماً، وهو مُبتَذِلٌ[1] في لباسِهِ وحركاتِهِ، يُحِبُّ الفقراءَ ويخدِمُهُم ويقضي حوائجَهُم، وكَانَ أمينَ الحُكمِ في أيامِ القَاضِي سراجِ الدِّينِ.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ تسعٍ وعشرين وسبعِمِئَةٍ.

وعَقَّبَ ولدَهُ أبا مُحَمَّدٍ عبدَالله[2]، كَانَ مِن أَحبابِنَا وأصحابِنَا، بلْ مِن أولادِنَا، وَجَدْنَا مِنْهُ بِرًّا عَظيماً وأَدَباً كثيراً، وكَانَ لَهُ وَجاهةٌ عِنْدَ أُمراءِ المدينةِ آلِ جَمَّازٍ، فنفعَ كثيراً مِن النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، وكَانَ مُحَبَّباً إلى النَّاسِ لِمَا احْتَوَى عَلَيهِ مِن حُسنِ السِّيرةِ وصفاءِ السريرةِ.

وكَانَ بَيْنَهُ وبَيْنَ أَخويَّ[3] - خصوصاً أخي مُحَمَّد - مُلاءمةٌ عظيمةٌ، ومَحبَّةٌ أكيدةٌ لا يكادُ ينشرحُ إلّا مَعَهُمَا، ولا يطيبُ لهُ أنسٌ إلّا بِهِمَا.

وكَانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُحبُّ التَّنزُّهَ والمشيَ إلى منفرِجَاتِ[4] المدينةِ ومُتَنَزَهَاتِهَا، إِذَا خَرَجَ يُخرِجُ مَعَهُ الأَطْعِمَةَ الفاخِرَةَ والأشياءَ المعدومةَ الَّتِي لا تكادُ توجدُ عندَ غيرِهِ، فيُتحِفُ بها الجماعةَ.

---

(١) أي: تارك للزينة غير مهتمّ بنفسه. «تاج العروس»: بذل. وفي الأصل: «مبهدل»، والمثبت من (ب).

(٢) عبدالله بن محمد بن إبراهيم المصري الأصل، المؤذِّن بالحرم النبويّ هو وأبوه وجدُّه، كان رضيَّ الأخلاق، محمود الصفات، وتوفي سنة ٧٥١هـ. «الدرر الكامنة» ٣/ ١٥٠، «التحفة» ٢/ ٧٤.

(٣) أي: إخوة المؤلف، وهما محمّد وعلي، وستأتي ترجمتاهما.

(٤) والمقصود: الأودية وكلّ منفرج بين الجبال يكون منفذاً للسَّيل. «المصباح المنير»: فرج.

وكَانَ فِيهِ كَرَمٌ وطيبُ نفسٍ، وَوَلِيَ الرِّئَاسَةَ[١] بَعْدَ والدِهِ، وعقَّبَ أولاداً فُقهاءَ نُجبَاءَ، أفضلُهُم **شهابُ الدِّينِ أَحْمَدُ**[٢]، تفقَّهَ عَلَى مَذْهَبِ الإمامِ أبي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجَدَّ في الطَّلَب، وشاركَ في فنونٍ متعدِّدةٍ، وهُوَ اليومَ مِنْ أعيانِ [٩٢/ أ] جماعتِهِم، تُوُفِّيَ والدُهُم عبدُالله رَحِمَهُ اللَّهُ في سنةِ إحدى وخمسين وسبعِمِئَةٍ، ومولدُهُ في سنةِ أربعٍ وسبعِمِئَةٍ.

وكَانَ مِنْهُم: **مُحَمَّدُ بنُ عبدالرَّحمنِ المؤذِّنُ**[٣] هُوَ وأبوه[٤] وجَدُّهُ، كَانَ فقيهاً مُتفنِّناً اشتغلَ بالعلمِ حَتَّى أَلَّفَ وصنَّفَ، وكَانَ في النّحوِ واللّغةِ إماماً، وفي علمِ الأدبِ والشعرِ هُماماً، وكاتبني بقصيدةٍ لهُ أبانتْ عَن فصاحتِهِ وبلاغتِهِ وقوَّةِ عربيتِهِ مطلعُهَا:

حَنَانَيْـكَ عبـدالله زيـنَ المواكـبِ … فما أنتَ إلّا البَدْرُ بَيْنَ الكواكبِ[٥]

في أبياتٍ كثيرةٍ.

كَانَ مِن إخوانِنَا في الاشتغالِ بالعربيَّةِ، كُنَّا نحضرُ جميعاً عِنْدَ والدي رَحِمَهُ اللَّهُ، وعِنْدَ الشَّيخِ أبي عبدالله النَّحوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، ولي مَعَهُ مباحثُ في

---

(١) أي: رئاسة الأذان في الحرمين.

(٢) أحمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم المصري المدني الحنفي المؤذّن، شهاب الدين، روى «الموطأ» عن الوادي آشي، سمعه عليه الجمال الكازَرُوني. «التحفة» ١/ ٣٤٢.

(٣) انظر: «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٩٦، «التحفة» ٥/ ٢٩٦.

(٤) عبدالرحمن المؤذِّن: خال محمد بن صالح، وهو والد محمد وأخو محمد، ممن أذّن جميعهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ، ذكره ابن صالح. «التحفة» ٤/ ٣٣٢.

(٥) حَنانَيْكَ: أي تحنَّنْ عليَّ مَرَّةً بعدَ مَرَّة، وهو من المصادر المُثنَّاة التي لا يَظْهر فعْلُها، كلَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ. «لسان العرب»: حنن.

مسائلَ كثيرةٍ، وكَانَ ذَا خَرَدَةٍ[١] وأَنَفَةٍ، لا يجلسُ إلّا مَعَ الكبارِ ولا يتكلَّمُ إلّا بِكَلِماتٍ كِبَارٍ [من غير تكبُّرٍ][٢]، وكانَ وَرِعاً ديِّناً حَسَنَ الصَّوتِ[٣].

تُوُفِّيَ - رحمهُ الله تعَالى - في سنةِ عشرينَ وسبعِمِئَةٍ.

وكانَ مِنْهُم - بَلْ مِن خِيَارِهِم -: القَاضِي **فخرُ الدِّينِ السِّنجاريّ**[٤]، أبو بكرِ بنُ عُمَرَ.

عَمِلَ مُؤذِّناً رجاءَ بَرَكةِ النِّسْبةِ إلى النَّبيِّ ﷺ، وكَانَ جَهْوَرِيَّ[٥] الصَّوتِ، عَلَى كلامِهِ رُوحٌ عظيمٌ يَدُلُّ عَلَى خُشُوعِهِ وحضورِ قَلبِهِ، وكان مُعظَّماً عِنْدَ النَّاسِ يَقضِي حَوَائِجَهُم ويُلبِّي دعوتَهُم، وكان لهُ بالقاهِرَةِ وَجَاهَةٌ، ينتمي إلى السُّبْكِيِّينَ[٦]، فكانُوا يَرعَونَهُ في نفسِهِ ثُمَّ في ذُرِّيَّتِهِ مِنْ بعدِهِ، وكان يُقالُ لهُ: سِمْسَارُ الخيرِ؛ لكثرةِ سعيِهِ في مصالحِ النَّاسِ.

سعى في وظائفَ كثيرةٍ تأسَّستْ ببركتِهِ وإشارتِهِ، منها: درسُ المالكيَّةِ

(١) كتب تحتها في الأصل: «أي حياء». وانظر «القاموس»: خرد.

(٢) زيادة من (ب) و(ج).

(٣) في (أ): «الصورة».

(٤) أبو بكر بن أحمد بن عيسى بن الحسن بن علي، فخر الدين أبو محمد بن العلم السنجاري، ولي نظر الأحباس بمصر، وحج سنة ٦٨٣هـ فأذّن بالمنارة الشرقية، ثم ولي وظيفة الأذان من سنة ٦٩٤هـ، واستمر بها حتى مات سنة ٧٣٩هـ. «الدرر الكامنة» ١/ ١٢٥، «التحفة» ترجمة (٤٨٢٣) نقلاً عن المؤلف

(٥) جَهْوَرِيُّ الصَّوْتِ: رَفِيعُه، وهو الصوتُ العالي. «لسان العرب»: جهر.

(٦) المقصود به: أسرة آل السُّبكي الذين كانت لهم وجاهة كبيرة آنذاك، وأكبرهم هو تقي الدِّين عليُّ بنُ عبدالكافي بنِ عليِّ بن تمام، قاضي القضاة السبكيُّ، توفي سنة ٧٥٦هـ. «طبقات الشافعية الكبرى» ٥/ ٣٠٥-٤٠٧.

ودرسُ الشافعيَّةِ اللَّذَينِ رتَّبَهُما الأميرُ سَلّارُ، وكذٰلك درسُ الحنفِيَّة الَّذِي بالمدرسة الأزكَجِيَّةِ، وسقاياتٌ للماءِ وغيرُ ذٰلك.

[٩٢/ ب] تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ تسعٍ وثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ، ومولدُهُ سنة ستٍّ وستين وستِّمِئَةٍ.

وعقَّبَ ولدَهُ شمسَ الدِّينِ مُحَمَّداً[1]، وكَانَ فقيهاً حنفيًّا، اشتغلَ بمذهَبِ أبي حَنِيفَةَ بالقاهِرَةِ عَلَى مشايخِ المذهبِ، وجاءَ إلى المدينةِ معَ والدِهِ فولِيَ تدريسَ الحنفية في الشِّهَابِيةِ، والأزكوجِيَّةِ.

وكان مِنْ الأخْيَارِ، دَيِّناً عاقِلاً، حَسَنَ الأخْلاقِ، مبادِراً لقضاءِ حَوَائِجِ الإخوانِ، كَهْفاً[2] للفقراءِ والمساكين، وكان مُؤَذِّناً حَسَنَ الصوتِ، فتَزَوَّجَ بنتَ القَاضِي شرفِ الدِّينِ الأُميوطيِّ، فرُزِقَ منها ذُرِّيَّةً مُباركةً، أَصْلَحَهُمُ الله تَعَالى.

تُوُفِّيَ - رحمهُ الله تَعَالى - بعدَ أنْ نُهِبَ بيتُهُ في نُهبةِ المدينةِ[3] المُتقدِّمِ ذِكرُهَا، وكانتْ وفاتُهُ في أوائلِ سنةِ إحدى وخمسين وسبعِمِئَةٍ.

وكَانَ مِنهُم الشَّيخُ الفقيهُ الصالحُ الأديبُ: **أبو عبدالله مُحَمَّدُ بنُ مُحَمَّدِ ابنِ مُحَمَّدٍ الغَرناطيُّ**.

---

(١) محمَّدُ بنُ أبي بكرٍ الشَّمسُ ابنُ القاضي فخرِ الدِّين السِّنجاريُّ، الحنفيُّ، نزيلُ المدينة، المؤذِّن بالحرم النبوي، مات سنة ٧٥١هـ. «الدرر الكامنة» ٣/ ٤١١، «التحفة» ٦/ ١١٣.

(٢) كَهْفٌ: أي: ملجأ وملاذ للفقراء. «لسان العرب»: كهف.

(٣) نُهبت المدينة على يد الأمير وُديّ بن جَمَّاز، فجمع الجموع، وأخذ الأموال، وقناديل الحجرة النبوية، ونهب الناس، حتى لم يدع إلّا ما لا قيمة له. تقدَّم الحديث عنها.

كَانَ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - في بَدْءِ أمرِهِ مشتغلاً بالعلمِ، قَدْ جَوَّدَ القراءاتِ السَّبْعَ، وأحكمَ الفرائضَ والحسابَ، حتى لم يكنْ في المدينةِ مثلُ بَدِيهَتِهِ[1] في ذلك.

وكَانَ قَدْ جَبَّ[2] نفسَهُ لعارضٍ عرضَ لهُ خافَ على نفسِهِ مِنَ الشيطانِ، غلبَ عَلَى ظَنِّهِ أنَّه لا يَنْفَكُّ عَنهُ إلّا بما فعلَ، وزُيِّنَ له أنَّ الذِّي يفعلُهُ أسلَمُ لهُ في دِينِه مِنْ حَالتِهِ التي هو عَلَيها، فنَدِمَ حيثُ لا يَنفعُهُ النَّدَمُ، وفي مثلِ ذلك قِيلَ:

كُلٌّ يحاولُ حِيلَةً يَرجُو بِهَا ... دفعَ المضرَّةِ واجتلابَ المنفعَهْ

والمرءُ يَغْلَطُ في تصرُّفِ حَالِهِ ... فلرُبَّمَا اختارَ العناءَ عَلَى الدَّعَهْ[3]

ثُمَّ إنَّه حَسُنَ حَالُهُ وعبادتُهُ وتَبَتُّلُهُ، ورَغِبَ فيه جماعةُ الخُدَّام وأَدْخَلُوهُ في خدمةِ الحَرَمِ الشَّريفِ، وقدَّمُوهُ عليهم في حِفْظِ حواصِلِهِم[4] وأوقافِهِم، ورَأَسَ [٩٣/أ] بينهم رئاسةً جليلةً، ودخلَ في جملةِ المُؤذِّنِينَ أصحابِ المعلوم[5].

فَلمَّا كَبِرَ وأَسَنَّ نزلَ عنه، ولم يزلْ بَيْنَ الخُدَّامِ مُعظَّماً مُحْتَرَماً مشهوراً بِعِفَّةِ اليَدِ واللِّسانِ في إقامةٍ طويلةٍ بَيْنَهُم.

---

(١) أي: يُصيب الرأي في أول ما يُفاجَأُ به، ويأتي بالجواب السديد على البديهة. «لسان العرب»: بده.

(٢) أي: اسْتأصَلَ ذكَره وخُصْيتيهُ. «لسان العرب»: جبب.

(٣) الدَّعة: السكون والراحة. انظر «لسان العرب»: ودع.

(٤) أي: أموالهم ومدَّخراتهم.

(٥) أي: الرَّاتب.

وكانَ قَدْ تَأَثَّلَ[١] دُنْيا، فكانَ يُرسلُ مَا فضلَ عنهُ إلى إخوتِهِ في بلادِهِم غَرناطةَ، حَتَّى إنَّهُ لَمَّا تُوفِّيَ لَمْ يُوجدْ لَهُ مَا كَانَ يُتَّهَمُ بهِ مِنَ المالِ، وأوقفَ كُتُبَهُ وجعلَ مَقرَّهَا في المدرسةِ الشِّهابيةِ، وأعتقَ عبيداً وإماءً، وقَدَّمَ لنفسِهِ ذَخِيرةً[٢] صالحةً بعتقِهِ خادمَهُ نجيباً أحدَ خُدَّامِ الحَرَمِ الشَّريفِ اليومَ، ومِنْ أميزِهِم عَقْلاً ومعرِفَةً ودِيانَةً، وحَصَلَ لهُ بِهِ ذكرٌ جميلٌ وخيرٌ كثيرٌ غيرُ قليلٍ.

وكَانَ أبو عبدالله[٣] مُجيداً في صنعةِ الدِّهَانِ والتَّزويقِ، فعملَ في الحَرَمِ الشريفِ مَعَ الدَّهَّانين، وأثَّرَ تأثيراً حَسَناً.

كَانَ لي مِنهُ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - نصيبٌ وافرٌ، ووُدٌّ عظيمٌ، ومبادَرَةٌ لِقَضاءِ حوائجي، وكانَ يحضرُ معنا في الدَّرسِ ويرعانا؛ لما كَانَ بينَهُ وبينَ والدي جزاهُ الله خيراً.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ أربعٍ وخمسينَ وسبعِمِئَةٍ ولَهُ إحدى وثمانون سنةً، [ولمْ يُخَلِّفْ عَقِباً][٤].

وكَانَ مِنْهُم الأخُ في الله الشّيخُ: **عليُّ بنُ مَعْبَدٍ**[٥] **المِصْرِيُّ** الأصلِ الشهيرُ بالقُدْسِيِّ المؤذِّنُ، كَانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُلازماً لوظيفةِ الأذانِ والإقامةِ، [يغيبُ النّاسُ ولا يغيبُ، قَلَّ أن تَشغَر وظيفةُ الإقامةِ][٦] عَلَى الدَّكةِ مُدَّة

---

(١) أي: اكتسب وصار صاحب ثروة. انظر: «لسان العرب»: أثل.

(٢) الذَّخِيرَةُ: هي ما ادُّخِرَ لأوان الحاجة إليه. «لسان العرب»: ذخر.

(٣) في باقي النسخ: «أبو محمد»، وهو خطأ.

(٤) ما بين المعقوفتين من باقي النسخ.

(٥) «التحفة» ٥/ ١٨٦.

(٦) ما بين المعقوفتين من باقي النسخ.

حياتِه، إنْ حضرَ أصحابُ النَّوبةِ[١] وإلّا قامَ عنهم، وكانت نَوْبَتُهُ في المئذَنَةِ لا تختَلُّ أبداً في صيفٍ ولا شتاءٍ ولا موسمٍ ولا غيرِ ذٰلك، وكَانَ ليلةَ نَوْبَتِهِ لا يرقُدُ إلّا في المدرسةِ الشِّهابيَّةِ، وإذَا كَانَ أيامُ الصَّيفِ خرَجَ عيالُهُ إلى نخلِهِمْ، وأقامَ هوَ في المدينةِ رغبةً في الصَّلاةِ في الجماعةِ، وكانَ مِنْ حُسنِ الخُلُقِ مَعَ الدِّيَانَةِ والصِّيَانَةِ، وقِلَّةِ [٩٣/ ب] الكلامِ في [أعراضِ][٢] النَّاسِ في الذِّروَةِ العُليا والمَقامِ الأَسنَى.

رُزِقَ أولاداً مبارَكِينَ مُؤَذِّنِينَ، وبَناتاً مباركاتٍ، وكَانَ لَهُ عائلةٌ كثيرةٌ[٣] لا يَهْتَبِلُ بحالِهِم[٤] ولا يُهِمُّهُ أمرُهُم، بلْ هوَ مشغولٌ بنفسِهِ وبالقيامِ بوظائِفِهِ مَعَ البَهْدَلَةِ[٥] في ملبسِهِ وحالِهِ كلِّهِ.

وكان قدومُهُ إلى المدينةِ في سنةِ إحدى وعشرين وسبعِمِئَةٍ، ورَغّبَ ابنَ أختِهِ مُحَمَّدَ بنَ يُوسُفَ[٦] في إقامَتِهِ بالمدينةِ، وزَيَّنَ لهُ ذٰلك، فأقامَ عندَهُ وسعى لهُ في أن يكونَ مؤذِّناً، فأُذِنَ لهُ فكان يُؤذِّنُ احتساباً، ثُمَّ شغَرَتْ وظيفةُ ابنِ الحُسينيِّ[٧] المؤذِّنِ فتولَّى مكَانَهُ، وكان الحُسَينيُّ مِنَ المُؤذّنينَ القدماءِ الأخيارِ.

---

(١) النَّوبةُ: الدَّورُ. «لسان العرب»: نوب.

(٢) ما بين المعقوفتين من باقي النسخ.

(٣) في باقي النسخ: «كبيرة».

(٤) المقصود هُنا أنه لا يهتمّ لأمرهم، وليس ذٰلك من الشرع، فكلكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته، والواجب عدم التفريط في حقوق الأهل والأولاد.

(٥) البهدلة: الخفة والإسراع في المشي ونحوه. «تاج العروس»: بهدل. ولعل المقصود هُنا: أنّ ملبسه ومأكله خفيف وسريع بسبب انشغاله بالقيام بوظائفه.

(٦) محمد بن يوسف المصري المدني المؤذِّن. «التحفة» ترجمة (٤٠٥٤) نقلاً عن المؤلف.

(٧) من قدماء المؤذنين. «التحفة» ترجمة (٥٠٦٨) نقلاً عن المؤلف.

وتزوَّجَ مُحَمَّدٌ ابنةَ خالِهِ فَرُزِقَ منها أولاداً مُبارَكِينَ، وكَانَ مُحَمَّدٌ لا يُعرفُ إلّا بخالِهِ، فيُقَالُ لهُ: مُحَمّدُ ابنُ أختِ القُدسِيِّ، وكلاهما مِصْرِيَّانِ ليسا مِنَ القُدسِ الشَّرِيفِ.

وكان الشّيخُ عليٌّ قديمَ الهجرةِ في المدينةِ، مِنَ المجاوِرِينَ القُدَماءِ، صَحِبَ جماعةً مِنَ الصالحينَ الأخيارِ، وخَدَمَهُمْ ونَالَ مِن بركَاتِهِم، وكان يحكي من أخبارِهِمْ وأحوالِهِمْ ما يَتَأَسَّى بِهِ ويَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ اخْتَلَّ عَلَيه حالُهُ، وصَدِئَ مِنَ الغَفْلَةِ قلبُهُ.

تُوُفِّيَ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - في سنةِ اثنتين وستِّينَ وسبعِمِئَةٍ، وقدْ قاربَ الثَّمانينَ.

وكان مِنْهُم الفقيهُ الزكيُّ النَّبيلُ: **سراجُ الدِّينِ عُمَرُ ابنُ الأعمى**(١)، كان مِنَ المُؤذِّنينَ الّذِينَ سادُوا بَيْنَ إخوانِهِم وشَرُفُوا بعقُولِهِم وآدَابِهِم، كَانَ خَلِطاً فَكِهاً، حَسَنَ القِرَاءةِ، حَسَنَ الصَّوتِ، أدِيباً مُؤذِّناً مُجِيداً، وكَانَ مَلِيحَ الخَطِّ، جَوَّدَ عَلَيهِ أكثرُ أولادِ المُجَاوِرِينَ.

وكانَ كثيرَ المُساعدةِ للإخوانِ عِنْدَ الشُّرَفَاءِ والأمراءِ، وكانَ مُحَبَّباً إليهم مُكَرَّماً لَدِيهِم، يَجْسُرُ عَلَى الأمراءِ بالكلامِ، ويقولُ الجِدَّ في صورةِ [٩٤/ أ] المزحِ، ويَقْضِي حَوَائِجَهُ مِنْهُم لنفسِهِ ولِمَنْ استعانَ بِهِ.

وتركَ أولاداً قُرَّاءَ مُؤَذِّنِينَ، ماتَ أكبَرُهُم مُحَمّدٌ(٢) في المغربِ بعدَ غيبةٍ طويلةٍ، وخَلَّفَ ولداً صالحاً نجيباً مُؤَذِّناً صَيِّتاً حَسَنَ الصَّوتِ.

تُوُفِّيَ عُمَرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ أربعٍ وثلاثِينَ وسبعِمِئَةٍ.

---

(١) «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٤٨، «التحفة» ٥/ ٣٥٣.

(٢) محمَّدُ بنُ عمرَ بنِ الأعمى. «التحفة» ٦/ ٤٠٧.

وكان مِنْهُم: حَسَنُ القَطَّانُ[١]، وأحمدُ القَطَّانُ[٢].

فَأَمَّا حَسَنٌ فخَلَّفَ وَلَدَينِ مِنْ جارِيَتَينِ تَسَرَّى بِهِمَا قُرْبَ وفاتِهِ، فماتَ وهُمَا حامِلَتان، فَوَلَدَتَا جميعاً ذَكَرَينِ، كَانَ خيارَهُمَا حسينٌ[٣] نَشَأَ في خيرٍ واشتغالٍ بعلمٍ فتَوَلَّى وظيفةَ والدِهِ في الأذانِ، وكَانَ صَيِّتاً حَسَنَ الأداءِ[٤]، حَسَنَ العِشْرَةِ والمُدَارَاةِ[٥]، فعاشَ في النَّاسِ بِعَقْلِهِ، ثُمَّ تُوُفِّيَ وخَلَّفَ أولاداً صِغَاراً لَطَفَ اللهُ بِهِم.

وأمَّا الوَلَدُ الآخرُ فَتَغَرَّبَ وامتُحِنَ في الشَّامِ بِمِحْنَةٍ قُطِعَتْ فيها يَدُهُ وكَانَ بريئاً.

وأمَّا أحمدُ فخَلَّفَ مُحَمّداً[٦]، وكان مِنْ أَعْقَلِ النَّاسِ وأشغلِهِم بنفسِهِ وبتدبيرِ بيتِهِ، وكَانَ صَيِّتاً مُؤَذِّناً مُجِيداً، خَلَّفَ وَلَدينِ صَالِحِينَ مُبَارَكِينِ صَيِّتَينِ[٧]. تُوُفِّيَ بالشَّامِ سنةَ الطاعُونِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومِنْهُمْ الفقيهُ: **عبدُالرحمٰنِ بنُ ياقوتٍ**، وقَدْ تقدَّمَ ذِكْرُهُ في ترجمةِ الشّيخِ شرفِ الدِّينِ الخَزَنْدَارِ عفا الله عنهُ.

---

(١) حسن بن قاسم القطان. «التحفة» ٢/ ٣٢٦.

(٢) أحمد بن قاسم القطان، المؤذن، أبو محمد، شيخ صالح ديِّن، مشتغل بنفسه، أحد القراء في سُبْعِ ابن سَلْعُوس. «التحفة» ١/ ٣٧١.

(٣) الحسين بن الحسن بن قاسم القطان المؤذِّن. «التحفة» ٢/ ٣٤٠.

(٤) في (أ) و(ب): «الأذان».

(٥) المُداراة: الملاينة والملاطفة. «تاج العروس»: درأ.

(٦) «التحفة» ٦/ ١٤.

(٧) رَجُلٌ صَيِّتٌ، أَي: شديد الصَّوْتِ عاليه. انظر «لسان العرب»: صوت.

وكَانَ مِن أبناءِ المُجاوِرِينَ ورُؤَساءِ النَّاسِ وصُدورِ الفقهاءِ: الإمامُ العلّامَةُ **يُوسُفُ بنُ جمالٍ القُرشيُّ الهاشميُّ**، كَانَ فَقِيهاً رئيساً مُحَصِّلاً لعلوم شتَّى، رحلَ إلى العراقِ فتَفَقَّهَ بها عَلَى مذهبِ الإمامِ الشّافعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأَدْرَكَ بِهَا شيوخاً أئمَّةً في العلمِ فأخذَ عنهم وانتفعَ بِهِمْ، وكَسَبَ كُتُباً جليلةً في كُلِّ عِلْمٍ، وكَسَبَ مالاً ونَخِيلاً ودُوراً.

وكَانَ ذَا عِيالٍ كثيرٍ ونَفَقَةٍ غيرِ مُقَدَّرَةٍ [٩٤/ ب]، فأَفنى جُلَّ مالِهِ في حياتِهِ، وباعَ أكثرَ كُتُبِهِ في المدينةِ وبعثَ منها كثيراً إلى الشَّامِ فبِيعَ بها.

وكَانَ أخوهُ الشَّيخُ الإمامُ العَلَّامَةُ **عَلَمُ الدِّينِ يعقوبُ**(١) فيه رِئَاسَةٌ وحِفْظٌ للمَنْصِبِ والنَّسَبِ.

فَوَلِيَ القَضَاءَ بالمدينةِ كما سيأتي ذِكرُهُ، وجَرى بينهما مِنَ التَّحاسُدِ والتَّباغُضِ ما لمْ يَجرِ بينَ أَحَدٍ مِن الإخوانِ، وسَرَى ذٰلك في عَقِبِهِمْ حَتَّى تَلِفَ حالُهُم وافترقتْ كَلِمَتُهُم وطَمِعَ فِيهم عدُوُّهُم، وصَدَقَ رسولُ الله ﷺ حَيْثُ [قالَ](٢): «إِيَّاكُم والبَغْضَاءَ، فَإِنَّهَا الحالِقَةُ»(٣).

وتُوُفِّيَ الفقيهُ يُوسُفُ في حياةِ أخيهِ يعقوبَ، فجفَا أيتامَ أخيهِ.

---

(١) يعقوب بن محمد بن علي، عَلَم الدِّين القرشي، ناب في الحكم عن السراج بالمدينة، ثمّ اشتغل بعده، وكان فقيهاً فاضلاً مهاباً، مات سنة ٧٤٥هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٣١٩، «الدرر الكامنة» ٤/ ٤٣٤، «التحفة» ترجمة (٤٦٧٩).

(٢) ما بين القوسين من باقي النسخ.

(٣) رواه مالك في «الموطأ» (١٦٠٧) عن سعيد بن المسيّب موقوفاً، ووصله ابن عبدالبر في «التمهيد» ٢٣/ ١٤٤ من حديث أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفي سنده إسحاق بن بشر الكاهلي، وهو متروك، وأصله في «الأدب المفرد» (٢٦٠) و«سنن الترمذي» (٢٥٠٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ إنَّ الشُّرَفاءَ غَرَّمُوا الفقيهَ يعقوبَ شيئاً بَعْدَ التَّضْييقِ عَلَيهِ، فرأيتُ يُوسُفَ في المنامِ وهُوَ عَلَى حالةٍ حَسَنَةٍ، وهو يشيرُ إلى أخيهِ يعقوبَ كالمُتَشَمِّتِ بِهِ، ويقولُ: ما عَرَفَ قَدرِي حَتَّى فَقَدَنِي.

وخَلَّفَ الفقيهُ يُوسُفُ أولاداً وبناتاً، كَانَ أدْيَنَهُمْ وأصلَحَهُم وأكثرَهُم اشتغالاً بالعلمِ وأوصَلَهُم للرَّحم: الفقيهُ جمالُ الدِّينِ(١)، اخْتَرَمَتْهُ(٢) المنيَّةُ شابًّا، وخَلَّفَ أولاداً مُبَارَكِينَ، وَفَّقَهُمُ اللهُ.

تُوُفِّيَ الفقيهُ يُوسُفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ إحدى وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ، ومولِدُهُ سنة إحدى وثَمَانِينَ وستِّمِئَةٍ، وتُوُفِّيَ ولدُهُ جمالُ الدِّينِ في سنةِ تسعٍ وخمسين وسبعِمِئَةٍ، رحمةُ الله عَلَيه.

وكَانَ مِمَّنْ صحبتُهُ في الله: الفقيهُ الفاضلُ المُتَفَنِّنُ المُتَعَبِّدُ(٣) **شهابُ الدِّينِ الصَّنعَانيُّ**(٤). كَانَ جُلَّ عُمرِهِ في دمشق، ثُمَّ قَدِمَ المدينةَ فانقطعَ بها وتَأَهَّلَ، وَوُلِدَ لهُ بنتٌ في آخِرِ عُمْرِهِ، وكَانَ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - كثيرَ الصِّيامِ لا تكادُ تَرَاهُ مُفْطِراً، وكانَ مُلازِماً للمَسْجِدِ، ولهُ مِنَ التَّصانِيفِ [٩٥/أ] عَدَدٌ كثيرٌ في فنونٍ، منها: مذهَبُ الشَّافِعِيِّ، وفي اللُّغَةِ، والعَروضِ، وغير ذٰلك.

وتولى نِيابَةَ الحكمِ عَنِ القَاضِي السِّراجِ، وتَوَلَّى التدريسَ في دَرْسِ الحديثِ للقلانِسِيِّ(٥) قبلَ جمالِ الدِّينِ المطريِّ.

---

(١) جمال بن يوسف بن جمال القرشي. «التحفة» ٢/ ٢١٩.

(٢) أي: أخذته من بينهم.

(٣) في (ج): «المفيد».

(٤) هو أحمد بن محمد، شهاب الدين الصنعاني. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢١١، «التحفة» ١/ ٤٥٠.

(٥) محمد بن محمد بن محمد القلانسي، المسند، تُوُفِّي بمصر سنة ٧٦٥هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ٢٣٥.

صَحبتُهُ طَويلاً فلمْ أَسْمَعْهُ يَحْلِفُ باللهِ تَعَالى، وأخبرَني أَنَّهُ عَلَى ذٰلك منذُ عَقَلَ عَقْله، ولا رأيتُهُ يخرُجُ مثلَ غيرِهِ لا عندَ حُكومةٍ ولا عندَ كلامٍ يسمعُهُ في عِرضِهِ، ولا يكادُ يُعاتِبُ أحداً لِلينِهِ وحُسْنِ خُلُقِهِ وكَثْرةِ خيرِهِ، وكانَ قَدْ سُلِّطَ عَليهِ بعضُ النَّاسِ واشتغلَ بِهِ وهُوَ لا ينزَعِجُ لشيءٍ مِن ذٰلك، قَدْ أُمِنَ شرُّهُ وبأسُهُ، رحمهُ الله تَعَالى.

تُوُفِّيَ في سنةِ خمسٍ وثلاثين وسبعِمئةٍ.

وكَانَ مِنَ الشُّيُوخِ المعدُودِينَ في زمانِهِم مِنَ العُلَماءِ [الحُكَماءِ](١) المُجِيدِينَ، المُطَّلِعينَ عَلَى عُلُوم الأوَّلِينَ مِن حِكْمةٍ ومَنْطِقٍ وهَنْدَسَةٍ وفَلْسَفَةٍ: **أبو مُحَمَّدٍ عبدالله بنُ حَجَّاجٍ المغربيُّ**(٢) **الشهيرُ بمكشوفِ الرَّأسِ**؛ لأَنَّهُ لا يزالُ كذٰلك.

كانَ خَيِّراً مُنْقَطِعاً للمجاورةِ، مشغولاً بنفسِهِ، وجمعَ مِنَ الكُتُبِ الجليلةِ مَا لم يجمعْهُ أَحَدٌ مِن جِنْسِهِ، أتى بِهَا مِن بلادِهِ، كانتْ مُشتَمِلَةً عَلَى أُصُولٍ وأُمَّهاتٍ، ودواوينَ مِن تفسيرِ القرآنِ، وكُتُبِ الفقهِ والحديثِ، والتاريخِ والطِّبِّ، والمنطِقِ والحِكْمَةِ، وعُلُومٍ شَتَّى.

وكَانَ عِنْدَهُ مِن كُلِّ فَنٍّ تصانيفُ عديدةٌ، وكان لَهُ عِيالٌ وأولادٌ، إذَا أرادَ الحَجَّ إلى بَيْتِ الله الحرامِ أَدْخَلَ عِنْدَ عِيالِهِ جميعَ مَا يحتاجُونَ إليهِ مِن طعامٍ وماءٍ وأُدْمٍ، وسدَّ البابَ عَلَيهِم بالبِناءِ حَتَّى لا يَصِلَ أَحَدٌ إلى بيتِهِ ولا يَطَّلِعَ على حالِهِ، ولا يزالُ البيتُ كذٰلك حَتَّى يأتيَ مِن مَكَّةَ ويَفْتَحَ عنهُمْ.

---

(١) ما بين القوسين من باقي النسخ.

(٢) انظر: «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٣٠، «التحفة» ٣/ ٤٧٢.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتركَ أولاداً صِغاراً، فوصَّى عَلَيهم [٩٥/ ب] وعَلَى مالِهِ وكُتبِهِ نورَ الدِّينِ ابنَ الصَّفِيِّ[١] فقيهَ الإماميَّةِ في وقتِهِ ورئيسَهُم؛ لأَنَّهُ كان جارَهُ وكان بينهما مُؤانسةٌ، ولَمْ تَزَلِ الكُتبُ عِنْدَ ابنِ الصَّفيِّ حَتَّى تَلِفَتْ وأكَلَتْهَا الأَرَضَةُ وذهبَ خيارُهَا، ووقعَ عَلَيها المطرُ.

ثُمَّ كَبِرَ الأولادُ وسافروا إلى مِصْرَ، وبَعثُوْا مَعَ القاضي فَخْرِ الدِّينِ السّنْجَارِيِّ بوكالةٍ عَلَى تسليمِ الكُتُبِ وبيعِهَا، فَبِيعَتْ ومَلأَتِ المدينةَ حَتَّى صارَ في كُلِّ بيتٍ مِنْهَا جانبٌ مِنْ عُلومٍ لا يَعْرِفُهَا أحدٌ مِن أَهْلِ هٰذا الزَّمانِ، ولا يَفْهَمُهَا إلّا مَنْ عالجَ أُصُولَهَا وأدركَ شيوخَهَا، ولَقَدْ باعَ بعضُ النَّاسِ مِنْهَا نحوَ أربعةَ عشرَ مُجَلَّداً، كُلُّ كتابٍ بدرهَمٍ نُسَخاً مَلِيحةً صَحِيحَةً في فُنُونٍ قَلَّ مَنْ يفهَمُهَا في المدينةِ.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ إِحْدَى وسبعِمِئَةٍ.

وكَانَ مِنَ الأشياخِ المبارَكينَ وأحبابِنَا السالكينَ: الشّيخُ **أبو البركاتِ أيمنُ بنُ مُحَمَّدٍ السَّعدِيُّ**[٢]، وكتبَ بِخَطِّهِ في آخرِ كتابٍ: أيمن بن مُحَمَّد بن مُحَمَّدٍ، وعدَّدَ مِن آبائِهِ أحدَ عَشَرَ نَفَراً كُلُّهُم اسمه مُحَمَّدٌ[٣]، كانَ لَهُ كُلَّ يومٍ وليلةٍ ثلاثُ ختماتٍ، وتركَ أهلَهُ وإخوانَهُ في تونسَ وهاجرَ إلى الله تَعالَى[٤].

---

(١) علي بن الصفي، نور الدِّين، فقيه الإمامية في وقته، ورئيسهم. «التحفة» ٥/ ١١٦.

(٢) أيمن بن محمد بن محمد، أبو البركات، السعدي، التونسي، المالكي، نزيل طيبة. «المغانم المطابة» ٣/ ١١٧٦، «الدرر الكامنة» ١/ ٤٣١، «التحفة» ٢/ ٩٩.

(٣) قال الحافظ ابن حجر: محمد أربعة عشر آباء في نسق، لم يوجد نظير ذٰلك إن كان ثابتاً. «الدرر الكامنة» ١/ ٤٣١. ولكن المصنِّف يذكر هُنا أنهم أحد عشر.

(٤) في باقي النسخ: «إلى الله ورسوله ﷺ».

وكان لَهُ ديوانٌ كبيرٌ في مَدْحِ سيِّدِنَا رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ لي: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ في النَّومِ فأنشدتُهُ بعضَ قصائِدِي فيه، فَبَصَقَ في فِيَّ وقَالَ لي: لا فُضَّ فُوكَ، فَلَمْ تَسْقُطْ لَهُ سِنٌّ، وكان قَدْ جَاوَزَ السَّبعينَ حينَ أخبرني بذٰلك.

وَلَقَدْ أعطيتُهُ يوماً خُشْكَنَانَةً[1] يابِسةً قديمةً لا تكادُ تُكْسرُ إلّا بالحجرِ، فأخذَهَا وقَرَضَها كأنَّهَا قِطْعَةُ سُكَّرٍ، وكان يأخذُ الدِّرهَم النُّحاسَ فيقطعُهُ بأسنانِهِ نِصْفَينِ.

وكانَ أُعجوبَةَ الزَّمانِ وطُرْفةَ الإخوانِ؛ [٩٦/أ] مِنْ أَدَبٍ، وشعرٍ، وحكاياتٍ، مَنْ جَلَسَ إليهِ لا يكادُ يُحِبُّ فِرَاقَهُ، وكانَ حَسَنَ البَدِيهَةِ، سريعَ الجوابِ.

حَكَى لَنَا أَنَّهُ كانَ ساكناً في مدرسةٍ في مدينةِ تُونُسَ، قَالَ: فنزلتُ يوماً في دَرَجَةِ المدرسةِ وكنتُ عَلَى عَجَلٍ، واتَّفَقَ أنْ كان قاضي القُضَاةِ ابنُ عبدالرفيعِ[2] طالعاً في الدَّرَجَةِ ولمْ أَشعُرْ بِهِ، فَلَمَّا سَمِعَ حِسِّي قَالَ قَبلَ أَنْ يراني: مَنِ النَّازِلُ؟ فَقُلتُ: الطَّالِعُ!

فغَضِبَ عَلَيَّ وأَمَرَ بِإِخْرَاجِي مِنَ المدرسةِ.

ولَهُ مِثْلُ هٰذا كثيرٌ، وسأذكرُ مِنْهُ شيئاً في ترجمةِ السِّرَاجِ.

ومِن شعرِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بلغتُ بشـــعري في الصِّبـا وعقِيـبهِ — جميــعَ الأمــاني مِـن جميـع المطالـبِ

---

(١) كلمة فارسية معرَّبة، معناها: خبز يابس. خشك: يابس، ونان: خبز. «تاج العروس»: خشك.

(٢) إبراهيم بن حسن بن علي بن عبدالرفيع الربعي المالكي، الفقيه القاضي بتونس، وُلد سنة ٦٣٦هـ وتوُفِّي سنة ٧٣٤هـ. «الدرر الكامنة» ١/ ٢٣.

فَلَمَّا رَأَتْ عينَاي سَبْعِينَ حَجَّةً ... قريباً هَجَرتُ الشِّعرَ هجرَ الأجانبِ
أَيَجْمُلُ بالشَّيخِ الّذِي نَاهَزَ الفَنَا ... بقاءٌ عَلَى ذِكْرِ الصِّبَا والكَوَاعِبِ
حَشْتُ السُّرَى ليلَ الشّبَابِ فَكَيفَ لا ... أُريحُ لدى صُبْحِ المشيبِ نَجَائِبي(١)
لعمرُكَ إنَّ العُمرَ يَومٌ ولَيلَةٌ ... يَكرَّانِ والدُّنْيَا مُناخٌ لِرَاكِبِ(٢)

وله في معنى قولِ الحُكَمَاءِ: «مَنْ طَالَ عُمرُهُ كَانتْ مُصِيبَتُهُ في أَحْبَابِهِ، ومَنْ قَصُرَ عُمرُهُ كانتْ مُصِيبَتُهُ في نفسِهِ»:

إِذَا طَالَ عُمرُ المَرءِ سُرَّ وَسَاءَه ... على أيِّ حالٍ كَانَ فَقْدُ الحَبَائِبِ
وفي نفسِهِ إنْ مَاتَ قَبْلَ انْتِهَائِهِ ... مصيبتُه فالمرءُ رأسُ المصائبِ

وأَنْشدَ لنفسِهِ في يومِ العيدِ:

إنَّ عيداً بطَيْبةٍ وصلاةً ... بمُصلَّى الرّسولِ في يومِ عيدِ
نِعَمٌ ضاقَ واسِعُ الشُّكرِ عَنْها ... فهي بُشرَى لكلِّ عبدٍ سَعيدِ [٩٦/ب]
كَمْ تَمَنَّيتُهَا فَنِلتُ التَّمَنِّي ... آخِرَ العُمرِ مِن مكانٍ بعيدِ
وإذا كَانَ في البَقِيعِ ضَرِيحِي ... وتوسَّدتُ طِيبَ ذاكَ الصَّعِيدِ
فاشْهَدُوا لي بكلِّ خيرٍ ويُسْرٍ ... عَنْدَ رَبِّي ومُبْدِئِي ومُعِيدِي

ولهُ في الغَزَلِ:

وكمْ رُمتُ كَتْمَ الحُبِّ عَمَّنْ أُحبُّهُ ... وكيفَ بكَتْم الحبِّ عَنْ ساكنِ القلبِ
إذا اخْتَلَجَ السِّرُّ المَصُونُ بِخَاطِرِي ... تقلَّبَ منِّي القلبُ جنباً إلى جنبِ

---

(١) في باقي النسخ: «أنيخ». وفي «المغانم» ٣/ ١١٧٧: «بجانب» بدل «نجائبي».

(٢) في «التحفة»: «لعمري»، وفي الأصل: «مناخ الراكب»، والتصويب من «المغانم» ٣/ ١١٧٧.

فَتَبْـدُو ولا تبْـدُو سرائـرُ لَـوعَتِي ... وتَخْفَى ولا يَخْفَى وفي الحالِ ما يُـنبي

ولهُ في النَّخلِ وقدْ رآهُ مُجرَّداً[١]:

انظـر إلى النَّخْـلِ وأعناقِهَـا ... قـدْ جُرِّدتْ مِنْ تَمـرِهَا الزَّاهِي

مثـلَ عَـرُوسٍ تَـمَّ أسبوعُهَا ... فَجُـرِّدَتْ مِـنْ حَلْيِهـا البَـاهِي

مـا زَيْنُهَـا إلّا عَراجِينُهَـا ... وكُـلُّهَا مِـنْ حِكمَـةِ اللهِ

ولهُ أيضاً:

مَـا لي أجـيءُ إلى الزِّيَـارةِ دَائِماً ... فيُقَـالُ لي: سِـرْ، إنَّـهُ مَـشْغُولُ

حَتَّـى لَقَـدْ حـدَّثتُ نفسِي أنَّنِـي ... فيما يَقُـولُ القَـائِلونَ: الغُـولُ

ورأيتُهُ بَعدَ وفاتِهِ في النَّومِ وتحقَّقْتُ وفاتَهُ، فقلتُ: يا أبا البركاتِ، أخبرني ما صَنَعَ اللهُ بِكَ؟ فرأيتُهُ كأنَّهُ كَرِهَ مِنِّي العِلمَ بموتِهِ، فتغيَّرَ عِنْدَ ذٰلك.

فقلتُ: باللهِ عَلَيكَ أخبرني.

فقالَ لي: واللهِ ما لَقِيتُ مِنَ اللهِ إلّا خيراً.

فقلتُ لهُ: واللهِ لا بُدَّ.

لوكانَ في ذِهني مَا كانَ يحكيهِ مِن حالِهِ في أيامِ شُبُوبِيَّتِهِ، ولِمَا كانَ فيه مِنَ التَّخليطِ الَّذِي نحنُ فيهِ مِن قراءةِ الأَسْبَاعِ والرُّبْعَاتِ[٢] [٩٧/أ]

---

(١) في (أ) و(ب): «مجدوداً».

(٢) جمع ربعة: وهي صندوق يحتوي على القرآن الكريم في أجزاء مفرَّقة على قدر أجزاء القرآن الثلاثين، يختصُّ بها عددٌ من القراء، يكمل كلّ واحد منهم جزءًا أو عددًا من أجزاء القرآن الكريم، حسب المحدَّد له منها. انظر: «نيل المنى بذيل بلوغ القرى» ٢/ ٤٥.

والدُّروسِ، وتَنَاوُلِ الصُّررِ[١]، وقلتُ: إنَّ مَنْ حالُهُ كذٰلك لا يَسْلَمُ مِن تباعةٍ، ولو بالسُّؤالِ عَن ذٰلك[٢]!

فقَالَ لي: والله، ولا شيءَ.

فأعدتُ عَلَيهِ ثلاثَ مراتٍ، فقَبَضَ عَلَى شيءٍ يسيرٍ مِن جِلد ظاهرِ كفِّهِ بأسنانِهِ، وقَالَ: والله، ولا مثلَ هٰذِهِ.

فأوقعَ اللهُ في ذِهْني أَنَّهُ في دارِ الحقِّ، وأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ إلّا حَقًّا، فبَكَيْتُ وأردتُ أنْ أسْأَلَهُ عَن حالي[٣]، ثُمَّ أُنسيتُ وقلتُ لهُ: أنتَ صاحبي فلا تَنْسَنِي واشفعْ لي.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ أربعٍ وثلاثين وسبعِمِئَةٍ، ومولدُهُ سنةَ تسعٍ وخمسين وستِّمِئَةٍ.

وكانَ مِنَ المشايخِ الأجلاءِ مشايخِ الغَرْبِ المُجَوِّلِينَ المُسَافِرِينَ: **الشّيخُ عليُّ بنُ فَرغُوصٍ التّلمسَانِيُّ**[٤] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كَانَ لَهُ حالٌ جليلٌ ومقامٌ عظيمٌ، لَهُ رِحلةٌ طافَ فيها كثيراً مِن بلادِ المشرقِ والمغربِ، واستفادَ علوماً جليلةً مِن عِلمِ الحَرْفِ، وأسرارِ الطَّلاَسِمِ

---

(١) الصُّرَّة: ما توضع فيه الدراهم من جلد أو غيره. «لسان العرب»: صرر.

(٢) يقصد بذٰلك أنّ من تعاطى قراءة القرآن بأجر في الأسباع والربعات، وفي تدريس العلوم الشرعية في الدورس، ولم يتورَّع عن تناول الصُّرَر - وهي الهدايا المقدَّمة من الأمراء - فإنه لا يسلم من السُّؤال عنها في الآخرة؛ لما في بعضها من الشُّبهة.

(٣) في الأصل و(أ) و(ج): «حاله»، والمثبت من (ب)، وفي «التحفة»: «حالٍ».

(٤) علي بن فرغوص، أبو الحسن التلمساني المغربي. «التحفة» ٥/ ١٥٤.

والتَّربيعَاتِ، وعِلمِ السِّيمياءِ، والكِيمْياءِ، والرُّوحَانِيَّاتِ[١]، وجميعُ مَا تَأخذُ مَعَهُ فِيهِ تجدُ عِنْدَهُ مِنْهُ طَرَفاً جيداً، وكَانَ يَحْكِي في مَجَالِسِهِ غرائبَ ونوادرَ.

انعطفَ عَلَيهِ المُجاورونَ وجميعُ أهلِ المَدِينَةِ وكِبَارُ الدّولةِ وَوُزَرَاؤُها، وكذٰلك أَهْلُ مَكَّةَ بِأجمعِهَا، وكانَ يَمشِي طَرِيقَ المَشَيانِ مَعَ جَمَاعَتِهِ فَلا يقطعُهَا إلّا في شهرٍ؛ لأنَّ العَرَبَ كُلَّهَا صَارتْ تَعرفُهُ وتُحِبُّهُ وتعزِمُ عَلَيهِ، فكانَ يجعَلُ سَفَرَهُ سِياحَةً.

ولَهُ مناقِبُ جليلةٌ ومحاسنُ جميلةٌ لا يَسَعُ ذِكْرُهَا هُنا، رحمهُ الله تَعَالى.

وكانَ مِن إخوانِنَا الأصفياءِ الأتقياءِ المُتَعبِّدِينَ المُتَفَقِّهِينَ: **الشَّيخُ مُحَمَّدٌ الهزمِيرِيُّ**[٢].

دَخَلَ المَدِينَةَ وأَقَامَ بِهَا مُدَّةً طَوِيلةً لا يتعيَّشُ إلّا مِنَ الحَطَبِ، يأتِي بالحِزْمَةِ فيبيعُهَا ويَتَقَوَّتُ بِثَمَنِهَا، ثُمَّ انتقلَ إلى قَدَمِ التَّوَكُّلِ، فَصَحِبَ الشَّيخَ [٩٧/ب] أبا بكرٍ الشِّيرَازِيَّ، فَكَانَ يَأخُذُ نفسَهَ بالمجاهدةِ والعبادةِ وقيامِ الليلِ، وكانَ يَعْتَكِفُ العَشرَ الأواخِرَ مِن رَمَضَانَ في المسجدِ الشَّريفِ، فلا يخرُجُ مِن مُعْتَكَفه حَتَّى تتورَّمَ قدَمَاهُ وساقاهُ، وكانَ هُوَ والشَّيخُ أبو بكرٍ يَتَقَوَّتُونَ في كُلِّ ليلةٍ بعشرِ زَبيباتٍ؛ كُلُّ واحدٍ خمسُ زَبيباتٍ، وأوقاتاً يَطْوُونَ، حَتَّى إنَّهُم إذَا خَرجُوا مِن مُعْتكَفِهِم لا يُعْرَفُونَ مِن النُّحولِ والذُّبُولِ.

---

(١) هٰذه ليست علوماً جليلةً كما ذكر المؤلِّف، بل هي من علوم الشرّ التي يجب أن تُتّقى وتُجتنب، فإنّ منها ما يؤدِّي إلى الشِّرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. انظر: «أضواء البيان» للشنقيطي ٤/ ٤٧.

(٢) في «التحفة» ترجمة (٤٠٩٤): «الهرموزي».

والهزميري: نسبة إلى هزمير: بلدة بالمغرب. «تاج العروس»: هزمر.

ثُمَّ إنَّ الشَّيخَ أَحْمَدَ التُّستَرِيَّ زَوَّجَهُ ابنَتَهُ، فَلَمْ يُقِمْ مَعَهَا، فطلَّقَهَا وتَزوَّجَ أختَ الفقيهِ مُحَمّدِ بنِ صالحٍ نائبِ الخَطابةِ والإمامةِ، فَرُزِقَ مِنْهَا ولداً صالحاً قارِئاً مُتَفَقِّهاً.

ماتَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طريقِ مَكَّةَ بوادِي الصَّفْراءِ مُحْرِماً بالحجِّ في سنةِ ثمانٍ وثلاثين وسبعِمِئَةٍ.

وكانَ مِن إخوانِنَا المتّقِينَ[١] الصُّلحاءِ المُتَعَبِّدِينَ المُوَسْوِسِينَ في العِبَادَةِ: الشَّيخُ **أَسعَدُ الرُّوميُّ**[٢].

كانَ مِن كِبَارِ الأخيارِ، ذا عُزلَةٍ واجتهادٍ، وَقَرَأَ مَعَنَا في سُبْعِ ابنِ سَلْعُوسٍ[٣] فكَانَ يَتَبَّعُ الحروفَ ويرجعُ مِن حَيْثُ أَوْقَفَهُ النَّفَسُ حَتَّى لا يُخِلَّ بشيءٍ مِن القِرَاءةِ، وكانَ مَتْعُوباً في غُسْلِهِ ووُضُوئِهِ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ غَسَّلَهُ الشّيخُ أبو عبدالله مُحَمَّدُ بنُ مُحَمَّدٍ الغرناطيُّ، وطَيَّبَهُ بأطيبِ الطِّيبِ، وجَهَّزَهُ أحسَنَ جِهازٍ. تُوُفِّيَ بالمدرسةِ الشِّهابيةِ، رحمةُ الله عَلَيهِ.

وكانَ مِن المشايخِ الكبارِ المُشْتَغِلِينَ بالعِلْمِ والعَمَلِ: **أبو عبدالله مُحَمَّدٌ التَّكرُورِيُّ الخطيبُ**[٤].

---

(١) في الأصل: المتقنين، والمثبت من (أ) و(ج).

(٢) «التحفة» ٢/ ٢٥.

(٣) شمسُ الدِّين، مُحَمَّدُ بنُ عثمانَ، المعروف بابنِ السَّلعوس، تولَّى الوزارةَ للملك الأشرفِ خليل ابن قلاون، كان قبلها يُكثر الصيام والذِّكر، فلمَّا تولى الوزارة تكبَّر على النَّاس، وكان جعل مُرتَّباً ووظيفةً في قراءةِ سُبْعٍ من القرآن بالمدينة. قُتل سنة ٦٩٣هـ. «البداية والنهاية» ١٣/ ٣٥٨، «شذرات الذهب» ٥/ ٤٢٤.

(٤) محمَّدُ بنُ عبدالله، أبو عبدالله التَّكروريُّ، خطيبٌ ببلاده، ثمَّ حجَّ وسكنَ المدينةَ. انظر: «الدرر الكامنة» ٣/ ٤٨٧، «التحفة» ٦/ ٢٤٣.

كانَ خَطِيبَ بَلَدِ سُلْطَانِ التَّكَارِرَةِ[١]، وهيَ بَلَدُ مَالِي[٢]، وكانَ خَطِيبُ التَّكارِرَةِ هٰذا عَلَى طريقةٍ عظيمةٍ مِنَ الدِّينِ والعلمِ والبرِّ والصدقةِ، وتَفَقُّدِ الإخوانِ وصُحْبَةِ العُلَماءِ وتفقُّدِهِم، وتعظِيمِهِم ومحبَّةِ أولادِهِم.

وكانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَوقَ ما أَصِفُ، ولَمَّا تُوُفِّيَ جاءَ الحفَّارُونَ إلى جِهَةِ [٩٨/ أ] قُبَّةِ سيِّدِنا عثمانَ بنِ عفانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فحفرُوا لهُ في موضِعٍ مَعْمُورٍ بالأمواتِ منذُ كانتِ المقبَرَةُ، فانكشَفَ لهُمْ قَبرٌ تحتَ الأرضِ معقودٌ فيهِ دكَّةٌ، وهوَ نَظِيفٌ كأنَّه مَكْنُوسٌ كَنساً، فوُضِعَ فيه كأنَّهُ بيتٌ نَزَلَ فيه.

وتُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ اثنتين وأربعين وسبعِمِئَةٍ.

وكانَ مِنَ المشايخِ الصُّلحاءِ القُدَماءِ في المجاورةِ بالحرمينِ الشريفينِ: **أبو فارسٍ عبدالعزيزِ بنُ زَكْنُونَ التُّونِسِيُّ**[٣]، كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ فاضلاً في عِلمِ القِرَاءاتِ، مُتَفَنِّناً في التَّاريخِ، مُجْتَهِداً في العبادةِ، ساكناً مُحِبّاً في السَّلامَةِ مِنَ النَّاسِ، ولا يكادُ يَسْلَمُ.

قَرَأَ عَلَيهِ مِن أولادِ المجاوِرِينَ جَماعَةٌ: كشمسِ الدِّينِ الحَلِيمِيِّ[٤]، وشمسِ الدِّينِ التستري، وطبقَتِهِمْ.

---

(١) في (أ) و(ج): «التكرور».

(٢) إقليم مالي غرب إفريقيا، ومنه دولة مالي الحالية.

(٣) عبدالعزيز بن زكنون التونسي، نزيل المدينة وشيخ القراءة بها، أقرأ بالروايات وكان يستحضر التاريخ، مات في سنة ٧٤٦هـ. «الدرر الكامنة» ٢/ ٣٦٩.

(٤) هو: محمد بن يوسف الحليمي، شمس الدين الحنفي، كان مشاركاً في عدَّة علوم، صالحاً، عابداً ورعاً، تُوُفِّيَ سنة ٧٦٦هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ٣١٦، «التحفة» ترجمة (٤٠٥١).

ويُقالُ عَنهُ: إنَّهُ صَحِبَ ابنَ سبعينَ[(١)]، وكانَ مِن أحبابِهِ، ولَمْ أَرَ عَلَيهِ مَا يَشِينُهُ[(٢)] في دينِهِ. اشتَرَى نُخَيلاتٍ وأَوْقَفَهَا، آلَ أَمرُهَا إلى الخَرَابِ حتَّى إنَّهُ لا يَكَادُ اليومَ أَحَدٌ يعرِفُهَا.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ ستٍّ وأربعين وسبعِمِئَةٍ.

وكانَ مِن أكابِرِ المجاورين المُتَأَخِّرِينَ أصحابِ المجاهدةِ والصبرِ العظيمِ عَلَى مشقَّةِ العِبَادةِ والعُزلَةِ عَن النَّاسِ، الشّيخُ **شمسُ الدِّينِ الخُجَنْديُّ**[(٣)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كانَ يَسكُنُ بالكِرَا[(٤)] خوفاً مِن مُسَاكَنَةِ أَهْلِ الرُّبُطِ[(٥)]، وكانَ يَعْمَلُ أربعينيَّاتٍ يعتزِلُ فيها عَن النّاسِ وكلامِهم[(٦)]، ويَأْكُلُ فيها اليسيرَ مِنَ الطَّعَامِ، ولا يقطَعُ الصَّلاةَ في المسجدِ الشّريفِ، بَلْ يَجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ مَا يُغَطِّي بِهِ وَجهَهُ ويمنعُهُ مِن الاشتغالِ بالنَّظرِ إلى مَا يشغَلُهُ، ويَأتي إلى الرَّوضَةِ في الصَّفِّ الأوَّلِ فيُصَلِّي، ثُمَّ يَرجِعُ في الحينِ إلى بيتِهِ، فلا يَزالُ في صلاةٍ وذكرٍ ودعاءٍ.

---

(١) عبدالحق بن إبراهيم بن محمد، أبو محمد، ابن سبعين، العتكيّ الغَافِقِيّ المُرْسِيّ الرَّقوطي، اشتهر بالزهد والسُّلوك، وله مقالة في تصوُّف الاتحادية، تُوُفِّي سنة ٦٦٩هـ. «لسان الميزان» ٣/ ٢٢٤، «الشذرات» ٥/ ٣٢٩.

(٢) يَشِينُهُ: يَعِيبُهُ. «لسان العرب»: شين.

(٣) محمد بن عبدالله الخُجَنْدِيّ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٨٧، «الدرر الكامنة» ٤/ ٣١٨، «التحفة» ٦/ ٢٤١.

(٤) أي: بالأجرة. «لسان العرب»: كرا.

(٥) في باقي النسخ: «الرباط».

(٦) يستدلون لها بخلوة النبيِّ ﷺ في غار حراء، لٰكن هٰذا قبل البعثة، وقبل نزول الوحي.

وأَخْبَرَني الفقيهُ سِراجُ الدِّينِ عبداللَّطِيفِ ابنُ العَلاَّمَةِ [٩٨/ب] شمسِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ الزَّرَنْديُّ - وكانَ جارَهُ ودَارُهُ تُطِلُّ عَلَى دَارِ الشَّيخِ - قَالَ: لا أَقُومُ في سَاعةٍ مِن الليلِ إلّا وَأَسْمَعُهُ بَينَ ذِكرٍ وقراءةٍ ودعاءٍ واستغفارٍ مَعَ بُكاءٍ وعَويلٍ.

وَكَانَ قَدْ بُورِكَ لَهُ في الطَّعَام، أخبرني الشّيخُ شمسُ الدِّينِ الحَلِيمِيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ قَالَ: أعطاني الشَّيخُ صَاعاً مِن الدَّقِيقِ وقَالَ: اعملْ لي مِنْهُ رِشْتَةً(١)، وَأَرْسِلْ إليَّ كُلَّ ليلةٍ مِنْها بِجَفْنَةٍ(٢) مطبوخةٍ.

قَالَ: فَفَعَلْتُ، واستمَرَّ عَلَى ذٰلك مُدَّةً.

ثُمَّ قَالَ لي: اعملْ لي مِنهُ كُلَّ ليلةٍ قُرصاً، فَفَعَلتُ مُدَّةً.

ثُمَّ قَالَ: اعملْ مِنهُ في كُلِّ ليلةِ جُمُعةٍ قَصْعَةَ طَعامٍ للفقراءِ، فَفَعَلتُ.

وَكَانَ كُلَّ ليلةِ جُمعةٍ يَجْتَمعُ عِنْدَهُ الفقراءُ، فَيذكُرونَ(٣) إلى أَنْ يَذهبَ جُزءٌ كَبيرٌ مِن اللَّيلِ، ويُقَدِّمُ لَهُم ذٰلك الطَّعَامَ الذّي لا يُظَنُّ أَنَّهُ يَكفي ثلاثةً، فيأكلُ مِنهُ فَوقَ العشرينَ.

قَالَ الشَّيخُ مُحَمّدٌ المذكورُ: ولا نزالُ نُنْفِقُ مِمّا يُعطِينا حتى نَمَلَّ،

---

(١) في (أ): «رشيدة»، وفي (ج): «رشدة».

الرَّشِيدِيَّةُ: طعامٌ، وهو عجين فطير يعمل رقاقاً ويقطع طولاً ويكسر حين يجف، ويُطبخ باللبن غالباً. وهو مُعرَّبٌ، فارِسِيَّته رَشْتَه، بفتح الراءِ وكسرها. «القاموس المحيط»: رشد، «المعجم الوسيط»: رشتة.

(٢) الجفنة: القصعة يوضع فيها الطعام. «لسان العرب»: جفن.

(٣) (ج) زيادة: «لفظ الجلالة».

ثُمَّ يَأخُذُ الفَضْلةَ بَعْدَ ذٰلك، وأخبرني بذٰلك جَمَاعةٌ مِن أَهْلِ الخيرِ مِمّنْ يَعرفُ حالَهُ، قَالُوا كُلُّهُم: لَمْ نَرَ قَطُّ مِثلَ بَرَكَةِ طَعامِهِ.

وكَانَ يَتَواجَدُ في الذّكرِ ويَقُومُ ويدورُ في الحَلقة[1]، فيَجِدُ الجماعةُ مِنْهُ قُوَّةً وصلابَةً يَعجَزُ عَنْهَا أقوياءُ الشَّبابِ، بحيثُ إنَّ الجماعةَ يَمَلُّونَ ولا يَمَلُّ، ومتى مَسَكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم أَتْعَبَهُ، وكَانَ قَدْ أَسَنَّ وكَبِرَ، وكنتُ أَحضُرُ عِندَهُ أحياناً، وكَانَ لَهُ وَجْهٌ وَضِيءٌ عَلَيهِ نورُ العبادةِ والخيرِ، ولَهُ لحيةٌ طويلةٌ مَلِيحةٌ تبلُغُ إلى سُرَّتِهِ.

ومَاتَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَنْ وصيَّةٍ وتَثَبُّتٍ وصَدَقَةٍ[2] بجميعِ مَا يَمْلِكُ حتَّى بِفِرَاشِهِ مِن تَحْتِهِ، تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ أربعٍ وستينَ وسبعِمِئَةٍ.

وكَانَ مِمّنْ أَدْرَكناهُ [٩٩/ أ] مِنَ الأكابرِ الصُّلَحَاءِ المُتَقَدِّمينَ في عِمَارَةِ الحَرَمِ بالنِّجارَةِ: الشّيخُ **أبو بكرِ[3] بنُ يُوسُفَ المعروفُ بالمحجوبِ النَّجَّارِ.**

قَدِمَ المَدِينَةَ بَعْدَ حَرِيقِ الحَرَمِ[4] بالمنبرِ الشَّرِيفِ الموجودِ اليومَ، فَوَضَعَهُ فأحسنَ في وَضْعِهِ وفي نِجَارتِهِ، وكتبَ اسْمَهُ عَلَيهِ، وذٰلك في سنةِ ستٍّ وستِّينَ[5] وستِّمِئَةٍ، ثُمَّ انقطعَ بالمَدِينةِ إلى أنْ تُوُفِّيَ رحمهُ الله تَعَالى.

---

(١) ليس هٰذا من هدي النبيِّ ﷺ.

(٢) في الأصل و (ج): «وصدق»، والمثبت من (أ) و(ب).

(٣) «الدرر الكامنة» ١/ ٤٩٦، «المغانم المطابة» ٣/ ١١٦٥ وفيه: «أبو بكر بن أحمد النجاري»، «التحفة» ترجمة (٤٨٢٢) وهو فيه: «أبو بكر بن يوسف».

(٤) كان قدومه بالمنبر سنة ٦٦٤هـ بعد حريق المسجد بعشر سنين. «المغانم المطابة» ٣/ ١١٦٥، إذ كان حريق المسجد النبويِّ في سنة ٦٥٤هـ.

(٥) في الأصل: «وثلاثين»، وهو تحريف، والتصويب من باقي النسخ. =

كانَ مُخْتَلِطاً بالصَّالحينَ، مُتَقَنِّعاً بِكَسْبِ يَدِهِ، مُتَعَفِّفاً عَنِ الأطماعِ المُدنِّسَةِ للأعراضِ، مُكِبًّا عَلَى الخيرِ.

كُنتُ أَجلسُ إليهِ فيحكِي عَن أَهْلِ زَمَانِهِ غَرائبَ وعَجائبَ، وَكُنْتُ لا أزالُ أَرَى حَولَهُ عدداً مِنَ الحيوانِ بَينَ هِرَرٍ ودَوَابَّ قَدْ أَلِفُوه بالإحسانِ إليهم، وكَانَ يَقُولُ لي: هٰذا الهِرُّ جَدُّ هٰذا الهِرِّ! وهٰذا خَالُ هٰذا، وهٰذا ابنُ عمِّ هٰذا، قَدْ ربَّى مِنْهُم كثيراً وعَرفَ أَنْسَابَهُم!

وكَانَ يُحْسِنُ إلى الدَّوابِّ المضيَّعَة في الأسواقِ ويَرَى ذٰلك كُلَّهُ مِن جُملةِ الصدقاتِ، ورُبَّمَا يَتَمَثَّلُ في ذٰلك قَوْلَهُ ﷺ: «في كُلِّ كَبِدٍ حَرَّى[(١)] أَجْرٌ»[(٢)].

أخبرني الشّيخُ عبدالله بنُ عُمَرَ الخَرّازُ - وكَانَ حَفيدَ الشّيخِ أبي بكرٍ ابنَ بنتِهِ عائشةَ[(٣)] - قَالَ: قَالَ لي الشَّيخُ أبو بكرٍ: لَمَّا قَدِمتُ المَدِينةَ لَمْ يَكُنْ بِهَا مَنْ يَتَسَمَّى بهٰذا الاسم، فَظَهَرَ لي كَرَاهَةُ أَهل المَدِينةِ لَهُ مَعَ مَا انضافَ إلى ذٰلك مِن تَسْمِيَةِ بِنْتِي بِعَائِشَةَ، فَهَمَمْتُ بتغييرِ اسْمِي!

= وفي «المغانم المطابة» ٣/ ١١٦٥: «بعد حريق المسجد بعشر سنين» أي: سنة ٦٦٤هـ؛ لأن الحريق كان سنة ٦٥٤هـ.

(١) الحَرَّى: فَعْلَى من الحَرِّ، وهي تأنيث حَرَّان، وهما للمبالغة، يريد أنها لشدَّة حَرِّها قد عَطِشَتْ ويَبِسَتْ من العَطَشِ. «لسان العرب»: حرر.

(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» كتاب الأدب، باب فضل صدقة الماء برقم (٣٦٨٦)، و أحمد في «المسند» (٤/ ١٧٥)، وصححه الألباني «السلسلة الصحيحة» ٥/ ١٨٥. والحديث في «صحيح البخاري» برقم (٢٢٣٤)، و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة بلفظ: «في كل كبد رطبة أجر».

(٣) عائشة بنت أبي بكر بن يوسف النجار. «التحفة» ترجمة (٥٣٦١).

قَالَ: فرأيتُ سيِّدَنا رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ لي: لِمَ تُغيِّرُ اسمَكَ؟

فقلتُ لَهُ: إجلالاً لصاحِبكَ يَا رسولَ الله.

فَقَالَ: لا تفعلْ! انظرْ إلى هٰؤلاءِ الَّذِينَ تخشى مِنْهُم، وأَشَارَ إلى آخرِ الحَرَم، فنظرتُ فإذَا أنَا بِسَبعينَ[1] شخصاً أعرفُهُم مِن أَهْلِ المَدِينَةِ وُجُوهُهُم وُجُوهُ بَنِي آدمَ وباقي أَجْسَامِهِمْ عَلَى صِفَةِ الخنازِيرِ.

ثُمَّ قَالَ [٩٩/ ب] لي ﷺ: خُذْ هٰذِه العصَا وَأَخْرِجْهُم مِنَ المَدِينَةِ.

قَالَ: فَقُلتُ لَهُ: يَا رَسولَ الله، أُحبُّ أنْ أُعَمَّرَ حَتَّى أدفِنَهُم.

فَقَالَ: ستعيشُ بَعْدَهُم.

قَالَ: فانتبهتُ وأَنَا مَسرورٌ، وانْصَرَفَ عنِّي ذٰلك الخاطرُ، وصاروا ينقرضُون طبقةً بَعدَ طبقةٍ.

قَالَ: وكُنتُ إذا جئتُ إلى جماعةِ الخَرَّازِينَ[2] يقولون لي: كَمْ بَقِي مِن غُرَمائِكَ؟ فأقولُ: عشرينَ، عشرةٌ، خمسةٌ. حَتَّى انْقَرَضُوا عَن آخرِهِم في حياتي.

وعَاشَ مِئَةَ سَنَةٍ ونَيِّفاً، تَغَمَّدَهُ اللهُ برحمتِهِ.

وكَانَ مِنَ المَشَايخ العُلَماءِ الوَرِعِينَ المُتَنَسِّكِينَ[3] المبرِّزِينَ في الخيرِ، الشَّيخُ إبراهيمُ التِّلِمِسَانيُّ[4] الشَّافِعِيُّ.

---

(١) في (ب): «بتسعين».

(٢) في (ب): «الجزارين».

(٣) في (ب): «المتمسكين».

(٤) إبراهيم بن رجب بن حماد، البرهان، أبو إسحاق، الرؤاسي، التلمساني الشافعي. العلامة الرباني الخاشع الناسك. انظر: «المغانم المطابة» ٣/ ١١٧٩، «الدرر الكامنة» ١/ ٧٩، «التحفة» ١/ ٢٠٢.

أَقَامَ في المدينةِ عَلَى أحْسَنِ طريقةٍ، لا يُشْبِهُهُ أَحَدٌ في العُزْلَةِ والانقطاعِ عَنِ النَّاسِ؛ عَارِفاً بِزَمَانِهِ، حَافِظاً للسانِهِ، مُقْبِلاً عَلَى شَأنِهِ، مُتَحَرِّزاً مِن إخوانِهِ، مُلازِماً لأواخِرِ المَسْجِدِ، يشتغلُ في مَذْهَبِهِ طول نَهارِهِ، لا يدخُلُ بيتَهَ إلّا وقتَ الوُضوءِ، ولا يَأْتِيهِ أَحَدٌ إلّا مَنْ يَتبرَّكُ بِهِ ويَرتَجِيهِ.

انتفعَ بِهِ الطَّلَبَةُ وتَخَرَّجَ عَلَيهِ جماعةٌ، فظَهَرُوا نُجباءَ عُلماءَ اخْتَرَمَتْهُمُ المَنِيَّةُ شباباً، مِنْهُم ولدا الشّيخ أَحْمَدَ الشُّويكِيِّ[1]، وكَانتْ أمُّهُمَا زوجةَ الشَّيخِ، وكانَتْ زوجةً صالحةً.

ومِنْهُم الشّيخُ صَفِيُّ الدِّينِ ابنُ الشَّيخِ مُحَمّدٍ الكَازَرُونيِّ، وانتفعَ بِهِ أيضاً الفقيهُ عبدالسَّلامِ أخو صفيِّ الدِّينِ، وعبدالقادرِ الحجَّارُ[2]، وغيرُهُم.

وكانتْ لَهُ نِيَّةٌ صالحةٌ ينتفعُ بِهَا مَنْ يَشْتَغِلُ عَلَيهِ ويُحْسِنُ ظَنَّهُ فِيهِ، وكَانَ مَعَ هٰذِه العُزلةِ العظيمةِ والانفرادِ عَن الخليقةِ يُؤذَى بأنواعٍ مِنَ الكلامِ.

ولٰكنْ صَدَقَ القائلُ:

وَمَنْ ذا الَّذِي يَنْجُو مِنَ النَّاسِ سالِماً
وللنَّـــاسِ قِيـــلٌ بالظَّـــنُونِ وقَـــالُ

---

(١) هو: أحمد الشهاب الشويكي، جامع فضائل من قراءات وأصول وفروع ونحو. «التحفة» ١/ ٤٦٧. وهو فيها: «الشوبكي».

(٢) عبدالقادر بن محمد بن علي الحجار، محيي الدِّين، القرشي العمري الحراني ثم المدني الحنبلي، الفرَّاش بالحرم النبوي، مات في آخر سنة ٧٧٩ هـ بالمدينة. «إنباء الغمر» ٣/ ٣٥١، «التحفة» ٤/ ٤١٠.

فكانُوا يَرونَ[١] أَنَّهُ يَقُولُ: بالجِهَةِ[٢] ويُشِيعُونَ عَنهُ ذٰلك، ولَمْ أَسْمَعْ مِنهُ [١٠٠/أ] ما يَدُلُّ عَلَى ذٰلك، وكَانَ الشَّيخُ صفيُّ الدِّينِ ابنُ الشَّيخِ مُحَمّدٍ الكَازَرُونيُّ مِمّنْ لا يُخفِي عَنّي حَالَهُ، وكَانَ يُثنِي عَلَيهِ ثناءً كثيراً، وينكرُ أَنْ يكونَ لَهُ اعتقادٌ يخالفُ اعتقادَ إمامِهِ الشّافِعيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، وكَانَ إذا بَلَغَهُ مَا يُقَالُ عَنهُ لا يُعاتِبُ قَائِلَهُ، [بل ولا][٣] يَتكلَّمُ في عِرضِهِ بشيءٍ، وكَأَنَّ لسانَ حالِهِ كَانَ يُنشِدُ:

دَع النَّاسَ ما شَاؤوا يَقُولُوا فإنَّني ... لأَكْثَرِ مَا يُحْكَى عَلَيَّ حَمُولُ
فَمَا كُلُّ مَنْ أَغْضَبْتُهُ أَنَا مُعتِبٌ ... ولا كُلُّ مَا يُروَى عَلَيَّ أَقُولُ

كانَ لَهُ كُتبٌ جليلةٌ في الفقهِ والأصولِ والحديثِ واللُّغَةِ وغير ذٰلك، أَوْقَفَ أكثرَهَا بِمَكّةَ المُشَرَّفَةِ، وأوقفَ بعضَهَا بالمدرسةِ الشِّهابيةِ، وأَعْتَقَ عَبْداً ربَّاهُ وأَحْسَنَ إليهِ.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُٱللَّهُ في سنةِ خمسٍ وخمسينَ وسبعِمِئَةٍ.

وكَانَ مِن أَصحابِهِ وأَحبابِهِ الشّيخُ **عَلِيٌّ السِّنْجَارِيُّ**، مِنَ الفقراءِ الجيادِ الملازمينَ للرَّوضَةِ الشّريفَةِ، كَانَ فِيهِ تَأنيسٌ كَثيرٌ لأَصحابِهِ ودعاءٌ عظيمٌ لإخوانِهِ.

---

(١) في الأصل و(ب): «يريدون»، والمثبت من (أ) و(ج).

(٢) القول بالجهة: أي نسبة جهة العلوّ إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، أو القول بأنه في السَّماء، وقد كان هٰذا الاعتقادُ وقتها من الخلل في العقيدة؛ لتمكّن العقيدة الأشعرية - التي ينفي أصحابها علوَّ الله على خلقه وكونه في السماء - في الناس وقتئذ، حتى ظهر شيخُ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه فبيَّنوا هٰذه العقيدة الحقّة وجدَّدوا معالم التوحيد.

(٣) زيادة من (ب).

كنتُ إذَا جئتُ الصَّفَّ الأولَ ولَمْ أَجِدْ لي فِيهِ مَدخلاً يُفْسِحُ لي ويَعزِمُ عَليَّ ويَقولُ:

* سَمُّ الخِياطِ مَعَ الأحبابِ مَيدانُ *

وكَانَ لي مِنَ الإخوانِ: الفقيهُ الفاضلُ العابدُ **شمسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ ابنُ يُوسُفَ الحَلِيميُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كَانَ فيهِ مِنَ الخيرِ والصّلاحِ والعُزلَةِ عَنِ النّاسِ مَا لا عَلَيهِ مزيدٌ، وكَانَ مِنَ الأَولياءِ الأكْياسِ، ومِنَ النّاسِ الَّذِينَ هُمُ النَّاسُ، وكَانَ فاضلاً في مذهبِ الإمامِ أبي حَنيفَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، مُشاركاً في عِدَّةِ علومٍ.

رَحَلَ إلى دمشقَ في سنةِ اثنتينِ وثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ، [١٠٠/ ب] واشتغلَ عَلَى الشّيخِ عَلاءِ الدِّينِ القُونَوِيِّ[(١)]، فآثَرَهُ الشَّيخُ عَلَى غَيرِهِ، واعْتَنى بِهِ وتفرَّسَ فِيهِ الخيرَ، فَرَجَعَ وَقَدْ حَصَّلَ واستفادَ، وكَانَ إذَا جَلَسَ في مجلِسٍ تكَلَّمَ وأَفَادَ.

فَقَدتُ مِن دُعائِهِ وأُنسِهِ وولائِهِ ونصيحتِهِ مَا لَمْ أَفْقِدْهُ مِن غيرِهِ مِن أَحَدٍ مِنَ الأصحابِ، كَانَ ساكناً جِواري حَتَّى مَاتَ، فَلَمْ أَرَ مِنهُ غيرَ الخيرِ والمَودَّةِ والمَحبَّةِ في الغَيبَةِ والحَضْرَةِ.

وكَانَ يقولُ لي: واللهِ، مَا وقفتُ تُجاه الحُجْرَةِ المُشَرَّفَة[(٢)] ودعوتُ

---

(١) علي بن محمود بن حميد، علاء الدين القونوي الحنفي، ت ٧٤٩هـ.«الدرر الكامنة» ٤/ ١٥٠.

(٢) استقبال الحُجرة عند الدُّعاء وتخصيصُ الدُّعاء عندها غيرُ مشروع، لم يُنقَل عن أحَدٍ من الأئمَّة لا مالك ولا غيره، بل هو خلاف الثابت المنقول عنه بأسانيد الثقات في كُتب أصحابه، وذكروا عنه أنه سُئل عن أقوام يُطيلونَ القيام مستقبلي الحُجرة يَدْعُون لأنفسهم، فأنكر مالك ذٰلك، وذكر أنه من البدع التي لم يفعلها الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ولا التابعون لهم بإحسان، وقال: لا يَصلُح آخِرُ هٰذه الأمَّة إلّا بما صَلَح به أوَّلُها. =

لنفسِي إلّا ودَعوتُ لكَ، ولا خَتَمْتُ خَتْمَةً إلّا دَعوتُ لكَ بَدْوَها وآخِرَها، وكَانَ يقولُ مِن شِدَّةِ المودَّةِ: أَسْأَلُ الله تَعالى أَلّا يُرِيَنِي لَكَ يوماً أَكْرَهُهُ، وأَن يجعلَ يومي قَبْلَ يومِكَ.

وعَلَى الجُملةِ؛ فكانَ مِن إخوانِ الصَّفَاءِ أَهْلِ الوفاءِ، ليسَ مِن الإخوانِ الَّذِينَ قيلَ فيهم:

وإنَّ مِـنَ الإخْـوَانِ إخـوانَ نِعْـمَةٍ ... وإخـوانَ حيَّـاكَ الإلٰـهُ ومَرحَبَـا
وإخوانَ كَيْفَ الحَالُ والأَهْلُ كُلُّهُم ... وذٰلك لا يَسْـوَى نَقِـيراً مُـتَرَّبَـا

ومَا أشبه النَّاسَ اليومَ في توادُدِهِم وتَصَادُقِهِم(١) بِقَوْلِ القائِلِ:

دَهْرُنَـــا دَهْـــرُ افـــتراقِ(٢) ... لَـــيسَ ذا دَهـــرَ تَـــلاقِ
قَـــلَّ مَـــنْ يَلقَـــاكَ إلّا ... بِـــسَـــلام واعْتِنَـــاقِ
فَـــإِذَا ولَّيـــتَ عَنْـــهُ ... بِنْـــتَ مِنـــهُ بالطَّـــلاقِ

نَسْأَلُ الله تعالى [العافيةَ، وأن](٣) يُذهِبَ عَنَّا التَّدَابُرَ والتَّحَاسُدَ والتَّبَاغُضَ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ.

ومن أَعْظَمِ حَسَنَاتِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَربِيَتُهُ لأولادِ الشَّيخِ الصّالحِ مَحْمُودٍ

= والآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين تُبيِّن أنّ هٰذا لم يكن من عملهم وعادتهم، ولو كان استقبالُ الحُجرة عند الدُّعاء مشروعاً لكانوا هم أعلمَ بذٰلك، وكانوا أسبقَ إليه ممَّن بعدهُم.
انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية ١/ ٣٥٣ .

(١) في (أ): «وتصافيهم».
(٢) في (ب): «الفراق».
(٣) زيادة من (أ) و(ب).

العَجَمِيِّ(١) المُتقدِّمِ ذِكْرُهُ في ترجمةِ الشَّيخِ أبي [مُحَمَّدٍ](٢) البَسْكِرِيِّ، وكَانَ قَدْ تَزوَّجَ أُخْتَهُم لأَبِيهِم في حياةِ الشّيخِ مَحْمُودٍ، وكَانتْ وفاتُهُ [١٠١/أ] - رحمةُ الله عَلَيهِ - في سنةِ إِحْدَى وخمسينَ وسبعِمِئَة.

فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ والدتُهُم لَمْ يَبْقَ لَهُم أَحَدٌ يكفُلُهم، وكَانُوا صغاراً، فكفَلَهُم وضَمَّهُم إلى عيالِهِ، وَهُم: عبدالرّحْمَنِ(٣)، وعبدالرَّحيمِ(٤)، وعبداللطِيفِ(٥)، فأقرَأَهُم القُرآنَ حَتَّى حَفِظُوهُ، ثُمَّ أَشْغَلَهُم بِمَذْهَبِ أبي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكَانَ أَبوهُم شافِعِيَّ المَذْهَب، وَتَوَلَّى شمسُ الدِّينِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَقْرِئَتَهُم وتعليمَهُم العلمَ بنفسِهِ.

وأَخبرَنَا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ جَمَعَ مَا وَرِثُوهُ مِن والدِهِم ووالدَتِهِم مِن الأثاثِ فباعَهُ، وكَانَ مبلغُهُ ثمانَمِئَةِ درهمٍ، وكَانَ يُنْفِقُهُم(٦) مِن بعضِهَا ويتَّجِرُ لَهُم ببعضِهَا، ولَمْ يَزَلْ يُنَمِّيهَا لَهُم ويُوَفِّرُها عَلَيهم، ويَتَوَرَّعُ في مَالِهِم حَتَّى بَلَغَ مالُهُم نَحْوَ عَشَرَةِ آلافِ دِرهَمٍ، وكَانَ إِذَا فَضَلَ شيءٌ مِن غَدَائِهِم أو عَشَائِهِم يأمُرُ بِجَمْعِهِ وحِفْظِهِ، حَتَّى يجتمعَ مِنهُ كِسَرٌ يابسةٌ فيجعلُهَا لَهُم غداءً مِثلَ

(١) قال السَّخاوي: الشيخُ الصّالِحُ والدُ عبدالرحمٰن وعبدِالرحيم وعبدِاللطيفِ، كذا قالَ ابنُ فرحون في ترجمةِ زوجِ ابنَتِهِ محمَّدِ بنِ يوسُفَ الحليمِيِّ: إنه شافعيٌّ، وإنه ماتَ سنةَ إحدى وخمسينَ وسبعِمِئَةٍ، وحينئذٍ فهو غيرُ الشَّمسِ ابنِ العَجَمِيِّ. «التحفة» ترجمة (٤١٠٩).

(٢) زيادة من (أ).

(٣) «التحفة» ٤/ ٣١٢.

(٤) «التحفة» ٤/ ٣٤٢.

(٥) «التحفة» ٤/ ٤٣٤.

(٦) في (ب): «ينفعهم».

البُقْسُماطِ المَنْرُودِ، ويجمَعُ فُصِيَّ[1] تَمْرهم الَّذِي يأكلُونَهُ، فإذَا اجتمعَ بَاعَه وصَرَفَ ثَمَنَهُ فِي مَصَالِحِهِم.

وبلغنَا أَنَّهُ كَانَ إِذَا هَلَّ الهلالُ يَكْتَالُ نفقَتَهُم ويعزِلُهَا، وكَانَ يبدأُ بِكَيلِ نفقَتِهِ قَبْلَ نفقَتِهم، فقِيلَ لَهُ فِي ذٰلك فَقَالَ: أَخَافُ أَنْ يتعلَّقَ في الصَّاعِ شيءٌ مِن حَبِّهِم فَيَخْتَلِطَ بحَبِّنَا.

فانظرْ إلى هٰذا الوَرَعِ مَا أحسَنَهُ! وإلى ديانتِهِ وصبرِهِ ومُرُوءتِهِ مَا أحسَنَهَا.

وكَانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عفيفَ النَّفسِ عَن التَّشَوُّفِ للصَّدَقاتِ الواردَةِ للمُجَاوِرينَ، قليلَ السَّعي في الوَظَائِفِ، مُقْتَنِعاً باليسيرِ مِنَ الدُّنيَا، مُظْهِراً للتَّجَمُّلِ في مَلْبَسِهِ وحالِهِ وحالِ أولادِهِ وعيالِهِ، مِن أَعْقَلِ النَّاسِ وأكثرِهم نُصحاً وَأحزمِهِم رأياً، مُخَالِطاً للنَّاسِ مبايناً لَهُم، لا يخوضُ مَعَهُم في شيءٍ [١٠١/ ب] مِمّا يَخشَى عاقِبَتَهُ مِن أمورِ الدَّارينِ، ولا يَذْكُرُ أَحداً بِغِيبَة، فإنْ ذُكِرَتْ بِحَضْرَتِهِ أَنْكَرَ أَشَدَّ الإنكارِ، وإنْ سَمِعَهَا مِن ذي حُرمَةٍ التَمَسَ للمَقُولِ فِيهِ عُذْراً ومَخْلَصاً، وكَانَ مِن أحسنِ النَّاس خُلُقاً، وأكثرِهم فُكَاهةً في حقٍّ، وأحسنِهم هَدْياً، وبالجُملةِ فكَانَ حَسَنَةَ زمانِهِ، ونادِرَةَ إخوانِهِ.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ ستٍّ وستين وسبعِمِئَةٍ.

وَهُوَ خَالُ صاحِبنَا في الله تَعَالى: الفقيهِ العالمِ العاملِ الورعِ الزَّاهدِ الشَّيخِ **شمسِ الدِّينِ مُحمّدِ بنِ مُحمّدِ بنِ يحيى الخَشَبِيِّ**[2]، ذو النَّفْسِ الزَّكيَّةِ، والأخلاقِ الرَّضِيَّةِ، والطَّرِيقةِ المَرضيَّةِ.

---

(١) فُصِيُّ التمر: جمع فُصْيَةٍ، وهو نوى التمر. «تاج العروس»: فصي.

(٢) «الدرر الكامنة» ٤/ ٢٤٧، «التحفة» ترجمة (٣٩٦٠).

اشتغلَ بالفقهِ عَلَى مذهبِ أبي حَنِيفَةَ، وشَارَكَ في عُلومٍ عَديدةٍ وأتقنَهَا، ثُمَّ أكَبَّ عَلَى الإفادةِ والاشتغالِ ونشرِ العلم طولَ نهارِهِ، وصَحِبَ الشّيخَ العالِمَ الرَّبّانيَّ شيخَ وقتِهِ وبركةَ عصرِهِ الشّيخَ عبدالله بنَ أسعدَ اليافعيَّ.

وَصَحِبَ الشَّيخَ مُوسَى المغربيَّ، والشّيخَ سُليمَانَ الوَنْشَرِيْسيَّ[١]، وخلائقَ لا يُحصَونَ كَثرةً؛ فَاكْتَسَبَ مِن أَخلاقِهم، وَتَأَدَّبَ بآدابِهِم، وسَارَ عَلَى هديِهِم.

وَهُوَ اليومَ أَحَدُ المُؤذِّنينَ بالحَرَمِ الشّرِيفِ النَّبَوِيِّ، وَلَيْسَ فيهم - بَلْ وَلَا فِي المَدِينَةِ اليومَ - [مَنْ][٢] يعلَمُ عِلمَ المِيقاتِ[٣] مِثلُهُ، وَكَانَ قَدْ رَبَّاهُ والدُهُ مُحَمّدُ بنُ يحيى[٤]، وَأَنْشَأَهُ الشَّيخُ مُحَمّدُ بنُ إبراهيمَ المُؤذِنُ المُتقدِّمُ ذِكْرُهُ.

وأَصْلُهُ مِنَ العبابيَّةِ[٥]؛ فِرقةٍ كَبيرةٍ مِن أولادِ المَدِينةِ، مِنْهُم يُوسُفُ الشُّرَيْشِيرُ[٦] شيخُ الشِّيعةِ وفَقِيهُهُم، وَكَانَ جَدُّهُم مَغْرِبِيًّا سُنِّيًا، تَزَوَّجَ مِن بناتِ المَدِينةِ وَمَاتَ عَن أولادٍ صغارٍ، فَنَشَؤُوا فِي مذهبِ أُمِّهِم، ثُمَّ كَثُرُوا وانْتَشَرُوا وتَمَذْهَبُوا بِمَذْهَبِ الشِّيعَةِ وغَلَوا [١٠٢/ أ] فيهِ.

---

(١) في الأصل: «سلمان الونشريشي»، والمثبت من (أ) و(ب) و(ج).

(٢) زيادة من (أ) و(ب).

(٣) المراد به علم مواقيت الصَّلوات الخمس.

(٤) محمَّد بن يحيى بن منصور الخشبي. انظر: «التحفة» ترجمة (٤٠٢٦).

(٥) في «التحفة» ترجمة (٤٠٢٦): «العياشية».

(٦) «التحفة» ترجمة (٤٧٤١) نقلاً عن المؤلف.

وكَذٰلك الفِرْقَةُ المعرُوفونَ بالمزاتِيِّينَ، أَبُوهُم أيضاً مِنَ الغَربِ، وَهُم طائِفَةٌ كبيرةٌ، وكَانَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ بنُ يحيى رَجُلاً صالحاً مُتَصَوِّفاً مُتَعَبِّداً مُشْتَغِلاً بالعِلْمِ مُؤذِّناً بالحَرَمِ الشَّرِيفِ، استنقَذَهُ اللهُ مِن تِلكَ الطَّائِفَةِ، وكَانَ شافعيًّا أشعَرِياً مُتيَقِّظاً في دِينِهِ، وإِنَّمَا اشتغَلَ ولَدُهُ بمذهبِ أبي حَنِيفَةَ لأَنَّ والدَهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تُوُفِّيَ في سنةِ خَمسَ عَشْرةَ وسبعِمِئَةٍ وَخَلَّفَهُ صغيراً، وَكَانَ مولدُهُ في آخرِ سنةِ ثلاثَ عشرةَ، فَقُدِّرَ أنَّ الشَّيخَ مُحمّدَ بنَ داودَ[1] تزَوَّجَ والدَتَهُ، وَكَانَ شافعيَّ المذهبِ، فلَمَّا قَدِمَ الشّيخُ شمسُ الدِّينِ ابنُ العجميِّ إلى المدينةِ وَأَسَّسَ قَوَاعِدَ هٰذا المذهبِ فيها أَمَرَ ابنَ داودَ وشمسَ الدِّينِ الخَشَبِيَّ وشمسَ الدِّينِ الحَلِيمِيِّ بالاشتغالِ عَلَيهِ، فَفَعَلاَ، وكَثُرَتِ الحَنَفِيَّةُ في المدينةِ بِبَرَكَتِهِمَا، وَرُزِقَ شمسُ الدِّينِ الخشبيُّ أولاداً نُجَباءَ، قُرَّةَ أَعْيُنٍ، نَشَؤُوا عَلَى طَرِيقَةِ والدِهِم، وفَّقَهُم اللهُ تَعَالى.

وَخَلَّفَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ بنُ داود ولدَهُ وليَّ الدِّينِ[2]، ارتَحَلَ إلى دِمَشْقَ صغيراً، فلَزِمَ خِدْمَةَ الشَّيخِ الإمامِ العَلَّامَةِ قاضي القُضَاةِ تَقيِّ الدِّينِ السُّبْكي[3]، ثُمَّ صَحِبَ ولدَهُ الإمامَ العلّامةَ قاضي القُضَاةِ تاجَ الدِّينِ[4]، فَسُعِدَ بِصُحْبَتِهِمَا، ورَأَسَ في دِمَشْقَ بِبَرَكَتِهِمَا.

---

(١) محمَّدُ بنُ داودَ، المعروف بالعجميِّ، وهو زوج أمِّ الشَّمس محمَّدِ بن محمد بن يحيى الخشبي. «التحفة» ٦/ ١٤٨.

(٢) «التحفة» ترجمة (٥١٥١) نقلاً عن المؤلف.

(٣) عليُّ بنُ عبدالكافي، أبو الحسن، تقيُّ الدِّين السُّبكيُّ، الشافعيُّ، العلّامة المجتهد، وُلد سنة ٦٨٣هـ، وتوفي سنة ٧٥٦هـ. «طبقات الشافعية الكبرى» ١٠/ ١٣٩.

(٤) وهو: عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي، التاج السُّبكي الشافعي، توفي سنة ٧٧١هـ. «الدرر الكامنة» ٢/ ٤٢٥.

وَكَانَ مِن إخوانِنَا الفقيهُ الأجلُّ العالِمُ العاملُ المُتَفَنِّنُ بهاءُ الدِّينِ عُمَرُ ابنُ مُحَمَّدٍ الهِنْدِيُّ الحَنَفِيُّ[١].

كَانَ مِن إخوانِنَا الكبارِ، وأصحابِنَا الأخيارِ، كَانَ مُنْقَطِعاً في الحَرَمِ الشَّرِيفِ غَالبَ نهارِهِ للتدريسِ والإفادَةِ، مُحِبًّا في الطَّلَبَةِ، حَرِيصاً عَلَيهِم، حَتَّى إِنَّهُ لَيَبْعَثُ للطَّالبِ إلى بيتِهِ إِذَا تَأَخَّرَ عَنِ الإتيانِ [١٠٢/ب]، وَقَرَأَ عَلَيهِ بَعضُ الطلبةِ «الكَافِيَةَ» لابنِ الحاجِبِ[٢] في بيتِهِ باللَّيلِ حَتَّى أَنْهَاهَا بَحْثاً[٣].

كَانَ في عِلْمَي الأُصولِ والفِقْهِ والعربيَّةِ إمامَ زمانِهِ، مَعَ حِلْمٍ وَأَدَبٍ وَعَقْلٍ راجحٍ وحُسنِ خُلُقٍ.

وَكانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَلْحَقُهُ حِدَّةٌ في البَحْثِ، ثُمَّ يَرْجِعُ ويَستغفرُ ويُنْصِفُ في المجلسِ، وَكَانَ كثيراً مَا يقولُ لي: باللهِ لَا تَأْخُذْ عَلَيَّ في البَحْثِ، فَمَا أُراجِعُكَ إلّا طَلَباً للاستِفَادةِ.

وكَانَ عَفيفاً مِن كُلِّ مَا يُدَنِّسُ العِرضَ، ولَمْ أَرَ أَوفَى مِنهُ في حِفْظِ أصحابِهِ في الغَيْبَةِ والحَضْرَةِ.

خرجَ إلى مَكَّةَ حاجًّا سنةَ ثمانٍ وخمسينَ وسَبْعِمِئَةٍ، فرمَاهُ بعيرُهُ في

---

(١) «العقد الثمين» ٦/ ٣٥٤، «التحفة» ٥/ ٣٣٧.

(٢) كتاب «الكافية» في النحو من أشهر المتون، شَرَحها كثير من العلماء، ومؤلِّفها هو عثمانُ ابنُ عمرَ بن الحاجب الكرديُّ، ثمَّ المصريُّ، جمالُ الدِّين، أبو عمرو، الفقيه المالكيُّ، الأصولي، النَّحويُّ، ولد سنة ٥٧٠ هـ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٦٤٦ هـ. «بغية الوُعاة» ٢/ ١٥٩.

(٣) في (أ) و(ب) بزيادة: «وفحساً» بعد «بحثاً».

المحاطِبِ[١] قريباً مِن مَضِيقِ المُنْحَنَى[٢]، فَيَبِسَتْ أعضاؤُه، وبطَلَتْ أَكْثَرُ حَرَكَاتِهِ، فَحُمِلَ إلى مَكَّةَ، وتَأَخَّرَ عَنِ الحَجِّ، ووَدَّعْنَاهُ عِنْدَ تَوَجُّهِنَا إلى المدينةِ، فوصَّانَا بوَلَدَيْهِ صَدرِ الدِّينِ وأبي عبدالله، ثُمَّ لَمْ يُقِمْ بَعْدَ ذٰلك إلّا قليلاً، وانتقلَ إلى رحمةِ الله تَعالى ورِضْوانِهِ.

وكَانَ مِن أصحابِنَا جماعةٌ مُبارَكون، كَانُوا إخوةً في الله مُتَلائِمِينَ، وعَلَى فِعْلِ الخيرِ والاشْتِغالِ بالعِلْمِ مُتَظَاهِرِينَ.

مِنْهُم الأَخَوانِ في الله العامِلانِ العالِمانِ السَّيِّدانِ: الشَّيخُ **أبو عَلِيٍّ الحَسَنُ ابنُ عيسى الحَاحَائِيُّ**[٣]، والشَّيخُ **عبدالسّلام بنُ سعيدِ بنِ عبدالغالبِ القَرَوِيُّ**[٤].

كَانَ الشّيخُ حَسَنٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنَ العُلَماءِ الأَتْقِياءِ الأَقْوِياءِ في دِينِهِم، مَعَ التَّفَنُّنِ في عُلُوم عِدَّةٍ، إماماً في مَذْهَبِ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفي العربيَّةِ وأُصُولِ الدِّينِ وأُصولِ الفِقْهِ، رُحْلَةً[٥] في عِلمِ الحِسَابِ والفَرَائِضِ، مُشارِكاً [١٠٣/ أ] في اللُّغَةِ وغيرِهَا، مُتصَدِّياً للاشتغالِ، انتفعَ بِهِ الطَّلَبَةُ مِن جَمِيعِ المذاهِبِ الأربعَةِ، وكَانَ ساكِناً بِربَاطِ دُكَّالَةَ في حُجْرةِ الصَّالِحِينَ،

---

(١) كذا في الأصل، ولعلها: «المحصَّب».

(٢) المنحنى: حدّ المُحَصَّب من الأبطح، أي منذ أن تخرج من مِنى فأنت في المحصَّب، حتى يضيق الوادي بين العيرتين فذاك المنحنى. «معجم المعالم» ص٢٨٤.

(٣) انظر ترجمته في: «المغانم المطابة» ٣/ ١١٩٧، «التحفة» ٢/ ٣٢٣.

(٤) انظر ترجمته في: «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٣١، «الدرر الكامنة» ٢/ ٣٦٦، «التحفة» ٤/ ٣٤٥.

والقَرَوي، قال في «المغانم»: بفتح القاف والرَّاء، نسبةً إلى القيروان بتونس، والنِّسبة إليها قيرواني، وقروي. «معجم البلدان» ٤/ ٤٢١.

(٥) الرُّحْلَةُ: الشَّريف أو العالِم الكبير الذي يُرْحَلُ إليهِ لِجَاهِهِ أو عِلْمِهِ. «تاج العروس»: رحل.

وَكَانَ أَفضلَ جَمَاعَتِنَا في الدَّرْسِ بَعْدَ وفاةِ أَخِي عَلِيٍّ رَحِمَهُ الله تَعالى، وَكَانَ حَسَنَ الأخلاقِ، مُرغِّباً للطَّلَبَةِ في الاشتِغَالِ، مَعَ الهَيْبَةِ العَظِيمَةِ عَلَيهِم.

تُوُفِّيَ - رحمهُ الله تَعَالى - في سنةِ تِسْعٍ وأربعينَ أو في سنةِ خمسينَ وسبعِمِئَةٍ.

وأَمَّا الشَّيخُ عبدالسَّلام فَعَاشَ بَعْدَهُ مُدَّةً طَويلةً، وانتفعَ بِهِ الطَّلَبَةُ المالِكِيَّةُ في المذهَبِ، وَكَانَ قَدْ جَمَعَ إلى العلم الغَزيرِ الدِّينَ المَتِينَ والعَقْلَ الرَّاجِحَ، كَانَ في عَقْلِهِ وسُكُونِهِ وَحُسْنِ خُلُقِهِ وجَمِيلِ مُعاشَرَتِهِ وسَلامَةِ النَّاسِ مِن يَدِهِ ولِسَانِهِ بالصَّبرِ عَلَى الأَذَى ومقابَلَةِ السَّيِّئَةِ بالحَسَنةِ كَقَولِ ابنِ دُرَيدٍ[1]:

والنَّــاسُ ألــفٌ مِــنْهمُ كَوَاحِــدٍ ... وواحِدٌ كالألفِ إنْ أَمْــرٌ عَنَــا[2]

وَكَانَ قَدْ رَأَسَ وَاشْتَهَرَ ذِكرُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ ذٰلك إلّا خُمُولاً وانْقِبَاضاً، لَمْ أَرَ وَلَمْ أَسْمَعْ مِنهُ مَا يَسُوؤُني قَطُّ، مَعَ الصُّحبةِ الطَّويلَةِ والمُلازَمَةِ العَظِيمةِ في الدُّروسِ وغيرِهَا، وَكَانَ يتأَدَّبُ مَعِي في الدَّرسِ كَأَصغرِ الطَّلَبَةِ، لَم يَقَعْ بيني وبينَهُ في الدَّرسِ حَرَجٌ مِن حُسْنِ خُلُقِهِ.

وَكَانَ شيخاً مَلِيحَ الشَّكَالَةِ، حَسَنَ السَّمْتِ، حَيِيًّا وَقُوراً شَفُوقاً، وَكَانَ قَدْ صَحِبَ الشَّيخَ أبا هادي[3] شيخَ وقتِهِ وفريدَ دَهرِهِ، مَنَاقِبُهُ أَشهرُ مِن أَنْ تُذكَرَ، ومَحَاسِنُهُ لاَ تُحَدُّ ولا تُحْصَرُ، رحمهُ الله تَعَالى.

---

(١) أبو بكر محمد بن الحسن بن دُرَيد بن عتاهية، الأزدي البصري، العلّامة شيخ الأدب، صاحب التصانيف، سكن بغداد. تُوُفِّي سنة ٣٢١هـ. «سير أعلام النبلاء» ١٥/ ٩٦.

(٢) هٰذا بيتٌ من مقصورة ابن دُرَيد. انظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي ص٧٦.

(٣) الشيخ أبو هادي المغربي، شيخ المغرب في وقته. «الديباج المذهب» ص١٠٠، «التحفة» ترجمة (٥٠٣٤).

[١٠٣/ ب] [وكَانَ الشّيخُ عبدُالسّلام عِنْدَهُ مُقدَّماً عَلَى أصحابِهِ القُرَّاءِ والمُشتَغِلِينَ بالعلمِ](١)، وكَانَ الشّيخُ أبو الطَّيِّبِ يَقُولُ في حَقِّهِ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إلى مَنْ يَقْدِرُ عَلَى مُساكَنَةِ الحيَّة في جُحْرِهَا فيَسْلَمُ مِنْهَا وتَسْلَمُ مِنهُ، فَلْيَنْظُرْ إلى الشَّيخِ عبدالسّلامِ بنِ غالبٍ، رحمةُ الله عَلَيهِمَا.

وكَانَ الشّيخُ أبو هادِي قَدْ جاوَرَ عِنْدَنَا في حُدودِ خمسٍ وعشرين وسبعِمِئَةٍ، فأنزلتُهُ عِنْدِي وكُنْتُ آوِي إليهِ وأَخدُمُه، وكَانَ مُنْفرِداً عَنِ التَّلامِذَةِ والأتباعِ، وكَانَ أكثرَ عبادَتِهِ التَّفكُّرُ، وكَانَ مَسكني يُشرِفُ عَلَى مَسْكَنِهِ، فكَانَ يَعبدُ اللهَ بالفِكْرَةِ، فغالبُ مَا كُنتُ أَرَاهُ رَافعاً بَصَرَهُ إلى السَّماءِ، مُستغرِقاً بِجَميعِ حَواسِّهِ في الفِكرةِ، وحَصَلَ لي بِصُحبتِهِ خيرٌ كثيرٌ.

ولَمَّا قَدِمَ الشّيخُ عبدالسَّلامِ إلى المدينةِ أَقَامَ بالمدرسةِ الشِّهابيَّةِ عَلَى قَدمِ التَّجْرِيدِ مُدةَ سِنينَ، ثُمَّ سَعَى لَهُ في الزَّوَاجِ الشَّيخُ الصَّالحُ خَادِمُ الفقراءِ الشَّريفُ أبو القاسمِ المَهْدَوِيُّ(٢)، فَزَوَّجَهُ بابنةِ الشَّيخِ يحيى التُّونسيِّ المُتَقدِّمِ ذِكْرُهُ، وكَانتْ أُختُهَا تَحْتَ الشَّريفِ، وكَانَ الشَّريفُ خادمَ الفقراءِ عِنْدَ الشَّيخِ أبي هادِي، ومِن هُنَاكَ تأكَّدَتِ الأخوَّةُ بينهما، وكَانَ الشَّريفُ ذا هِمَّةٍ ومُرُوءةٍ وخِدْمَةٍ للفقراءِ ومَحَبَّةٍ في الصَّالِحينَ.

تُوُفِّيَ - رحمهُ الله تَعالى - في ذِي الحِجَّةِ مِن سنةِ تسعٍ وخمسين وسبعِمِئَةٍ، وَوَصَّى عَلَى أولادِهِ الشَّيخَ عبدَالسَّلام فَخَلَفَهُ فيهم بأحسَنِ الخِلافَةِ، وكَانتْ وفاةُ الشَّيخ عبدِالسَّلامِ في أوائلِ سنةِ سِتٍّ وستِّينَ وسَبْعِمِئَةٍ.

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط في الأصل، وهو من (أ) و(ب) و(ج).

(٢) «التحفة» ترجمة (٤٩٩٩) نقلاً عن المؤلف.

وَكَانَ مِن قُدَماءِ الطَّلَبَةِ الشّيخُ **قَاسِمُ السَّلَاوِيُّ**[١].

كَانَ مِن إخوانِنَا الفُضَلاءِ العلماءِ [١٠٤/أ] الأكياسِ، وَكَانَ يَحْضُرُ الدَّرْسَ عِنْدَ والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَكَانَ مِنَ النَّجبَةِ المُتفنِّنِينَ، مَاهِراً في عِلمِ الفَرائِضِ، نَقَّالاً للفروعِ.

وَكَانَ مِن الزُّعَماءِ الَّذِينَ تَركُوا شَهَامَتَهُم وَقُوَّةَ بَطْشِهِم في بلادِهِم، وَهَاجَرَ إلى الله ورسولِهِ، وكَانَ فَقِيراً ضعيفَ الحالِ.

وَكَانَ مِنَ المُتَقَدِّمِينَ في العِلْمِ والتَّعلِيمِ: مُعَلِّمُنَا الشَّيخُ **مُحَمَّدُ السَّبْتِيُّ**[٢].

كَانَ بِلَا شَكٍّ مِنَ المُحَدَّثِينَ، وكَانَ مِن قُدَمَاءِ المُجَاوِرِينَ، وَكَانَتْ لَهُ عَلَى أولادِ المُجَاوِرِينَ . بَلْ وأَهْلِ المدينةِ . يَدٌ طَوِيلَةٌ ومِنَّةٌ عَظِيمَةٌ في تعليمِهِم القُرآنَ، إنْ قُلتُ: إنَّهُ لَم يَنْجُبْ أَحَدٌ مِنَ الأولادِ في زمانِهِ عَلَى يدِ غيرِهِ مِنَ المُعلِّمينَ كُنتُ قَائِلاً حَقًّا[٣].

كَانَ في كُتَّابِهِ فَوْقُ مِئَةِ مُتعَلِّمٍ بَيْنَ صَبِيٍّ يَفَاعٍ[٤] وصَغيرٍ يَرَاعٍ[٥]، قَدْ رتَّبَ كُتّابَهُ فَجعلَ العُرَفَاءَ فَوْقَ مَنْ دُونهم، وقَدَّمَ عَلَى كُلِّ طَائِفَةٍ واحِداً منهم، وانْتَظَمَ لَهُ سِلكُ التَّعليمِ أَكثرُهُ بالتَّخويفِ والتَّهدِيدِ، وكَانت لَهُ فِرَاسَةٌ عَظِيمَةٌ في الوِلْدَانِ، حَتَّى إنَّه لَيَقُولُ للواحدِ مِنْهُم: أَنتَ كُنْتَ في مكانِ كَذَا، وفَعَلتَ كَذَا وَكَذَا، فيكونُ ذٰلك حَقًّا.

---

(١) «التحفة» ٥/ ٤٢٧ نقلاً عن المؤلف.

(٢) محمد بن عبدالله، السَّبتي المَغرِبيُّ، ثمَّ المدَنيُّ، المالكيُّ. «المغانم» ٣/ ١٢٨٢، «التحفة» ٦/ ٢٤٥.

(٣) في (أ): «فلست من الكذابين» بدل «كنت قائلاً حقاً». وفي (ب) و(ج): «فلست من الكاذبين».

(٤) يفاع: مراهق، قال الجوهري: أيفعَ الغلام، أي: ارتفع، وهو يافع. «الصحاح»: يفع.

(٥) في الأصل: «ويَراع»، والواو زائدة. وأصله من اليَرْع، وهو ولد البقرة. «القاموس»: يرع.

وكَانَ يُهابُ في غَيبَتِهِ أكثرَ مِن حُضُورِهِ.

ومِمَّا جَرَى لنا يوماً مَعَهُ أَنَّ الطَواشِيَّ شفيعاً الكَرْمُونِيَّ جَاءَ إليه يوماً، فقَالَ لَهُ: إنَّ عُمَّارَ الحَرَمِ قَدْ فَقَدُوا مُرَبَّعَةَ خَشَبٍ مَدْهُونَةً يكونُ قدرُها ذِراعاً في ذراعٍ، ومَا نَظُنُّ أَخَذَهَا إلّا بَعضُ الأولادِ.

فَقَالَ: اذهبْ فَستَأتِيكَ إن شَاءَ اللهُ تَعَالى.

ثُمَّ قَالَ لنا: اقرؤُوا وارْفَعُوا أَصْوَاتَكُم، فَفَعَلْنَا.

ثُمَّ قَالَ لنا: اسكُتُوا، فَسَكَتْنَا.

فَقَالَ: قُمْ يا حسينُ فَأْتِ بالمُرَبَّعَةِ.

فَقَالَ: مَا أخذتُها! وجَعَلَ يبكي.

فَقَالَ لَهُ: اقْرَأْ عَلَى حَالِكَ.

ثُمَّ دَعَا بعضَ الأولادِ، [١٠٤/ ب] قَالَ لَهُ: امضِ إلى بيتِهِ وقُلْ لأهلِهِ: حسينٌ يقولُ لكم: ابعثُوا لي المُرَبَّعَةَ التي أَتَيْتُكُم بها البارِحَةَ.

فَمَا كَانَ إلّا قَليلاً إِذْ جَاءَ بِهَا وَهُوَ يَنظُرُ! فَبُهِتَ فَضَرَبَهُ، ثُمَّ أَمَرَ جَميعَ الصِّبيانِ فضَرَبُوه، وكَانتْ فراسَتُهُ قَلَّ أَنْ تُخطِئ.

وكَانَ يَقولُ للصِّبيَانِ: يَا فُلان، أَنْتَ تَكُونُ وَزيرَ المدينةِ، وأَنتَ تَكُونُ تَاجراً، وأَنتَ تَكُونُ ظَالِماً، وأَنْتَ تَكُونُ فقيهاً، فَمَا يَتعَدَّى أحدٌ مِنْهُم فيما علمتُ مَا تَوَسَّمَ فِيهِ!

وكَانَ يَعزِمُ عَلَى الجانِّ ويَسْتَحْضِرُهُم[١]، وكَانَ حِجَابُهُ مَشهوراً بالنَّفعِ، يأخُذُ وَرَقةً عَلَى طُولِ المَصرُوعِ فيكتُبُهَا لَهُ ويعلِّقُهَا عَلَيه فيبرأُ مِن حِينِه[٢].

ولَمْ يَزلْ كَذٰلك حَتَّى فَلَجُوا بِنْتَهُ، وكَانَتْ تَزحَفُ، ثُمَّ انطلقَ نصفُهَا الأيمنُ، وبَقِيَتْ كَذٰلك حَتَّى تُوُفِّيَتْ، ولَمْ يَرجعْ عَن حَالِهِ مَعَهُم حَتَّى فَلَجُوهُ هُوَ أيضاً.

أصبحَ ذَاتَ يومٍ قَدْ صُرِعَ في وَسَطِ دَارِه، وَقَدْ بَطلَ كُلُّهُ، فرأيتُهُ بَعْدَ العِزَّةِ والقُوَّةِ يمشي في الأسواقِ يَزْحَفُ[٣]، وَقَدْ نَفرَ عَنْهُ مَنْ كَانَ يعرفُهُ! وَصَارَ مِنَ الحاجَةِ والقِلَّةِ بِحَيْثُ إِنَّهُ يسأَلُ ويطْلُبُ فلا يُنْظَرُ إليه؛ ابتلاءً مِنَ الله تَعَالى، نسأَلُ الله العظيمَ عفوَهُ العظيمَ.

وبقيَ عَلَى ذٰلك سنينَ مُتَعَلِّلاً حَتَّى تُوُفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَوَلَدُ وَلَدِهِ اليومَ مَهدِيٌّ مُقِيمٌ بالسَّوارِقيَّةِ[٤].

تُوُفِّي في حُدودِ سنةِ عِشْرِينَ وسبعِمِئَةٍ.

---

(١) في الأصل و(أ): «يستحضر»، والمثبت من (ب) و(ج).

(٢) ما ذُكر من العزم على الجانّ واستحضارهم لا يجوز، ولا يجوز سُؤالهم عن المغيَّبات ولا تصديقهم فيما يُخبرون به منها، وكذا كتابة الحُجب وتعليقُها على المرضى كلها من الأمور التي لم يرد عليها دليلٌ من الشارع، فما كان من الرُّقى بكتاب الله أو أسمائه أو الأذكار الشرعية أو الأدوية المباحة فلا بأس به، وما لم يكن كذلك فلا يُشرع.

(٣) في (ب): «يرجف».

(٤) السّوَارقية - بفتح السين وضمِّها - ويقال: السُّوَيْرِقية بلفظ التصغير، وهي قرية بين مكة والمدينة. «معجم البلدان» ٣/ ٢٧٦. وهي في جنوب غرب المدينة على بعد ١٨٠ كيلاً، وكان بها مزارع لأبي بكر الصديق رَضِحَلِلَّهُعَنْهُ. «المغانم المطابة» ٢/ ٨٤٥.

وكَانَ مِمَّنْ صَحِبْتُهُ في الله تَعَالى: الشَّيخُ عثمانُ التكْرُورِيُّ [(١)]، والشّيخ إلياس [(٢)]، والشّيخُ صالحُ بنُ عُمَرَ الحاجانيُّ [(٣)]، والشّيخُ مُحَمَّدٌ التِّلِمْسانيُّ [(٤)]، والشَّيخُ إبراهيمُ المِكْنَاسِيُّ [(٥)]، والشّيخُ مُحَمَّدٍ [(٦)] البَسْكَرِيُّ، والأَخَوانِ الصَّالِحَانِ عَليٌّ [(٧)] ومُحَمَّدٌ [(٨)] السَّلاوِيَّانِ.

فَأَمَّا الشّيخُ **عُثمانُ** فَكَانَ مِنَ الأخيارِ الصَّالحينَ المُشتغلينَ بالعلم، خَرَجَ مِنَ المدينةِ في أثناءِ السَّنَةِ، يُرِيدُ القُدسَ الشّريفَ هُوَ وجماعةٌ مَعَهُ، فَهَلَكُوا بالعَطَشِ في [١٠٥/ أ] الطَّرِيقِ، وَمَاتَ عَن غَيْرِ عَقِبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَأَمَّا الشّيخُ **إلياس** فكَانَ مِنَ الأخيارِ المعدُودينَ، كَانَ في سلامةِ القَلبِ وحُسْنِ السِّيرةِ [(٩)] والتّفَرُّدِ عَن الخلقِ عَلَى قَدَمٍ عَظيمٍ، قَرَأَ عَلَى الشَّيخِ أبي عبدالله القَصْرِيِّ، وَكَانَ مِن أَكَابِرِ أصحابِهِ وَمِمَّنْ انتفَعَ بِهِ.

وَكَانَ مَوتُهُ فَجأَةً؛ وذٰلك أَنَّهُ خَرَجَ يوماً إلى البَقِيعِ، فَزَارَ أَهْلَهُ وَسَلَّمَ عَلَيهِم، ثُمَّ رَجَعَ فَمَا باتَ إلّا مَعَهُم، رحمةُ الله عَلَيه.

---

(١) عثمان التَّكْرُوري المالكي. ذكره السخاوي في «التحفة» ٥/ ٤٥ نقلاً عن المؤلف.

(٢) إلياس بن عبدالله المغربي المالكي، من الفقهاء والصلحاء المنفردين، صحب الشيخ أبا عبدالله القصري. مات بالمدينة. «المغانم المطابة» ٣/ ١١٦٤، «التحفة» ٢/ ٧٦.

(٣) صالح بن عمر الحاجاني المغربي المالكي، مات في طريق مكة مُحْرِماً سنة ٧٤٤هـ. «التحفة» ٣/ ٣١٢ نقلاً عن المؤلف.

(٤) «التحفة» ترجمة (٤٠٧٤) نقلاً عن المؤلف.

(٥) «المغانم» ٣/ ١١٦٦، «التحفة» ١/ ٢٨٢.

(٦) في باقي النسخ: «أبو محمد» وهو خطأ.

(٧) علي أبو الحسن السلاوي المالكي، نزيل المدينة. «التحفة» ٥/ ٢٠٤.

(٨) محمد السلاوي المالكي، نزيل المدينة. «التحفة» ترجمة (٤٠٤٦).

(٩) في (ب) و(ج): «السريرة».

وَأَمَّا الشَّيخُ **صَالحٌ** فكَانَ مِن إخوانِنَا وأصحابِنَا القُدمَاءِ، وَكَانَ مِمَّنْ تَوسَّطَ حالُهُ بَينَ التّصَرُّفِ في أمورِ الدُّنيا والآخرةِ، وكَانَ سَعْيُهُ في معيشَتِهِ بِتَعَفُّفٍ ودِيانَةٍ، وكَانَ مِن أَحْسَنِ النّاسِ خُلُقاً وأرعَاهُم صُحْبَةً، كثيرَ التّلاوةِ لكتابِ الله تَعَالى، تُوُفِّيَ عَن عَقِبٍ صالِحِينَ مُبارَكِينَ مُشْتَغِلِينَ بالعلم، وَأمَّا أَكبرُهُم فَحُبِّبَ إليهِ التَّغرُّبُ فاستَقَرَّ بالقاهرةِ، وَمَاتَ عبدُالرَّحمٰنِ[١] غريباً شهيداً، وَكَانَ قَدْ حَصَّلَ واشتغلَ وسَمِعَ كثيراً، تغمَّدَهُ الله برحمَتِهِ.

وأَقَامَ بالمدينةِ **سِرَاجُ الدِّينِ عُمَرُ**[٢]، فاشتغَلَ بالفقهِ والحديثِ، وَقَرَأَ القِرَاءاتِ السَّبْعَ عَلَى الشَّيخِ مُحَمَّدِ بنِ صالحٍ المتقدِّمِ ذِكْرُهُ، وانتفعَ بِهِ وَلَزِمَ الخيرَ وأهْلَه.

وَكَانتْ وفاةُ والدِهِم في طَرِيقِ مَكّةَ المُشَرَّفَةِ مُحْرِماً بالحَجِّ في المَفَازةِ الَّتِي بَينَ بَدرٍ ورَابغٍ، وَذٰلك في سنةِ أربعٍ وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ.

وأَمَّا الشَّيخُ **مُحَمَّدٌ التِّلمسَاني** فكَانَ مِن أَهْلِ الخَيرِ والصَّلاحِ، مُكِبًّا عَلَى الاشتغالِ بالفقهِ.

وَكَانَ خَصِيصاً بالشَّيخِ العَلّامَةِ أبي العبَّاسِ التَّادِليِّ[٣] رَحِمَهُ اللَّهُ، وكَانَ مُحِبّاً للعُلَماءِ وخِدْمَتِهِم، طَالِباً للسَّلامَةِ والعُزلةِ، قَليلَ السَّعي في طلبِ الدُّنْيا، وَكَانَ يَشتغلُ بِتَجْلِيدِ الكُتُبِ وانْتَفَعَ النَّاسُ بِهِ في ذٰلك.

---

(١) عبدالرحمٰن بن صالح الحاجاني «التحفة» ٤/ ٢٥٣، نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) انظر: «التحفة» ٥/ ٣٠٥.

(٣) تحرَّفت في الأصل وجميع النسخ إلى: «الشاذلي». والتادلي: نسبة إلى تادلة: بلدة بين فاس ومرَّاكش. انظر: «الموسوعة المغربية» ٤/ ٣٠٣. وهو: أحمد بن عبدالرحمٰن، أبو العباس، التَّادلي الفاسي المغربي المالكي، نزيل المدينة، توفي سنة ٧٤١هـ. «الديباج المذهب» ص٨١، «المغانم المطابة» ٣/ ١١٧٥. وستأتي ترجمته عند المؤلف.

خَلَّفَ وَلَداً مُبارَكاً نَجِيباً مُشْتَغِلاً بالعِلْمِ وَحَصَّلَ وانْتَفَعَ وَقَامَ بِبِرِّ والِدِهِ بَعْدَ وفاتِهِ، فَخَلَّصَ ذِمَّتَهُ مِن أَشياءَ كَانتْ عَلَيهِ وَلَمْ يُوصِ بِهَا، فَأَدَّاهَا مَعَ عَجزِهِ [١٠٥/ ب] وَضَعْفِهِ، نَفَعَهُ اللهُ بنيَّتِهِ وَأَعَانَهُ عَلَى فِعْلِ الخَيرَاتِ.

تُوُفِّيَ وَالِدُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ أربعٍ وخمسينَ وسبعِمِئَة.

وَأَمَّا الشّيخُ **إبراهيمُ المِكْنَاسيُّ**، فَكَانَ وَالِدُهُ مِن أَصحابِ الشَّيخِ أبي مُحَمَّدٍ البَسْكَريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذٰلك، وَكَانَ إبراهيمُ عَلَى طريقةٍ حَسَنةٍ ودِيانةٍ وعُزلةٍ، وَكَانَ حَافِظاً لِكِتَابِ الله تَعالى، صَيِّتاً حَسَنَ الصَّوتِ والأَدَاءِ، وَكَانَ مِنَ القُرَّاءِ في سُبْعِ ابنِ السَّلْعُوسِ، وَمِن أَحسَنِهِم مُراسَلَةً ومُوَافَقةً للجماعَةِ، وخَلَّفَ أولاداً نُجباءَ قُرَّاءَ مُشتغِلِينَ بالعِلْمِ، عَاشُوا بَينَ النّاسِ بِعِفَّتِهِم وعَقلِهِم وصيانَتِهِم، وأَعْلَاهُم منزلةً في ذٰلك الفقيهُ عبدُالله(١)، وَلَهُ وَرَعٌ ودِيَانَةٌ واشتغَالٌ بالعلمِ.

تُوُفِّيَ والدُهُم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ سَبعٍ وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ.

وأَمَّا الشّيخُ **أبو عبدالله البَسْكريُّ**(٢) فكَانَ مِنَ المشايخِ الصُّلَحاءِ الأخيارِ، مُكِبًّا عَلَى الاشتغالِ بالعلمِ والعملِ، كثيرَ العبادةِ والعُزْلَةِ.

وكَانَ مِن أَعيانِ جماعَتِنَا في الدَّرْسِ، وَكَانَ هُوَ قَارِئَ الدَّولَةِ في «التَّهذِيبِ»، واشتغلَ وَحَصَّلَ وَكَتَبَ بِخَطِّهِ كَثيراً، وخَلَّفَ وَلَداً مُبَارَكاً.

---

(١) عبدالله بن إبراهيم بن محمد، البدر أبو محمد ابن أبي إسحاق، المكناسي أبوه، المدني هو، المالكي. «التحفة» ٣/ ٤٣٢.

(٢) محمد أبو عبد الله البسكري المالكي، ذكره السخاوي في «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٠٦٢) نقلا عن المؤلف.

وأمَّا الشَّيخُ الصَّالِحُ **أبو الحَسَنِ عليٌّ** وأَخُوهُ **أَبو عبدالله مُحَمَّدٌ السَّلاويَّانِ** فكَانَا عَلَى قَدَمٍ عَظِيمٍ في العِفَّةِ والدِّيانَةِ والانْقِطَاعِ عَن النَّاسِ، وكَانَ الشَّيخُ عليٌّ مُشْتَغِلاً بالعِلْمِ، وَلَهُ مَحفُوظاتٌ في فُنُونٍ مِنَ العِلْمِ.

وَكَانَ أخوهُ مُحَمَّدٌ كَثيرَ الدِّيانَةِ والصَّلاحِ، وكَانَ يَشْتَغِلُ بالخِيَاطَةِ ويَنْتَفِعُ(١) بما يَفْتَحُ اللهُ تَعَالى عَلَيهِ فيها، وَكَانَا عَلَى قَدَمِ الشُّيوخِ الَّذِينَ ذكرنَاهُم أوَّلاً.

ولهما عَقِبٌ صَالِحٌ نَشَؤُوا في عِبادةِ الله تَعَالى، والاشتغالِ بالعلمِ والتَّبهدُلِ في الطَّرِيقَةِ، والعِفَّةِ وحُسْنِ السَّرِيرَةِ، والانْقِطَاعِ عَن النَّاسِ، وفَّقَهُم اللهُ تَعَالى وأَعَانَهُم.

وكَانَ مِن إخوانِنَا وأَصْهَارِنَا: الشَّيخُ **شِهَابُ الدِّينِ أَحْمَدُ بنُ بالغٍ المِصْرِيُّ**(٢)، [١٠٦/ أ] كَانَ مِن أَكرَمِ النَّاسِ وأَحسَنِهِم خُلُقاً، وأَبذَلِهِم لِمَا في يدِهِ، وأحبِّهم في الاجتماعِ بالأصحابِ وَلَو غرمَ عَلَيهم المِئِينَ مِنَ المالِ، وكَانَ يسعى في دُنياهُ بِتَعَفُّفٍ ودينٍ وَرِضىً بِمَا قُدِّرَ وقُسِمَ، وكَانَ يَخدِمُ الشّريفةَ زينبَ زوجةَ الأميرِ منصورٍ(٣)، فيذهبُ في وَسَطِ السَّنَةِ إلى العِرَاقِ لِيَقْبِضَ حَوالَةً كَانَتْ لَهَا، ويتَسَبَّبُ لِنَفْسِهِ ويَنْتَفِعُ بِمَا يَفْتَحُ اللهُ تَعالى عَلَيهِ، ويجلِسُ مُجَاوِراً في سُكُونٍ لا يَتكَلَّمُ إلّا بخيرٍ، ولا يَسْعَى إلّا في خيرٍ، حَتَّى يَقِلَّ مَا في يَدِهِ، فَيُسَافِرُ ويُسَلِّمُهُ اللهُ تَعَالى.

---

(١) في (أ) و(ب): «ويتقنع».

(٢) «المغانم المطابة» ٣/ ١١٦٣، «التحفة» ١/ ٣٠٧.

(٣) «التحفة» ترجمة (٥٣١٠) نقلاً عن المؤلف.

ولَقَدْ مَرَرتُ عَلَيهِ يوماً في الموسمِ وَهُوَ جالسٌ في وَسَطِ الحَرَمِ وَهُوَ ينظرُ في النَّاسِ، فَقُلتُ لَهُ: مِثْلُكَ يَجلسُ في هٰذا الوقتِ، ولا يَسْعَى في مصالِحِهِ، والموسمُ تُغتَنَمُ أيامُهُ.

فَقَالَ: واللهِ مَالي فِيهِ حَاجَةٌ، وَلَا مَعي مَا أُتْعِبُ نفسي فِيهِ، اجلسْ مَعِيَ حَتَّى نَتفرَّجَ عَلَى سعي النَّاس فيما لا يفيدُهُم.

قُلتُ لَهُ: وَمَا ذَاكَ؟

قَالَ: انظرْ إلى بعضِ النَّاسِ يَدخلُ مِن هٰذا البابِ بِجِدٍّ واجتِهادٍ، حَتَّى أَقُولَ: هُوَ في شُغْلٍ عَظيمٍ، فَإِذَا وَصَلَ إلى البابِ الآخَرِ رَجَعَ عَلَى عَقِبِهِ، ثُمَّ يَذْهَبُ إلى البابِ الآخرِ، ثُمَّ يرجعُ.

فَقُلتُ لَهُ: مَا خَبَرُكَ؟

فَقَالَ: واللهِ مَا لي هُناكَ شيءٌ أَطلُبُهُ، غيرَ أَنَّ نفسي لا تَدَعُني أَستَقِرُّ.

وقُلتُ لَهُ يوماً: يا شهابَ الدِّينِ، لِمَ لَا تشتري لأولادِكَ دَاراً ونَخْلاً، يَكونُ لهم سِتْراً مِن بَعدكَ؟ وكَانتْ تَحْتَهُ خَالتي الشّريفَةُ مُبارَكَةُ[١] بنتُ الشَّيخِ عبدالواحدِ الشَّريفِ الحُسَينِيِّ.

فَقَالَ لي: تكونُ تَعلَمُ أَنّي أَتحقَّقُ أَنَّ زوجَتِي تَتَزَوَّجُ بَعدِي، وَأَنَّ ابْنَتِي تَتَزَوَّجُ، وَأَمَّا وَلَدِي فَلَهُ اللهُ تَعالى؛ إنْ كَانَ شَقِيًّا فلا يَنْفَعُهُ مَا أترُكُهُ، وإنْ كَانَ سعيداً فَلا يَضُرُّهُ أَلّا أَترُكَ لَهُ شيئاً.

ثُمَّ اشترى لَهُم دَاراً ونَخْلاً، فَكَانَ الأمرُ مِن بَعْدِهِ كَمَا قَالَ سواءً؛

---

(١) «التحفة» ترجمة (٥٤٢٨) نقلاً عن المؤلف.

تَزَوَّجَتْ [١٠٦/ ب] المرأةُ، ثُمَّ تَزَوَّجَتِ البنتُ بِأخي عليٍّ فَسُعِدَتْ مَعَهُ، وولدَتْ مِنْهُ أولادَهُ النُّجَبَاءَ.

وَأَمَّا ولدُهُ شمسُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ[١] فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا تَرَكَهُ لَهُ، بَلْ اتَّفَقَ جميعُهُم عَلَى بيعِهِ، وسَافَرَ ولدُهُ إلى البلادِ، وفتحَ اللهُ عَلَيهِ وتزوَّجَ وَوَلَدَ الأولادَ، وعاشَ بغيرِ مَا تركَ لَهُ والدُهُ.

وَكَانَ مِن أَعْقَلِ النَّاسِ وَأَحْسَنِهِم خَلْقاً وخُلُقاً، وَأَجْمَلِهِم صُحبةً، وَكَانَ قارِئاً حَسَنَ الصَّوتِ، وَكَانَ الشَّيخُ شِهابُ الدِّينِ مِنَ الشيوخِ العَارِفينَ الَّذينَ في كلامِهِم عِظَةٌ للمُتَّعِظِينَ.

وتُوُفِّيَ شهابُ الدِّينِ في سنةِ تِسعَ عَشْرَةَ وسبعِمئَةٍ، وَتُوُفِّيَ وَلدُهُ مُحَمَّدٌ في سنةِ إحدى وخمسينَ وسبعِمِئَة، رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

وَكَانَ مِن إخوانِنَا: **شمسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بنُ عبدالعزيزِ الجَبَرتيُّ**[٢].

تَقَدَّمَ ذِكرُ والدِهِ في صَدرِ الكتابِ، وَكَانَ شمسُ الدِّينِ عَلَى بِرٍّ وصَدَقَةٍ وإحسانٍ إلى النَّاسِ، وإيثارٍ للفُقَراءِ، وَكَانَ مِن رُؤَسَاءِ المدينةِ وأجاويدِهَا، ذَا هِمَّةٍ عَلِيَّةٍ، ومُروءَةٍ سَنِيَّةٍ، وَكَانَ مِمَّنْ يُرجَعُ إليهِ في الرَّأيِ.

صَحِبَ بَعْدَ والدِهِ أُمَرَاءَ مِصْرَ، وَأَخَصَّهُم بِهِ المَلكُ نائبُ السَّلْطَنَة، فأحسَنُوا إليهِ وَوَلَّوهُ؛ لِمَا وَجَدُوا فيهِ مِنَ الدِّيانَةِ والخِدْمَةِ وحِفْظِ المَوَدَّةِ، وَكَانَ يقضِي حوائجَ النَّاسِ بِمَا في يدِهِ وبِمَا هُوَ عِنْدَ غَيْرِه، وَيَسعى في تَحْصِيلِهِ وَلَو يَرْهَنُ مِن حُلِيِّ عِيَالِهِ كَرَاهَةَ أَن يَرْجِعَ سائِلُهُ خَلِيًّا.

---

(١) محمد بن أحمد بن بالغ المصري. «التحفة» ٥/ ٣٦٥.

(٢) «التحفة» ٦/ ٣٠٦.

وَكَانَ مَشهُوراً بالذِّكْرِ الجَمِيلِ، وَوَلِيَ شَهادَةَ الحَرَمِ الشَّريفِ، والنَّظَرَ عَلَى جميعِ مَا يَأتيهِ مِنَ الحَوَاصِلِ، وَمَا يَنْشَأُ فيهِ مِنَ العَمارَاتِ، والنَّظَرَ عَلَى المِيضَأَةِ التي عَلَى بابِ السَّلامِ الَّتِي أَنشأَهَا السُّلطَانُ المَلِكُ المَنْصُورُ قَلاوُونَ [١٠٧/ أ] الصَّالِحيُّ في سنةِ ستٍّ وثمانينَ وستِّمِئَة.

وكَانَ إليهِ المَرجِعُ في جميعِ الآراءِ الصَّادِرَةِ عَن شُيوخِ الحَرَمِ الشَّرِيفِ، وَمَلَكَ الأملاكَ الحفيلةَ مِنَ النخيلِ والدُّورِ، قَلَّ مَنْ نَالَ مِن أولادِ المُجاوِرينَ مِثلَهُ.

وخَلَّفَ أولاداً نُجَباءَ، أنجبُهُم وأعقلُهُم وأرأَسُهُم ولدُهُ الكبيرُ، سُمِّيَ باسْمِ جَدِّهِ عبدالعزيزِ[١]، وبَاشَرَ وظَائِفَ والدِهِ، وقَامَ مَقامَهُ في الحِفَاظَةِ والنَّباهَةِ، والكَيَاسَةِ والمُروءَةِ، وسِياسَةِ النَّاسِ ولِينِ الجانبِ.

تُوُفِّيَ شمسُ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ في سنةِ خمسٍ وستينَ وسبعِمِئَة.

وكَانَ مِن قُدماءِ المُجاوِرينَ وَذَوي العَقْلِ والرَّأيِ مِنْهُم: الشّيخُ **أَحْمَدُ السَّقَّا**[٢]، كَانَ أَوَّلَ دُخُولِهِ المدينةَ يَتَسَبَّبُ بِسَقْيِ الماءِ مِنَ العَينِ، ثُمَّ أغناهُ اللهُ عَن ذٰلك، فَعاشَ بعقلِهِ بَينَ النَّاسِ، وَرَأَسَ حَتَّى كَانَ وزيرَ الأشرافِ.

وكَانَ أميناً حافظاً، وكَانَ مُتواضِعاً لا يَسْتَنْكِفُ عَن عَمَلٍ يَعودُ نفعُهُ عَلَى نفسِهِ وعيالِهِ، ورُبَّما خَرَجَ إلى البَرِّ فيأتي عَلَى دوابٍّ بِمَا يَحتَاجُ إليهِ مِن حَشِيشٍ وحَطَبٍ، وغَيْرِ ذٰلك.

خَلَّفَ ذُرِّيَّةً صالحةً ذُكُوراً وإِنَاثاً، فَمِن أولادِهِ:

---

(١) «التحفة» ٤/ ٣٨٧.

(٢) أحمد بن عبدالعزيز المدني السقا. «التحفة» ١/ ٣٣٧

عَلَمُ الدِّينِ سُليمانُ[١]، رَأسَ بَينَ إخوانِهِ، قَارِئاً خَدُوماً للإخوانِ، تَوَلَّى نَظَرَ الرُّبُطِ والأوقَافِ مِنَ النَّخِيلِ وغَيرِهَا، فَلَمْ يُرَ أَحسنُ مِنهُ قياماً بِهَا، مَعَ العِفَّةِ والنُصْحِ، وعَمَّرَ رُبُطاً كثيرةً كَانتْ قَدْ أَشرفَتْ عَلَى الخَرَابِ، وَقَلَّ أَن يُشْبِهَهُ أَحَدٌ مِن أبناءِ جِنْسِهِ فِي حُسْنِ طَرِيقَتِهِ وَصَفَاءِ طَوِيَّتِهِ ودِيَانَتِهِ، أَعانَهُ اللهُ تَعَالى.

وَكَانَ مِن أولادِ المدينةِ مِن نَسلِ المُجَاوِرِينَ المشاكِير جماعَةٌ كَثِيرَةٌ فُضَلاءُ، أَصلُهُم مِن مَكَّةَ، يُنْسَبونَ إلى قُريشٍ، وَكَانَ جَدُّهُم [١٠٧/ب] اسمُهُ **مشكورٌ**، أَدْرَكتُ ولَدَهُ عُبَيداً[٢] مُؤذِّناً بالحَرَمِ الشَّرِيفِ، وَكَانَ اسمَهُ **عبدُالرَّحمٰنِ**، وَكَانَ لَهُ إخوةٌ أَحَدُهُم حَسَنُ بنُ مشكورٍ[٣]، والآخرُ أَحْمَدُ ابنُ مشكورٍ[٤]، وعَليُّ بنُ مشكورٍ.

فَأَمَّا عبدُالرَّحمٰنِ فخَلَّفَ مُحَمَّداً وَعَليًّا ومشكوراً.

وأَمَّا نورُ الدِّينِ عَليٌّ[٥] فَحَازَ مِنَ المناصبِ أَجَلَّهَا، وَكَانَ مِن فُضَلاءِ الشَّافِعِيَّةِ، وَوَلِيَ شَهادَةَ الحَرَمِ الشّرِيفِ وَوِزَارةَ أَمِيرِ المدينةِ.

وَكَانَ كَاتِباً نِحْرِيراً فقيهاً فَهِماً فَطِناً، تَبَتَّلَ آخِرَ عُمرِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَى العبادةِ والوَرَعِ حَتَّى لَقِيَ اللهَ تَعَالى، وخلَّفَ أولاداً مُبَارَكِينَ نُجَباءَ، مَشغولِينَ بالعلمِ؛ أوسطُهُم المُسَمَّى بِاسْمِ جَدِّهِ عبدالرَّحمٰنِ[٦]، وَفَّقَهُمُ اللهُ تَعَالى.

---

(١) سليمان بن أحمد بن عبدالعزيز، أبو الربيع. «التحفة» ٣/ ٢٠٠.

(٢) «التحفة» ٤/ ٣١٤.

(٣) «التحفة» ٢/ ٣٣١.

(٤) «التحفة» ١/ ٤٥٤.

(٥) عليُّ بنُ عبدالرحمٰن بنِ مشكورٍ، نورُ الدِّين. «التحفة» ٥/ ١٤٦.

(٦) هو عبدالرحمٰن بنُ عليِّ بن عبدالرَّحمٰن بنِ مشكورٍ. «التحفة» ٤/ ٢٨٠.

وأَمَّا مُحَمَّدٌ[(١)] فقَرَأَ وجَوَّدَ، ورأَسَ، وأعقَبَ وَلَداً نَجِيباً مُشْتَغِلاً بالعلمِ، مُخَالِطاً للرُّؤساءِ، ذا عَقْلٍ ودِيانَةٍ وحُسْنِ مُدارَاةٍ للخَلْقِ، وكَانَ غَالبُ المشاكيرِ يَتَسَبَّبُونَ بالعِطَارةِ.

تُوُفِّيَ عُبيدُ بنُ مشكورٍ في سنةِ سبعِمِئَةٍ، وولدُهُ مُحَمَّدٌ في حُدودِ تسعٍ وعشرينَ وسبعِمِئَةٍ، وولدُهُ عليٌّ في سنةِ أربعٍ وأربعين وسبعِمِئَةٍ، وأخوه مشكورٌ في سنةِ ثلاثٍ وخمسينَ وسبعِمِئَةٍ، وعمُّهُم حَسَنٌ في سنةِ ثلاثٍ وأربعين وسبعِمِئَةٍ، وخلَّفَ ولداً ارتحلَ إلى بعضِ قُرى الشامِ ورأسَ فيها.

وأمَّا عليُّ بنُ مشكورٍ فَخَلَّفَ ولَدَهُ يوسُفَ[(٢)]، وانتقلتْ ذرِّيَّتُهُ إلى وادي الصَّفْراءِ، وهُمُ اليومَ بِهَا.

وكَانَ مِن أَولادِ المدينةِ أَيْضاً وَمَشَاهِيرِ بيوتِهم الشَّكِيلِيُّونَ، أَصْلُهُم أيضاً مِن مَكّةَ، جَدُّهُم **مَسعُودٌ النَّجَّارُ**[(٣)]، أَسَنَّ حَتَّى اخْتَلَطَ، وَكَانَ قَدْ تَأَثَّلَ[(٤)] مَالاً مِن نخيلٍ ودُورٍ، وَكَانَ زَرَّاعاً مُبْخَتاً[(٥)] في التِّجَارَةِ، وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ صالِحةٌ مِن أولادٍ، وأولادِ أولادٍ كُلُّهُم قُرَّاءُ.

أَنْجَبُ أولادِهِ الفقيهُ حَسَنٌ[(٦)]، خلَّفَ أولاداً وأولادَ أولادٍ [١٠٨/أ] كُلُّهُم قُرَّاءُ، وَكَانَ قَدْ اشتغلَ بالفقهِ والنَّحوِ، وشَارَكَ في غيرِ ذٰلك.

---

(١) هو محمَّدُ بنُ عبدالرحمٰن بنِ مشكورٍ. «التحفة» ٦/ ٢٨٢.

(٢) «التحفة» ترجمة (٤٧٢٠) نقلاً عن المؤلف.

(٣) «التحفة» ترجمة (٤١٥٦) نقلاً عن المؤلف.

(٤) أي: اكتسب وصار صاحب ثروة. «لسان العرب»: أثل.

(٥) البَخْتُ: الجَدُّ والحَظُّ، مُعَرَّبٌ، أي: صاحب حظٍ وجدّ في التجارة. «لسان العرب»: بخت.

(٦) الحسن بن مسعود الشكيلي. «التحفة» ٢/ ٣٣١ نقلاً عن المؤلف.

وكَانَ وَلَدُهُ مُحَمَّدُ بنُ حَسَنٍ[١] مُشتَغِلاً بالعلمِ، مُؤَذِّناً بالحَرَمِ الشَّرِيفِ، تُوُفِّيَ سنةَ خمسين وسبعِمِئَةٍ.

وَبَقِيَ اليومَ ولَدُهُ أَحْمَدُ[٢] هُوَ مِن جُمْلَةِ المُؤَذِّنِينَ أَيْضاً، وَيَتْلُوهُ حَسَنٌ في الفَضِيلَةِ، وَيَزِيدُ عَلَيهِ في أَشْياءَ أَخُوهُ عبدالله[٣]، رَأسَ في زَمَانِهِ وَكَانَ صِهرَ القَاضي سِرَاجِ الدِّينِ، وَكَانَ أَسَنَّ أَولادِهِ مُحَمَّدُ بنُ مسعودٍ، وُلِدَ لَهُ حُمَيدَانُ وَحُسَينٌ.

فَأَمَّا حُمَيدانُ[٤] فَكَانَ قَارِئاً رَئِيساً، وَوَلِيَ الحِسْبَةَ في أيامِ وُدَيٍّ في سنةِ سبعٍ وثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ، وَكَانَ لَهُ هَيْبَةٌ وَهِمَّةٌ، وَحُسْنُ سِياسَةٍ، وكَثُرَ مالُهُ، وعَمَّرَ المغسَلَةَ[٥] مِن أملاكِهِ، وَلَمْ يَطُلْ عُمرُهُ.

تُوُفِّيَ سنةَ خمسٍ وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ.

وأَمَّا حُسينٌ[٦] فَكَانَ قَارِئاً مُجَوِّداً حَسَنَ الصَّوتِ، لَمْ يُسمَعْ أَصوَتُ مِنْهُ، ولا أَحَسَنُ قراءَةً، وغالِبُ الشَّكِيلِيِّينَ كَانُوا قُرَّاءَ في سُبعِ ابنِ السَّلْعُوسِ، وكَانُوا يَتَسَبَّبُونَ بالعِطَارَةِ.

---

(١) محَمَّدُ بنُ الحسن بنِ مسعودٍ الشَّكيليُّ. «التحفة» ٦/ ١٣٦ نقلاً عن المؤلف.

(٢) أحمد بن مسعود الشكيلي. «التحفة» ١/ ٤٥٤ نقلاً عن المؤلف.

(٣) عبدالله بن مسعود الشكيلي. «التحفة» ٤/ ١٤٠ نقلاً عن المؤلف.

(٤) حميدان بن محمد بن مسعود الشكيلي. «التحفة» ٢/ ٣٨٩ نقلاً عن المؤلف.

(٥) من حدائق المدينة جنوب العنبرية باتجاه قباء، وتسمَّى المغيسلة. «المدينة بين الماضي والحاضر» ص١٧٤.

(٦) حسين بن محمد بن مسعود الشكيلي. «التحفة» ٢/ ٣٥٤ نقلاً عن المؤلف.

وَكَانَ مِن أَولادِ مَسْعودٍ: الفقيهُ عُلَيَّانُ[١]، مُشتَغِلاً بمذهبِ أبي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَكَانَ رَجُلاً دَيِّناً مُنْعزِلاً عَنِ النَّاسِ، مُتَسبِّباً في العِطَارَةِ وغَيرِهَا عَلَى طَرِيقةٍ حَسَنَةٍ.

وَمِن إخوانِهِ: مُبَارَكُ بنُ مَسْعودٍ[٢]، كَانَ زَرَّاعاً عَلَى طَريقةِ جَدِّهِ، ولِكُلٍّ مِنْهُم عَقِبٌ صَالِحٌ، مُشْتَغِلُونَ بِأَنْفُسِهِم[٣]، وسَدِّ خَلَّتِهِم[٤]، مُتَقَنِّعُونَ في دُنْياهُم، رَحِمَ الله مَنْ خَلَّفَهُم.

وَكَانَ بالمدينةِ مِن أَهْلِ الخيرِ والصَّلاحِ جَمَاعَةٌ مِنَ البَكْرِيِّينَ، يُنْسَبُونَ إلى سيِّدِنَا أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، كَانُوا أَمَنَةً للخُدَّامِ والمُجَاوِرِينَ، لَهُم حكاياتٌ حَسَنَةٌ وَمَنَاقِبُ كَثيرَةٌ، وَكَانُوا يُسَمَّونَ بالخلفانِ، أَبَادَهُمُ [١٠٨/ ب] الدَّهرُ، لَمْ يَبْقَ مِنْهُم اليومَ في المدينةِ بَشَرٌ، وارتحلَ بعضُهم إلى مِصْرَ فَأَقَامُوا بِهَا وتَنَاسَلُوا فيها.

وَكَانَ بالمدينةِ مِنْهُم شَخْصٌ يُقَالُ لَهُ: جَمَالُ الدِّينِ، وَكَانَ لَهُ صُورةٌ جميلةٌ، وأفعالٌ جليلةٌ، وكَانَ الشَّيخُ أبو عبدالله القَصْريُّ إِذَا رَآهُ يقولُ: ينبَغِي أَن يُزَوَّجَ هٰذا زوجتينِ وثَلاثاً، ويُعانَ عَلَى ذٰلك حَتَّى يَكونَ لَهُ بالمدينةِ ذُرِّيَّةٌ بَكْرِيَّةٌ.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وخَلَّفَ بِنْتاً، فتَزَوَّجَتْ ثُمَّ تُوُفِّيَتْ، رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

---

(١) عليان بن مسعود الشكيلي. «التحفة» ٥/ ٩٥.

(٢) مبارك بن مسعود الشكيلي. «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٩٩.

(٣) في (أ) تكرار في الحاشية لما في الأصل من أول قول ابن فرحون: «ومن أولاد المدينة ومشاهير بيوتهم الشكليون» إلى قوله: «مشتغلون بأنفسهم». وأيضاً إضافة وشرح في الحاشية لبيت الحميداني نقله من كتاب «تحفة المحبِّين والأصحاب فيما للمدنيِّين من الأنساب».

(٤) الخَلَّةُ: الحاجَةُ والفَقْرُ. «القاموس المحيط»: خلل.

وَكَانَ بالمدينةِ جَماعَةٌ مِنَ العُمَرِيِّينَ يُنسَبُونَ إلى سيِّدِنا عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وَكَانُوا جَماعَةً كَثيرةً، لَهُم شَوكةٌ وحُرْمَةٌ، وكَلِمَةٌ نَافِذَةٌ، وكَانُوا أَهْلَ حِشْمَةٍ وخَيلٍ وعَبِيدٍ وأَتباعٍ، وَلَهُم بالمدينةِ أَملاكٌ عظيمةٌ، وَكَانُوا نُصرَةً لأهلِ السُّنَّةِ، مُخْتَلِطِينَ بالخُدَّام والمجاوِرِينَ، وَكَانُوا حَسَنَةَ زمانِهِم وزِينَةَ وقْتِهِم، وَكَانَ جَمَالُ الدِّينِ المَطرِيُّ بِهِم خَصِيصاً.

وكَانَ شَيْخَهُم **عَلِيُّ بنُ مُطَرِّفٍ**[1]، قُتِلَ شهيداً مَخْنُوقاً في المدينةِ المُشَرَّفَةِ، ولَهُ قِصَّةٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا، وَذٰلك في سنةِ ثمانٍ وعشرينَ وسبعِمِئَةٍ.

كَانَ لنا مِنْهُم الأخُ الصالحُ المُقرئ الفقيهُ الحَنَفِيُّ **عِزُّ الدِّينِ حَسَنُ**[2] **ابنُ يَعْلَى العُمَرِيُّ**[3] رَحِمَهُٱللَّهُ.

كَانَ في الحقيقةِ حَسَنَةَ أهلِ زمانِهِ مِنْهُم، مُنْعَطِفاً عَلَى قِراءةِ القُرآنِ، وعَلَى صُحْبَةِ الإخوانِ والنَّصيحةِ [لَهُم][4]، والقيامِ بواجبِ الشَّرعِ، والتَّعَصُّبِ عَلَى أَهْلِ الشَّرِّ والبِدَعِ، رَحِمَهُ الله تَعَالى وَغَفَرَ لَهُ.

خَلَّفَ ذُرِّيَّةً صالحةً، كُلُّهُم قَرَأَ القُرآنَ وَجَوَّدَهُ واشتغَلَ بالعلمِ.

تُوُفِّيَ سنةَ سِتٍّ[5] وسبعِمِئَةٍ، رحمهُ الله تَعَالى.

---

(١) علي بن مطرف، نور الدين، شيخ العمريِّين، كان من خواصِّ أمير المدينة وُدَيّ بن جمَّاز، فلمَّا آلت الإمرة إلى طُفيل أوقع بابن مطرف وذويه. «الدرر الكامنة» ٣/ ١٢٩، «التحفة اللطيفة» ٥/ ١٨٥.

(٢) في (الأصل) و(ج): «علي»، والمثبت من (أ) و(ب) كما في «التحفة» ٢/ ٣٣١.

(٣) «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٣١.

(٤) ما بين المعقوفتين من (أ) و(ب) و«التحفة».

(٥) في الأصل: «ستين»، والمثبت من باقي النسخ و«التحفة».

وَكَانَ فِي المدينةِ جَمَاعةٌ مِن ذُرِّيَّةِ الأنصارِ، لَهُم حارَةٌ يَسكُنُونَهَا وَحْدَهُم [١٠٩/ أ]، مِنْهُم: **عبدُالله الحَاذِي**[١].

كَانَتْ جَدَّتِي لأُمِّي مِنْهُم، وَكَانَ الحُذَاةُ اسمَ عَلَمٍ عَلَيهِم، فَإِذَا قِيلَ: فُلانٌ مِنَ الحُذَاةِ، عُلِمَ أَنَّهُ مِن ذُرِّيَّةِ الأنصارِ، وَكَانَتْ تَحْكِي عَنْ أَيامِهَا وأَهْلِهَا غَرَائِبَ مِن سَلامةِ الباطنِ والسَّذَاجَةِ[٢] والتَّعَفُّفِ الَّذِي [لَمْ][٣] يُسْمَعْ مِثلُهُ عَن أجدادِهِم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ. وَكَانَتْ قَدْ أَسَنَّتْ وَعُمِّرَتْ، مُمَتَّعَةً بِسَمْعِهَا وبَصَرِهَا حَتَّى جَاوزتِ المِئَةَ أو قريباً مِنْهَا، والله أعلمُ.

أَخبرتني عَن أخٍ لَهَا أَنَّهُ دَخَلَ بيتَهُ بالمدينةِ فَوَجَدَ حَيَّةً مُنْطَوِيَةً عَلَى بيتِ الطَّهَارَةِ، فضرَبَهَا فقتلَهَا، فَلَمْ يَخْرُجْ مِن مَوضِعِهِ حَتَّى سَقَطَ سَقْفُ البيتِ عَلَيه فَماتَ.

وهٰذه القِصَّةُ شَبَهُ قِصَّةِ الأنصاريِّ الَّتِي جَرَتْ يومَ الخَنْدَقِ فِي زَمنِ النَّبيِّ ﷺ[٤].

وَكَانَتْ قَدْ أَدْرَكَتِ النَّارَ[٥] الَّتِي خَرَجَتْ شَرْقِيَّ المدينةِ، وَكَانَتْ تَحْكِي

(١) «التحفة اللطيفة» ٤/ ١٧٨ نقلاً عن المؤلف.

(٢) أي: البساطة. «لسان العرب»: سذج.

(٣) ما بين المعقوفتين من (أ) و(ب).

(٤) رواه مالك في «الموطأ» كتاب الاستئذان، باب ما جاء في قتل الحيات، رقم (١٧٦١)، ومن طريقه مسلمٌ في «صحيحه» كتاب السلام، باب قتل الحيات، رقم (٢٢٣٦) من حديث أبي سعيد الخُدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٥) كان ذٰلك سنة ٦٥٤هـ. انظر: «الذيل على الرَّوضتين» ص١٩٠، و«التعريف بما أنست الهجرة» ص٦٠، و«تحقيق النصرة» ٦٩، ١٩٠، و«المغانم المطابة» ٢/ ٤٦٩.

لنَا عَنْهَا عجائبَ، وكَانتْ تُحدِّثُنَا أيضاً عَن حريقِ الحَرَمِ الشّريفِ[١].

تُوُفِّيتْ رَحِمَهَاٱللَّهُ في سنةِ تِسْعٍ وثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ[٢].

فأَمَّا ظُهُورُ النَّارِ فكَانتْ آيةً عَظِيمَةً، فيها تَصدِيقٌ لِمَا في «الصَّحِيحَينِ» مِنْ حَدِيثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعةُ حَتَّى تَخْرُجَ نارٌ مِن أَرْضِ الحِجَازِ تُضِيءُ لَهَا أَعْنَاقُ الإبلِ بِبُصْرَى[٣]»[٤].

فمِن ذٰلك كِتَابُ القاضي شَمسِ الدِّينِ سِنانَ بنِ عبدالوهابِ بنِ نُمَيلةَ الحُسَينيِّ[٥] قاضي المدينَةِ يومَئِذٍ، كَتَبَهُ إلى بعضِ أصحابِهِ[٦]، قَالَ:

لَمَّا كَانَ ليلةَ الأربعاءِ ثالثَ شهرِ جُمَادَى الآخِرَةِ أَحَدِ شُهُورِ سنةِ أربعٍ وخمسينَ وستِّمِئَةٍ، حَدَثَ في المدينةِ في الثُّلُثِ الأخيرِ مِنَ الليلِ زَلْزَلَةٌ عَظيمَةٌ أَشفقْنَا مِنْهَا، وباتتْ بَاقي تِلكَ اللَّيلَةِ تُزَلزِلُ، ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ تُزَلْزِلُ كُلَّ يومٍ وليلةٍ مِقدارَ عَشْرِ مَرَّاتٍ، وَذَكَرَ بعضُهُم في كتابِهِ: أربعَ عَشْرَةَ مَرَّةً.

---

(١) وذٰلك أول شهر رمضان سنة ٦٥٤هـ. انظر: «الذيل على الروضتين» ١٩٤، و«التعريف» ص٢٧، و«البداية والنهاية» ٧/ ٢٠٥.

(٢) في (ب): «تسع وسبعمئة».

(٣) بُصرَى: كانت مدينة حوران، وهي في منتصف المسافة بين عَمَّان ودمشق، وهي اليوم آثار قرب مدينة درعا السُّورية على القرب من الحُدود الأردنية. «معجم المعالم» ص٤٤.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الفتن، باب خروج النار (٧١١٨)، ومسلم في كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز (٢٩٠٢).

(٥) «التحفة اللطيفة» ٣/ ٢٣٩. وستأتي ترجمته في فصل القضاة.

(٦) انظر خبر هٰذه النار بالتفصيل في: «البداية والنهاية» ١٣/ ٢١٩-٢٢٥، و«المغانم المطابة» ٢/ ٤٦٩.

قَالَ: واللهِ لَقَدْ زَلْزَلَتْ مَرَّةً ونَحْنُ حَولَ الحُجْرةِ الشَّرِيفَةِ اضطربَ لهَا المنبرُ، إلى أَن سَمِعْنا مِنْهُ صَوتاً للحَدِيدِ الَّذِي فِيهِ.

قُلتُ: وَكَانَ المنبرُ عَلَى غَيرِ هٰذه الصِّفَةِ اليومَ.

واضطَرَبَتْ قَنادِيلُ الحَرَمِ الشَّرِيفِ.

وَزَادَ القَاشَانيُّ[١]: ثُمَّ في اليوم الثالثِ - وَهُوَ يومُ الجمعةِ - زَلزَلَتْ زَلزَلَةٌ عَظيمةٌ إلى أَنِ اضْطَرَبَ مَنَارُ[٢] المَسْجِدِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَسُمِعَ لِسَقْفِ المَسْجِدِ صَرِيرٌ عَظيمٌ.

ثُمَّ بَعْدَ ذٰلك انْقَطَعَتِ الزَّلازِلُ، وانبَجَسَتْ[٣] مِنَ الأرضِ نارٌ عَظِيمَةٌ، كَانَ ابتداؤُهَا مِثْلَ مسجدِ رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ تَزايَدَتْ حَتَّى صَارَتْ مثل المدينةِ العظيمةِ، وَمَا ظهرتْ لأهلِ المدينةِ إلّا ليلةَ السَّبتِ، فأشفقُوا مِنْهَا إشفاقاً عظيماً.

قَالَ القاضي سِنَانُ: وطلعتُ إلى الأميرِ، وَكَانَ عِزَّ الدِّينِ منيفَ بنَ شِيحةَ[٤]، وقُلتُ لَهُ: قَدْ أَحَاطَ بِنَا العذابُ، ارجعْ إلى الله تَعَالى.

فَأَعْتَقَ كُلَّ مَمَالِيكِهِ، وَرَدَّ عَلَى النَّاسِ مَظَالِمَهُم.

زادَ القَاشانيّ: وَأَبْطَلَ المَكْسَ[٥].

---

(١) القاشاني ممَّن كتب رسالةً في وصف نار المدينة كما ذكر أبو شامة. وانظر: «التحفة اللطيفة» ترجمة (٥٠٨٦) نقلاً عن المؤلف.

(٢) في الأصل و(أ) و(ب): «منام»، وفي (ج): «منامات». والمثبت من «البداية والنهاية» ١٣/ ٢٢٢.

(٣) أي: خرجت وانفجرت.

(٤) أميرُ المدينة، وجدُّ المنايفةِ. «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٢٩٦) نقلاً عن المؤلف.

(٥) المَكْسُ: الضريبة التي يأْخذها الماكِسُ. «لسان العرب»: مكس.

قَالَ سنانُ: [١١٠/أ] ثُمَّ قُلتُ للأميرِ: انزلْ إلى النَّبيِّ ﷺ، فَهَبَطَ.

وبِتْنَا في المسجدِ ليلةَ الجُمعةِ، وليلةَ السبتِ ومَعَنَا جَمِيعُ أَهْلِ المدينةِ، حَتَّى النِّسَاءُ والصِّغارُ، وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ في النَّخيلِ إلَّا جَاءَ إلى الحَرَمِ الشَّرِيفِ، وَبَاتَ النَّاسُ يَتَضَرَّعُونَ ويَبْكُونَ ويُصَلُّونَ، وَأَحَاطُوا بالحُجْرَةِ الشَّرِيفَةِ، كاشِفِينَ رُؤُوسَهُم، وَأَقَرُّوا بِذُنُوبِهِم، وابْتَهَلُوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، واسْتَجَارُوا بِنَبِيِّهِ ﷺ[١]، وَأَخْلَصُوا إلى الله، وتَابَ كُلُّ مَنْ في المدينةِ.

ثُمَّ ظَهَرَتْ النَّارُ لَهَا أَلْسُنٌ تَصْعَدُ إلى السَّماءِ أَكْثَرَ مِن عُلُوِّ ثَلاثِ مَنَائِرَ، ثُمَّ ظَهَرَ لَهَا دُخَانٌ عظيمٌ في السَّماءِ يَنْعَقِدُ حَتَّى يَصيرَ كالسَّحَابِ الأبيضِ، وَبَقيتِ السَّماءُ كالعَلَقَةِ، والنَّاسُ في مِثْلِ ضَوءِ القَمَرِ وأَلْسِنَةُ النَّارِ جَمْرٌ طالِعَةٌ تَظْهرُ في اللَّيلِ مِثلَ المَشَاعِلِ.

وأَيقَنَ النَّاسُ بالهلاكِ، وبَقِيتْ عَلَى حَالِهَا تَلْتَهِبُ التهاباً عَظيماً وَهِي كالجَبَلِ العظيمِ وَكَالمَدِينةِ عَرْضاً، وَيَخْرُجُ مِن وَسَطِهَا مُهُودٌ[٢] وجبالُ نِيرَانٍ تَصعَدُ في السَّماءِ ثُمَّ تَهوِي فيها، ثُمَّ تَخرُجُ كَذٰلك ثُمَّ تَعُودُ، وَحِسُّهُ كَالرَّعْدِ.

وبَقِيتْ كَذٰلك أياماً، ثُمَّ سَالتْ سَيْلاً ناراً في وَادِي أُحَيْلِيَيْنِ[٣]، وَمَوضِعُها شَرقِيَّ المدينةِ بالحَرَّةِ وَرَاء قُرَيْظَةَ[٤] عَلَى طَرِيقِ السُّوارِقِيَّةِ مَسيرَةً مِن الصُّبحِ إلى الظُّهرِ، وَتَزَايَدَ ذٰلك السَّيْلُ مِنَ النَّارِ وَسَدَّ الطَرِيقَ.

---

(١) تقدَّم الكلام على التوسُّل بالنبيِّ ﷺ. راجع ص٨٧.

(٢) المهود: جمع مُهْدٍ، وهو النشر من الأرض. «القاموس»: مهد. لٰكن المراد هنا صخر ذائب كما نبَّه المؤلف ص٣٠٧.

(٣) وادي الأُحَيْلِيَيْن: في الحرَّة الشرقية. انظر: «المغانم المطابة» ٢/ ٤٦٩.

(٤) قُرَيْظَة: مَنَازِلُ يهود بني قُرَيْظَة، وتقع في حيِّ العوالي، وقد حاصرهم النبيُّ ﷺ في الموضع المعروف بمسجد بني قُريظة. «المساجد الأثرية» ص١٧٣.

ثُمَّ طَلَعَ إلى الحَرَّةِ[١] وَهُوَ بَحرُ نارٍ يَجرِي، وَفَوقَهُ حَرَّةٌ تَسِيلُ إلى أَن قَطَعَتْ وَادِي الشَّظَاةِ[٢]، وَسَدَّتْ طريقَ الماءِ، والحِجَارَةُ مَعَ النَّارِ تَتَحَرَّكُ وَتَسيرُ وَهِي تَأْكُلُ الحجارَةَ وتُذِيبُهَا، ثُمَّ صَارَ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حِجَارَةٌ تَرمِي بِهَا خلفَهَا وأمامَهَا، حَتَّى بَنَتْ لَهَا جَبَلَينِ خَلفَهَا وأَمَامَهَا، ولِذٰلك انْسَدَّ طريقُ الماءِ.

وَلَهَا صَوتٌ عَظيمٌ مِن آخِرِ الليلِ إلى ضَحْوَةِ النَّهارِ، ثُمَّ [١١٠/ ب] انْحَدَرَ ذٰلك السَّيلُ مَعَ وَادِي الشَّظاةِ حَتَّى حَاذَى جَبَلَ أُحُدٍ، وكَادَتْ تُقارِبُ حَرَّةَ العُرَيضِ[٣]، وَخَافَ النَّاسُ مِنْهَا خَوفاً عَظِيماً، وَوَجِلَتِ القلوبُ.

ثُمَّ سَكَنَ قَتِيرُهَا[٤] الَّذِي يَلِي المدينَةَ، وطُفِيَتْ مِمَّا يلي العُرَيضَ بِقُدرةِ الله تَعَالى.

وَرَجعتْ تَسِيرُ في الشَّرقِ، واسْتَمَرَّ عِظَمُهَا وزِيَادَتُهَا في تِلكَ الحِرَارِ، وَهِي تَرمِي بِشَرَرٍ كَالقَصْرِ، وَتَأْكُلُ الأرضَ والحجارةَ.

وَذَكَرَ جَمَالُ الدِّينِ المَطَرِيُّ[٥]: أَنَّ عِزَّ الدِّينِ سِنْجَرَ[٦] أَخبَرَهُ أَنَّ الأميرَ

(١) في الأصل: حرة الحاج، والتصويب من باقي النسخ.
(٢) الشّظاةُ: صدرُ وادِي قناة، إذا تجاوز سدّ العاقول، سُمِّي الشّظاة إلى أن يقبل على أُحُد، فالشّظاةُ وقناةُ يُسمّى اليوم: وادِي العيون، وقد يُسمّى أعلاه وادِي العاقول، وإذا اجتمعت أودِية المدِينة سُمِّي «الخليل». «معجم معالم الحجاز» ٥/ ٥٣، «الدر الثمين» ص١٥٧.
(٣) تقع في الشمال الشرقي من المدينة. انظر: «المغانم المطابة» ٣/ ٩٣٩.
(٤) قَتَرَتِ النارُ: دَخَّنَت. «اللسان»: قتر.
(٥) «التعريف» ص٦٠.
(٦) علم الدِّين سنجر العزي، من عُتقاء الأمير عزِّ الدين منيف بن شيحة. «المغانم» ٢/ ٤٧٣، «التحفة اللطيفة» ٣/ ٢٤٠.

مُنِيفَ بنَ شيحةَ بَعَثَهُ يَكشِفُ خبَرَهَا، فقَرُبَ مِنْهَا، فَلَمْ يَجِدْ لَهَا حَرًّا ولا أَلَماً، وَرَآهَا تَأكلُ الحجرَ دُونَ الشَّجَرِ[١].

وَذَكَرَ أَنَّهُ وَضَعَ فيها سَهْماً فَوَقَعَ فيها النَّصْلُ وَلَمْ يَتَغَيَّرِ العُودُ، وَأَنَّهُ أَدَارَ السَّهْمَ فَاحْتَرَقَ الرِّيشُ فَقَطْ[٢].

وَقُدِّرَ طُولُ ذٰلك الوادِي النَّار بأربعةِ فَرَاسِخَ وَعَرضُهُ أَربعةُ أَميالٍ، وَعُمْقُهُ قامةٌ ونصفُ قامةٍ، وَهُوَ يجري عَلَى وَجهِ الأرضِ، وَيَخرجُ مِنْهُ مِهادٌ وجِبَالٌ صِغارٌ فتَسِيرُ عَلَى الأرضِ، وَهُوَ صَخْرٌ يَذُوبُ حَتَّى يَبْقَى مِثْلَ الآنُكِ[٣]، فَإِذَا جَمدَ صَارَ أَسودَ، وَقبلَ الجُمودِ لَونُهُ أَحْمَرُ.

وَأَمَّا أُمُّ النَّارِ الكبيرةُ فهي جبالُ نِيرانٍ حُمْرٍ، والأمُّ الكبيرةُ الَّتِي سَالَتِ النِّيرَانُ مِنْهَا مِن عِنْدِ قُرَيظَةَ، وَكَانَ ضَوْؤُهَا يُرَى بِمَكَّةَ المُشَرَّفَةِ، والشَّمْسُ والقَمَرُ مِن يَومِ طَلَعَتْ مَا يَطلُعَانِ إلّا كاسِفَينِ.

قَالَ العَلَّامَةُ أَبوشامةَ[٤]: وَظَهَرَ عِنْدَنَا بِدمشق أَثَرُ ذٰلك الكُسُوفِ مِن ضَعْفِ نُورِهَا عَلَى الحيطانِ، وَكُنّا حَيَارَى مِن سببِ ذٰلك، إلى أَن بَلَغَنا الخَبرُ عَن هٰذه النَّارِ.

---

(١) قال المطري في «التعريف» ص٦١: «وظهر لي معنى أنها كانت تأكل الحجر ولا تأكل الشجر: أنّ ذٰلك لتحريم الرسول ﷺ شجر المدينة، فمُنعت من أكل شجرها إكراماً له ﷺ، ولوجوب طاعته ﷺ على كلِّ مخلوقٍ».

(٢) «المغانم» ٢/ ٤٧٣.

(٣) الآنك: الرَّصاص. «اللسان»: أنك.

(٤) عبدالرَّحمٰن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدِّمشقي، أبو القاسم، شهاب الدِّين، أبو شامة، من كبار المحدِّثين المؤرِّخين، له عدة مصنَّفات، توفي سنة ٦٦٥هـ. «وفيات الأعيان» ١/ ٢٧٨.

وَكُلُّ مَنْ ذَكرَ هٰذه النَّارَ يَقولُ في آخِرِ كلامِه: وَلا أَقدرُ أَشرَحُ وصفَهَا عَلَى الكمالِ. وَقَالَ سنانٌ في آخرِ كتابِهِ: وَمَا أقدِرُ أَصِفُ [١١١/ أ] عِظَمَهَا، وَمَا فيها مِنَ الأهوالِ.

قَالَ القاشانيُّ: وَكَتبتُ هٰذا الكتابَ ولها شهرٌ في مكانِهَا مَا تَتَقَدَّمُ ولا تَتَأَخَّرُ.

وَذَكَرَ جَمَالُ الدِّينِ المطريُّ: أَنَّهَا بَقِيَتْ ثلاثةَ أَشْهُرٍ.

وَمِمَّا قِيلَ في هٰذه النَّارِ(١):

يَا كَاشِفَ الضُّرِّ صَفْحاً عَن جَرَائِمِنَا
لَقَدْ أَحَاطَتْ بِنَا يَا ربِّ بأساءُ
نَشْكُو إليكَ خُطُوباً لا نُطيقُ لَهَا
حَمْلاً وَنَحْنُ بِهَا حقاً أَحِقَّاءُ
زَلازِلٌ تَخْشَعُ الصُّمُّ الصِّلابُ لَهَا
وَكَيفَ تَقْوَى عَلَى الزِّلزَالِ شَمَّاءُ(٢)
أَقَامَ سَبْعاً يَرُجُّ الأَرْضَ فَانْصَدَعَتْ
عَن مَنْظَرٍ مِنْهُ عَيْنُ الشَّمْسِ عَشواءُ(٣)

(١) القصيدة في «الذيل على الروضتين» ص١٩٣ بأطول مما هنا، وفي «المغانم المطابة» ٢/ ٤٧٠.

(٢) في الأصل: «زلازلاً»، والمثبت من باقي النسخ و«الذيل» ص١٩٣، و«المغانم» ٢/ ٤٧٠.

(٣) هٰذا البيت والذي قبله في «الذيل» و«المغانم» هٰكذا:

أقام سبعاً يرج الأرض فانصدعت ... وكيف تقوى على الزلزال شمَّاءُ
زلازلٌ تخشع الصُّمُّ الصلابُ لها ... عن منظرٍ منه عينُ الشمس غبراءُ

بحـــرٌ مِـــنَ النَّـــارِ تَجْرِي فوقَـــهُ سُـــفُنٌ
مِـــنَ الهِـــضَابِ لَهَـــا في الأرضِ إرْسَـــاءُ
كَأَنَّما فَـــــوقَهُ الأجْبَـــــالُ طَـــــافِيَةً
مَـــوجٌ عَـــلَاهُ لِفَـــرطِ الهَـــيجِ غُثَّـــاءُ[(١)]
تَرْمِـــي لَـــــهَا شَرَراً كَالقَـــصْرِ طَائِـــشَةً
كَأَنَّـــــهَا دِيـــمةٌ تـنــصبُّ هَطْـــلاءُ[(٢)]
مِنْهَـــا تكَـــاثَفَ في الجـــوِّ الـــدخانُ إلى
أَنْ عَـــادَتِ الـــشمسُ مِنْـــهُ وَهْـــيَ دَهْمَـــاءُ
قَـــدْ أَثَّـــرْت سَـــفْعَةً في البَـــدْرِ لَفْـــحَتُها
فَـــلَيلَةُ التِّـــمِّ بَعْـــدَ النُّـــورِ لَيْـــلَاءُ[(٣)]
فَيَـــا لَـــــهَا آيَـــةٌ مِـــن مُعْجِـــزَاتِ رَسُـــو
لِ الله يَـعْقِلُهَـــــا القَـــــومُ الأَلِبَّـــــاءُ[(٤)]

وفي هٰذه السَّنةِ أصابَ بغدادَ غَرَقٌ عظيمٌ، حَتَّى دَخَلَ الماءُ مِن أسوارِ بغداد إلى البلدِ، وغَرِقَ كَثيرٌ مِنَ البَلَدِ، ودَخَلَ الماءُ دارَ الخلافةِ، وانْهَدَمَتْ

---

(١) هٰذا البيت والذي قبله زيادة ليست في «المغانم». والهيج: الهيجان. والغُثاء: ما يعلو السَّيل من الزَّبد والوسخ وما لا قيمة له. «لسان العرب»: غثا.

(٢) في «الذيل» و«المغانم»: «ترى» بدل «ترمي».
والدِّيمَةُ - بالكسر -: مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق. «القاموس»: دوم.

(٣) السَّفعة: الضربة. «القاموس»: سفع. وليلة التِّمِّ: أطول ليالي الشتاء. «القاموس»: تمم.

(٤) هٰذا البيت ليس في «المغانم».

دارُ الوزيرِ وثلاثُ مِئَةٍ وثمانونَ داراً، وتَلِفَ مِن خزانَةِ السلاحِ شيءٌ كثيرٌ، وأَشرفَ النَّاسُ عَلَى الهلاكِ، وعَادَتْ السُّفُنُ تَدخلُ إلى وَسَطِ البلدِ وتَخْرِقُ أزِقَّةَ بغدادَ.

وفي السَّنَةِ الثانيةِ أَخَذَتِ التَّتَارُ بغدادَ، وانقطعتِ الخِلافةُ مِن بغداد[1].

وفي ذٰلك يَقُولُ العَلَّامَةُ أبو شَامةَ[2]:

بَعْـدَ سِـتٍّ مِـنَ المِئِينَ وَخَمْـسِيـ ـنَ لـدَى أَرْبَـعٍ جَـرَى في العـامِ
[١١١/ب] نارُ أرضِ الحِجَازِ مَعْ حَرَقِ المسـ ـجـدِ مَـعْ تَغْرِيـقِ دَارٍ للـسَّلامِ
ثُـمَّ أخْـذُ التَّتَـارِ بغـدادَ في أوْ وَلِ عَـامٍ مِـن بَعْـدِ ذَاكَ بِعَـامِ
لـم يُعَـنْ أَهْلُهَـا وللكُفْـرِ أَعْـوَا نٌ عَلَـيهِم يَـا ضَـيْعَةَ الإسـلامِ[3]
وانْقَـضَتْ دَولَـةُ الخِلافَـةِ مِنْهَـا صَـارَ مُستعْـصِمٌ بِغَـيرِ اعْتِـصَامِ[4]

وأَمَّا حَرِيقُ المسجدِ الشَّرِيفِ[5]، فكَانَ أَوَّلُهُ أَوَّلَ لَيلَةٍ مِن شَهْرِ رَمَضَانَ مِن هٰذه السَّنَةِ المذكورةِ، وكَانَتْ ليلةَ الجُمعةِ، وكَانَ ابتداءُ حَرِيقِهِ مِن زاوِيَتِهِ الغربيةِ مِنَ الشَّمَالِ، وذٰلك أَنَّ بَعْضَ الفَرَّاشِينَ دَخَلَ إلى خِزانةٍ ثَمَّ، وَمَعَهُ نَارٌ فَعَلِقَتْ في آلاتٍ ثَمَّ وَأَعْجَزَهُ طَفْيُهَا.

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» ١٣/ ٢٢٢.

(٢) «الذيل على الروضتين» ص١٩٤.

(٣) في «الذيل»، و«المغانم» ٢/ ٤٧١: «والكفر» بدل «وللكفر». وفيهما: «ضَعْفَة» بدل «ضيعة».

(٤) في «الذيل» و«المغانم»: «فيها» بدل «منها».
والمراد بالمستعصم: آخر الخلفاء العباسيِّين في العراق، المستعصم بالله عبدالله بن المستنصر بالله، قُتل سنة ٦٥٦هـ.

(٥) تُنظر قصة الحريق في: «الذيل على الروضتين» ص١٩٤، و«التعريف» ص٢٧، و«البداية والنهاية» ٧/ ٢٠٥، و«عقد الجمان» ١/ ١٢٨، و«النجوم الزاهرة» ٧/ ٣٦.

وَنَقَلَ جَمَالُ الدِّينِ المَطَرِيُّ[١] أَنَّهُ احْتَرَقَ فيها[٢]، ثمَّ اتَّصَلَتِ النَّارُ بالسَّقْفِ بِسُرعَةٍ وَدَبَّتْ في السُّقُوفِ آخِذَةً قِبْلَةً، فَأَعْجَلَتِ النَّاسَ عَن قَطْعِهَا، بَعْدَ أَن نَزَلَ الأميرُ[٣] واجْتَمَعَ مَعَهُ غَالِبُ أَهْلِ المدينةِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى قَطْعِهَا، وَمَا كَانَ إلّا ساعةٌ حَتَّى احْتَرَقَتْ سُقُوفُ المسجدِ جَمِيعُهَا، وَوَقَعَ بَعْضُ أَسَاطِينِهِ، وَذَابَ رَصَاصُهَا، وَاحْتَرَقَ سَقْفُ الحُجرةِ النَّبَويةِ صَلَّى اللهُ عَلَى سَاكِنِهَا وَسَلَّم، وَوَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْهُ فِي الحُجرةِ عَلَى القُبورِ الشَّرِيفَةِ، وَكُلُّ ذٰلك قَبْلَ أَن يَنامَ النَّاسُ، وَأَصْبَحَ النَّاسُ يومَ الجُمُعَةِ فَعَزَلُوا مَوضِعاً للصَّلاةِ.

وَكُتِبَ بِذٰلك إلى الخَلِيفَةِ المُسْتَعْصِمِ بالله[٤] أبي أَحْمَدَ عبدالله ابنِ المُسْتَنْصِرِ بالله أبي جَعْفَرِ المَنْصُورِ، فَبَعَثَ الصُّنَّاعَ والآلاتِ مع الموسمِ، وابْتُدِئَ في عِمَارَتِهِ في أَوَّلِ سنةِ خمسٍ وخمسين وستِّمِئَة.

فَلَمَّا شَرَعُوا في العمارةِ لَمْ يجْتَرِؤُوا عَلَى النُّزُولِ إلى القُبورِ المُقَدَّسَةِ وَكَنْسِ مَا عَلَيها، فكاتَبُوا الخليفةَ المذكورَ في ذٰلك، [١١٢/ أ] فَلَمْ يَرُدَّ في ذٰلك جَوَاباً؛ لاشتغَالِهِ بالتَّتَارِ واستيلائِهم عَلَى أعْمَالِ بغداد في تِلْكَ السَّنَةِ[٥].

---

(١) انظر «التعريف» ص٢٧.

(٢) يعني الفرَّاش المذكور آنفاً.

(٣) كان أمير المدينة في ذٰلك الوقت الشريف منيف بن شيحة، ستأتي ترجمته.

(٤) هو آخر خلفاء بني العباس بالعراق، وُلد سنة ٦٠٩هـ، وبويع بالخلافة سنة ٦٤٠هـ، وقُتل سنة ٦٥٦هـ وله ٤٧ سنةً. «سير أعلام النبلاء» ٢٣/ ١٧٤، «البداية والنهاية» ٧/ ٢١٧.

(٥) كان استيلاءُ التتار على بغداد بقيادة هولاكو في المحرَّم من سنة ٦٥٦هـ، فقُتل الخليفة وكثيرٌ من أهلها. وسيذكر المؤلِّف قريباً خبر التتار ودخولهم بغداد بالتفصيل. وانظر: «البداية والنهاية» ٧/ ٢١٣، و«عِقد الجمان» ١/ ١٦٧.

فأبقوا ذٰلك عَلَى حَالِهِ، وَعَمَّرُوا سَقْفَ الحُجرَةِ وَمَا حولَهَا إلى بَابِ جبريلَ وإلى القِبلَةِ، وَسَقْفَ الرَّوْضَةِ الشَّرِيفَةِ إلى المِنْبَرِ.

ثُمَّ كَانتْ وَقْعَةُ التَّتَارِ[1] وَدُخُولُهم بغدادَ في شَهْرِ المُحَرَّمِ أَوَّلِ شُهورِ سَنَةِ سِتٍّ وخَمْسِينَ، فَقُتِلَ الخليفةُ المذكورُ[2].

ثُمَّ وَصَلَتِ الآلاتُ مِن مِصْرَ فَعَمَّرُوا بِهَا، وَكَانَ المُتَوَلِّيَ عَلَيهَا المَلِكُ المَنْصُورُ نُورُ الدِّينِ عليٌّ[3] ابنُ المُعِزِّ أَيْبَكَ الصَّالحيُّ، وَوَصَلَ مِن صَاحبِ اليَمَنِ آلاتٌ وأخشابٌ، وَهُوَ الملكُ المُظَفَّرُ[4]، وَعَمِلَ مِنْبَرًا وَأَرسلَهُ في سنةِ سِتٍّ وخمسينَ، وَلَمْ يَزَلْ يُخْطَبُ عَلَيهِ إلى سنةِ سِتٍّ وستينَ وستِّمِئَةٍ، فَأَمَرَ الملكُ الظَّاهِرُ[5] بإزَالَتِهِ وأَرسلَ هٰذا المنبرَ الموجودَ اليومَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكرُ الشَّيخِ أبي بَكرٍ النَّجارِ الَّذِي وَضَعَ هٰذا المنبرَ الشَّريفَ مَعَ صُنَّاعٍ مَعَهُ.

---

(١) في الأصل و(أ) وقعة بغداد، والمثبت من (ب) و(ج).

(٢) انظر تفاصيل استيلاء التتار على بغداد وقتل الخليفة في «البداية والنهاية» ١٣/ ٢٣٣-٢٣٨.

(٣) نور الدين علي بن الملك المعز عز الدين أيبك الصالحي التركي التركماني، أصبح سلطاناً وله ١٥ سنةً بعد قتل والده سنة ٦٥٥هـ، ثم عزله سيف الدين قُطُز لصغر سنه ولمداهمة التتار البلاد أواخر سنة ٦٥٧هـ. «سير أعلام النبلاء» ٢٣/ ٣٨١، «البداية والنهاية» ٧/ ٢١١، «النجوم الزاهرة» ٧/ ٥٥.

(٤) يوسف بن عمر بن علي بن رسول التركماني الأصل، شمس الدين، صاحب بلاد اليمن، ملك نحواً من سبعٍ وأربعين سنةً، مات مسموماً سنة ٦٩٤هـ، وقد جاوز الثمانين. البداية والنهاية ٧/ ٣٦١، النجوم الزاهرة ٨/ ٧٣.

(٥) أي: الظاهر بيبرس، سيأتي ذكره.

وفي سنةِ ثمانٍ وخمسينَ وستِّمِئةٍ تَوَلّى مَلِكُ مِصْرَ والشامِ المَلِكُ الظَّاهِرُ رُكْنُ الدِّينِ بِيبَرسُ الصَّالِحِيُّ(١)، فكَمَّلَ في أيامِهِ بَاقِي المسجدِ الشَّريفِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيهِ قَبْلَ الحريقِ، رَحمةُ الله عَلَيه، وَكَانَ ابتداءُ العمارةِ(٢) في سنةِ ثلاثٍ وسِتِّينَ، ففَرَغَ في أربعِ سنينَ(٣).

وَأَنْشَدَ الإمامُ العَلّامَةُ أبو شَامةَ لبعضِهِم:

لَمْ يَحْتَرِقْ حَرَمُ النَّبِي لِحَادِثٍ ... يُخْشَى عَلَيهِ وَلا دَهَاهُ العَارُ
لٰكنَّهَا أيدي الرَّوَافِضِ لَامَسَتْ ... تِلكَ الرُّسُومَ فطَهَّرَتْهَا النَّارُ(٤)

وَسأذكرُ طَرَفاً مِن وَقعةِ التّتارِ إِذْ تَكَرَّرَ ذِكْرُهَا استطراداً، وَتَلخيصُ مَا وَقَعَ: أَنَّ وزيرَ المُستعصِمِ مؤيَّدَ الدِّينِ مُحَمَّدَ بنَ مُحَمَّدِ بنِ العَلقَمِيِّ(٥)

---

(١) بيبرس بن عبدالله الأيوبي التركي، الظاهر، ركن الدِّين، البُنْدُقْداري، الصالحي، النجمي، وُلد سنة ٦٢٠هـ، كان من قوّاد جيوش قُطُز في معركة عين جالوت، وتولى المُلك بعده، اهتمَّ بعمارة المسجد النبويِّ بعد حريقه، ووضع على الحُجرة النبوية درابزيناً من خشب، وهو المقصورة. انظر: «المغانم المطابة» ٢/ ٤٥٤، و«النجوم الزاهرة» ٧/ ٩٤.

(٢) في «المغانم المطابة» ٢/ ٤٥٤: أنه حصل منه اهتمامٌ في سنة اثنتين وستين بتمام عمارة الحرم الشريف النبويّ.

(٣) في (أ) و(ب): «أربع وستين»، وفي الأصل في المتن: «أربع وستين»، وما أثبته من حاشية الأصل.

(٤) في (أ) و(ب) و(ج): «ذاك الجناب فطهرته النار».
وجاء البيت الثاني في «الذيل على الروضتين» ١٩٤، وفي «المغانم» ٢/ ٤٥٢ هٰكذا:
لٰكنّما أيدي الرّوافضِ لامستْ ... ذاكَ الجنابَ فطهَّرته النارُ

(٥) محمد بن أحمد بن علي، أبو طالب، الأسدي البغدادي، المعروف بابن العلقمي: وزير المستعصم العباسي. مات ببغداد سنة ٦٥٦هـ. انظر: «السُّلوك» للمقريزي ١/ ٣٢٠، و«البداية والنهاية» ١٣/ ٢٤٦.

الرَّافِضِيّ كَانَ بَيْنَهُ [١١٢/ ب] وبَيْنَ أبي بَكرِ بنِ المُستعصِمِ والدوادَارِ(١) عداوةٌ عظيمةٌ؛ لأذِيَّتِهمَا لإخوانِهِ الرَّافضةِ، وَنَهْبِ مَحلَّتِهم المُسَمَّاةِ بالكَرْخِ(٢)، فكَاتَبَ التَّتَارَ وَحَرَّضَهُم عَلَى قَصْدِ بغداد؛ لأجلِ مَا جَرَى عَلَى الرَّافضةِ مِنَ النَّهْبِ والخِزْيِ، فَظَنَّ المخذُولُ أنَّ الأمرَ يَتِمُّ لَهُ وَأَنَّهُ يُقيمُ خليفَةً عَلَوِيًّا.

فَأَرْسَلَ أَخُوهُ إلى هُولاكُو، وسَهَّلَ عَلَيهِ أَخْذَ بغداد، [وَطَلَبَ أَنْ يَكُونَ نَائِباً لهُم عَلَيهَا، فَوَعَدَهُ بِذلك.

ثُمَّ سَارُوا وَنَزَلُوا عَلَى بغداد](٣)، فَأَشَارَ ابنُ العَلقَمِيِّ [عَلَى المُستعصِمِ باللهِ](٤) أنِّي أخرجُ إليهِم في تقريرِ الصُّلحِ، فَخَرَجَ الخبيثُ وتَوَثَّقَ لِنَفْسِهِ ثُمَّ رَجَعَ.

فَقَالَ للمُستعصِمِ: إنَّ الملكَ هُولاكُو قَدْ رَغِبَ في أَن يُزَوِّجَ بنتَهُ بابنِكَ الأميرِ أبي بَكرٍ، وَأَن تكونَ الطاعةُ لَهُ، كَمَا كَانَ أجدادُكَ مَعَ المُلوكِ السَّلْجُوقِيَّةِ، ثُمَّ يَرْحَلُ عَنْكَ.

فَأَجابَهُ الخليفةُ إلى ذلك، وَخَرجَ إليهِ الخليفةُ في أعيانِ الدَّولةِ،

---

(١) الدوادار الصغير: مجاهد الدِّين أيبك، هو الذي خذّل الخليفة عن إرسال هدايا سَنية لهولاكو، وأشار هو وغيرُه بأن يبعث بشيءٍ يسير، فأرسل شيئاً من الهدايا فاحتقرها هولاكوخان، وأرسل إلى الخليفة يَطلُب منه دويداره، فلم يبعثه إليه. «البداية والنهاية» ١٣/ ٢٠٠.
والدوادار: هو صاحب الدواة، أي كاتب الرسائل. «معجم الألفاظ التاريخية» ص٧٩.

(٢) الكَرْخُ: عدّة مواضع منها إلى كرخ سامرة، ومنها: كرخ بغداد، وهي محلة بالجانب الغربي منها. «معجم البلدان» ٤/ ٤٤٧.

(٣) ما بين المعقوفتين زيادة من باقي النسخ.

(٤) ما بين القوسين من (ج).

ثُمَّ اسْتَدعَى الوزيرُ العُلماءَ والوزراءَ والرُّؤسَاءَ ليحضُروا العَقْدَ بزعْمِهِ، فخَرَجُوا إليهم فضُربَتْ أعناقُهُم، وَصَارَ يَبعثُ إلى طائفةٍ بَعْدَ طائفةٍ، فَتُضرَبُ أعناقُهُم، حَتَّى بقيتِ الرَّعِيَّةُ بلا رَاعٍ! ثُمَّ أَمَرَ هُولاكُو بالمُستعصمِ وولدِهِ أبي بَكرٍ فَرُفِسَا حَتَّى مَاتَا، ثُمَّ حِينئِذٍ دَخَلتْ التّتَارُ بغدادَ، وَبَذلُوا السَّيفَ، واستمرَّ القتلُ والسَّبيُ نيِّفاً وثلاثينَ يوماً، فَقَلَّ مَنْ نَجا.

وَيُقَالُ: إنَّ هُولاكُو أَمَرَ بِعَدِّ القتلَى، فبَلَغُوا ألفَ ألفٍ وثمانِمِئَةَ ألفٍ وكَسرٍ، فَعِنْدَ ذٰلك نُودِي بالأمَانِ[1].

ثُمَّ هَلَكَ ابنُ العَلقَمِيِّ في السَّنَةِ المذكورةِ قَبْلَ شَهْرِ رَجَبٍ[2]، وَخَيَّبَ اللهُ أَمَلَهُ، وانعكسَتْ عَلَيهِ آرَاؤُهُ، وَأَكَلَ يَدَهُ نَدَماً، فَإِنَّهُ بَعْدَ تَلكَ الرُّتبَةِ الرَّفيعَةِ ووزارةِ العِراقِ مُنفرِداً أَربَعَ عشرة سنةً وَلِيَ وزارةَ التتارِ مُشارِكاً لغَيْرِهِ، وانْحطَّتْ رُتبَتُهُ حَتَّى كَانَ يَركَبُ أكديشاً[3]، وَكَانَ ذَا حِقْدٍ [١١٣/أ] وَغِلٍّ عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ.

وَكَانَ المُستعصِمُ آخِرَ الخُلفاءِ العراقيِّينَ، وَكَانَتْ دولَتُهُم خَمسَمِئَةِ سنةٍ وأربعاً وعشرينَ سنةً، وَكَانَ هٰذا الخَليفةُ حَلِيماً كَرِيماً سليمَ الباطنِ، قَليلَ الرَّأي، حَسَنَ الدِّيَانَةِ، لٰكنَّهُ كَانَ لا يَخرُجُ عَن رأي ابنِ العَلقَمِيِّ، وَبَقِي الوقتُ بلا خليفةٍ ثلاثَ سنينَ.

---

(١) قيل: ثمانمئة ألف، وقيل: ألف ألف وثمانمئة ألف، وقيل: بلغت القتلى ألفي ألف نفس. «البداية والنهاية» ١٣/ ٢٣٥.

(٢) في «البداية والنهاية» ١٣/ ٢٤٦: «مات في مستهَل جمادى الآخرة». وفي «مآثر الإنافة» ٢/ ٩٢: واستبقى هولاكو الوزير ابن العلقمي مدّة يسيرةً في الوزارة ثمَّ قتله.

(٣) أكديش: الكديش: الفرس غير الأصيلة، وهي مُحْدَثة. «المعجم الوسيط»: كدش.

هٰذه نُبذةٌ مِن وَقْعَةِ التَّتَارِ لا يَسعُ هٰذا المُخْتَصَرَ ذِكرُ تفاصيلِهَا، وَقَدْ خرجنَا بذكرِ هٰذه[١] الأشياءِ عَن المقصودِ، لٰكنْ لفوائِدَ تَتَشَوَّقُ النُّفوسُ إليها، وَتَتِمُّ الفائدةُ بالوقوفِ عَلَيها، ولْنَرْجِعْ إلى مَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ فَأَقُولُ:

وكَانَ للحَرَمِ الشَّرِيفِ أُبَّهَةٌ عَظِيمَةٌ ومَنْظَرٌ بهيٌّ؛ كُنْتَ إِذَا دَخلتَ المسجدَ الشَّرِيفَ وَجدتَ الرَّوضَةَ الشَّرِيفَةَ قَدْ غَصَّتْ بالمشايخِ المُعتبرِينَ، مثلِ الشَّيخِ أبي مُحَمَّدٍ البَسْكرِيِّ، والشّيخِ عبدالواحدِ الجزوليِّ، والشّيخِ عِزِّ الدِّين الزَّرَنْدِيِّ، والشّيخ أبي بكرٍ الشِيرَازِيِّ، والشّيخِ أبي العَبّاسِ ابنِ الشَّريفِ أَحْمَدَ الخُراسانِيِّ، والشّيخِ عليٍّ الوَاسِطِيِّ، والشّيخِ أبي الرَّبِيعِ سُلَيْمَانَ الغمارِيِّ، والشّيخِ أبي عبدالله بنِ حُرَيثٍ، والشّيخِ أبي عبدالله القَصْريِّ، وجَمَالِ الدِّينِ المَطَرِيِّ، وَعبدالله الحمدانيِّ[٢]، وجماعةِ الخُدَّامِ الَّذِينَ تقدَّمَ ذِكرُهُم، ومثلُ هٰؤلاءِ السّادَاتِ كثيرٌ.

وكَانَ في صَحْنِ المسجدِ الشَّرِيفِ صُفوفٌ عَلَيهَا جَلالَةٌ ومَهابَةٌ وخَفارةٌ[٣]، يَسْتَحِي الإنسانُ أَن يَمُرَّ بَيْنَ أيدِيهِم.

كَانَ في وَسَطِ الحَرَم صَفٌّ للقُرشيِّينَ الجَمَالِيِّينَ والصُّحَيْنَاتِيِّينَ؛ شيوخاً حِساناً بِشَيباتٍ حَسَنَةٍ، مُبَيِّضِينَ ثِيابَهُم، يُحَنِّكُونَ[٤] عَمائِمَهُم، عَلَيهم هيبةٌ وسُكونٌ ووَقَارٌ.

---

(١) في الأصل: «بهٰذه»، والمثبت من باقي النسخ.

(٢) عبدالله الحمداني، ذكره السخاوي في «التحفة اللطيفة» ٤/ ١٧٨، وقال: «أدرجه ابن فرحون في الشيوخ المعتبرين الذين لهم جلالة».

(٣) الخفارة: شِدَّةُ الحياء. «لسان العرب»: خفر.

(٤) تَحَنَّكَ: أدارَ العِمامةَ من تحتِ حَنَكِه. «القاموس»: حنك.

مِنْهُم: **جَمالُ الدِّينِ الْقُرَشِيُّ** جَدُّهُم الكبيرُ، وحُسينٌ القُرشيُّ، وَأَحْمَدُ القُرَشِيُّ، وأُولادُهُم وأَولادُ أولادِهِم، مِثْلُ يعقوبَ [١١٣/ ب] بنِ جمالِ الدِّينِ، ويُوسُفَ بنِ جمالٍ، وَكَانَ يجلسُ إليهِم جماعةٌ حالُهُم مِثْلُ حالِهِم.

وصَفٌّ آخَرُ دُونهم للبَصْرِيِّينَ والجَزَرِيِّينَ[١].

وصفٌّ للعُمَرِيِّينَ آخَرُ، كَانَ شيخُهُم نُورُ الدِّينِ عليُّ بنُ مُطَرِّفٍ يجلسُ وعَن يَمِينِهِ ويسارِهِ أكابِرُ العُمَرِيِّينَ ومشايِخُهُم، ذوو أُبهةٍ وهَيبةٍ وصُوَرٍ جميلةٍ.

ثُمَّ صفٌّ آخَرُ للمشايخِ مِنَ الفقراءِ المُتَنَسِّكِينَ المُتَجاوِرِينَ في رِبَاطاتِهِم.

كَانَ شُيوخُ العَجَمِ عَلَى حِدَةٍ، وشيوخُ المغارِبَةِ عَلَى حِدَةٍ.

وصَفٌّ آخَرُ للخُدَّامِ المخبزين عَلَى نَسَقِ مَا تَقَدَّمَ مِن هيئاتِهِم وصِفَاتِهِم، كَأَنَّ تِلكَ الصُّفوفَ سراجٌ[٢] مِن نُورِهِم وجلالَتِهِم.

وكَانَ في الرِّواقِ الشَّرقِيِّ جماعةٌ مِن أعيانِ الفَرَّاشِينَ مِن أَهلِ الخيرِ والصَّلاحِ وعِظَمِ المَنْزِلَةِ.

مِنْهُم: الشّيخُ **عليُّ الفَرَّاشُ**[٣]، كَانَ مِنَ الفُقَراءِ الجيادِ المُجَرَّدِينَ، لَهُ روايةٌ وسماعٌ قَدِيمٌ، وسَمِعَ النَّاسُ عَلَيهِ كثيراً، وَلَهُ خِدمةٌ للمشايخِ الكبارِ، وَحَضَرَ واقعةً[٤] بِمَكَّةَ فَأَبْلَى فيها بلاءً حسناً، وكَانَ يحكي عَنْهَا عَجَباً.

---

(١) الجَزَريون: نسبة إلى الجزيرة، وهي الإقليم الذي بين دجلة والفرات. «اللباب» ص٢٧٧.

(٢) في (أ) و(ب): «سرج».

(٣) هو علي الحجار الفراش المتقدِّم ذِكرُه.

(٤) في باقي النسخ: «وقعة».

كَانَ فيهِ مِن الأُنْسِ والحكاياتِ المُعْجِبَاتِ وأخبارِ الصَّالحين مَا لا مزيد عليهِ، وكَانَ يُحَاوِلُ النِّجَارَةَ والبِنايةَ والحجارةَ، وكُلُّ مَا دَخَلَ فيهِ مِنَ الأعمالِ أتقنَهُ وأحكمَهُ، لَمْ أُدرِكْ في الفرَّاشِينَ مِثْلَهُ، رُزِقَ ذُرِّيَّةً صالحةً محفوظةً مباركِينَ، أَقْرَأَهُم[1] وأولادَهُم مِن بعدِهِم، وفيهم مَنْ هُوَ مُشتغلٌ بالعلمِ عَلَى مذهبِ الإمامِ أحْمَدَ بنِ حنبلٍ، مَعَ الدِّيَانَةِ العَظِيمَةِ والوَرَعِ والتَّصوُّفِ، وكُلُّ نِسائِهِم وَمَنْ توالَدَ مِنْهُم عَلَى خيرٍ وصلاحٍ وسَذَاجَةٍ، نَفَعَ اللهُ بِهِم.

تُوُفِّيَ الشّيخُ عليٌّ الحَجَّارُ في سنةِ أربعين وسبعِمِئَةٍ.

ومِنْهُم: الشّيخُ **عبدالله الخُضَرِيُّ** [١١٤/ أ]، تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

وَمِنْهُم: **أَحْمَدُ الأمينيُّ**[2]، كَانَ مِن عُقَلائِهِم ورُؤَسَائهِم وجَامِعَ شَمْلِهِم.

ومَنْهُم: **عليُّ بنُ ميمونٍ**[3]، وَالدُ يُوسُفَ العُجَيلي، وَوَلَدُهُ عَلَى طَرِيقَتِهِ[4] وَسَلامَة باطِنِهِ وقِلَّةِ شَرِّهِ.

ومَنْهُم: **سعيدٌ الهنديُّ**[5]، كَانَ شيخاً حَسَناً عَلَى طَرِيقَةٍ عظيمةٍ في الدِّيانَةِ ومُلازَمةِ الرَّوضَةِ.

ومِنْهُم: **عُميرٌ السُّوارِقيُّ**[6]، مِن قُدَمَاءِ الفَرَّاشينَ، دَخَلَ في الفِرَاشَةِ

---

(١) في الأصل: «قُرَّاهم». وفي: (أ): «قرآهم». وفي(ب): «قراهم». وفي (ج): «قرامهم»! والمثبت من «التحفة اللطيفة» ٥/ ٢٠٨، ولعله الصواب.

(٢) كان صالحاً، خيِّراً هيِّناً، يلبس لباس الصوفية، مات وترك جملة من النخل والدور، وبنتين. «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٧٠.

(٣) «التحفة اللطيفة» ٥/ ١٨٩.

(٤) في الأصل: «طريقة»، والمثبت من باقي النسخ و«التحفة».

(٥) «التحفة اللطيفة» ٣/ ١٧٧ نقلاً عن المؤلف.

(٦) «التحفة اللطيفة» ٥/ ٣٦١.

رغبةً في التَّقَرُّبِ بالخدمةِ لا أَنْ يُحَصِّلَ مِنْهَا دُنيا، لَهُ حَسَناتٌ كثيرةٌ، وأوقافٌ عَدِيدةٌ، وعُتَقاءُ، وصَحِبْتُهُ إلى مَكَّةَ في طريقِ المَشْيانِ، فَكَانَ مُحَافظاً[(١)] عَلَى دِينِهِ، وَلَهُ أولادٌ مُبَارَكون.

تُوُفِّيَ سنةَ ستٍّ[(٢)] وستينَ وسبعِمِئَةٍ.

ومِنْهُم: **الحاجُّ بُردَةُ** عتيقُ الحَرِيرِيِّ[(٣)]، كَانَ رجلاً صالحاً مُباركاً مُشتَغِلاً بنفسِهِ، لا يعرِفُ الفضولَ ولا أهلَهُ، انْقَرَضَتْ ذُرِّيَّتُهُ.

ومِنْهُم: **سعيدٌ التَّاجِيُّ**، ليس لَهُ ذُرِّيَّةٌ.

ومِنْهُم: **عَنْبرٌ الصَّرْخَدِيُّ**[(٤)]، كَانَ مِن أتباعِ الشَّيخِ عِزِّ الدِّينِ[(٥)] شيخِ الحَرَم، وكَانَ يُظَنُّ أَنَّهُ مِن عُتقائِهِ؛ لمخالطتِهِ عِيَالَهُ، وتَرَكَ أولاداً صِغاراً كَفَلَهُم الشَّيخُ عِزُّ الدِّينِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأَقْرَأَهُم القُرآنَ، وَكَفَلَ أولادَهُم مِن بَعْدِهِم حَتَّى انْقَرَضُوا.

ومِن قُدَمَائِهِم اليومَ: **إقبالٌ الحريريُّ**[(٦)]، أَسَنَّ وكَبِرَ، وَهُوَ عَلَى طَرِيقَةٍ حَسَنةٍ مِنَ السُّكُونِ والاشتغالِ بنفسِهِ.

---

(١) في الأصل: «محفوظاً». والمثبت من (أ) و(ب) و«التحفة اللطيفة» ٥/ ٣٦١، وفي (ج): «حافظاً».

(٢) بياض في الأصل بمقدار كلمة، وفي (أ) و(ب): «ست». وفي «التحفة»: «مات بعد الستين وسبعِمِئَة».

(٣) شبل الدولة كافور المظفري الحريري. تقدَّم.

(٤) «التحفة اللطيفة» ٥/ ٣٦٣.

(٥) هو عزّ الدين دينار الشهابي المرشدي، المتقدِّم ذكره.

(٦) إقبال مولى الحريري، عمّر في خدمة الحرم، مات سنة٧٦٥هـ، ودُفن بالبقيع عن مئة سنة فأكثر. «التحفة اللطيفة» ١/ ١٩٤.

وكَانَ مِن الَّذِين أَدْرَكْتُهُم مِن أعيانِهِم اثْنَي عَشَرَ فراشاً كَانَ مِنْهُم:

الشّيخُ عُمَرُ[١] الفرَّاشُ، وكَانَ يَقرَأُ القُرآنَ، وكَانَ مِن أَلطَفِ النَّاسِ بِنْيَةً وحَدِيثاً وخِدْمَةً.

ومِمَّنْ دَخَلَ مَعَهُم في آخرِ الوقتِ رغبةً في التماسِ بركةِ الخِدْمَةِ: الشَّيخُ **يُوسُفُ الصَّعِيديُّ**[٢] الشَّهِيرُ بِصَبِيِّ الخَطِيبِ.

كَانَ مِن قُدَمَاءِ المُجَاوِرِينَ [١١٤/ ب] عَلَى طَرِيقَةٍ حَسَنَةٍ، قَرَأَ القُرآنَ عَلَى الشَّيخِ عبدالحميدِ[٣] وَغَيْرِهِ، وكَانَ مُلازِماً للسِّرَاجِ قاضي المدينةِ فَعُرِفَ بِهِ، وَكَانَ نقيباً عَلَى الفُقَهاءِ، وكَانَ يُلبِسُ القُضاةَ جَمِيعَهُم ثيابَ الخَطَابةِ، وَصَحِبَ خَلْقاً مِنَ الصَّالحينَ، وخَدَمَ كثيراً مِنَ الشُّيوخِ المُتقَدِّمِ ذِكرُهُم، لَهُ عَلَيَّ خِدْمةٌ ومُوَالاةٌ عظيمةٌ، وفَقَدتُ دعاءَهُ وصُحْبَتَهُ.

تُوُفِّيَ سنةَ ستٍّ وستِّينَ وسبعِمِئَة، وقَدْ نَافَ عَلَى الثمانينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكَانَ مِمَّنْ أَدْرَكْتُهُ مِنَ السَّقَّائِينَ بالحَرَمِ الشَّرِيفِ: الشّيخُ **مُحَمَّدٌ السَّقَّا**[٤]، المعروفُ بأبي حُسينٍ، هُوَ جَدُّ أولادِ الشَّيخِ مُحَمَّدٍ الكَازَرُونِيِّ لأُمِّهِم.

كَانَ حَسَنَ الوجهِ، طَوِيلَ السَّبَلَةِ، تَصِلُ لحيتُهُ إلى سُرَّتِهِ[٥]، حَسَنَ الصَّوتِ، كَانَتْ لَهُ بالمدينةِ إقامةٌ طويلةٌ ومُجاوَرَةٌ جَمِيلةٌ.

---

(١) في (ب): «علي» بدل «عمر». ترجمته في «التحفة اللطيفة» ٥/ ٣٥٦ نقلاً عن المؤلف.

(٢) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٧٤٢).

(٣) هو الشيخ عبدالحميد بن علي الموغاني، المتقدِّم ذكره.

(٤) مُحَمَّدٌ السَّقَّا، جدُّ بني مُحَمَّدٍ الكازرونيِّ لأُمِّهِم. «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٠٦٠) نقلا عن المؤلف.

(٥) في باقي النسخ زيادة: «وربما عثر بها» بعد «سُرَّته»، وفي (ب): «صُرَّته».

كَانَ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - يَمْلأُ المسجِدَ الشَّرِيفَ بالدَّوارِقِ، يصُفُّهَا مِن بَابِ الرَّحمَةِ إلى بابِ النِّساءِ، ويجعلُ في أعناقِ الدَّوارقِ مُقُطاً[1] يُقيِّدُهَا بِهِ حَتَّى لا تُسرَقَ ولا تُغيَّرَ مِن مَكَانِهَا، ومَا عَلمتُ يَأخُذُ عَلَى ذٰلك أُجْرَةً.

حكى لي - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - أَنَّهُ ربَّى مِن شَارِبِهِ سَبلَتَيْنِ[2] حَتَّى طَالَتَا كَثِيراً، وجَعَلَهُمَا مُنْعَطِفَتَينِ عَلَى فَمِهِ كالقَرْنَينِ.

قَالَ: وكَانَ مشايخُ المُجَاوِرينَ والعُلماءُ مِنْهُم يقولونَ لي: السُّنَّةُ قَصُّ مَا طَالَ مِنَ الشَّارِبِ، فَأَنْقِصْ مِن هٰذينِ القَرنينِ الَّذين شَوَّهَا وَجهَكَ وغيَّرَا جَمالَكَ.

فَأَقُولُ لَهُم: هٰذه سُنَّةُ شيخِي، لا أَتْرُكُهَا لقولِكُم.

قَالَ: فبينما أَنَا ذَاتَ ليلةٍ نَائِمٌ إِذْ رأيتُ النَّبِيَّ ﷺ في المسجدِ الشَّريفِ والنَّاسُ حَوله، وأَنا مِن وَرَاءِ الشُّبَّاكِ الحديدِ الَّذِي في القِبلَةِ في دَارِ آلِ عُمَرَ ابنِ الخطابِ رَضِي الله تَعَالى عَنْهُ.

قَالَ: فَلَمَّا هَمَمْتُ بالدُّخُولِ [١١٥/ أ] مِنَ الشُّبَّاكِ يدخلُ رأسي، فَإِذَا بَلَغَ إلى حَدِّ القَرْنَينِ مَنَعَاني عَن الدُّخولِ، ورأيتُهُمَا قَدْ صَارَا مِن حديدٍ، فَعجزتُ عَن إدخالِهِمَا، واحترقَ قلبي مِن شِدَّةِ الألمِ عَلَى عَدَمِ وُصُولي إليهِ ﷺ.

ثُمَّ انْتبَهْتُ وتَنَاوَلْتُ المِقَصَّ فَقَصَصْتُهُمَا مِن ساعَتِي، فَلَمَا أصبحتُ شَكَرَني الجماعةُ عَلَى ذٰلك، فَقُلتُ لهم: واللهِ مَا فعلتُهُ إلّا لأجلِ كَذَا، وعَلِمْتُ أَنَّ الخيرَ كُلَّهُ في اتِّباعِ السُّنَّةِ.

---

(١) المِقاط - بالكسر -: الحبل الصغير الشديد الفتل، والجمع مُقُطٌ. «لسان العرب»: مقط.

(٢) سَبَلَةُ الرَّجُل: الدائرةُ التي في وسَط الشفة العُلْيا، أو ما على الشارب من الشعر، أو طَرَفه، أو هي مُجْتَمَع الشاربَينِ، والجمع: السِّبال. «لسان العرب»: سبل.

ثُمَّ خَلَفَهُ في سَقْيِ الماءِ بالحَرَمِ الشَّريفِ، وفي السِّقايةِ الَّتي كَانَتْ في المسجدِ المُتَقَدِّمِ ذِكرُهَا: الشّيخُ **حُسينُ بنُ عليِّ بنِ رُسْتُمَ الشِّيرازيُّ**[١].

كَانَ مِنَ الشُّيوخِ القُدَماءِ عَلَى طَرِيقَةٍ حَسَنَةٍ، وتَسَبُّبٍ في الحلالِ بِتَعَفُّفٍ وصِيانةٍ، وخَلَّفَ وَلَدَينِ.

أحدُهُمَا الفقيهُ الفاضلُ **شمسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بنُ حُسينٍ**[٢]، اشتغلَ بالطِّبِّ ورحلَ إلى الشَّامِ، وخَالطَ الصُّوفِيَّةَ وَرَأسَ بَيْنَهم، وتَخَلَّقَ بأخلاقِ أَهْلِ زَمَانِهِ، وَتَأَدَّبَ بآدابِهِم.

والآخرُ حَسَنٌ، فيهِ مَكارمُ الأخلاقِ[٣]، وخدمة الفقراءِ وموالاةٌ حَسَنَةٌ، أعانَهُ اللهُ تعالى وَسَدَّدَهُ وأصلَحَهُ.

واعْلَمْ أَنَّا ذَكَرْنَا[٤] مَنْ اشتهرَ بالعِلْمِ والعَمَلِ أو بالمناقبِ الحَسَنَةِ والطَّريقِ المُسْتَحْسَنَة، فإن تَخَلَّلَ ذِكْرَ أولٰئكَ ذِكْرُ مَن هُوَ أنزلُ مِنْهُ درجةً فمَا ذكرتُهُ إلّا استطراداً أو لِقَصْدٍ يَنْبَنِي عَلَى ذِكرِهِ.

ولو تَتَبَّعتُ ذِكرَ مَنْ أدركتُهُ في المدينةِ مِنَ الأخيارِ وذكرَ مناقِبِهِم لملأتُ الأوراقَ بِمَا تَحمِلُ النَّجِيباتُ العِتَاقُ، لٰكنْ اقتصرْتُ عَلَى مَنْ حَضَرَ في فكرِي، وفي ذٰلك ذِكرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قلبٌ، واللهُ المُوَفِّقُ.

---

(١) «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٥٠.

(٢) «الدرر الكامنة» ٣/ ٤٢٨، «التحفة اللطيفة» ٦/ ١٩٣.

(٣) في الأصل و(ج): «فيه حسن مكارم». والمثبت من (أ) و(ب) و«التحفة اللطيفة»٢/ ٢٩٩.

(٤) في (أ) و(ب): «واعلم أنا لم نقصد إلّا ذكر».

وَكَانَ رُؤَساءُ أَهْلِ المدينةِ يُؤلِّفُونَ[(١)] المُجاوِرِينَ ويَخْدِمُونَهُم ويَتَقَرَّبُونَ إلى خواطِرِهم بِقَضاءِ [١١٥/ب] الحوائجِ والهدَايا والطُّرَفِ، مَعَ حُسْنِ الاعتقادِ فيهم، والتماسِ بَرَكَتِهِم[(٢)] وأدعيَتِهم، مِنْهُم:

نُورُ الدِّين عليُّ بنُ الصَّفِيِّ، كَانَ مِن رؤساءِ أَهلِ المَدِينَةِ وخِيارِهِم، وَكَانَ يوالي المُجاوِرِينَ ويَخْدِمُهُم في قَضاءِ حَوائِجِهِم مَعَ جَلالَةِ قَدْرِهِ وعُلُوِّ كَلِمَتِهِ ومَحَبَّةِ الأُمَراءِ لَهُ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الشَّيخَ العَالمَ العامِلَ أبا مُحَمَّدٍ عبدالله بنَ حَجَّاجٍ الشهيرَ بمكشوفِ الرأسِ لَمَّا تُوُفِّيَ أَسْنَدَ وصِيَّتَهُ إليهِ؛ لِمَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ المَوَدَّةِ، وفي هٰذا دليلٌ عَلَى مَا ذكرناهُ، وَلَهُ في هٰذا البابِ مناقِبُ كثيرةٌ.

ومِنْهُم: **نُورُ الدِّينِ عليُّ بنُ يحيى**[(٣)]، صاحبُ الرِّباطِ المشهورِ والسِّقَايةِ الَّتِي عَلَى بَابِ السَّلامِ، وَلَهُ أوقافٌ مِنَ النَّخيلِ عَلَى الرِّباطِ والسِّقَايَةِ، وَكَانَ يَتَحَبَّبُ إلى المُجَاوِرِينَ والخُدَّامِ ويَخْدِمُهُم ويقضي حوائِجَهَم.

حَكَى لي الشَّيخُ جَمَالُ الدِّينِ المَطَرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ الشُّرَفَاءَ في سنةِ فِتْنَةٍ اقْتَسَمُوا المدينةَ في زَعْمِهِم لِيَنْهَبُوهَا، وَكَانَتْ المَدِينَةُ مَحْشُوَّةً بالأشرافِ، مِنْهُم: الملاعبةُ[(٤)] في حَارةِ الخُدَّام ساكنِينَ مَعَهُم، مُخَالِطِين لَهُم، وَكَذٰلك

---

(١) في (أ) و(ب): «يوالون».

(٢) تقدَّم الكلام على التبرُّك.

(٣) علي بن يحيى، نور الدين. «التحفة اللطيفة» ٥/ ١٩٣. نقلا عن المؤلف.

(٤) الأشراف الملاعبة: ينسبون إلى ملاعب بن عبدالله بن مهنا بن الأصغر بن حسين بن مهنا ابن داود. «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٣٠٤).

البُدُورُ[(١)] في حوشِ الحَسَنِ ومَا حولَهُ، والوَحَاحِدَةُ[(٢)] في السُّويقَةِ[(٣)] ومَا حَولَهَا، والمنايفة[(٤)] عِنْدَ المدرسةِ الشِّهابيَّةِ، وآلُ مَنْصُورٍ[(٥)] في البَلاطِ[(٦)].

فَأَرْجَفُوا بالنَّاسِ، وأَشَاعُوا أَنَّهُم يُغْلِقُونَ أبوابَ الحَرَمِ بَعْدَ صَلاةِ الصُّبحِ عَلَى النَّاسِ، ويُعْقِبُونَهُم عَلَى بُيُوتِهِم فينهبُونَهَا، وَأَنَّهُم يَقتُلونَ مَنْ في الحَرَمِ مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ لذٰلك أسبابٌ وترتيباتٌ مِن أَهْلِ الشُّرفَاءِ، فاستعَدَّ المجاوِرُونَ والخُدَّامُ لذٰلك، واستصحَبُوا أسلحَتَهُم عِنْدَ خُروجِهِم وَعِنْدَ دُخولِهِم.

فَقَامَ نُورُ [١١٦/أ] الدِّينِ عليُّ بنُ يحيى في بَعْضِ الأيامِ بَعْدَ صلاةِ الصُّبحِ، وصَاحَ بأَعْلَى صَوْتِهِ: يا أَيُّهَا النَّاسُ، الفِتْنَةُ خامِدَةٌ، لَعَنَ الله مُثِيرَهَا! وَكَرَّرَ ذٰلك مراراً.

---

(١) البدور: يُنسبون إلى بدر بن فايد بن علي بن الحسين بن القاسم بن إدريس بن جعفر بن علي ابن محمد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وقد سكنوا فيما يُسمَّى بحوش الحسن وما حوله. «المدينة المنورة في العصر المملوكي» ص١٤٥.

(٢) الأشراف الوحاحدة: نسبة إلى عبدالواحد بن مالك بن حسين بن المهنا الأكبر بن داود. «التحفة اللطيفة» ١/ ٤١١.

(٣) ذَكَر البكري أنها على مَقرُبة من المدينة، وبها كانت منازل بني حسن بن حسن بن علي. «معجم ما استُعجِم» ٣/ ٧٦٧. أما الفيروزآبادي فذكر أنها: موضع قُرب المدينة يسكنه آل علي ابن أبي طالب. «المغانم المطابة» ٢/ ٨٥٨، وعنه نقل السَّمهودي في «وفاء الوفاء» ٤/ ١٢٣٩.

(٤) في الأصل و(ب): «المنافية»، والمثبت من (أ) و(ج). وهم ذرِّية منيف بن شيحة بن قاسم ابن هاشم أمير المدينة، توفي سنة ٦٤٩هـ.

(٥) آل منصور: يُنسَبون إلى الأمير منصور بن جماز الذي حكم المدينة سنة ٧٠٤هـ. وستأتي ترجمته.

(٦) البلاط: موضع بالمدينة بين المسجد النبويِّ والسوق، وكان مبلّطاً بالحجارة. «المغانم» ٢/ ٦٨٤، «تحقيق النصرة» ص١٧٧، «وفاء الوفا» ٢/ ٧٣٤-٧٤٧.

فقَامَ النَّاسُ إليهِ، وكَثُرَ الكلامُ واللَّغَطُ، ولَمْ يَزَلْ ابنُ يحيى يُسَكِّنُ مَا عِنْدَ النَّاسِ، وَسَاعَدَهُ أَشياخٌ مثلُهُ في حِلمِهِ وعَقْلِهِ.

قَالَ الشَّيخُ جَمَالُ الدِّينِ[١]: فَسَكَنَتِ الفِتْنَةُ، وتَرَكُوا حَمْلَ الأسلِحَةِ.

وَلَمْ تَزَلْ كَلِمَةُ المُجَاوِرِينَ والخُدَّامِ واحدةً، يُهِمُّ كبيرَهُم مَا يُهِمُّ صَغِيرَهُم، ويقومون لقيامِ أَضْعَفِهِم، وَهُمُ اليومَ في خَلَفٍ، نَرجُو مِن الله صلاحَهُ، تستعينُ إحدى الطَّائفتَينِ عَلَى الأخرى بِغَيْرِ جِنسِهِم، لِيُهِينُوهُم ويُذِلُّوهُم، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعون، أَعَاذنَا الله مِن شرورِ أنفُسِنا وَمِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ.

وَكَانَ عَلِيُّ بنُ يحيى وزيراً للأميرِ منصورٍ، وَكَانتْ أمورُ النَّاسِ راجعةً إليهِ، وَكَانَ الأميرُ منصورٌ لا يخرُجُ عَن رَأيِهِ، وَرُبَّمَا كَانَ يستخلفُهُ عَلَى المدينةِ في بَعْضِ الأحْيَانِ؛ لوثُوقِهِ بعقلِهِ وَحُسْنِ رَأيِهِ وسياسةِ الأمورِ.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنةَ سبعٍ وعشرين وسبعِمِئَةٍ.

ثُمَّ تَوَلَّى الوزارةَ يُوسُفُ بنُ مُقَدَّم[٢]، وَكَانَ مِن بيتِهَا وأهلِهَا، إلّا أَنَّهُ شَدَّدَ وأَخَذَ النَّاسَ بالهيبةِ والقُوَّةِ، حَتَّى استغاثَ النَّاسُ مِنْهُ؛ فعُزِلَ.

وَبعْدَهُ أَقَامَ ابنُ يحيى مِنَ السُّوقَةِ الَّذِين ليسَ لَهُم قَدَمٌ في الرِّيَاسَةِ حَسَنَةٌ، فصَارتْ سَيِّئَةً، فَوَلِيَها ابنُ النَّجارِ، وَعَلا بَيْنَهُمَا الشَّرُّ، وبسببِ محاولَتِهِمَا خَرَجَ أَهْلُهَا مِنَ المدينةِ، وتمكَّنَ مِنْهَا عَدُوُّهُم، وكَانَ مثلَ ابنِ يحيى المُتقدِّمِ في العقلِ والسِّياسَةِ والرِّياسَةِ. [١١٦/ ب]

---

(١) هو جمال الدِّين المطري المؤرِّخ، تقدَّم ذكرُه.

(٢) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٧٣٢) نقلاً عن المؤلف.

نجمُ الدِّينِ يُوسُفُ الرُّومِيُّ[١]: كَانَ وَزِيرَ الأميرِ طُفَيلٍ رحمهُ الله تَعَالى. تُوُفِّيَ سنةَ خمسٍ وثلاثينَ وسبعِمِئَة.

وَهُوَ الَّذِي أَنشأَ الدَّرَجَةَ الموجودةَ اليومَ لبئرِ أَرِيسٍ[٢] بِقُباء، عَمَّرَهَا في سنةِ أربعَ عشرة وسبعِمِئَةٍ، وَكَانَ الجماعةُ الخَرَّازُونَ قَدْ ابتدَؤُوا في عمارَتِهَا، فسَأَلَهُم أَن يتركُوا ذٰلك لَهُ؛ ليفوزَ بِحَسَنَتِهَا[٣].

وَكَانَ الحَامِلَ لَهُم عَلَى ذٰلك أَنَّهُم كَانُوا إِذَا جَاؤُوا إلى مسجدِ قُباءَ لا يَجِدُون مَا يَتَوَضَّؤُون بِهِ إلّا مِنَ الحديقةِ الجعفريَّةِ[٤]، فَكَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِن دُخُولِهَا؛ لِمَا سَمِعُوا أَنَّهَا مغصوبةٌ مِن مُلّاكِهَا.

وَكَانَ هٰؤلاءِ الجماعةُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ قَدْ خَرَجُوا لعَمَارةِ بئرَينِ بِذِي الحُلَيفَةِ[٥] كَانَتَا مَردُومَتَينِ، غَيْرِ البِئْرينِ اللَّتَينِ عِنْدَ المسجدِ اليومَ، وَخَرَجَ مَعَهُم جماعةٌ كثيرةٌ مِنَ الخُدَّام والمُجاوِرينَ، وَتَبِعَهُم مِنَ النَّاسِ خَلقٌ كَثيرٌ، فَكَانُوا يَنِيفُون

---

(١) «المغانم المطابة» ٢/ ٦١٦، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٧٣٢).

(٢) بئر أريس أو بئر الخاتم: تقعُ غرب مسجد قباء. وتسمى بـ«أريس» وبئر «الخاتم» لأنّ خاتم الخلافة سقط فيه من عثمان بن عفّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو الخاتم الذي كان لرسول الله ﷺ، وقد دخلت بئر أريس في التوسعة الأخيرة لمسجد قُباء. انظر: «وفاء الوفا» ٣/ ٩٤٢، و«آثار المدينة المنوَّرة» ص٢٣٧.

(٣) «المغانم المطابة» ٢/ ٦١٦، وقال: «الظاهر أنّ نجم الدِّين المذكور أنشأ الدَّرج وتشعَّثَتْ، فأصلحها صفيُّ الدين وجدَّدها». ويذهب السَّمهودي إلى أن صفيّ الدِّين بدأ بإنشائها، حيث أمدَّ الخرازين بالمال لبنائها، وأنّ نجم الدين أتمَّ بناءها. «وفاء الوفا» ٣/ ٩٤٩.

(٤) ذكر الخياري أنها بئر كبيرة غربي مسجد قباء، وهي أصل العين الزرقاء. انظر: «تاريخ معالم المدينة» ص٢١٠، و«التعريف» ١٦٢، و«الدرر الثمينة» ص٤٩.

(٥) وتسمَّى اليوم: آبار علي، وتبعُد عن المدينة نحو ١١ كيلاً.

عَلَى المِئَةِ، وَأَقَامَ النَّاسُ عَلَى حَفْرِهَا وبنائِهَا نَحْواً مِن شَهْرٍ[١]، وفي كُلِّ يَومٍ يَأتِيهم مِنَ المَدِينَةِ مَا يكفِيهم مِنَ الطَّعَامِ، وَكَانَ أَكْثَرُ ذٰلك مِن عِنْد الخُدَّام.

وَكَانَ الشُّيوخُ يَحفِرونَ بَأَنفُسِهم، حَتَّى إِنَّ الشَّيخَ مُحَمَّداً الخرَّازَ وَقَعَ عَلَيهِ وَهُوَ في البِئرِ حَجَرٌ فَشَجَّ رَأَسَهُ، وَأيقَنُوا بوفاتِهِ، فنزلُوا بِهِ عَلَى أعوادٍ كالمَيِّتِ، وَتَركُوه في بيتِهِ، وَلَمْ يَقْطَعْهُم ذٰلك عَنَ عَمَلِهِم، وَمَا ظَنَّ أَحَدٌ أَنَّهُ يعيشُ مِنْهَا، فَسَلَّمَهُ الله تَعَالى بِحُسْنِ نِيَّتِهِ، وعَاشَ إلى أَنْ تُوُفِّيَ في سنةِ إحدى وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ.

وانتفعَ الحاجُّ بهاتَينِ البِئرَينِ نَفْعاً عَظيماً، واليومَ أَكثرُ العَرَبِ يَسْتَقُونَ مِنهُمَا[٢].

وكَانُوا يَفْعَلُونَ في المساجِدِ الدَّامِرَةِ والأوقافِ [١١٧/ أ] الخَرِبَةِ كَذٰلك.

واليومَ نَحْنُ في حَالٍ غَيْرِ ذٰلك الحالِ، كَانَ الخُدَّامُ ذٰلك الزَّمَانَ يُثَابِرُونَ عَلَى فِعْلِ المعروفِ، وَيزدحِمُونَ عَلَى مُوَاساةِ الفقيرِ، وَيَرحمُونَ الشَّيخَ الكبيرَ، ويُقِيلُونَ عَثْرَةَ الصَّغيرِ، وَيَسْتُرونَ عَوراتِ النَّاسِ.

وَكَانَ كِبَارُ الخُدَّام يجلِسُونَ مَعَ شيخِهِم بَعْدَ صلاةِ العَصرِ عَلَى الدَّكَّةِ الَّتِي بَيْنَ بابِ جبريلَ وبابِ النِّساءِ، فَلا يَمُرُّ صَغِيرٌ إلّا أَعانُوه وَرَحِمُوهُ، ولا يَمُرُّ بائِعُ حشيشٍ ولا حَطَبٍ قَدْ كَسَدَتْ بِضَاعَتُهُ إلّا شَروها بأوفى ثَمَنٍ؛ لِيُفَرِّجُوا عَنْهُ مِن غَيْرِ حَاجةٍ مِنْهُم إليهِ، ولا يَمُرُّ بِهِم صغيرٌ مِن أولادِ المُجَاوِرِينَ إلّا فَرِحُوا بِهِ وقَبَّلُوهُ ولَطَفُوا بِهِ، يُشْرِكُونَ فُقَراءَهُم في مَعلومِهِم.

---

(١) في (ب): «شهرين».

(٢) «التعريف» للمطري ص٥٤-٥٥.

إِذَا غضبَ أَميرُ المدينةِ عَلَى أَحدٍ مِنَ المُجاوِرينَ طلعَ أكابِرُهُم إلى القلعةِ وَدَخلُوا عَلَى الأميرِ وَخَلَّصُوهُ، وَرُبَّمَا طَيَّبُوا نَفْسَ الأميرِ بشيءٍ مِن مَالِهِم، وكَذٰلك إِذَا وَقَعَ أَحَدٌ في غرامةٍ وجِنايةٍ أو دَينٍ ثقيلٍ أَعَانُوه وساعَدُوهُ.

ولَمْ يَزَلْ المجاورونَ يَعرفونَ لَهُم حَقَّهُم، ويَصْبِرونَ عَلَى جَفْوتِهم، وعَلَى عِزَّتِهم عَلَيهِم، وعَلَى مَا عَسَاهُ يَصْدُرُ مِنْهُم؛ لأجلِ مَا يصدرُ مِنْهُم مِنَ الإحسانِ واللُّطْفِ والحَمِيَّةِ.

وَنرجُو مِنَ الله أَنْ يُعيدَ تِلكَ المؤاخاةَ، وَيَلُمَّ شَعَثَ المُصَافاةِ.

فَإن قلتَ: أينَ أولئكَ النَّاس الَّذِينَ هُمُ النَّاسُ؟

قُلتُ: نَرجُو أَن يكونَ ذٰلك قريباً؛ لأنَّ الجامعَ[1] لا يَبِيدُ ولا يَفْنَى، وَهُوَ السُّنَّةُ المُحَمَّدِيَّةُ، والشَّرِيعَةُ السَّنِيَّةُ العَلِيَّةُ، فَتَجْمَعُنا - إِنْ شاءَ الله - السُّنَّةُ الَّتِي تُخَلِّصُنَا مِن أَهْلِ البِدْعَةِ، فنكونَ - إِن شاءَ الله تَعَالى - إخوةً مُتَنَاصِرِينَ، وعَلَى الخيرِ مُتَعاوِنِينَ، لا يأتينا [١١٧/ ب] الشَّيْطَانُ مِن طريقٍ ولا بَابٍ، ولا يَكلِمُنَا عَدُوٌّ بِظُفْرٍ ولا نَابٍ؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

واتَّفَقَ في بَعْضِ السِّنينَ تضييقٌ عَلَى القاضي سِراجِ الدِّينِ مِنَ الأميرِ، وَطَلَبَ مِنْهُ عشرةَ آلافِ دِرْهَمٍ، فَتَنَكَّدَ مِن ذٰلك، وجاءَ إلى الخُدَّامِ، وَشَكَى إليهم، فأدخلُوهُ الحُجرةَ ومنعُوا أَحداً يَصلُ إليهِ، ثُمَّ إِنَّهُ خُدِعَ فخرجَ، فطلبَهُ

---

(١) في (أ) و(ب) بزيادة: «باقٍ» بعد «الجامع».

(٢) المجادلة: ٢٢.

الأميرُ إلى القلعةِ، ومَنَعَهُ مِنَ النُّزولِ إلى الصَّلاةِ، ثُمَّ خَلَّى سبيلَهُ، واحتالُوا عَلَيهِ حَتَّى أخذُوا مِنْهُ مَا طَلَبُوا.

فَعَزَّ ذلك عَلَى الخُدَّامِ، وأشاعُوا القضيةَ، فَوَصَلَ الخبرُ إلى السُّلطانِ، فاحتاطَ عَلَى خَبَرِ الأميرِ، وَعَزَلَ عَنْهُ غِلمانَهُ ونُوَّابَهُ، فاعتذرُوا بَأَنَّ الأميرَ مَا أَخَذَهَا إلّا قَرْضاً، وَدَفَعُوا المالَ لوكيلِ القاضي، وجاءتْهُ الدَّراهمُ محمولةً إلى المدينةِ.

وَكَمْ أعدِّدُ مِن مَحَاسِنِهِم، وأذكُرُ مِن مآثِرِهِم، وكُلَّمَا ذكرتُ القومَ وصِفَاتِهِم ازدادتِ الحُرقَةُ وثَارتِ اللَّوعَةُ لِفَقْدِهِم، تَغَمَّدَهُم اللهُ برحمَتِهِ، وأسكَنَهُم فسيحَ جنَّتِهِ.

شِعر:

صَاحَتْ بِهِم حَادِثَاتُ الدَّهرِ فَانْقَلَبُوا	مُسْتَبْدِلِينَ مِنَ الأَوطَانِ أَوْطَانَا
خلَّوا مَدَائِنَ كَانَ العِزُّ مَفْرَشَهَا	واسْتَفْرَشُوا حُفَراً غُبْراً وَقِيعَانَا

وكَانَ عَلَى طريقةِ الوَزِيرَينِ المُتَقَدِّمَينِ في العَقْلِ والرِّئاسَةِ وَجَمْعِ الكلمةِ وتسديدِ الأمورِ: **عِزُّ الدِّينِ حَسَنُ**(١) **بنُ عَلِيٍّ سِنْجَرُ المِسْكِيُّ**، كَانَ وزيراً للأميرِ طُفيلٍ رحمهُ الله تعالى، وكَانَ عَاقِلاً حَلِيماً سايساً للأمورِ، لَمْ يَنْخَرِمْ نِظَامُ دولةِ الأميرِ طُفيلٍ إلّا بَعْدَ وَفَاتِهِ.

وسأذكُرُ مِن قضاياهُ الحَسَنَةِ قَضِيَّةً واحِدَةً تدلُّ عَلَى غيرِهَا.

---

(١) تحرَّفت الكلمة في الأصل إلى: «حسين». والمثبت من باقي النسخ و«الدرر» و«التحفة» مات سنة ٧٤٨هـ. ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٤، و«التحفة اللطيفة» ٣/ ٢٤٠.

وَهِي: أَنَّ الأميرَ طُفيلاً [١١٨/ أ] كَانَ في سنةِ ستٍّ وأربعينَ قَدْ نَفِدَ مَا في خزانَتِهِ مِنَ التَّمْرِ، فَوفَدَ عَلَيهِ جماعةٌ مِنَ العَرَبِ يطلُبُونَ الكيلَ مِن عِنْدِهِ، وَكَانَ التَّمْرُ في المارستانِ[١] فَاضلاً عَمَّا يحتاجُهُ الفُقَراءُ، فأخبرَهُ بَعْضُ النَّاسِ بِذٰلك، وَزَيَّنَ لَهُ طَلَبَ ذٰلك التَّمَرِ مِنَ القاضي والشَّيخِ عَلَى سبيلِ القَرضِ إلى أيامِ الصَّيفِ، وَكَانَ القاضي يومَئِذٍ تقيَّ الدِّينِ الهُورِينيَّ.

فأرسلَ إليهما الأميرُ طُفيلٌ في ذٰلك يطلبُ مِنهُمَا خمسَمِئَةِ صَاعٍ، فَلَمْ يمنعَاهُ وألانَا القولَ لِرَسُولِهِ، فَطَمِعَ الأميرُ طفيلٌ في قضاءِ حَاجَتِهِ، وأَخْبَرَ وزيرَهُ المذكورَ بِذٰلك، فنزلَ مِن عِنْدِهِ واجتمعَ بالقاضي نُورِ الدِّينِ الزَّرَنْديِّ، وقَالَ لَهُ: قَدْ عَلمتَ أَنَّ الأمراءَ كالأسُودِ، إِذَا لاحَتْ لَهُم فريسةٌ وثَبُوا عَلَيهَا مِن غَيْرِ نَظَرٍ في العواقبِ، وَقَدْ بَلَغَنِي مَا أَجَابَ بِهِ القَاضِي رسولَ الأميرِ في قضيَّةِ كَذَا، وَلَمْ يُرضِنِي ذٰلك، فَأَنا أَسأَلُكَ مِن إحسانِكَ أَن تجتمعَ بالقَاضِي وتَأْمُرَهُ بالتَّصْميمِ عَلَى المنعِ في هٰذه القضيةِ.

فَقَالَ لَهُ القاضي نُورُ الدِّينِ الزَّرَنْديُّ: هٰذا يَدُلُّ عَلَى كمالِ عَقْلِكَ وَحُسْنِ نَظَرِكَ، وَلٰكن يَنْبَغِي أَن تُخبِرَني بِوَجْهِ المَفْسَدَةِ الَّتِي تَخْشَاهَا.

فَقَالَ لَهُ: اعلَمْ أَنَّ الأعداءَ كَثِيرٌ، والضِدَّ قائمٌ، وأَخْذُ تَمرِ المارِسْتَانِ فِيهِ شَنَاعَةٌ، ورُبَّمَا أشاعَ الأعداءُ عِنْدَ السَّلْطَنَةِ أَنَّ الأميرَ طُفيلاً أَخَذَ تَمْرَ المارِسْتانِ قَهراً، فيترتَّبُ عَلَى ذٰلك مَا لا يخفى عَلَيكَ.

---

(١) المارستان: دار المرضى أو المستشفى، وهو معرَّب. «لسان العرب»: مرس.

فَشَكَرَهُ القَاضِي [نُورُ الدِّينِ الزَّرَنْدِيُّ عَلَى ذٰلك، فاجتمعَ بالقَاضِي وَأَخْبَرَهُ بِذٰلك، فَسُرَّ القَاضِي بِذٰلك](١).

فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ الأميرِ يَسْتَنْجِزُ وعدَهُ قَالَ لَهُ: لا سبيلَ إلى ذٰلك، وَأَغلَظَ لَهُ في القولِ.

فَأَخبرَ الأميرُ وَزِيرَهُ بِذٰلك، فقَالَ لَهُ: لا [١١٨/ ب] تتكَلَّمْ في ذٰلك، وخَوَّفَهُ مِنَ العواقِبِ، فرجعَ الأميرُ إلى قَولِهِ وسكَتَ عَن القَضِيَّةِ.

فانظُرْ إلى عَقْلِ هٰذا الوزيرِ وحُسْنِ تدبيرِهِ وسِيَاسَتِهِ.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ ثمانٍ وأربعين وسبعمِئَة.

وكَانَ مِن أعظَمِ النَّاسِ مُوالاةً للمُجَاوِرينَ واختلاطاً بِهِم: القَاضِي **نَجْمُ الدِّينِ مُهَنَّا بنُ سِنانَ**(٢).

كَانَ هُوَ القَاضِي في الحقيقةِ مِن بَيْن سائرِ قَرَابتِهِ، وبِهِ نِياطُ الحلِّ والعَقْدِ، وإليهِ ترجِعُ مُحَاكَماتُ الشِّيعَةِ(٣) وأَنْكِحَتُهُم وعُقُودُهُم وغيرُ ذٰلك.

وَكَانَ مَعَ هٰذا يَتَحَبَّبُ إلى المُجاوِرينَ، ويَمْدَحُهُم بالقصائِدِ الحَسَنَةِ، ويَسْتَقْضِيهِمُ الحَوَائِجَ، ويحضُرُ مواعيدَهَم ومجالسَ الحديثِ، ولا يُصَلِّي قَطُّ إلّا في الرَّوضَةِ المُشَرَّفَةِ، وكَانَ يستعملُ التَّقِيَّةَ كثيراً.

---

(١) ما بين المعقوفتين من (أ) و(ب).

(٢) مُهنَّا بن سنان بن عبدالوهاب بن نُميلة الحسيني، نجم الدِّين، الإمامي الشِّيعي، المدني، القاضي، اشتغل كثيراً، كان حسن الفهم، جيِّد النظم. مات سنة ٧٥٤هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ٣٦٨، «المغانم المطابة» ٣/ ١٣٠٤، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٣٠٣).

(٣) في الأصل و«المغانم» ٣/ ١٣٠٥: «السلطنة»، والمثبت من باقي النسخ.

وكَانَ إذَا نَسَخَ كِتَاباً ومَرَّ بِهِ ذِكْرُ أبي بكرٍ وعُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا يَتَرَضَّى عَنْهُمَا بالخطِّ تَقِيَّةً، وكَانَ يَحُطُّ عَلَى أصحابِهِ مِنَ الفُقَهَاءِ الإمامِيَّةِ ويتبرَّأُ مِنهُم، ولَهُ فيهم هَجْوٌ ظريفٌ، فَمِن ذٰلك قَوْلُهُ:

أَرَى الدُّنيَا تَمِيلُ عَنِ الكِرامِ ... وتَرغَبُ في مُصَاحَبَةِ اللِّئَامِ
فَيَزدَادُ اللَّئِيمُ بِذَاكَ لُؤْماً ... ويُصبِحُ سَاحِباً ذَيْلَ احْتِشَامِ
ويَنْسُبُ نَفْسَهُ للعِلمِ حُمقاً ... وَعِنْدَ الله فَهُوَ مِنَ الطَّغَامِ[1]
ويُفتِي المُسلمينَ بِغَيْرِ عِلمِ ... ويَخْبِطُ خَبْطَ عَشوا في الظَّلامِ
فَكَمْ أَفتَى بِتَحرِيمٍ لحِلٍّ ... وَكَمْ أَفتَى بِتَحليلِ الحَرَامِ
فَمَنْ حَفِظَ الزِّيارةَ فَهوَ مُفتٍ ... يُدَرِّسُ في الفُرُوعِ وفي الكَلامِ
كَذَاكَ مَنْ اشْتَرَى كُرًّا[2] وصَلَّى ... عَلَيهِ فإنَّهُ رَأْسُ السَّنامِ [١١٩/ أ]
تُشَدُّ إليهِ أَكْوَارُ[3] المَطَايَا ... ويُقْصَدُ في المُهِمَّاتِ العِظَامِ
وَلَو قَدْ جَاءَهُ شَخصٌ خَبِيرٌ ... وَبَاحَثَهُ لكَانَ مِنَ العَوَامِ
ومَا صَلَّى وصَامَ وقَامَ إلّا ... لِيَحْفَظَ مَا حَوَاهُ مِنَ الحُطامِ
وَلَو تَلِفَ الَّذِي هُوَ في يَدَيهِ ... إذاً تَرَكَ الصَّلاةَ مَعَ الصِّيامِ
فَقَدْ تَرَكَ الزَّكَاةَ لأنَّ فيها ... خُرُوجَ المَالِ وَهُوَ إليهِ ظَامِي
وَأَمَّا الخُمْسُ فَهُوَ بِهِ بَخيلٌ ... وَيَبْخَلُ بالبَشَاشَةِ والكَلامِ

---

(١) الطغام: أوغاد الناس. «القاموس»: طغم.

(٢) في الأصل: «كسرا»، والمثبت من باقي النسخ و«المغانم المطابة» ٣/ ١٣٠٦.
والكُرُّ: مِنديلٌ يُصَلَّى عليه، جمع أكْرار وكُرُور. «القاموس المحيط»: كرر.

(٣) الأكْوار جمع كُور، وهو الرَّحْلُ. «القاموس»: كور.

أَلَـمْ يَسمَـــعْ[١] كَـــلامَ اللهِ حَـقًّا … وَقَــولُ اللهِ أَحْـسَنُ فِي النِّظَـامِ
بأَنَّـــا لا نُمَهِّلُهُـــم لِـخَــيْرٍ … ولٰكــنْ كــي يَزيــدُوا في الأَثَــامِ
فمَهـــلاً سَـــوفَ تَرتَجِعُ اللَّيــالي … عَطَايَاهَا وتَـجْـذِبُ[٢] بالـخُـطَامِ
ويطلــبُ[٣] أَنْ يُقَـالَ ولاتَ حـينٍ … وقَدْ خَلَصَ المُخِفُّ[٤] مِنَ الزِّحامِ

وكَانَ لَدَيه فَضِيلَةٌ وعَرَبِيَّةٌ وآدابٌ وحُسْنُ محاضرةٍ.

تُوُفِّيَ في سنةِ أربعٍ وخمسين وسبعِمِئَةٍ.

وَكَانَ مثلَهُ خَلائِقُ مُتَّصِفُونَ بِهٰذه الخَلائِقِ، وَكَمْ أُعَدِّدُ مِنْهُم وَأَذكُرُ، فَقَدْ كَادُوا يَكونُون عَلَى الفِكْرِ لِبَداً، وفي قِصَصِ مَنْ ذَكرنَا للألِبَّاءِ رَشَداً، وإِنَّمَا أَرَدْتُ أَن يَقِفَ ذو العقلِ الوافرِ والنَّظَرِ السَّدِيدِ الباهرِ عَلَى شيءٍ مِن أحوالِ المُتَعاصِرِينَ قَبْلَ وقتِنَا، فَيَرَى مَا بَيْنَ العَصْرَينِ وأهلِهِمَا، سَامَحَ اللهُ الجميعَ بِفَضْلِهِ وكَرَمِهِ.

---

(١) في (ب): «تسمع»، وأيضاً في «المغانم».

(٢) في (ب): «ويجذب»، وفي «المغانم» ٣/ ١٣٠٦:

فمهلاً فسوف ترتجع اللَّيالي … عطاياها ويُجْذبُ بالخُطَامِ

(٣) في «المغانم» ٣/ ١٣٠٦: «وتطلب».

(٤) المُخِفُّ: قليل الثِّقَلِ. «لسان العرب»: خفف.

فصلٌ في ذِكْر قُضاتنا وأئمّتنا

وكَانَ حَقُّهم أَن يكونُوا أولى بالتَّقْدِيمِ فِي الذِّكرِ، غير أَنَّ قصدي مِن مُعظَمِ مَنْ ذكرتُهُ تنبيهُ مَنْ قدّمتُهُ، وإِنَّمَا ذكرتُ مَنْ سِواهُم تبرُّكاً بِهِم وحَضًّا لغيرِهِم عَلَى اقتفاءِ آثارِهِم؛ فالضِّدُّ يَظْهَرُ حُسْنُهُ بالضِّدِّ.

وَلَمْ [١١٩/ب] أَجْرِ فيما ذكرتُهُ عَلَى منوالٍ، ولا رتَّبْتُهُ عَلَى مثالٍ، بَلْ مَنْ سَبَقَ إلى الفكرِ ذِكرُهُ قَدَّمتُهُ، وَمَنْ أَخَّرَهُ الفكرُ لَمْ يُسرِعْ بِهِ الذِّكرُ.

فأولُ مَنْ أدركتُهُ مِن قُضاتِنَا وأئمَّتِنَا: الشَّيخُ الإمامُ العَلّامَةُ **سِرَاجُ الدِّينِ عُمَرُ بنُ أَحْمَدَ بنِ الخضرِ بنِ ظافرِ بنِ طَرَّادِ بنِ أبي الفتوحِ الأنصاريُّ الخزرجيُّ**، كَانَ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - فقيهاً مُجِيداً، أُصُولِيًّا، نَحْوِيًّا، مُتَفَنِّناً في علومٍ جَمَّةٍ. حَدَّثَ عَنِ الرَّشيدِ العَطَّارِ(١)، وأجازَ لَهُ الشَّرَفُ المُرْسيُّ(٢)، والمُنْذِريُّ(٣).

---

(١) يحيى بن علي، أبو الحُسين، رشيد الدِّين العطار، توفي سنة ٦٦٢هـ. «العبر» ١٤/ ٢٧١.

(٢) في الأصل وباقي النسخ: «المريسي»، والتصويب من مصادر الترجمة.
وهو: محمَّد بن عبدالله بن محمَّد بن أبي الفضل السّلمي المرسي الأندلسي، شرف الدِّين أبو عبدالله، النَّحوي المُحدِّث المفسِّر، توفي سنة ٦٥٥هـ. «سير أعلام النبلاء» ٢٣/ ٣١٢، «شذرات الذهب» ٥/ ٢٦٩. ونسبته إلى مُرسية: بلدة بالأندلس.

(٣) عبدالعظيم بن عبدالقوي، زكيّ الدِّين، أبو محمد، المنذري، مصنِّف كتاب «الترغيب والترهيب»، تُوُفِّيَ سنة ٦٥٦هـ. «سير أعلام النبلاء» ٢٣/ ٣١٩.

وتفقَّهَ بِعِزِّ الدِّينِ بنِ عبدالسَّلامِ[(١)] قَليلاً، ثُمَّ بالسَّديدِ التِّزمَنْتِيِّ[(٢)]، والنَّصيرِ بنِ الطَّبّاخ[(٣)]، وأئمَّةِ وقتِهِ.

قَدِمَ المدينةَ سنةَ اثنتينِ وثمانينَ وستِّمِئَة مُتَوَلِّياً للخَطابَةِ، وَكَانَتْ الخَطابَةُ بأيدي آلِ سِنانَ[(٤)] بنِ عبدالوهابِ بنِ نُمَيْلَةَ الحُسينيِّ الشَّريفِ، وكَانَ الحُكْمُ أيضاً راجعاً إليهِم، ولَمْ يَكنْ لأهلِ السُّنَّةِ خَطيبٌ[(٥)] ولا حاكمٌ مِنْهُم، والظَّاهرُ أَنَّ ذٰلك مُنذُ استولى العُبَيدِيُّونَ[(٦)] عَلَى مِصْرَ والحجازِ، فَإِنَّ الخُطْبَةَ في المدينةِ المُشَرَّفَةِ كَانتْ باسمِهِم[(٧)].

فَلَمَّا كَانَ في سنةِ اثنتينِ وسِتِّينَ[(٨)] وأربعِمِئَةٍ[(٩)] وَقَعَ في مِصْرَ قَحْطٌ ووَبَاءٌ

---

(١) عبدالعزيز بن عبدالسَّلام بن أبي القاسم بن الحسن السّلمي الدمشقي، عزّ الدين، سُلطان العلماء، فقيه شافعي، بلغ رتبة الاجتهاد، مات بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ. «فوات الوفيات» ١/ ٢٨٧، «طبقات الشافعية الكبرى» ٥/ ٨٠ -١٠٧.

(٢) هو: عثمان بن عبدالكريم، من الفقهاء الشافعية، توفي سنة ٦٦٤هـ. «طبقات الشافعية» للإسنوي ١/ ١٥٣. والتِّزْمنتي: نسبة إلى تِزْمنت من صعيد مصر الأدنى. «معجم البلدان» ٢/ ٢٩.

(٣) هو: المبارك بن يحيى، أبو البركات، الفقيه، توفي سنة ٧٦٧هـ. «طبقات الشافعية الكبرى» ٨/ ٣٦٧.

(٤) «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٢٨.

(٥) في (أ) و(ب) بزيادة: «ولا إمام».

(٦) العُبيديُّون أو الذين اشتهروا بالفاطميين، نسبةً إلى عبدالله القدَّاح، سُلالة شيعية حكمت في تونس ومصر والشام وعلى أزمنة في الجزائر والمغرب والجزيرة العربية بين سنتي (٢٩٧هـ-٥٦٧هـ) حتى زالت دولتهم على يد السُّلطان صلاح الدِّين الأيوبي. انظر: «الكامل في التاريخ» ٨/ ٧٣، «سير أعلام النبلاء» ١٥/ ١٤١.

(٧) كان بدء الخطبة لهم بمصر سنة ٣٦٢هـ. انظر «البداية والنهاية» ١١/ ٣٢٩، ٣٤١.

(٨) في الأصل: «وثمانين»، والمثبت من باقي النسخ و«تاريخ الإسلام» للذهبي (أحداث سنة ٤٦٢هـ)، و«سير أعلام النبلاء» ١٨/ ٣١٥.

(٩) في الأصل وباقي النسخ: «وستِّمِئَة»، والصواب المُثبت من المصادر التاريخية.

لَمْ يُسْمَعْ في الدُّهورِ بِمِثْلِهِ، وكَادَ الخَرَابُ يَسْتَولي عَلَى وادِي مِصْرَ، حَتَّى ذُكِرَ أَنَّ امرأةً خَرجَتْ وبِيدِها مُدُّ جوهرٍ، فَقَالتْ: مَنْ يأخُذُهُ بِمُدَّينِ؟ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إليها أَحَدٌ، فأَلْقَتْهُ وقَالت: لا أُريدُ شيئاً لا يَنْفَعُنِي وقتَ الحاجَةِ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ أَحَدٌ إليهِ(١).

واشتغلَ العُبَيدِيُّونَ بِمَا أصابَهُم مِن ذٰلك، فحينَئِذٍ تَغَلَّبَ الخُلَفاءُ العباسِيُّونَ عَلَى الحجازِ، وأُقيمتِ الخُطْبَةُ لَهُم مِن ذٰلك العَهْدِ إلى يومِنا، واللهُ أعلمُ(٢).

وكَانَ أَخْذُ الخَطابةِ مِن آلِ سِنانَ في سنةِ اثنتينِ وثمانينَ وستِّمِئَةٍ، [١٢٠/أ] واستمرُّوا حُكَّاماً عَلَى حالِهِم، وكَانَ لأهلِ السُّنَّةِ إمامٌ يُصَلِّي بِهِم الصَّلواتِ فَقَطْ، وكَانَ السُّلطانُ يَومَئِذٍ المَلِكَ المَنْصُورَ سيفَ الدِّينِ قَلاوُونَ الصالحيَّ(٣)، فَأَوَّلُ خطيبٍ خَطَبَ لأهلَ السُّنَّةِ القَاضِي سِراجُ الدِّينِ، وكَانَ السُّلطانُ بَعْدَ ذٰلك يَبعثُ مَعَ الحَاجِّ شخصاً يُقيمُ لأهلِ السُّنَّةِ الخطابةَ والإمامةَ إلى نصفِ السَّنةِ، ثُمَّ يأتي غَيْرُهُ مَعَ الرَّجَبِيَّةِ إلى يَنْبُعَ، ثُمَّ إلى المدينةِ، وكُلُّ مَنْ جاءَ لا يقدِرُ عَلَى الإقامةِ نِصْفَ سَنَةٍ إلّا بِكُلْفةٍ ومَشَقَّةٍ، لِتَسَلُّطِ الإماميَّةِ مِنَ الأشرافِ وغَيْرِهِم عليهِ(٤).

---

(١) انظر «المنتظم» ٨/ ٢٥٦، «الكامل» ١٠/ ٦٠- ٦٢، «السِّير» ١٨/ ٣١٥ في ترجمة أمير المؤمنين القائم بأمر الله أبي جعفر العباسي المتوفَّى سنة ٤٦٧هـ «تاريخ الإسلام» للذهبي (أحداث سنة ٤٦٢هـ).

(٢) المصادر السابقة.

(٣) قلاوون الصالحي الملك المنصور، والد الناصر محمّد، تولى السَّلطنة في رجب ٦٧٨هـ، وكسر التتار، وغزا الفرنج غير مرة، تُوُفِّي في ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ. «النجوم الزاهرة» ٧/ ٢٩٢، «الشذرات» ٥/ ٤٠٩.

(٤) «التحفة اللطيفة» ٣/ ٣١٤.

فأوَّلُ مَنْ خَطَبَ السِّراجُ كَمَا تَقَدَّمَ.

ثُمَّ مِن بَعْدِهِ شخصٌ يُقالُ لَهُ: شمسُ الدِّينِ الحَلبيُّ(١).

ثُمَّ مِن بَعْدِهِ شرفُ الدِّينِ السِّنجارِيُّ(٢).

ثُمَّ استَقَرَّ سراجُ الدِّينِ المذكورُ خطيباً فخطَبَ بالمدينةِ أربعينَ سنةً، ثُمَّ سَافَرَ إلى مِصْرَ يَتَدَاوَى فَأَدركَهُ الموتُ بالسُّويْسِ مُتوجِّهاً إلى مِصْرَ، وذٰلك في سنةِ ستٍّ وعشرينَ وسبعِمِئَة.

وأَمَّا الأئمَّةُ مِن أَهْلِ السُّنَّةِ فَلَمْ يزالُوا بالمدينةِ قَبْلَ هٰذا التاريخِ، وأدركتُ ذُرِّيَّةَ المجدِ(٣) إمامِ الحَرَمِ؛ كَانَ مُعَظَّماً عِنْدَ الشُّرَفاءِ وَمُحَبَّباً إليهم، وَقَدْ مَلَكَ أملاكاً أَصلُهَا مِن تَمْليكِ الشُّرَفاءِ لَهُ، كأثارِبَ(٤) وغَيْرِهَا، وبَلَغَنِي أَنَّ عبدَالمنعمِ كَانَ وزيراً لَهُ، وَكَانَ مُدرِّساً في المدرَسَةِ الشِّهابيَّةِ، وَكَانَ يجلِسُ للتَّدريسِ والسَّيفُ معروضٌ بَيْنَ يديهِ.

وَكَانَ مُدرِّسَ المالكيَّةِ يومَئِذٍ الشَّيخُ أبو إسحاقَ(٥)، لَهُ كُتبٌ في المدرسة بخَطِّهِ وأوقَفَهَا، وَكَانَ مِنْهُم رجلٌ صالِحُ عالمٌ مُصَنِّفٌ(٦) وهُوَ صاحبُ «الضَّوابطِ الكُلِّيَّة في عِلم العَرَبيَّة».

---

(١) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٥١١٨).

(٢) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٥١١٣).

(٣) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٥١٤٢).

(٤) أثارب: موضع غربي قبر سيِّدنا حمزة بن عبدالمطلب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، به نخل كثيرٌ ملك لأهل المدينة. «وفاء الوفاء» ١/ ٩.

(٥) «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٧٦٣).

(٦) في الأصل: «منصف»، والمثبت من باقي النسخ.

وَكَانَ مِنْهُم النِّظَامُ؛ لَهُ ذُرِّيَّةٌ، وَكَانَ لَهُم بالمدينةِ أملاكٌ، وذكرَ أَنَّهُم أقامُوا في [١٢٠/ب] مَنْصِبِهِم مُسْتَضْعَفِينَ يجنبهمُ الشُّرَفاءُ ويُؤذُونَهُم، فارتحلُوا بأولادِهِم وتركُوا أملاكَهُم.

وكنتُ أَسْمَعُ مِن كِبارِ أهلِ المدينةِ أَنَّ الشُّرفاءَ بعثُوا إليهم وأَمَّنُوهُم عَلَى أَن يَرجِعُوا إلى المدينةِ، فَلَمْ يفعلُوا حَتَّى أُخِذَتْ أملاكُهُم وتُمُلِّكَتْ.

وبالمدينةِ موضعٌ يُسمَّى «النِّظَاميَّة» منسوبٌ إليهِم، وكَذٰلك موضعٌ يُقالُ لَهُ: «الإماميَّةُ» منسوبٌ إلى إمامِ المَسْجِدِ الشَّريفِ.

فَلَمَّا قُرِّرَ القَاضِي سراجُ الدِّينِ بالمدينةِ خطيباً فقط عَمِلُوا مَعَهُ مِنَ القبائحِ والأذى مَا لا يَصْبِرُ عَلَيهِ غَيْرُهُ، فَصَبَرَ واحْتَسَبَ، وأدرَكْتُ مِن أذاهُم لَهُ أَنَّهُم كَانُوا يَرْجُمُونَهُ بالحَصْباءِ وهُوَ يخطُبُ عَلَى المنبرِ!

فَلَمَّا كَثُرَ ذٰلك مِنْهُم تَقدَّمَ الخُدَّامُ وجلسُوا بَيْنَ يديهِ، فَذٰلك هُوَ السَّببُ في إقامةِ صَفِّ الخُدَّامِ يومَ الجُمُعَةِ قُبالَةَ الخَطِيبِ، وخَلْفَهُم غِلْمَانُهُم وعَبِيدُهُم؛ خِدْمَةً وحِمَايَةً للقُضَاةِ، وتَكْثِيراً للقِلَّةِ، ونَصْراً للشَّرِيعَةِ.

فانظُرْ كيفَ كَانَ اتِّحَادُهُم واجْتِمَاعُ قُلُوبِهِم، رحِمَهُمُ الله تَعَالى.

وكَانَ يُصْبِحُ بابُ بيتِهِ مَغْلُوقاً عَلَيه، وفي بعضِ الأحيانِ يُلَطِّخُونَهُ بالنَّجَاسَةِ ويَتَّبِعُونَهُ بكُلِّ أذى وَهُوَ صابرٌ، ورُبَّمَا عَذَرَهُم لاحْتِراقِهِم عَلَى خُرُوجِ المَنْصِبِ مِن أيديهِم بَعْدَ تَوارُثِهِم لَهُ، فَقَدْ كَانَ سِنَانُ قَاضِيَ المدينةِ وخَطِيبَهَا، وكَذٰلك والدُهُ عبدالوَهَّابِ[1] فيما يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّي.

---

(١) عبدالوهاب بن نُمَيْلَة الحسيني الوحادي المدني، قاضي المدينة وخطيبها من الإمامية. «التحفة اللطيفة» ٤/ ٤٨٨.

حَكَى لي الشَّريفُ سُلطانُ بنُ نَجادٍ - أَحدُ شيوخِ الشُّرَفاءِ الوَحَاحِدَةِ - قَالَ: أدركتُ القَاضِي شمسَ الدِّينِ سِنانَ يخطُبُ عَلَى المنبرِ ويذكرُ الصَّحَابة ويتَرَضَّى عَنْهُم، ثُمَّ يذهبُ إلى بيتِهِ فَيُكَفِّرُ عَن ذٰلك بِكَبْشٍ يَذْبَحُهُ ويَتَصَدَّقُ بِهِ! يَفْعَلُ ذٰلك كُلَّ جُمْعَةٍ عَقِيبَ الصَّلاةِ.

ومِمَّا حَكَاهُ ابنُ جُبيرٍ[1] في «رِحْلَتِهِ»[2] [١٢١/أ] وَعَدَّهُ مِنَ الغَرَائبِ الَّتِي رآهَا في رِحْلَتِهِ: أَنَّهُ قَدِمَ المدينةَ زائراً مَعَ الحاجِّ، فَحَضَرَتْ صَلاةُ الجُمُعَةِ وهُم بالمدينةِ، قَالَ: فطلعَ الخطيبُ وكَانَ مِنَ الشُّرَفَاءِ الإماميَّةِ، فخطَبَ ثُمَّ جَلَسَ في أثناءِ الخُطبةِ، وتَقَدَّمَ مِن عِنْدِهِ غِلمانٌ لَهُ يطوفُونَ عَلَى النَّاسِ يأخذُونَ مِنهُم شيئاً للخطيبِ، فجمعُوا لَهُ شيئاً ثُمَّ جاؤوا بِهِ إليهِ فَرَدَّهُ، وَقَالَ: لا يكفِيني!

فعادُوا عَلَى النَّاسِ الرِّجَالِ مِنْهُم والنِّساءِ فزادُوهُم فَلَمْ يَقْبَلْ، والنَّاسُ في ضِيقٍ مِن تأخِيرِهِم جُمُعَتَهُم.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَزلْ كَذٰلك [حَتَّى][3] قَرُبَ وَقْتُ العصرِ، فنزلَ وصَلَّى.

ثُمَّ إنَّ السِّراجَ تزوَّجَ بنتَ القِيشَانِيِّ[4]، وَكَانَ رئيسَ الإماميَّةِ وفَقِيهَهَا، حَتَّى قِيلَ: إنَّ المدينةَ لَمْ يَكُنْ بِهَا مَنْ يَعرِفُ مَذْهَبَ الإماميَّةِ حَتَّى جَاءَهَا القِيشَانِيُّونَ مِنَ العراقِ.

---

(١) محمد بن أحمد بن جبير الكناني، الأندلسي، أبو الحسين، رحالة أديب. توفي سنة ٦١٤هـ. «نفح الطيب» ١/ ٥١٥.

(٢) «رحلة ابن جبير» ص١٧٩، ١٨٠.

(٣) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب) و(ج) لا يصحّ الكلام دونها.

(٤) نسبة إلى قاشان: بلدة قرب أصبهان أهلها كلهم شيعة إمامية. «الأنساب» ٤/ ٤٢٧.

وذٰلك أَنَّهُم كانُوا أَهلَ مالٍ عظيمٍ، فصارُوا يُؤَلِّفُونَ ضَعَفَةَ النَّاسِ بالمالِ ويعلِّمُونَهُم قَواعدَ مذهَبِهِم، ولَمْ يزالُوا عَلَى ذٰلك حَتَّى ظهرَ مذهَبُهُم وكَثُرَ المُشْتَغِلُونَ بِهِ، وعَضَّدَهُ الأشرافُ في ذٰلك الزَّمانِ، ولَمْ يَكُنْ لَهُم ضِدٌّ، ولا في مِصْرَ والشَّامِ مَنْ يَلْتَفِتُ إليهم؛ لأنَّ الملكَ العادلَ نُورَ الدِّينِ[١] الشَّهيدَ كَانَ حَاكِماً عَلَى البَلَدَينِ، لٰكن كَانَ هَمُّهُ الجهادَ لا يَسْتَقِرُّ لَهُ قرارٌ.

ثُمَّ وَلي بَعْدَهُ المَلِكُ النَّاصرُ صلاحُ الدِّينِ يُوسُفُ بنُ أَيُّوبَ[٢]، فسارَ عَلَى طريقةِ الملكِ العادلِ وزادَ عَلَيهِ، وكَانَ صاحبَ المدينةِ أبو فُلَيْتَةَ قاسِمُ ابنُ المُهَنَّا[٣] يَحضُرُ مَعَهُ الفُتُوحَاتِ ويُلازِمُهُ في الغزواتِ، فَلَمْ يكُنْ أَحَدٌ يَجسُرُ عَلَى الكلامِ في الإماميَّةِ في ذٰلك الزَّمانِ[٤].

ولَمَّا صاهَرَهُمُ السِّراجُ انكفَّ عَنهُ الأذى قَليلاً، وصَارَ يخطُبُ ويُصَلِّي مِن غَيْرِ حُكمٍ ولا أمرٍ ولا [١٢١/ ب] نَهيٍ.

وكَانَ إِذَا عُقِدَ في البَلَدِ عَقْدُ نِكاحٍ بِغَيْرِ إذنِ عَليِّ بنِ سِنانٍ[٥] وأمرِهِ، طلبَ الفاعلينَ لذٰلك وعَزَّرَهُم وسَلَّطَ عَلَيهِم الشُّرَفَاءَ.

---

(١) الملك العادل نور الدين الشهيد، محمود بن عماد الدين زنكي، ولد سنة ٥١١هـ، وتُوُفِّيَ سنة ٥٦٩هـ. «سير أعلام النبلاء» ٢٠/ ٥٣١.

(٢) الملك الناصر السُّلطان صلاح الدِّين يوسف بن أيوب التكريتي، وُلد سنة ٥٣٢هـ وتُوُفِّيَ بدمشق سنة ٥٨٩هـ. «سير أعلام النبلاء» ٢١/ ٢٧٨.

(٣) القاسم بن مُهنَّا بن حسين بن مهنا، أبو فُلَيْتَة الحسيني المدني، أمير المدينة في أيام أمير المؤمنين المستضيء بالله العباسي. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٦٥، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٢١.

(٤) «الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ﷺ» ضمن كتاب «رسائل في تاريخ المدينة» ص١٤٢.

(٥) عليّ بن سنان بن عبدالوهاب بن نُمَيْلة، أحد حكّام الإمامية بالمدينة. «التحفة اللطيفة» ٥/ ١١٥.

وكَانَ المُجَاوِرُونَ وأَهْلُ السُّنَّةِ إِذَا أرادُوا عَقْدَ نِكاحٍ أو فَصْلَ خُصُومةٍ عَلَى مَذْهَبِهِم، يأْتُونَ والدِي لِيَعْقِدَ لَهُم أو يُصْلِحَ بَينَهُم، فيقولُ لَهُم: لا أفعَلُ حَتَّى يأتِيَنِي كِتَابُ ابنِ سِنان، فيذهبُونَ إلى عليِّ بنِ سِنانَ ويُعطُونَهُ مَا جَرَتْ بِهِ عادَتُهُ، فيكتُبُ لَهُم إلى والدِي مَا صُورَتُهُ: «يا أبا عبدالله، اعقِدْ نكاحَ فُلانٍ عَلَى فُلانةٍ»، أو «أَصْلِحْ بَينَ فُلانٍ وفُلانٍ».

ولَمْ يَزَلِ الأمرُ عَلَى ذٰلك حَتَّى كَانَتْ أَيَّامُ شيخِ الخُدَّامِ الحَرِيرِيِّ[1]، وقَدْ تَقَدَّمَ ذِكرُهَا وتاريخُهَا، فكَثُرَ المُجَاوِرُونَ وسأَلُوا المَلِكَ النَّاصِرَ مُحَمَّدَ بنَ قلاوُون أَنْ يكونَ لأهلِ السُّنَّةِ حَاكِمٌ يحكُمُ بَيْنَهُم، ويَحْمِلُهُم عَلَى مَذهَبِهِم، فجاءَ تَقْلِيدُ ذٰلك للقَاضِي سِرَاجِ الدِّينِ، وجاءَتْهُ عَلَى ذٰلك خِلْعَةٌ وأَلْفُ درهمٍ، وكَانَ فيهِ معرِفَةٌ ومُداراةٌ.

فقَالَ: أَنَا لا أَتولَّى حَتَّى يحضُرَ الأميرُ مَنْصُورُ بنُ جَمَّازٍ.

فأحضرُوهُ، فقَالَ لَهُ السِّراجُ: قَدْ جاءَنِي مِنَ السُّلطانِ مَرسُومٌ بكَذَا، وأنا لا أَقْبَلُ حَتَّى تكونَ أنتَ المُوَلِّيَ لي، فَإِنَّكَ إن لَمْ تَكُن مَعي لَمْ يَتِمَّ أمرِي ولا يَنْفُذْ حُكْمِي.

فَقَالَ لَهُ: قَدْ رَضِيتُ وأَذِنْتُ، فاحكُمْ ولا تُغَيِّرْ شيئاً مِن أحكَامِنَا ولا حُكَّامِنَا.

فاسْتَمَرَّ الحالُ عَلَى ذٰلك؛ يَحْكُمُ بَينَ المُجاوِرِينَ وأهلِ السُّنَّةِ، وآلُ سِنانَ يحكُمُونَ في بلادِهِم عَلَى جماعتِهِم وعَلَى مَنْ دُعِيَ إليهِم مِن أهلِ السُّنَّةِ، فلا يقدِرُ أَحَدٌ عَلَى الكلامِ في ذٰلك.

---

(١) هو شبل الدَّولة، كافور المظفري الحريري.

والتَّقَدُّمُ في الأمورِ لَهُم، وأَمْرُ الحَبْسِ راجعٌ إليهِم، والأعوانُ تختصُّ بِهِم، والإسْجَالاتُ تُثبَّتُ عَلَيهِم، والسِّراجُ يَسْتَعِينُ [١٢٢/أ] بأعوانِهِم وبِحَبْسِهِم.

استمرَّ ذٰلك الحالُ مُدَّةَ السِّراجِ حَتَّى مَاتَ، وكَانَ السِّرَاجُ - رحمهُ الله تَعَالَى - يُواسِي الضُّعَفَاءَ ويَتَفَقَّدُ الأَرامِلَ والأيتامَ بِبِرِّهِ وزكاتِهِ، ويقصِدُهُم في بُيُوتِهِم بنَفْسِهِ.

وكَانَ لا يَرُدُّ مَنْ سَأَلَهُ قَرْضاً، بَلْ يأخُذُ منهُ رَهْناً ويُعْطِيهِ ما أرادَ.

وكَانَ قَبلَ ولايتِهِ الحُكْمَ طَوعاً للنَّاسِ الَّذِينَ عاصَرُوهُ مِن أهلِ الصَّلاحِ، يُصَلِّي كَمَا يَشْتَهُونَ مِن تَطويلٍ وتَقصيرٍ، وتكمِيلِ السُّورَةِ في الرَّكعةِ، ومُلازَمَةِ الطَّيْلسانِ[١]، ومسحِ جميعِ رأسِهِ.

وكَانَ إِذَا جَلَسَ للدَّرسِ يَنْتَظِرُ كِبارَ أصحابِهِ، وكَانَ مِراراً يَبْعَثُ إلى والدِي وَهُوَ في بيتِهِ بأَنَّ الجماعَةَ يَنْتَظِرُونَكَ، فَيَتَوَضَّأُ ويُصَلِّي الضُّحَى، ثُمَّ يخرجُ إليهِ فيجدُهُ جالساً مَعَ الجَمَاعَةِ لَمْ يَشْرَعْ في الدَّرْسِ.

فَلَمَّا وَلِيَ الحُكْمَ تنكَّرَتْ عَلَيهِم أَخلاقُهُ، وصَارَ يَرمِي عَلَيهم كَلِماتٍ يَغِيظُهُم بِهَا وَإِن لَمْ يكُن تَحْتَهَا طائِلٌ، فَنَفَرَتْ نُفُوسُهُم مِنهُ، وتَفَرَّقُوا عَنهُ.

كَانَ يحضُرُ دَرْسَهُ جمالُ الدِّينِ المَطَرِيُّ، ووالدِي، وجماعةُ المالكيَّةِ وغَيرُهُم، والشَّيخُ أبو عبدالله النَّحْوِيُّ، وكَانَ مِنَ الأَئِمَّةِ الكِبَارِ، يُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ يُتْقِنُ اثْنَي عَشَرَ عِلْماً، وكَانَ مِنهُم الشَّيخُ عِزُّ الدِّينِ يُوسُفُ

---

(١) الطَّيْلَسان: ضربٌ من الأكسية يُلبس على الكتف، أو يحيط بالبدن، خالٍ عن التفصيل والخياطة. «اللسان»: طلس.

الزَّرَنْدِيُّ، وكَانَ مِنهُم الشَّيخُ الأديبُ أبو البَرَكاتِ(١)، فَمَا مِن هٰؤلاءِ أَحَدٌ إلا نَفَرَ عَنْهُ، وفارَقَ دَرْسَهُ؛ لِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ.

فجَلَسَ يوماً في درسِهِ فَلَمْ يَرَ مِنَ الجماعةِ أَحداً إلّا مَنْ لا يُؤْبَهُ لَهُ.

فقَالَ: أَينَ أصحابُ اليَمِينِ؟ أَينَ أصحابُ الشِّمالِ؟ أَصحَابُنَا ضِدَّ الأنْصَارِ، يَكثُرُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ، ويَقِلُّونَ عِنْدَ الفَزَعِ(٢).

وقَالَ لَهُ بعضُ الطَّلَبَة: قَالَ الشَّيخُ أبو إسْحَاقَ(٣): في هٰذه المسألةِ كَذَا.

فَقَالَ: قَلقَلَ اللهُ أنيابَهُ!

فقِيلَ لَهُ في ذٰلك، فَقَالَ: قَدْ تَقَلقَلتْ مُنذُ زمانٍ.

وإذَا قِيلَ لَهُ: [١٢٢/ ب] قَالَ النَّوَوِيُّ(٤)، فَقَالَ: ذٰلك يَعْلِكُ النَّوَى!

ويقولُ للمالكيَّةِ: أَنْتُم تقولونَ: الكلبُ حَيَوانٌ ذُو صُوفٍ، فَلَحمُهُ كَلَحْمِ الخَرُوفِ! فيَتَأَذَّونَ مِن ذٰلك.

---

(١) الشيخ أبو البركات أيمن بن محمد السعدي، المتقدِّم ذِكره.

(٢) يشير إلى حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قدم على رسول الله ﷺ بمالٍ من البحرين، فتسامعت به المهاجرون والأنصار، فغدوا إلى رسول الله ﷺ...» وذكر حديثاً طويلاً فيه: «وقال للأنصار: إنكم ما علمتُ تكثُرون عند الفزَع وتَقِلّون عند الطمع». ذكره في «كنز العمال» (٣٧٩٥١) وعزاه إلى العسكري في «الأمثال»، وذكره الخطابي في «غريب الحديث» بلفظ آخَر وقال: يرويه الواقدي عن ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين عن محمود بن لبيد، وفي سنده الواقدي وهو متروك.

(٣) هو إبراهيم بن علي، أبو إسحاق الشيرازي الشافعي، المتوفى سنة ٤٦٧هـ، صاحب كتاب «المهذب» في الفقه الشافعي.

(٤) هو يحيى بن شرف، محيي الدِّين النووي الشافعي محرِّر المذهب الشافعي، المتوفى سنة ٦٧٦هـ.

وَكَانَ يحضُرُ دَرسَهُ أيضاً الفقيهُ الفاضِلُ أبو العَبَّاسِ أَحْمَدُ الفَاسِيُّ[(١)]، فجَلَسَ يوماً قَريباً مِنْهُ، وكَانَ يَتَجَاهَلُ، فَقَالَ: مَنْ هٰذا؟

فَقَالَ: أَنَا أَحْمَدُ الفَاسِيّ، فَقَالَ لَهُ: مِن: فَسَى يَفْسُو فُسَاءً فَهُو فاسٍ!

ولقِيَهُ الشَّيخُ أبو البَرَكاتِ بَعدَ أَن تركَ دَرْسَهُ وخَرجَ مِنَ المَدْرَسَةِ وسكَنَ رِباطَ دُكَّالة، فَقَالَ لَهُ السِّرَاجُ: مَنْ هٰذا؟ وكَانَ يُظْهِرُ التَّعامِيَ وقِلَّةَ السَّمْعِ، ومَا هُمَا بِهِ.

فقَالَ: أنا أبو البَرَكاتِ. فَقَالَ: بَلْ أبو الهَلَكاتِ!

فَقَالَ لَهُ أبو البركاتِ: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾[(٢)]، وافترقَا.

ولَقِيَهُ يوماً في الطَّريقِ، فقالَ لَهُ: أنتَ أبو البَرَكاتِ؟ فقَالَ: نَعم.

فَقَالَ: أوحَشْتَنَا وأَوْحَشَنا أُنْسُكَ.

فَقَالَ أبو البَرَكاتِ:

إِذا تَرَحَّلتَ عَن قَومٍ وَقَدْ قَدِرُوا ... أَن لا تُفَارِقَهُم فَالرَّاحِلُونَ هُمُ[(٣)]

فقَالَ لَهُ السِّرَاجُ: فالرَّاحلونَ أَنتَ! وافترقَا.

وكَانَ فيهِ صبرٌ عظيمٌ، واحتمالٌ كثيرٌ.

---

(١) أحمد التَّادلي الفقيه، أبو العباس المغربي المالكي، وكانت وفاته سنة ٧٤١ هـ. «التحفة اللطيفة» ١/ ٣٢٨. واسم أبيه: عبدالرَّحمٰن. «المغانم المطابة» ٣/ ١١٧٥.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩].

(٣) هٰذا البيت من قصيدة طويلة للمتنبي يمدح سيف الدَّولة، أوَّلها:

وَاحَرَّ قلباهُ ممَّن قلبُهُ شَبِمُ ... ومَن بِجسمِي وحالي عنده سَقَمُ

انظر: «شرح ديوان المتنبي» للعكبري ٢/ ٢٨٩.

وَكَانَ في أيامِهِ رَجُلٌ إماميٌّ مِن حَلَبٍ، وكَانَ يسكُنُ في دارِ تميم الدَّارِيِّ، لَهُ ثروةٌ ورِئاسةٌ، فكَانَ يجلِسُ للسِّراجِ عَلَى طريقِهِ عِنْدَ بَابِ الرَّحمَةِ، فإذَا دَنَا مِنْهُ يقولُ لَهُ: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾[1]، هٰكَذَا أبداً وَهُوَ لا يُجَاوِبُهُ ولا يُعيدُ الكلامَ لَهُ، حَتَّى انتقمَ اللهُ لَهُ مِنْهُ.

وذٰلك أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ جَاريةٌ كَأَنَّهُ نَقَمَ عَلَيهَا شيئاً فعاقبَهَا حَتَّى قتلَهَا، فَبَلغَ ذٰلك الأميرَ منصوراً فَمَسَكَهُ ودَخَلَ بيتَهُ وأَخذَ مِنْهُ [١٢٣/ أ] ألفَ دينارٍ.

وتَقَدَّمَ ذِكرُ وفاةِ السِّراجِ، وكَانَ مولِدُهُ في سنةِ خمسٍ أو ستٍّ وثلاثينَ وستِّمِئَةٍ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثُمَّ وَلِيَ مَنْصِبَ الحُكْمِ بَعْدَهُ الشَّيخُ الإمامُ العالِمُ الفاضلُ **عَلَمُ الدِّينِ يعقوبُ بنُ جمالٍ القُرشِيُّ** المُتقدِّمُ ذِكرُهُ، وكَانَ الفقيهُ عَلَمُ الدِّينِ نائباً للقَاضِي سِرَاجِ الدِّينِ في الأحكامِ، ولَمَّا تُوُفِّيَ السِّراجُ سَعَى لَهُ بعضُ أصحابِهِ في الاسْتِقْلالِ بِالمَنْصِبِ ووجَدُوا مَنْ رَضِيَ بِمَنْصِبِ الخَطَابَةِ والإِمَامَةِ، فأُجِيبَ إلى ذٰلك فَوَلِيَ القَضَاءَ.

ووَلِيَ الخَطَابَةَ والإِمَامَةَ الأخُ في الله: **بَهاءُ الدِّينِ بنُ سَلامَةَ المِصْرِيُّ**[2]. كَانَ فَاضِلاً أديباً مِن صُدُورِ الكُتَّابِ الرُّؤَسَاءِ المُعْتَمَدِ عَلَيهِم، وكَانَ يفُكُّ الخَطَّ المُعَمَّى بالسُّرْعَةِ حسبَمَا يَقِفُ عَلَيهِ، يكتُبُهُ تَحْتَهُ نَثْراً كَانَ أو نَظْماً.

---

(١) العلق: ٩.

(٢) موسى بن عبدالرَّحمٰن بن سلامة المصري، بهاء الدِّين، تولى الإمامةَ والخطابةَ بالمسجدِ النَّبويِّ قبلَ ٧٣٠هـ سنين، ثُم عزل نفسه واستقال، وعادَ إلى القاهرةِ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٣١٩.

وَكَانَ لَهُ خَطٌّ حَسَنٌ قَلِيلُ المِثْلِ، ورُبَّمَا كَانَ يكتُبُ المَصَاحِفَ ويُهدِيها لأصْحَابِهِ مِنَ الأُمَرَاءِ، فَيَبْعَثُونَ لَهُ بِأَلْفِ دِرْهَم ومَا قارَبهَا عَلَى كُلِّ مُصحفٍ، ثُمَّ تَخَلَّفَ عَن صناعةِ الكتابةِ للسُّلطَانِ، فأبقَى السُّلْطانُ عَلَيهِ مَعْلُومَهُ، وزادَهُ مَعْلُوماً آخرَ في دِمَشْقَ.

وأقامَ بالمدينةِ سَنتَينِ خَطِيباً، ثُمَّ عَزَلَ نفسَهُ واستقالَ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَرَ نفسَهُ أهلاً لِمَا شَرطَهُ الواقِفُ مِن مَعْرِفَةِ القِرَاءَاتِ ومَعْرِفَةِ الفَرَائِضِ، فَخَافَ عَلَى دِينِهِ وآثَرَ رِضَى رَبِّهِ، فَأَرسَلَ يستَقِيلُ.

فَلَمَّا عُزِلَ وَلِيَ القاضي شَرَفُ الدِّينِ الأُمْيُوطِيُّ الوَظِيفَتَينِ جميعاً، وعُزِلَ القَاضِي عَلمُ الدِّينِ.

وكَانَ الفقيهُ يَعقوبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَاكِماً عَادِلاً فقيهاً فاضلاً رَئِيساً، وكَانَ مُقَدَّماً عِنْدَ القَاضِي [١٢٣/ ب] سِراجِ الدِّينِ، يُحِبُّهُ ويُعَظِّمُهُ ويُشاوِرُهُ.

قَالَ لِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واللهِ، مَا فَرِحْتُ بِهٰذا المَنْصِبِ، وإِنِّي لأرجُو أَن يُقِيلَنِي اللهُ تعالى مِنْهُ.

وذَكَرَ لِي أَنَّهُ رَأَى فِي المنَام كَأَنَّهُ عَلَى سَطْحِ قُبَاءَ، وأَنَّهُ عَلَى طَرَفِ الحائطِ قَدْ تَدَلَّى، ولَمْ يبقَ إِلّا أَن يَسْقُطَ فَيَهْلَكَ، وهُوَ مِنَ الخوفِ في أعظمِ مَا يكونُ حَتَّى نَجّاهُ اللهُ تَعَالى، وكَانَ ذٰلك تسليةً لَهُ عِنْدَ العزلِ.

وكَانَ قَدْ جَرَى فِي أَحكامِهِ عَلَى السَّدَادِ، وخُصُوصاً عَلَى الخُدَّامِ، وَمَنَعَهُم مِنَ الشَّمْعِ والدَّرَاهِمِ وغَيْرِ ذٰلك مِمَّا يجمَعُونَهُ فِي صُنْدُوقِ النُّذُورِ فِي أيامِ الموسمِ، وقَالَ لَهُم: هٰذا يُجرى في مَصَالح الحَرَم لا يجوزُ قَسْمُهُ بَيْنَكُم.

فَتَضَيَّقُوا مِن ذٰلك وعَزَّ عَلَيهِم، فغلبَهُم عَلَيهِ ولَمْ يصرِفْ لَهُم مِنْهُ شيئاً، وكَانَ الحقُّ مَعَهُ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي سنةِ خمسٍ وأربعينَ وسبعِمِئَة. ومولِدُهُ فِي سنةِ ستٍّ(١) وثمانينَ وستِّمِئَة.

ثُمَّ وَلِي القَضاءَ والإمامَةَ والخَطَابَةَ الشَّيخُ الإمامُ العلَّامَةُ زينُ الفُقَهاءِ صدرُ المُحَدِّثِينَ **شَرَفُ الدِّينِ أبو الفتحِ مُحَمَّدُ** ابنُ القَاضِي عِزِّ الدِّينِ أبي عبدالله مُحَمَّدِ ابنِ الشَّيخِ كَمالِ الدِّينِ أبي العَبَّاسِ أَحْمَدَ بنِ العلّامةِ شيخِ الشَّافِعِيَّةِ إبراهيمَ بنِ يحيى بنِ أبي المجدِ اللَّخْمِيُّ الشافعيُّ المِصْرِيُّ، المعروفُ **بابنِ الأُمْيُوطيِّ**، تغمَّدَهُ اللهُ برَحْمَتِهِ.

كَانَ شرفُ الدِّينِ فقيهاً فُرُوعِيًّا حَافِظاً للمَذْهَبِ، قَلَّ أَنْ رأيتُ مثلَهُ فِي حِفْظِهِ وغَزَارةِ عِلْمِهِ، وأَمَّا كلامُهُ عَلَى الحديثِ واستنباطُهُ لعلومِهِ ومَا يَسْتَلوِحُ مِن فوائِدِهِ فالعَجَبُ العَجِيبُ.

قَالَ لِي أَخي عليٌّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَطعتُ هٰذه البلادَ شرقاً وغرباً لَمْ أَرَ أحداً يتكلَّمُ عَلَى الحديثِ مثلَهُ. [١٢٤/أ]

وكَانَ كريماً جَواداً، حَسَنَ المُحَاضرةِ، لَيِّنَ العَرِيكَةِ، حَتَّى ينحرفَ فكأَنَّهُ غَيْرُ الَّذِي تَعْرِفُ.

ولَمَّا قَدِمَ المدينةَ عَرَضَ عَلَى القَاضِي يعقوبَ بنِ جمالٍ النِّيَابَةَ عَنْهُ فِي الأحكامِ فامتنعَ، فَنَزَلَ لَهُ عَن تدريسِ المدرسةِ الشِّهابيةِ فقَبِلَهَا، واستمرَّ مُدرِّساً للشّافِعِيَّةِ مُحَبَّباً إلى النَّاسِ.

(١) في (أ): «ثمان».

وكَانَ فِي القَاضِي شرفِ الدِّينِ شِدَّةٌ عَلَى الأشرافِ، وكَانَ لَهُ هَيْبَةٌ عظيمةٌ، سقاهُمُ المُرَّ، وأذاقَهُمُ الصَّبِرَ.

وأَمَّا سَطْوَتُهُ عَلَى الإماميَّةِ وتوبيخُهُ لَهُم في المحافلِ وسبُّهُم عَلَى المنبرِ، فَأمرٌ مشهورٌ لا يحتاجُ إلى وَصْفٍ، ولا تَكَادُ السِّنُونُ والأعوامُ تُبِيدُ ذِكرَهُ، وكَانَ إِذَا قَامَ فِي الأمرِ لا يَرْجِعُ عَنْهُ ولو خُوِّفَ مِن عاقبَتِهِ.

وكَانَ مُتَمَسِّكاً بالسُّنَّةِ يتَّبعُ أشدَّهَا، ويحمِلُ نفسَهُ عَلَى أشَقِّهَا، رأيتُهُ في يومٍ صائفٍ مُحْرِماً مُتَجرِّداً راكباً عَلَى حِمَارٍ لَمْ يَزلْ عَلَيهِ حَتَّى كَمَّلَ حَجَّهُ، ورجعَ إلى المدينةِ ليسَ لَهُ مَرْكَبٌ غَيْرُهُ، ورأيتُهُ وقَدْ أكَلَتْهُ الشَّمْسُ وتَقَشَّرَ جِلدُهُ ودَمِيَ وَجْهُهُ، فَعَرَضْتُ عَلَيهِ الرُّكُوبَ في الشُّقْدُفِ[1] فَلَمْ يفعَلْ.

وكَانَ قَدْ أرادَ أَن يُسَوِّيَ الحُفرَةَ الَّتِي فِي مِحرابِ النَّبِيِّ ﷺ ببناءٍ أو خَشَبٍ فَلَمْ يُوافَقْ عَلَى ذٰلك، فتركَ الصَّلاةَ في المحرابِ وصَلَّى عَلَى يَسَارِ المحرابِ قريباً مِنَ الشُّبَّاكِ، واستَمَرَّ عَلَى ذٰلك حَتَّى مَاتَ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقَدْ تَقَدَّمَ الكلامُ عَلَى ذٰلك.

وهُوَ الَّذِي أبطلَ صَلاةَ النِّصْفِ مِن شَعبانَ[3]، وَكَانَ تبطيلُهَا عَزيزاً عَلَى

---

(١) الشُّقْدُفُ: مركب معروفٌ بالحِجَاز يَرْكَبُه الحُجَّاج إِلَى بَيْتِ الله الحَرَام، والجَمْع: شَقَادِف. «تاج العروس»: شقدف. وهو أشبه بالهودج للمرأة مصنوعٌ من الخشب.

(٢) «وفاء الوفا» ١/ ٣٧٥.

(٣) كان يُدَّعى أنّ فيها أحاديث، مرَّة تُصلَّى مئة ركعة، وفي رواية: عشر ركعات، تُقرأ فيها سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ألف مرَّة! إلى غير ذٰلك من الرِّوايات. قال السُّيوطيُّ في الحديث الوارد بذٰلك: «موضوعٌ، وجمهورُ رُواته في الطرق الثلاثة مجاهيل، وفيهم ضعفاء، والحديث محال». «اللآلئ المصنوعة» ٢/ ٥٩.

النُّفُوسِ قَدِ اعتادُوا صلاتَها، ومُبتَدعَاتٍ كَانَتْ مَعهَا، مِنْهَا: زينةُ المَسْجِدِ الشَّرِيفِ، وكَثرةُ الوَقَائِدِ(١)، وكثرةُ النِّساءِ واختلاطُهُنَّ بالرِّجالِ، والصِّياحُ مِنَ الصَّغِيرِ والكبيرِ حَتَّى لا يَبْقَى [١٢٤/ب] للحَرَم حُرمَةٌ ولا يملِكُهُ القَومَةُ.

وكَانَ لَهُ غَيْرَةٌ عَلَى أهلِ السُّنَّةِ وإِن عَلِمَ مِن كثيرٍ مِنْهُم الكراهةَ لَهُ، فيُسَدِّدُ أحوالَهُم، ويُقِيمُ حُرمَتَهُم عِنْدَ أمراءِ المدينةِ، ويُجاهِدُ بنفسِهِ في حَقِّهِم.

وَلَهُ تَوَاليفُ مفيدةٌ في الكلامِ عَلَى الحديثِ وغيرِهِ، مِنْهَا: «الجواهرُ السَّنِيَّةُ في الخُطَبِ(٢) السُّنِّيَةِ» قَلَّ أَنْ يَخْلُو مِنْهَا خُطبَةٌ إلّا وفيها ذِكْرُ البِدْعَةِ وأهلِهَا، وتوبيخُهُم بِمَا هُم عَلَيهِ.

ونَزَلَ مَرَّةً مِن عَلَى المنبرِ لِضَرْبِ رَجُلٍ مِنَ الإماميَّةِ كَانَ يَتَنَفَّلُ زيادةً عَلَى تحيَّةِ المَسْجِدِ، ويُؤدِّي ظُهْرَ الجُمُعَةِ أربعاً في أثناءِ ذٰلك التَّنَفُّلِ؛ لأَنَّهُم لا يَعْتَقِدُونَ إقامةَ الجُمعةِ إلّا خَلْفَ إمام مَعْصُومٍ! وَهٰذا كَانَ عادتَهُم مَعَهُ ومَعَ غيرِهِ، فنهَاهُم عَن ذٰلك فانْتَهوا إلّا مَنْ قَوِيَ تَشَيُّعُهُ وتَعَصُّبُهُ، فكَانَ يَصيحُ عَلَيهِم وَهُوَ عَلَى المنبرِ ويأمرُ بِجَرِّهِم إلى عندِهِ فَيَضْرِبُهُم.

وكَانَ الإماميَّةُ يُصَلُّونَ صَلاةَ العِيدِ في المَسْجِدِ الَّذي في المُصَلَّى المنسوبِ بزعمِهِم إلى عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَمَنَعَهُم مِنَ الصَّلاةِ فيهِ،

(١) أي: المشاعل.

(٢) في الأصل: «الخطبة»، والمثبت من (ب) و(ج) و«المغانم» ٣/ ١٢٧٨.

وألزمَهُم بِالدُّخُولِ مَعَ أَهْلِ السُّنَّةِ في المَسْجِدِ الموجودِ اليومَ، وذٰلك في يومِ عيدِ الأضحى مِن سَنَةِ ستٍّ وثلاثينَ وسبعِمِئَة.

وَكَانَ عَلَيهِم سَيفاً لا يُغْمَدُ، لٰكنَّه لا يَتعَرَّضُ لِحُكَّامِهِم، فكانُوا في أيَّامِهِ عَلَى عادَتِهِم مَعَ السِّرَاجِ، وكَانَ يحبِسُ في حَبْسِهِم ويستعينُ بِغِلْمانِ الوَالي، وكَانَ حَبْسُ المدينةِ واحداً يَحْبِسُ فِيهِ الأميرُ والقَاضِي، وَهُوَ الموجودُ اليومَ في ساحةِ القلعةِ.

كَانَ لي مَعَهُ - أعني القَاضِي شرفَ الدِّينِ - مقاماتُ سُوءٍ لا يَحْسُنُ ذِكرُهَا هُنَا؛ لأنَّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى حُظُوظِ نُفُوسِ الحَسَدَةِ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَهُ، حَتَّى إنِّي وصلتُ أَنَا وَهُوَ [١٢٥/أ] إلى الملكِ النَّاصرِ لَمَّا حَجَّ حَجَّتَهُ الثَّالِثَةَ(١) سنةَ اثنتين(٢) وثلاثينَ وسبعِمِئَة(٣)، فَأَمَرَهُ السُّلْطَانُ ألّا يَتعَرَّضَ لي وأَن يُنْصِفَنِي مِن نَفْسِهِ، وَوَصَّى صَاحبَ المدينةِ بمُراعَاتي والنَّظَرِ في الأحوالِ الَّتِي أشكُوهَا مِنْهُ، فَلَمْ يُفِدْ فيهِ ذٰلك.

ولَمَّا تَحَقَّقَ الأميرُ طُفيلٌ أنِّي مَعَهُم مَظلومٌ، وأَنَّهُم قَدْ تَظَاهَرُوا وتعاضَدُوا عَلَى أذِيَّتِي عِندَ القَاضِي شَرَفِ الدِّينِ(٤) بَعَثَ إلى أَحْمَدَ الفَاسِيِّ(٥) نائبِ القَاضِي شرفِ الدِّينِ ونفَاهُ إلى خَيْبَرَ، واستقرَّ بِهَا مُدَّةً، وَلَمْ يَرْجع إلّا بَعْدَ أَن اسْتَعْطَفَهُ

(١) حج الملك الناصر محمد بن قلاوون حجته الأولى سنة ٧٠٨هـ، وحج سنة ٧١٢هـ، وحج سنة ٧١٩هـ. «البداية والنهاية» ١٤/ ٥٣، ١٤/ ٧٧-٧٨، ١٤/ ١٠٧.

(٢) في (أ) و(ب) إحدى، وفي الأصل و(ج) اثنين.

(٣) وهٰذه حَجَّته الرابعة. «البداية والنهاية» ١٤/ ١٨٢

(٤) في باقي النسخ زيادة: ودخل عليه مراراً كثيرة.

(٥) في «التحفة»: أحمد الخراساني الفاسي. لم نعثر له على ترجمة.

شرفُ الدِّينِ ودخلَ عَلَيهِ مرَاراً كثيرةً، فَلَمَّا جَاءَ مِن خَيْبَرَ أَقامَ أَيَّاماً قَليلةً، ثُمَّ تُوُفِّيَ إلى رحمةِ الله في سنةِ ثلاثٍ وثلاثينَ وسبعِمِئة.

وتَهَدَّدَ الأميرُ طُفيلٌ بقيَّةَ الجماعةِ البُعَداءِ الَّذِينَ أَهلكَهُم فِعْلُهُم، ومَا اللهُ بغافلٍ عَنْهُم، وهُوَ المَوعِدُ بَيْنِي وبَيْنَهُم يومَ تُبلَى السَّرَائرُ.

هٰذا مَعَ كونِهِ إِذَا رآني عَظَّمَنِي وقَامَ لي ونَوَّه في المجلِسِ بذكري حَتَّى أَقُولَ: قَدْ صَفا قلبُهُ، فَإِذَا خَلا بِهِ شياطِينُ الإِنْسِ عَطفُوا قَلْبَهُ إلى كلامِهِم.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالى أَحوجَهُ إلى مُساعَدَتِي لَهُ في قَضِيَّةٍ، فساعدتُهُ فيما طَلَبَ وبذلتُ جُهدِي لَهُ، وحَصَلَ عَلَى مقصودِهِ، فصَفا قَلْبُهُ وأَعرَضَ عَن جميعِ مَا كَانَ سَمِعَهُ، ورأيتُ مِنْهُ إنصافاً أزالَ مَا رأيتُهُ مِنْهُ مِنَ الشِّقَاقِ والتَّعَبِ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعَفَا عَمَّنْ كَانَ السَّبَبَ.

ولِهٰذه الأطرافِ تَتِمَّاتٌ فيها عَجَائِبُ وتَحْتَهَا غَرَائِبُ، لو بَسَطْتُ القَولَ فيها لخرجتُ عَنِ المقصودِ، وإِنَّمَا الغَرَضُ التَّنْظِيرُ بِمَنْ فِيهِ تَقرِيعٌ بأَهْلِ زمانِنَا، واللهُ تَعَالى يغفرُ للجميع.

واستنابَ القَاضِي شرفُ الدِّينِ في فصلِ الخُصُوماتِ دُونَ الخَطَابةِ والإِمَامَةِ: الفقيهَ [١٢٥/ ب] أَحْمَدَ الفَاسِيَّ المراسني.

ثُمَّ الفقيهَ العَالِمَ الفاضلَ الأُصُولِيَّ الفروعيَّ **أبا العَبَّاسِ أَحْمَدَ التَّادِلِيَّ**[1]، وكَانَ وَرِعاً عَفِيفاً دَيِّناً، فَاضِلاً في مذهبِ مالكٍ، إماماً في أصولِ الفقهِ، ولَهُ «شرحُ رسالةِ ابنِ أبي زيدٍ»[2] كِتاباً حَفِيلاً مُمتِعاً، ولَهُ «شرحُ عُمدةِ

---

(١) تقدَّم ذِكره، والتَّادلي: نسبة إلى تادلة، بلدة بين فاس ومراكش. «الموسوعة المغربية» ٤/ ٣٠٣

(٢) «الرسالة» في الفقه المالكي، لابن أبي زيد القيرواني، تُوُفِّيَ سنة ٣٩٠هـ.

الأحكام» مِن أَحْسَنِ مَا وُضِعَ عَلَيهَا، ولَهُ «شرحُ تنقيحِ القَرافيِّ»[(١)] في أصولِ الفقهِ لَمْ يُوضَعْ عَلَيهِ فيمَا رأينا أَحْسَنُ مِنْهُ، وكُلُّ تَوَاليفِهِ وتقاييدِهِ مُفيدةٌ.

وتَوَلَّى دَرْسَ غشاوةَ، فَلَمْ يتناولْ مِن تَمرِ الحديقةِ الَّذِي يُفرَّقُ اليومَ عَلَى الجماعةِ شيئاً، بسببِ مَا ذكرنَاهُ في ترجمةِ الشَّريفِ يعقوبَ، وكَانَ يَصرِفُ نصيبَهُ إلى الفقيهِ مُحَمَّدٍ التِّلمسانِيِّ لكونِهِ مِن طَلَبةِ المدرسةِ الشِّهابِيَّةِ.

ثُمَّ نَقَمَ عَلَيهِ - أي عَلَى الشَّيخِ التَّادلي - القَاضِي شرفُ الدِّينِ أشياءَ، مِنْهَا:

دُخُولَهُ في قَضِيَّةِ ابنِ مُطرِّفٍ في العِهْنِ[(٢)]، فإنَّ الفقيهَ شِهابَ الدِّينِ التَّادليَّ أَثبتَ لَهُ مَحْضَراً مُشتمِلاً عَلَى أنَّ بيعَ عَليٍّ المذكورِ للعِهْنِ كَانَ وهُوَ في الحبسِ مَقهوراً مَغصُوباً، وأَنَّ البيعَ باطلٌ، فَلَمَّا أَثْبَتَ التَّادليُّ المَحضرَ لنَافِعِ بنِ عَليِّ بنِ مطرِّفٍ توجَّهَ إلى رباطِ الفخرِ وأَخذَ جَمِيعَ مَا فِيهِ مِنَ التَّمرِ، فغَضِبَ القَاضِي شَرَفُ الدِّينِ وَلَمْ يُصَلِّ بالنَّاسِ صَلاةَ الظهرِ ولا أَحَدٌ مِن جِهَتِهِ، وصَلَّى بالنَّاسِ ثلاثةُ أئمةٍ: عِزُّ الدِّينِ الوَاسِطِي، وأَخِي عَليٌّ، وشخصٌ آخَرُ، ولَمْ يأتِ يَومَ الجُمُعةِ إلّا بِكُلْفةٍ بَعْدَ أَن دَخَلَ عَلَيهِ مَانِعُ ابنُ عليٍّ[(٣)]، وذٰلك في سنةِ سبعٍ وثلاثينَ وسبعِمِئة.

ثُمَّ عَزَلَهُ واستنابَ شيخَنَا الإمامَ العَلَّامَةَ جَمَالَ الدِّينِ المَطَرِيَّ في الحُكمِ والخطابةِ والإمامةِ، فَكَانَ جَمَالاً للمنصبِ، رحمهُ الله تَعَالى.

---

(١) «تنقيح الفصول في اختصار المحصول»، لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، تُوُفِّيَ سنة ٦٨٤هـ، طبع شرحُه للقرافي في القاهرة عام ١٩٧٣م.

(٢) العِهْن: بئر معروفة بالعالية، ورجَّح السَّمهودي أنها بئر اليسيرة، وهي لبني أمية بن زيد. «المغانم المطابة» ٢/ ٦٧٤، «وفاء الوفا» ٣/ ٣٨٨.

(٣) أمير المدينة، ستأتي ترجمته في فصل أمراء المدينة.

تُوفِّيَ القَاضِي شرفُ الدِّينِ بالمدينةِ، [١٢٦/ أ] ودُفِنَ شامِيَّ قُبَّةِ سيِّدِنا عثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وذلك في سنةِ خَمْسٍ وأربعينَ وسبعِمِئة، ومولِدُهُ بالقاهرةِ سنةَ أربعٍ وسبعينَ(١) وستِّمِئة.

ثُمَّ تولَّى بعدَهُ الحُكمَ والخطَابَةَ والإمامةَ الشَّيخُ الإمامُ العلَّامةُ تقيُّ الدِّينِ **عبدُالرَّحْمٰنِ بنُ جمالِ الدِّينِ عبدالمؤمنِ بنِ رشيدِ الدِّينِ عبدالملكِ الهورينيُّ** الشافعيُّ المِصرِيُّ(٢)، قدِمَ المدينةَ في ذي الحِجَّةَ آخِرَ سنةِ خمسٍ وأربعينَ.

وكان - رحمهُ الله تعالى - من قُضاةِ [العَدلِ](٣)، انتهَتْ إليه الرِّئاسَةُ والسِّياسَةُ، مع العِلْمِ الغزيرِ والعقلِ الرَّاجحِ الذي ليس له عليه مَزِيدٌ، لَمْ يَرْقَ المنبرَ أحسنُ منه صُورةً وشَكَالَةً وشَيْبَةً، مَعَ الهيبةِ العظيمةِ، والقيامِ في الحَقِّ والنُّصْرةِ للشَّرع.

وفي تلكَ السَّنةِ اسْتَنَابَنِي في الحُكْمِ عنهُ، فَسَلَكْتُ مَعَ النَّاسِ سبيلَ السِّياسَةِ وسَدَّدْتُ الأحكامَ، وجَرَيْتُ على الصُّلْحِ بين الخُصُومِ، فَمَالَ إليَّ أهلُ المدينةِ، ورأوني لا آخُذُ منهم شيئاً في حُكْمٍ ولا إثْباتٍ ولا وِرَاقَةٍ، بل ربَّما(٤) أُعطي مِنْ عِنْدي مَنْ أتحقَّقُ ضَرُورَتَهُ مِنَ الغُرَمَاءِ، فَأَحَبَّنِي أهلُ

---

(١) في الأصل: «وتسعين»، وهو خطأ، والتصويب من باقي النسخ.

(٢) نسبتُه إلى هُورين: قرية بمحافظة المنوفية شمال القاهرة. انظر ترجمته في: «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٢٩، و«الدرر الكامنة» ٢/ ٣٣٤، و«التحفة اللطيفة» (٤/ ٢٦٥).
ملحوظة: في هامش الصفحة الأيمن من الأعلى سطران: «ثُمَّ القاضي تقي الدين عبدالرَّحمٰن الهوريني الشافعي المصري».

(٣) زيادة من (أ) و(ب).

(٤) في هامش الصفحة اليمنى (١٢٦/أ) في وسطها ما يأتي: «قف على ولاية ابن فرحون القضاء نيابةً عن القاضي عبدالرَّحمٰن الهوريني الشافعي سنة ٧٤٧».

المدينةِ ومالُوا عن قُضاةِ الإماميَّةِ، واعتَزَلُوهم وتَركوا المُحاكَمَةَ عِنْدَهم، حتَّى إنَّ القاضي حَسَنَ بنَ عَليٍّ[١] بنِ سِنان الملقَّبُ عُزيراً[٢] صار يجلِسُ على بابِ زِقَاقِنا، فإذا رَأى الخَصْمَيْنِ دعاهُما إليهِ فلا يَلْتَفِتانِ إليه؛ لأنَّهم كانوا إذا حَكَمُوا أَلحَقُوا المحكومَ له رَسُولاً أو ورقةً يطلُبُونَ منه شيئاً، وإنْ كتبوا ورقةً طَلَبوا عليها أَجْراً، ويَقبَلُونَ مِنَ الشُّهُودِ مَنْ كان مِنْ رَعاعِ النَّاسِ.

وبَلَغَنِي أَنَّهُم اجتمعوا بالأميرِ طُفيلٍ وشَكَوا عليه ما يَلْقَوْنَ منِّي، فقال لهم: [١٢٦/ ب] إذا سَكَتَ عنكُم وعن أحكامِكُم فلا تَطلبونَ منه غيرَ ذٰلك.

وقال لي القاضي نجمُ الدِّينِ مُهَنَّا بنُ سِنان - وكان أعلَمَهُم وأَرْأَسَهم -: قَطَعْتَ رِزْقَنا يا فُلان!

فقلتُ له: ما تُريدونَ منِّي إذا لم أَتعرَّضْ لكم؟

فقال: واللهِ، ما قَطَعَ رِزقي إلّا أَنْتَ! صرتَ تكتبُ للنَّاسِ وتَسْعَى في الصُّلْحِ بلا شيءٍ، فَمَنْ بَقِيَ يأتي إلينا؟ وكان مُهَنَّا بنُ سِنَان كاتبَ المدينةِ.

ولم أَزَلْ مَعَهُم كذٰلك حتَّى أَخْمَلَ اللهُ ذِكرَهُم وماتُوا وهم أحياءُ، ولم يَبْقَ لهُم في البَلَدِ أمرٌ ولا نهيٌ إلّا في الشَّيءِ التَّافِهِ والأمرِ النَّادرِ.

ولقد أدركْتُ مِنْ حُكَّامِهم فوقَ عَشَرَةٍ مِنْ آلِ سِنَان ومِنَ الصَّفيانِ[٣]

(١) وهو أحد قضاة الإمامية في المدينة النبوية الشريفة. «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٠٨.

(٢) في الأصل: عزيز. والتصويب من «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٠٨.

(٣) نسبة إلى علي بن الصفي، فقيه الإمامية في وقته، تقدَّمت ترجمتُه.

الَّذِين كانُوا عند رِباط العينِ[١] كلُّهم يَحكُمُ ويفصِلُ الخُصُومةَ، إلّا أنَّ الحكمَ كانَ له إذا حكمَ عليه القاضي مِنْ آلِ سِنَان أنْ[٢] يقولَ: ارفَعْنِي إلى الفقيهِ، فيرفعُهُ ولا يُرَاجِعُهُ، وكانَ الفَقِيهُ عليٌّ يُصْلِحُ ويُسدِّدُ مِنْ غيرِ أنْ يَتطَلَّعَ لِشَيءٍ بِخلافِ القُضَاةِ يومئذٍ، ثُمَّ لم يَزَلْ أمرُهم يَتقاصَرُ، وعدَدُهم يَقِلُّ، حتَّى ماتَ كِبارُهم.

ثُمَّ إنَّ القاضيَ تقيَّ الدِّين الهُورِينِيَّ كُفَّ بَصَرُهُ في أثناءِ تلكَ السَّنَةِ بِسَبَبِ ماءٍ نَزَلَ في عَيْنَيهِ، فسافرَ إلى مِصْرَ معَ الحاجِّ ليقدَحَ عَيْنَيْهِ ويَرْجِعَ إلى المدينةِ، واستمرَّيْتُ نائباً عنه في سنةِ سَبْعٍ وأربعينَ، وشَدَّدْتُ على الإماميَّةِ في نكاحِ المُتْعَةِ وَنَكَّلْتُ بفاعلِها، وحَمَلْتُ النّاسَ على مَذْهَبِ مالكٍ، وأَخْملتُ البِدْعَةَ وأَظْهرتُ السُّنَّة، وعَزَّرْتُ مَنْ تكلَّمَ في الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فلم يزدِ النَّاسُ إلّا طَاعَةً وإِقْبالاً.

وفي تلكَ السَّنَةِ لَقِيَني عزُّ الدِّينِ حَسَنُ المِسْكِيُّ وزيرُ الأميرِ طُفيلٍ، وكانَ مِنَ الوُزَرَاءِ العُقَلاءِ [١٢٧/ أ] فقالَ لي: يا فلانُ، خَرَجَ اليومَ مِلْكٌ مِنْ يدِ صاحبِهِ يُسَاوي عَشَرَةَ آلافٍ، بِشَهَادَةِ فُلانٍ وفُلانٍ، واللهِ هٰذانِ ما يُقْبلانِ فيما يساوي عَشَرَةَ دَرَاهِمَ، كيفَ يَحِلُّ لكم تُبقُوا المدينةَ بلا شُهودٍ؟

فأمرتُهُ بأَنْ يأمرَ غُلامَ الأميرِ فيُنَادي في الأسواقِ: لا يَضَعُ أَحَدُكم خطَّهُ في وَرَقَةٍ إلّا أنْ يَكُونَ مَرْضِيًّا عند الحُكَّام.

---

(١) في بقية النسخ: «المعين». ورباط العين: نسبة إلى العين الزرقاء غربي قباء. انظر: «الجواهر الثمينة» ص١٢٩.

(٢) في (أ) و(ب) و(ج): «أو».

ولمَّا وَصَلَ القاضي تَقِيُّ الدِّينِ إلى مصرَ أقامَ بها يُعالجُ عينيهِ بالقَدْحِ، فَسَعَى عليهِ بدرُ الدِّينِ[1] حَسَنٌ صِهْرُ القاضي شرفِ الدِّينِ الأُمْيُوطيِّ، فَعَزَلُوا القاضيَ تَقِيَّ الدِّينِ، وكان يحبُّ الإقامةَ بالمدينةِ رغبةً في الوَفَاةِ بها، فَلَمْ تَرْجِعْ إليه صِحَّةُ عينيْهِ حتَّى خَرَجَ عنهُ المَنْصِبُ، وسيأتي ذِكْرُ وِلايَتِهِ الثَّانِيَةِ وذِكرُ وفاتِه ومولدِه، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثُمَّ وَلِيَ الحُكمَ والخَطابَةَ والإمامةَ الشيخُ الإمامُ الفاضلُ المُتفنِّنُ **بدرُ الدِّينِ حَسَنُ بنُ أحمدَ بنِ محمَّدِ بنِ عبدالرَّحمٰنِ القيسيُّ ابنُ الصَّدْرِ عمرَ الشافعيُّ المصريُّ**، وقَدِمَ إلى المدينةِ في شهرِ ذي الحجَّةِ مِنْ سَنةِ ثَمَانٍ وأربعينَ وسبعِمِئَة، وكان مُقيماً في المدينةِ مع القاضي شَرَفِ الدِّينِ وينوبُ عنه في بعضِ الأحيانِ.

وكانت ابنةُ القاضي شَرَفِ الدِّينِ عنده، فلما وصلَ إلى المدينةِ حاكماً حاولَ أن يَسْلُكَ في طريقَتِهِ وأحكامِه مَسْلكَ القاضي شَرَفِ الدِّينِ، وكان حاكماً جَزْلاً صَلْباً مَهِيباً، فأقامَ بالمدينةِ سنةَ تِسْعٍ وبعضَ سَنَةِ خمسينَ، وكان قد شَدَّدَ على الأشرافِ.

فكتَبَ إلى السُّلطانِ يَشكُو مِنْ طُفيلٍ، كما فَعَلَ القاضي شرفُ الدِّينِ مع طُفيلٍ أيضاً، فلما بَلَغَ طُفيلٌ الخَبَرَ صَدَرَ مِنْهُ كلامٌ وتهديدٌ في جِهة القاضي بدرِ الدِّينِ، [١٢٧/ب] [فلما بَلَغَه ذٰلك خافَ][2] على نفسِه

---

(١) حسن بن أحمد القيسي، بدر الدِّين. انظر: «المغانم المطابة» ٣/ ١١٩٨، «الدرر الكامنة» ٢/ ١٢ «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٨٩.

(٢) بياض في الأصل بمقدار ثلاث كلمات، والمثبت ما بين المعقوفتين من (أ).

فخرجَ إلى مكَّةَ مُعْتَمِراً ومعه جماعةٌ مثل مُحَمَّدِ ابنِ الشُّويكِيَّة(١)، ومُحَمَّدِ ابنِ بالغٍ، ومختارِ الزُّمُرُّدِيِّ، وغيرِهم.

ولمّا تَوَجَّهَ إلى مَكَّةَ اسْتَنَابَنِي في الحُكمِ إلى المَوْسِمِ، ثُمَّ قَدِمَ مع الحاجِّ وسافرَ إلى مصرَ، واستمَرَّيتُ نائباً عنه حتّى جاءَ الخبرُ أنَّهُ تُوفِّي بالقاهرةِ في أثناءِ سنةِ إحدى وخمسينَ وسبعمِئة، وفي غيبةِ القاضي بَدْرِ الدِّينِ في مَكَّةَ جاءَ الخبرُ إلى طُفيلٍ بأنَّهُ قد عُزِل وَوَلِيَ إمرَةَ المدينةِ سعدُ بنُ ثابتٍ(٢)، فَخَرَجَ عنها طفيلٌ رحمهُ الله تعالى.

ثُمَّ وَلِيَ الحكمَ والخَطَابَةَ والإمَامَةَ القاضِي الأجَلُّ الخَطِيبُ المِصْقَعُ شمسُ الدِّينِ **مُحَمَّدُ**(٣) **بنُ زكيِّ الدِّينِ عبدالمُعطي بنِ سالمِ بنِ عبدالعظيمِ ابنِ محمّدٍ الكِنانيُّ** المصريُّ الشافعيُّ، العسقلانيُّ المَحْتِد، المعروفُ بابنِ السَّبْعِ، ذُكِرَ أنه تَفَقَّه بالقاضي نَجْمِ الدِّينِ ابنِ الرِّفعَةِ، وأنه قَرَأَ القِرَاءَاتِ على الشَّطنوفيِّ(٤)، وأنّ مَوْلَدَه سنةَ ثمانينَ وستِّمِئة بالقاهرةِ.

---

(١) محمد بدر ابن الشويكية: ذكره السَّخاوي في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٨٤. وفي الأصل بياض بمقدار كلمتين، والمثبت في (أ): «مثل محمد».

(٢) سعد بن ثابت بن جماز ستأتي ترجمته. وانظر: «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٠٨، و«الدرر الكامنة» ٢/ ١٣٤، و«التحفة اللطيفة» (٣/ ١٠٢).

ملحوظة: في الهامش الأيسر للصفحة (١٢٧/ ب) في ثُلثها الأعلى ما يأتي: «ثُمَّ القاضي محمد زكي الدين الشافعي».

(٣) انظر: «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٩٠-١٢٩٢، و«الدرر الكامنة» ٤/ ٣٠، و«التحفة اللطيفة» ٦/ ٣٢٢. وفي (أ) و (ب) زيادة: «أبو عبدالله» قبل «محمد».

(٤) علي بن يوسف الشطنوفي، أبو الحسن، شيخ الدِّيار المصرية في القراءات، توفي سنة ٧١٣هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٩١، «غاية النِّهاية» ١/ ٥٨٥.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ سَيُوساً(١) للنَّاس، مُحَاسِناً للأصحابِ، حَلِيماً كريماً جواداً، وكان شَاهِداً عَدْلاً بالقاهِرَةِ، فلمَّا وَلِيَ الأحكامَ الشرعيَّةَ ثَقُلَ بها فما حَمَلَها، ولم يَقُمْ بِرَسْمِها ولا شَرْطِها؛ لأنَّهُ لم يَلْحَقْ بِمَنْ قَبْلَهُ في عُلُومِهم ولا في قيامِهم بِحُرْمةِ المَنْصِبِ، وكان عامِلاً على السِّياسَةِ والمُسَالمةِ، واشتغَلَ النَّاسُ بِهِ، وطَعَنُوا عليه بأَنَّهُ لم يَجْتَمِعْ فيه شُرُوطُ الوَاقِفِ، وهيَ: العِلمُ بالقِرَاءَاتِ، ومَعْرِفةُ الأَصْلَينِ، وغيرُ ذٰلك، ولِكَونِه إذا دَخَلَ الحُجْرَةَ المُشَرَّفةَ للزِّيارَةِ يُقبِّلُ الأرضَ(٢) عند تَمَثُّلِه بينَ يَدَي النَّبيِّ ﷺ، وبأشياءَ لا يليقُ ذِكْرُها كانت سَبَباً في عَزْلِهِ، فكانَتْ وِلايَتُهُ [١٢٨/أ] وَوِلايَةُ الأميرِ سَعْدٍ في سَنَةٍ واحِدَةٍ، [وهي سَنَةُ خمسين وسَبعِمِئَةٍ](٣).

ولمَّا اسْتَقَرَّ الأَمِيرُ سَعْدٌ بالمَدِينَةِ بَدَأَ يَمْنَعُ آلَ سِنانَ [وغيرَهم من](٤) التعرُّضِ للأَحْكَامِ وعَقْدِ الأَنْكِحةِ وغيرِها، ورَدَّ الأمرَ جميعَه لأهلِ(٥) السُّنَّةِ تقرُّباً إلى قلوبِ السَّلْطَنَةِ بإظهارِ السُّنَّةِ وأهلِها، وإخمالِ البدعةِ وأهلِها.

---

(١) سيوساً: أي مدبِّراً وقائماً بأمره. «المصباح المنير»: ساس. وفي نسخة (ج): «بشوشاً».

(٢) هٰذا ممَّا لم يُشرع بل هو من البدع، والمشروع السَّلام الوارد في هٰذا المقام، وهو: ما ورد عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول المُسَلِّمُ: السَّلام عليك أيها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه. وروي عن نافع عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان إذا قدم من سفر دخل المسجد ثُمَّ أتى القبر المقدَّس فقال: السَّلام عليك يارسول الله، السَّلام عليك يا أبا بكر، السَّلام عليك يا أبتاه.
وينبغي أن يدعو وألّا يتكلّف سجعاً؛ فإنّه يؤدي إلى الإخلال بالخُشوع ورقّة القلب. «تحقيق النصرة بتخليص معالم دار الهجرة» للمراغي، ص١١١.

(٣) زيادة من (أ) و(ب).

(٤) زيادة من (أ) و(ب).

(٥) ملحوظة: في هامش الصفحة (١٢٨/أ) الأيمن الثلث الأعلى منها ما يلي: «قف على انقطاع أحكام الرافضة وحكامها في سنة ٧٥٠ هـ».

وأمرَ بالنِّداءِ في المدينةِ في يوم الثَّامِنِ والعِشْرينَ من شهرِ ذي الحِجَّةِ أحدِ شهورِ سنةِ خمسينَ وسبعِمِئَةٍ: ألّا يَحْكُمَ في المدينةِ مع القاضي شمسِ الدِّينِ غيرُ فلانٍ، ومَنْ تَعَرَّضَ لِذٰلك فلا يَلُومَنَّ إلّا نفسَه. فمِنْ يومئذٍ انقطَعَ أمرُهُم ونهيُهُم بالكُلِّيَّةِ، وظهرَ عَلَمُ أهلِ السُّنَّةِ، واجتمعتِ الكلمةُ، وَوَجدنا على الحقِّ أعواناً.

ثُمَّ إنَّ الأميرَ سعداً مَنَعَ القُضاةَ أيضاً أن يَدخُلُوا مَعَهُ إلى الحُجْرةِ المُشَرَّفَةِ إذا أراد الزِّيارةَ، وأقام مَقامَهمُ الفقيهَ إبراهيمَ[١] بنَ عبدالله المُؤذِّنَ، وصاروا كما قال اللهُ تعالى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾[٢] الآيةَ.

ولمَّا تَمَّ الأمرُ لأهلِ السُّنَّةِ وانقطعَ دابرُ القومِ، وَقَعَ بينهُم افتراقُ الكَلِمةِ، وظهرتِ الفِتْنَةُ، فأَسْخَطُوا بِذٰلك الرَّحْمٰنَ، وأَرْضَوُا الشَّيطَانَ، وأَصْبَحَ كلٌّ من المُجاوِرينَ فيما بَيْنَهُم وبينَ الخُدَّامِ مُتَحَزِّبينَ أحزاباً، مُنتظرينَ لِبَعْضِهِم بَعْضاً عَذاباً، نَعُوذُ بالله مِنْ شرورِ أَنْفُسِنا ومِنْ شَرِّ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ.

ولمَّا رَأَيتُهم على هٰذا الحالِ، وقد كَثُرَ بينَهُم القِيلُ والقَالُ؛ لزِمتُ بيتِي رَغْبةً في السَّلامةِ، مُتَمَثِّلاً بقولِ العلَّامةِ أبي شَامَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أَيـا لائِمـي مالي سِـوى البَيْـتِ ... أرى فيهِ عِزًّا أَنَّهُ لِـيَ أَنْفَعُ [١٢٨/ب]

وَقَدْ يَسَّـرَ اللهُ الكـريمُ بفـضـلِهِ ... غِنَـى النَّـفسِ مَـعْ شيءٍ بِـهِ أتقنَّـعُ

وفي حُـسْنِ ظَنِّـي أنَّ ذا يَـسْتَمِرُّ لي ... إلى الموتِ إنَّ اللهَ يُعطِـي ويَمْنَـعُ

---

(١) في (أ) و(ب) و(ج) زيادة: «برهان الدين» قبل «إبراهيم». ولم نعثُر له على ترجمة.

(٢) الآية (١١٨) سورة الأعراف.

ولْنَرْجعْ إلى ما كُنَّا فيه مِنْ أخبارِ القاضي شمسِ الدِّين ابنِ السَّبْعِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان خَطِيباً مِصْقَعاً؛ إذا خَطَبَ على المِنْبَرِ يُسمَعُ مِنْ طَرَفِ السُّوقِ مَعَ ما في السُّوقِ من اللَّغَطِ، ولو أَنْصَتَ لَهُ مُنْصِتٌ من أعلى سُورِ المدينةِ سَمِعَ كلامَهُ، مَعَ الفَصَاحَةِ العَظِيمَةِ وحُسْنِ الأَدَاءِ.

وبَدَتْ مِنْهُ سَقْطاتٌ لا تَلِيقُ بالحُكَّامِ، واشْتَهَرتْ عنه بينَ النَّاسِ، منها: أَنَّهُ صَحَّفَ المَثَلَ المَشْهُورَ: «إذا قالتْ حَذَامِ فصدِّقُوها»، فَنَطَقَ بها بِضَمِّ الخاءِ المُعجَمةِ وتشديدِ الدَّالِ[١]! ويُقال: إنَّهُ زَعَمَ بذلك خُدَّامَ الحَرَمِ الشَّرِيفِ النَّبَوِيِّ، فلمَّا كان سنةَ أربعٍ وخمسينَ وسبعِمِئَةٍ سافرَ جماعةٌ من المُجاوِرينَ وأشاعُوا عنه تِلْكَ الأشياءَ.

وكانَ القاضي عزُّ الدِّين ابنُ جَماعةَ[٢] مِنْ أعظمِ النَّاسِ كراهةً في ولايتِه المدينةَ الشَّريفَةَ.

وكانَ[٣] الشَّرِيفُ أبو العبَّاسِ الصَّفْرَويُّ المَغْرَبِيُّ، وكان للصَّفْرَوِيِّ[٤] وَجَاهَةٌ عِنْدَ الأمراءِ، فَشَجَّعَ المجاوِرينَ على الكلامِ في أمرِه مَعَ الأمراءِ، فكَتَبُوا فيه قِصَّةً وعَدَّدوا فيها ما نَقَمُوا عليه، وساعَدَهُم في باطِنِ الأمرِ

---

(١) ملحوظة: في هامش الصفحة (١٢٨/ ب) الأيسر في ثُلثها الأوّل ما يأتي:
«منها أنه صَحَّفَ المثل المشهور «إذا قالت حذام فصدقوها» فنطق بها بضم الخاء المعجمة وتشديد الدّال، ويقال: أنه قصد بذلك خُدَّام الحرم الشريف النبوي، صح صح».

(٢) عز الدين ابن جماعة: هو عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم بن جماعة المصري الشافعي القاضي، الإمام الفقيه العلامة، له تصانيف كثيرة مفيدة، توفي بمكة سنة ٧٦٧ هـ ودُفن بالمعلاة. «المغانم المطابة» ٣/ ١١٧٧، «الدرر الكامنة» ٢/ ٣٧٨-٣٨٢، «التحفة اللطيفة» ٤/ ٣٨٤.

(٣) في (ب): «وكذلك».

(٤) في (ج): «للصفوري هذا».

القاضي عزُّ الدِّينِ والصَّفْرَوِيُّ رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، فعُقِدَ لهم مَجْلِسٌ في دارِ العَدْلِ وأُحْضِرَ الحِجازِيُّونَ[(١)] جميعاً، فَشَهِدُوا عِند القاضي عزِّ الدِّينِ بِمَحْضَرِ القُضَاةِ الأَرْبَعَةِ، فَقَبِلَ شَهَادَةَ بَعْضِهِم، وثَبَّتَ ما نُسِبَ إليه؛ فَعُزِلَ.

وَوُلِّيَ القاضي بدرُ الدِّينِ[(٢)] ابنُ الخشَّابِ، وبَعَثَ قاضي القضاةِ في وَسَطِ السَّنةِ نَجَاباً يُخبرُ[(٣)] بالعَزْلِ، ويَستنجِزُ مَحْضَراً بصدقِ ما شُهِدَ به عليه في القاهرةِ، [فرأيتُ أنّ ذٰلك قد تَعَيَّنَ عليَّ لضيعةِ المنصبِ النبويِّ][(٤)]، فتقدَّمْتُ في ذٰلك وأَثْبَتُّ [١٢٩/ أ] محضَراً بذٰلك، وبعثَ إليَّ بدرُ الدِّينِ ابنُ الخشَّابِ يسألُنِي القيامَ بالوظيفةِ نائباً عنه[(٥)]، وكان الأميرُ شيخو[(٦)] يَشُدُّ من ابنِ السَّبْعِ، فأخذَ مرسومَ السُّلطانِ بالكشفِ على ابنِ السبعِ في المدينةِ، وبعثَهُ مع الأميرِ سيفِ الدِّينِ عُمَرَ شاه أميرِ الرَّكبِ المصريِّ، وبعثَ معه خِلعةً وتقليداً، فوقعَ لي مجلسٌ عظيمٌ مع الأميرِ عُمَرَ شاه، ومع الحافظِ الإمامِ شَمْسِ الدِّينِ

---

(١) في (أ): «المجاورين»!

(٢) إبراهيم بن أحمد بن عيسى بن عمر بن خالد القرشي المخزومي القاهري الشافعي، قاضي المدينة وخطيبها وإمامها، ولي قضاء المدينة الشريفة ثلاث مرات، مات سنة ٧٧٣هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١١٧٨-١١٧٩، «الدرر الكامنة» ١/ ١٢، «التحفة اللطيفة» ١/ ١٧٨.

ملحوظة: في هامش الصفحة (١٢٨/ ب) الأيسر قبل نهايتها بثلاثة أسطر ما يأتي: «ثُمَّ القاضي بدر الدين الخشاب».

(٣) في (أ) و(ب) زيادة: «إلى المدينة بالعزل»، وسقطت «يخبر».

(٤) في (ب) و(ج) مابين القوسين موضعه في (أ) بعد قوله: «نائباً عنه».

(٥) في (أ) و(ب) بعد قوله «نائباً عنه»: «فرأيت أنّ ذٰلك قد تعيَّن عليَّ لضيعة المنصب النبوي».

(٦) الأمير شيخو: الأمير الكبير أتابك العساكر شينمون بن عبدالله العمري الناصري اللالا، مدبر الممالك الإسلامية بالدِّيار المصرية، وهو من أوّل من سُمِّيَ بالأمير الكبير، توفي سنة ٧٥٢هـ. «الدرر الكامنة» (٢/ ١٩٦)، «النجوم الزاهرة» (١٠/ ٣٢٤-٣٢٥).

ابنِ النقَّاشِ[1]، وجماعةٍ غيرِهما مِنَ المُتعصِّبينَ له، فرَدَّهُم اللهُ بالحقِّ، ورَدَّ أميرُ الحاجِّ المرسومَ والخِلعةَ[2]، وسيأتي ذِكرُ ولايتِهِ الثانية.

واستقرَّ في المنصِبِ الشيخُ الإمامُ العالِمُ الأوحدُ، وَحِيدُ دهرِهِ، ونادرةُ عصرِهِ: **بدرُ الدِّينِ إبراهيمُ بنُ أحمدَ بنِ عيسى القرشيُّ المخزوميُّ، المعروفُ بابنِ الخشَّابِ**، وكان قُدومُه المدينةَ في ذي الحِجَّةِ من شهورِ سنةِ أربعٍ وخمسينَ وسبعِمِئة، وقَدِمَ مَعَهُ قاضي القُضاةِ عزُّ الدِّينِ ابنُ جماعة مجاوِراً بأهلِهِ وأولادِهِ، وقَدِمَ معه صِهرُهُ الشيخُ الإمامُ العالِمُ الفاضلُ، صدرُ الدِّينِ فخرُ القضاةِ ابنُ الكُوَيكِ[3]، وكان مَعَهُم أيضاً الشَّيخُ شِهَابُ الدِّينِ ابنُ النَّقيبِ[4]. وكانتْ سَنَةً حسنةً ينقضي في ذِكرِ محاسِنِها الأزمنةُ.

وكان القاضي بدرُ الدِّين ابنُ الخشَّابِ حَسَنةَ زَمَانِه، قد جازَ الذِّرْوَةَ العُلْيا والغايةَ القُصْوى في العِلْمِ الباهرِ، والعَقْلِ الوافرِ، وحُسنِ الفصلِ للخصومةِ، مع الجَزالةِ والهيبةِ والقيامِ في الحَقِّ، حاكمٌ إن[5] قيلَ حاكم، وقامَ بالخطابةِ والإمامةِ أحسنَ قيامٍ، وانقضتْ تلك السَّنَةُ كأنَّها أحلامٌ.

---

(١) محمد بن علي بن عبدالواحد ابن النقاش، شمس الدين المصري المغربي الأصل، كان من الفقهاء المبرِّزين و الفصحاء المشهورين، توفي سنة ٧٦٣ هـ. «الدُّرَر الكامنة» ٤/ ٧١، «البدر الطالع» ٢/ ٢٠٤، «شذرات الذهب» ٥/ ٤١٣.

(٢) الخِلْعة - بالكسر -: ما يخلعه الأمراء على من دونهم من الثياب والمال. «تاج العروس»: خلع.

(٣) ابن الكويك: محمد بن عبداللطيف بن أحمد، أبو جعفر التكريتي الربعي الإسكندري، توفي سنة ٧٦٩هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ٢٤، «المَجْمَع المؤسَّس للمعجم المفهرس» ٢/ ٤٥٠.

(٤) أحمد بن لؤلؤ بن عبدالله ابن النقيب، شهاب الدين، أبو العباس القاهري الشافعي، فقيه شافعي مشارك في عدَّة علوم، وله مؤلفات قيِّمة، كان كثيرَ الحجِّ والمجاورة بمكة والمدينة، توفي سنة ٧٦٩هـ. «الدرر الكامنة» ١/ ٢٣٩، «التحفة اللطيفة» (١/ ٣٧٢).

(٥) في الأصل: «أو»، والمثبت من بقية النسخ.

وكان القاضي شمسُ الدِّينِ ابنُ السَّبْع مُجاوراً بِمَكَّةَ، ولمَّا [١٢٩/ ب] خَلَت الدِّيارُ المصريةُ مِنَ القاضي عزِّ الدِّين ابنِ جماعةَ، تكلَّمَ نورُ الدِّين ابنُ شمسِ الدِّين ابنِ السَّبْعِ لوالِدِه، وساعَدَهُ الأميرُ شيخو، فجاءَ الخبرُ في الموسمِ الشَّاميِّ بأنَّ بدرَ الدِّينِ ابنَ الخشَّابِ قد عُزل ورُدَّ ابنُ السَّبْعِ إلى منصبِهِ، فلَمَّا جاءَ الرَّكبُ المِصرِيُّ جاءَ التقليدُ والخِلعةُ لابنِ السَّبْعِ، واستقرَّ في المنصبِ مِنْ أَوَّلِ سَنَةِ سِتٍّ وخمسينَ وسبعِمِئة، وجَرَى على أخلاقِهِ المعهودةِ.

وسألني أن أكون له نائباً فامتنعتُ، فكان يقول لي كُلَّما لَقِيَني: أنا أسألُ اللهَ العظيمَ عندَ هٰذا النبيِّ الكريمِ كُلَّما زُرتُه أنْ يُسَخِّرَكَ لي.

ويسألُنِي عن خُطبَتِهِ فأقولُ له: حَسَنَةٌ، فيقولُ: هٰذه إجازةٌ منكَ واللهِ، وَيُسَرُّ بذٰلك. ولم يَنْقِمْ على أحدٍ من الجماعةِ الذين تكلَّموا فيه في القاهرةِ، وحاسَنَ النَّاسَ ومشَّى الحالَ، وقام بوظائِفِهِ على طريقةٍ أشبَهَ من طَرِيقَتِهِ الأولى.

وكان يَذْكُرُ أنَّهُ يُعْرَفُ بابنِ السَّبْعِ مِنْ جِهَةِ الخؤولة؛ لأنَّ جَدَّهُ لأمِّهِ كان رَجُلاً صالِحاً رَكِبَ السَّبْعَ فجَرَى عليهِ هٰذا اللَّقَبُ. وأمَّا جَدُّهُ لأبيهِ فكان أميراً صاحِبَ إِقْطَاعٍ[١]، عَتِيقاً لِشَخْصٍ لَمْ يَحْضُرْني الآنَ ذِكْرُهُ.

---

(١) الإقطاع: نظام يقوم على العلاقة بين السَّادة ونوَّابهم يقضي بأن يُمَلِّك الأوَّلون الآخرين قطائع من الأرض على سبيل المنحة لهم ولأولادهم، وكلّ نظام يُمَكِّن المالكَ من أن يتحكَّم في الأرض ومن فيها من الناس. «المعجم الوسيط»: قطع.
وفي نسخة (ب): «انقطاع».

وَذَكَرَ أَنَّهُ سَمِعَ الكُتُبَ السِّتَّةَ على الشَّيخِ شَرَفِ الدِّينِ الدِّمْياطِيِّ[(١)]، والسِّيَرَ على الأَبْرَقُوهيِّ[(٢)]، وَلَبِسَ منه الخِرْقَةَ[(٣)] بإلباسِهِ من الشيخِ شهابِ الدِّينِ السُّهْرَوَرْدِيِّ، رحمهم الله تعالى.

واستمَرَّ في الوظيفةِ إلى الحادي عشرَ مِنْ رَبيعِ الأوّلِ[(٤)] سنةَ تسعٍ وخمسينَ وسبعِمِئة، فاتَّفَقَ في صبيحةِ العاشرِ مِنَ الشَّهْرِ المذكورِ أَنْ جاءَ ركبٌ كبيرٌ إلى أَنْ قَرُبوا مِنْ بابِ البَلَدِ ونَزَلُوا تحتَ القَلْعةِ، ولم يَتَحَقَّق النَّاسُ [١٣٠/أ] مَنْ هُمْ، فظَنُّوا أنهم قَفَلٌ[(٥)] مِنْ أهلِ يَنْبُعَ[(٦)]، ثُمَّ كُشِفَ الحالُ فإذا هم جماعةُ الأميرِ جَمَّازِ بنِ منصورٍ[(٧)] قَدِمَ المدينةَ مُتَوَلِّياً لها

---

(١) عبدالمؤمن بن خلف بن أبي الحسن الدِّمياطي، شرف الدِّين، المحدِّث الحافظ، مات سنة ٧٠٥هـ. «الدرر الكامنة» ٢/ ٤١٧، «المجمع المؤسَّس» ١/ ٣٢١.

(٢) أحمدُ بنُ إسحاقَ بنِ محمدٍ الأَبَرقُوهيُّ، المصريُّ، شهابُ الدِّينِ، مُسنِدٌ، له رحلةٌ في الحديث، توفي سنة ٧٠١ هـ. «البداية والنهاية» ١٤/ ٢٢، «شذرات الذهب» ٦/ ٤.

والأبرقوهي: نسبة إلى أبرقوه: بلدة بأصبهان.

(٣) تقدَّم التنبيه على بدعية إلباس المتصوِّفة لمُريديهم ما يسمونها الخرقة. راجع ص٢٣٣.

(٤) في (أ) و(ب) و(ج): «شهر ربيع الآخر أحد شهور».

(٥) بفتحتين، وهي القافلة: وتطلق على الرفقة. «المصباح المنير»: قفل.

(٦) ينبع: جاء اسمُها في غزاة ذي العُشَيْرة، وإذا ذكرت في القديم فهو مصروف إلى وادي ينبع النخل: وهو واد كثير العيون والقرى والنخيل، أما مدينة ينبع البحر، وهي المدينة الرئيسة اليوم فهي حادثة، وكانت ينبُع من بلاد جُهَينة، فلمَّا أخذها رسول الله ﷺ أقطعها رجلاً اسمه كُشْدُ بن مالك. «المعالم الأثيرة في السنة والسِّيرة» ص٣٠١.

ملحوظة: في هامش الصفحة (١٣٠/ أ) الأيمن الأعلى ما يأتي: «ثُمَّ القاضي تقي الدين الهوريني».

(٧) الأمير جماز بن منصور بن جماز بن شيحة الهاشمي الحسيني، قُتل على يد فدائيَّيْن جُهزا مع الرَّكب الشامي لذلك في حادي عشر ذي القعدة سنة ٧٥٩هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١١٨٦، «الدرر الكامنة» ٢/ ١٠٣، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢١٧.

بمرسومِ السُّلطانِ، ومعه القاضي تقيُّ الدِّينِ الهُورِينِيُّ مُتَوَلِّياً، ومعهم مرسومٌ بِعَزْلِ شيخِ الخُدَّام عِزِّ الدِّينِ دِينارٍ، وولايةِ الشيخِ افتِخارِ الدِّينِ، فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ وُصُولِهم إلى أبوابِ المدينةِ ولم يبلُغْهم الخبرُ!

وفي صبيحةِ الحادِي عَشَرَ دخلُوا المدينةَ، وخرجَ آلُ جمَّازٍ مِنَ المدينةِ أَشَرَّ خُروجٍ حُفَاةً فارِّينَ مِنَ الأَسْوارِ والأَبْوابِ! فنَادى الأميرُ جمَّازٌ في أصْحابه ألّا يَتَّبِعَهُمْ مِنْكم أَحَدٌ، ومَنَّ عليهم، وعفا عنهم، واستقَرَّ في القَلْعةِ الأميرُ جمَّازٌ، وفي مَنْصِبِ الحُكْم القاضي تَقِيُّ الدِّين[1] على عادتِهِ في فَصْلِ الأحْكامِ، وفي مشيخةِ الحَرَمِ الخَزَنْدارِيُّ[2] نيابةً عن افتخارِ الدِّين[3].

واستقرَّ القاضي تقيُّ الدِّين على عادتِهِ في فصلِ الأحكامِ وسِياسَةِ الأنامِ، مُقبلاً على العبادةِ والاشْتِغالِ بما يُقَرِّبُه إلى الله تعالى، وجَرَيْتُ معه على العادة في نيابةِ الحُكْم، فحاول الأميرُ جمَّاز رُجوعَ الإماميَّةِ إلى ما كانُوا عليه، وأَذِنَ ليوسفَ الشريشير أَنْ يَحكُمَ بينَ الغرماءِ، وظهرتْ كلمتُهم، وارتفعتْ رايتُهم، وأَظهرَ الأميرُ جمَّازٌ لِيَ وللمُجاورِينَ الجَفاءَ والغِلْظَةَ في الكلامِ، فسافرَ النَّاسُ في أثناءِ السَّنةِ إلى مِصْرَ وتحدَّثوا بذٰلك، فبَلَغَ السُّلطانَ فاغْتاظَ لِذٰلك، وبَلَغَهُ أيضاً ما جَرَى للشَّيخ ضِياءِ الدِّينِ الهِنْدِيِّ[4] مِنَ الضَّرْبِ في

---

(١) هو القاضي الهوريني المتقدِّم ذكره.

(٢) هو شرف الدِّينِ الخزنداري، المتقدِّم.

(٣) هو ياقوت بن عبدالله الخزنداري، افتخار الدين، المتقدم.

(٤) محمد بن محمد سعيد بن عمر بن علي، ضياء الدين الهندي الحنفي، شيخ الحنفية بمكة، أقام بالمدينة مرَّة يُدرِّس ويُفتي ويتاجر، وكان على خلاف مع الأمير جمَّاز، ثُمَّ سكن مكة وتولى تدريس الخليفة واستمرَّ مستوطناً مكة حتى مات في ٧٨٠هـ، ودُفن بالمعلاة. «العقد الثمين» ٢/ ٩١-٩٣، «إنباء الغمر» ١/ ٢٩٢، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٣٨٩١).

القَلْعَةِ، فَبَعَثَ مع المَوْسِمِ شَخصينِ أَشْقَرَيْنِ شَقِيَّيْنِ فَقَتَلاهُ، وانْتَقل إلى رحمةِ الله شهيداً وباءَ بِذَنْبِهما[(١)]، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ [١٣٠/ ب] مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[(٢)].

فلمَّا كان أوَّلُ سَنَةِ ستِّينَ وسبعِمِئة تُوُفِّيَ القاضي تَقِيُّ الدِّين إلى رحمةِ الله تعالى، وذُكِرَ أن مَوْلِدَه في سنةِ أربعٍ وتِسعينَ وستِّمئةٍ تَغَمَّدَه اللهُ برحمتِهِ.

وَوَصَلَ الخبرُ بموتِهِ إلى القاهرةِ فَوَلِيَ المنصبَ الشريفَ: الشيخُ الإمامُ العلّامةُ المُتقِنُ **تاجُ الدِّينِ محمَّدُ بنُ عثمانَ الكركيُّ**[(٣)]، فَوَصَلَ إلى المدينةِ في آخِرِ سَنَةِ سِتِّين، وكان فاضِلاً في أصولِ الفقهِ، مُشارِكاً في العربيةِ وغيرِها، تَفَقَّهَ بالشَّيْخِ بُرهانِ الدِّينِ ابنِ الفِرْكَاحِ[(٤)] وطبقتِهِ، مثلِ قاضي القضاةِ ابنِ البارزيِّ[(٥)] وغيرِه، ومولِدُهُ في سنةِ عشرٍ وسبعِمِئة.

وجاء إلى المدينةِ بأخلاقٍ رَضِيَّةٍ، ونَفْسٍ زَكِيَّةٍ، فوجدَ اختِلافاً كثيراً فَسَكَّنَهُ، وعيوباً جَمَّةً فَسَتَرَها.

---

(١) في (أ): «فباءا بذنبه».

(٢) سورة الشعراء: ٢٢٧. ملحوظة: في الصفحة (١٣٠-ب) من الهامش الأيسر من أعلاه ما يأتي: «ثُمَّ القاضي محمد بن عثمان الكركي».

(٣) محمد بن عثمان بن الخضر الكركي، القاضي تاج الدين، ولي قضاء المدينة الشريفة والإمامة والخطابة سنة ٧٦٠هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٣٠٠-١٣٠٣، «الدرر الكامنة» ٤/ ٤٧، «التحفة اللطيفة» ٦/ ٣٤١.

(٤) إبراهيم بن عبدالرحمٰن بن إبراهيم بن سباع الفزاري، أبو إسحاق، برهان الدين ابن الفركاح، من كبار فقهاء الشافعية، توفي بدمشق سنة ٧٢٩هـ. «طبقات الشافعية» ٦/ ٤٥.

(٥) هبةُ الله بنُ عبدالرَّحيم، شرفُ الدِّين، أبوالقاسم ابنُ البارزي، صاحب التصانيف الكثيرة في الفقه والتفسير والحديث، وغير ذلك، توفي سنة ٧٣٨هـ. «طبقات الشافعية» ٦/ ٢٤٨.

وتَحبَّبَ إلى قلوبِ المُجاوِرينَ والخُدَّام، واسْتَمالَ الطَّلَبَةَ وحَضَّهُم على الاشتغالِ، وتَبَتَّلَ للإفادَةِ، فعكفتْ على محبَّتِهِ واعتقادِهِ القلوبُ، وانطلقتِ الألسُنُ بذكرِه وشُكرِه.

وكنتُ أقولُ لأصحابي: هٰذا رجلٌ لا يتطرَّقُ العيبُ إليه، ولا يجدُ العدوُّ فيه مَطعناً، فلماً طالت إقامتُه في المدينةِ وكَبِرَ أولادُهُ لاذَ بِهِ وبِهِم جماعةٌ مِنَ شَبابِ الطَّلَبَةِ الذين لم تُحَنِّكْهُمُ اللَّيالِي والأَيَّامُ، ولم يُرَبِّهم ذو النُّهى والأحلام، فأظهروا له النصيحةَ بالكلامِ في أعراضِ أصْحابِهِ، ونقلِ مجالِسِهم إليه، والتَّنْمِيم عليهم، فأَفْسَدُوا عقيدَتَهُ في أصحابِه، وكان رَجُلاً مُتَخَيِّلاً، فصار يحملُ نُصْحَهُم له على الغشِّ والنَّصِيحَةِ مَرَّةً، وصار يُحَقِّقُ عداوتَهُم لَهُ ويُصَدِّقُ النَمَّامينَ بالظَنِّ والحَدْسِ والتَّخْمِينِ، وصارَ يتكلَّمُ في المجالسِ [١٣١/أ] العامَّةِ بما نَفَّرَ عنهُ الكبارَ وذوي العقولِ الرَّاجحةِ.

ثُمَّ سَعَوا بينه وبين الخُدَّام فأفسدوا ما بينهم وبينه من الأُلفةِ والمحبَّةِ، وكانَ قَدْ فَوَّضَ إلى الشيخِ افتخارِ الدِّينِ أحكامَ الحرمِ والوظائفِ، والكلامَ في الرُّبُطِ والأوقافِ، وكنتُ أَلُومُهُ على ذٰلك فلا يرجعُ إلى كلامي.

فَفَسَدَ حالُ النَّاسِ مِنَ الجهتينِ، وأُضْرِمَتْ نارُ الفتنةِ، وافترَقَتِ الكَلِمَةُ، وتَحَزَّبَ النَّاسُ أحزاباً، وحاولَ أَنْ يُعيدَ الأمورَ التي تتعلَّقُ بِهِ إليه بعد أَنْ جعلَها بيدِ الشَّيخِ، فلم يتمَكَّنْ من ذٰلك.

فاستَحكَمَ الفسادُ، وصارت آراؤُهُ تَصدُرُ عن مشاورةِ الشُبّانِ، وبَدَتْ منه أشياءُ لا تليقُ بعقلِهِ وحُسنِ سياستِهِ، وَنَفَرَ عنهُ أكثَرُ المُجاوِرينَ

والخُدَّامِ، ومالتْ عنه قلوبُهم، واجتمعتْ كلمتُهم على غيرِهِ، فحينئذٍ أَسْفَرَ له ضَوْءُ الصُّبحِ، وتَبَيَّنَ له سبيلُ النُّجْحِ، فلم يمكن تلافي الحالِ، وانفردَ في غوغاءِ أهلِ قِيلَ وقَالَ، وفي مثلِ ذٰلك يُقَالُ[1]:

لا خَيْرَ في النَّاسِ فَوْضى لا سَرَاةَ لهم ... ولا سَرَاةَ إذا جُهَّالُهم سَادُوا
إذا تَوَلَّى سَرَاةُ النَّاسِ أَمْرَهُمْ ... نَمَى على ذاك أمرُ النَّاسِ وازدادُوا
تُهدَى الأمورُ بأهلِ الرَّأْيِ ما صَلُحَتْ ... فإنْ تَوَلَّتْ فَبِالأشرارِ تَنْقَادُ

واتَّفَقَ له مع الخُدَّامِ مَوَاطِنُ في دارِهِ، حضَرَهُ جماعةٌ من الأشرارِ، فلولا لُطْفُ الله تعالى لكانَ يحكي يومَ الدَّارِ[2].

ولمّا سافرَ إلى مصرَ قلَّ الشَّاكِرُ وكَثُرَ الشَّاكِي، وكان قَدْ عَزَلَنِي عَنْ نيابتِهِ في الأحكامِ، فجاءني في أثناءِ السَّنَةِ - وهي سَنَةُ خمسٍ وسِتِّينَ وسبعِمِئَةٍ - توقيعٌ شريفٌ بأنْ [١٣١/ب] أجرِيَ على عَادَتِي في الأحكامِ، وألّا يَتَعَرَّضَ لِعَزْلِي أَحَدٌ من الحُكَّامِ، وجاءَ للخُدَّامِ أيضاً ما قَوِيَتْ به شَوْكَتُهُم، وَعَلَتْ بِهِ كَلِمَتُهُمْ، فحينئذٍ أَقْبَلَ على شأنِهِ، حافِظاً لِلِسَانِهِ، مُتَحَرِّزاً من إخوانِهِ، ثُمَّ سافرَ إلى مصرَ [مَعَ الرَّكْبِ المِصْرِيِّ لِتَمْهِيدِ الأحوالِ، ولِدَرْكِ جميعِ الآمالِ، فلمَّا وَصَلَ تَحقَّقَ أَنَّ سَعْيَهُ في ذٰلك يُسْقِطُ حِشْمَتَهُ وَيُنْقِصُ حُرْمَتَهُ، فاختارَ المُقامَ بمصرَ؛ فعُزِلَ.

وَوَلِيَ المَنْصِبَ الشَّرِيفَ: الشَّيخُ الإمامُ العلَّامةُ جامعُ أشتاتِ الفضائلِ،

---

(١) الأبيات للأفوه الأودي، شاعر جاهلي. انظر: «الحماسة البصرية» ٢/ ٦٩.

(٢) المقصود بيوم الدار: يوم محاصرة دار الخليفة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقتله سنة ٣٥هـ.

شمسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بنُ سُليمانَ الشَّهيرُ بالحَكَرِيِّ(١) المصريُّ الشافعيُّ، وَصَلَ إلى المدينةِ المُشَرَّفَةِ في ذي الحجَّةِ سنةَ ستٍّ وستِّينَ وسبعِمِئة.

إمامٌ فاضلٌ في مذهبِ الشافعيِّ، رُحْلَةٌ في علمِ القراءاتِ وما يتعلَّقُ بها من العربيَّةِ والتَّصريفِ وغيرِ ذٰلك، لَهُ تَوَالِيفُ عديدةٌ مفيدةٌ، منها: «شرحُ الحاوي»(٢)، و«شرحُ الألفيَّةِ»(٣)، وغيرُ ذٰلك.

وقامَ بالخَطَابةِ والإمَامةِ أحْسَنَ قيامٍ، لَمْ يَلِ هٰذا المَنْصِبَ أَحَدٌ أَلْيَنُ منهُ عريكةً، ولا أكثرُ تَوَاضُعاً، ولا أَصَحُّ منه سَرِيرَةً، ولا أَصْفَى قَلْباً لِلمُجَاوِرِينَ، غيرَ أَنَّهُ وَجَدَ عند الخُدَّامِ بقايا ذٰلك العِنَادِ الذي تأسَّسَ في أيامِ القاضي تاجِ الدِّينِ، فحاولَ إصلاحَ ذٰلك بالقُوَّةِ والشِّدَّةِ فزادُوا في مُنَاصَاتِهِ(٤) على الحَدِّ، وجرى بينَهُ وبَيْنَهُم مَقَامَاتٌ لا يَلِيقُ ذِكرُها، وصارَ حالُهُ معَ شيخِ الخُدَّامِ كما قيلَ:

بُليتُ بِشَخْصٍ صَاحِبٍ غيرِ مُنْصِفٍ ... إذا جاءَهُ وَصْلِي أَتَانِي جَفَاؤُهُ
إذا ما اسْتَوَى أَمْرِي تَعَوَّجَ أَمْرُهُ ... مُخَالَفَةً في كُلِّ أَمْرٍ أَشَاؤُهُ

---

(١) محمد بن سليمان، شمس الدِّين أبو عبدالله الحَكريُّ، المِصريُّ، الشافعيُّ، المقرئُ، الفقيه، توفي سنة ٧٨١هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٩٨، «الدرر الكامنة» ٣/ ٤٥١، «التحفة اللطيفة» ٦/ ١٧٧.
ملحوظة: في هامش الصفحة (١٣١/ ب) الأيسر في وسط الصفحة ما يأتي: «ثُمَّ القاضي شمس الدين محمَّد بن سليمان الحكَري».

(٢) شرح «الحاوي الصغير» لنجم الدين عبدالغفار القزويني المتوفى سنة ٦٦٥هـ في الفقه الشافعي.

(٣) شرح «ألفية ابن مالك» في النحو.

(٤) المناصاة: المناقشة والاستقصاء. «القاموس»: نصص.

فصلٌ

عَنَّ لي أَنْ أَذْكُرَ مَنْ أدركتُهُ مِنْ أُمَرائِنا ومُدَّةَ [١٣٢/ أ] وِلايَتِهم على سبيلِ الاختصارِ، مُعرِّضاً بما يتعلَّقُ بِقَصَصِهِم، وشرحِ حالِهِم وسِيَرِهِم مَعَ رعاياهُم، إلّا ما لا بُدَّ مِنْهُ، فإنَّ ذٰلك يَخْرُجُ[(١)] عَنِ المقصودِ الذي أَرَدْناهُ.

فأوَّلُ مَنْ أدرَكْتُهُ مِنَ الأُمَراءِ:

الأميرُ عِزُّ الدِّينِ جَمَّازُ بنُ شَيْحَةَ بنِ هاشمِ بنِ قاسمِ بنِ مُهَنَّا بنِ حسينِ ابنِ مُهَنَّا بنِ داودَ بنِ قاسمِ بنِ عبدِالله بنِ طاهرِ بنِ يحيى بنِ حسينِ بنِ جعفرَ بنِ حسينِ بن عليِّ بنِ حسينِ بن عليِّ بنِ أبي طالِبِ - رضِيَ اللهُ عنهُ وعن فاطمةَ[(٢)] البَتُولِ، وَعَنْ ذُرِّيَّتِهما الطَّيِّبَةِ الطَّاهِرَةِ، وحَشَرَنا في زُمْرَتِهِم، ونَفَعَنا بِمَحَبَّتِهم، وصلّى الله على سَيِّدنا محمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ.

كان الأميرُ جَمَّازٌ - رحِمهُ الله تعالى - شُجاعاً مَهِيباً سَايِساً حازِماً، ذا رأيٍ صائبٍ وهِمَّةٍ عاليةٍ، تَرَقَّتْ هِمَّتُهُ إلى أَنْ قَصَدَ صاحِبَ مَكَّةَ - وهو الأميرُ

---

(١) في آخر الصفحة (١٣١/ ب) في أسفل هامشها الأيسر ما يأتي: «ذكر الأمراء الذين أدركهم المؤلِّف، أولهم الأمير جَمَّاز بن شيحة رحمه الله تعالى».

(٢) في هامش الصفحة (١٣٢/ أ) الأيمن في أعلاها ما يأتي: «علي بن الحسين زين العابدين علي، قال في «حياة الحيوان»: كلّ حسيني حسني ولا عكس؛ لأنّ الحُسَينيِّين كلهم ينتهون إلى زين العابدين وكان متزوِّجاً علية بنت الحسن وليس له زوجة غيرُها، وكلّ الحُسينيِّين أولاده منها وهي حسينية، فكلّ حسيني حَسَني من جانب له» انتهى من الكتاب المذكور.

نجمُ الدِّينِ أبو نُمَيٍّ[(١)] مُحمَّدٌ ابنُ صاحِبِ مَكَّةَ أبي سعيدٍ حَسَنِ بنِ عليٍّ بنِ قتادةَ الحسنيِّ - وحاصرَهُ وانتزعَ مِنْهُ مَكَّةَ المشرَّفَةَ، فاستولى عليها وحَكَمَ فيها، وأقامَ بها مُدَّةً يسيرةً ثُمَّ عادت إلى أبي نُمَيٍّ، وذٰلك في سنةِ سبعٍ وثمانينَ وستِّمِئة.

وكان والِدُهُ الأميرُ شيحةُ[(٢)] مُتَوَلِّياً على المدينةِ انتزعَها مِنَ الجَمَامِزَةِ في سنةِ أربعٍ وعشرينَ وستِّمِئة، وطريقُ وُصولِها إليهِ أنَّ صاحبَ المدينةِ المتولّي عليها في أيامِ الخليفةِ أميرِ المؤمنينَ المُستضيءِ بأمرِ الله[(٣)] ابنِ المُستنجِد بالله العباسيِّ، هو الأميرُ عِزُّ الدِّينِ أبو[(٤)] فُلَيْتَةَ قاسِمُ بنُ مُهَنَّا، هٰكذا ذكرَه مؤلِّفُ «الرَّوضَتينِ في أخبارِ الدَّوْلَتينِ النُّورِيَّةِ والصَّلاحِيةِ».

قال العلّامةُ أبو شامةَ في «الرَّوْضَتَينِ»: وكان السُّلطانُ الملِكُ النَّاصِرُ صلاحُ الدِّينِ يوسفُ بنُ [١٣٢/ ب] أيوبَ - تغمَّدَهُ الله برحمتِهِ - مُحِبًّا في

---

(١) الأمير نجم الدين الشريف أبو نُمَيّ: صاحب مكة وابن صاحبها.
محمد بن الحسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني أبو علي: أمير مكة، وثب على عم أبيه إدريس بن قتادة في سنة ٦٧٠هـ فقتله واستقل بالإمارة، مات بمكة سنة ٧١٠هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢١٣، «العقد الثمين» ١/ ٤٥٦، «الدرر الكامنة» ٣/ ٤٢٢.

(٢) الأمير شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا الحسيني، ولي المدينة وقد انتزعها من الجمامزة ببأسه وسطوته، وحدة شوكته، وأقام في ولاية المدينة مدة طويلة.«المغانم المطابة» ٣/ ١٢١١، «التحفة اللطيفة» ٣/ ٢٩٦.

(٣) أمير المؤمنين المستضيء العباسي: الخليفة أبو محمد الحسن ابن المستنجد بالله يوسف ابن المقتفي الهاشمي العباسي. بويع بالخلافة سنة ٥٦٦هـ، وكان ذا حِلم وأناة ورأفة وبر وصدقات، نادى برفع المكوس، ورد المظالم. وتوفي سنة ٥٧٥هـ. «سير أعلام النبلاء»٢١/ ٦٨، «البداية والنهاية» ١٢/ ٣٠٤.

(٤) القاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود (أبو فليتة) الحسيني المدني. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٦٥،« التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٢١.

الأميرِ قاسمِ بنِ مُهَنَّا، يستصحبُهُ معَهُ في غزواتِهِ وفتوحاتِهِ، فَحَضَرَ معه أكثَرَ الفتوحاتِ، وكان السُّلطانُ صلاحُ الدِّينِ يُجلِسُهُ عن يمينِهِ ويَسْتوحشُ لغَيْبَتِهِ، ويَسْتَأنسُ بِشَيْبَتِه.

قال: وما حَضَرَ الأميرُ قاسمٌ مع السُّلطانِ صلاحِ الدِّينِ حصارَ بلدٍ أو حِصنٍ إلّا وفَتحَهُ اللهُ على المُسلمينَ، فكانَ السُّلطانُ يَعْتَقِدُ بَرَكَةَ نَسَبِهِ الطَّاهِرِ، ويُكْرِمُهُ ويُتْحِفُهُ بأجلِّ الكراماتِ.

وكانَتْ فُتوحاتُ السُّلطانِ صلاحِ الدِّينِ ومآثرُهُ الحَسَنةُ للإسلامِ والمسلمينَ تُحاكِي فتوحاتِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقد عدَّدَ صاحبُ «الرَّوضَتينِ» منها شيئاً كثيراً.

فَمِنْ كلامِهِ حكايةً عن كتابٍ كتبَهُ السُّلطانُ صلاحُ الدِّينِ إلى الخليفةِ في بغدادَ: والآنَ قد خُلِّصَ بحمدِ الله القُدْسُ الشريفُ من أيدِي النَّصارى، وجميعُ مملكةِ القُدْسِ الشريفِ وضِياعِه وأَعْمَالِهِ، والكَرَكُ[1] أيضاً وحُصُونُهُ، والشَّوْبَكُ[2] وأعمالُه، وجميعُ البلادِ الشَّماليَّةِ إلى مُنْتَهَى أعمالِ بيروتَ، وجميعُ أقاليمِ أنطاكيةَ[3]، وعَسْقَلانَ[4]، وعَكَّا، ونابُلسُ، وطرابلسُ، والرَّمْلةُ[5].

---

(١) الكَرَك: مدينة بجنوب الأردن، تبعُد عن العاصمة نحو ١٢٠ كيلا.
ملحوظة: في الصفحة (١٣٢/ ب) في وسط هامشها الأيسر ما يأتي: «قف على ذلك محمود».

(٢) الشَّوْبَك: مدينة بجنوب الأردن، تبعد عن العاصمة نحو ٢٠٠ كيل.

(٣) أنطاكية: مدينة تاريخية تقع على الضفة اليسرى على نهر العاصي على بعد ٣٠ كيلا من شاطئ البحر المتوسط، تتبع تركيا حاليًا.

(٤) عَسْقَلان: قريبة من الشاطئ بين غزة ويافا إلى الشمال الشرقي من غزة، وتبعُد عنها ٢٥ كيلا.

(٥) الرَّمْلَة: مدينة تقع على الطريق القديمة بين يافا والقُدس.

وذَكَرَ في موضعٍ آخرَ نسخةَ كتابٍ مِنَ السُّلطانِ وعَدَّدَ فيه خمسينَ موضعاً ما بين مدينة كبيرةٍ وصغيرةٍ وحصونٍ حصينةٍ.

قالَ: وهٰذا خلافُ ما لكلِّ بَلَدٍ من الأعمالِ التي حولَها.

وكانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد أفنى عُمْرَهُ في الجهادِ لا يَفْتُرُ عنه فَصْلاً مُتوالياً، حتى تُوُفِّيَ إلى رحمةِ الله تعالى.

وكان الذي ربَّاهُ ودَرَّبَهُ على ذٰلك ورَقَّاهُ إلى الرُّتَبِ العاليةِ المَلِكُ العادِلُ نورُ الدِّينِ محمُودُ بنُ الشَّهيدِ زِنْكِي بنِ آق سنقرَ، رحمهُ الله تعالى.

وقد خرجتُ [١٣٣/أ] بذكرِ هٰذين المَلِكَيْنِ عن المقصودِ الذي أَرَدْنَاهُ لٰكِنْ لِمَصْلَحةٍ عَظِيمةٍ، وهي إقامةُ الحُجَّةِ على المُتَأَخِّرينَ من المُلوكِ والسَّلاطينِ، فإنَّهم يَستبعِدونَ من أنفسِهم طريقةَ الخُلفاءِ الرَّاشِدِينَ ومَنْ حذا حَذْوَهُم من الأئمَّةِ السَّابِقينَ، ويقولونَ: نَحْنُ في الزَّمَنِ الأخِيرِ، وما لأولئِكَ من نظيرٍ!

فَقَدْ أظهرَ تعالى الحُجَّةَ عليهم بِمَنْ هوَ في عَصْرِهم من بعضِ مُلوكِ دَهْرِهِم، فلنْ يَعْجَزَ عنِ التَّشَبُّهِ بهما أحدٌ إنْ وَفَّقَ اللهُ الكريمُ وسَدَّدَ.

وكان المَلِكُ العادلُ الكاملُ نورُ الدِّينِ مَلِكاً عادِلاً، زاهِداً، عابِداً، وَرِعاً، مُتَمَسِّكاً بالشريعةِ، مائلاً إلى أهلِ الخيرِ، مُجاهِداً في سبيلِ الله، وكان مواظِباً على الصَّلَواتِ في الجماعاتِ، عاكِفاً على تِلاوَةِ القُرآنِ، عفيفَ البَطْنِ والفَرْجِ، مُقْتَصِداً في الإنفاقِ، مُتَحَرِّياً في المَطاعِمِ والملابِسِ، لم تُسْمَعْ منه كَلِمَةُ فُحْشٍ في رِضاهُ ولا في ضَجَرِهِ، وأشهى

ما إليه كَلِمَةُ حَقٍّ يَسْمَعُها، أو إرشادٌ إلى سُنَّةٍ يَتَّبِعُها[١].

وقال أبو الحسنِ ابنُ الأثيرِ[٢]: طالَعْتُ تَوَارِيخَ المُلُوكِ المتقدِّمينَ قبلَ الإسلامِ وفيه إلى يومِنَا هٰذا، فلم أرَ فيها بعدَ الخُلفاءِ الرَّاشِدِينَ وعمرَ ابنِ عبدالعزيزِ مَلِكاً أحسنَ سيرةً مِنَ المَلكِ العادلِ نورِ الدِّينِ.

وكان كثيرَ الصَّدقاتِ، بَنَى المَدَارِسَ بجميعِ بلادِ الشَّامِ الكبارِ، مثل دِمَشْقَ، وحَلَبَ، وحماةَ، وحِمْصَ، وبَعْلَبَكَّ، وبنى أيضاً سُورَ بَعْلَبَكَّ، وكَمَّلَ سُورَ المدينةِ، وهو سُورُها الموجُودُ اليومَ، واسمُهُ مكتوبٌ على بابِ البقيعِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأجرى العينَ التي تحتَ جَبَلِ أُحُدٍ، وأظنُّها عينَ الشهداءِ، فإنَّ العينَ التي أجراها معاويةُ مُسْتَبْطِنَةُ الوادي وقَدْ دُثِرَتْ، ورُسُومُها موجودةٌ إلى اليوم، واللهُ أعلَمُ[٣].

وأمّا السُّورُ الذي داخلَ المدينةِ فإنَّما أحدَثَهُ الوزيرُ جمالُ الدِّينِ مُحَمَّدُ

(١) ملحوظة: في هامش الصفحة (١٣٣/ أ) الأيمن من الأعلى ما يأتي: «قف؛ الملك العادل نور الدِّين بن الشهيد زنكي رحمه الله تعالى».

(٢) علي بن محمد بن محمد بن عبدالكريم ابن الأثير، أبو الحسن الجزري الشيباني، المؤرِّخ العلّامة المحدِّث الأديب النسَّابة، صاحب «الكامل في التاريخ». توفي سنة ٦٣٠هـ. «وفيات الأعيان» ٣/ ٣٤٨-٣٥٠، «سير أعلام النبلاء» ٢٢/ ٣٥٣-٣٥٦.

(٣) عين الشهداء: سُمِّيت بهٰذا الاسم لأنها تمرّ بالقرب من قبور الشهداء، أي: شهداء أُحُد رضوان الله عليهم أجمعين، والذي أجراها هو مروان بن الحكم والي المدينة المنوَّرة في عهد معاوية ابن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ويظهر أنّ العين اندثرت فأجرى نور الدِّين زنكي عيناً أخرى عُرفت أيضاً بعين الشهداء، ظلت قائمةً حتى أوائل القرن العاشر الهجري. انظر: «تحقيق النصرة» ص٢٩٩، «وفاء الوفاء» ٣/ ٩٨٧.

ابنُ أبي منصورٍ الأصبهانيُّ[(١)]، وكان وَزيراً للشَّهيد والدِ الملِكِ العادِل[(٢)]، ثُمَّ اسْتوزَرَهُ بَعْدَ زِنْكِي ولَدُهُ غازِي[(٣)] بنُ زنكي، وكان مِمَّن يُضرَبُ به المَثَلُ في الجُودِ والكَرَمِ والإحْسانِ إلى أهلِ الحَرَمَينِ، وعَمَّرَ الحَرَمَينِ الشَّريفَينِ، وبَنَى الرِّباطَ المقابِلَ بابَ جِبْرَيلَ الشَّهيرَ بِرِبَاطِ الأصفَهانيِّ، وكان يُدعَى له على المنبرِ النَّبوِيِّ، فيُقالَ: اللهمَّ صُنْ حَرِيمَ مَنْ صَانَ حَرَمَ نَبِيِّكَ بالسُّورِ مُحَمَّدَ بنَ عَلِيِّ بنِ أبي مَنْصورٍ.

وذٰلك أَنَّ العَرَبَ كانُوا قَد اسْتَبَاحُوا أهلَ المَدِينةِ مِراراً، فكانُوا لا يَترُكُونَ لأَحَدٍ ما يُوَارِيْهِ ولا ما يَسُدُّ جوعَتَهُ، فَبَنَى عليهِم السُّوْرَ المذكُورَ، فَاحْتَمَوْا به مِنَ العُرْبَانِ، وهٰذا السُّورُ بَاقٍ إلى اليَوم، قد أَدْخَلَهُ النَّاسُ في دُورِهِم وتَمَلَّكُوهُ، وكانتْ وَفَاةُ جَمَالِ الدِّينِ الوزيرِ في سنةِ تسعٍ وخمسينَ وخمسِمِئَةٍ.

وَلِنَرْجِعْ إلى ذِكْرِ مآثرِ المَلِكِ العادِلِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) محمد بن علي بن أبي منصور، جمال الدين الأصبهاني، أبو جعفر، الوزير الصاحب، الملقب بالجواد، كان كريماً نبيلاً، مُحبَّباً إلى الرَّعية، دمث الأخلاق، كامل الرِّئاسة، مات مُضيَّقاً عليه في سنة ٥٥٩هـ. «وفيات الأعيان» ٥/ ١٤٣-١٤٧، «سير أعلام النبلاء» ٢٠/ ٣٤٩.

(٢) والد الملك العادل: الملك عماد الدِّين الأتابك زَنْكيُّ بن الحاجب قسيم الدولة آقْسُنقر ابن عبدالله التركي، صاحب حلب، كان بطلاً مقداماً، عظيم الهيبة، وكان يضرب بشجاعته المثل، أصبح مقتولاً في سنة ٥٤١هـ. «سير أعلام النبلاء» ٢٠/ ١٨٩-١٩١، «البداية والنهاية» ١٢/ ٢٢١.

(٣) غازي بن زنكي الملك سيف الدين، تملّك الموصل بعد أبيه، وكان عاقلاً حازماً، شجاعاً جواداً، محبًّا في أهل الخير، لم تطل مدته، عاش أربعين سنة توفي سنة ٥٤٤هـ. «سير أعلام النبلاء» ٢٠/ ١٩٢-١٩٣، «شذرات الذهب» ٤/ ١٣٩.

فَمِنْ جُمْلَةِ إِحْسَانَاتِهِ: أَنْ بَنَى بِالمَوصِلِ الجَامِعَ النُّورِيَّ، وبِحَمَاةَ الجامِعَ الذي على نَهْرِ العاصِي، وجامِعَ الرُّها[1]، وجامِعَ مَنْبِجَ[2]، وبِيمارِسْتَانَ دِمَشْقَ، ودارَ الحديثِ بها.

وله مِنَ المناقبِ والمآثرِ ما يَسْتَغْرِقُ الوَصْفَ، وكان - مَعَ سَعَةِ مُلْكِهِ وكثرَةِ ذخائرِ بلادِهِ وأموالِها - لا يأكُلُ ولا يَلْبَسُ ولا يتصرَّفُ إلّا مِنْ مُلْكٍ كانَ له قدْ اشْتَرَاهُ مِن سَهْمِهِ مِنَ الغَنِيمَةِ، ومِنْ بَيتِ مالِ المُسلمينَ، بعدَ أَنْ حَضَرَ الفُقَهاءُ واسْتَفْتَاهُم فيما يَحِلُّ له أَخْذُهُ من مالِ المُسْلِمِينَ، فأَخَذَ ما أَفْتَوهُ به ولم يتعدَّ إلى غيرِهِ [١٣٤/أ] البَتَّةَ، ولم يَلْبَسْ قَطُّ ما حَرَّمَهُ الشَّرْعُ مِنْ حَرِيرٍ وذَهَبٍ.

وأَبْطَلَ المُكُوسَ مِنْ جميعِ بلادِهِ، ومَنَعَ مِنْ شُرْبِ الخَمْرِ، وقَمَعَ البِدَعَ، وأخرجَ الرَّوَافِضَ من حَلَبٍ وأعمالِها وشَتَّتَ شَمْلَهُم، وكان وِرْدُهُ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ إلى طُلُوعِ الفَجْرِ في صَلاةٍ وتِلاوةٍ وذِكْرٍ.

وبعثَتْ إليهِ زوجتُهُ تستَقِلُّ النَّفَقَةَ على نَفْسِها وعيالِها فتَنَكَّرَ لِذٰلك، وقال: مِنْ أَيْنَ أُعطيها؟! واللهِ لا أَخُوضُ نارَ جَهَنَّمَ في هَوَاهَا؛ فإنْ كانت تَظُنُّ أَنَّ الذي بِيَدِي مِنَ الأموالِ هِيَ لي، فَبِئْسَ الظَّنُّ! إنَّما هِيَ أَموالُ المُسْلِمِينَ وأنا خَازِنُهُم عليها، فلا أَخُونُهم فيها.

ثُمَّ قال: لي بمدينةِ حِمصَ ثلاثَةُ دكاكينَ مِلكاً، وَقَدْ وهبتُها لها فَلْتَأْخُذْها.

---

(١) الرُّها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام. «معجم البلدان» ٣/ ١٠٦-١٠٧.

(٢) مَنْبِج: مدينة إلى الشمال الشرقي من حلب، وتبعُد عنها ٨٠ كيلاً. انظر: «معجم البلدان» ٥/ ٢٠٥.

قالَ ابنُ الأثيرِ: وكانَ بالجزيرةِ رَجُلٌ مِنَ الصَّالحِينَ، وكانَ نورُ الدِّينِ يكاتبُهُ، فبَلَغَهُ أنَّ نُورَ الدِّينِ يُدْمِنُ اللَّعِبَ بالكُرَةِ، فكتبَ إليه يقولُ له: ما كنتُ أظنُّكَ تلهُو وتلعَبُ وتُعذِّبُ الخَيْلَ لِغَيرِ فائدةٍ.

فكَتَبَ إليهِ بخطِّ يدِهِ: واللهِ ما يَحمِلُني على ذٰلك اللّهوُ والبَطَرُ(١)، إنّما نَحْنُ في ثَغْرٍ، العَدُوُّ قريبٌ منَّا. وبينَما نَحْنُ جُلُوسٌ إذ وَقَعَ صوتٌ فنركبُ في الطَّلَبِ، ولا يُمكِنُنا مُلازَمَةُ الجهادِ شِتَاءً وصَيفاً، إذْ لا بُدَّ للجُنْدِ مِنَ الرَّاحَةِ، ومَتَى تَرَكْنَا الخيلَ على مرابِطِها صارتْ جَماماً لا قُدرةَ لها على إدْمَانِ السَّيرِ في الطلبِ، ولا معرفةَ لها بِسُرعةِ الانعطافِ في الكرِّ والفَرِّ في المعركةِ، فَمَقْصِدُنا أنْ نُرَوِّحَها بهٰذا اللَّعِبِ.

فانظُرْ إلى هٰذه النِّيَّةِ الصَّالحةِ في اللَّعِبِ، وكان لا يفعلُ شيئاً إلّا بنيَّةٍ صالحةٍ، وكان - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - مُتَّبِعاً للشَّريعةِ وأوامرِها، وأَلْزَمَ بذٰلك أتباعَهُ [١٣٤/ب] وذَوِيهِ؛ فَمِنْ ذٰلك أَنَّهُ كانَ يلعَبُ يوماً بِكُرَةٍ بِدِمَشْقَ، فَرَأى شخصاً يُكلِّمُ غُلَامَهُ - أَعْنِي المَلِكَ العادِلَ - فأَرْسَلَ الملكُ العادلُ يسأَلُ عن حاجَةِ الرَّجُلِ، فأُخبِرَ أنَّ فلانَ ابنَ فلانٍ قد جاءَ ومَعَهُ غُلامُ القاضِي، وذكرَ أنَّ له مع العادلِ(٢) حُكُومَةً، فرَمَى بالجُوكانِ(٣) مِنْ يدِهِ وسارَ إلى القاضي وقال: إنِّي قد جِئْتُ مُحاكَماً، فاسْلُكْ مَعِي مِثْلَما تَسْلُكُهُ مَعَ غيري.

---

(١) في (ج): «اللعب» بدل «البطر».

(٢) في (ج) زيادة: «الملك» قبل «العادل».

(٣) الجُوكان: المِحْجَن الذي تُضرب به الكُرة، ويقال له الصولجان أيضاً. انظر: «صبح الأعشى» ٥/ ٤٣٠. ويُستخدَم في لعبة يمارسها الأمراء وقتها لتدريب الخيل والترويح عنها، وهي تقاذُف كرة من الخشب بمضارب طويلة، واللاعبون على ظهور الخيل، وتسمَّى اليوم «البولو».

فساوَى بينهما، وتحاكَما فلَمْ يَثْبُتْ على الملكِ العادِلِ شيءٌ، وكانت الحُكومة في مِلْكٍ، فقال نورُ الدِّينِ للقاضي ولجميعِ من حَضَرَ: هل ثَبَتَ له عندي شيءٌ؟

قالوا: لا. قال: اشْهَدُوا أنَّني قَدْ وَهَبْتُ لهُ هٰذا المِلْكَ وهو له دُوني، وقد كنتُ أَعْلَمُ أنَّهُ لا حَقَّ له عندي، وإنَما حَضَرْتُ مَعَهُ لئلّا يُظَنَّ أنِّي ظلمتُهُ.

واستُدْعِيَ مرَّةً أخرى إلى مجلسِ الحُكمِ بِحَلَبٍ، فأجابَ إلى ذٰلك.

قال ابنُ الأثيرِ: وَمِنْ عَدْلِهِ أنَّه لم يكنْ يُعاقِبُ العقوبةَ التي يُعاقِبُ بها المُلوكُ في هٰذه الأعْصارِ على الظِّنَّةِ والتُّهْمَةِ، وكَتَبَ إليه الشَّيخُ عُمَرُ المُلَّا[1] - وكان رجلاً صالِحاً كبيرَ الشَّأْنِ -: إنَّ المُفسِدِينَ وقُطَّاعَ الطريقِ قد كَثُرُوا، ويحتاجُ في هٰذا الأمرِ إلى نوعِ سِياسَةٍ مِنْ قَتْلٍ وصَلْبٍ وضَرْبٍ، وإذا أُخِذَ مالُ إنسانٍ في البَرِّيَّةِ مَنْ يَجيءُ يَشْهَدُ له؟

وكتبَ نورُ الدِّينِ على ظَهْرِ كتابِهِ: إنَّ الله تعالى قد خَلَقَ الخَلْقَ وهُوَ أعلمُ بمصلحتِهم، وشَرَّعَ لهم شريعَةً، ومصلحتُهم تحصُل فيما شَرَّعَهُ على وجهِ الكمالِ، فلو عَلِمَ أنَّ على الشريعةِ زيادةً في المصلحةِ لَشَرَّعَهُ، فما لَنَا حاجةٌ إلى الزِّيَادةِ على ما شَرَّعَهُ اللهُ تعالى.

(١) الشيخ: عمر بن محمد المُلا، مُعين الدين، أَمَرَ الملك نور الدين زنكي الولاة والأمراء بالموصل ألّا يفصلوا بها أمراً حتى يعلموا المُلا به، فما أمرهم بأمرٍ امتثلوه، وكان من الصالحين الزاهدين، وكان نور الدِّين يستقرض منه في كلِّ رمضان ما يُفطر عليه، وكان يُرسل إليه بفتيت ورقاق فيفطر عليه جميع رمضان. «تاريخ الإسلام» ١/ ٤٠٥، «البداية والنهاية» ١٢/ ٢٨٢.

قال: فَجَمَعَ عُمرُ المُلَّا أهلَ المَوصلِ وأقرأَهُم الكتابَ [١٣٥/ أ]، وقال: انظُروا كتابَ الزَّاهِدِ إلى المَلِكِ(١)، وكتابَ المَلكِ إلى الزَّاهِدِ!

وقد صَنَّفَ النَّاسُ في سيرةِ الملكِ العادِلِ مصنَّفَاتٍ عديدةً، فلنقتصرْ على ما ذَكَرْنا.

وذكرَ شمسُ الدِّينِ ابنُ خَلِّكانَ(٢) أنَّ الحُصونَ التي افتتحَها مِنَ الإفرنجِ تُنيفُ على خمسينَ حِصْناً، مثل: بَهَسْنا(٣)، وبانِياسَ(٤)، ومَرْعَش(٥)، وحارِمَ(٦)، وغيرِ ذٰلك.

وكان قد ملَكَ مِصْرَ والشَّامَ وأعمالَها، وحلبَ وأعمالَها، والحجازَ، واليمنَ، وكان يُخْطَبُ له مع الخليفَةِ على سائرِ منابرِ تلكَ البلادِ، وكان مولِدُهُ في سنةِ إحدى عشرةَ وخمسِمِئَةٍ، ووفاتُهُ في سنةِ تسعٍ وستِّينَ وخمسِمِئَةٍ.

وأمَّا الملكُ النَّاصِرُ صلاحُ الدِّينِ فسيرَتُهُ كسيرَتِهِ؛ لأنَّه انتشى بينَ يديهِ فتخلَّقَ بأخلاقِهِ، وتأدَّبَ بآدابِهِ، وكانَ نورُ الدِّينِ أكثرَ اجتهاداً في العبادةِ مِنْهُ، وأكثرَ وَرَعاً وتَقَشُّفاً، وكان صلاحُ الدِّينِ أحسنَ منه أخلاقاً، وأكثرَ

---

(١) في (أ) زيادة: «العادل».

(٢) في كتابه «وفيات الأعيان» ٥/ ١٨٥. وابن خلكان هو: أحمد بن محمد بن أبي بكر، أبو العباس. توفي سنة ٦٨١هـ بدمشق. «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ٢/ ١٦٦.

(٣) بَهَسْنا: قلعة قرب مرعش وسمياط، وهي اليوم من أعمال حلب. «معجم البلدان» ١/ ٣٧٥.

(٤) بانياس: مدينة على ساحل الشام بين طرطوس واللاذقية. «تعريف بالأماكن الواردة» ١/ ٣٩٦.

(٥) مَرْعش: تقع الآن في أراضي الجمهورية التركية. «تعريف بالأماكن الواردة».

(٦) حارم: بُليدة غربي حلب، على طريق أنطاكية. «تعريف بالأماكن الواردة».

حِلماً وصبراً على ما ذُكِرَ. وقيل: إنَّهُ كانَ أكرمَ منه وأجْسَرَ منه على الدُّخولِ منه في المُهِمَّاتِ الكِبارِ، وكان مُحَبَّباً إلى الرَّعايا أكثَرَ مِنَ الملكِ العادِلِ، وكان في الجهادِ أعلى درجةً مِنْهُ، ولو لم يَكُنْ له إلّا فَتْحُ القُدْسِ لَكَفَاهُ، وكانَ فتحُهُ القُدْسَ في سَنَةِ ثلاثٍ وثمانينَ وخمسِمِئَةٍ، وكان استيلاءُ الفِرَنْجِ عليه في سنةِ اثنينِ وتِسعينَ وأربعِمِئَةٍ، وكان الحاكِمُ على القُدْسِ يومئذٍ العُبَيْدِيُّونَ، وقد ذَكَرْنا بعضَ فُتُوحَاتِه.

وأمَّا أوقافُهُ وصدقاتُهُ فتُكافِئُ ما فَعَلَهُ المَلِكُ العَادِلُ - رحمهُ الله تعالى - أو تَكادُ، وهو الذي ثَبَّتَ قاعِدَةَ الخُدَّامِ في الحَرَمِ النَّبَوِيِّ، وأَوْقَفَ عليهِمُ الأوقافَ، وكِتَابُ الوَقْفِ موجودٌ عندَهم إلى اليومِ، وكان الموقُوفُ عليهم نحوَ [١٣٥/ب] العِشْرينَ خادِماً بأعيانِهم، ثُمَّ مِنْ بعدِهم على خُدَّامِ الحَرَمِ النَّبَوِيِّ، ثُمَّ أَوْقَفَ عليهم المَلِكُ الصَّالِحُ ابنُ الملِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدُ ابنُ قلاوونَ وقفاً آخرَ، ولهم اليومَ منذُ تقرَّرُوا في الحرمِ بالجَامِكِيَّةِ نحوُ مِئَتَيْ سنةٍ.

ومِنَ العجائِبِ: أَنَّ أوقافَ صلاحِ الدِّينِ ومدارِسَه أكثرُها مشهورةٌ باسمِ غيرِهِ مِنْ سُكَّانِها، أو نُظَّارِها، أو المُشدينَ(١) على عَمَارَتِها، وهٰذه صَدَقَةُ السِّرِّ بعينِها.

---

(١) وظيفة من وظائف نيابة السَّلطنة، قال في كتاب «تحفة الترك» ١/ ٤١: «وأمّا تولية المشدين، فينبغي أن يولي وظيفة الشدّ، من يكون عفيفاً ليس بظالم، ولا خؤون، ولا جاهل بأحوال الناس، قليل الطمع، ليس عنده جور ولا عسف، ذا مهابة وحشمة، ومال جزيل يمنعه من التماس مال الغير».

وَمِنْ أعظمِ حَسَناتِهِ مَحْوُهُ لدولةِ العُبَيْدِيِّينَ، وَطَمْسُ معالِمِهم ورُسومِهم وآثارِهِم، وكانوا بنو عُبَيْدٍ[١] قد أَظْهَرُوا للنَّاسِ أَنَّهم شُرَفاءُ فاطِمِيُّونَ! فَمَلَكُوا البلادَ وقَهَرُوا العِبادَ.

وَقَدْ ذَكَرَ جماعَةٌ مِنْ أكابِرِ العلماءِ أَنَّ نِسْبَتَهُم غَيْرُ صحيحةٍ، والمعروفُ أنَّهم بَنُو عُبَيْدٍ، وكانَ والِدُ عُبَيْدٍ هٰذا مِنْ نَسْلِ القَدَّاحِ المُلْحِدِ المَجوسيِّ[٢].

وقيل: كان والِدُ عُبَيْدٍ هٰذا يهوديًّا مِنْ أهلِ سَلمِيَّةَ مِنْ بلادِ الشَّامِ، وكانَ حدَّاداً، فلمَّا دخلَ المغربَ تَسَمَّى بعبدالله[٣]، وزعمَ أنَّهُ فاطِمِيٌّ عَلَوِيٌّ، وادَّعَى نَسَباً غيرَ صحيحٍ، ثُمَّ تَرَقَّتْ بهِ الحالُ إلى أَنْ مَلَكَ وتسمَّى بالمَهْدِيِّ! وبَنَى المَهْدِيَّةَ بالمغرِب، ونُسِبَتْ إليه، وكان زِنْدِيقاً خَبِيثاً عَدُوًّا للإسلامِ، مُتظاهراً بالتَّشَيُّعِ مُتَسَتِّراً به، حَرِيصاً على إزالةِ المِلَّةِ الإسلاميةِ، قَتَلَ مِنَ الفُقَهاءِ والمُحَدِّثينَ والصَّالِحينَ جماعةً كثيرةً، وكان قَصْدُهُ إعدامَهم مِنَ الوُجودِ لِيَبْقَى العالَمُ كالبهائِمِ، فَيَتَمَكَّنَ مِنْ إفْسادِ عقائدِهم، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٤].

---

(١) على لغة «أكلوني البراغيث»، والأولى: كان بنو عُبيد.

(٢) هو عبدالله بن ميمون القداح الأهوازي، الذي يقول بوجود إلٰهين اثنين إلٰه النور وإلٰه الظُّلمة، وقد أقام بِسَلَمِيَّة وابتدع دعوةً، ولم يَمُت حتى راجت في كثير من البلاد، توفي سنة ٢٧٠هـ. «تاريخ الإسلام السياسي» ٣/ ١٤٤ و ١٩٦. وانظر: «سير أعلام النبلاء» ١٥/ ١٤١.
ملحوظة: في الهامش الأيسر من الصفحة (١٣٥/ ب) ما يأتي: «جماعة من أكابرهم».

(٣) في (ب) و(ج): «بعبيد الله».

(٤) سورة الصف: الآية ٨.

ونشأتْ ذُرِّيَّتُهُ على ذٰلك، وانبثَّتْ الدعاةُ لهم في البلادِ يُضِلُّونَ الضُّعفاءَ مِنَ النَّاسِ، وبَقِيَ هٰذا البلاءُ على الإسلامِ مِنْ أَوَّلِ دَوْلَتِهِم إلى آخرِها، وذٰلك في ذِي الحِجَّةِ سنةَ تسعٍ وتسعينَ [١٣٦/أ] ومِئَتَينِ إلى سنةِ سَبْعٍ وستينَ وخمسِمِئة.

وفي أيّامِهِم كَثُرَت الرَّوافِضُ واسْتَحْكَمَ أمرُهمْ، وَوُضِعَتْ المُكوسُ على النَّاسِ، فاقْتَدَى بهم غيرُهُم، وَأُفْسِدَتْ عقائِدُ طوائِفَ مِنْ أهلِ الجِبالِ بثُغورِ الشَّامِ وغيرِها، وظَهَرَتِ النُّصَيْرِيَّةُ(١) وغيرُهم مِنْ طوائِفِ المُعْتَزِلَةِ(٢)، وهُمْ إلى الآنَ.

وكانوا أربعةَ عشرَ مُسْتَخْلَفاً، ثلاثةٌ منهُم بإفريقيَّةَ وهم المُلَقَّبُونَ: بالمهديِّ، والقائِمِ، والمَنْصورِ، وأَحَدَ عَشَرَ بِمِصْرَ وهُمْ المُلَقَّبُونَ: بالمُعِزِّ، وهو أَوَّلُهُم، وإليه تُنْسَبُ المُعِزِّيَةُ، والعزيزِ، والحاكمِ، والظاهِرِ، والمُسْتَنصِرِ، والمُسْتَعِلِي، والآمِرِ، والحافِظِ، والطاهِرِ، والفايِزِ، والعاضِدِ، يَدَّعونَ الشَّرَفَ، ونِسْبَتُهم على الحقيقةِ إلى يهودِيٍّ أو مَجوسِيٍّ كما تقدَّم!

واشتهرَ ذٰلك عندَ العوامِّ، فصارُوا يقولونَ الدَّولةَ الفاطِمِيَّةَ، وكانوا

---

(١) النُّصَيرية: حركةٌ باطنية ظهرت في القرن الثالث للهجرة، يُعَدّ أصحابُها من غُلاة الشِّيعة الذين زعموا وجوداً إلهيًّا في عليّ وألّهوه به! «الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» د. مانع الجهني ١/ ٨٩.

(٢) المعتزلة: فرقة تنتسب إلى واصل بن عطاء، تميَّزت بتقديم العقل على النَّقل، من أسمائها القدرية والوعيدية والعدلية، سُمّوا معتزلة لاعتزال مؤسِّسها مجلس الحسن البصري بعد خلافه معه حول حكم الفاسق. «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» د. مانع الجهني ١/ ٢٦.

يَأْمُرُونَ الخُطَبَاءَ بِذٰلك على المنابِرِ، ويَكْتُبونَ على جداراتِ المساجِدِ، ومثالِبُهم كثيرةٌ ومَخازِيهم عديدةٌ.

ولٰكنْ لا بدَّ مِنْ ذكرِ نُبْذَةٍ يَسيرةٍ منها؛ ليُعْذَرَ مَنْ أزالَ دولتَهم، وأماتَ بِدْعَتَهُم وأبادَ أُمَّتَهُم، وأطفأَ جَمرَتَهُم:

كان المَهْدِيُّ[(١)] يُرسِلُ إلى الفُقَهَاءِ والعُلَماءِ مَنْ يَتَسَوَّرُ عليهم ويَذْبَحُهُم في فَراشِهِم! وأرسَلَ دُعَاتَهُم إلى الرُّومِ وسَلَّطَهُم على النَّاسِ، فَمَنْ وَجَدُوه يَفْهَمُ شَيْئاً قالوا: هُوَ المَهْدِيُّ ابنُ رسولِ الله ﷺ! وحُجَّةُ الله على خَلْقِهِ! ويقولون للجُهَّالِ: هو رسولُ الله وحُجَّةُ الله! ويقولونَ لطائفةٍ أجهلَ من هٰؤلاءِ: هو الله الخالقُ الرَّازِقُ!! تعالى اللهُ عمَّا يقولونَ عُلُوّاً كبيراً.

ولمَّا هَلَكَ قامَ ابنُه المُسمَّى بالقائمِ[(٢)]، وَزَادَ شَرُّهُ على شَرِّ أبيهِ، وجاهَرَ بِشَتْمِ الأنبياءِ، [١٣٦/ ب] فكان يُنادِي في الأسواقِ المهديةِ: الْعَنُوا عائِشَةَ وبَعْلَها! الْعَنُوا الغارَ وَمَنْ حَوَى!

وبَعَثَ إلى أبي طاهرٍ القَرْمَطِيِّ[(٣)] أميرِ البَحْرَيْنِ، وحَضَّهُ على قَتْلِ المُسلمينَ وإحراقِ المساجِدِ والمصاحِفِ؛ فَقَدِمَ مَكَّةَ وقتَلَ الحَجِيجَ،

---

(١) عُبيدالله بن محمَّد الحبيب بن جعفر المصدق الفاطمي، مؤسِّس دولة العلويِّين في المغرب، وجَدُّ العُبيديين الفاطميين أصحاب مصر، توفي سنة ٣٢٢هـ. «الكامل» ٨/ ٩٠.

(٢) محمد بن عُبيدالله، أبو القاسم، القائم ابن المهدي العبيدي الفاطمي، توفي سنة ٣٣٤هـ. «وفيات الأعيان» ٢/ ٢٧.

(٣) سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي الهجري، أبو طاهر القرمطي، ملك البحرين، وزعيم القرامطة، أغار على الكوفة والبصرة ومكة وأكثر القتل، توفي مريضاً بالأحساء سنة ٣٣٢هـ. «الكامل» ٨/ ٢٧، «سير أعلام النبلاء» ١٥/ ٣٢٠.

وحَمَلَ الحَجَرَ الأَسْوَدَ وأقامَ عندَهم في البَحْرَينِ نحوَ ثَمَانِية عشرَ سنةٍ أو أزيدَ، ثُمَّ ردَّهُ بعدَ قِصَصٍ كثيرةٍ يَتَعَذَّرُ شرحُها هُنا.

وأمّا المُعِزُّ[١] فكان يَسُرُّهُ ما يَنْزِلُ بالمُسلمينَ مِنَ الفِرَنْجِ، واحتجبَ عَنِ النَّاسِ بمصرَ، ثُمَّ ظَهَرَ وَأَوْهَمَ النّاسَ أنَّ اللهَ تعالى رَفَعَهُ إلى السّماءِ، وأَخْبَرَهُم بما كان يَصْدُرُ منهم في أَيّامِ تَحَجُّبِهِ بما يُخْبِرُهُ به الجواسيسُ، وامْتَلأَت قُلُوبُ العَامَّةِ والجَهَلَةِ منه، واسْتَدْعَى فقيهَ الشَّامِ أبا بكرِ بنَ مُحَمَّدِ بنِ أحمَدَ الرَّمليَّ، ويُعْرَفُ بابنِ النَّابُلْسِيِّ[٢]، فَحُمِلَ إليهِ في قَفَصِ خَشَبٍ! فأمَرَ بِسَلْخِهِ فَسُلِخَ حَيًّا، وَحُشِيَ جِلْدُهُ تِبْناً وَصُلِبَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان يقولُ وهو يُسْلَخُ: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾[٣].

وأمَّا المُسَمَّى بالحاكمِ[٤]، فأَمَرَ بِكَتْبِ سَبِّ الصَّحابَةِ على حِيطانِ الجوامعِ والقياسِرِ والشوارعِ، وَكَتَبَ السِّجِلّاتِ إلى سائِرِ الأعمالِ بالسَّبِّ، وفي أَيَّامِهِ طُوِّفَ برجلٍ مَغْرِبِيٍّ وَنُودِيَ عليه: هٰذا جزاءُ مَنْ يُحِبُّ أبا بكرٍ وعُمَرَ، ثُمَّ ضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

---

(١) المُعز لدين الله بن إسماعيل بن القائم بن المهدى عبيدالله، الفاطمي العبيدي، أبو تميم، صاحب مصر وإفريقية، وأحد الخُلفاء في هٰذه الدَّولة. انقادت له بلاد إفريقية كلها واختطّ مدينة القاهرة، هلك سنة ٣٦٥هـ. «وفيات الأعيان» ٢/ ١٠١.

(٢) محمد بن أحمد بن سهل، أبو بكر الرَّملي النابلسي الشهيد، قُتل رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ٣٦٣هـ. «الوافي بالوفيات» ٢/ ٤٤، «سير أعلام النبلاء» ١٦/ ١٤٨.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٥٨.

(٤) منصور (الحاكم بأمر الله) ابن نزار (العزيز بالله) ابن معدّ (المعز لدين الله) ابن إسماعيل بن محمد العبيدي الفاطمي، أبو علي، متألّه، غريب الأطوار، من خُلفاء الدولة الفاطمية بمصر، قُتل سنة ٤١١هـ. «النجوم الزاهرة» ٤/ ١٧٦-٢٤٦، «الكامل في التاريخ» ٩/ ١٠٨.

وَأَمَرَ بِقَطْعِ لِسانِ أبي القاسِمِ الواسِطِيِّ[(١)] - أَحِدِ الصَّالِحينَ - بِسَبَبِ أنّه أَذَّنَ في بيتِ المَقْدِسِ وقال في أذانه: حيَّ على الفلاحِ!

وكانت ولايتُهُم على النَّاسِ مِحْنَةً مِنَ الله تعالى، وكان ضَرَرُ هٰؤلاءِ على الإسلامِ أَشَدَّ مِنْ ضَرَرِ الكفَّارِ، وفي أيَّامِهم استعادَ النَّصارى القُدْسَ الشَّريفَ مِنَ المُسْلِمينَ وَبَقِيَ بأيدِيهِم نحوَ ثلاثةٍ وتسعِينَ سَنَةً، حتَّى فتَحَهُ اللهُ تعالى على يَدِ [١٣٧/ أ] السُّلْطَانِ صلاح الدِّينِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكانَ ظُهورُهُ مِنَّةً مِنَ الله تعالى على العبادِ والبلادِ، مَحا اللهُ به هٰذه الدَّوْلَةَ الخَبِيثَةَ.

وَكانَ قَدْ دَخَلَ مِصْرَ مع عَمِّهِ أَسَدِ الدِّينِ شِيركوه[(٢)]، وكان عَمُّهُ أَسَدُ الدِّينِ قد بَعَثَهُ المَلِكُ العادِلُ نُورُ الدِّينِ المُتقدِّمُ ذِكْرُهُ، فلمَّا رأى أَسَدُ الدِّينِ مِصْرَ وأَهْلَهَا طَمِعَ في اسْتِمالَتِهِم إليه، وعَلِمَ أَنَّهم ليسَ لَهُمْ صُحْبَةٌ، ولا للعاضِدِ منهم نَجْدَةٌ. فلمَّا رَجَعَ إلى نُورِ الدِّينِ أَخْبَرَهُ بذٰلك، فَجَهَّزَهُ بالجُيوشِ والأَمْوَالِ، فَبَلَغَ ذٰلك العاضِدَ[(٣)] وَوَزِيرَهُ المُسَمَّى

---

(١) أبو القاسم الواسطي: قال كنت مجاوراً في بيت المقدس في المسجد، فلمَّا كان أوّل ليلة من رمضان أمر السُّلطان بقطع صلاة التراويح، فنفرتُ أنا وعبدالله الخادم وصحنا واإسلاماه! وامحمداه! فأخذني أعوانُ السُّلطان ولم يأخذوا عبدَالله الخادم، وطرحوني في الحبس وكتب فيَّ إلى مصر. «تاريخ دمشق» ٦٧/ ١٣٦.

(٢) الملك المنصور، أسد الدين شِيركُوه ابن شاذي الدُّويني الكردي، وُلِد بأذربيجان، ونشأ بتكريت، ثُمَّ قَدِم الشام، وصار من أكبر أمراء نور الدين زنكي، توفي في جمادى الآخرة، سنة ٥٦٤هـ.«وفيات الأعيان» ٢/ ٤٧٩-٤٨١، «سير أعلام النبلاء» ٢٠/ ٥٨٧-٥٨٩.

(٣) العاضد لدين الله: عبدالله بن يوسف بن الحافظ لدين الله، أبو محمد العبيدي الإسماعيلي، خاتم الدولة العبيدية، مات سنة ٥٦٧هـ. «وفيات الأعيان» ٣/ ١٠٩-١١٢، «سير أعلام النبلاء» ١٥/ ٢٠٧-٢١٥.

شاور[١]، فاتَّفَقَا على مَنْعِهِ مِنَ الدُّخولِ إلى مِصْرَ، وَعَلِمَا أنَّهم لا طاقةَ لهم بِهِ، فاسْتَنْجَدُوا بِمَنْ قَرُبَ منهم مِنَ النَّصارى - وكانتِ السَّواحلُ كلُّها للنَّصارى - فَأَنْجَدُوهم، وَمَنَعُوا أَسَدَ الدِّينِ وصَلاحَ الدِّينِ مِنَ الدُّخولِ، ولهم في ذٰلك قِصَصٌ عَجِيبَةٌ لا يَسَعُ ذِكْرُها هُنَا.

فلمَّا دَخَلُوا النَّصارى[٢] إلى مِصْرَ وَرَأَوْهَا طَمِعُوا فيها كما طَمِعَ فيها أَسَدُ الدِّينِ، فلمَّا انْصَرَفُوا إلى بلادِهِم تَجَهَّزُوا لذٰلك وعَمِلُوا عليه، فلمَّا تَحَقَّقَ العاضِدُ ما عَزَمُوا عليه بَعَثَ إلى نورِ الدِّينِ يَسْتَنْجِدُهُ عليهم، فَسَيَّرَ إليه أَسَدَ الدِّينِ وصلاحَ الدِّينِ ومعهُ الجيوشُ، فَسَبَقُوا النَّصارى إلى مِصْرَ وَحَمَوْها مِنْهم فرَجعوا خائبينَ، وأقامَ أسدُ الدِّينِ في مِصْرَ ومعه صلاحُ الدِّينِ، وصارتْ لهما يَدٌ على العاضدِ يُدِلَّانِ بها عليه، وعَلِمَا أنَّهما لَنْ يَصِلَا إلى مقصودِهما مع وُجودِ الوزيرِ، وصارَ أَسَدُ الدِّينِ يَأْمُرُ في البَلَدِ وَيَنْهَى مُدِلًّا عليهم بما فَعَلَهُ مَعَهُم، وَيُظْهِرُ لهم نُصْحاً وصداقةً، ويريدُ أنْ يَصِلَ إلى مَقْصودِهِ بالاسْتِدْراجِ.

وكان رَأْيُ صلاحِ الدِّينِ [١٣٧/ ب] غيرَ ذٰلك؛ فَلَمْ يَزَلْ صلاحُ الدِّينِ يَتَوَقَّعُ[٣] قَتْلَهُ لوَزيرِ الإمامِ العاضدِ حتَّى ظَفِرَ بهِ في الطَّريقِ في خَلْوَةٍ،

(١) وزير الدَّولة المصرية، الملك، أبو شجاع، شاور بن مجير السعدي الهوازني، كان فارساً سائساً، سار إلى نور الدِّين زنكي فَأَمَدَّهُ بأسد الدِّين شيركوه، فثبَّته في منصبه، فتلاءم على شيركوه ولم يفِ له، وعمل قبائح، واستنجد بالفرنج، قتلهُ أسدُ الدِّين شيركوه سنة ٥٦٤هـ. «سير أعلام النبلاء» ٢٠/ ٥١٤، «شذرات الذهب» ٤/ ٢١٢.

(٢) على لُغة «أكلوني البراغيث»، والجادة: فلما دخل النصارى.

(٣) من هُنا سقط في (أ) بمقدار لوحة كاملة.

فقَبَضَ عليه - ولم يكنْ ذٰلك بِأَمْرِ عَمِّهِ أَسَدِ الدِّينِ - وَقَيَّدَهُ ثُمَّ قتَلَهُ بأمرِ العاضدِ، وَتَوَزَّرَ أَسَدُ الدِّينِ للعاضدِ أشهُراً يسيرةً ثُمَّ تُوُفِّيَ إلى رحمةِ الله تعالى.

فقامَ صلاحُ الدِّينِ مَقَامَهُ، واستمالَ قلوبَ النَّاسِ بالسَّخاءِ والبَذْلِ حتى قَوِيَتْ شَوْكَتُهُ، وَنَفَذتْ كَلِمَتُهُ وتَمَكَّنَ مِنَ الخَزَائِنِ وَالذَّخائِرِ، فصَارَ يُنْفِقُهَا في الأمراءِ والجُنْدِ وَوَجُوهِ النَّاسِ، فلم ينتبهِ العاضدُ لِنَفْسِهِ حتَّى وَجَدَ نَفْسَهُ وحيداً فريداً، فَكَتَبَ الملِكُ العادلُ إلى الملِكِ النَّاصرِ صلاحِ الدِّينِ يَحُضُّهُ على قَطْعِ اسمِهم مِنَ الخُطْبَةِ، وأنْ يَخطُبَ للخُلفاءِ العبَّاسِيِّينَ، فحاولَ هٰذه القضيَّةَ أياماً حتى وَجَدَ عليها مساعِداً، وَأَمَرَ أَنْ يُخْطَبَ للخليفةِ المُسْتَضيءِ بأَمْرِ الله، فَخَشِيَ الخطيبُ مِنْ ذٰلك وَلَمْ يُمْكِنْهُ المُخالفةُ، فَخَطَبَ ودعا للخُلَفَاءِ المَهْدِيِّينَ، فَبَلَغَ ذٰلك العاضدَ فقالَ: هَلْ سَمَّوْا في الخُطْبَةِ أَحَداً؟

قيل له: لا. قال: سَيُسَمُّونَ في الجُمْعَةِ الآتيةِ.

ولم يُمْكِنْهُ مُقاوَمَةُ صلاحِ الدِّين، فسكتَ وانقطعَ في بيتِهِ وَتَمَرَّضَ، فَخُطِبَ في الجُمعةِ الآتيةِ للإمامِ المُستضيءِ بأمرِ الله.

فقيل: إنَّهُ كان عندهُ خاتمٌ تحتَهُ سُمٌّ فامْتَصَّهُ، وبَقِيَ أياماً ثُمَّ هَلَكَ، وذٰلك في سنةِ سبعٍ وستِّينَ وخمسِمِئة، فَقَبَضَ السُّلطانُ صلاحُ الدِّينِ على أولادِ العاضدِ وَمَلَكَ القَصْرَ وما فيه، وأبادَ تلكَ الدَّولَةَ وأهلَها، وأزالَ اللهُ عنِ المُسْلمينَ الذِّلَّةَ، وأعقبَهم بعد خَوْفِهم أمناً، فللَّهِ الحَمْدُ والمِنَّةُ.

وهٰذا الذي ذَكَرْتُه قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرٍ؛ فإنَّ قَصَصَ صَلاحِ الدِّينِ عَجيبٌ، [١٣٨/ أ] واستِيلاؤُهُ على هٰذه الدَّولَةِ أَمْرٌ غَرِيبٌ[(١)].

ومِنْ يومئذٍ مَلَكَ صلاحُ الدِّينِ مِصْرَ وأعمالَها، وأَظْهَرَ فيهِمُ العَدْلَ فيها، وكَثَّرَ من الأوقافِ والمدارسِ وأنواعِ القُرُباتِ، ولم يَزَلْ بها حاكماً حتى تُوفِّي المَلِكُ العادلُ، فَمَلَكَ دمشقَ وكثيراً من أعمالِها، وهو الذي افْتَتَحَ اليَمَنَ للملِكِ العادلِ، بَعَثَ أخاهُ إلى اليَمَنِ فمَلَكَها، وكانَ فيها أخوهُ نائباً مِنْ جهةِ السُّلطانِ العادلِ.

ثُمَّ في أواخرِ الأمرِ مَلَكَ السُّلطانُ صلاحُ الدِّينِ جميعَ ما كان يَمْلِكُهُ الملكُ العادلُ، وخُطِبَ له في مصرَ والشَّامِ وحَلَبٍ، وجميعِ تلكَ الأعمالِ، وكذٰلك في مَكَّةَ والمدينةِ واليَمَنِ، ومَعَ اتِّساعِ هٰذا المُلكِ لم يُخلِّفْ في خِزَانةِ مُلْكِهِ بعد وَفَاتِهِ غيرَ دينارٍ واحدٍ وستَّةٍ وثلاثينَ درهماً! ولم يُخَلِّفْ مِلْكاً ولا داراً ولا بُسْتَاناً ولا مزرعةً، فإنَّه كان مُغْرَماً بالجهادِ والنَّفَقَةِ فيه، وبَذْلِ المَكْرُماتِ على أُمَراءِ الجُيُوشِ، وكان يَجلِسُ في كلِّ يومٍ وليلةٍ مرةً لِبَثِّ المَكارمِ، وكَشْفِ المظالمِ، ويَجودُ بالمالِ قبل حُصُولِهِ، ويُقْطِعُهُ النَّاسَ قبلَ وُصُولِه.

وكان يَهَبُ الأقاليمَ؛ ولمَّا فَتَحَ آمِدَ[(٢)] طلبَها منه ابنُ قرا أرسلانَ[(٣)]

---

(١) في الهامش الأيسر للصفحة (١٣٧/ ب) ما يأتي: «قف على انقراض دولة العُبيديين سنة ٥٦٧».

(٢) بلدٌ قديم حَصين على نهر دجلة، يقع في منطقة ديار بكر بالجزيرة قرب ميَّافارقين، وهي اليوم من بلدان تركيا. «تعريف بالأماكن الواردة».

(٣) نور الدين محمد بن قرا أرسلان: كان يطالب السُّلطان صلاح الدين في كلِّ وقت بقصد آمِد وأخذِها وتسليمها إليه. «الكامل في التاريخ» ٥/ ١٥٧.

فأعطاهُ إيَّاها، ولمَّا فَتَحَ القُدْسَ جَمَعَ ما حَصَّلَ مِنَ الأموالِ ففرَّقَها على الأمراءِ، وحَبَا بها الفُقَهاءَ والعُلَماءَ والزُّهَّادَ، ولم يَرْحَلْ مِنَ القُدسِ ومَعَهُ شيءٌ لنفسِهِ.

وكان الذي أَنْفَقَهُ يُقارِبُ مِئَتَيْ ألفِ دينارٍ وعشرينَ ألفِ دينارٍ، ثُمَّ جاءَهُ وُفُودٌ ولم يَبْقَ معه دِرهمٌ واحدٌ، فباعَ فرسَهُ من بيتِ المالِ وفَضَّ ثَمَنَها عليهم، وكَرَمُهُ أظهرُ مِنْ أن يُسَطَّر، ومع ذٰلك فما سُمِعَ يقولُ: أَعْطَيْنَا فلاناً كذا، وما مَنَعَهُ مِنَ الحجِّ إلّا اشتغالُه بالجهادِ، وضِيْقُ [١٣٨/ب] ما في يَدِهِ مع المملكةِ الواسعةِ، لٰكنَّهُ كان قد أَسْقَطَ جميعَ المُكوساتِ والأَعْشارِ من البُلدانِ.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَسَنَ العقيدة، أَخَذَ عقيدَتَهُ عن الدَّليلِ بواسطةِ البحثِ مع المشايخِ أهلِ العِلْمِ، وكان يُقْرِئُ تلكَ العَقِيدةَ أولادَهُ الصِّغارَ ويَقْرَؤُونها عليه من حِفْظِهِم، وكان شديدَ المُواظبةِ على الجَماعةِ، وإذا مَرِضَ طَلَبَ الإمامَ إلى عندِهِ حتَّى تحصُلَ له فضيلةُ الجماعةِ، وكان يَتكَلَّفُ الصَّلاةَ قائماً في مَرَضِ موتِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكان شديدَ الرَّغبةِ في سماعِ الحديثِ وسماع القراءةِ مِمَّنْ له صوتٌ حَسَنٌ، وكان كثيرَ التَّعظِيمِ لِشَعَائرِ الدِّينِ، مُبْغِضاً لِجميعِ طوائِفِ المُبْتَدِعَةِ، وكان حَسَنَ الظَّنِّ بالله، كثيرَ الاعتمادِ عليه، وكان مُعَظِّماً للشَّرعِ مُنْقاداً لأوامرِهِ، وقد جَرَى له في المُحاكماتِ نحوُ ما جَرَى للملكِ العادلِ رحِمَهُما اللهُ تعالى.

وكان مِنْ أعظمِ الشُّجعانِ، قَوِيَّ النَّفسِ، شديدَ البَأْسِ على الكُفَّارِ،

عظيمَ الثَّباتِ، لا يَهُولُهُ أمرٌ ولا تُهِمُّه كَثْرَتُهم أصلاً، وكان منصوراً عليهم في الغالبِ، وكان شديدَ المُواظبةِ على الجهادِ عظيمَ الاهتمامِ به، ولو حَلَفَ حالِفٌ أنَّهُ ما أَنْفَقَ بعد تَبَتُّلِهِ للجهادِ ديناراً ولا درهماً إلّا في الجهادِ أو في الإرفادِ ترغيباً للجهادِ لَصَدَقَ وبَرَّ في يمينِه.

والذي وَهَبَ من الخَيْلِ في مَرْجِ عَكَّا عَشَرَةُ آلافِ رأسٍ، وكان المُسلمونَ في تلكَ الواقعةِ بالنِّسبةِ إلى النَّصارى مِثلَ الشَّامَةِ فيهم، ولقد وَصَلَ إلى النَّصارى على كثرتِهم نَجْدَةٌ جاءتهُم في البحرِ فَعُدَّ ما وصلَ إليهم في ليلةٍ واحدةٍ وكان نَيِّفاً وسبعينَ مَرْكَباً، وهو لا يزدادُ إلّا قُوَّةَ نفسٍ وثباتَ قلبٍ.

ولقد انهزمَ المسلمونَ في ذٰلك اليوم(١) [١٣٩/ أ] المَيْمَنةُ والمَيْسرةُ والقلبُ، وَوَقَعَ الكُوسُ(٢) والعَلَمُ، وهو ثابِتٌ في نفرٍ يسيرٍ من المُسلمينَ قد انحازَ بهم إلى الجَبَلِ، وهو يرُدُّ النَّاسَ ويُخْجِلُهُم، وَلَمْ يَزَلْ يَجْمَعُ النَّاسَ حتّى رَدُّوا على العَدُوِّ وقَتَلُوا منهم سبعةَ آلافٍ ما بينَ راجِلٍ وفارِسٍ، ولم يزلْ مُصابراً لهم حتَّى ظهرَ له ضعفُ المُسلمينَ، فصالَحَ النَّصارى فَفَرِحوا منه بذٰلك، وكان هٰذا دَأبَهُ؛ إذا رأى الغلبةَ له استأصلَهم، وإذا رأى الغلبةَ عليه صالَحَهم، كلُّ ذٰلك ليتوفَّرَ جيشُ الإسلامِ ويَقْوَى.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ سُلطاناً عادلاً، رفيقاً حليماً، ناصراً للضعيفِ على القَوِيِّ، وكان حَسَنَ الأخلاقِ، لَطِيفَ العِشْرَةِ، حافِظاً لأَنْسابِ العَرَبِ ووَقَائِعِهم، عالِماً بِعَجَائِبِ الدُّنيا ونَوَادِرِها، وكان طاهرَ المَجْلِسِ لا يُذْكَرُ

(١) من قوله «فلم يزل صلاح الدِّين يتوقع قتله..» السَّابق إلى هٰذا الموضع سَقَط في (أ)، وهو في الأصل من لوحة (١٣٧/ ب) إلى لوحة (١٣٩/ أ).

(٢) الكُوسُ - بالضم -: الطَّبل. وقيل: هو معرَّب. «مختار الصحاح»: كوس.

أحدٌ بين يديهِ إلّا بِخَيرٍ، طاهرَ اللِّسانِ مِنَ السَّبِّ والشَّتْمِ، لَمْ يَكْتُبْ بِقَلَمِهِ أذًى لِمُسلمٍ قطُّ.

ومناقبُه قد صُنِّفَتْ فيها مصنَّفاتٌ عديدةٌ، ولا شَكَّ أَنَّ سِيرَتَهُ وسِيرَةَ المَلِكِ العادلِ حُجَّةٌ للهِ تعالى على مَنْ بَعْدَهُما مِنَ المُلُوكِ والأُمَرَاءِ وغيرِهم، ولهٰذا ذَكَرْتُ هٰذه النُّبْذَةَ اليسيرةَ؛ ليَتَنَبَّهَ بها من يَقِفُ عليها، واللهُ المُوفِّقُ.

وفي أيَّامِهِ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - رَكِبَ الفِرنجُ من الأمرِ العظيمِ فِكراً، وافتضُّوا من البحرِ طريقاً بِكْراً، وذٰلك أنّهم عَمَّروا مراكبَ حربيَّةً وشَحَنُوها بالمُقاتِلةِ والأسلحةِ والأزوادِ، ووجَّهُوها إلى سواحِلِ الحِجَازِ، فَبَعْضُهم توجَّهَ إلى عَيذابَ، وأذاقُوا أهلَها العذابَ، وأَسَرُوا تُجَّارَ اليَمَنِ ونَهَبُوا ما مَعَهُم، وبعضُهُم توجَّه إلى أرضِ الحِجازِ.

وكان الذي فعلَ ذٰلك الأبرنسُ(١) صاحبُ الكَرَكِ، وذٰلك أنَّه لمَّا صَعُبَ عليه ما يواليه من ممالكِ السُّلطانِ صلاحِ الدِّينِ [١٣٩/ ب] أَعملَ الحِيْلَةَ فبنى سُفُناً وأَتْقَنَها، ثُمَّ نَقَلَ أخشابَها إلى السَّاحِلِ، ثُمَّ رَكَّبَ المراكبَ هُناك وعَمَّرَها، فلمَّا تَوَجَّهُوا إلى أرضِ الحجازِ أشرَفَ أهلُ المدينةِ على الخَطَرِ، ووصلَ إلى مصرَ الخبرُ وبها الملِكُ العادلُ أخو صلاحِ الدِّين نائباً

---

(١) الأبرنس صاحب الكرك: كان أخبثَ الفرنج وأشرَّهم وأغدرَهُم، قطع الطريق على قافلة جاءت من مصر إلى الشام وفيها خلقٌ كثير ومالٌ عظيم، فاستولى على الجميع قتلاً وأسراً ونهباً، فأرسل إليه السُّلطان صلاح الدِّين يوبِّخه على فعله ويقول: أين العُهود؟ رُدَّ ما أخذت! فلم يلتفت وشنَّ الغارات على المسلمين وفتك فيهم، فنذر صلاح الدِّين دمه، وقتلهُ بيده سنة ٥٨٣هـ. «الوافي بالوفيات» ٢/ ٢٨٢، «البداية والنهاية» ١٢/ ٣٨١.

عنهُ، فاشتدَّ حُزنُ المسلمينَ لِفَناءِ بيتِ الله المُحَرَّم، ومقامِ خليلِهِ الأكرم، وضريحِ نبيِّهِ الأعظَم.

فَجَهَّزَ الملِكُ العادلُ مراكبَ في البحرِ، وَشَحَنَهَا بالمُقاتِلَةِ أهلِ النَّخْوَةِ للدِّينِ والحَمِيَّةِ، البائعينَ للهِ تعالى أنفسَهم، فَقَصَدُوهُم، وكانوا قد افترقُوا فِرْقَتَيْنِ كما تقدَّمَ، فَأَلْفَوُا المراكبَ التي تَوَجَّهَتْ إلى الحِجَازِ في أرضِ رابِغَ[1]، ومِنْ جهةِ يَنْبُعَ في أرضِ الحوراءِ[2]، والآخَرين في عيذابَ، فواقَعُوهم وأَوْقَعُوا بهم، فَظَفَّرَهُم اللهُ بجميعِهِم، وتَبِعُوهم في الجبالِ والشِّعابِ وحَصَرُوهم حتَّى أمكنَهم اللهُ منهم، ولم يَفُتْهُم منهم أحدٌ، وعادوا إلى القاهرةِ بالأُسَارَى.

فَأَمَرَ السلطانُ صلاحُ الدِّين بِضَرْبِ رِقابِهم حتَّى لا يَبْقَى منهم عينٌ تَطْرِفُ، ولا أَحَدٌ يُخْبِرُ عَنْ طريقِ ذٰلك البَحْرِ، ولا به تُعْرَفُ.

وكان الذي دَلَّ الفِرنجَ على ذٰلك الطريقِ وأخبرَهم بعَوْراتِ السَّاحلِ أناسٌ مِنَ العَرَبِ أَشْبَهُوهُم في الكُفْرِ، ثُمَّ إنَّ السُّلطانَ صلاحَ الدِّينِ توجَّهَ بِهِمَّتِهِ إلى جِهادِهم فَفَتَحَ اللهُ تعالى عليه الكَرَكَ وأعمالَه، وَطُهِّرَتْ تلكَ النَّاحِيَةُ منهم، ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾[3].

---

(١) رابغ: بلدة ساحلية بين جُدَّة ويَنبُع، على مسافة ١٥٥ كم شمال جدَّة، وعلى بُعد ١٩٥ كم جنوب ينبع. وترد في السيرة «بطن رابغ». «المعالم الأثيرة في الفقه والسِّيرة» لشُرَّاب ص١٢٣.

(٢) الحُوراء: فُرْضة من فُرض البحر تلقاء ينبع، كانت ترفأ بها السُّفن من مصر لمن يريد المدينة. «المعالم الأثيرة» ص١٠٥.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢٥.

وكانتْ وفاةُ السُّلطان صلاحِ الدِّينِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سَنَةٍ تسعٍ وثمانينَ وخمسِمِئة، ومولِدُه في سنةِ اثنينِ وثلاثينَ وخمسِمِئةٍ.

واتَّفَقَ في سنةِ سبعةَ عشرَ وسبعِمِئَة أَنْ خَرَجَتْ طائفةٌ مِنَ النُّصَيرِيَّةِ القائِلينَ بقولِ العُبَيْدِيِّينَ [١٤٠/ أ] في بلادِ الشَّام، وكان أكثرُ أتباعِ العُبَيْدِيِّينَ القائلينَ بقولِهِم ظاهراً وباطناً في ثُغورِ الشَّام، فخرجتْ هٰذه الجماعةُ النُّصَيْرِيَّةُ عَنِ الطَّاعةِ وأقاموا شخصاً ادَّعَوْا أنّه المَهْدِيُّ، وقاتلوا النَّاسَ، وادَّعَوْا أنّ المُسلمينَ كَفَرَةٌ، وأنَّ دِينَ النُّصَيرِيَّةِ هو الحقُّ! ورَفَعُوا أصواتَهم بِقَوْلِ: لا إلٰهَ إلّا عليٌّ!! ولا حجابَ إلّا محمَّدٌ! وبِسَبِّ أبي بكرٍ وعمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وخَرَّبُوا المساجدَ وجعلوها خمَّاراتٍ، فَخَرَجَ عليهم عَسْكَرُ المُسلمينَ فكَسَرُوهم، وَقَتَلُوا منهم جماعةً، واضْمَحَلَّ أمرُهم، ومَزَّقَهُم اللهُ كلَّ مُمَزَّقٍ.

انعطاف إلى ما تقدم
من ذكر الأمير قاسم بن مهنّا وذريته

وكان الأميرُ قاسمُ بنُ مُهَنَّا منفرِداً بولايةِ المدينةِ المُشرَّفَةِ مِنْ غيرِ مُشارِكٍ ولا منازِع، فلمّا تُوُفِّيَ - رحمهُ الله تعالى - تَوَلَّى مَوْضِعَهُ أكبرُ أولادِه، وهو جَمّازٌ[(١)] جَدُّ الجَمَامِزَةِ، واستقرَّ فيها إلى أنْ تُوُفِّيَ، ثُمَّ استقرَّ في موضعِهِ ولدُه قاسِمُ[(٢)] بنُ جَمَّازِ بنِ قاسِمِ بنِ مُهَنَّا، واستقرَّ فيها إلى أنْ قَتَلَهُ بَنُو لامٍ[(٣)].

وكان الأميرُ شِيحَةُ نازِلاً في عَرَبِهِ قريباً منه، فلمَّا بَلَغَهُ قَتْلُ قاسمٍ توجَّهَ إلى المدينةِ مُسْرِعاً حتَّى دخلَها ومَلَكَها، وذلك في سنةِ أربعٍ وعشرينَ وستِّمِئَةٍ، فاستَقَرَّ فيها، ولم يَتَمَكَّنِ الجَمَامِزَةُ[(٤)] مِنْ نَزْعِها منه ولا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إلى الآنَ.

---

(١) جماز بن قاسم بن مهنّا، جدّ الجمامزة. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢١١، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢١٧.

(٢) قاسم بن جمّاز بن قاسم بن مهنّا، استقرَّ في إمرة المدينة بعد أبيه، فدام خمساً وعشرين سنةً إلى أن قتله بنو لام في سنة ٦٢٤هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢١١، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤١٤.

(٣) بنولام: بطن من قبيلة طيِّئ، انتشرت فروعهم حول الطرق الممتدة بين الحجاز والشام، ولهم فيها قوّة وسعة نفوذ في القرن السابع والثامن الهجريين، ولهم أعداد كبيرة حول المدينة. انظر: «جمهرة أنساب الأسر المتحضِّرة في نجد» لحمد الجاسر ٢/ ٦٩٣.

(٤) الجمامزة: أحفاد الأمير جماز بن قاسم بن مهنّا.

وفي هامش الصفحة (١٤٠/ أ) الأيمن من الأسفل ما يأتي: «قف على ولاية الأمير شيحة المدينة المنورة».

وأقامَ شِيحَةُ في الولايةِ مُدَّةً طويلةً، وكان يَسْتَنِيبُ في الوِلايةِ على المدينةِ - إذا غابَ - ولدَهُ عيسى، فَقُدِّرَ أنَّ الأميرَ شِيحةَ توجَّهَ إلى العراقِ فَظَفِرَ به بَنُو لامٍ فقَتَلُوه، وكان وَلَدُهُ عيسى[1] في المدينةِ، فَطَمِعَ الجَمَامِزَةُ في المدينةِ، فجاءَ منهم جَمَاعةٌ على غَفْلَةٍ قاصدينَ الاستيلاءَ على المدينةِ، فَفَطِنَ بهم الأميرُ عيسى فَقَبَضَ عليهم، وقيلَ: إنّه قَتَلَهُم، واللهُ أعلمُ.

واستقرَّ [١٤٠/ب] الأميرُ عيسى على الوِلايَةِ مُدَّةً، ثُمَّ أظهرَ لأخويهِ مُنِيفٍ وجَمَّازٍ الكراهِيَةَ لإقامَتِهما مَعَهُ في المدينةِ، فأخرجَهما ومنعَهما من الدُّخُولِ[2].

فاتَّفَقَ رَأْيُهُما على خَلْعِهِ مِنَ الولايةِ، وأَعْمَلَا الحِيلةَ في ذٰلك، فكاتَبَا وزيرَهُ في ذٰلك، وكان مِنَ العِنَانِيِّينَ، فأمرَهما بالقُدوم عليه، واحتالَ لهما إلى أن أَدْخَلَهُمَا الحِصْنَ العتيقَ باللَّيْلِ، ولم يكُنْ يَوْمَئِذٍ للإمارةِ حِصْنٌ غَيْرُهُ، فَقَبَضَا على أخيهما عيسى وقَيَّدَاهُ، وَأَصْبَحَ حاكِمَ المدينةِ الأميرُ أبو الحَسَنِ مُنِيفُ بنُ شيحةَ، وذٰلك في سنةِ تسعٍ وأربعينَ وستِّمِئَةٍ، ولم يزل حاكماً بالمدينةِ وأخوه جَمَّازٌ يُؤازِرُهُ ويساعِدُهُ، إلى أن تُوُفِّيَ في سنةِ سبعٍ وخمسينَ وستِّمِئَةٍ، فوَلِيَهَا مِنْ ذٰلك التاريخِ الأميرُ عِزُّ الدِّينِ جَمَّازُ بنُ شيحةَ، ولم يُنازِعهُ أخوهُ الأميرُ عيسى بنُ شيحةَ.

---

(١) عيسى بن شيحة: كان ينوب عن أبيه في إمرة المدينة، فلما قتل بنو لام أباه استقل في إمرتها، وحاول الجمامزة أخذها منه فقبض عليهم، وأقام في ولاية المدينة مدة، إلى أن احتال عليه أخواه منيف وجماز، فحلَّ محله منيف، توفي سنة ٦٨٣هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢١٢، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٣٨٠.

(٢) ملحوظة: في هامش الصفحة (١٤٠/ب) الأيسر من أعلاه ما يلي: (ثُمَّ ولده الأمير عيسى).

ثُمَّ إنَّ ابنَ أخيهِ مالكَ بنَ مُنيفٍ[(١)] انتزَعَها منه في سنةِ ستٍّ وستينَ وستِّمِئة، فاسْتَنْجَدَ عليه الأميرُ جمَّازٌ بأميرِ مَكَّةَ[(٢)] وبغيرِهِ من العُرْبانِ، وسارُوا إلى المدينةِ فلم يَقْدِرُوا على إخراجِهِ منها، فلمَّا أَيِسُوا رَحَلَ صاحبُ مَكَّةَ وغيرُه مِنَ العُربانِ، وبَقِيَ الأميرُ جمَّازٌ مَعَ جماعَتِهِ.

فأرسَلَ إليه الأميرُ مالِكُ بنُ مُنيفٍ يقولُ له ما مَعْنَاهُ: أراكَ حريصاً على إمْرَةِ المدينةِ وأنتَ عَمِّي وصِنْوُ أبي، وقد كُنْتَ له مُعاضِداً ومساعِداً، ويجبُ علينا أَنْ نحترمَكَ ونَرْعَى لك حُقُوقَكَ، وقد اسْتَخَرْتُ اللهَ تعالى ونَزَلْتُ لكَ عنْ إمرةِ المدينةِ طَوْعاً لا كَرْهاً، فسُرَّ بذٰلك الأميرُ جمَّازٌ وحَمِدَ اللهَ تعالى على حَقْنِ الدِّماءِ وبلوغِ المقصودِ، واسْتَقَلَّ بالإمرةِ مِنْ يومئذٍ، [١٤١/ أ] فلم تَخْرُجْ مِنْ يَدِهِ إلى أَنْ ماتَ، واستقرَّتْ بِيَدِ ذُرِّيَّتِهِ إلى الآنَ[(٣)].

وكان الأميرُ جَمَّازٌ ذا رأيٍ صَلِيبٍ وكَرَمٍ عظيمٍ على إخوتِهِ وبَنِيهم؛ يُؤَلِّفُهم بالعطاءِ الجَزيلِ، حتى اسْتَمَالَ قُلُوبَهُم، وقَوِيَ أمرُهُ بَيْنَهم، وعَضَدَه أولادُه، وكان إخوتُه ثَمَانِيَةً، منهم: مُنِيفٌ، وعِيسَى، ومُحَمَّدٌ جَدُّ الفَوَاطِمِ، وأبو رُدَيْنِي جَدُّ الرُّدَنَةِ، وكان أولادُ جَمَّازٍ أَحَدَ عَشَرَ وَلَداً، وعاشَ الأميرُ عِيسى إلى أن تُوُفِّيَ في سنةِ ثلاثٍ وثمانينَ وستِّمِئة.

وأقامَ جَمَّازٌ في الولايةِ مُستقلاً بها من غيرِ منازعٍ مِنْ يومِ سلَّمَها له مالكُ بنُ منيف إلى سنةِ سبعِمِئة.

---

(١) مالك بن منيف بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن حسين بن مهنّا. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢١٣- ١٢١٤، «المنهل الصافي» ٤/ ١٩٣، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٩٧.

(٢) أمير مكة: نجم الدِّين أبو نمي، محمد بن حسن بن علي الحسني. تقدَّمت ترجمته.

(٣) ورد في هامش الصفحة (١٤١/ ب) ما يأتي: «ثُمَّ أعادها لعمِّه جماز المذكور».

فلمَّا كان عامُ سبعِمِئة خَلَعَ الأميرُ جمَّازٌ نَفْسَهُ مِنَ الولايةِ، وَنَزَلَ عنها لولَدِهِ الأميرِ منصورٍ، وأَمَرَ أَنْ يُخْطَبَ له على المنبرِ، وحالفَ النَّاسَ على طاعتِهِ ونُصْرَتِهِ؛ وذلك لأنَّه[1] كان قد أَضَرَّ في آخرِ عمرِهِ وشاخَ وضَعُفَ، وكان ولدُه منصورٌ أبرَّ أولادِهِ به، فحَسَدَه إخوتُه، وقد تقدَّم أنَّهم كانوا أحدَ عَشَرَ، منهم: منصورٌ، وسَنَدٌ، ومُقْبِلٌ، ووُدَيٌّ، وقاسمٌ، ومسعودٌ، وراجحٌ، ومباركٌ، وثابتٌ، وآخرونَ.

وكان للأمير منصور أيضاً أحدَ عَشَرَ ولداً، وهم: كُبَيْشٌ، وكَبْشٌ، وطُفَيْلٌ، وجَمَّازٌ، وزيَّانُ، وعَطِيَّةٌ، وكُوَيْرٌ، وحَقَّانُ، ونُعَيْرٌ، ونَجَادٌ، وشخصٌ آخَرُ[2]، فَوَقَعَ الحَسَدُ والتباغضُ والتَّدابرُ بينَ الأميرِ منصورٍ وإخوتِهِ إلّا القليلَ، وطَلَعَ الأميرُ منصورٌ إلى القلعةِ الموجودةِ اليومَ، وكان الأميرُ جَمَّازٌ قد بناها لنفسِهِ ليَتَحَصَّنَ فيها ويَكْشِفَ منها ضواحِي المدينةِ، فلمَّا خَلَعَ نفسَهُ مِنَ الوِلايةِ نَزَلَ إلى دارِهِ التي في عَرصَةِ السُّوقِ المعروفةِ بدارِ خُزَيْمَةَ[3]، واستقرَّ فيها إلى أن ماتَ [١٤١/ ب] في سنةِ أربعٍ وسبعِمِئَةٍ.

ثُمَّ إنَّ أولادَ جَمَّازٍ انفردوا وأمَّروا عليهم أخاهم مُقْبِلاً، وصاروا يُحاصِرون المدينةَ ولا يَقدِرونَ عليها، ثُمَّ إنَّهُ اتَّفَقَ في سنةِ تِسْعٍ وسبعِمِئَةٍ أن سافَرَ الأميرُ مُقْبِلٌ إلى الشَّامِ لبعضِ مَصَالِحه، فلمَّا عَزَمَ على السَّفرِ إلى إخوتِه استعملَ سُلَّماً طويلاً مُفَصَّلاً يَتَرَكَّبُ بعضُه في بعضٍ، وهو اليومَ موجودٌ في الحَرَمِ الشَّريفِ.

---

(١) في هامش الصفحة (١٤١/أ) الأيمن ما يأتي: «ثُمَّ في عام سبعمئة نزل بالإمرة لولده منصور».

(٢) في (أ) و(ب) و(ج) زيادة: «لعله نمي».

(٣) في (أ): «حرثمة».

ولمَّا حاذَى المدينةَ سارَ إليها مع جماعةٍ يسيرةٍ من أصحابِهِ، ونَصَبَ السُّلَّمَ على الحِصْنِ ودخلَه على غَفْلَةٍ، وذٰلك في ليلةِ السَّبتِ ثامنَ عشرينَ من شَعْبانَ[١] مِنَ السَّنَةِ المذكورةِ، وكَمَنَ في الحِصْنِ إلى الصَّباحِ، ولم يكن بالمدينةِ يومئذٍ غيرُ كَبْشِ بنِ منصورٍ، فظَنَّ مُقبلٌ أنَّ أهلَ المدينةِ لا يواجِهُونَهُ بالمُقَاتِلَةِ نهاراً، وأنَّ كَبْشاً ينجُو بنفسِهِ[٢] هارِباً، فلمَّا عَلِمَ بهم كَبْشٌ استصْرَخَ بأهلِ المدينةِ فأَصْرَخُوهُ وقاتَلُوا معه، فَقُتِلَ الأميرُ مُقْبِلٌ وقُتِلَ أبناءُ أخيهِ جَوْشَنُ وقاسمُ ابنا قاسمِ بنِ جَمَّازٍ، فَعَظُمَتْ الواقعةُ على أولادِ مُقْبِلٍ وإخوتِهِ، فَقَدَّموا عليهم الأميرَ وُدَيَّ بنَ جَمَّازٍ وقاموا في طلبِ الثَّأْرِ، واسْتَحْكَمَ بينهم الفَسَادُ وكَثُرَتْ بينَهُمُ الحُرُوبُ وَعَظُمَتْ على منصورٍ النَّفَقَاتُ للجيوشِ.

فلمَّا كانَ في سَنَةِ عَشْرٍ[٣] وسبعِمِئَة حَصَلَ له ضِيقٌ وشِدَّةٌ، فطَلَبَ من الخُدّامِ المَخبزِينَ ألفَ دِرْهم مِنْ كلِّ واحدٍ، فامْتَنَعُوا وقالوا: لا نفعلُها سُنّة أبداً، فَأَنْزَلَ منهم جماعةً في الجُبِّ، فجاءَهُ بعضُ المُجاوِرينَ وقالوا: نحنُ نَتَقَدَّمُهم في النُّزولِ، وَوَقَعَ في ذٰلك كلامٌ كثيرٌ، ثُمَّ فَرَّجَ اللهُ عنهُم.

فَبَلَغَ ذٰلك السُّلطانَ، فَأَمَرَ أميرَ الحاجِّ المصريَّ بِمَسْكِ [١٤٢/أ] منصورٍ، فلمَّا قَدِمَ أميرُ الحاجِّ مَسَكَ الأميرَ منصوراً وولدَهُ كَبْشاً وسار بهما مُعْتَقَلَيْنِ إلى مِصْرَ، فلمَّا دَخَلَ الرَّكْبُ إلى القاهرةِ رَسَمَ عليهما[٤] في دارِ

---

(١) في (أ) و(ب) و(ج): «شهر كذا» بدل «شعبان».

(٢) في (أ) و(ب) و(ج) زيادة: «من الذبح» بعد «بنفسه».

(٣) في (ب): «سنة ست عشرة».

(٤) رسم عليه: أي كتب. «الصحاح»: رسم.

الضِّيافَةِ نحوَ شهرٍ، ثُمَّ استدعاهُما السُّلطانُ الملِكُ النَّاصِرُ وتهَدَّدَهُما على ما فَعَلَ منصورٌ، وَشَرَطَ عليه شُروطاً: أَنَّهُ لا يُؤْذِي المجاورينَ والخُدَّامَ، وأنَّ ولدَه كبشاً يحمِلُ عيالَه إلى مِصْرَ ويُقيمُ عند السُّلطانِ، ثُمَّ أَخْلَعَ عليهما وخَلّى سبيلَهما.

واتَّفَقَ في أوَّلِ يوم مِنَ المُحَرَّم - بعد مَسْكِ منصورٍ ورحيلِ الحاجِّ من المدينةِ - أنَّ الأميرَ وُدَيًّا وأولادَ مُقبلٍ أغاروا على المدينةِ، فَخَرَجَ إليهم جَمَّازُ بنُ منصورٍ فقاتلَهم، فَقُتِلَ مِنْ أهلِ المدينةِ نَحْوُ سَبْعَةِ أَنْفُسٍ، وَرَجَعَ جَمَّازٌ إلى المدينةِ.

ثُمَّ بعدَ ذٰلك بأيَّامٍ أغاروا مرَّةً ثانيةً، فَمَلَكُوها، وَخَرَجَ جَمَّازُ بنُ منصورٍ منها، فَوَصَلَ الخَبَرُ إلى السُّلطانِ ومنصورٌ عنده، فَسَيَّرَ معه عَسْكَراً عِدَّتُهم تِسْعُونَ فارِساً تُركاً وعَرَباً، فَوَصَلُوا إلى المدينةِ في شَهْرِ ربيع الأَوَّلِ مِنْ سنةِ سبعَ عشرةَ وسبعِمِئة، فامتنع أولادُ مُقْبِلٍ مِنَ الخروجِ ساعةً، ولمّا رَأَوْا أنَّهم لا طاقةَ لهم بالحاضِرينَ خَرَجُوا على خُيولِهم هاربينَ، فأرسل منصورٌ خَلْفَهُم فَمُسِكَ مُبارَكُ بنُ مُقْبلٍ، ثُمَّ مَنَّ عليه وخَلَّى سبيلَه، وبَقِيَ العسكرُ في المدينةِ يومينِ أو ثلاثةً ثُمَّ رَحَلُوا منها، فَجَمَعَ وُدَيٌّ وأولادُ مقبلٍ عرباً كثيرةً، وساعَدَهم قتادةُ[1] صاحبُ يَنْبُعَ فحاصَرُوا المدينةَ، فَخَرَجَ منصورٌ منها هو وولدُه كبشٌ وتَوَجَّها إلى السُّلطانِ، فوجدوا في طريقِهم عسكراً

(١) قتادة بن إدريس الحَسَني، صاحب ينبُع، جهَّز جيشاً وزحف على مكّة، دخلها ولم يلق قتلاً، وذٰلك في رجب سنة ٥٩٧هـ، ثُمَّ أخذ المدينة على يد ابنه حسن، فقتل حسن صاحبها عمّه، ثُمَّ خنق أباه هٰذا، ثُمَّ قتل عمَّه الآخر، مات في سنة ٦١٧هـ أو في التي بعدها. «العقد الثمين» للفاسي ٧/ ٣٩، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٣٦.

وَجَّهَهُ السُّلطانُ إلى مَكَّةَ ومُقَدَّمُهُم سيفُ الدِّين أيدمشُ[١]، فسألَهم [١٤٢/ ب] المساعدةَ على وُدَيٍّ، وأنْ يُمَكِّنُوه مِنَ المدينةِ، فاستَمْهَلُوه وكَتَبُوا إلى السُّلطانِ بذٰلك، وسارُوا إلى مَكَّةَ، فَبَعَثَ إليهم السُّلطانُ يَأْمُرُهم بِنُصْرَتِهِ، فَقَدِمُوا معه إلى المدينةِ، فَخَرَجَ إليهم وُدَيٌّ وأولادُ مُقبلٍ وجَرَى بينهم قِتالٌ، وقُتِلَ ماجِدُ بنُ مُقبلٍ[٢].

وكانت الوَقْعَةُ في شهرِ جمادى الأُولَى مِنَ السَّنَةِ المذكورةِ، وانْكَسَرَ وُدَيٌّ وجماعتُهُ، وتَسَلَّمَ منصورٌ المدينةَ، ودَخلَها العسكرُ فَنَهَبُوها حتَّى القَلْعَةَ وبيوتَ الشَّرائِفِ، وأقامُوا نحوَ ثلاثةِ أيَّامٍ، ثُمَّ رَحلوا، واسْتَمَرَّ وُدَيٌّ وأصحابُه يُغِيرُونَ على المَدِينَةِ إغارَةً بعدَ إغارةٍ.

ولمَّا استقرَّ الأميرُ منصورٍ في المدينةِ نَزَلَ مِنَ الحِصْنِ وجَلَسَ في وَسَطِ الحَرَمِ الشَّرِيفِ وقال: اجمَعُوا كُلَّ مَنْ في المدينة مِنَ المُجاوِرِينَ والخُدَّامِ، فَجَمَعُوا، وكأنَّه تَخَيَّلَ أنَّ ما جَرَى عليه مِنَ المَسْكِ والاعتقالِ كان مِنْ مُكاتَبَةٍ مِنَ الخُدَّام والمُجاورينَ.

ثُمَّ قال لِكُلٍّ مِنَ الحاضِرِينَ: ما اسْمُكَ؟ فإذا عَرَفَهُ قال له: ما بَلَدُكَ؟

فإذا أخبرَهُ قالَ لهُ: دونَكَ بَلَدَكَ! أيْ: حينَ تَخَلَّفْتَ حَلَّ مالُكَ ودَمُكَ، وتَتَبَّعَهُم بهٰذا الكَلام واحِداً واحِداً.

---

(١) سيف الدِّين أيتمش أو أوتامش الأشرفي المغولي، أحدُ مماليك الأشرف خليل، كان من قوَّاد الملك الناصر محمد بن قلاوون، أرسله في كثير من المعارك واستنابه على مدينة صَفَد، توفي سنة ٧٣٦هـ. انظر: «الدرر الكامنة» ١/ ٥٠٤.

(٢) ماجد بن مقبل بن جمَّاز بن شيحة، قُتل في معركة بينه وبين عمِّه منصور في المدينة سنة ٧١٧هـ. «المنهل الصافي» ٤/ ١٩٥، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٨٧.

ثُمَّ قامَ، فَحَصَلَ للنَّاسِ هَمٌّ وَغَمٌّ، وبَقَوْا في شِدَّةٍ عظيمةٍ خصوصاً مَنْ له عِيالٌ، فقال لهم شيخُ الخُدَّامِ الحريريُّ: لا يُهِمَّنَّكُم ما وقعَ، مَنْ كان معه شيءٌ فَلْيَكْتَرِ لِنَفْسِهِ، ومَنْ كان فَقِيراً فأنا أحْمِلُه وأحملُ عيالَه حتّى تبلُغُوا مَأْمَنكم، وبعثَ لبني سالمٍ وغيرِهم من العُربانِ يأتونَه بالجِمالِ.

وكان للأميرِ منصورٍ زوجةٌ صالحةٌ، فقالتْ له: يا منصورُ، هَبْ أنَّكَ تَسْلَمُ مِنَ الملكِ النَّاصِرِ ألَا تخافُ مَنْ يَسْمَعُ بِذٰلك مِنَ العُربانِ كآلِ فَضْلٍ(١) وخالدٍ(٢) وبني لامٍ، فإنَّهم يَرَوْنَ [١٤٣/ ب] هٰذا مِنَّا كُفْراً.

ولم تَزَلْ بِهِ حتَّى أرسلَ إلى الجماعةِ بأنَّهم يَسْتَقِرُّونَ على أنَّهم لا يكتُبُونَ فيه ولا يَشْهَدُونَ عليه.

وكان بعضُ الشَّياطينِ أشارَ عليه بأن يَأْخُذَ الخُمسَ مِنَ النَّاسِ! فَوَكَّلَ بذٰلك شَخْصاً مِنْ أهلِ الشَّرِّ يَزعُمُ أنَّهُ مِنْ كِبارِ المُجاوِرينَ النَّاصِحينَ لهم، فكانَ يأتي إلى الرَّجُلِ الصَّالحِ في رباطِه، والمرأةِ في رباطِها، فيقولُ: كَمْ جاءَكَ يا فلانُ في هٰذه السَّنةِ مِنَ الصَّدقةِ؟ فيقولُ: كذا وكذا.

فيكتبُ ما قيلَ له ويزيدُ عليه، ويَتَتَبَّعُ الوظائفَ كُلَّها فيأخُذُ منها الخُمْسَ مِنْ كُلِّ خمسةِ دراهِمَ دِرْهَمٌ، وضاقَ النَّاسُ مِنْ ذٰلك، واستَمَرَّ ذٰلك ثلاثَ سِنينَ، ثُمَّ قَطَعَهُ اللهُ تعالى.

---

(١) آل فضل: ينتسبون إلى فضل بن بدر بن ربيعة بن علي بن مفرج، أصلهم من طيِّئ، وهم من القبائل القوية المنتشرة بين الشام والحجاز، وكان الأيوبيون والمماليك يستعينون بهم لقوتهم وبأسهم. انظر: «تاريخ ابن خلدون» ٢/ ٢٥٥ .

(٢) آل خالد: من قبائل الشام، وهم أحلاف بني فضل المتقدِّم ذِكرُهم. انظر: «نهاية الأرب» للقلقشندي.

واتَّفَقَ أنّه طَلَعَ عليه والِدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا طَلَبَ منه ذٰلك، فلمَّا رآهُ الأميرُ منصورٌ قال له: ما اسمُكَ؟

فقالَ له: فلانٌ، فقال له: كَمْ لَكَ في المدينةِ؟

فقال له: نحوَ عشرينَ سَنَةً.

فقال له: أنتَ عندنا هٰذه المُدَّةَ ولا نَعْلَمُ بِكَ! ما أَظُنُّكَ إلّا رَجُلاً جَيِّداً.

ثُمَّ قال له: أُشْهِدُكَ اللهَ، هلْ تعلمُ أنّ الذي أطلبُه منك حقٌّ عليكَ أم لا؟

فقال: اللهمَّ لا.

فقالَ الأميرُ لغِلمانِهِ: لا تَتَعَرَّضُوا له.

وكان له اعتقادٌ حَسَنٌ، وفيه شَفَقَةٌ ورحمةٌ، كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَحْضُرُ ميعادَ مُحَمَّدِ بنِ إبراهيمَ المُؤَذِّنِ بعد العصرِ فَيَسْتَدْنِيهِ فيقَرَأُ قريباً منه، فلا يزالُ يَبْكِي حتَّى تَبُلَّ دموعُه ثيابَه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولمّا كان في سَنَةِ خمسٍ وعشرينَ وسبعِمِئَةٍ في شَهْرِ رمضانَ، كان الأميرُ منصورٌ نازِلاً في عَرِبِهِ في أعزِّ ما يكونُ، وآمَنِ ما يكونُ، وكان حُديثةُ بنُ قاسمِ ابنِ جَمَّازٍ(١) أخو فضلِ بنِ قاسمٍ(٢) نازلاً معه، وكان آمِناً مِنْ جِهَتِهِ، فَخَلَا بهِ يوماً فَضَرَبَهُ [١٤٣/ ب] بالرُّمْحِ فقَتَلَهُ، وَظَنَّ أنه يَنْجُو على فَرَسٍ كانتْ هُناك، فَأَدْرَكَهُ بعضُ أصحابِ الأميرِ فَمَسَكُوهُ وقَتَلُوهُ في تلكَ السَّاعةِ.

وكان مولِدُ الأميرِ منصورٍ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - في سنةِ خمسٍ وخمسينَ وستِّمِئَةٍ.

---

(١) «الدرر الكامنة» ٢/ ١٤٣، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٧٩.

(٢) «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٣٦، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٠٧.

ثُمَّ تَوَلَّى المدينةَ الأميرُ كبيشُ بنُ منصورٍ، وكانتْ ولايتُه سنةً وخمسةَ أشهرٍ، ولم تَصْفُ لهُ تلكَ الأيّامُ[(١)].

ولمّا كان في سنةِ سبعٍ وعشرينَ في صَفَرَ، جاء وُدَيٌّ وولدُه عسكرُ[(٢)] وجماعةٌ مِنْ أصحابِه، فَدَخَلُوا المدينةَ على غَفْلَةٍ في وقتِ السَّحَرِ مِنْ ناحيةِ ذَرْوانَ[(٣)]، وكان في المدينةِ طُفَيْلٌ نيابةً عن كُبَيْشٍ، فالتقاهُم[(٤)]، فَقُتِلَ هاشمُ ابنُ عليِّ بنِ سِنانٍ[(٥)]، وانكسرَ طفيلٌ وجماعتُهُ، فَخَرَجَ من دَرْبِ البلاطِ ونجا بنفسِهِ وأصحابِهِ، واستقرَّ وُدَيٌّ في المدينةِ، وتَوَجَّهَ طُفَيْلٌ إلى السُّلطانِ فأخبرَهُ الخبرَ فأقامَ في مِصْرَ، وطَمِعَ وُدَيٌّ في مرسومِ السُّلطانِ، فجَهَّزَ خيلاً وهَدِيَّةً وتوجَّهَ إلى السُّلطانِ في شهرِ رمضانَ مِنَ السَّنَةِ المذكورةِ، فلمّا دَخلَ على السُّلطانِ قَبِلَ الخَيْلَ والهَدِيَّةَ، واسْتَمْهَلَهُ حتى انْسلخَ شهرُ رمضانَ.

فلمّا كان ليلةُ العيدِ مَسَكَهُ وقَيَّدَهُ وحَبَسَهُ، وَرَجَعَ طُفَيْلٌ إلى كُبَيْشٍ عند العربِ، فَجَهَّزَ كُبَيْشٌ خيلاً هَدِيَّةً وَبَعَثَهَا مع طُفَيْلٍ إلى السُّلطانِ، فوصلَ بها في الثاني عشرَ مِنْ شهرِ شعبانَ سَنَةَ ثمانٍ وعشرينَ، فَقَبِلَهَا السُّلطانُ.

---

(١) جاء في هامش الصفحة (١٤٣/ ب) الأيسر ما يأتي: «ثُمَّ تولى ولده كبيش بن منصور».

(٢) عسكر بن ودي بن جماز، مات في حياة أبيه بالمدينة سنة ٧٤٢هـ. «التحفة اللطيفة» ٥/ ٦٣.

(٣) بئر أثرية قديمة في الجهة الجنوبية للمسجد النبوي الشريف في محلة ذروان، وهي في منازل بني زُريق، وهي التي وضع فيها المنافق اليهودي لَبيد بن الأعصم السِّحر لرسول الله ﷺ، فأمر رسول الله ﷺ بردمها. وهي في الميدان الجنوبي للمحكمة الشرعية القديمة، مقابل مبنى الدوائر الشرعية في منطقة الصافية. انظر: «آثار المدينة» لعبدالقدوس الأنصاري ص٢٥٠، «تاريخ معالم المدينة» للخياري ص١٩١.

(٤) في (ب) زيادة: «في ذروان» بعد «فالتقاهم».

(٥) هاشم بن علي بن سنان بن عبدالوهاب بن نميلة. انظر: «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٤٥٣).

فلمَّا كانَ الحادي والعشرينَ مِنَ الشَّهرِ المذكورِ، وصلَ الخبرُ إلى مصرَ أنَّ أولادَ مقبلِ بنِ جَمّازٍ قَتَلُوا الأميرَ كُبَيْشاً في يومِ الجُمعةِ سَلْخَ رَجَبٍ(١) من السَّنَةِ المذكورةِ، فأعطى السُّلطانُ إمرَةَ المدينةِ للأميرِ طُفَيْلِ ابنِ منصورٍ(٢) وأَخْلَعَ عليه وكتَبَ تقليدَه، وتَوَجَّهَ إلى المدينةِ، فَوَصَلَ في الحادي عشرَ مِنْ شوّالٍ [١٤٤/ أ] من السنةِ المذكورةِ، وخَرَجَ منها عَسْكرُ ابنُ وُدَيٍّ وأصحابُه.

واستمرَّ طُفَيلٌ في المدينةِ حاكماً مدَّةَ ثمانِ سنينَ وثلاثةَ عشرَ يوماً، واستمرَّ عسكرُ بنُ وُدَيٍّ وأولادُ مقبلٍ يَشُنُّونَ الغاراتِ على المدينةِ، ويَرْعُوْن زرعَها ويَحرِقُون نخيلَها ويَجُدُّون(٣) ثِمارَها، وفي تلكَ الغاراتِ قُتِلَ عَلِيُّ بنُ وُدِيٍّ(٤) وعَجَاجَةُ وغيرُهما، وذٰلك في سنةِ تسعٍ وعشرينَ.

ثُمَّ خَرَجَ إليهم القاضي شرفُ الدِّينِ والخُدَّامُ، وصالَحوهم على خمسةَ عشرَ ألفَ درهمٍ، وعلى ثَمَرةِ أملاكِهم، وأملاكِ مَنْ يَلُوذُ بهم.

فلمَّا تمَّ الصُّلحُ بينَهُم وبينَ الأميرِ طُفَيلٍ استنجدَ طفيلٌ بصالحِ ابنِ حُرَيْثَةَ(٥) مِنْ آلِ فَضْلٍ، وبعُمَرَ(٦) بنِ وُهَيْبَةَ مِنْ آلِ مُرّا، وبعَسّافِ

---

(١) في (أ) و(ب): «شهر رجب». والسلخ: آخر الشهر. «القاموس»: سلخ.

(٢) ورد في هامش الصفحة (١٤٣/ ب) الأيسر من الأسفل ما يأتي: «ثُمَّ الأمير طفيل بن منصور».

(٣) جَدَّ الشيء: قَطَعه. «مختار الصحاح»: جدد.

(٤) علي بن ودي بن جمَّاز. «التحفة اللطيفة» ٥/ ١٩٠.

(٥) صالح بن حريثة: ذكره المجد في «المغانم المطابة» فسماه صالح بن حُدَيثة من آل فضل، وكذٰلك ذكره السخاوي. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٢٣، «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٤٩.

(٦) عمر بن وهيبة: ذكره المجد في «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٢٣، والسخاوي في «التحفة اللطيفة» ٥/ ٣٥١. وفي نسخة (ب): «يعمر» بدل «عمر».

ابنِ متروكٍ الزَّراق[1]، فجاؤوه في جُمُوعٍ عظيمةٍ، وكانوا ألفينِ منهُم ألفُ فارسٍ وخمسُمِئَةِ راجِلَةٍ، وباقيهم رجَّالَةٌ، وجَمَعَ طفيلٌ مِنْ بَنِي حُسَيْنٍ ما أَمْكَنَه، وَخَرَجَ بالتُّركِ الذين كانُوا مَعَهُ في المدينةِ وصارُوا جيشاً عظيماً، وأغارُوا على عسكرِ بنِ وُدَيٍّ وأولادِ مُقبلٍ، وكانوا ثَمَانِية عشرَ فارِساً، وقيل: خمسةً وعشرين، وقيل: سبعينَ، فكَسَرُوا هٰذا الجمعَ العظيمَ، وخَلَصُوا منه سالمينَ بِقُدْرَةِ الله تعالى، وذٰلك بِسَببِ الغَدْرِ بهم عَقِيبَ المُصالحةِ.

وأمّا وُدَيٌّ فاستمرَّ محبوساً مِنَ التاريخِ المتقدِّمِ إلى خامسِ شهرِ رمضانَ سنةَ إحدى وثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ، فكانت مُدَّةُ حَبْسِهِ نحوَ أربعِ سنينَ، ثُمَّ فَرَّجَ اللهُ تعالى عنه.

ولمَّا كان في سنةِ سِتٍّ وثلاثينَ وسبعِمِئَةٍ تَوَجَّهَ طُفيلٌ إلى مصرَ، واستخلفَ في المدينةِ ولدَهُ المسمَّى [بـ]عَجَمِيّ[2]، وكان وزيرَ طُفيلٍ يومئذٍ عَلِيُّ بنُ مباركٍ الحساميُّ[3]، فلمَّا كان في شهرِ رَجَبٍ جاء وُدَيٌّ وجماعتُه [١٤٤/ب] إلى المدينةِ وحاصَرُوها، فلمَّا كانَ في بعضِ اللَّيالِي دخلوا المدينةَ على غفلةٍ في وقتِ السَّحَرِ من الحديقةِ التي في زُقاقِ قُريشٍ، وكان في المدينةِ الأميرُ عَطِيَّةُ والأميرُ زَيَّانُ[4] ابنا منصورٍ وغيرُهم، فأدركوهُم

(١) عساف بن متروك الزراق: ذكره السخاوي في «التحفة اللطيفة» ٥/ ٦٢.

(٢) عجمي بن طفيل بن منصور، ذكره السخاوي في «التحفة اللطيفة» ٥/ ٥٢.

(٣) في (ب): «الحسام». وهو علي بن مبارك الحسامي. ذكره السخاوي باسم «الحزامي». «التحفة اللطيفة» ٥/ ١٥٦.

(٤) الأمير زيان بن منصور بن جمّاز بن شيحة، أبو حميد الحسيني، جَدُّ آل زيَّان المنسوبين إليه. ذكره المجد في «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٥٦، والسَّخاوي في «التحفة اللطيفة» ٣/ ٣٨.

فِي الحديقةِ المذكورةِ، ووقعَ بينَهُم قِتالٌ شَديدٌ، ثُمَّ رَجعُوا مِنْ حيثُ دَخلُوا مِنَ السُّورِ وأقاموا مُحاصِرِينَ المدينةَ.

ثُمَّ اتَّفَقَ أنْ جاءَ كتابٌ مِنْ عندِ السُّلطانِ إلى الأميرِ بأنَّهُ لا يتعرَّضُ للمدينةِ، ولا يقرَبُها، فَرَحَلَ عنها، وَوَقَعَ مِنَ القاضي شَرَفِ الدِّينِ الأُمْيُوطِي ما تَقَدَّمَ ذِكرُه في ترجمةِ الشريفِ يعقوبَ وأَمرُ الوصيَّةَ التي بَعَثَ بها الشريفُ يعقوبُ مِنَ المغرِبِ، فَغَضِبَ السُّلطانُ على طُفيل.

فلمَّا كانَ في شهرِ شوَّالٍ مِنَ السَّنةِ المذكورةِ وَصَلَ جُحَيْدَبُ[١] ابنُ منيفِ بنِ قاسمِ بنِ جمَّازٍ، وسعدُ بنُ ثابتِ بنِ جمَّازٍ مِنْ مِصْرَ ومعهما كتابٌ مِنَ السُّلطانِ إلى القاضي شرفِ الدِّينِ، مضمونُه: أنْ نحنُ قد سَلَّمْنَا إمرةَ المدينةِ إلى الأميرِ أبي مزروعٍ وُدَيٍّ بنِ جمَّازٍ، وقد كَتَبْنَا له بذٰلك تَقْليداً، فيُمَكَّنُ نُوَّابُه من المدينةِ، ويُمْنَعُ آلُ منصورٍ أن يَتَعَرَّضُوا لأذيَّةِ النَّاسِ، وأن يُمْسِكوا شيئاً مِنْ جِمالِ السَّوانِي [فيرْتَحِلُوا عليها، فخَرَجَ آل منصورٍ من المدينةِ ولَمْ يتعرَّضوا لِجِمَال السَّواني][٢]، وتَحَمَّلَ الوزيرُ المذكورُ بأهلِهِ وأولادِه ومالِه على البقَر.

ثُمَّ وَصَلَ وُدَيٌّ إلى المدينةِ في شهرِ ذي القَعْدَةِ، وقُرِئَ منشورُه على دَكَّةِ المُؤذِّنِينَ العُلْيا، وحُبِسَ الأميرُ طُفيلٌ نحوَ أربعينَ يوماً، ثُمَّ أُخْرِجَ

---

(١) جُحَيْدِب بن منيف بن قاسم بن جماز، جاء من مصر إلى المدينة سنة ٧٣٦هـ في أثناء ولاية وُدَيٍّ، فاستنابه عليها هو وقلاوون، ثُمَّ قُتلا خنقاً بعد سنة ٧٤٠هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٣١٠.
وهو في المطبوع من «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٨٩: جُخَيدب.

(٢) ما بين القوسين ساقط من الأصل لعله لانتقال نظر الناسخ، وهو من بقية النسخ.
والسواني: جمع سانية، وهي الإبل التي يُسقى عليها. «القاموس»: سني.

مِنَ الحَبْسِ، وأُنْعِمَ عليه بأخبازٍ يَستعينُ بها، ورُسِمَ لهُم بأملاكِهم التي بالمدينة، واستمرَّ الأميرُ وُدَيٌّ حاكماً في المدينةِ.

فلمَّا تُوُفِّيَ السُّلطانُ المَلِكُ النَّاصِرُ في شهرِ ذي الحِجَّةِ سَنَةَ إحدى وأربعينَ وسبعِمِئَةٍ تَوَجَّهَ وُدَيٌّ إلى مصرَ فقُرِّرَ على وِلايتِه، ورجعَ إلى المدينة واستمرَّ [١٤٥/ أ] حاكماً إلى سنةِ ثلاثٍ وأربعينَ وسبعِمِئَة.

فلمّا كان في شهرِ ذي القِعْدَةِ مِنَ السَّنةِ المذكورةِ، تَوَجَّهَ طُفيلٌ إلى المدينةِ ومعه جميعُ آلِ منصورٍ بأهلِهم وأموالِهم، ونَزَلُوا تحت جَبَلِ سَلْعٍ[١] ممَّا يلي المدينةَ، وكان نائبُ وُدَيٍّ في المدينةِ جُحَيْدَبُ ومعه قلاوونُ بنُ حَسَنِ بنِ مُقبلٍ[٢]، فلمَّا كان في السَّحَرِ تلكَ الليلةَ التي قَدِموا فيها نَصَبُوا سُلَّماً على السُّورِ ودخلَ المدينةَ مِنْ آلِ منصورٍ فَلَمْ يُقَاتِلْهم أحدٌ، ثُمَّ داروا على الدُّرُوبِ فكَسَرُوا أقفالَها، وفَتَحُوا أبوابَها، ودخلوا المدينةَ جميعُهم، ونُهِبَت في تلك الليلةِ بعضُ الدُّورِ، وَكَسَرَتِ العربُ جميعَ دكاكينِ السُّوقِ ونَهَبُوا ما فيها، فلمَّا طَلَعَ النَّهارُ نادى الأميرُ طُفيلٌ بالأمانِ، فأَمِنَ النَّاسُ وخَرَجُوا إلى الأميرِ طُفَيْلٍ وَهَنَّوْهُ بالنَّصْرِ والولايةِ، وقَبَضَ طُفَيْلٌ على جُحيدب وقلاوونَ وقَيَّدَهما في بعضِ دُورِ المدينةِ، فأقاما نحوَ ثَمَانيةِ أيامٍ، ثُمَّ قُتِلَا خَنْقاً والعياذُ باللهِ[٣].

---

(١) سَلْع: جبل متصل بالمدينة، بل هو في وسط عمران المدينة، وفي الجنوب الغربي منه مسجد الفتح. «المعالم الأثيرة في السنة والسيرة» ص١٤٢.

(٢) انظر: «المغانم المطابة» ٣/ ١٣١٠، «التحفة اللطيفة» ٥/ ٤٤٥.

(٣) في هامش الصفحة (١٤٥/ أ) الأيمن في الوسط ما يأتي: «ثُمَّ طفيل ثانياً تولاها قهراً».

واستقرَّ الأميرُ طفيلٌ في المدينةِ، فكانت أيامُ ولايةِ الأميرِ وُدَيٍّ سبعَ سنينَ وشهراً وأربعةَ أيّامٍ.

ثُمَّ إنّ الأميرَ طفيلاً بعثَ إلى مصرَ أخاه جمَّازًا مع الرَّكبِ المِصْرِيِّ، فأنعمَ عليه السُّلطانُ، وقرَّرَ طُفَيلاً على إِمْرَةِ المدينةِ وكتبَ له بها تَقْلِيداً، وبعثَ إليه بالخِلْعَةِ والتَّقْلِيدِ، وكانَ السُّلطانَ يومئذٍ الملِكُ الصَّالِحُ إسماعيلُ[(١)] بنُ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ توجَّهَ طُفيلٌ إلى مِصْرَ فأَكرمَهُ السُّلطانُ وقرَّرَ وِلايتَهُ، ومَكَثَ الأميرُ وُدَيٌّ عند أهلِهِ وأقاربِه إلى أنْ تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنةِ خمسٍ وأربعينَ وسبعِمِئَة.

وكان أميراً رئيساً مُحتشِماً، مَهيباً مُعَظَّماً، ذا عقلٍ ورأيٍ ودَهَاءٍ وشَجَاعةٍ.

وكان وَلَدُهُ عَسْكرُ أعظمَ منهُ في هٰذه الأوصافِ [١٤٥/ ب] كلِّها.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حياةِ والدِه بالمدينةِ المُشرَّفةِ في سنةِ اثنتينِ وأربعينَ وسبعِمِئَة، ومولِدُه في سنةِ تسعٍ وتسعينَ وستِّمِئَة.

ولمَّا تُوُفِّيَ الأميرُ وُدَيٌّ قدَّم آلُ جَمَّازٍ عليهم فَضْلَ بنَ قاسمٍ.

فلمَّا كان في شهرِ المُحرَّم سنةَ تسعٍ وأربعينَ جاءَ الأميرُ فَضْلٌ مَعَ جماعةٍ من أصحابِهِ إلى المدينَةِ وتَسَوَّرَ السُّورَ ودَخلُوا المدينةَ، وجاؤُوا إلى السَّاحَةِ وكَسَرُوا قُفْلَ دَرْبِ الغَنَمِ، ودَخلُوا بِخَيْلِهم ورَجِلِهم، ولم يَشْعُرْ

(١) الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن أيوب بن شاذي، أبو الحسين التكريتي، تملك بصرى وبعلبك، واستولى على دمشق أعواماً، فحاربه صاحب مصر ابن أخيه، وجرت له أمور طويلة، ما بين ارتفاع وانخفاض قتل سنة ٧٤٨هـ.«سير أعلام النبلاء» ٢٢/ ١٣٤.

بِهِم أَحَدٌ، ثُمَّ قَصَدُوا القَلْعَةَ ودَقُّوا بابَها، فلمَّا عَلِمَ بهم مَنْ كانَ في القَلْعَةِ صاحُوا واستيْقَظَ أهلُ المدينةِ وفَزِعُوا إلى القَلْعَةِ، فالتَقَوْا مَعَ آلِ جَمَّازٍ، وجَرَى بينَهُم قِتالٌ، ثُمَّ انتَصَرَ أهلُ المدينةِ عليهم، وأخرَجُوهم مِنَ الدَّرْبِ فَرَجَعُوا إلى أهلِهم ولم يُحاصِرُوا المدينةَ.

واستمرَّ الأميرُ طُفَيْلٌ حاكِماً على طريقةٍ حَسَنَةٍ، ومآثِرَ مُستَحْسَنَةٍ، إلى سَنَةِ خَمْسِينَ وسَبْعِمِئَةٍ، فَصَدَرَتْ منه أشياءُ عن تدبيرِ بعضِ الوزراءِ لا تَلِيقُ بِمِثْلِهِ، فكَتَبَ فيه القاضي شرفُ الدِّينِ الأُمْيوطِيُّ، وقد ذَكَرْنا ذٰلك[1].

وفي أثناءِ تلكَ السَّنَةِ جاء الخبرُ أنَّ السُّلطانَ قد وَلَّى سَعْدَ بنَ ثابتِ ابنِ جَمَّازٍ إمرةَ المدينةِ.

فلمَّا كانَ في شهرِ ذي القِعْدَةِ جَمَعَ الأميرُ طفيلٌ جميعَ آلِ منصورٍ وخَلْقاً كثيراً مِنَ العَرَبِ، وعَزَمَ على مَنْعِ سعدِ بنِ ثابتٍ مِنْ دخولِ المدينةِ.

فَقَدِمَ سعدٌ مع الرَّكْبِ الشَّامِيِّ، فَبَلَغَهُ ما عَزَمَ عليه الأميرُ طفيلٌ، فَطَلَبَ المساعدةَ مِنْ أمراءِ الرَّكْبِ الشامِيِّ، فامْتَنَعُوا وقالوا: لا بُدَّ مِنْ إذنِ السُّلطانِ لنا في ذٰلك.

فَرَحَلَ سعدٌ مِنَ البِرْكَةِ[2]، وبَعثَ إلى السُّلطانِ يَسْتأذِنُه في ذٰلك، ودخلتِ الحواجُّ جميعُها دَفعةً واحدةً، وهم خائفونَ [١٤٦/أ] ممَّا يَحدُث عندَ تغيُّرِ الدُّوَلِ، والعياذُ بالله تعالى.

---

(١) ملحوظة: في هامش الصفحة (١٤٥/ب) الأيسر من الوسط إشارة إلى أنه في نسخة: «شرف الدِّين الأميوطي».

(٢) البركة: موضع ورود الحاجِّ الشامي وصدورهم. «وفاء الوفاء» ٤/ ١١٤٧.

وأقاموا في المدينةِ يومَينِ، ورَحَلُوا جميعُهم دَفعةً واحِدَةً في صبيحةِ اليومِ الثَّالِثِ، وأودَعُوا في المدينةِ ما جَرَتْ عادتُهم في ذٰلك.

فلمَّا كان اليومُ السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ ذي الحِجَّةِ جاء قاصداً الأميرَ طُفيلاً مِنْ مَكَّةَ، وأخبرَ آلَ منصورٍ بما أزعَجَهُم، وهو مَرسُومُ السُّلطانِ لجميعِ أُمراءِ الحواجِّ أن يُمَكِّنُوا سعداً من المدينةِ.

فلمَّا كان في ليلةِ الجمعةِ ثامنَ عَشَرَ الشَّهرِ المذكُورِ، اتَّفَقَ رَأْيُ آلِ منصورٍ على نَهْبِ المدينةِ، وكان الأميرُ طفيلٌ لذٰلك كارِهاً، ثُمَّ غُلِبَ على رأيِهِ، ونَهَبَ آلُ منصورٍ وأتباعُهم ومَنْ مَعَهُم مِنْ بني حُسَيْنٍ ومَنْ حَضَرَ المدينةَ مِنَ الخَيابِرَةِ وغيرِهم جميعَ الوضيعِ[1] الذي للحاجِّ الشامِيِّ، ولَمْ يَسْلَمْ لهم إلّا النَّادرُ مِنْ بيوتٍ معدودةٍ كما تقدَّم، ونَهَبُوا دورَ الخُدَّام والمدارسَ، واستمرَّ النَّهْبُ مِنْ عَشِيَّةِ الخميسِ إلى آخِرِ نهارِ الجمعةِ، وخَرَجَ آلُ منصورٍ جميعُهم مِنَ المدينةِ في ليلةِ السَّبتِ.

وجَلَسَتْ هِميانُ بِنْتُ مباركِ بنِ مقبلٍ[2] في القلعةِ في شُبَّاكِ الإمارةِ يومَ السَّبتِ، وتَسَلَّمَتْ مفاتيحَ الدُّروبِ[3].

وحَكَمَتْ في المدينةِ يومَ السَّبتِ ويومَ الأحدِ إلى الظُّهرِ.

---

(١) وضيع الحاج: الأمانات الموضوعة للحجاج. «المعجم الوسيط»: وضع.

(٢) هِميانُ بنتُ مبارك بن مقبل بن جماز بن شيحة بن هاشم. ذكرها في «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٢٥ في ترجمة طفيل بن منصور، وفي «التحفة اللطيفة» ترجمة (٥٤٦٢) نقلاً عن المؤلف.

(٣) ملحوظة: في هامش الصفحة (١٤٦/ أ) الأيمن ما يأتي: «قف على جلوس هميان بنت مبارك ابن مقبل في دار الإمارة وحكمها يومين».

ثُمَّ وَصَلَ مُحَمَّدُ بنُ مقبلِ بنِ جَمَّازٍ(١) وغيرُه، ودَخَلَ الأميرُ سَعْدُ ابنُ ثابتٍ يومَ الثلاثاءِ مع الرَّكبِ المِصريِّ، وقُرِئَ منشورُهُ يومَ الجمعةِ الخامسِ والعشرينَ مِنْ ذِي الحجَّةِ سنةَ خمسينَ وسبعِمِئة(٢).

وفي سنةِ إحدى وخمسينَ ابْتدأ الأميرُ سعدٌ في عملِ الخَندقِ الذي حَولَ السُّورِ، وماتَ ولم يُكْمِلْهُ، وأَكْمَلَهُ الأميرُ فَضْلٌ في وِلايَتِهِ.

ولمَّا كان في شهرِ شوّالٍ مِنَ السَّنة المذكورةِ جاء آلُ [١٤٦/ ب] منصورٍ إلى المدينةِ على غَفْلَةٍ، ودَخَلَ إلى المدينةِ منهم ثلاثةُ أمراءَ مِنْ سورِ بابِ البقيعِ، وحاولوا كَسْرَ قُفْلِ الدَّرْبِ، فأعجلَهم بعضُ التُّركِ مِنَ المدينةِ، فرَجَعوا مِنْ حيثُ دَخَلُوا وأَصبَحُوا محاصِرينَ المدينةَ، وَرَعَوْا الزّروعَ وقَطَعُوا الأشجارَ.

ولمَّا كان في أوَّلِ سنةِ اثنتينِ وخمسينَ، تَوَجَّهَ الأميرُ طُفَيْلٌ إلى مِصْرَ فَغَضِبَ عليه السُّلطانُ وحَبَسَهُ في القلعةِ، وكَتَبَ السُّلطانُ إلى الأميرِ سَعْدٍ يأمرُه يُحضِرُ ما أَخَذَهُ طُفَيْلٌ للحاجِّ ولأهلِ المدينةِ، فَحَضَرَ بعضُ ذٰلك، وكَتَبَ به مَحْضَراً وَسَيَّرَ به إلى السُّلطانِ، وكَثُرَتْ شَكاوَى التُّجَّارِ على طُفَيْلٍ، فَغَرِمَ للبعضِ وصالَحَ البعضَ، ونَدِمَ على ما وَقَعَ، واستمرَّ محبوساً إلى أَنْ تُوُفِّيَ في الحَبْسِ في شهرِ شوالٍ مِنَ السَّنةِ المذكورةِ.

---

(١) محمد بن مقبل بن جماز. ورد ذِكرُه في ترجمة طفيل بن منصور بن جَمَّاز بن شيحة. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٢٥، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٣٩٩٤).

ملحوظة: في هامش الصفحة (١٤٦/ أ) الأيمن من الأسفل ما يأتي: «ثُمَّ الأمير سعد بن ثابت رَحِمَهُ اللَّهُ».

(٢) في (أ): «خمس وأربعين وسبعمئة».

وكان - رحمهُ الله تعالى - خَلِيقاً للمُلْكِ، مَهيباً مُعَظَماً، مُحَبَّباً إلى الرَّعِيَّةِ، عاليَ الهِمَّةِ، كامِلَ السُّؤْدَدِ، جَمَّ المَناقِبِ، يُوالي المُجاوِرِينَ، ويُحْسِنُ إليهم ويَقبلُ شفاعتَهم، وَوَالانا بأحسنِ الموالاةِ، ونَصَرَنا في مواطنَ عديدةٍ، وكان بينهُ وبينَ أخي عَلِيٍّ صُحبةٌ أكيدةٌ، قَلَّ أن يَرُدَّ له شفاعةً، تَغَمَّدَهُ اللهُ برحمتِه.

وفي هٰذه السَّنةِ تَوَجَّهَ الأميرُ سعدٌ لقتالِ آلِ منصورٍ، فانهزمَ عنه أصحابُه، وجُرِحَ ورَجَعَ إلى المدينةِ في شهرِ ربيعِ الآخرِ وهو مريضٌ، فتُوُفِّيَ مِنْ ذٰلك الجُرْحِ في ثامنِ عَشَرَ، وكانت ولايتُه سنةً وثلاثةَ أشهرٍ وسِتَّةً وعشرينَ يوماً.

وكان في دولتِه مِنْ أحْسَنِ الأمراءِ سِيرَةً، شُجاعاً، وافرَ الحِشْمَةِ، ناصِراً للسُّنَّةِ، قامِعاً للبدعةِ، مُتَخَلِّقاً بِذٰلك مُسْتَجْلِباً به رِضَى السَّلْطَنَةِ.

ولمَّا تُوُفِّيَ الأميرُ سَعْدٌ - رحمهُ الله تعالى - اجتمعَ آلُ جَمَّازٍ وأجمعُوا على تقديمِ الأميرِ [١٤٧/أ] فَضْلِ بنِ قاسمِ بنِ جَمَّازٍ، وحالفوه على الطَّاعَةِ والنُّصرَةِ، وخُطِبَ له على المنبرِ، وتَوَجَّهَ مانعُ بنُ عليٍّ[(١)] إلى السُّلطانِ يَسْتَنْجِزُ له مرسوماً، فأجابهم السُّلطانُ إلى ذٰلك[(٢)]، وبَعَثَ إليه بالتَّقْلِيدِ والخِلْعَةِ، وَوَصَلَ بهما مانعُ بنُ عَلِيٍّ في شهرِ جمادى الآخرِ، وقُرِئَ مَنْشُورُهُ على دَكَّةِ المُؤَذِّنينَ، واستَمَرَّ في الولايةِ إلى آخرِ سنةِ أربعٍ وخمسينَ وسبعِمئةٍ، فمَرِضَ مَرَضاً شديداً، وتُوُفِّيَ في السَّادسِ والعشرينَ مِنْ ذِي القَعْدَةِ،

(١) مانع بن علي بن مسعود بن جَمَّاز الحسيني، ولي إمرة المدينة في ذي القعدة سنة ٧٥٣هـ، بعد الفضل بن قاسم، وتوفي سنة ٧٥٩هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٦٤، «التحفة اللطيفة» ١/ ٩٤.

(٢) ملحوظة: في هامش الصفحة (١٤٧/ أ) الأيمن ما يأتي: «ثُمَّ فضل بن قاسم بن جماز».

ودُفِنَ في قُبَّةِ الحَسَنِ والعبَّاسِ، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ شَهماً شُجاعاً، مِقْداماً، مَهيباً سايِساً، ذا رَأْيٍ صَلِيبٍ وغورٍ ودَهاءٍ، ومعرفةٍ بالأمورِ.

ولمَّا تُوُفِّيَ الأميرُ فَضْلٌ أجمعَ رَأْيُ آلِ جَمَّازٍ على تقديمِ الأميرِ مانعِ ابنِ عَلِيِّ بنِ مسعودِ بنِ جَمَّازٍ، وحالفُوهُ على الطَّاعَةِ، وتَوَجَّهَ إلى مصرَ مُحَمَّدُ ابنُ مُقْبِلِ بنِ جَمَّازٍ يَسْعَى لمانعٍ في تقريرِ الوِلايَةِ، وسافَرَ معه مُحَمَّدُ ابنُ مبارَكِ بنِ جَمَّازٍ، وقيل: إنَّهُ قَصَدَ السَّعْيَ لنفسهِ في الوِلايةِ، فوَلَّى السُّلطانُ الأميرَ مانِعاً وبَعَثَ له بالتَّقليدِ والخِلْعَةِ مع مُحَمَّدِ بنِ مُقْبِلٍ[1].

وكان الأميرُ مانعٌ قَبْلَ ولايتِهِ مُتعبِّداً مُتديِّناً، سليمَ الباطنِ، فلمَّا وَلِيَ إمرةَ المدينةِ ضَعُفَ رأيُهُ عن تدبيرِها، وكَثُرَتِ الفِتَنُ في أيّامِهِ، وتتابَعَتِ الغاراتُ على المدينةِ مِنْ آلِ منصورٍ، وَضَعُفَ عن دَفعِهِم، فكان يَسْتَعِينُ عليهم ببنِي لامٍ، ويُجْزِلُ لهم العَطَاءَ، فنَفِدَ ما بِيَدِهِ وطلبَ المساعدةَ من أهلِ المدينةِ، فساعدُوه مِراراً، ثُمَّ طلبَ المساعدةَ مِنَ الخُدَّامِ والمجاورينَ فساعَدُوهُ وتَكَلَّفُوا ذٰلك مِرَاراً، ثُمَّ حَصَلَ منه جَوْرٌ على المُجَاوِرِينَ وأهلِ المدينةِ، فَبَلَغَ السُّلطانَ ذٰلك، [١٤٧/ب] فَبَعَثُوا إلى الأميرِ جَمَّازِ بنِ منصورٍ، وكان مُقَدَّماً على جماعتِهِ مِنْ بعدِ وفاةِ الأميرِ طُفَيلٍ، وَوَلَّوْهُ إمرةَ المدينةِ، وَوَصَلَ إلى المدينةِ مُسْتَصْحِباً للتَّقليدِ والخِلْعَةِ في الحادي عشرَ مِنْ شهرِ ربيعٍ الأوّلِ مِنْ سَنَةِ تسعٍ وخمسينَ وسبعِمِئَةٍ[2]، ولم يكن الأميرُ مانعٌ يومئذٍ في المدينةِ، وكان فيها نائبُه مُحَمَّدُ بنُ مُقْبِلٍ. وقد تقدَّمَ ما جَرَى للأميرِ جَمَّازٍ معهم في ذِكرِ ولايةِ القاضي تَقِيِّ الدِّينِ الهُورِينِيِّ.

---

(١) في هامش الصفحة (١٤٧/ أ) الأيمن ما يأتي: «ثُمَّ الأمير مانع بن علي ابن مسعود بن جماز».

(٢) ملحوظة: في هامش الصفحة (١٤٧/ ب) الأيسر ما يأتي: «ثُمَّ الأمير جَمَّاز بن منصور».

ولمَّا استقرَّ الأميرُ جمّازٌ في المدينةِ جرَى في أحكامهِ على الشِّدَّةِ، حتى خَرَجَ عن الحَدِّ، ودَانتْ له البادِيَةُ والحاضِرَةُ، وكان خَلِيقاً للمُلْكِ، شَهْماً شُجاعاً وافرَ الحُرْمَةِ، عظيمَ الهَيبَة، ظاهِرَ الخَيْر.

هٰذا وغالبَ أيّامِهِ كان مَرِيضاً، وكانت ولايتُه ثَمانيةَ أشهرٍ وعشرةَ أيّام، وقُتِلَ شهيداً في اليومِ الحادي والعشرينَ مِنْ شَهْرِ ذِي القِعْدَةِ مِنَ السَّنةِ المذكورةِ؛ قَتَلَهُ فِداويانِ قَدِما مع الرَّكْبِ الشَّامِيِّ لِذٰلك، وقُتِلَ وهو في أعزِّ ما يكونُ وأنصارُه بينَ يَدَيْهِ واقفونَ.

وذٰلك أنَّهُ لمَّا قَدِمَ الرَّكبُ الشامِيُّ خَرَجَ لِيَلْقَى المَحْمَلَ السُّلطانيَّ على عادةِ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الأمراءِ، فلمَّا وَصَلَ إلى المَحْمِلِ تَرَجَّلَ عن فَرَسِهِ وأظهرَ الطَّاعَةَ للسُّلْطَانِ، وفُرِشَ له بِساطٌ، وأُخرِجتِ الخِلْعَةُ السُّلطانيَّةُ، فَلَبِسَها وأُعْطِيَ العِمامَةَ فاشتغلَ بِلَفِّها، فَخَرَجَ عليه رَجُلانِ أَشْقَرانِ خَبِيثانِ فَضَرباهُ بخِنْجَرَيْنِ، فأَنفَذَا مَقَاتِلَهُ واختَفَيَا من حينِهما، فلَمْ يُعْلَمْ لهما خبرٌ.

وظنَّ آلُ منصورٍ أنَّ الأمرَ أشدُّ مِنْ ذٰلك، وأنَّ الأمرَ غيرُ قاصِرٍ على قَتْلِ جَمَّازٍ، فافترقُوا على رؤوسِهِم، وساقَ أميرُ الحاجِّ بِهِمَّةٍ وعَزْمٍ، فلَمْ يَتَعَرَّضْ له أَحَدٌ غيرَ أنَّهُ نَهَبَ جُميلاتٍ يَسِيرةً مِنْ أطرافِ الحاجِّ، فلمَّا تراجعَ [١٤٨/أ] آلُ منصورٍ هَمُّوا بإقامةِ فتنةٍ وسَفْكِ دماءٍ وما لا خيرَ فيه، فَعَصَمَ اللهُ النَّاسَ مِنْ ذٰلك بالأميرِ هِبَةَ بنِ جَمَّازِ بنِ منصورٍ(١)، فَظَهَرَ منه يومئذٍ من الاحتسابِ

---

(١) هبة بن جماز بن منصور بن شيحة الحسيني الشافعيُّ، الأميرُ بدرُ الدين أبو سليمان، ذو المناقب الحميدة. كان سببُ ولايته انتقاله إلى مذهب الإمام الشافعي، مات سنة ٧٨٣هـ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٣١١-١٣١٤، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٤٥٩).

في مُصيبتِهِ، والصبرِ على رَزِيَّتِهِ ما يَعْجَزُ عنه الأئِمَّةُ الأعلامُ، فأمَّنَ الناسَ وطَيَّبَ قُلوبَهم، ونادى فيهم بالأمانِ، فاطمأنَّ الحاجُّ وجَرَوْا على عادتِهم في البيعِ والشِّراءِ، جزاهُ اللهُ خَيْراً، وساعَدَهُ على ذٰلك عَمُّهُ الأميرُ زَيّانُ بنُ منصورٍ المُتَحَلِّي بحَسَنِ الأخلاقِ والشِّيَمِ، ذو الصِّيانَةِ والشَّجَاعَةِ والكَرَم.

ولمّا وَقَعَ بالأميرِ جَمَّازٍ ما وقعَ؛ اجتمعَ النَّاسُ على الأميرِ هِبَةَ بنِ جَمَّازٍ، وسألوه أنْ يَقْبَلَ الولايةَ، فامتنعَ وقال: أنا أجلِسُ في القلعةِ لِحفْظِ المدينةِ وأهلِها، وحِفْظِ الحَوَاجِّ، فانظروا لهٰذا الأمرِ غَيْرِي.

فسألُوا الأميرَ زَيَّانَ في ذٰلك، فامتَنَعَ وقال: لا أتقدَّمُ على أخي عَطِيَّةَ، وهو خيرُنا وأصلَحُنا وأَدْيَنُنا.

فاتَّفَقَ رأيُ النَّاسِ على تَقْدِمَتِهِ، وكان غائِباً عندَ العربِ، فَكُتِبَ إلى السُّلْطانِ شَفَاعَةٌ في أن يُوَلِّيَ عليهم الأميرَ زَينَ الدِّينِ عطيَّةَ بنَ منصورٍ، وذكرُوا أنّ آلَ منصورٍ قابلوا ما وقعَ للأميرِ بالصَّبرِ والاحتسابِ، وحِفْظِ الحاجِّ والطاعةِ للسُّلطانِ[١]، وتَوَجَّهَ الأميرُ نُعَيْرُ[٢] بنُ منصورٍ إلى مصرَ ساعياً للأميرِ عطيَّةَ في الولايةِ.

واستمرَّ هِبَةُ بنُ جَمّازٍ حاكِماً إلى رحيلِ الرَّكْبِ المصريِّ مِنَ المدينة، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ المدينةِ وتَوَجَّهَ إلى عَربِهِ، وطَلَعَ الأميرُ زَيّانُ إلى القلعةِ وحَكَمَ بالمدينةِ.

---

(١) ملحوظة: في هامش الصفحة (١٤٨/ أ) الأيمن ما يأتي: «ثُمَّ الأمير عطية بن منصور».

(٢) نعير بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم الحسيني، توفي في سنةِ ثلاثٍ وثمانين وسبعمئةٍ. «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٥٦، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٤٤١١).

ولمَّا وَصَلَ نُعَيْرُ إلى مِصْرَ حَبَسَه السُّلطانُ أيّاماً، ثُمَّ طَلَبَهُ وأَخْلَعَ عليه، وكَتَبَ للأميرِ عَطِيَّةَ تَقْليداً بإمرةِ المدينةِ، وبَعَثَ بالتَّقْلِيدِ والخِلْعَةِ مع الأميرِ نُعَيْرٍ، وَوَصَلَ إلى المدينةِ [١٤٨/ب] في يوم السَّبْتِ الثامِنِ مِنْ شهرِ ربيعِ الآخرِ سنةَ ستِّينَ وسَبْعِمِئة، وَوَصَلَ في تلكَ الأيّامِ زينُ الدِّينِ عَطِيَّةُ فَلَبِسَ الخِلْعَةَ وقُرِئَ مَنْشورُهُ على دَكَّةِ المُؤَذِّنينَ(١).

وكانت وِلايتُه مِنَ الله تعالى عَطِيَّةً كاسْمِهِ؛ لِمَا انْطَوَتْ عليه سَرِيرَتُهُ مِنَ الخيرِ والصَّلاحِ والتَّوَكُّلِ على الله تعالى، والزُّهدِ في الدُّنيا، والكراهةِ في الأمرِ والنَّهي، وسَعيِهِ في مَصَالِحِ دينِهِ، قانِتاً للهِ، خائِفاً منه، مُنِيباً إليه، أوقاتُه مُقَسَّمَةٌ في الطَّاعَةِ ما بينَ خَلْوَةٍ في عبادةٍ، ونَظَرٍ في مصالِحِ رَعِيَّتِهِ، دائمُ الصَّمْتِ، كثيرُ الخشيةِ، يَجْلِسُ في النَّادِي فلا يخوضُ معهم ولا يَضْحَكُ لِضَحِكِهِم، قد لَزِمَ السُّكُوتَ(٢) وأَشْغَلَ قلبَهُ بِذِكْرِ مَعَادِهِ، إذا صلَّى الصُّبحَ جَلَسَ في مُصَلاَّهُ لا يَتَكَلَّمُ حَتَّى يُصَلِّيَ الضُّحَى، مَعَ حُسْنِ تَوَجُّهٍ وإقبالٍ على اللهِ تعالى.

وانصَلَحَ بِصَلاحِهِ جَميعُ قَرَابتِهِ، وَرَدَّ المدينةَ إلى حَالَةٍ يُغْبَطُ أهلُها على سُكْنَاها من العافِيَةِ والأَمَنَةِ العَظِيمَةِ، وسلامةِ النَّاسِ في أَنْفُسِهم وأهلِيهِم وأَمْوَالِهم، وكانَ في الوِلايَةِ كَارِهاً لولا ما يَخافُ مِنْ خُروجِها عن آلِ مَنْصُورٍ لو تَخَلَّى عنها.

---

(١) ملحوظة: في هامش الصفحة (١٤٨/ ب) الأيسر من الأعلى ما يأتي: «قف على محاسن الأمير عطية رحمه الله تعالى».

(٢) في (أ) و(ب): «السكون».

ولم يَزَلْ يَشْكُو مِنَ المَكْسِ والعُشُورِ، ويَمْنَعُ وزيرَه أَنْ يُدْخِلَهُ في مَطْعومِهِ أو مَشْرُوبِهِ، حتَّى طَهَّرَهُ اللهُ منه لِحُسْنِ نِيَّتِهِ وصلاحِ سَرِيرَتِهِ، وعَوَّضَهُ عنه خيراً منه مِنْ جِهَةِ السُّلطَانِ الملِكِ الأشرفِ[1] شعبانَ، بإشارةِ الأميرِ الكبيرِ، ذِي الحَسَنَاتِ العَدِيدَةِ، والمآثِرِ الحَمِيدَةِ، أتابكِ الدَّولَةِ المَنْصُورِيَّةِ سَيْفِ الدِّينِ يَلْبَغا[2]؛ فَسُرَّ بذٰلك وحَمِدَ الله تعالى عليه.

ومعَ هٰذا فما كأنَّه أميرُ المدينةِ، ولا يُظْهِرُ بِوِلايَتِها عِزًّا ولا فَخْراً، ولم يُقِمْ فيها سَنَةً مُتَوَالِيَةً منذُ مَلَكَها إلى الآنَ، [١٤٩/أ] بل يُقِيمُ فيها إخوتَه أو وَلَدَهُ كراهيةً مِنْ مُباشَرَةِ الأحكامِ، وخَوْفاً مِنَ الوُقوعِ في مظالمِ العِبَادِ، ويُوصِي كلَّ مَنِ استنابَهُ في المدينةِ بِحُسْنِ السِّيرَةِ، وصَفاءِ السَّرِيرَةِ.

ولا جَرَمَ أَنَّ إِخْوَتَهُ وَوَلَدَهُ - جَدَّدَ اللهُ سَعْدَهُم - سارُوا في النَّاسِ أحسَنَ سِيرَةٍ، وتَخَلَّقُوا بأخلاقِهِ الحَمِيدَةِ، جزاهُمُ اللهُ عنِ النَّاسِ خَيْراً.

ولمَّا نَهَبَ آلُ منصورٍ وضيعَ الحاجِّ كان الأميرُ زينُ الدِّينِ حاضِراً معهم، فلمْ يَتَدَنَّسْ بشَيءٍ مِنْ ذٰلك، وتَوَرَّعَ عنه.

وَمِنْ شَأْنِهِ التَّوَرُّعُ عَنِ المواريثِ التي يَعْلَمُ أَنَّ أهلَها غُيَّبٌ، ويَحْفَظُها عليهم، ويُنفذ وَصَايا الأمواتِ الذين لا وارِثَ لهم، ويُخْرِجُ الزَّكاةَ مِنْ مالِهِ على المُستحِقِّينَ، ويُحْسِنُ إلى أراملِ الشُّرفاءِ وأيتامِهم مِنْ صُلْبِ مالِه، ومناقِبُهُ كثيرةٌ، ومَحاسِنُهُ عديدةٌ، وَفَّقَهُ اللهُ لفِعْلِ الخيرِ، ووَقَاهُ اللهُ كُلَّ ضَيْرٍ.

---

(١) الأشرفُ شعبانُ بنُ الحسينِ بنِ محمدِ بنِ قلاوونَ، زينُ الدِّين، سُلطانُ مصر والشام، قُتل في القاهرة سنة ٧٧٨هـ. «الدرر الكامنة» ٢/ ١٩١، «النجوم الزاهرة» ١١/ ٢٤-١٤٧.

(٢) أتابك الدولة المنصورية: سيف الدِّين يَلْبَغا بن عبدالله الناصري، هو الذي كان يحكُم في الحقيقة أيام الأشرف شعبان، قتله سنة ٧٦٨هـ. «الدرر الكامنة» ٦/ ٢٠٨.

ولا شَكَّ أَنَّ وِلايةَ هٰذا الأَمِيرِ وَحُسْنَ سِيرَتِهِ، حُجَّةٌ للهِ تعالى على مَنْ عاصَرَهُ مِنَ الأمراءِ، بَلْ وعلى مَنْ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ، كما أنَّ سِيرَةَ المَلِكَيْنِ العادِلَيْنِ: نُورِ الدِّينِ الشَّهِيدِ وصلاحِ الدِّينِ أيُّوبَ حُجَّةُ اللهِ تعالى على مَنْ خَلَفَهُمْ مِنَ المُلُوكِ والسَّلاطِينِ؛ فإِنَّهُ لا يَعْجَزُ أَحَدٌ عنِ التَّشَبُّهِ بمَنْ عاصرَهُ، أو قَرُبَتْ أَيّامُهُ مِنْ أَيّامِهِ، وخَلَفَهُ مِنْ مَحَلِّ ولايتِهِ، إذا حَسَّنَ اللهُ نِيّتَهُ، وسأَلَ اللهَ تعالى الإعانَةَ والتَّوفيقَ.

فيَجِبُ على أهلِ المدينةِ الدُّعاءُ لهٰذا الأميرِ، وإخلاصُ الطَّاعةِ له، ونَشْرُ مَحاسِنِهِ؛ فبِالشُّكْرِ تدومُ النِّعَمُ، فلا زالَتْ سعادتُهُ طالِعَةً في بُرْجِ سِيادَتِهِ، وسيادَتُهُ مَحْفوفَةً بِحِفْظِ اللهِ تعالى وكَلاءَتِهِ.

فصل

ولِنَخْتِمِ الكِتَابَ بذِكرِ شَيْءٍ مِنْ أحوالِ والِدِي وأَخَوَيَّ رحمهُمُ الله تعالى:

فأمّا والِدِي [١٤٩/ب] فهو أبو عبدالله مُحَمَّدُ[١] بنُ أبي الفَضْلِ ابنِ أبي القاسِمِ فَرْحُونِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ فَرْحُونٍ اليَعْمَرِيُّ، الأُبَّدِيُّ المَحْتِدِ، ثُمَّ الجَيَّانِيُّ، التُّونِسِيُّ المولِدِ والمَنْشَأ، اليَعْمَرِيُّ نِسْبَةً إلى يَعْمَرَ [بفتحِ الياءِ المُثَنّاةِ مِنْ تحتُ والعينِ المُهمَلةِ السَّاكِنَةِ والميمِ المفتُوحَةِ والرَّاءِ المُهْمَلَةِ السَّاكِنَةِ[٢]].

وهو يَعْمَرُ بنُ مالِكِ بنِ بُهْثَةَ بنِ حربِ بنِ وهبِ بن جُلَّى بنِ أحمسَ ابنِ ضبيعةَ بنِ ربيعةَ بنِ نزارِ بنِ معدِّ بنِ عدنانَ.

قال ابنُ حزمٍ في كتابِ «جماهرِ الأنسابِ»[٣]: ومِنْ بني يَعْمَرَ الأُبَّدِيُّونَ بالأندلسِ، وهم نافِلةٌ مِنْ ناحيةِ مَنْبِجَ، وهم بنو بكرِ بنِ عبدِالحميدِ ابنِ معْمر[٤] بنِ الطُّفَيلِ بنِ جعفرَ بنِ صالحِ بنِ الحشرجِ بنِ ضُبَيعِ بنِ ذويبِ ابنِ يعمرَ بنِ مالكِ بنِ بُهْثَةَ.

---

(١) انظر: «التحفة اللطيفة» ٦/ ٤٣٣.

(٢) في (أ) و(ب): «الرَّاء المهملة بلا شك».

(٣) «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم ص٢٩٣.

(٤) في الأصل: «يعمر»، والمثبت من نسخة (أ) و(ب). وهو في «الجمهرة».

وقيل في يَعْمَر: إنّه بِضَمِّ المِيمِ، والأوَّلُ أصحُّ وأشهرُ.

فيَعْمَرُ- بفتحِ المِيم - مضارعُ قَوْلِهم: عَمِرَ الرَّجُلُ، بفَتْحِ العَينِ وكَسْرِ المِيمِ: إذا عاشَ زماناً طويلاً، وإنّما سُمِّيَ بذٰلك تَفاؤُلاً بِطولِ العُمُرِ.

والأُبَّدِيُّ - بضمِّ الهمزةِ وتشديدِ الباءِ المُوَحَّدَةِ، وبعدها دالٌ مهملةٌ -: نِسْبَةً إلى بَلْدةٍ بالأندلسِ مِنْ كُورَةِ جَيَّانَ.

وجَيَّانُ: بفَتْحِ الجِيمِ وتشديدِ الياءِ المُثَنَّاة مِنْ تحت بعدها ألفٌ ونونٌ.

كانَ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - قد اشتَغَلَ بالعِلْمِ على شُيُوخِ بلدِهِ، وبَرَعَ في الفِقْهِ والأصولِ والعربيةِ، وشاركَ في عُلومٍ عديدَةٍ، وسَمِعَ الحديثَ على الحافظِ جمالِ الدِّينِ أبي بكرٍ مُحَمَّدِ بنِ يوسفَ بنِ مَسْديٍّ، وصَحِبَ الشَّيخَ أبا محمدٍ المرْجانِيَّ، وخَرَجَ في صُحْبَتِهِ للحَجِّ مِنْ تونُسَ، فلمّا وَصَلَ إلى مَكَّةَ لَحِقَهُ مَرَضٌ، فقال لَهُ الشَّيْخُ أبو مُحَمَّدٍ: هٰذه إشارةٌ إلى الإقامةِ.

فأقامَ بها ولم يَتَعَرَّفْ بأحدٍ مِنَ النَّاسِ، ولم يَكُنْ معه مِنَ النَّفَقَةِ غيرُ ما أعدَّهُ للطَّريقِ، فَبَنى على التَّوَكُّلِ على اللهِ تعالى، فَعُرِفَ مَكانُهُ مِنَ العِلْمِ، واشتَهَرَ بِحُسْنِ الخَطِّ مع الضَّبْطِ والصِّحَّةِ، [١٥٠/أ] فسأله بعضُ النَّاسِ في نَسْخِ «الرَّوضَةِ» للشَّيخِ مُحيِي الدِّينِ النَّوَوِيِّ، فنسخَها له جميعَها واستعانَ بما حَصَلَ له.

ثُمَّ انتقلتْ تلكَ النُّسْخَةُ معَ بعضِ الشَّافِعِيَّةِ إلى المدينةِ، وهيَ اليومَ في المدينةِ موقوفةٌ في المدرسةِ الشِّهابيَّةِ مع نُسْخَةٍ أخرى نَسَخَها بعد إقامَتِه في المدينةِ.

ثُمَّ حَجَّ ورَجَعَ إلى تونُسَ، فَوَجَدَ الشَّيخَ أبا مُحَمَّدٍ المَرْجَانِيَّ قد انتَقَلَ إلى رحمةِ الله تعالى، فَحَمَلَ ما لَهُ مِنَ الكُتُبِ، وكانت كلُّها أو غالبُها بِخَطِّ يَدِهِ، وكانت كُتُباً كثيرةً جليلةً، فلمَّا وَصَلَ إلى الإسكندريَّةِ باعَها، حتّى لم يَبْقَ معه إلّا ما هو مُحتاجٌ إليه من خَطِّهِ وخَطِّ والدِه.

ثُمَّ قَدِمَ المدينةَ فَسَكَنَ المدرسةَ الشِّهابِيَّةَ بينَ تلكَ الجماعةِ الذينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُم وفضائلُهُم، وكانت نِيَّتُهُ ألّا يَشْتَغِلَ بشيءٍ غيرَ نفسِهِ، ولا يَتَعَرَّفَ بأحدٍ مِنْ أبناءِ جِنْسِهِ، فألزَمُوهُ حُضورَ الدَّرْسِ لأجلِ المَسْكَنِ، فلمَّا حَضَرَ مع الطَّلَبَةِ اشتَهَرَ بينهُم بعِلْمِهِ وفَضِيلَتِهِ.

وكان مُتَفَنِّناً في عِدَّةِ علومٍ، فَعَظُمَ عند الجماعةِ وأَحَبُّوهُ ولَزِمُوهُ، واشتغَلُوا عليه بالفِقْهِ والعربيَّةِ، واشْتَغَلَ عليه جماعةٌ في عِلْمِ الهَيْئَةِ، فأبانَ عن فضيلةٍ تامَّةٍ، فَكَثُرَ عليه المُشتغِلونَ في عِلْمِ الميقاتِ.

قال لي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كنتُ قد قَطَعْتُ وَقْتِي مع المُشتغِلينَ بعِلْمِ الميقاتِ، وحِرْتُ في الخَلاصِ منهم، حتَّى سَمِعْتُ شخصاً من العَوامِّ يقولُ يَوْماً لِجُلَسائِه: ما رأيتُ أعلَمَ مِنْ هٰذا المُنَجِّم!

قالَ: فقُلْتُ في نَفْسِي: لقد أَسَأْتُ باشتهارِي بهٰذا العِلْمِ، حتّى يُطْلَقَ عَلَيَّ هٰذا الاسمُ، فتَرَكْتُ الاشتغالَ فيه.

وكان له اختلاطٌ بالجماعةِ الذين تَقَدَّم ذِكرُهم، كالشيخِ أبي مُحَمَّدٍ البَسْكريِّ وأصْحَابِه، والشَّيخِ أبي الحَسَنِ[1]، والشَّيخِ عبدالواحدِ الجُزُوليِّ، [١٥٠/ب] والشَّيخِ أبي العَلاءِ الأندلُسِيِّ، والشَّيخِ أبي إسحاقَ، وجماعةٍ

(١) الشيخ أبو الحسن الخراز، تقدّمت ترجمته.

مِن صُلَحاءِ الخُدَّام، وخَلائِقَ لا يُحصَوْنَ كَثْرَةً، فَعَرَضُوا عليه الزَّواجَ فامْتَنَعَ مِنْ ذٰلك، فَكَثَّرُوا عليه وَرَغَّبُوهُ في والِدَتِي، وكانتِ الكبيرةَ مِنْ أربعِ بناتٍ شرائفَ.

كان والدُهُنَّ يقال له: الشَّريفُ عبدُالواحِدِ الحُسَيْنِيُّ، ثابِتُ النِّسبَةِ، وكان يَتَناوَلُ مِنْ وَقْفِ بَلْقِس[١] بعد أنْ أَثْبَتَ نَسَبَهُ في القاهِرَةِ.

ولمَّا حَجَّ نَقيبُ الأشرافِ شَرَفُ الدِّينِ[٢] أَوْقَفْتُهُ على تلكَ النِّسْبَةِ، فلمّا رَأَى عليها خُطُوطَ القُضاةِ المِصْرِيِّينَ أَثْبَتَ اسمَ بِنْتِهِ مُبارَكَةَ في الشُّرَفاءِ الذين يُصْرَفُ إليهم وَقْفُ بَلْقِسَ، واسْتَمَرَّتْ تَقْبِضُهُ إلى أنْ تُوُفِّيَتْ إلى رحمةِ الله تعالى.

وكان زَواجُهُ لوالِدَتِي مِنْ بِرِّهِ بِنا، إذْ أُلْحِقْنا بِنَسَبِ النَّبِيِّ ﷺ فَجَعَلَنا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إجماعاً، وَشُرَفاءَ عندَ أكثرِ العلماءِ[٣]، وبذٰلك أَفْتَى ناصِرُ الدِّينِ المَشَدَّالِّيُّ[٤] وغيرُه مِمَّنْ هو مِثْلُهُ في العِلْمِ.

---

(١) وهو وقف الوزير طلائع بن رُزِّيك الفاطمي، المُلقَّب بالملك الصالح، المتوفى سنة ٥٥٦هـ، وقف ناحية بلقس، وهي من نواحي القاهرة على أن يكون ثُلثاها على الأشراف من بني حَسَن وبني حُسَين ابني علي بن أبي طالب، رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، وسبع قراريط منها على أشراف المدينة النبويَّة. انظر: «المواعظ والاعتبار» للمقريزي ٣/ ١٩.

(٢) نقيب الأشراف شرف الدِّين: علي بن أحمد بن علي بن حسين بن محمد الحسيني، ابن قاضي العسكر، توفي سنة ٧٥٧هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ٤٨.

(٣) أكثر فقهاء المذاهب الأربعة على أنّ الشرف لا يَثبُت من جِهة الأم. انظر: «حاشية ابن عابدين» ٣/ ١٧١، «حاشية الدسوقي» «٤/ ٣١٢» «الفتاوى الحديثية» لابن حجر الهيتمي ص١٢١. وإنما اختار ثُبوت الشرف من جهة الأم بعضُ فُقهاء المالكية التونسيِّين.

(٤) منصورُ بن أحمد المَشَدَّالي، أبو علي البجاوي، ناصرُ الدِّين، نسبةً إلى قبيلةٍ من زُواوةَ بالجزائر، فقيهٌ مالكيٌّ، مُحدِّث، وفاته سنة ٧٣١ هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ٣٦١، «نيل الابتهاج» ٢/ ٦٠٩.

وَكَمُلَ بِرُّهُ بأَنْ عَلَّمَنا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَنا[١]، وأَدَّبَنا فأحسَنَ تأدِيبَنا[٢]، رحمهُ الله تعالى.

وكان مِنْ أسبابِ تَزَوُّجِهِ وتأهُّلِهِ في المدينةِ بعدَ تَبَتُّلِهِ وكراهَتِهِ لذٰلك: أنِ اتَّفَقَ في بعضِ الأيَّامِ أَنَّ الجماعةَ سألُوا والِدِي أنْ يَقْرَأَ عليهِم شيئاً مِنْ كُتُبِ الرَّقَائِقِ، فأجابَهم إلى ذٰلك.

قال لي رَحِمَهُ اللهُ تعالى: وكان مِنْ جُملةِ ما قَرَأْتُهُ أَنَّ رَجُلاً كان يَسْأَلُهُ جارُهُ أَنْ يُزَوِّجَهُ إِحْدَى بناتِه، فيقولُ له: لا حاجةَ لي بالزَّواج.

فَرَأَى ليلةً في منامِه أَنَّ القيامةَ قد قامَتْ، وأَنَّ النَّاسَ في شِدَّةٍ وفي حَرٍّ عَظِيمٍ، وعَطَشٍ شديدٍ، وكان بينَهُم وِلدانٌ مَعَهُم أكوابٌ يَتَخَلَّلُونَ النَّاسَ.

قال الرَّائي[٣]: فقلتُ لِوَلَدٍ منهم: يا وَلَدِي، أنا عَطْشانُ فاسقِنِي. [١٥١/أ]

فقال له: اذْهَبْ، فما لَكَ فِينا وَلَدٌ!

قال: فاسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ وبه رَجْفَةٌ عظيمةٌ، فَدَقَّ البابَ على جارِهِ وقال له: زَوِّجْنِي إحدى بَنَاتِكَ الآنَ، فِلِيَ قِصَّةٌ عَجِيبةٌ، فَزَوَّجَهُ ولم يَأْتِ عليه الصَّباحُ إلّا وَهُوَ مَعَ زَوجَتِهِ.

فلمَّا قَرَأَ والِدِي هٰذه الحكايةَ رَغَّبَ الجماعةُ والِدِي في الزَّواجِ، فأطاعَهم وتَزَوَّجَ بوالِدَتِي، رحِمَهُما الله تعالى.

---

(١) في (أ) و(ب) زيادة: «كما ترى» بعد «تعليمنا».

(٢) في (أ) و(ب) زيادة: «درى بذٰلك من درى» بعد «تأديبنا».

(٣) في (ب): «والدي».

وكان بِناؤه بها ليلةَ الاثْنَينِ الثالثَ عَشَرَ من شهرِ صَفَرٍ عامَ اثنينِ وتسعينَ وستِّمئة، فَوَلَدَتْ له خمسةَ ذكورٍ، تُوُفِّيَ منهم في حياتِه اثنانِ.

وكان يقولُ: عندي مَسَرَّةٌ بِمَنْ قَدَّمْتُهُ أكثرَ مِنْ مَسَرَّتِي بِكُمْ، رجاءَ ما وقعَ في تلكَ الحكايةِ، نَفَعَهُ اللهُ بهما.

وكنتُ أوَّلَ أولادِه، وكان مَوْلِدِي يومَ الثلاثاءِ السَّادِسِ مِنْ جُمادَى الآخرَةِ عامَ ثلاثةٍ وتسعينَ وستِّمئة.

وكان - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - لا يزالُ مَشْغُولاً بِنَفْسِه وبِذِكْرِهِ وقراءتِهِ واشتغالِهِ بِكُتُبِ العِلْمِ، ليسَ مع النَّاسِ في شيءٍ مِنْ أحوالِهم الدُّنيويَّةِ، ولمْ يَصُدَّهُ العيالُ عن شيءٍ مِنَ الأورادِ والأفعالِ الصَّالحةِ التي كان عليها.

وكان ذا عيالٍ كثيرٍ، لم يَمَسَّهُ مِنْهُم قَرابَةٌ لكنْ صَهارةٌ، قَدْ جَمَعَهُمْ معهُ في بيتِه وفي نَفَقَتِهِ، ومع ذلك لم يكن يُهِمُّهُ شَأْنُهُم ولا شَأْنُ أولادِه، بَلْ قَدَّمَ اشتغالَه بالآخرَةِ على كلِّ شَيْءٍ، حتّى كأنَّه خَلِيٌّ مِنَ التَّعلُّقاتِ، رحمهُ الله تعالى.

وكُلَّما نَظَرْتُ إلى حالِي وَسَعةِ مَسْكَنِي وَضِيقِ خُلُقِي وَقِلَّةِ صَبْرِي مَعَ ما رَأَيْتُهُ مِنْ ضَيْقِ مَسْكَنِهِ وَسَعَةِ خُلُقِهِ وَطُولِ صَبْرِهِ صَغُرَتْ عندي نَفْسِي، وَأَيِسَتُ مِنْ خَيْرِي، وأَنَّى لِي بِحُسْنِ أخلاقِهِ وحِفْظِ لِسانِهِ؟

حَكَى الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ الخَرَّازُ والشَّيْخُ عُمَرُ الخَرَّازُ - رَحِمَهُما الله تعالى - أنَّه لمّا حَجَّ والِدِي مَعَهُما [١٥١/ب] مَعَ جماعتِه المُبارَكِينَ الذينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُم كانوا رُفْقَةً واحدةً، مع عِدَّةِ جَمَّالِينَ.

قالا: فلمَّا حَجَجْنَا وَرَجَعْنَا وكُنَّا قريباً مِنَ المَدِينَةِ المُشَرَّفَةِ، اجتمعَ الجَمَّالونَ يَتَحَدَّثونَ ويَذْكُرُونَ سِيرَةَ رُكَّابِهم معهم، فقال جَمَّالُ والِدي لأصحابِه: يا جماعةُ، أمَّا رَفِيقِي الذي أَكْرَيْتُهُ فَأَخْرَسُ! لَمْ يَتكَلَّمْ منذُ صَحِبْتُهُ بِكَلِمَةٍ. فقال له رفيقُه: بلْ واللهِ سَمِعْتُهُ يوماً يَتكَلَّمُ مع أصحابِه.

وكانت هٰذه طريقتَهُ سَفَراً وحَضَراً، لا يراهُ أحدٌ جالِساً في طريقٍ ولا في حَلَقَةِ فُضُولٍ، ولا يَتكَلَّمُ إلّا جَوَاباً، وإنْ جاوَبَ لم يَفْتَحْ للفُضولِ باباً، فَرَحِمَهُ اللهُ.

كان القاضي فَخْرُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بنُ محمَّدِ بنِ الحارِثِ المعروفُ بابنِ المِسْكِينِ الفقيهُ الشّافعيُّ[(١)] إذا لَقِيَنِي يُقْبِلُ عَلَيَّ ويُسَلِّمُ ويقول: رَحِمَ اللهُ والِدَكَ الشيخَ أبا عبدالله، ما كان أحسَنَهُ وأكثَرَ أَدَبَهُ وخَيْرَهُ!

وحَكَى لِي أنَّه اتَّفَقَ له معه قَضِيَّةٌ[(٢)].

قال لي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كُنْتُ إذا صَلَّيْتُ صلاةَ الصُّبحِ أَجْلِسُ في مُصَلَّايَ حتّى تَطْلُعَ الشّمسُ وَأُصَلِّي الضُّحَى وَأَنْصَرِفُ، وكان يَوْمَئِذٍ في الرَّوْضَةِ المبارَكَةِ جماعةٌ مِنَ الأشياخِ المُباركينَ، قال: وكنتُ أَرْتَقِبُ بصلاتِي ارتفاعَ الشَّمسِ، وأَرَى النَّاسَ يَنْتَظِرُونَ الشّيخَ أبا عبدالله ويقومونَ لِقيامِهِ، وكان يقومُ إذا وَصَلَتِ الشَّمْسُ في الحائِطِ الغَرْبِيِّ إلى تحتِ الشَّبابيكِ الصِّغارِ.

قال: فقلتُ: لا أَقْدِرُ أقولُ للجماعةِ كُلِّهِم: أَخِّروا صلاتَكم حتّى ترتفِعَ الشَّمسُ، ولٰكنِّي أَجْتَمِعُ بهٰذا الشَّيخِ الذي يَؤُمُّهُم في هٰذا الوقتِ.

---

(١) محمد بن محمد بن بن الحارث بن مسكين، فخر الدِّين أبو عبدالله الزهري، الفقيه القاضي، مات سنة ٧١٠هـ. «الدرر الكامنة» ٤/ ٢١٦، «التحفة اللطيفة» ترجمة (٣٩٤٤).

(٢) في (ج): «قصة».

قال: فاجتمعتُ به - وكنتُ بهِ جاهِلاً - فقلتُ له: رأيتُكَ [١٥٢/أ] تقومُ لصلاةِ الضُّحى قبلَ وَقْتِها، وقد نَهى النَّبيُّ ﷺ عنها حتَّى ترتفِعَ الشَّمْسُ وتَبْيَضَّ[١]، وهٰذا وقتٌ تُكْرَهُ فيه الصَّلاةُ، وكَثَّرْتُ عليهِ مِنَ الأدلَّةِ، وأنا في اجتهادٍ وحِدَّةٍ حتّى فَرَغَ ما عندي.

فالتفتَ إليَّ وقال: بعدَ اليومِ نُؤخِّرُ كما قُلْتَ.

وسَكَتَ عنِّي واشتغلَ بما كان فيهِ، فانصرفتُ عنهُ وسألتُ عنه، فقيلَ لي: هٰذا الشَّيخُ أبو عبدالله ابنُ فَرحونَ.

فَنَدِمْتُ وقُلْتُ: أيُّ حاجةٍ دَعَتْني إلى الاعتراضِ على هٰذا الشَّيخ؟

قال: فَرَجَعْتُ إليه واعتذَرْتُ، فتبسَّمَ وقال: ما قُلْتَ إلّا خيْراً.

فأنا أَدْعُو لَهُ كلَّما ذكرتُه.

قال لي الشَّيخُ أبو عبدالله مُحَمَّدُ بنُ مُحَمَّدٍ الغَرناطِيُّ: كُنْتُ جالِساً في المسجِدِ الشَّريفِ مَعَ الشَّيخِ أبي القاسمِ القَبْتُورِيِّ - وقد تَقَدَّمَ ذِكرُهما - فقال لي: يا مُحَمَّدُ، رأيتَ قَطُّ الكِبريتَ الأحمرَ الذي لا يَتَغَيَّرُ أبداً ولا يَتَحَوَّلُ؟

قال: قلتُ له: لا.

فقال لي: انظرْ إلى أبي عبدالله بنِ فَرحونٍ منذُ دَخَلَ المدينةَ لم يَتَغَيَّرْ حالُهُ.

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «المصنَّف» (٣/ ٥٢٥) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «نهانا رسول الله ﷺ أن نُصلِّي في ثلاثِ ساعاتٍ وأن ندفن فيهن موتانا: عند طلوع الشمس حتّى تبيض وترتفع...» الحديث، وهو في «صحيح مسلم» برقم (٨٣١) عنه دون لفظة: «وتبيضَّ».

قلتُ: كانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد تَرَكَ الاشتغالَ بِنَا، فكنّا نَغِيبُ فلا يَسأَلُ عنَّا، ونَمْرَضُ فلا يُهِمُّه مَرَضُنَا، بل يسألُ اللهَ لَنَا ويَدعُو لنا، فنحنُ نَتَقَلَّبُ في بَرَكَتِه وبَرَكةِ دعائِه[١].

أخبَرَني أنّه خَرَجَ يوماً في المَوْسِمِ عند قُدومِ بَنِي عُقْبَةَ[٢] يُريدُ شراءَ نَفَقَةٍ، وكان غالبُ عيشِ المدينةِ مِنْ زَرْعِها وزَرْعِ السّوارقيةِ، لا يأتي مِنَ الشَّامِ إلّا القليلُ، حتَّى كان السَّعيدُ يَدخلُ بيتَهُ حِمْلٌ أو حِمْلانِ، وكان للدرّابِ[٣] على مَنْ يَشتَرِي شيئاً مَكسٌ[٤] كَثِيرٌ وخَراجٌ[٥] عظيمٌ.

قال: فاشتريتُ حِمَلَ قَمْحٍ، فلمَّا دَنَوْتُ مِنَ الدَّربِ قال لي صاحبُ الجَمَلِ: أنا ما أدْخُلُ به، أَخَافُ أن أُطالَبَ بخراجِهِ.

[١٥٢/ ب] قال: فقلتُ له: سُقِ الجملَ وأنا أَتَكَفَّلُ بما يريدونَ مِنْكَ، فَفَعَلَ، فلمَّا أَرَدْتُ الدُّخُولَ قَرَأْتُ أوائِلَ سُورَةِ ﴿يسٓ﴾ وتَعَوَّذْتُ ودَخَلْتُ مَعَ الجَمَلِ، فلم يَرَوْنا ولا عَرَفُونا.

---

(١) الواجب نسبة الفضل لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سائر النِّعم، وأمّا القطعُ بأنّ حُلول الفضل والنِّعم من الله عَزَّوَجَلَّ ببركة فلان أو بدُعائه فهٰذا من الأمور التي تحتاج إلى علم يقيني.

(٢) قبيلة بني عقبة: قبيلة عربية جذامية استوطنت شمال الجزيرة العربية وكان عليهم درك الطريق وحفظ الحجَّاج ما بين المدينة المنوَّرة إلى حُدود غزة من بلاد الشام. انظر: «قلائد الجمان» للمقريزي ص١٨.

(٣) الدراب: الحاذق بصناعته. «القاموس»: درب. وفي النسخة (أ): «للدارب»، ولعل المراد به هُنا العامل الذي يقف على الدَّرب ليأخذ الضرائب من الدَّاخلين. «المصباح المنير» ص١٠١.

(٤) المَكْسُ: الضريبة يأخذها المكّاس ممّن يدخل البلد من التجّار. «المعجم الوسيط»: مكس.

(٥) الخراج: الإتاوة تُؤخَذ من أموال الناس والجِزية التي ضُربت على رقاب أهل الذِّمة. «المعجم الوسيط»: خرج.

فجاءَهُم مَنْ ذَكَرَ لهم أنِّي اشتريتُ حِمْلَ قَمْحٍ، فقالوا: لَمْ يَدخُلْ به مِنْ عندِنا ولا رأيناهُ!

فَدَفَعَ اللهُ شرَّهم عنهُ لَمَّا عَلِمَ صِدْقَهُ وضرورَته لِعِيالِهِ، فمَنْ كانَ مَعَ اللهِ كان اللهُ مَعَهُ.

تُوُفِّيَ - رحمهُ الله تعالى - يومَ الخميسِ الرابعِ والعِشْرينَ مِنْ شهرِ ربيعٍ سنةَ إحدى وعشرينَ وسبعِمئة، جدَّدَ اللهُ عليه الرَّحمةَ.

ورآه أخي عَلِيٌّ في النَّومِ بعدَ وفاتِهِ، فقال له: يا سَيِّدِي، ما فَعَلَ الله بِكَ؟ قال: أعطاني وحَبَانِي، فها أنا في مَقْعَدِ صِدْقٍ عندَ مَليكٍ مُقْتَدِرٍ.

وأمَّا أخي نورُ الدِّينِ أبو الحَسَنِ عَلِيٌّ؛ فكان على كُنْيَتِهِ واسمِهِ مِنَ العُلُوِّ(١) والدِّينِ، مع ما حَوَى مِنْ عِلْمَي الفقهِ والأصولِ والعربيةِ والحديثِ واللُّغَةِ والمعانِي والبَيَانِ والأَدَبِ، مَعَ المُشَارَكَةِ العَظِيمَةِ في سائرِ العُلُومِ، وكان قد بَلَغَ في العُلُومِ الأَدَبِيَّةِ إلى النِّهايَةِ.

فإن قُلْتَ: لم يَكُنْ في زَمَانِهِ بالمَدِينةِ والحِجازِ مَنْ بَرَعَ بَرَاعَتَهُ، ولا سادَ سِيادَتَهُ، فَشَهَادَةُ حَقٍّ عَلِمَها كلُّ الخَلْقِ مِمَّنْ جَلَّ وَدَقَّ.

كان يُلْقِي دَرْسَ الفِقْهِ في «مختَصَرِ ابنِ الحاجِبِ»، فيَحضرُه الشّيخُ حَسَنُ الحاحائيُّ، والشَّيخُ عبدُالسَّلام بنُ غلابٍ(٢)، وكانا من الفقهِ بمكانٍ، لمْ يَلْحَقْهُما في علمِهما وعَمَلِهما مِثْلُهما، وقد تقدَّمَ ذِكرُهما، وكانا يُدَقِّقانِ معه في البَحْثِ [١٥٣/ أ] المَتِينِ فيَظهرُ بذِهْنٍ ثاقبٍ وحِفْظٍ مُعِينٍ.

---

(١) في الأصل: «العلوم»، والمثبت من بقية النسخ.

(٢) هو عبدالسلام بن سعيد بن محمد بن عبدالغالب، تقدَّم ذكره.

وله تَوَاليفُ مُفِيدةٌ في العربيَّةِ والحديثِ واللُّغةِ والتصوُّفِ، وله «ديوانٌ» كبيرٌ في مَدْحِ النَّبيِّ ﷺ، وفي مَدْحِ غيرِه، وله مُجلَّداتٌ مِنْ جَمْعِهِ مشتمِلَةٌ على فوائدَ وغرائبَ.

وكان الشَّيخُ الإمامُ العلّامةُ حُجَّةُ العَرَبِ، وتَرْجُمانُ الأدبِ، سراجُ الدِّينِ الدَّمَنْهُوريُّ[١] قد جاوَرَ في المدينةِ في سنةِ خمسٍ وأربعينَ وسبعِمِئة، فكان إذا جَلَسَ في درسِهِ يقول للطَّلَبةِ: إذا حَضَرَ الفقيهُ نورُ الدِّينِ فأَحضِروا معكم الدَّوَاةَ والوَرَقَ، حتى تُقَيِّدُوا مِنْ فوائدِه ومِنْ أشعارِه واستشهاداته؛ فكانَ كَذٰلك.

وكان هٰذا الشيخُ سِراجُ الدّينِ الدَّمَنْهُوريُّ مِنَ العلماءِ الأستاذِينَ الَّذِينَ انْفَرَدُوا في زَمَانِهِم عَنْ أقرانِهِم بِعُلُومٍ جَمَّةٍ، كالقراءاتِ والعَرَبيَّةِ واللُّغَةِ، مع الفِقْهِ الغَزِيرِ، والمُشارَكَةِ في كثيرٍ مِنَ العلومِ، ولٰكن كانَ في تلكَ العُلومِ في أعلى دَرَجاتِها مِنَ الحِفْظِ والذِّكْرِ.

عَرَضْتُ عليه شَرْحِي وإعرابِي لـ«بانَتْ سُعادُ»، المُسمَّى «شِفاء الفُؤادِ مِنْ بانَتْ سُعاد»، فَوَجَدْتُهُ في مُذاكَرَتِي له بَحْراً زاخِراً، وكان أخي عَلِيٌّ أحياناً يأتِيهِ فيَتَعَجَّبُ مِنْ حِفْظِهِ وذِكْرِهِ، ويقول لي: قَلَّ أنْ رأيتُ مِثْلَهُ.

تُوُفِّيَ - رحمهُ الله تعالى - في ثانِي شهرِ ربيعٍ الأَوَّلِ بمكةَ في سنةِ اثنتينِ وخمسينَ وسبعِمئة[٢].

---

(١) عمرُ بنُ أحمدَ القاضي سِراجُ الدِّين، الأنصاريُّ، الخزرجيُّ، الدَّمَنْهُوريُّ، السُّويداويُّ، الشَّافعيُّ. «طبقات الشافعية» للإسنوي ١/ ٣٤٨، «المغانم المطابة» ٣/ ١٢٣٥.

(٢) ملحوظة: في هامش الصفحة (١٥٣/ أ) الأيمن ما يأتي: «قف على شفاء الفؤاد من بانت سعاد لابن فرحون».

وكان لأخي ميعادُ وَعْظٍ يَقْرَأُ في كلِّ جُمُعَةٍ بعدَ الصّلاةِ على كُرْسِيٍّ عالٍ بالرَّوْضَةِ المُشَرَّفَةِ بصَوْتٍ حَسَنٍ وأداءٍ حَسَنٍ، لا يَمَلُّ السّامِعُ مِنْ قراءَتِه بل يَتَلَذَّذُ بإطالَتِهِ، وكان وَعْظُهُ مِنْ كلامِ ابنِ الجَوْزِيِّ[1] في «التَّبْصِرةِ»، فكان بعضُ النَّاسِ يقول: عاشَ ابنُ الجَوزيِّ للنّاسِ.

وكان هو - رحمهُ الله تعالى - [١٥٣/ ب] أوَّلَ مَن اتَّعَظَ بقولِه وانتَفَعَ بوَعْظِه، فصار يُلازِمُ الصِّيامَ وَيَسْرُدُه ويقومُ مِنَ اللَّيلِ أكثرَه، ورَقَّتْ نفسُه ودرَّتْ دَمْعَتُه، كأَنَّهُ عَلِمَ بِقُرْبِ الأَجَلِ، فبادرَ للعَمَلِ.

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: واللهِ، نَدِمْتُ على ما أفنيتُ به عُمري مِنَ الاشتغالِ بعِلْمِ الأَدَبِ، يا ليتَهُ كان في الكِتَابِ والسُّنَّة!

كان يراني فوقَ ما يَرَى الوَلَدُ الوالِدَ[2] في التَّعظِيمِ والحياءِ والإكرام، وأمّا الغَيرَةُ [عليَّ][3] والانتصارُ لي، واهتمامُه بحالي وما يَعرِضُ لي من عَدُوٍّ يَشْنَأُني فلا يُوصَفُ قَدْرُهُ، فللَّهِ درُّهُ، وبَلَّ بالرَّحمةِ قَبْرَهُ.

تُوُفِّيَ يومَ الجمعةِ الثالثَ والعشرينَ مِنْ شهرِ جمادى الآخرةِ سنةَ سِتٍّ وأربعينَ وسبعِمِئة، ومولِدُه ليلةَ الجُمعةِ العشرينَ مِنْ ربيعٍ الأوَّلِ عامَ ثَمَانية وتسعينَ وستِّمِئَةٍ.

وأمَّا أخي مُحَمَّدٌ - رحمهُ اللهُ تعالى - فكان على طريقةِ والِدِه رحمهُ الله

---

(١) عبدالرَّحمٰن بن علي بن محمَّد بن علي بن الجوزي، جمال الدِّين أبو الفرج القرشي التميمي، توفي سنة ٥٩٧هـ. «سير أعلام النبلاء» ٢١/ ٣٦٥.

(٢) في (ب): «لوالده».

(٣) زيادة من النسخة (ب).

تعالى؛ مِنَ العُزْلَةِ، ومحبَّةِ الوَحْدَةِ والخَلْوةِ، وقِلَّةِ الخُلْطَةِ، كان بي حَفِيًّا، وفي دينِه قَوِيًّا، صَبَرَ على مُجاهدةِ النَّفسِ في العبادةِ، حتّى صارتْ له سَجِيَّةً وعادةً.

وكان - رحمهُ اللهُ تعالى - مِنْ عِظَمِ شَفَقَتِه عليَّ يَجْلِسُ دائماً على طريقِي إلى الصَفِّ الأوَّلِ، فلا يَمُرُّ يومٌ حتّى يَقِفَ معي ويسألُني عن حالي ويدعو لي بقلبٍ صافٍ، ووُدٍّ وافٍ، ومتى فَقَدَنِي في وقتِ صلاةٍ وَقَفَ عليَّ في بيتِي وسَأَلَ عن حالي.

خَلَفَهُ وَلَدُهُ مُحَمَّدٌ فسَلكَ طريقتَهُ، وزاد بصُحْبَةِ المشايخِ والفُقراءِ والأخذِ عنْهُم، له اشتغالٌ في الفِقْهِ والنَّحْوِ واللُّغَةِ، ومَعَ ذٰلك تَراهُ كَأَنَّهُ أحدُ التُّرابِيَّةِ(١)، أعانَهُ الله ووفَّقَهُ.

وكانتْ وفاةُ أخي مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شهرِ جُمادَى الأُولَى سنةَ خمسٍ وخمسينَ وسبعِمِئَة، ومولِدُه [١٥٤/أ] ليلةَ السَّبْتِ سَلْخَ شوَّالٍ سَنَةَ سبعِمِئَةٍ، تغمَّدَهُ اللهُ برَحْمَتِه، وأسْكَنَهُم فَسِيحَ جَنَّتِه، كما نَقَلَهُم مِنْ لِينِ المُهُودِ إلى ضِيقِ اللُّحُودِ.

فما أَعْظَمَ مُصِيبةَ فِرَاقِ الإخْوانِ! وقولي كانَ فُلانٌ وكانَ، ربِّ ارزُقني صَبْراً فلم يبقَ إلّا القليل، ومتِّعني بسَمعِي وبَصَرِي وكِلاهُما عليلٌ، واللهُ هو الباقي بعدَ كُلِّ خِلٍّ وخليلٍ:

لو أنَّ ما أبقَتِ الأيَّامُ مِـنْ جَسَدِي ... يكونُ فوقَ حُبَـابِ المـاءِ مـا غَرِقـا

---

(١) تَرِب الرجُل، أي: افتقر كأنَّه لصق بالتراب. «مختار الصحاح»: ترب.

أو كانَ في مُقْلَةٍ نامَتْ لَمَا انْتبَهَتْ   أو كانَ في لَهَواتِ النَّمْلِ[(١)] ما شَرِقَا

يا ربِّ، اعْتَرَتْنِي أسقامِي حتَّى نَحُلْتُ، وكرَّ عليَّ الجديدانِ حَتَّى ذُبْتُ، وازدَدْتُ وَهَناً وضَعُفْتُ لمَّا طَعَنْتُ، فإن سألْتَنِي: ما حالُكَ؟ قلتُ:

ما حالُ مَنْ أَبْلَتِ الأَيَّامُ جِدَّتَهُ[(٢)]   وخانَهُ ثِقَتَاهُ السَّمْعُ والبَصَرُ

وقلتُ أيضاً:

تَفَكَّرْتُ في خمسٍ وسَبْعينَ قَدْ مَضَت   مِنَ العُمْرِ لو مَرَّتْ على حَجَرٍ فَنِي[(٣)]
شَبابٍ وشِيبٍ واستلابِ مَحَاسِنٍ[(٤)]   زَهَتْ يا لها في وَقْتِها مِنْ مَحَاسِنِ
وقد سَلَبَتْ عَنِّي صَفِيَّ أحبَّتِي   وجارَتْ ولم تقبَلْ فِداً مِنْ خَزائِنِي
سلامٌ على الدُّنيا سَلامَ مُوَدِّعٍ   فَكَمْ جَرَّعَتْنِي مُتْرَعَاتِ[(٥)] الغَبَائِنِ[(٦)]

---

(١) لهوات: جمع لها، وهي اللَّحمة المُشْرِفَةُ على الحلق في أقصى الفم. «المصباح المنير»: لها.

(٢) جِدَّتَهُ: جَدَّ الشيء يَجِدُّ - بالكسر - جِدَّةً، فهو جديد، وهو خلاف القديم ونقيضُ الخَلِق. «المصباح المنير»: جدد.

(٣) في (أ) و(ب) كتب الشطر الأول من هٰذا البيت في سطر وحده، ثُمَّ يبدأ البيت الثاني بالشطر الثاني من هٰذا البيت كالآتي:

من العمرِ لو مرَّت على حَجَرٍ فني   ذهبن بِعَيشٍ أخضرٍ غير آسنِ

وفي (ب): «يابس» بدل «آسن».

(٤) في (ج):

ذهبن بعيشٍ أخضرٍ غير يابسٍ   شبابٌ وشيبٌ واستلابُ محاسنِ

(٥) تَرِعَ الإناء أي: امتلأ. «مختار الصحاح»: ترع.

(٦) غَبَنَهُ في البيع: خدَعَهُ. «مختار الصحاح»: غبن.

والمعنى الذي تصوَّره الشاعر: أنه يودِّع الدُّنيا التي جَرَّعَتْهُ غُصَص الغيظ المملوءة بالخداع والغبن.

ولمَّا كانَ في سنةِ ثلاثٍ وستِّينَ وسبعِمئةٍ في شهرِ شعبانَ تحامَلَ عليَّ الأعداءُ، وقَصَدُوا إتلافِي وإعدامِي! وكَمَنُوا لي في السَّحَرِ عند خُرُوجِي لِصَلاةِ الصُّبحِ، ورَصَدُونِي عند رَأْسِ الزُّقاقِ تحتَ دارِ سُلطانِ بنِ نِجادٍ، وكان في أَيَّامِ الصَّيفِ والمدينةُ خالِيةٌ مِنْ أكثرِ النَّاسِ، فخرجتُ على عادتِي وبِيَدِي مِصْباحٌ، وقَدَّرَ اللهُ أنَّ الغُلامَ تأخَّرَ عَنِّي في البيتِ، فكُنْتُ وَحدي.

فلمَّا خرجتُ من زُقاقِنَا وتوجَّهتُ إلى السُّوقِ سَمِعتُ خَلْفِي عَدْواً [١٥٤/ ب] شديداً، فلَمْ أَلْتَفِتْ إليه، وظَنَنْتُ أنَّه مارٌّ في الطَّرِيقِ، فعدا عليَّ وضَرَبَنِي في ظَهْرِي بسِكِّينٍ ضَرْبَةً عَظِيمةً، وَقَعْتُ بها على الأرضِ، ثُمَّ رَجَعَ مِنْ حيثُ جاءَ وظَنَّ أنَّه بَلَغَ مقصودَهُ، فَوَقَى اللهُ شَرَّهُ وعُتُوَّهُ، لٰكنَّه ظَلَعَنِي(١) وأَوْهَنَنِي، فَصِرْتُ لا أحمِلُ نَفْسِي إلّا بكُلْفَةٍ ومَشَقَّةٍ، وما دَفَعَ اللهُ كان أعظمَ.

ولمَّا تأخَّرْتُ بِسَبَبِها عنِ الصَّلاةِ في المسجدِ الشَّريفِ باقي شَعْبانَ وأكثرَ شهرِ رمضانَ المُباركِ شَكَوْتُ حالي وقَصَصْتُهُ على النَّبِيِّ ﷺ، فقلتُ:

إليكَ رَسُولَ اللهِ مِنْ عبدِكَ الذي ... تَعَوَّقَ عن مَغْنَاكَ مِنْ فَتْكِ ضَرْبَةِ(٢)

---

(١) ظلعَ الرجُل ظَلْعاً: أي غُمز في رجله ومشيه، وهو شبيه بالعرج. «المصباح المنير»: ظلع.

(٢) تنبيه: هٰذا البيت من شكوى المؤلِّف وما شابهه في هٰذه القصيدة من الغلوّ المذموم في الرَّسول ﷺ أو غيره. ولقد حذَّر النبيُّ ﷺ وذمَّ ونهى عن الغلوِّ في الدِّين. قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]. وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رجلاً قال للنبيِّ ﷺ: ما شاء الله وشئتَ، فقال: «أجعلتني لله عِدلاً؟! بل ما شاء اللهُ وحده». النسائي ٦/ ٢٤٥.

عُبَيــدُكَ عبــدالله جــارُكَ عُمْــرَهُ ... نزيلُــكَ لم يَــبْرَحْ مُؤَمِّــلَ عَطْفَــةِ
عليكَ رسـولَ الله أشكو مُـصِيبَتِي ... وشِـدَّةَ أهـوالٍ أطافَـتْ بِمُهْجَتِـي
أغارُوا عـلى نَفْسِي سُحَـيْراً بمُدْيَـةٍ ... لإتلافِ رُوحِي بَلْ وإِذْهَـابِ جُثَّتِي
يُريـــدُونَ أَنْ يُخْفُوا لِنُـــورٍ أَتَمَّهُ ... إلٰهي فما اسْطَــاعُوا فَبَـاؤُوا بِخَيْبَـةِ
شَكَوْتُ رسولَ الله ما قـد أصـابَنِي ... على غـيرِ ذنـبٍ بل عـلى نـشرِ سُـنَّةِ
أَحَلُّوا دَمِي يـا ربِّ أنـتَ حَسِيبُهم ... فَعَوِّضْــهُمُ يــا ربِّ كُــلَّ بَلِيَّــةِ
فـإنْ بَيـدِي تأخـذْ فَتِلـكَ عَقِيـدَتي ... وإلّا فيـا وَيْحِي وَوَيْلِـي وحَـسْرَتي
أَلَـسْتُ مُقِيماً في جِـوارِكَ سَـيِّدِي ... وقَـبْلِي أبي سـبعينَ عامـاً بِطَابَـةِ
أَتَرْضَى رسُـولَ الله مـا قَـدْ أصـابَنِي ... وَحَقِّـكَ مـا يُرضِـيكَ هاتيـكَ نِيَّتِـي
وحَقِّكَ قد عايَنْتُ حَتْفِي مَـعَ أَنَّنِي ... صَرِيعٌ عـلى وَجْهِـي وبـاهِي شَـيْبَتِي
أُقَلِّـبُ وَجْهِـي في جِهَـاتِ تَخَيُّلِي ... وليسَ سِـوى بـابِ الحَبِيبِ لِعِلَّتِـي
هُـوَ البـابُ للـدَّاعِينَ إنْ هُـمْ لِبَابِـهِ ... لَجَوا لـم يُصَبِّرْهُم ولا بعضَ سَاعَةِ
هُوَ البَحْـرُ يَجري كُـلَّ حـينٍ ودائماً ... لـجـــيرانِهِ بَــرّاً بِهِـــم ذا مَـحَــبَّةِ
دعوتُ دُعَـا عَبْـدٍ ضَعِيفٍ مُطعَّـنِ ... وراءَ حِجَـابِ قـد ثَـوَى بِمَـضَرَّةِ
لِيُطْلِـقَ أَقْـدَامِي فَأَسْـعَى بهـا إلى ... حَبِيبِـي الَّـذِي مَـنْ جـاهُ فـازَ بنعمـةِ
ألا يــا مُحِبِّــينَ الحبيــبَ مُحَمَّــدًا ... ومَنْ جَاوَرَ المُخْتَارَ في عِـزِّ خِدْمَـةِ(١)
عَـسَى أَنَّكُـم إنْ خِلْـتُمُ لي مَعَاهِـداً ... تَبَوَّأْتُهــا مُـــسْتَجْلِبَاتٍ لِرَحْـــمَةِ
ضَرَبْــتُم بِــسَهْمٍ في دُعَــائِكُمْ ولا ... يُنْـسِّيكم بُعْـدِي فَقَلْبِــي بِحَـضْرَةِ
وقُولُـوا: أَخُونـا رَبِّ عِيـقَ بِبَيْتِـهِ ... فأَمِنِّنـــا واقبلْـــهُ مَعْنَـــا بِمِنَّـــةِ

---

(١) في (ج): «نعمة».

لَئِنْ كنتُ قَهْراً قد تَأَخَّرْتُ عنكمُ ... فَقَلْبِيَ فيكُم شَاهِدٌ بِمَودَّتِي
عِراضٌ لها نَفْسي قَدِ اشْتَدَّ شَوقُها ... وحُقَّ لنفسي أنْ تُضَاعِفَ زَفْرَتي
مَعَالِمُ وَحي مُنْتَهَى الخَيرِ عِنْدَها ... فلا قُطْرَ في الدُّنيا إذاً كَالمَدِينَةِ
فَإِنْ تَذْكُروني في الدُّعَاءِ فذاكُمُ ... وإلّا سأَسْتَجْدِي صِحابِي بِمَكَّةِ
سلامٌ عليكُم مِنْ ضَعيفٍ مُضَرَّجٍ ... كَسِيرٍ عَضيبٍ[1] ذِي ضَنًى وصَبَابَةِ
بِطَيِّبِ طِيبٍ قد كَتَبْتُ حُرُوفَهُ ... لِيَسْرِي بِأَخْبَارِي إلى خَيرِ بَلْدَةِ
صَلَى الموتِ قد عاينتُهُ يا أَحِبَّتِي ... ولٰكن قُضِي في العُمْرِ تأخيرُ مُدَّتي
فَلِي أُسْوةُ الفَارُوقِ في ضَرْبَةٍ قَضَى ... وأُسْوةِ عثْمَانٍ شَهيدٍ بِطَيْبَةِ[2]
لَفُزْتُ بها في الفَائِزينَ وليتَها ... ولٰكنْ بَقَايا لانْتِهَاءِ مَنِيَّتي
فلا مُلْتَجَا لِلْمُلْتَجِينَ كَبَيْتِهِ ... سِوى المُصْطَفَى[3] لِلْمُلْتَجِينَ بَروضَةِ
لئنْ عاقَنِي عَنْكُم بَلائِي فَلَمْ أَحُجْ ... فذاكَ على قَلْبِي أَشَدُّ رَزِيَّةِ
[١٥٥/أ] فلا تَحْسَبُوا لي سَلْوةً عن جَلالِها ... سَأَسْعَى ولو سَحْباً على صَفحِ وَجْنَتِي
وقد زُرْتُها خمسينَ حجًّا وعُمْرَةً ... فما زادَنِي إلّا حَفِيلَ مَحَبَّةِ
فيا رَبِّ هَلْ لي عَودَةٌ في مَشَاعِرِ ... أُعِلُّ بها حِيناً مَحَاجِرَ مُقْلَتِي
أرى زَمْزَماً بَعْدَ الحَطِيمِ[4] وأهلِهِ[5] ... وميزابَ بيتِ اللهِ حتَّى بطوفةِ[6]
فأدعُو بِقَلْبٍ مُخْلِصٍ في مَقَامِهِ ... ومُلْتَزَمٍ مُسْتَعْطِفاً لِشَكِيَّتِي

---

(١) المَعْضُوب: الزَّمِنُ الذي لا حِراك به، كأنّ الزَّمانة عَضَبَتْهُ ومنعتهُ الحركة. «المصباح المنير»: عضب.

(٢) في (أ) و(ب): «بضربة».

(٣) تقدَّم الكلام على الالتجاء لغير الله.

(٤) الحَطيم: جدار حجر الكعبة. «المصباح المنير»: حطم.

(٥) في (أ) و(ب) و(ج): «وأهلها».

(٦) في (أ): «بطرفة».

لَعَلِّي أرى نَصْرِي قَرِيباً مُعَجَّلاً ... بِذاكَ لِيَ ادْعُوا أَنْتُمُ لي ذَخِيرَتي
ولي صِحَّتِي رَبِّي الكَرِيمُ يُعِيدُها ... فَتَقْوَى بها رِجْلِي على طَيِّ رُكْبَتِي
أقامُوا لِيَغْتالُوا بِلَيْلٍ عَدِمْتُهم ... أكانُوا فَلا كانُوا سُحَيْراً بِخَلْوَةِ
على غيرِ ما ذَنْبٍ أَظُنُّ أَتَيْتُهُ ... بلى لِيَ ذنبٌ أنَّنِي حِزْبُ شرعةِ
فأَصبَحَ مَسْرُوراً بما قَدْ أصابَنِي ... شَقِيٌّ معادٍ أو محاسِدُ نِعْمَتِي
لقد لَزِمَتْ نفْسِي لهمِّيَ لَوْعَةٌ ... فصارَتْ كَأَمْثالٍ لِلَازِبِ ضَرْبَةِ
وقد سَئِمَتْ نَفْسِي المَطاعِمَ كُلَّها ... فكالصَّابِ[1] أو كالصَّبْرِ تَسْرِي بِرِيقَتِي
وعَنْ مَضْجَعِي تَنْبُو[2] جُنُوبِي كأَنَّها ... على حَسَكِ السَّعدَانِ[3] في طولِ لَيلَتِي
عليكَ رَسُولَ الله مِنِّي تَحِيَّةٌ ... تَفُوقُ مَدَى الأَيَّام كُلَّ تَحِيَّةِ
عليكَ صَلاةُ الله ما حُجَّ بيتُهُ ... وما زارَ ركبٌ مُصْطَفَاهُ بِحُجْرَةِ
وآلِكَ والصَّحْبِ الكِرَامِ فَهَدْيُهُم ... بِأَنْوَارِهِ تَجْلَى دَياجِي الدُّجُنَّةِ[4]
أبو بَكرٍ الصدِّيقُ أَعْظِمْ بشأنِهِ ... وصاحبُهُ الفاروقُ شيخُ الصَّحابَةِ
وعُثْمَانُ ذو النُّورَيْنِ والعَلَمُ الرِّضا ... أخو المُصطفى عالٍ عَلِيٌّ لِنُصْرَةِ
وباقي كرام عَشْرَةٍ لِمَحَمَّدٍ[5] ... أعوذُ بِهِم مِنْ شرِّ كُلِّ مُصِيبَةِ[6]
[١٥٦/أ] علاؤُهم عِنْدِي يَحُلُّ مَضَايِقِي ... وحُبُّهُمُ أَلْقاهُ في لَحْدِ حُفْرَتِي

---

(١) الصَّاب: بتخفيف الباء: عصارة شَجَر مُرٍّ. «مختار الصحاح»: صاب.

(٢) نبا الشيء عنه: تجافى وتباعد. «مختار الصحاح»: نبا.

(٣) السَّعدان: نبتٌ هو من أفضل مراعي الإبل، ولهٰذا النبت شوكٌ يقال له حَسَك السَّعدان، يُضرب به المَثَل في الخُشونة. «القاموس»: حسك.

(٤) الدجنة: الظلمة. «القاموس»: دجن.

(٥) في (أ) و(ب) و(ج): «بمحمد».

(٦) الاستعاذة لدفع الشرور لا تكون إلّا بالله وحده.

وقُلْتُ(١) هٰذه الأبياتِ في فَضْلِ المدينةِ المُشرَّفةِ، والتَّشويقِ إلى سُكناها والإقامةِ بها، والدَّفنِ في بَقِيعِها، وجمعتُ فيها ما حَضَرَني من فَضَائِلها مِنَ الأحاديثِ الصَّحِيحةِ التي لا اختلافَ فيها، وسَمَّيْتُها «تَشْوِيقَ النُّفوسِ إلى نَصِّ العَروسِ»، فقلتُ: الحمدُ للهِ وليِّ التّوفيقِ:

بفضلِ إلٰـهٍ مالكِ المُلْكِ غافرِ ... مُقسِّم أرزاقِ العبادِ وقاهرِ
تقسَّمَتِ الأوطانُ بينَ المعاشرِ ... فكانَ نصيبي كابراً بعدَ كابرِ
مدينةَ خَيرِ الرُّسلِ مَهْبطَ وَحْيهِ ... سَقَاهَا إلهي ماطِراً بعدَ ماطرِ
ومَدَّ عليها وَبْلَهُ وسُيُولَهُ ... فَيَغْدَوْدِقُ الوادي بأُحْدٍ وحاجرِ(٢)
وتزهو تلاعٌ في العقيقِ بزَهْرِهَا ... وسَلْعٍ إلى السُّقْيا(٣) إلى سَفْحِ عائرِ(٤)
ووادي قَنَاةٍ(٥) يا لَهُ كَمْ بِهِ ثَوَى ... شَهيدٌ كَعبدِاللهِ والدِ جابرِ

---

(١) في (أ) و(ب) و(ج) زيادة: «والحمد لله ربِّ العالمين وهو حسبنا ونعم الوكيل» قبل «وقلت».

(٢) الحاجر: الأرض المرتفعة التي وسطها منخفض، وهو عَلَم على أكثر من موضع، أشهرُها: حاجر المدينة، غرب المسجد النبويِّ الشريف، وهو من المواضع التي كثُر تغنِّي الشعراء بها. انظر: «وفاء الوفاء» ٤/ ١١٨١، و«المغانم» ٢/ ٧٣٥.
وسمي النقّا لنقاوة هوائه وصفاء تربته من المكدِّرات، أمَّا حاجر ففيه حجارة. «معجم البلدان» لياقوت ٢/ ٢٠٤، «المعالم الأثيرة» ص٩٥.

(٣) هي سُقيا سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحرَّة الغربية في المدينة، كان رسول الله ﷺ يستقي الماء من بُيوت السُّقيا. وهي اليوم في الجنوب الغربي من محطة القطار. «المعالم الأثيرة» ص١٤١.

(٤) عائر: وهو جبل جنوب المدينة، وهو اليوم في طريق الهجرة. «وفاء الوفاء» ٤/ ١٢٦٢، «المعالم الأثيرة» ص١٨٦.

(٥) وادي قَناة: أحدِ أودية المدينة، يمرُّ بين المدينة وأُحُد، فإذا اجتمع مع بُطحان وعقيق المدينة كَوَّنت جميعها وادي إضم، وهٰذه الأودية الثلاثة تكتنف المدينة من جميع نواحيها. «وفاء الوفاء» ٣/ ١٠٧٤، «المعالم الأثيرة» ص٢٢٨.

وبئـرِ أريـسٍ مَـعْ قُبـاءَ ورُومَـةٍ(١)(٢) ... بها طِبْتُ في وقـتٍ مِـنَ الهَـمِّ شَـاغرِ
وفي خَيْفِ بُطْحَـانَ(٣) الـسَّعيدِ مَسَاجِدٌ ... تُرى بـينَ نَخْـلٍ كَـالنُّجُومِ الزَّواهِـرِ
دَعَـا المُصْطَفَى فيهـا فَفَـرَّ عُدَاتُـهُ ... وكانَت قلوبُ القَـومِ عنـدَ الحَنَاجِرِ
كَـريمُ مَقَامَـاتٍ تَجلَّت بِقَاعُهـا ... بهـا أَمْـنُ عَـاصٍ مِـنْ مُقِـيمٍ وزَائِـرِ
كَلِفْـتُ بهـا حَتَّـى أَلِفْـتُ جمَالَها ... وحَتَّـى بَـدَا مِنِّـي خَفِـيُّ الضَّمائرِ
وكانـتْ إلى الرَّاحَـاتِ ترتـاحُ مُهْجَتِـي ... وتَهْـذِي بِرَبَّـاتِ الخُدُورِ الـسَّوَاحِرِ
وأَلْهُو إذا وَقْتِـي خَـلا مِـنْ مُنغِّـصٍ ... بِـإِخْوانِ صِـدْقٍ نُزْهَـةٍ للمَحَـاضِرِ
فبَعْدَ الـصِّبا عِفْـتُ الهَـوَى ومِزَاجَـهُ(٤) ... وقُلْتُ: أيا نَفْسِي كَفَـى أَنْ تُكَـابِرِي
[١٥٦/ب] فنكِّبْ إذنْ عن عَـزَّةٍ وسُـعادِها ... وحاشَاكَ أَنْ تَهْوَى كَحِيـلَ المَحَاجِرِ
ودعْ عَنْـكَ لُبْنَـى واسْتِماعَ غِنَائِها ... وأَقْبِلْ عـلى الأُخْـرَى بِقَلْـبٍ وبـادِرِ
فلـو نَظَـرَتْ سُـعْدَى إليَّ تَعَجَّبَـتْ ... وقالت: بِمَنْ اِعْتَاضَ عَنِّي مُسَامِرِي؟
أَلم تَعْلَمِـي أَنِّي تَعَوَّضْـتُ طيبَـةً ... فـلا تَعْـرِضي لي يـا أُمَيمَـةَ عَـامِرِ(٥)

---

(١) في (أ) و(ب) و(ج): «ورامة».

(٢) بئر رومة: وهي بئر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد ورد ذِكرُها في الحديث النبوي «حفيرة المزني»، اشتراها عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتصدَّق بها على المسلمين. وهي معروفة شمال مسجد القبلتين بوادي العقيق. «معجم البلدان» ١/ ٢٩٩، «المعالم الأثيرة» ص١٣١.

(٣) الخَيْف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن ميل الماء. وبطحان: أحَد أودية المدينة الكبرى، ويأتي من حرَّة المدينة الشرقية فيمرُّ من العوالي ثُمَّ قرب المسجد النبوي، حتى يلتقي مع العقيق شمال الجمَّاوات. وهو أحد أودية المدينة الثلاثة. «معجم البلدان» ١/ ٤٤٦، «المعالم الأثيرة» ص٤٩-٥٠.

(٤) المثبت من (ب)، وفي بقية النسخ: «ومزاحه».

(٥) في (أ) و(ب) و(ج): «فلا تطمعي في العود يا أم عامر».

تبـدَّلتُ مِـنْ كُـلِّ البِـلادِ بِأَسْرِهـا ... بـلادَ رَسُـولِ اللهِ أَبْـرَكِ طَـاهِرِ
فما مِثْلَهـا عِنْـدِي شَـبيهٌ لِـذَاتِها ... سِوى مكَّـةٍ سَـادَتْ بِتَلْـكَ المَشَاعِرِ
فَـضَائِلُ صَـحَّتْ في الـصِّحَاحِ لِطَيْبَـةٍ ... فَخُـذْها بِقَلْـبٍ واسْـتَمِعْها لآخِـرِ
شَـهيدٌ لنـا أو شَـافِعٌ سَـيِّدُ الـوَرَى ... لِـصَبْرٍ عَـلى لَأْوَائِهـا المُتَكَاثِرِ
كَـذاكَ لِمَنْ وافَى بهـا مِثْـلُ ذَا لَـهُ ... لِيَهْنَـا بِوَعْـدٍ مِـن صَـدُوقٍ لِـشاكِرِ
وكَـمْ صَـحَّ في أخبارِهَـا مِـنْ فَـضَائِلٍ ... فَمِـنْ تُرْبِهـا للـدَّاءِ دَفْـعُ الـضَّرَائِرِ
حبَـاهَا بِمِثْلَيْ مَـا دَعَـاهُ لمكَّةٍ ... فجاوِرْ وطِبْ نَفْـساً بِهٰـذي المَفَاخِرِ
وذٰلك ضِعْفُ الـضِّعْفِ صِدْقٌ مُحَقَّقٌ ... فَكُـنْ قَانِعـاً فيهـا بِقُـوتٍ وصَـابِرِ
وكَـمْ مِـن كَرَامَـاتٍ تَجَلَّتْ لأَهْلِـها ... بلَفْـظٍ رَوَيْنَـا مُـسْنَدٍ مُتَـواتِرِ
فَمِـنْ سَـعْدِكُم يـا نَـازِلِينَ جِـوَارَهُ ... تَحَوُّلُ(١) حُمَّاها ونَفْـيُ الـمُـضَارِرِ
وطابَـتْ فما الـدَّجَّالُ يُهـوِي خِلالَهـا ... ولا مُجْرِمٌ إلّا ابْتُلِـيْ بالـدَّوائِرِ
ومَـنْ أهلَهـا بالـسُّوءِ قَـصْداً أرادَهُـم ... أُذيـبَ كَمِلْـحٍ ذَابَ وَيْـلٌ لِمَاكِرِ
ولمَّا أَنِ اخْتَـارَ المُهَيمِنُ حِفْظَـها ... حمَاهَا بِأَمْـلاكٍ شِـدادِ البَـوَادِرِ
فَمِـنْ عِزِّهـا أملاكُـهُ في نِقابِهـا ... تُـرَدِّدُ دجَّـالاً مُحَلًّى بِكَـافِرِ(٢)
وطَـاعِنُ طَـاعونٍ كَـذاكَ تَـرُدُّهُ ... وإنْ عَـمَّ تِطْوافـاً فلَـيسَ بِعَـابِرِ
[١٥٧/أ] وأَمَّنَ مِنْ خسفٍ ومن أنْ يُصيبَنا ... عَـذَابٌ وعُوفِينَـا بِقُـدْرَةِ قَـادِرِ
ومنهـا لِمجْذُوم دَوَاءٌ سِباخُـها ... فَخُـذْها كراماتٍ أَتَـتْ بِبَـشَائِرِ

---

(١) في (أ) و(ب) و(ج): «بتحويل».
(٢) في (ج): «ترد بها دجلا محلى بكافر».

وكـانَ إذا لَيْـلٌ سَـجَى قَـامَ داعِيـاً ... لأهْـلِ بَقِيـعِ الغَرْقَـدِ المُتَفَاخِرِ
فَيُهْـدِي إِلَـيهِم مِـنْ حَفِيـلِ دُعَائِـهِ ... ويـسأَلُ مَـولاهُ بإحْـضَارِ خَـاطِرِ
ووصَّى جَمِيـعَ النَّـاسِ طُـرًّا بِجَـارِهِ ... فقالَ: احْفَظُـوني أُمَّتِـي في مُجاوِرِي
وقـد قـالَ: مَـا مِـنْ ذَاكَ واللهِ أَبْتَغِـي ... مكانـاً لـدَفني مِـنْ جميعِ المَقَابِرِ
سِـوى هٰـذه يَغْنِـي بهـا تُـرْبَ طَيْبَـةٍ ... فـأكرِمْ بِـتُرْبٍ للرَّسُـولِ مُبَـاشِرِ
دَعَـا ودَعَـا حتَّـى دَعَـا في ثِمَارِها ... فـصارَ بهـا يَزْكُـو كَحَـائِط جـابرِ
كَـذٰلك في صَـاعٍ ومُـدٍّ دَعَـا لنـا ... فَيُـشْبِعُنا رُبْـعٌ وشَـطْرٌ لِـصَابرِ
وجَـا أنَّهـا تَنْفِـي الـذُّنُوبَ مُـصحَّـحاً ... وإطلاقُـهُ يحوي عَظِـيمَ الكَبَـائرِ
بهـا مَـسْجِدٌ لِلمُـصْطَفَى أيُّ مَـسْجِدٍ ... بـه حُجْـرَةٌ فيهـا الـدَّلِيلُ لحائرِ
صَـلاةٌ بـألفٍ يـا سَـعَادَتَنا بِـهِ ... فَوَائِـدُ طابَـتْ مَتْجَـراً لِمُتَاجِرِ
بـهِ مِنْـبَرٌ في رَوْضَـةٍ(١) وَسْـطَ جَنَّـةٍ ... عَلَـتْ يـا لهـا مِـنْ رَوضَـةٍ لِمُفَاخِرِ
ومِنْـبَرُهُ والحَوضُ تحتَ رِتاجِـهِ ... وهـلْ مِثْلُـهُ مِـنْ مِنْـبَرٍ في المَنَابِرِ
وحولَ ضَرِيحِ المُصْطفى قـد تَعَاقَبَـتْ ... ملائِكَـةٌ سَـبْعُونَ أَلْـفٍ مُظَـاهِرِ
ذكـرتُ قليـلاً مِـنْ فَـضَائِلِ طَيْبَـةٍ ... ومَـنْ رامَ حَـصْراً مـا يكـونُ بقَـادِرِ
ألا لا تَلُومُـوني فَـإِنِّي أُحِبُّهَـا ... فَكَـمْ خـوَّلَتْني مـا تَمَنَّتْ خَـوَاطِري
فَمِـنْ طِيبِهـا طِيـبي وأحْمَـدُ طِيبُهـا ... سِوَى البيتِ لا تَلْقَى لهـا مـن مُنـاظِرِ
أيـا عـاذِلِي عَنْهـا(٢) تأمَّـلْ جمالَهـا ... وأنـوارَ خـيرِ الخَلْقِ بـادٍ وحـاضِرِ

---

(١) في (أ): «به روضة مع منبر».
(٢) في (أ): «فيها».

[١٥٧/ب] سأَلْزَمُها دَهْرِي وأَحْكِي عُلُومَها ... وأَدْفَعُ عنها طاقَتِي كُلَّ جائرِ
وألْزَمُ داني صَحْنِها ورِحابِها ... وحُجْرَتِها والسِّرَّ خَلْفَ السَّتائِرِ
حَلَفْتُ يَمِيناً ليسَ في الكونِ مثلُها ... لأنَّ بِها قَبْرَ الشَّفِيعِ المُؤَازِرِ
فمرِّغْ بها خَدَّيْكَ حُبًّا لأَحْمَدٍ ... وقُلْ: يا حَبِيبي يا شَفِيعِي ونَاصِرِي
جِوارَكَ يا خيرَ البَرِيَّةِ أَرْتَجِي ... فَكُنْ لي مُجيراً عِنْدَ عَدِّ جَرَائِرِي
لِذُلِّي لِعِصْيانِي تَدَارَكْ بِنَظْرَةٍ ... فَعِنْدِي ذُنُوبٌ أَعْدَمَتْني بَصَائِرِي
فَظَنِّيَ إنْ حالي إليك شَكَوتُه ... تُجِيبُ بِيا لَبَّيكَ لَسْتُ بِكَاشِرِ
إلٰهي فَعُدْ يا رَبِّ بالعَفْوِ مِنَّةً[(١)] ... فَقَدْ رَجَفَتْ مِنِّي لخِوفِي بَوَادِرِي
وصلِّ على المُخْتارِ مِنْ آلِ هاشمٍ ... وآلٍ وصَحْبٍ في مَسَاءٍ وبَاكِرِ
أَخُصُّ أبا بكرٍ حَبِيبَ مُحَمَّدٍ ... وصاحِبَهُ الفَاروقَ مَاضِي الأَوَامِرِ
ولَيْسَ كعثْمَانَ الشَّهيدِ بِدَارِهِ ... ومَنْ كَعَلِيٍّ في قتالِ العَسَاكِرِ
زُبيرٍ وسَعْدٍ وابنِ عَوفٍ وطَلْحةٍ ... وبَعْدُ سَعيدٌ والخِتامُ بِعَامِرِ
فَعَفْواً وصَفْحاً يا كَرِيمُ بِحُبِّهِم ... فإنِّي غَرِيقٌ في ذُنُوبٍ غَوَابِرِ
مَدَحْتُكَ لا - واللهِ - غيرُكَ مَقْصَدِي ... وما هِبْتُ تَقْصِيراً[(٢)] لأَنَّكَ عاذِرِي
عُبَيْدٌ ضَعيفٌ عاجِزٌ بِكَ مُلْتَجِي ... غَرِيبٌ غَدَتْ أحبابُهُ في الحَفَائِرِ[(٣)]
وفي دارِ خيرِ الرُّسْلِ عندَكَ مولِدِي ... وفيها مُقَامِي لم أَحُلْ دَهْرَ داهِرِ

---

(١) في (أ) و(ج): «فيا ربِّ عد يا ذا الجلال بمنة».
(٢) في (أ) و(ج): «تقصيري».
(٣) في (ج): «المقابر».

وليَ قـدْ مَـضَى سَـبْعُونَ عَامـاً مُـصَانَةً ... تنيـفُ بِـسَبْعٍ طَـابَ ذَرْعـاً لِبَـاذِرِ
تخلَّلها خَمْــسُونَ حَــجًّا وعُمْـرَةً ... تنيـفُ بِـسَبْعٍ حَبَّـذَا مِـنْ ذَخَـائِرِ
وليَ نَـسَبٌ أَرْجُـو إليـكَ يجُـرُّني ... شَرِيـفٌ كَـرِيمٌ فَـاخِرٌ بعـدَ فَـاخِرِ
[١٥٨/أ] عَلَيكَ أُصلِّي يـا شَـفِيعاً مُـشَفَّعاً ... حَنانَيْـكَ مِـنْ مَـاحٍ مُقَـفٍّ وحَـاشِرِ
عليــكَ صَــلاةُ اللهِ بَــدءًا ومَــوْئِلاً ... عليــكَ سَــلامُ اللهِ مَــدَّ المَحَابِرِ
عليـكَ صَـلاةُ اللهِ جُهـدِي وطَـاقَتِي ... وبعـدُ فأفدِيـهِ بِـسَمْعِي ونَـاظِرِي
ويـا ربِّ فَـاغْفِر للجَمِيـعِ بجَاهِـهِ(١) ... وبِـاللُّطْفِ عَامِلْنـا ولُطْـفٍ مُثَـابِرِ
عـلى سُـنَّةِ المُخْتَارِ ثَبِّـتْ قُلُوبَنـا ... ولا تُخزِنَا فـي يومِ كَشْفِ الـسَّرائِرِ
فهـذي بِتَـشْوِيقِ النُّفُـوسِ وسَـمْتُها ... فـسارعْ إلى نـصِّ العَـرُوسِ وبـادِرِ

والحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمينَ حَمْداً كثيراً إلى يومِ الدِّينِ.

قال المؤلِّفُ رحمهُ اللهُ تعالى:

قد انتهى ما أَرَدْتُ إيرادَهُ عِظَةً لمن اتَّعظَ ودانَ، وتَسْلِيَةً لِمن يُظْلَمُ ويُهانُ، وتَعْزِيَةً لِمنْ لم يُعزِّهِ الحَدَثانِ، بقولِهِ: كانَ فلانٌ وكانَ، خَتَمَ اللهُ لنا بِخَيرٍ وأصلحَ حالَنا، وأَلَّفَ بين قُلُوبنا، وطَهَّرَها من الكِبْرِ والحَسَدِ والبغضاءِ التي تُفرِّقُ بين الأحبابِ، وتَفتَحُ من الشَّرِّ كلَّ بابٍ، بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ.

---

(١) سبق بيان التوسُّل المشروع، وأمَّا التوسُّل بجاه النبيِّ ﷺ فهو ممَّا لم يصحَّ فيه حديثٌ، ولم يفعله صحابة الكرام رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وكلّ خيرٍ في اتِّباع من سَلَف.

قالَ المؤلِّفُ: وكانَ الفَرَاغُ من تأليفِه في الحادي والعشرينَ(١) من شهرِ رمضانَ أحدِ شهورِ سنةِ سبعٍ وستِّين(٢) وسبعِمئة(٣).

---

(١) في (ج): «الحادي عشر».

(٢) تحرَّفت في الأصل إلى «سبعين»، وهٰذا خطأ ظاهر، فالمؤلف توفي سنة ٧٦٩هـ. وفي (ج): «أربع وستين» بدل «سبع وستين»، وهو محتمل أيضاً.

(٣) في آخر الأصل: «وكان الفراغُ من نَسْخ هٰذا التَّاريخ الميمونِ يومَ الأربعاءِ أحدَ عشرَ في شهرِ ذي القِعدةِ سنةَ ١٠٩٣هـ».

وفي (أ): «وكان الفراغُ من كتابة هٰذه النسخة المباركة يوم الاثنين المبارك رابع جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف، بقلم كاتبها الفقير إليه عزَّ شأنه جعفر ابن السيِّد حسين هاشم ابن السيِّد يحيى هاشم الحسيني المدني، غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولجميع المسلمين. آمين.

وفي (ج): «وتمَّ نسخ هٰذه النسخة المباركة على يد كاتبه لنفسه ولمن شاء الله من بعده أحقرُ العبيد وأقل الورى، أحد ساكني مكة أم القرى، الراجي لطف رب العباد، أبي الفيض وأبي الإسعاد عبدالستار ابن الشيخ عبدالوهاب الكتبي المكِّي، بلغه الله ما يتمنّاه، وجعل آخرته خيراً من أولاه».

الفهارس

فهرس الآيات

سورة الحشر

سورة الصف

سورة العلق

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس القوافي

(أ)

(ب)

(ت)

(ر)

فهرس الأماكن

(أ - أ)

(ب - ث)

(ج)

(ح - خ)

(د - ذ)

(ر - ز)

(س - ش)

(ص - ط)

(ع - غ)

(ق - ك)

(م - ن)

(و - ي)

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت - ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر – ز)

(س)

(ص)

(ط - ظ)

(ع - غ)

(ف)

(ق)

(ك - ل)

(م)

(هـ)

(و - ي)

فهرس المصادر والمراجع

١. **آثار المدينة المنورة**، عبدالقدوس الأنصاري، مجلة المنهل، جدة، ط٥، ١٤٢٠هـ. ١٩٩٩م.

٢. **الآداب الشرعية**، عبدالله محمد بن مفلح المقدسي، (٧٦٣هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعمر القيام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٣. **أحكام القرآن للشافعي**، جمع: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٤٥٨هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٤. **إحياء علوم الدين**، الغزالي (٥٠٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٥. **أخبار المدينة**، ابن زبالة، (١٩٩هـ)، جمع وتحقيق ودراسة: الدكتور صلاح ابن عبدالعزيز سلامة، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ط الأولى، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٦. **الاختيار لتعليل المختار**، عبدالله بن محمود الموصلي (٦٨٣هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط أولى، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٧. **أخلاق النبي ﷺ**، أبو الشيخ عبدالله الأصبهاني، تحقيق: صالح بن محمد الونيان، دار السلم، ط بدون، ١٤١٨هـ.

٨. **إرشاد الفقيه إلى معرفة أدلة التنبيه في فروع الشافعية**، ابن كثير (٧٧٤ هـ)، ضبطه

وعلق عليه: علي إبراهيم مصطفى، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط الأولى ٢٠١١م.

٩. **اقتضاء الصراط المستقيم**، ابن تيمية (٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية مصر، القاهرة، ط بدون، ١٩٥٠م.

١٠. **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، القاضي عياض (٥٤٤هـ)، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط أولى، ١٤١٩هـ .١٩٩٨م.

١١. **الأماكن**، محمد بن موسى الحازمي (٥٨٤هـ)، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ط بدون، ١٤١٥هـ.

١٢. **الأمثال**، لأبي الشيخ الأصبهاني (٣٦٩هـ)، تحقيق: عبدالعلي عبدالحميد، مطبعة الدار السفلية، الهند، ط بدون، ١٤٠٢هـ.

١٣. **إنباء الغمر بأبناء العُمر**، ابن حجر (٨٥٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٤. **الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء**، ابن عبدالبر (٤٦٣)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط بدون، ت بدون.

١٥. **الأنساب**، عبدالكريم بن محمد السمعاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط بدون ١٤٠٨هـ.

١٦. **إيضاح المكنون**، إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط بدون، ت بدون.

١٧. **البحر المحيط**، أبو حيان، تحقيق: مجموعة محققين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١هـ.

١٨. **البداية والنهاية**، ابن كثير (٧٧٤هـ)، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط٢، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١٩. **البدر الطالع**، الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط بدون ١٤١٨هـ.

٢٠. **بغية المرتاد**، شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: د. موسى بن سليمان الدويش، مكتبة العلوم والحكم، ط الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢١. **بغية الوعاة في طبقات النحاة**، السيوطي (٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ط بدون، ١٩٦٤م.

٢٢. **البلاغة الطربية أسسها وعلومها وفنونها**، عبدالرحمن حسن حبنّكة الميداني، دار القلم للطباعة والنشر، الدار الشامية للطباعة والنشر، بيروت، ط الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٢٣. **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه**، محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (٤٥٠هـ)، تحقيق: د. محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

٢٤. **تاج العروس**، محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسيني، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ط، بدون، ت بدون.

٢٥. **التاج والإكليل شرح مختصر خليل**، محمد بن يوسف أبو عبدالله (٨٩٧هـ)، دار الفكر، بيروت، ط بدون، ١٣٩٨م.

٢٦. **تاريخ ابن خلدون**، دار الفكر، بيروت، ط بدون، ١٤٠٨هـ.

٢٧. **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، د. حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٧، ١٩٦٤م.

٢٨. **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، الذهبي، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت، ط الأولى، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
٢٩. **التاريخ الكبير**، البخاري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط بدون، ت بدون.
٣٠. **تاريخ بغداد**، الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
٣١. **تاريخ دمشق**، ابن القلانسي (٥٥٥هـ)، تحقيق: د. سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٣٢. **تاريخ علماء الأندلس**، عبدالله بن محمد بن يوسف بن نصير الأزدي، (٤٠٣هـ)، تحقيق: د. روحية عبدالرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
٣٣. **تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً**، أحمد ياسين الخياري (١٣٨٠هـ)، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ط بدون، الرياض ١٤١٩هـ.
٣٤. **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، السخاوي (٩٠٢هـ)، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، المدينة المنورة، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
٣٥. **تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة**، زين الدين أبو بكر المراغى، تحقيق: محمد عبدالجواد الأصمعي، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ط٢، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
٣٦. **تذكرة الحفاظ**، الذهبي، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط١، ١٤١٩هـ.١٩٩٨م.

٣٧. **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، القاضي عياض (٥٤٤هـ)، بتحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط٢، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م. وطبعة أخرى بتحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط بدون، ١٤٣٠هـ

٣٨. **التعريف بما أنست الهجرة**، محمد بن أحمد المطري، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط بدون ١٤٠٢هـ.

٣٩. **تفسير البغوي**، البغوي (٥١٠هـ)، تحقيق: محمد عبدالله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

* **تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن**

٤٠. **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، ابن عبدالبر، (٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبدالكبير البكري، مؤسسة قرطبة، ط بدون، ت بدون.

٤١. **تهذيب التهذيب**، ابن حجر (٨٥٢هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٤٢. **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، أبو الحجاج يوسف المزي (٧٤٢هـ)، تحقيق: د. بشار عواد معروف مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

٤٣. **توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة**، ابن ناصر الدين الدمشقي، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط أولى، ١٩٩٣م.

٤٤. **التوقيف على مهمّات التعاريف**، عبدالرؤوف المناوي (١٠٣١هـ)، تحقيق: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط الأولى، ٢٠١١م.

٤٥. **الثقات من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين**، لابن حبان البستي (٣٥٤هـ)، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

٤٦. **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي (٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

٤٧. **الجرح والتعديل**، لابن أبي حاتم (٣٢٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٤٨. **جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد**، حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ط بدون، ت بدون.

٤٩. **جمهرة أنساب العرب**، ابن حزم (٤٥٦هـ)، القاهرة، دار المعارف، ط بدون، ١٩١٧م.

٥٠. **الجواهر الثمينة في محاسن المدينة**، محمد كبريت الحسني، تحقيق: عائض الردادي، مطبعة السفير، الرياض، ط بدون ١٤١٩هـ.

٥١. **حاشية الدسوقي على الشرح الكبير**، محمد عرفة، تحقيق: محمد عليش، دار الفكر، بيروت، ط بدون، ت بدون.

٥٢. **حاشية رد المحتار على الدر المختار**، ابن عابدين، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢١هـ.

٥٣. **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، عبدالقادر البغدادي (١٠٩٣هـ)، تحقيق: محمد نبيل طريفي، وإميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

٥٤. **الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين**، غالي محمد الأمين، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، ط بدون، ١٩٨٨م.

٥٥. **الدرة الثمينة**، ابن النجار (٦٤٣هـ)، تحقيق: د. صلاح الدين بن عباس شكر، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ط ١، ١٤٢٧هـ.٢٠٠٦م.

٥٦. **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، ابن حجر (٨٥٢هـ)، مطبعة دائرة المعارف، حيدر آباد الدكن، الهند، ط بدون، ١٣٥٠هـ.

٥٧. **دلائل النبوة**، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨ هـ)، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٨- ١٩٨٨م.

٥٨. **الدليل الشافي على المنهل الصافي**، جمال الدين بردى، فهيم محمد شلتوت، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط بدون، ١٩٨٣م.

٥٩. **الديباج المذهب في أعلام المذهب**، ابن فرحون (٧٩٩هـ)، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، دار التراث، ط بدون، ١٩٧٤م.

٦٠. **ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد**، محمد بن أحمد بن علي تقى الدين (٨٣٢هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٦١. **رحلة ابن جبير**، (٦١٤ هـ)، دار صادر، بيروت، ط بدون، ت بدون.

٦٢. **الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المصنفة**، الكتانى، تحقيق: محمد المنتصر محمد الزمزمي الكتانى، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٤، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٦٣. **روضة الطالبين**، يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ)، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٦٤. **الزهر النضر في أخبار الخضر**، ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، تحقيق: صلاح مقبول أحمد، مجمع البحوث الإسلامية، نيودلهي- الهند، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٦٥. **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط الأولى، ١٤٢٢ هـ-٢٠٠٢م.

٦٦. **السلوك الخلقي للمسلم**، د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، مطابع القوات المسلحة، التوعية الإسلامية بوزارة الدفاع والطيران، ط بدون، ت بدون.

٦٧. **السلوك لمعرفة دول الملوك**، المقريزي، مطبعة دار الكتب، ط بدون، ١٩٧٣م.

٦٨. **سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل**، عبدالملك بن حسين المكي، المكتبة السلفية، القاهرة، ط بدون، ت بدون.

٦٩. **سنن ابن ماجه**، ابن ماجه القزويني (٢٧٣هـ)، دار بن حزم، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٧٠. **سنن أبي داود**، أبو داود (٢٧٥هـ)، دار ابن حزم، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٧١. **سنن الترمذي**، الترمذي (٢٧٩هـ)، دار ابن حزم، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٧٢. **سنن الدارقطني**، عبدالله بن يحيى (٦٨٢هـ)، تحقيق: أشرف عبدالمقصود، دار عالم الكتب، الرياض، ط بدون، ١٤١١هـ.

٧٣. **سنن الدرامي**، الدرامي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمى، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولى، ١٤٠٧هـ.

٧٤. **السنن الكبرى**، البيهقي (٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط ١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٧٥. **السنن الكبرى**، النسائي، تحقيق: د. عبدالغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٧٦. **سنن النسائي**، النسائي (٣٠٣هـ)، دار البشائر الإسلامية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦م، مصور عن الطبعة الأولى بالمطبعة المصرية.

٧٧. **سير أعلام النبلاء**، الذهبي (٧٤٨ هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط ٧، ١٤١٠هـ.١٩٩٠م.

٧٨. **سيرة ابن هشام**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط بدون، ت بدون.

٧٩. **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، محمد بن محمد مخلوف (١٣٦٠هـ)، تحقيق: د. علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٨٠. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ابن العماد الحنبلي (١٠٨٩ هـ)، دار الفكر للطباعة والتوزيع، بيروت- لبنان، ط بدون، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م.

٨١. **شرح الزرقاني على الموطأ**، الزرقاني (١١٢٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط بدون، ١٤١١هـ.

٨٢. **شرح حدود ابن عرفة**، لأبي عبدالله الرصاع (٨٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الأجفان والطاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط الأولى، ١٩٩٣م.

٨٣. **شرح ديوان المتنبي**، عبدالرحمن البرقوقى، دار الكتاب العربي، بيروت، ط بدون، ١٤٠٧هـ.

٨٤. **شرح مقصورة ابن دريد**، الخطيب التبريزي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، ط الأولى، ١٣٨٠ هـ-١٩٦١م.

٨٥. **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، القاضي عياض(٥٤٤ هـ)، تحقيق: د. علي محمد البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٨٦. **الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية**، الترمذي (٢٧٩هـ)، تحقيق: سيد عباس الجليمي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط بدون، ١٤١٢هـ.

٨٧. **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: د. يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، ط الأولى، ١٩٨٧م.

٨٨. **الصحاح**، إسماعيل بن حماد الجوهري (٣٩٨هـ)، تحقيق: د. محمد محمد تامر وآخرين، دار الحديث، القاهرة، ط بدون، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

٨٩. **الصحاح**، للجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، الناشر بدون، ط بدون، ١٤٠٢هـ.

٩٠. **صحيح البخاري**، البخاري (٢٥٦هـ) دار ابن حزم، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٩١. **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج (٢٦١هـ)، دار ابن رجب، المنصورة، ط١، ١٤٢٢ هـ- ٢٠٠٢م.

٩٢. **الضوء اللامع**، السخاوي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط بدون، ت بدون.

٩٣. **طبقات الأولياء**، لابن الملقن (٨٠٤ هـ)، تحقيق: نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط الأولى، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، ط٢، ١٤١٥ هـ-١٩٩٤م.

٩٤. **طبقات الشافعية**، عبدالرحيم الإسنوي (٧٧٢ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط بدون، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٩٥. **طبقات الشافعية**، لابن قاضي شهبة (٨٥١ هـ) تحقيق: عبدالعليم خان، حيدر آباد، ١٩٧٨م

٩٦. **طبقات الشافعية الكبرى**، تاج الدين السبكي، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، د. عبدالفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٣هـ.

٩٧. **طبقات خليفة**، خليفة بن خياط، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، ط بدون، ت بدون.

٩٨. **العباب الزاخر واللباب الفاخر**، الحسن بن محمد بن الحسن الصّغاني (٦٥٠هـ)، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار الرشيد للنشر، العراق، ط بدون، ت بدون.

٩٩. **العبر في خبر من عبر**، الذهبي (٧٤٨ هـ)، تحقيق: محمد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط بدون، ت بدون.

١٠٠. **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تقي الدين محمد الفاسي، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦م.

١٠١. **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، بدر الدين العينى، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية للكتاب، ط بدون، ١٤١٠هـ

١٠٢. **عمدة الأحكام الكبرى**، عبدالغني عبدالواحد المقدسي (٦٠٠هـ)، تحقيق: سمير ابن أمين الزهيري، دار الثبات للنشر والتوزيع، الرياض، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٠٣. **عمدة الأخبار**، أحمد عبدالحميد العباسي، المكتبة العلمية، القاهرة، ط بدون، ت بدون.

١٠٤. **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، محمد بن عبدالله بن سيد الناس، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦م.

١٠٥. **غاية النهاية في طبقات القراء**، ابن الجزري، مكتبة المتنبي، القاهرة، ط بدون، ت بدون.

١٠٦. **غريب الحديث**، أبو عبيد، تحقيق: د. محمد بن المعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولى ١٣٩٦هـ

١٠٧. **الفتاوى الحديثية**، محمد بن عبدالرحمن السخاوي (٩٠٢ هـ)، تحقيق: علي رضا ابن عبدالله بن علي رضا، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، ط أولى، ١٤٦١هـ - ١٩٩٥م.

١٠٨. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ابن حجر (٨٥٢ هـ)، دار الريان للتراث، القاهرة، ط ١، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

١٠٩. **فتح العزيز بالتعليق على كتاب الوجيز**، عمرو عبدالمنعم سليم، دار الضياء، طنطا، ط الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م.

١١٠. **فصل المقال في شرح كتاب الأمثال**، أبو عبيد البكرى، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٧١م.

١١١. **فوات الوفيات**، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٧٣-١٩٧٤م.

١١٢. **قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة**، ابن تيمية، تحقيق: ربيع بن هادي عمير المدخلي، مكتبة الفرقان، عجمان، ط الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

١١٣. **القاموس المحيط**، الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط٦، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

١١٤. **قلائد الجمان في فرائد شعراء هٰذا الزمان**، كمال الدين أبو البركات المبارك بن الشعار الموصلي (٦٥٤ هـ)، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط الأولى، ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م.

١١٥. **قوت القلوب في توحيد علام الغيوب**، الحسن بن خالد الحازمي (١٢٣٤ هـ)، تحقيق: علي محمد أبو زيد الحازمي، دار الشريف للنشر والتوزيع، الرياض، ط الأولى، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م.

١١٦. **الكامل في التاريخ**، ابن الأثير (٦٣٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط ١، ١٤٠٧ هـ -١٩٧٨م.

١١٧. **كشاف القناع عن متن الإقناع**، للبهوتي (١٠٥١هـ)، تحقيق: هلال مصيلحي، ومصطفى هلال، دار الفكر، بيروت، ط بدون، ١٤٠٢هـ.

١١٨. **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الحنفي، دار الفكر، بيروت، ط بدون، ١٤٠٢هـ.

١١٩. **كنز العمال في سنن الأقوال والأعمال**، علاء الدين علي المتقي الهندي (٩٧٥هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

١٢٠. **اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة**، السيوطي(٩١١هـ)، خرّج أحاديثه

أبو عبدالرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ط الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

١٢١. **اللباب في تهذيب الأنساب**، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الجزري (٦٣٠ هـ)، دار صادر، بيروت، ط بدون، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

١٢٢. **لسان العرب**، ابن منظور، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط بدون، ت بدون.

١٢٣. **لسان الميزان**، ابن حجر (٨٥٢)، تحقيق: دائرة المعارف النظامية الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٣، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

١٢٤. **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**، أحمد بن عبدالله القلقشندي، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، ط ٢، ١٩٨٥م.

١٢٥. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، الهيثمي (٨٠٧هـ)، دار الريان للتراث، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان ، ط بدون، ت بدون.

١٢٦. **المجمع المؤسس للمعجم المفهرس**، ابن حجر (٨٥٢هـ)، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

١٢٧. **مجموع الفتاوى**، ابن تيمية (٧٢٨هـ)، تحقيق: أنور الباز، وعامر الجزار، دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٢٨. **المجموع شرح المهذب للشيرازي**، النووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط بدون، ١٤١٥هـ.

١٢٩. **المحكم والمحيط الأعظم**، علي بن إسماعيل بن سيده (٤٥٨هـ)، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.

١٣٠. **مختار الصحاح**، الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون. بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١٣١. **المدونة الكبرى**، الإمام مالك، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط بدون، ٢٠٠٤م

١٣٢. **المدينة المنورة في العصر المملوكي**، عبدالرحمن مديرس المديرس، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

١٣٣. **المدينة بين الماضي والحاضر**، إبراهيم بن على العياشي، مكتبة الثقافة، المدينة المنورة، ط أولى، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م ط٢، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

١٣٤. **المساجد الأثرية في المدينة المنورة**، عبدالغني، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، ط بدون، ١٤١٨هـ.

١٣٥. **مسند أحمد**، الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

١٣٦. **مسند البزار**، أحمد بن عمر البزار (٢٩٢هـ)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وآخرين، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٩٨٨م-٢٠٠٩م.

١٣٧. **مشارق الأنوار على صحاح الآثار**، القاضي عياض بن موسى اليحصبي (٥٤٤هـ)، خرج أحاديثه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

١٣٨. **المصباح المنير**، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت- لبنان، ط ١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

١٣٩. **المطلب العالي شرح وسيط الغزالي**، عبدالله بن حمد بن عبدالله الشبرمي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط بدون ١٤٣٢ هـ-١٤٣٣هـ.

١٤٠. **المعالم الأثيرة في الفقه والسيرة**، محمد محمد حسن شراب، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

١٤١. **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، محمد أحمد دهمان، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، دار الفكر، دمشق- سورية، ط الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

١٤٢. **المعجم الأوسط**، الطبراني (٣٦٠هـ)، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

١٤٣. **معجم البلدان**، شهاب الدين الحموي، دار صادر، بيروت- لبنان، ط بدون، ت بدون.

١٤٤. **معجم الشيوخ**، السبكي (٧٧١هـ) تحقيق: د. بشار عواد وآخرين، دار الغرب الإسلامي، ط الأولى، ٢٠٠٤م.

١٤٥. **معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية**، عاتق بن غيث البلادي، دار مكة للطباعة والنشر، مكان النشر بدون، ط الأولى، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

١٤٦. **المعجم الوسيط**، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، ط بدون، ت بدون.

١٤٧. **معجم لغة الفقهاء**، د. محمد رواس قلعه جي، د. حامد صادق قنيبي، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ط٢، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٤٨. **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، عبدالله بن عبدالعزيز البكري، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ.

١٤٩. **معجم معالم الحجاز**، عاتق غيث البلادي، بدون.

١٥٠. **المغانم المطابة في معالم طابة**، الفيروزآبادي (٨١٧هـ)، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٥١. **المغني**، ابن قدامة (٦٢٠هـ)، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

١٥٢. **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم**، أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٦٥٦هـ)، تحقيق:محيي الدين ديب مستو وآخرين، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، دار ابن كثير للطباعة والنشر، بيروت.

١٥٣. **المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة على الألسنة**، السخاوي (٩٠٢ هـ)، صححه وعلق حواشيه: عبدالله محمد الصديق، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط الأولى، ١٣٩٩ هـ- ١٩٧٩م.

١٥٤. **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**، ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط بدون، ١٤٠٣هـ.

١٥٥. **المنتقى شرح موطأ مالك**، سليمان بن خلف الباجي (٤٩٤هـ)، تحقيق: محمد عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

١٥٦. **منح الجليل شرح مختصر خليل**، محمد عليش، دار الفكر، بيروت، ط بدون، ١٤٠٩ هـ- ١٩٨٩م.

١٥٧. **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، تحقيق: نبيل محمد عبدالعزيز، الهيئة المصرية، ط بدون، ١٩٨٦م.

١٥٨. **المواعظ والاعتبار**، المقريزي (٨٤٥ هـ) دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

١٥٩. **مواهب الجليل شرح مختصر خليل**، الحطاب (٩٥٤هـ)، تحقيق: زكريا عميرات، دار عالم الكتب، طبعة خاصة ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

١٦٠. **الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية**، معلمة المدن والقبائل، عبدالعزيز بن عبيدالله، مطبوعات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، مطبعة المحمدية، الرباط، ط بدون، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م.

١٦١. **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، مطبعة سفير، الرياض، ط ٢، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٩م.

١٦٢. **الموضوعات من الأحاديث المرفوعات**، لابن الجوزي، مكتبة أضواء السلف، الرياض- المملكة العربية السعودية ط١، ١٤١٨هـ -١٩٩٧م.

١٦٣. **الموطأ**، مالك بن أنس، تصحيح وتعليق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط بدون، ت بدون.

١٦٤. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، جمال الدين الأتابكي، تحقيق: جمال الدين الشيال وفهيم محمد شلتوت، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ط بدون، ١٣٩٢هـ.

١٦٥. **نصب الراية لأحاديث الهداية**، جمال الدين عبدالله الزيلعي (٧٦٢هـ)، تحقيق:

محمد عوامة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة السعودية، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١٦٦. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، أحمد بن محمد المقري، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط بدون، ١٣٨٨هـ.

١٦٧. **النقود العربية**، د. محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط الأولى، ٢٠٠٥م.

١٦٨. **نهاية الأرب في فنون الأدب**، أحمد بن علي عبدالله القلقشندي (٨٢١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط بدون، ت بدون.

١٦٩. **النهاية في غريب الحديث والأثر**، مجد الدين بن الأثير الجزري (٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، بيروت، ط بدون، ت بدون.

١٧٠. **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، أحمد بابا التنبكتي(١٠٣٦هـ)، دار الكتاب، طرابلس - ليبيا، ط٢، ٢٠٠٠م.

١٧١. **نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى**، ابن فهد المكي، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، فرع موسوعة مكة والمدينة المنورة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٧٢. **الوافي بالوفيات**، صلاح الدين خليل الصفدي، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ط بدون، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

١٧٣. **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى**، السمهودي (٩١١هـ)، تحقيق: د. قاسم السامرائي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي فرع موسوعة مكة والمدينة المنورة، ط الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

١٧٤. **وفيات الأعيان وأنباء أنباء الزمان**، ابن خلكان (٦٨١هـ)، دار صادر، بيروت-لبنان، ط بدون، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م

١٧٥. **الوفيات**، لابن قنفذ القسنطيني (٨٠٩هـ)، تحقيق: عادل نويهض، دار الإقامة الجديدة، بيروت، ط بدون، ١٩٧٨م.

تم بحمد الله

دارة الملك عبدالعزيز
KING ABDULAZIZ FOUNDATION FOR RESEARCH AND ARCHIVES

ص ب : ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٠١١٩٩٩ - ٤٠٨١٦٣٦ فاكس: ٤٠١٣٥٩٧

P.O. Box: 2945 - Riyadh 11461 - K.S.A

Tel: 4011999- 4081636 - Fax: 4013597

www.darah.org.sa - email: info@darah.org.sa

مركز بحوث و دراسات المدينة المنورة
Al-Madinah Al-Munawwarah Research & Studies Center

المملكة العربية السعودية- المدينة المنورة ص ب : ٣٦٦٢

هاتف: ٨٢٤١٢٣١ - ٨٢٧٠٥٦١ - ٨٢٧٠٥٦٢

فاكس: ٠٢٥٢٨٦٣٤١

www.al-madinah.org

email: info@al-madinah.org